الفلسفة والحضارة

مدخل إلى التفكير الفلسفي والحضاري

" من العصور القديمة حتى الفلسفة "

" الحديثة والمعاصرة "

الأستاذ الدكتور

محمد محمود عبد الحميد أبو قحف

أستاذ و رئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب جامعة الزقازيق

٢٠٠٦ / ٢٠٠٧م

إهداء

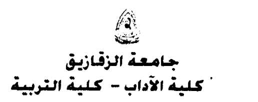
إلى : الضوء الشارد .. ،

إلى : السناء الشمس الساطع ،

إلى : من ملكت فؤادي وحياتي ،

زوجتي ،

محمد ،



جامعة الزقازيق
كلية الآداب - كلية التربية

مدخل إلي الفلسفة

مدخل إلي التفكير الفلسفي والحضاري .
من العصور القديمة حتى الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

أهداف الدراسة : في إطار تطبيق معايير الضمان والجودة :
[من الفصل الأول - حتى الفصل الخامس]

أولاً : دراسة الوعي الفلسفي بطبيعة التفكير الفلسفي والتفكير العلمي وآلياته وتطوره في العصر الحديث .

ثانياً : تتبع نشأة وتطور التفكير الفلسفي والعلمي عبر العصور وأثرة في التطور الحضاري الإنساني .

ثالثاً : تحقق الباحث في تحليل أهم مباحث التفكير الفلسفي في الوجود والمعرفة والقيم والعلوم الإنسانية .

رابعاً : دراسة بعض الشخصيات وأهمك القضايا الفلسفية في العصر الحديث وآثارها الفكرية والتطورات الحضارية .

خامساً : دراسة فلسفة الحضارة ، وحلقاتها المختلفة وأهمية التفكير الفلسفي في الحفاظ على القيم والمبادئ الحضارية والدينية والأخلاقية الإنسانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الطيبين الطاهرين " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب " صدق الله العظيم سورة آل عمران آية (٨) .

" وبعد "

مقدمة عامة

نتناول خلال هذا الكتاب أو هذا البحث بالتحليل والنقد والاستعراض التاريخي " الفلسفة والحضارة " ، كمدخل إلى التفكير الفلسفي والحضاري عبر العصور المختلفة وتطوره من العصور القديمة حتى الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ومثل هذه البحوث والدراسات هامة وحيوية ، وبصفة خاصة عندما يقوم الباحث بتوظيف طريقة جديدة من طرق البحث العلمي الحديث والمعاصر ، وهي كيفية دراسة الأفكار ، وما يسمى " بعلم دراسة الأفكار " . وذلك بالتعمق في بحث الأفكار الإنسانية وما يواكبها من منظورات حضارية وتحليلها ثم إعادة تركيبها مرة أخرى لاستخلاص نتائجها وتوجهاتها ومكانتها في مضمار الحضارات الإنسانية . فقد اتضح للباحث مدى التواصل والالتقاء بين الفلسفة والحضارة . في نطاق وعي الفلسفة بطبيعتها وماهيتها ومنابعها المختلفة بالإضافة إلى مباحثها الكثيرة ، المتداخلة في أعماق الإنسانية منذ فجر التفكير الإنساني ، إذ يخطئ كل من يتصور انفصالاً بين الفلسفة والحضارة كما لا يتصور انفصالاً بين التفكير الفلسفي والتفكير العلمي ، فحين تغيب شمس الحضارة في فترة وفي مكان ما ، فإننا نتيقن كذلك غياباً للفلسفة والتفكير الفلسفي ، وحين سطعت شمس الفلسفة اليونانية في العصور الأولى ازدهرت حضارة اليونان ، وظهر في تاريخ الحضارات ما يطلق عليه " الحضارة الهللينية والهللينستية " وبالمثل فإن حكمة أهل الشرق القديم في مصر ، وبلاد الرافدين في بابل وأشور وفارس وفي الهند والصين بالمشرق الأقصى ، لها أثرها الواضح في تطور الحضارات الشرقية والقديمة ، وقد كان للاشتغال بالفلسفة ، وممارسة التفكير الفلسفي على اختلاف توجهاته العلمية والعملية والميتافيزيقية أثره الواضح في ظهور الحضارة العربية والإسلامية . وقد نفض علماء ومفكري عصر النهضة الأوربية غبار العصور الوسطى ، حين

سيطر التفكير الديني الكنسي على عقول وتوجهات المثقفين ، وما كان يمثله من حجر على حرية التفكير ، وبدأت عقول المفكرين تتجه إلى البحث الحر والنظر الفلسفي الدقيق في الوجود والكون وعلاقة الإنسان بذاته وبالآخرين. ومحاولات سيطرة الإنسان على الطبيعة والبحث عما يضمن للإنسان حريته ، بدأ عصر جديد يبشر بحضارة أوربية حديثة ، تطورت عبر الاكتشافات ووسائل البحث الحديثة ، فأضحت علامة مميزة للحضارة الحديثة والحياة المعاصرة .

والفلسفة لها دورها في تطور الحضارة الإنسانية ، وتهذيب عناصرها ومكوناتها وتقويمها ، في اللغة والأدب والفنون والنظم والسياسة والاجتماع ، والأخلاق ، والمثل الروحية والدينية ، وقد نحا بالأئمة على الفلسفة مجموعة من فلاسفة الحضارة المعاصرين من أمثال ألبرت أشفيتسر ، وهوكنج ، وأشبينجلر ، وأرنولد توينبي ، فضلاً عن المؤرخ العربي المسلم عبد الرحمن بن خلدون ، حينما تخلت الفلسفة عن الحضارة ، ولم تستطع الفلسفة في فترات زمانية معينة أن تكون لها الحارس الأمين على الحضارة الإنسانية ، الأمر الذي أدى إلى ظهور ونشوب نزاعات وحرب عالمية كبيرة ، بالإضافة إلى الحروب الإقليمية المتعددة . فالفلسفة لها دورها في الحفاظ على المثل الروحية ، والقيم الأخلاقية والدينية ، وضمان حرية الفرد وإرادته الخيرة ، وعدم استهلاكه في الحياة كالآلة ، وشعوره بذاته وأنه إنسان لابد له أن يحيا ويعيش ، وهذا ما يشكل الضمان الحقيقي لاستمرار الحضارة وعدم تدهورها . وإذا كانت الديانات الإلهية تؤدي إلى تنمية وتقويم السلوكيات الحضارية لدى الشعوب المختلفة ، فإن الفلسفة والتفكير الفلسفي الذي يقوم على أصول عقلية ومثالية قادر على الموازنة والملائمة بين التقدم المادي والتطور الروحي والأخلاقي للحضارة الإنسانية ، فالدين والفلسفة لهما القوة على ضبط التوازن الفكري والمادي ، وإحكام السيطرة على التفكير العلمي حتى لا ينحرف إلى ما يؤدي إلى هلاك البشرية ، وضياع القيم والمثل والأخلاقيات ، لأن ضياع ذلك يعجل بزوال الحضارة . وهذا ما بشر به وأشار إليه أشبنجلر في كتابه " تدهور الغرب " .

كان للفلسفة وعيها الحضاري ، إذ تناول الفلاسفة والمفكرون عبر الحضارات والثقافات المختلفة عناصر المكونات الحضارية من لغة ، وآداب وفنون وعلوم طبيعية وإنسانية كالتاريخ والسياسة والاجتماع فضلاً عن الأحوال العامة والمختلفة ، بالدراسة والبحث والتحليل .

ولما كان ذلك ، كذلك ، فإن هذا الكتاب يتناول موضوعات وأبحاث كثيرة متشابكة . فلم ندع مجالاً من مجالات تدخل التفكير الفلسفي في مضمار التطور الحضاري إلا وأشبعناه

دراسة وتحليلاً ونقداً ومقارنة ، مستعرضين الجوانب التاريخية والأصول الحضارية وعناصرها ، ومثلها الأخلاقية والروحية .

<u>الفصل الأول</u>: وعي الفلسفة ـ طبيعة التفكير الفلسفي والتفكير العلمي.

فقد تناولنا بالتحليل كلمة الفلسفة ، ونشأة التفكير الفلسفي وتطوره ، ثم لماذا الفلسفة وما وظيفتها ؟ ونطاق وعي الفلسفة وغاياتها الحضارية ، وكذلك طبيعة التفكير الفلسفي ومنابعه المختلفة ، ثم أشرنا إلى طبيعة العلاقة بين التفكير الفلسفي والتفكير العلمي ، ونشأة فلسفة العلوم في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، وخصائص التفكير العلمي والفلسفي .

<u>الفصل الثاني</u>: نشأة التفكير الفلسفي وأثره في الحضارات الشرقية واليونانية والغربية .

وضحنا منذ البداية مكانة الفلسفة بين المفهوم الثقافي والحضاري، ثم تناولنا جوانب التفكير الفلسفي في الحضارات الشرقية القديمة (عند المصريين القدماء وفي الشرق الأدنى ، وبلاد الرافدين ، بابل وأشور وفارس ، ثم الشرق الأقصى متمثلاً في حكمة الصين ، وفلسفة الهنود ، ودياناتهم ، وأخيراً التفكير الفلسفي في الحضارة الإسلامية ، مستعرضين أصول الحضارة العربية والإسلامية والمدارس الفلسفية المختلفة ، ثم تناولنا خلال هذا الفصل كذلك ، التفكير الفلسفي والحضاري عند اليونان في العصرين الهلليني والهللنيستي ، ومجمل المذاهب والمدارس الطبيعية ، والفلسفة والإنسانية وعصر المدارس المتأخرة (الرواقية والأبيقورية) ومدرسة الإسكندرية الفلسفية والحضارية ، وقد استطعنا خلال هذا الفصل بمفردات مذاهب الفلسفة والحضارة من العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى الفلسفة الحديثة ، من حيث عناصرها ومكوناتها وأهم الشخصيات البارزة التي لعبت دوراً كبيراً في بلورة التفكير الفلسفي والأخلاقي والمثل الدينية والروحية ، والبدايات الأولى لعصر التنوير الحضاري .

<u>الفصل الثالث</u> : مباحث الفلسفة

لم يقتصر هذا الفصل على أهم مباحث الفلسفة بالتحليل والدراسة وهي مبحث الوجود (الأنطولوجيا) ومبحث المعرفة (الإيستومولوجيا) والقيم (الإكسيولوجيا) . فقط بل توسعنا لكي نشمل الفلسفة مباحثاً جديدة وثيقة الصلة بالتطورات الحضارية الإنسانية ، وذلك من خلال دور الفلسفة والتفكير الفلسفي في صياغة ، وبلورة الأفكار العلمية والعملية والتصورية والقيمية للعلوم الإنسانية في (التاريخ وفلسفة التاريخ ثم الفلسفة والسياسة وفلسفة الدين ثم فلسفة الأخلاق والدين بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، أو الأخلاق والقانون في الإطار الفلسفي ، يضاف إلى ذلك مشكلة المقولات بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، والأفكار الحضارية التي تبلورت من خلال التفكير الفلسفي والاجتماعي بين العلماء والفلاسفة) .

الفصل الرابع : الفلسفة الحديثة والمعاصرة (المقدمات والتطورات الخصائص وأهم الشخصيات) .

تناولنا خلال هذا الفصل عرضاً تحليلياً لأهم خصائص الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، بالإضافة إلى الاتجاهات المنهجية ، ثم نزعة الاستقراء التجريبي والنقدي ، والنزعة المثالية والعقلية ، وفي الفلسفة المعاصرة ، عرضنا بالتحليل والنقد لمذاهب : فلسفة الظاهرات (فلسفة الظواهر) ، ثم الوجودية وشخصياتها والفلسفة البرجماتية وممثليها ، بالإضافة إلى أصحاب المذاهب الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة ، ثم أشرنا إلى دور عدد من المفكرين والفلاسفة العرب والمصريين في فلسفة اللغة والوضعية المنطقية .

الفصل الخامس : فلسفة الحضارة .

ونعتبر هذا الفصل من الفصول المتممة والمكملة لهذا الكتاب ، إذ تناولنا بالتحليل التركيبي المستويات الحضارية ، وجوهر الحضارة وطبيعتها وأهدافها ، والعوامل المؤثرة فيسير الحضارة الإنسانية وعناصرها ، وانحلال الحضارة وتدهورها ، وعوامل استمرارها وبقائها ، من منظور فلاسفة الحضارة في العصر الحديث أو المعاصر ، وأهم هؤلاء ألبرت أشفيتسر ، وأرنولدتوينبي ، وأشبينجلر ، وهوكنج ، ويضاف إليهم المفكر والفيلسوف العربي عالم التاريخ والحضارة الإنسانية عبد الرحمن بن خلدون .

فقد تناولنا : حلقات في التاريخ الحضاري، ثم توضيح ما هي الحضارة وجوهرها ، وأدوار الحضارة ، من حيث النشأة والازدهار ثم التدهور والانحلال مثل الكائن العضوي ، ثم مظاهر الحضارة وعناصرها ، وأخيراً مستقبل الحضارة الإنسانية ، وعوائق ازدهارها ونموها ، ثم توضيح أهم العوامل التي تساعد على بناء الحضارة وتطورها ودوامها ، ولعل ذلك يكمن فيما وضح فلاسفة الحضارة المعاصرة في الحفاظ على القيم والمثل الأخلاقية والروحية الدينية ، وضمان استقلال الفرد وحرية الإرادة الخيرة ، وعدم سطوة الإدارات الحاكمة أو مصادرة الحرية وعدم تخلي الفلسفة عن الحضارة ومساراتها ، وأن تصبح الفلسفة هي الحارس الأمين عليها .

ومن خلال ذلك كله ، تتضح مدى الصلة الوثيقة بين التفكير الفلسفي، والحضارة الإنسانية ، فلا سبيل للحفاظ على الحضارة الإنسانية إذا ما تدهورت الأخلاقيات ، والمثل والأديان والنزعة الروحية وتقدير الإنسانية ، وأن يحيا الإنسان ، لأنه يمثل فكرة الإنسانية .

وأخيراً :

فإننا بهذا البحث نكون قد أكملنا حلقة التفكير الفلسفي والحضاري عبر العصور من القديم حتى الوقت الحاضر، وقد وصّلنا ما انقطع بين الفلسفة والحضارة ، وسبحان الله العظيم له الكمال وحده .

(وندعو الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

ـ طنطا ليلة السبت الموافق ، ٢يونيو ٢٠٠٦ م

جمادي الأولى ١٤٢٧ هـ

دكتور

محمد محمود عبد الحميد أبو قحف

" الفصل الأول "

" وعي الفلسفة "

" طبيعة التفكير الفلسفي والتفكير العلمي "

الفصل الأول

وعي الفلسفة
طبيعة التفكير الفلسفي والتفكير العلمي

تمهيد : -

اختلف الباحثون والمفكرون والفلاسفة حول " كلمة الفلسفة " ، بل والتفكير الفلسفي وصلته بالتفكير العلمي على مر العصور قديماً وفي العصر الحديث . إذ لم نقف على تعريف محدد وقاطع بشأن الفلسفة من حيث مدلول الكلمة ، ومعناها ، لغة واصطلاحاً ، اللهم إلا إذا كان فلاسفة اليونان القدماء ، قد وضعوا بعض التعريفات وحددوا بعض المدلولات اللغوية أو الاصطلاحية التي تناسب عصورهم وتطور فكرهم العقلي والحضاري ، فقط ، لكن الفلسفة حدث لاصطباغ الفلسفة والتفكير الفلسفي بالصبغات الحضارية ، والأيدولوجيات المختلفة ، بمرور الزمان والحضارات ، والتوجهات من ناحية ، ومدى الصلة الوثيقة بين الفلسفة أو التفكير الفلسفي وبين الحياة العملية وما تشمله من نظريات علمية ودينية وثقافية .

فالفلسفة والتفكير الفلسفي لون أصيل من ألوان الحياة الفكرية والثقافية الإنسانية ، متداخلة في أعماق الإنسان تستلهم كل مشاعره ، واتجاهاته ، وعمله وفنونه ودياناته المختلفة .

ونحن بهذا الصدد نحاول أن نتناول هذه الدراسة التحليلية النقدية بطريقة منهجية مجردة ، لكي نجيب على كثير من التساؤلات التي تجول بأعماق فكرنا الحديث والمعاصر ، ولكي نقف على العديد من الحقائق التي يجب أن نتعرف عليها ، وهي :

ما هي الفلسفة ؟ وما معناها ودلالتها ؟ ما أهمية الفلسفة ، ومكانتها بين الدين ، والعلوم المختلفة ؟ وما طبيعة التفكير وما هي صلته بالأمور الحياتية والثقافية والحضارية ؟ ولم الفلسفة ؟ وكيف نشأ التفكير الفلسفي ، وتطوره وأثره في التطور الثقافي والحضاري للشعوب والأمم المختلفة في الشرق وفي الغرب ... وهكذا . ؟

أولاً : الفلسفة :

إن التتابع التاريخي للفلسفة قد يضع الباحثين والمفكرين في مأزق عميق وحيرة دائمة ، قد لا يستطيعون منه فكاكاً ، إلا إذا تتبع كل منهم أصل الكلمة ومدلولاتها

ومعانيها ، عبر العصور المختلفة ، لتطور الحضارات والثقافات والعلوم ، إذ لم يستطع أحد أن يفصل بين الفلسفة في مضمونها ومدلولاتها ، وبين محيط الحياة الثقافية والحضارية ، أو ما تشمله الحياة في تطوراتها المختلفة عبر العصور : من علوم وفنون طبيعية ، أو إنسانية ، فقد ثبت تداخل الفلسفة والتفكير الفلسفي في العلوم الاجتماعية والتي لها صلة مباشرة بحياة الفرد والجماعة ، من سياسة واقتصاد وتشريع وقانون وتاريخ ، فضلاً عن الفنون والآداب وغير ذلك .

وعلى ذلك فيجب علينا هنا تتبع هذا التطور والتدخل التاريخي للفلسفة والتفكير الفلسفي ، حتى تتضح لنا الصبغة الحضارية التي تميزت بها الفلسفة ، وأثر هذا التفكير الفلسفي على جوانب الحياة الإنسانية بصفة عامة ، ولكي نخرج كذلك من المدلولات الخاصة للفلسفة إلى المحيط العام والكلي والشامل .

١ - المعنى اللغوي للفلسفة :-

عرفت كلمة " الفلسفة " أول ما نشأت عند اليونان أنها " محبة الحكمة " وليست هي " الحكمة ذاتها " - لأن الحكمة من خصائص الإله فقط ، ولذلك وجدنا فيلسوف يوناني مثل فيثاغورث يشير إلى أن الإله هو الحكيم أما الفيلسوف فهو المحب للحكمة [١] .

لذلك تنقسم الكلمة إلى جزأين : فيلو : Philo ومعناها محبة ، وسوفيا : Sophy ومعناها : الحكمة .

لكن الاقتصار على هذا التعريف : بأن غاية الفيلسوف - والفلسفة - محبة الحكمة ، قد يخرج بعض التيارات الفكرية أو الجدلية الأخرى عن دائرة الفلسفة والتفكير الفلسفي ، مثال ذلك : الجدل ، وهو خاصة من خصائص الفلسفة ، ولا سيما عند السوفسطائيين ، فإذا اقتصرت الفلسفة على هذا التعريف " محبة الحكمة " فقط ، لمدلوله اللغوي ، خرج السوفسطائيون ، أو غيرهم ممن يصطنعون المنهج الجدلي عبر العصور المختلفة عن دائرة الفلسفة ، والتفكير الفلسفي ، لأن الجدل لذات الجدل ، وليس لذات الحكمة مثلاً ، يضاف إلى ذلك " الشك " على أنواعه المختلفة المنهجي ، والمذهبي والإعتقادي ، فقد لا نشعر بشيء من الحكمة ، أو محبة الحكمة ، في هذه الأنواع من الشك .

---

١ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - (صـ ٢٢) ط بيروت ، حديثة بدون تاريخ .

لكن الفلسفة على تطور مراحلها التاريخية ، لم تقف عند الحدود اللغوية الضيقة ، بل خرجت الفلسفة من الخاص ... إلى العام ، أو من المحدود إلى النطاق الكلي الشامل واللا محدود ، وضربت في الآفاق البعيدة ، اقصد فيما وراء الطبيعة " الميتافيزيقا " ونظرت في عالم الصور والماهيات ، والمثل ، والمفارق ، فضلاً عن النظر في المحيط من الطبيعيات والوجود المشاهد المرئي وما يحتويه من كائنات وحياة ، وعلوم واجتماعيات وفنون .

وهذا ينقلنا مباشرة إلى استجلاء المعاني والمدلولات الاصطلاحية للفلسفة ، على مر العصور ، ومن جوانب التفكير المختلفة .

٢ - المعنى الاصطلاحي للفلسفة :

اتخذت الفلسفة مدلولات ومعاني اصطلاحية كثيرة ، تغيرت وتطورت عبر العصور ، ولدى المفكرين والعلماء والفلاسفة على اختلاف مذاهبهم ، ومآربهم ، وأصبحت المدلولات الفلسفية ، خاضعة طبقاً لوظائفها واهتمامات المشتغلين بها . " وكأن الفلسفة تشير إلى وظيفتها الأساسية وهي التمرد الدائم الذي تتميز به من حيث منهجها ، من حيث قضاياها ، ومساراتها ومعيارها ، وما دام الشك من أسس التفكير الفلسفي ، فسوف لا نرى مع الفلسفة بالاستقرار على وجهة أو نظرة واحدة ، أو محددة ، كذلك فإن الوعي العقلي وهو معيار التفكير الفلسفي ، دائما في تدرج ، وصفة الثبات غير متوافرة بالنسبة للفلسفة " [1] .

وعلى ذلك فمن التعريفات الاصطلاحية " أن الفلسفة تعني البحث عن الحقيقة " وهو قاسم مشترك في معظم التفكير الفلسفي ، فالبحث عن الحقيقة يعتبر معنى من معاني " محبة الحكمة " فالدافع إلى البحث عادة محاولة التكيف بالقضايا المعاصرة للفيلسوف أو المفكر ، والبحث عن الحقيقة لأنه لها آثار تظهر على المستوى العقلي والاجتماعي والسيكولوجي .

فالعقل عندما يحاول دراسة ما حوله من قضايا الوجود والميتافيزيقا يدرس وهو على ثقة بأنه يؤدي وظيفته ، والفلسفة تمنحه الحرية في مباشرة ذلك ، كذلك فإن المفكر يحاول أن يوجد الصيغ الاجتماعية والنفسية الملائمة للقضايا التي تحيط به وبصفة خاصة حينما ينتاب الفرد القلق والألم ، أو يندهش مما يدور حوله ، فإذا استطاع

---

١ دكتور محمد الفيومي ، التطور التاريخي لمعنى الفلسفة - ص ٢٠ ط مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٩ م .

الفيلسوف أو المفكر التوصل إلى ما يفسر ذلك ، فإنه يشعر بالسكينة وعدم القلق ... الخ

وإذا كانت الفلسفة تبغي دائماً البحث في " المطلق " وهذا ما أشار إليه الفيلسوف اليوناني " سقراط " في منهجه (1) . أو البحث عن الماهيات لتحديد المعاني والمفاهيم ، أو البحث فيما ينبغي أن يكون ، خاصة فيما يتعلق بالأخلاق ، وتحديد الألفاظ والحدود .. الخ ، فإن مثل هذه التوجهات الفلسفية قد تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مدرسة فلسفية إلى مدرسة أخرى ، بل ومن فيلسوف إلى آخر ، مما يعني نسبة المفاهيم والمواقف والمعاني ، فإذا تتبعنا تاريخ التفكير الفلسفي عبر المدارس الفلسفية المختلفة قديما وحتى العصر الحديث ، لا نكاد نقف على مفاهيم فلسفية محدودة أو مطلقة بشأن قضايا ، ومشكلات علمية أو اجتماعية ، أو فكرية ، أو حتى وجودية ، فالمدرسة الطبيعية الأولى في الفلسفة اليونانية ، يختلف الفلاسفة حول الجوهر المطلق للوجود ، وأصل الموجودات ، فطاليس (٦٢٤ ـ ٥٤٦) ق . م على سبيل المثال : رأي أن جوهر الوجود وأصل الموجودات هو الماء ، أما الفيلسوف الطبيعي الثاني أنكسميندريس (٦١٠ ـ ٥٤٧) ق . م وهو تلميذ مباشر لطاليس ، رأي أن (الماء) كجوهر للوجود لا يصلح ولا يعبر هذا العنصر عن فكرة المطلق المنشودة ، فذهب إلى أن اللامتناهي (الأبيرون) ، هو الذي يمثل فكرة المطلق للوجود ككل ، لأنه غير محدد ، وغير مرئي إلا من خلال المعطيات المختلفة ، بينما لم يتفق معهما فيلسوف آخر وهو أنكسمانس (٥٨٨ ـ ٥٢٤ (ق . م الذي رأي أن الهواء هو عنصر جوهر مطلق للوجود ككل ، لما للهواء من معاني ، ودلالات طبيعية وروحية وعقلية يعبر عن فكرة الجوهر المطلق المنشود ، ثم جاء هيراقليطس فأشار إلى (النار) كجوهر مطلق ، النار الأثيرية هي عقل الموجودات ، هذه النار الأثيرية لوجوس Logos الموجودات تقيد تعبر عن الانسجام الباطن للموجودات ، مصدر التغير والتطور المستمر ، وبذلك أخضع كل شيء في الوجود إلى التطور والتغير المستمر ، لإثبات ، ولا مطلق ، إذن (2) ثم تنتقل الفلسفة في نطاق (الطبيعة والمادة) إلى جميع هذه العناصر الطبيعية في بوتقة واحدة تعبر عن الكل المادي للوجود عند أنباذوقليس (٤٩٠ـ ٤٣٠ ق .م) حيث يشير إلى عناصر الموجودات الطبيعية كجواهر مطلقة وهي : الماء والهواء والنار

---

١ للمزيد ـ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، صـ ٥٢ .

٢ـ راجع المصدر السابق صــــ١٨ .

والتراب ، تعبر عن أربع ماهيات ، سارية في الموجودات هي : الرطوبة ، والبرودة ، والحرارة واليبوسه ، ثم ينتقل أنباذوقليس إلى إقرار مبدأين أساسيين للوجود ، هما : المحبة ، والكراهية أو التوافق ، والتفريق ، ثم يأتي فيلسوف طبيعي أخر ديموقريطس (٣٦١) ق . م فيقرر ما لمبدأ الذرة من أثر في الموجودات ، فأصل الموجودات هي الذرة ، أو الجزء الذي لا يتجزأ ، ومن هنا نجد أن التقليد الفلسفي الذي بدأ بالمادة ، والجوهر المادي ، يتطور لكن بتخلله مبادئ عقلية وروحية سارية في باطن الوجود ، والمعبر عنها بالماهيات الرطوبة للماء ، والبرودة للهواء ، والحرارة للنار ، واليبوسة للتراب ، والذرة التي تحوي بداخلها نواة الموجودات ، والتي تقوم بذاتها ، ثم يتطور هذا الفكر الفلسفي الطبيعي يتحول إلى مبدأين أساسيين ساري أثرهما في الموجودات ، والوجود ككل هما : المحبة ، والكراهية ، مبدأي الكون ، أو الفساد ، ثم يصعد هذا التفكير في مراحل الفلسفة الطبيعية الأولى إلى الوجود ككل ، فيصعد إلى فكرة (الواحد) .. أو الكل في الواحد ، المعبر عنه بوحدة الوجود ، وأن هذا الواحد هو الذي يجمع كل هذه المتفرقات - أو القوة المطلقة وراء هذا الوجود الطبيعي أو العقل المنظم لهذا الوجود ، عند انكساميندريس ثم يتطور هذا المفهوم الوجودي الطبيعي إلى فكرة الثبات في مدرسة بارمنيدس ، (٥٤٠ ق . م) ، ثم يتطور من خلال فكرة الثبات وعدم التغير إلى اكتشاف مبدأي الذاتية ، وعدم التناقص ثم قانون الثالث المرفوع ، وبذلك تم اكتشاف قوانين المنطق الأساسية ، والتي بنى عليها كبار فلاسفة اليونان أبتدأ من سقراط حتى أرسطو فلسفة - المعاني والماهيات ، واكتشاف " المطلق " والذي تطور بعد ذلك إلى اكتشاف ما يسمى " بالميتافيزيقا " ، أو ما وراء الموجودات .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن الحقيقة الفلسفية في رأي أصحاب المدارس الطبيعية الأوائل عند الإغريق - وبطبيعة الحال ينسب ذلك لدى الفلاسفة الماديين في العصر الحديث وعلى مرور العصور في مفهومها (حقيقة مادية) . [١]

ثم تطور ذلك عند سقراط إلى البحث في الحقيقة المطلقة ، أو في الوجود المطلق ، ويعتبر سقراط - قد درس قواعد البحث الميتافيزيقي في مجال الفلسفة والدين فيما بعد ، والتي تطورت بعد ذلك في مدرسة الإسكندرية القديمة [٢] بالبحث فيما بين الفلسفة والدين ، وإذا انتقلنا من المدارس الطبيعية إلى السقراطية ، إي أفلاطون (٤٢٧

١- للمزيد - المصدر السابق ، (مدارس الفلسفة الطبيعية عند اليونان) .

٢- - للمزيد - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـــــ ٦٢ حتى صـــــ ٢١٢ .

ـ ٣٤٧) ق . م نجد أن الحقيقة الفلسفية عنده تشير إلى " البحث عن مثال المثل " ، أو البحث عن عالم الماهيات ، التصورات ـ عالم العقول والمعاني ، عالم الحقائق الثابتة ـ عالم الجمال والخير بالذات ، والذي يعبر عنه بعالم " المثل " ، في مقابل عالم الطبيعة ، والوجود المادي ، وهو عالم الظلال والأشباح فأعترف أفلاطون بذلك ، بعالمين : في الوجود ، عالم المثل ، في مقابل العالم الطبيعي المادي الحسي المشاهد .

أما أرسطو : فالحقيقة الفلسفية ، عنده تكمن في (البحث عن الهيولي الأولى للوجود ـ ثم منها إلى الصور ، فالفلسفة عنده تجمع بين حقيقتين ، أو مبدأين هما : الهيولي والصورة ، أو بين الوجود بالقوة ، والوجود بالفعل ، والذي يتوسطهما أو يقوم على رأسهما عالم المحرك الأول ، الذي لا يتحرك .

وربما كان لهذا التردي الواضح للفلسفة (والتفكير الفلسفي بين المادة والصورة ، أو بين الواقع والخيال ، أو بين عالم الوجود الطبيعي ، وبين عالم الماهيات والمعقولات والصور والمعاني والمثال ، أثر كبير في بلورة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في الحياة اليونانية .

ومن الجدير بالذكر أن سقراط عندما كان يبحث عن الحقيقة المطلقة في مسار فكره الفلسفي ـ قد أرس قواعد البحث الميتافيزيقي في الفلسفة ، وجعل جزء كبيرا من هذا التفكير يتطرق في عصره وفيما بعده إلى البحث في الحقيقة الدينية والإيمانية أو الإلهيات . بالإضافة إلى ترسيخ القيم المطلقة والمبادئ الإنسانية الإلهية مثل : العدالة ، والمساواة ، وحقوق الإنسان والفضيلة ، وقد كان سقراط بهذه المبادئ وهذا المنهج مزعجا لفلاسفة عصره من الماديين والسوفسطائيين وغيرهم ممن وقفوا عند حدود المادة ، والوجود الطبيعي المادي فقط أو عند حدود إشباع اللذات والشهوات والإلحاد ، فقد شعر سقراط أن بداخله وازعاً إلهياً لإرساء مبادئ الفضيلة ، والحقيقة المطلقة وعدم الوقوف عند حدود الواقع المادي الضيق فتحمل الموت بالسم ، وقال " أنه ذاهب إلى أناس طيبين إلى جوار الإلهة الحقيقيين . . " [1]

يضاف إلى ذلك أن أفلاطون في بحثه عن " المثل " أراد أن يوازن بين الاتجاهات المادية في المدارس الفلسفية الطبيعية وبين ما ذهب إليه أستاذه سقراط ، في البحث عن الماهيات وعالم الحقيقة المطلقة " . وقد كان الموقف السياسي ،

١ـ راجع . أفلاطون ، محاورة فيدون (النفس) تحقيق دكتور نجيب بلدي ، د . علي سامي النشار (ملحق بكتاب الأفلاطونية) ط منشأة المعارف بالإسكندرية . ١٩٦١.

والاجتماعي والثقافي العام في أثينا في عصره ، يحتم عليه ذلك ، حتى لا يلقى مصير أستاذه سقراط بالموت ، وحتى لا يترك الفرصة للآخرين لكي يرتكبوا جريمة أخرى في حق الفلسفة ، فكان لسعة ثقافته ، أن استطاع صياغة نظريته في عالم المثل ، في قالب عقلي وأسطوري ، جمع بها بين ثقافتين عصرهما : ثقافته اليونانية العقلية التحليلية ، والثقافة الشرقية والدينية التي تميزت بالروح الأسطورية الغيبية .

أما أرسطو : الذي جمع في فلسفته بين الهيولي والصورة والوجود بالقوة والوجود بالفعل ، والذي يقوم عليهما فكرة المحرك الأول ، أراد أن يضفي شيئاً من القداسة ، والتكوين الفلسفي لمجريات الأمور السياسية في عصره ، تقصد تلميذه الإسكندر الأكبر الذي يمثل حجر الزاوية والقوة المحركة للجيوش اليونانية ، في الغزو ونشر ثقافة اليونان شرقاً وغرباً ، واعتقاده مع الإسكندر ، ضرورة سيادة الفلسفة والثقافة اليونانية ، على سائر الثقافات الأخرى التي تعتبر غاية للمحرك الأول في هذا الوجود .

ومما سبق نستطيع أن نخلص إلى : أن الفلسفة ، والتفكير الفلسفي ليس لهما معيار فكري ثابت ، بل يختلفان بأخلاق الفلاسفة ، والمفكرين عبر العصور ، وكما سنرى فيما بعد ، فالفيلسوف المادي يبحث في الحقيقة المادية ، والميتافيزيقي يبحث في الحقيقة الميتافيزيقية والفيلسوف الأخلاقي يبحث في الحقائق المعيارية ، وفلاسفة الأديان يبحثون في الحقائق الإلهية والدينية والإيمانية .

فالحقيقة في نطاق الفلسفة ـ غير ثابتة ، بل قد تتردد بين المطلق والمقيد ، أو بين الثابت والمتغير .

فالفيلسوف : وهو يبحث عن الحقيقة يهدف للوصول إليها بالمنطق ، والعقل متأثراً بالبيئة المحيطة به ، وثقافته ، فلا شك أنه يترك بصمات رؤيته العقلية أيضا .[1]

وإذا كانت الفلسفة اتجهت للبحث عن الحقيقة المطلقة ، فأنها أيضا بحثت في الحقائق المقيدة ، والمتغيرة ، فأنقسم التفكير الفلسفي : إلى ميتافيزيقي ، وطبيعي ، أو بين الميتافيزيقا ، والفيزيقا .

ومن هنا أصبح للفلسفة ، أو التفكير الفلسفي الدور الفعال ، والكبير في تناول قضايا الوجود برمته الطبيعي والميتافيزيقي ، بالإضافة إلى قضايا الواقع الحضاري الإنساني

١- راجع كذلك كتاب دكتور أمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - ط دار الثقافة للنشر ١٩٨٥ م .

من علوم ، وأديان وفنون وآداب ، وسياسة واجتماع وتاريخ واقتصاد ، وتداخل التفكير الفلسفي في تطوير وتنمية الثقافة الإنسانية على مر العصور .

٣- لماذا الفلسفة - ما وظيفة الفلسفة ؟ :-

الفلسفة ليست كما قال المازحون " إنها عملية بحث عن قط أسود لا وجود له في غرفة مظلمة " [1] لكن سوف يتبين لنا ، أن الفلسفة هي جهود العقل البشري للكشف عن نموذج الحياة المقدس ، ومعنى الحياة الأساسي ، وسوف نرى كذلك أن الفلسفة إن هي إلا جسر يصل بين الإنسان وعالمه الطبيعي والميتافيزيقي ، ويصل بين العلم والدين ، أو بين الدين والفضيلة ، تتصل الفلسفة بحياة الإنسان برمتها ، وتشب إلى الأمام مسرعة يتبعها العلوم المختلفة ، تعمل على التوفيق بين العقل ، والنقل ، أو بين التفكير العقلي ، والتفكير الديني ، تحدد معالم الطريق بين اليقين المعرفي وبين اليقين العلمي الناقص ، تعدو الفلسفة بالإنسان إلى حياة أكثر حكمة وعقلاً وسعادة .

الفلسفة في عرف المفكرين اليونان ، القدماء ، محبة الحكمة ، أو سعي إلى الحكمة فهي نظر كلي ، عقلي حر ، إلا أن ضرورات العصور والتطورات العلمية والاجتماعية تحتم تطبيق كل نظر عقلي حر تطبيقاً عملياً ، واقعياً ، وأن تكون المعرفة الخالصة ، لها علاقة دقيقة بالحياة اليومية ، والسياق الواقعي والاجتماعي ، ومن الإسفاف والإبهام أن نغفل حقيقة هامة وهي : أن كثيراً من العلوم المستقلة عن الفلسفة استطاعت البحث في مشكلات فلسفية عريقة ، وانتهت فيها إلى نتائج لا تستطيع الفلسفة أن تجهلها ، لذلك لا يمكن التمسك بالتعريف للفلسفة القديمة والذي يقيد السعي إلى الحكمة فقط ، لأن ذلك يؤدي بالفلسفة ، والفيلسوف أن يضرب في مجال بعيد عن الواقع العملي أو العلمي ، وما يشغل حياة الناس .

ولذلك فإن السعي وراء الحكمة ، ينطوي على النظر الكلي الشامل ويتضمن النقد والتحليل ، وعناصر التركيب المعرفي ، يكون ضرورياً في عصور تهيب بالفلسفة أن تقترب من واقع الحياة ، وبذلك تتابع الفلسفة أو النظر الفلسفي علوم العصر ، ويفسح المجال للتفكير والنظر الفلسفي لتناول المشكلات والقضايا المختلفة ، والإنجازات التقنية ، ويصبح للفلسفة ، كذلك موقفاً من المشكلات أو الأزمات الاجتماعية الإنسانية وفهمه لنفسه ومجتمعه وتاريخه ومصيره ، فمن منا ، أو حتى

١- دكتور زكي نجيب محمود - أعلام الفلاسفة (تأليف هنري توماس) المقدمة - صـ٣ - ط دار النهضة العربية ، ١٩٦٢م .

الفلاسفة - يستطيع أن ينكر عالمه الحسي ، والواقعي ، والعملي ، بنفس القدر الذي لا يستطيع أن ينكر حياته الذاتية ، والعقلية الخالصة ، إذ أقر كبار ومشاهير الفلاسفة القدماء والمحدثين - بواقع ومشكلات وقضايا الحياة العملية ، الاجتماعية والسياسية ، والأخلاقية ، مثال ذلك فلاسفة اليونان " سقراط ، أفلاطون ، وأرسطو) وهم في قمة تفكيرهم . العقلي والفلسفي ، قرروا حقيقة الوجود الطبيعي والاجتماعي والسياسي وما يموج به من مشكلات وقضايا ، الأمر الذي دفع سقراط أن يدافع عن الحقيقة ، ويثبت أهمية الفضيلة ، ويؤكد على أهمية حرية العقل والتمسك بالمبادئ ، وذلك لإصلاح أحوال الشباب الأثيني ، ضد تيارات التشكيك السوفسطائي ، وقصور الحياة على مجرد إشباع الملذات فقط دون تبصير الحقيقة ، وقد دعا إلى الاعتدال بنفس القدر الذي لم ينكر الحياة المادية ، كذلك أفلاطون ، عندما أكد على ضرورة توافر الحاكم الفيلسوف ، إذ أشترط أن يكون قادراً على إشباع حاجات الإنسان وأفراد المجتمع ، المادية ، والروحية .[1] أما أرسطو ، فلم يقف عند حدود التأمل والنظر الفلسفي أو العقلي فقط ، بل أمتد هذا النظر الفلسفي إلى وضع المنطق وقوانينه الثلاثة ، وحدد المقولات ، والأحكام والقضايا ، لإصلاح الفكر والعقل ، لاتقاء الوقوع في الأخطاء والمذلات الفكرية ، وتصحيح مسار البحث العلمي أيضا ثم أقترب من مشكلات الواقع ، حيث قسم الفلسفة ، إلى قسمين : عملي ، ونظري ، والقسم العملي : يبحث في العلوم التي لها صلة مباشرة بحياة الفرد والمجتمع العملية كالأخلاق ، والسياسة ، والتدبير المنزلي ، أو ما يسمى في العصر الحديث بالاقتصاد . وهذه العلوم الثلاثة تبحث في سعادة الفرد والمجتمع وطبيعتها ، وكيف يمكن الوصول أو التوصل إليها عملياً .

وبنفس القدر بالنسبة للقسم النظري ، وهي علوم أو مباحث تقع في إطار التفكير الفلسفي ، تبحث عن الحقائق المطلقة في الوجود الطبيعي والميتافيزيقي ، والرياضي ، وهو مبحث التصورات والمعاني الاستدلالية ، والاستنباطية ..[2]

وفي الفلسفة الحديثة نجد فيلسوفاً مثل هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) م ، عندما يضع تعريفاً للفلسفة في مقدمته لأصول فلسفة الحق ويقول " بأن عصرها معبراً عنه بالأفكار " لم يغفل صلة الأفكار بالواقع بصفة خاصة فيما يتعلق " بالتاريخ " لأن التاريخ ينظر إليه مليء بالأحداث والصور غير فارغ من مضمونه .

١- راجع أفلاطون - محاورات : الجمهورية - ترجمة حنا خباز ، ط دار القلم ببيروت ، ١٩٨٠ م

٢ راجع : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - ص ١١٢ وما بعدها (فصل أرسطو) .

فالفلسفة ، والتفكير الفلسفي كذلك ، لا يغفل المضمون ، كما لا يغفل الصور والمعاني ، ومجريات الأحداث والوقائع والعلاقات السلبية بينها .

وإذا كانت الفلسفة التي تعبر عن - التفكير الحر ، والسعي للحكمة ، والبحث عن الحقائق المطلقة ، والنظرة الكلية الشاملة ، لا يكون لها مجال بتطور العصور والحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية ، دون أن تتصل بهذا الواقع ، فقد تدارك الفلاسفة عبر العصور - وكما أشرنا - إلى هذه الحقيقة ، فاتصلت الفلسفة بهذا الواقع ، وعبرت عن أنقى صور التأمل في هذا الواقع ، إذ عندما يسأل الفيلسوف عن أي شيء - أو ينظر في أي مشكلة ، أو قضية ، فإنه يتطرق لذلك بنظرة خالصة ، مجردة عن كل غرض نفعي أو عملي ، بهدف الوصول إلى الحقيقة الخالصة المجردة .

وإذا كان بعض الفلاسفة في العصر الحديث ، أو بعض المحاولات والتيارات لدى البعض من العلماء والمؤرخين ، حاولوا تحويل النظر الفلسفي المجرد إلى الواقع العلمي والعملي ، وبذلك يجردون الفلسفة والنظر الفلسفي الحر الخالص من مضمونه ، فإن ذلك في نظري ورأيي لا يؤثر في الصبغة العامة والمفهوم الشامل لمضمون الفلسفة واتجاهاتها إذا ما قررنا ، واتفق في ذلك كثير من الفلاسفة والمفكرين المحدثين والمعاصرين بأن الفلسفة لم تكن ، ولن تكون وقفاً على طلب الحكمة لذاتها ، فقط ، بل تتصل بمفاهيم ومضامين الحياة كلها والواقع الإنساني والطبيعي ككل .

وفي ذلك توضيح لما وقع فيه كثير من المفكرين والباحثين والعلماء في الفكر الغربي أو العربي الحديث والمعاصر ، في محاولاتهم الفصل التام بين الفلسفة والعلم ، على أساس أن الفلسفة ضرب من الخيال ، والتأمل النظري الخالص البعيد عن الواقع والحياة العملية ، وعلى أساس أن الفلسفة لا تستطيع ملاحقة التطورات العلمية وقوانين الاختراع التكنولوجي المستمر ، فقد ذهب فرانسيس بيكون Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) م ، إلى ذلك في مقولته الشهيرة " العلم قوة " Science is a farce " ، وهو ما يعني ان العلم هو تزويد الحياة البشرية بالاختراعات الحديثة " ، بينما ذهب ديكارت Deocaret (١٦٥٠) م ، وفي مقاله عن المنهج ، إلى أن غرضه هو وضع فلسفة عملية في مكان الفلسفة النظرية القديمة بحيث نستطيع أن نجعل من أنفسنا سادة مسيطرين على الطبيعة مالكين لها ، يضاف إلى ذلك عبارات لكارل ماركس Karl

Marks والتي ذهب فيها " لقد اكتفى الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم تفسيرات مختلفة لكن المهم هو تغييره " [1].

ومثل هذه الأقوال تذهب بنا إلى تدمير الفلسفة ، تدميراً كاملاً ، إلا أننا نستطيع بأن نوضح بأن الفلسفة والتفكير الفلسفي ، فضلاً عن أسبقيتهما للتفكير العلمي، لأن الفكر دائما سابق على الوجود.

فإن نتائج العلم ونظرياته المختلفة تقع في نطاق التفكير الفلسفي ولا يبتعد العلم عن محيط الفلسفة ، لأن الفلسفة تتناول نتائج العلم ونظرياته بالتحليل والنقد ، والتوجيه والإرشاد إلى ما ينفع ويخدم الحياة العملية والأخلاقية . كذلك نبحث الفلسفة على العلل والأسباب ، وتحليل العلاقة بين الأسباب والمسببات ، وفي ذلك إرشاد وتوجيه لقوانين العلم ونظرياته ، كما أن المعايير والنسب ليست بعيدة عن النظر الفلسفي والعقلي أيضا ، ولعل التنبيه الدائم من جانب الفلسفة إلى طلب الحكمة ، والفضيلة ، ووجود الإله الواحد المطلق ، ومراعاة القيم والمبادئ وحقوق الإنسان ، والحياة يقف حائلاً أمام طغيان العلم ، وجنون الاختراع المفضي إلى التدمير للحياة ، أو المساس بالفضائل الخلقية ، وحياة التقديس الإنساني ، أن الفلسفة تقدم على الإيمان بأن ماهية الإنسان وثروته الحقيقية لا تكمن في إشباع الحاجات الضرورية ، ولا في أن يصبح هذا الإنسان هو سيد الطبيعة والكون ، ومسخرها ومالكها بل في قدرته على رؤية الموجود ، كل ما هو موجود ، وليست " الفلسفات الكبرى سوى مجموعة التجارب الكبرى عن الوجود في كليته كما أن الفلسفة في مضمونها ، هي : أن يرتسم في نفوسنا نظام الأشياء الموجودة في مجموعها " [2] .

أن حياة التأمل والنظر ، ليست حياة بشرية خالصة ، وإنما هي شيء يسمو فوق البشرية ، لأن في الإنسان نفسه شيئاً يفوق الإنسان ، ينظر ويتأمل ، يتفوق على الإنسان نفسه ، بما هو إنسان ، ويقدر ما ينغمس هذا الإنسان في أعماق الواقع اليومي والعملي ، بقدر ما يرتفع أيضا فوقه ليراه في كليته .

فالفلسفة ، أو بعبارة أخرى التفلسف - يشغل الإنسان في حياته وواقعة ، ماضية ومستقبلة أيضاً ، ومعنى التفلسف هو : البحث في ماهية الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها ببعض ، وليس يخلو إنساناً من هذا العمل وقتاً ما ، ويسوغ لنا أن نقول : " أن

---

١ دكتور - عبد الغفار مكاوي - لم الفلسفة - ص ٢٦ ط منشأة المعارف الإسكندرية - ١٩٨١ م .
٢- المصدر السابق - ص٢٦ .

كل إنسان عادي الفكر يتفلسف ، وكل الناس فيلسوف ، مع تفاوت فيما بينهم ، إلا من استعبدته الشهوات المادية " [١]

وكما ذهب هيجل Hegel- مرة أخرى فإن الفلسفة هي " المرحلة التي يصل فيها العقل الكلي (روح الشعب) ، إلى وعي بذاته ، لأنها لاتبني مجتمعاً من لا شيء ، ولا تخلف نظاماً من العدم ، والفلسفة هي التعبير عن روح العصر - بما يعني المؤسسات المختلفة مثل المؤسسات الاجتماعية - أخلاق الناس وآدابهم ، وشكل الحكومات ونظمها وغط فكرها ، أو الحياة الاجتماعية ككل بما فيها من علم وفن وديانات وعقائد .. الخ ، والفلسفة هي الزهرة المكتملة النمو ، هي الفكرة الشاملة للعقل في صورتها الكاملة ، وهي الوعي والماهية الروحية لجميع الأشياء ، هي روح العصر بوصفها حاضرة في ذاتها ، هي الكل المتنوع حين ينعكس في بؤرة واحدة ، في الفكرة الشاملة التي تعرف نفسها وتدرك ذاتها .. [٢]

المجتمع أو الشعب أو الدولة ، مثل الفرد ، الذي يقاس تقدمه أو تخلفه بالفكرة ، وبما لديه من مبدأ فلسفي ، وتقدم أي أمة من الأمم ، يشير إلى سمو فكرها ، أما تدهور الدولة وانهيار المجتمع فهو دليل على فساد الفكر الذي يقوم عليه ، لذلك يقول هيجل ، " الدولة المنهزمة تعبر عن مبدأ فاسد ، ومكر كاذب ، والدليل هو واقعة هزيمتها نفسها ، وانتصار الدولة يدل على صحة فكرها وإدانة للمبدأ الذي تمثله الدولة المنهزمة .. " [٣]

ومما سبق يتضح أن الفلسفة تؤثر في حياة الناس بشكل مباشر حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يسمعوا عنها قط ، فهي الفكر الذي يقوم عليه مجتمع ما ، إن فسد ، فسد هذا المجتمع " [٤]

ومع الصعوبات العديدة التي تكتنف تعريف الفلسفة ، وتقف أمام الوصول إلى تعريف محدد وقاطع بشأنها ، حيث يختلف معناها باختلاف المذاهب المتباينة ، فالتعريف القديم الذي يشير إلى أنها محبة الحكمة ، أو البحث عن المطلق ، يختلف عن التعريف الذي يقدمه المذهب التجريبي للفلسفة ، وهذا يرفضه المذهب المثالي

---

١ - أ . س . رابوبرت - مبادئ الفلسفة - ص٢ - ترجمة احمد أمين ، ط مكتبة النهضة المصرية - ١٩١٨ م .

٢ دكتور - إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - ص١١ ، ص١٢ - ط دار الثقافة للنشر - ١٩٨٥ م .

٣- المصدر السابق - صـ١٢ كذلك ينظر :

Hegel - lectures the History of philosophy p , ٤٤- ٥٨ . London ١٩٥٥ .

٤- المصدر السابق - صـ١٢ .

Idealism كذلك فإن التعريف الذي يقدمه الفيلسوف الهيجلي ، يرفضه الفيلسوف البرجماتي ، إلا أن هناك مفاهيم كلية ، وعامة ، وهامة وأساسية تلتصق بالفكر .. وبالتالي الفلسفة ـ صالحة ، قد لا يختلف بشأنها كثيراً معظم المفكرين والفلاسفة ، وبصفة خاصة إذا ما غيرت الفلسفة عن الحياة الإنسانية (العلمية والعملية) .

وبناءً على ذلك نجد الكثير من التعريفات والمواقف الفلسفية تتردد بين المفكرين والمؤرخين ، كلّ طبقاً لاهتماماته وتوجهاته وهذا الاختلاف والتردد بالنسبة للموقف الفلسفي ليس عيباً أو يشكل خطراً على الفلسفة ، أو التفكير الفلسفي ، بما قد يؤدي إلى إلغاء الفلسفة ، بل يزيد في رأيي من ثراء الفلسفة ، وتطور التفكير الفلسفي ، وتداخل الفلسفة والتفكير الفلسفي في الحياة والواقع العلمي والعملي بالنسبة للحياة الإنسانية البشرية على مر العصور ، ومهما اختلفت التوجهات ، وتباينت النظريات ، ووجهات النظر والاهتمامات والاكتشافات العلمية ، بل الفلسفة تكمن في باطن الأمور والأشياء ، كما أنها تحيط بظواهرها . حاضراً ومستقبلاً .

وهاهو شيشرون (١٠٧ ـ ٤٣ ق . م) [1] يخاطب الفلسفة ويقول " أيتها الفلسفة : أنت المدبرة لحياتنا ، أنت صديقة الفضيلة وعدو الرذيلة ، ماذا تكون حياة الإنسان لولاك " .

كذلك يذهب أحد أعلام الفلسفة البرجماتية الحديثة وليم جميس w . games . (١٨٤٢ ـ ١٩٠) م إلى أن الفلسفة ليست إلا رجلاً يفكر بقصد تحقيق المنفعة العملية التي ينشدها وكذلك ذهب ماركس Karl Markes (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) م إلى القول : بأن الفلاسفة قد دأبوا على تفسير العالم بطرق شتى ، لكن مهمة الفلسفة : هي العمل على تغيير العالم وتغيير النظم القائمة وتخليص الإنسان من الظلم ، وطغيان الخرافات " ومما لا شك أن للتيارات الفلسفية التحليلية ، والوضعية المنطقية ، ولوجودية ، والدينية التوفيقية بين الحكمة والشريعة ، أو الفلسفة والدين ، مواقفاً وتعريفات خاصة بها[2] .

أما فيما يتعلق بمجال الفلسفة ـ ووظيفتها ـ وهذا أيضا من خلال التفكير الفلسفي ، فلا يستطيع ، ولا يستطيع أحد أجحاف ذلك ، وبناءً على ما تقدم من تعريفات ،

١ـ شيشرون Cicero ـ خطيب وسياسي روماني (١٠٧ ـ ٤٣ ق . م) كان له الفضل في إخراج الفلسفة اليونانية في ثوب روماني .

٢ـ دكتور ـ إمام عبد الفتاح إمام ـ مدخل إلى الفلسفة ، صـ٢٢ ، صـ٢٣ .

ودلائل معرفية كثيرة ، حيث أن الفلسفة ـ والتفكير أيضا ـ متداخلان في أعماق الحياة الإنسانية أو البشرية منذ فجر الإنسان والبشر .

فالفلسفة ـ لون أصيل ، وليست مستقلة عن الفكر ، أو عن العمل ـ كما ذهب بعض الباحثين المحدثين [1] فالتفكير الفلسفي فرض نفسه على الإنسان قبل العلوم ، وسيظل كذلك بعدها ، وقد غير الفكر الفلسفي عن ذاته بقوة ، وتجدد دائم عبر القرون ، مثله في ذلك مثل الدين والعلم . وهذه الأمور الثلاثة : الفلسفة والعلم والدين متداخلة ، قد لا يستطيع أحدهم أن يستقل عن الأخر ، فلا الإيمان بالقلب يغني عن الفلسفة ، لأن المؤمن لا يكف عن التفكير والتساؤل بالعقل عما وراء الإيمان من مجهول أو غامض ، ولا العلم يغني عن الفلسفة ، لأن العلم قد يبيع نفسه لمصلحة طبقة من الطبقات ، وكذلك العقل . قد يطوع نفسه لأية مصلحة ، فمن يتخذ العلم كتعبير أوحد عن الوجود ويطوع العقل قضاياه وقوانينه لتحل محل الفلسفة ، فإنه يقع فريسة لذلك الاستعمال السيئ للعلم وللعقل معاً ، ولا بديل عن الفلسفة .

وقد تشكل الفلسفة ، بعض الصعوبات لدى كثير من الناس ، أو قد لا يتفهم البعض الأخر ماهية الفلسفة أو التفكير الفلسفي ، ولا يلقون بالاً كثيراً إلى المصطلحات والمعاني والمدلولات لكن مثل هذه الأمور لا تتفق مع الفهم الجيد للفلسفة وربما رجع ذلك إلى بعض الأسباب ، إذ أن الفلسفة مثلها مثل أي علم أخر ، لها مصطلحاتها ، ومفاتيحها ، ومدلولاتها ، ومما لا شك أن معرفة المصطلحات الفنية Terminology ، وبعض الأفكار الأساسية ، يساعد الفرد على معرفة الفلسفة ، وأنها مثل العلوم الأخرى ، التي لها مصطلحاتها الفنية ، وأفكارها الأساسية ، فلو لم يحسن الفرد إتقانها ، لا يتعلمها ، ولا يستطيع الإبداع فيها .

وعلى سبيل المثال علوم الطب أو الصيدلة ، والكيمياء ، والفيزياء وعلوم الأحياء والجيولوجيا ، والكوزمولوجيا بالإضافة إلى العلوم الإنسانية ، فالتاريخ والسياسة ، والاجتماع والقانون والأخلاق وغير ذلك تعتبر علوماً ومعارفاً صعبة وعسيرة أيضا على الذين لم يحسنوا إتقان مصطلحاتها ومفرداتها ومدلولات مناهجها ومعانيها .

فلكل علم مفاتيحه ، ومصطلحاته ، الفنية والتقنية فالفلسفة أيضا ، وإذ لم يحسن الفرد استخدام المناهج المناسبة في طريقة البحث في هذه العلوم ، لا يستطيع أن يتقن

١ـ دكتور محمد ثابت الفندي ـ مع الفيلسوف ـ صـ١٢ ، ط دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠ م .

تجاربه وأبحاثه ويتخبط بين الحين والآخر في نتائجه ، كذلك الفلسفة لها مصطلحات ، ومناهج يجب إتقانها ومعرفتها بدقة .

وكما ذهب الفيلسوف الألماني هيجل Hegel في تلخيص هذه الفكرة " إن الناس يشكون من غموض الفلسفة دون أن يحاولوا بذل الجهد في فهم مصطلحاتها الخاصة ، متعللين بحجة واهية ، وهي أنهم يملكون عقولاً قادرة على فهمها ، مع أنهم يسلمون بأنك لكي تتعلم صناعة الأحذية (أو أي صناعة أو مهنة) ، فلابد لك أن تتدرب على هذه الصناعة أو المهنة ، على الرغم من أنك تمتلك في يديك القدرات الخاصة ، وفي قدميك المقاس الخاص لذلك " (١)

ومن ناحية أخرى فإن الفلسفة - والتفكير الفلسفي يحتاج من الفرد أن يرتفع من المحسوس إلى اللا محسوس ، أو من الطبيعة المادية إلى الوجود اللامادي - أو الميتافيزيقي ، أو من الواقع الملموس إلى الفكر المجرد ، وهذا ما دفع الفيلسوف الفرنسي ديكارت ، (١٦٥٠ Descart) الملقب " أبو الفلسفة الحديثة " .. أن يفصل بين الفكر والوجود ، فجعل الفكر أولاً ، متقدماً على الوجود ، وجعل للفكر الركيزة الأساسية في إثبات الوجود المادي ، ثم الوجود الإلهي ، ثم وجود النفس المفكرة أي الإنسان المفكر والمعروف أن الإنسان أو الفرد ، لم يدرك منذ طفولته إلا الوجود المادي الحسي الواقعي من حوله ، ثم يتدرج بعد ذلك شيئاً فشيئاً في إدراكه أو تفكيره حتى يصل إلى التفكير المجرد ، حين يتساءل : عن معاني الوجود ، وماهية هذا الوجود ، ولماذا وجد ، ما هي القوى الروحية ، أو العاقلة أو الباطنة لهذا الوجود ؟ .. وهكذا .

فالتفكير المجرد لا يصل إليه الفرد إلا في مراحل النضج العقلي وقد تفاوت الأفراد في مستوى الإدراك العقلي بمستواه التحليلي ، والتركيبي أو التعليلي .. وقد تلعب الفروق والخصائص الفردية والاستعدادات الفطرية ، بالإضافة إلى البيئة أثراً فيه وقد لا يحدث ذلك بالنسبة للفلسفة والاشتغال بالفكر الفلسفي فحسب ، بل يحدث كذلك بالنسبة للفرد أو مجموع الأفراد في العلوم الأخرى .

مستوى الصعوبة أو السهولة ، بالنسبة للفلسفة والتفكير الفلسفي ، وكذلك بالنسبة للعلوم الأخرى لا يتوقف على عامل واحد ، بل على عدد من العوامل المختلفة ، فبالنسبة مثلاً " للسهولة " فقد يتساءل البعض : أليس لكل منا فلسفة خاصة ؟ أليس لكل

١- دكتور : إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة ، صــــ ٥٢ .

منا وجهة نظر ؟ ، أليس الإنسان إذن بالغاً ما بلغت درجة ثقافته فيلسوفاً بالفطرة ؟ وكل إنسان يمارس فلسفته الخاصة كل يوم في حياته .

نعم ، قد يكون لكل شخص سلوك خاص ، أو تفكير خاص يعبر عن شخصيته ، ووجهة نظره ، كذلك كل ما يقوم به الفرد ويمارسه في حياته ، يعبر بلا شك عن فلسفة خاصة ، به ، في مظهره وفي سلوكياته ، في حديثه ومعاملاته مع الآخرين ، وفي رسم صورة لمجريات الأمور من حوله ، والحياة المحيطة به بما فيها ، من معتقدات ، ونظم وقوانين ، ومعاملات وأعمال .. وهكذا ، لكن من ناحية أخرى ، نشير إلى أن مجموعة المعتقدات [illegible] التي يؤمن بها شخص ما أو مجموعة أشخاص ، ليست على المعنى الضيق الخاص (بالمعتقدات الدينية) فقط بل بالمعنى الواسع الشامل ، أيضا ، فمن مجموع هذه المعتقدات - (وجود الله ، وخلود الروح ، والحياة والموت ، وخلق الكون ، حادث أم قديم ، والخير والشر ، والصواب والخطأ ، كذلك المعتقدات الخاصة بالحياة السياسية ، مصل الديمقراطية ، والاشتراكية ، والدكتاتورية ، وحقوق الإنسان ، العدالة ، المساواة ، النمو ، التطور ، معتقدات أخرى خاصة بالطبيعة والكون ، والعلية ، أو السببية ، والغائية والإرادة والحرية ، والروح ، والجسم .. الخ [1] فكل إنسان بلغ ما بلغ من درجات ثقافية ومعرفية لديه المئات من المعتقدات ، والتي تثير التساؤلات الكثيرة ، التي هي بحاجة إلى تفسير ، وتوضيح ، وتحديد مواقف فلسفية ، والتي عادة ما يعبر الشخص عنها بلغته البسيطة .

يضاف إلى المواقف الفلسفية الخاصة ، مذاهب فلسفية لتشكل من حلول هذه المواقف الفلسفية ، وتسمى " بالفلسفة المذهبية " - Systematic Philosophy - إلا أن لغتها الفلسفية أكثر عمقاً وتحليلا ، وتصاغ من خلال المصطلحات والتعبيرات الفنية التي هي أكثر تجريداً ، والتي يجب أن يحيط بها الفرد الذي يشتغل بالفلسفة أو التفكير الفلسفي ، وإذا كانت الفلسفة المذهبية تقوم بفحص مجموع المعتقدات ، أو المواقف ، التي سبق الإشارة إليها ، لبيان الأسباب التي تقوم عليها ، وتشكل إطاراً فكرياً فلسفياً لكل معتقد من هذه المعتقدات ، فإن صياغة ذلك يكون من خلال مصطلحات مجردة وفنية ينبغي أن نتعلمها ، كمصطلح السببية Causality وكذلك العلية ، أو العلاقة بين الأسباب والمسببات ، أو العلة والمعلول ، وهكذا ، كذلك فإن الفيلسوف - أو صاحب المذهب الفلسفي ، يجعل تفكيره صريحاً ظاهراً ، بينما الفلسفة الخاصة بالفرد العادي قد

١- المصدر السابق - صت٥٥ ، صـــ٥٦ .

يكون ضمنياً كما أن الفيلسوف ، أو المذهب الفلسفي ، يقوم تفكيره على قواعد منظمة ، وبطريقة منهجية ، بحيث يصبح هذا التفكير الفلسفي يشكل نسقاً منظماً Systematic - في تفسير الكون ، أو الوجود برمته الفيزيقي - أو الميتافيزيقي ، وما يتعلق بمشكلات الوجود الإنساني ، ونظمه السياسية ، أو الاجتماعية والأخلاقية وغير ذلك ، أو ما يتعلق بمشكلات الحرية والإرادة ، والخير والشر ... إلخ

يضاف إلى ذلك أن المذهب الفلسفي ، بعد أن يتناول المشكلة ، أو القضية أي كانت تشكل حياة الإنسان والوجود بالتحليل والنقد ، يحاول إكمال النسق الفكري ، فيعمل على التركيب ، بل ويحاول الفيلسوف وصاحب المذهب الفلسفي " أن يصل إلى مركب واحد لكل المعارف والتجارب التي مرت بها البشرية ، فإذا كانت العلوم الجزئية ، تقتطع شريحة من الكون لتجعلها موضوعاً خاصاً لدراستها ، وتكتفي بذلك ، فإن الفلسفة تحاول أن تقدم صورة شاملة للكون ، وهذا ما يسمى بالوظيفة التركيبية للفلسفة " [1].

وتتطرق بنا هذه العبارة الأخيرة إلى تحديد " وظيفة الفلسفة " وأهمية التفكير الفلسفي في حياتنا .

إن وظيفة الفلسفة هي نقد الواقع القائم وتحليله ، وهذا الواقع الذي نقصده أشمل من الواقع الاجتماعي ، وليس هذا من مهمة الفلسفة الوحيد ، حيث أن التفكير الفلسفي تفكير حر ، تفكير في الكل ، لا ينفصل عبر الزمان أو المكان ، وحسب تعبيرات أفلاطون ، فإن تفكير الفلاسفة ليس جزئياً ، لأنهم يضعون الكل في اعتباراتهم ، فالمجتمع الجزئي لا ينفصل عن المجتمعات الكل ، البشرية في تاريخها الماضي والحاضر والمستقبل كما أن المعرفة التي يتناولها الفلاسفة بالتحليل تدخل في سيق المعرفة الشاملة ، وواقع الأشياء والقيم والنظم ، مرتبط بواقع كل شيء وكل قيمة وكل نظام على الإطلاق ، وليس يعني ذلك كذلك أن الفلسفة يمكن أن تصبح علماً كعلم الاجتماع أو فرعاً من فروعه ، أو أن يتحول إلى أيديولوجية ، لأن ذلك قد ينكر موضوعيتها وماهيتها كذلك ، أو تجرد من وظيفتها في نقد الواقع الاجتماعي ، أو الواقع الكل ، وتحد من رؤيتها في المستقبل وتحرم كذلك من دورها العلمي .

وليس من وظيفة الفلسفة ، في نقد الواقع ككل ، هو التشكك الدائم أو المستمر أو المذهبي ، بدون هدف ، أو معنى ، بل وظيفتها هي الشك الذي يفضي إلى اليقين نقصد

---

١ المصدر السابق ، صـ ٦٠ .

الشك المنهجي الذي يصل بالفرد إلى التحقق من سلامة المعرفة والنتائج ، وتنقية العقل من الأخطاء أو الوقوع في الزلل ، ليست الفلسفة هي الشك لأجل الشك كما ذهب السوفسطائيون ، والذي يهدف إلى قلب الحقائق إلى باطل أو الباطل إلى حقائق ، بما لا يصل إلى يقين ، بل هي اصطناع الشك لأجل التحقق كما ذهب سقراط ، حين اندفع لمجادلة شكاك السوفسطائيون ، وهو يبصر الشباب بالحقيقة ، واليقين ، وثبات القيم الأخلاقية وإقرار أركان العدالة ، والمساواة ، والفضائل ، وهو يؤكد أهمية المعرفة في عمل الفضيلة بقوله " الفضيلة علم والرذيلة جهل " [1] . فأثبت اتصالاً وثيقاً بين المعرفة وبين الأخلاق ، كما اثبت إمكان الصلة بين الأخلاق والسياسة ، حين ثبت على يقينه وتحمل الموت في سبيل إنصاف الحقائق والمبادئ العليا . [2]

إن الهدف الدائم من النقد الفلسفي كإحدى وظائف الفلسفة : هو ألا يضيع الناس في واقع مزيف ، أو يستسلمون لحقيقة كاذبة ، أو يخضعون لأفكار وألوان من السلوك يزين لهم نظاماً اجتماعيا معيناً ، إنها أبدية أو فوق النقد ، إن الفيلسوف - مثلنا في ذلك سقراط ، يحاول أن يبصر الناس بالعلاقة بين حياتهم وحياة المجتمع ككل ، بين نشاطهم الفردي وبين الأهداف العامة وأفكار العصر الكبرى ، ويكشف عن التناقض الذي يقع فيه الفرد أو الناس ككل عندما يتمسكون في حياتهم اليومية بأفكار وتصورات معزولة عن الوحدة الكلية للمجتمعات البشرية ، ويهدف هؤلاء إلى أهمية وضع العقل في الواقع حتى يمكن إنقاذهم من الوقوع في تصورات عقلانية ، وأشكال من ، التمزق ، والتشتت ، وتسلط خرافات معينة ، وطغيان ، وتهالك على الملذات والشهوات العاجلة دون القيم العليا الباقية ، أو الانبهار بالبدع واستيعاب الشعارات التي تكون غالباً خالية من الحقيقة .

* ولنعطي بعض الأمثلة :

إذا تأملنا مجمل ما ورد في محاورات أفلاطون في فيدون ، وأطيفرون ، والجمهورية ، وتيتانوس ، والسياسي ، والقوانين ... وغيرها ، وما جاء على لسان سقراط ، في محاوراته المختلفة حول الفضيلة ، والمعرفة ، والعلم ، والسياسة ، وأنواع الاجتماعيات ، نجد ما ورد في مناقشة هذه المسائل أو القضايا يربط بين صالح الفرد وصالح الجماعة ، وبمعنى آخر يناقش المسائل كلها في إطار السياق والصالح العام ،

---

١ -يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية (سقراط)

٢ راجع محاورات أفلاطون - الدفاع - أقريطون ، وغيرها ، يلحق بالكتاب محاورات أفلاطون - ترجمة دكتور زكي نجيب محمود ، ١٩٦١ م .

ناعياً بالأئمة في الاقتصار على طرف دون آخر ، لقد وضح أفلاطون وعلى لسان سقراط أيضاً : أن مناقشة فضائل الخباز ، والطباخ ، والترزي ، وصانع السفن ، والبناء ، والحذاء .. الخ [1] كلها نافعة في ذاتها ، لكنها تضر بالمجموع إذا تحيزت لنفسها ، وأهملت الاعتبارات العامة أو الصالح العام ، فلو تعصب كل إنسان لحيزته الخاصة وحدها ، كالطبيب للطب ، والطباخ لصنعته ، والتاجر لربحه ، والحاكم لقوته ، والفيلسوف لفلسفته ، فإن النتيجة تصبح أو تصير ضارة أو مدمرة للجميع ، وهذا ما حدث بالنسبة للشعوب الأوربية خلال الحربين العالميتين ، لذلك نجد الفيلسوف ينظر إلى الكل في إطار الصالح العام ، لذلك ذهب أفلاطون في اعتبار الفلسفة تعني التوحيد بين ألوان المعرفة ، وتنسيق فروعها بحيث تصبح عناصرها الجزئية مثمرة خلاقة في وحدتها وفي سياق المعرفة الكلية ، فلا حياة للعقل إلا داخل نظام من الأفكار ، غير أن التعصب لفكرة واحدة أو عنصر واحد من عناصر المعرفة والوجود لا يؤدي إلى فائدة ومما لا شك أن هجوم أفلاطون على " الطاغية " الفرد في الرسالة السابقة في محاورة الجمهورية يوضح أنه أشقى الناس وأشدهم عبودية ، حيث انه بينما يتصدى لحكم الآخرين ، فإنه يعجز عن حكم نفسه ، وهو كلب حراسة المدينة الذي تحول إلى ذئب يخشى أعداءه من الداخل أكثر مما يخاف أعداءه من الخارج ، وهو في رأي أفلاطون الابن العاق ، قاتل أبيه ، وآكل أولاده حيث يحكم بالتحكم في الناس وفي الآلهة ، بل الطاغية : هو أتعس الناس ، وأشقى منهم حيث يتحكم في كل الأفراد الأموات الفانين [2].

إذا كان هيجل Hegel ذهب إلى اعتبار الفلسفة روح عصرها مبلورة في الأفكار ، فإن الحركة التاريخية المعاصرة ، قد وضعت الفلسفة في قلب الواقع الاجتماعي ، كما وضعت الواقع الاجتماعي في قلب الفلسفة [3].

فإن وظيفة الفلسفة إذن ليست التقوقع في أبراج عالية ، بعيدة عن معترك الحياة الاجتماعية برمتها ، بل لابد أن تشارك فيما تعتلج به الحياة من تيارات مختلفة ، وتساعد في صنع نظريات تجعل حياة الإنسان اكثر احتمالاً ، وتبصر كل فرد بدوره

---

١ راجع - أفلاطون - محاورات - جورجياس ، الجمهورية - ترجمة حنا خباز - ط بيروت ١٩٨٠ / .

٢ دكتور عبد الغفار مكاوي - لم الفلسفة - صـ ٥٧ ، كذلك راجع جمهورية أفلاطون - الرسالة السابعة ، صـ ٥٧٦ ، صـ ٥٧٩ .

٣ المصدر السابق - صـ ٥٩ .

الفعال في مضمار الحياة العامة ، في سبيل التطلع لمستوى أعلى أكثر استقرارا وأمان

وإلى جانب الوظيفة النقدية للفلسفة ، وممارسة التفكير الفلسفي ، فإن هناك أيضاً وظيفتان أساسيتان لا ينفصلان عن ممارسة التفكير الفلسفي ، وهما : التحليل ، ثم التركيب .

* أما في ميدان التحليل : فهو ما يتعلق بالمصطلحات والمفردات اللغوية ومجمل الأفكار التي يتداولها الناس سواء في حياتهم اليومية أو العامة دون أن يفطنوا إلى مرادفاتها ومرادها ، ومعانيها ومدلولاتها ، مقتصرين على حركات التداول بينهم فقط ، مما يؤدي إلى وظيفته في السياق العام ، كفكرة أو ككلمة أو مصطلح - الزمان والمكان - والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، وغير ذلك ، هنا تتداخل الفلسفة بآليات التحليل النقدي لتفسير مثل ذلك وتوضيح مدلولاته بالنسبة للعلوم المختلفة " فالعلوم تأخذ بمجموعة من المبادئ على أنها أمور مسلم بها ، أو وقائع نهائية وليس من اختصاصها بحثها أو البرهنة عليها - لأن ذلك من اختصاص الفيلسوف مثلاً ، فعلم الهندسة ، يعول على قضايا أساسية واضحة بذاتها يطلق عليها البديهيات مثل : الخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا ، والكميات المتساوية إذا أضيفت على كميات متساوية أنتجت كميات متساوية ، والكل أكبر من الجزء أو الزاويتان المتجاورتان على مستقيم متساويتان ، وهكذا لا تبحث الهندسة في أعماق هذه البديهيات ، بينما تكون هذه وظيفة الفلسفة ، وتتساءل الفلسفة أيضاً ن، كيف تكون هنا قضايا بديهية واضحة بذاتها ، بينما توجد قضايا أخرى بحاجة إلى براهين واستدلالات .

*: كذلك في علوم الأحياء والطبيعيات تستخدم رموز ومصطلحات أو كلمات مثل : العدد ، المكان ، الحياة ، القانون ، التغير ، السببية ، الزمان ، العنصر ، المادة ، الطاقة وهكذا ، فمن مهمة الفلسفة هنا هو : تحليل هذه الأفكار والمصطلحات وبيان معانيها المختلفة ودلالاتها ، وإذا كان بعض العلماء في مضمار استخدامهم لهذه الأفكار أو المصطلحات يحاولون تفسيرها أيضاً مثل : أينشتين في تحديد معنى " الكتلة " ومعنى " الزمان " ... وهكذا ، فهم كذلك يصطنعون منهج الفلسفة وقد يمارسون التفكير الفلسفي أيضاً ، ويطلق اسم فلاسفة العلم إلا أن وظيفة الفلسفة في معناها الدقيق هو : تحديد المعاني والألفاظ وهو منهج سقراط كما وضحنا من قبل .

يضاف إلى ذلك : أن الفلسفة تقوم : بوظيفة التحليل في مجال دراسة طبيعة الفكر ، فتدرس قوانين المنطق والاتساق والعلاقة بين أفكارنا والواقع ، ومدى صلاحية المناهج التي نستخدمها للوصول إلى الحقيقة ، والمعرفة ، وعلى هذا فإن الفلسفة تهتم باختيار المناهج العقلية في جميع الميادين ، كالمنهج الاستقرائي التجريبي ، والمنهج الاستنباطي ، في الرياضيات ، والمنهج النقدي التاريخي ، وغير ذلك مما يعرف بفلسفة المناهج ، أو فلسفة العلوم .

* : وفي ميدان الوظيفة التركيبية للفلسفة : تحاول الفلسفة إيجاد مركب لكل المعارف ، والتجربة الإنسانية الكلية ، وهي بالتالي تختلف عن العلوم الأخرى التي تقتصر على جزء واحد أو بعض الأجزاء من العلوم والمعارف ، لذلك فالفلسفة تقدم صورة كلية مركبة من جميع أجزاء الوجود ، والمعارف الإنسانية .

فالفلسفة تقيم بناءً تركيبياً عن طبيعة الوجود والواقع ، وعن معنى الحياة وهدفها ، وعن أصل الكون ، وتقيم بناءً تركيبياً آخر عن الإنسان ، والحياة البشرية وهدفها وحري الإرادة والأخلاق بالإضافة إلى النظم والقوانين ، وعلاقة الإنسان بالكون ، وتقيم علاقة تركيبية أيضاً لعلاقة الكون الصغير (الإنسان) بالكون الكبير (العالم بأسره) [1] . أو كما قال الحكماء : تحسب أنك جرم صغير وقد انطوى فيك العالم الأكبر .

ويمكن أن نعطي مثالاً توضيحياً للوظيفة التحليلية والتركيبية من خلال دراسة فيلسوفين كبيرين من فلاسفة التاريخ أحدهما عربي إسلامي وهو عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨) هـ ، (١٤٠٦) م ، والآخر هو هيجل (Hegel ١٧٧٠ ـ ١٨٣١) م.

فابن خلدون يتناول دراسة التاريخ وما يحتويه من أسباب وأحوال العمران والأحداث بالتحليل والتركيب والنقد ، من حيث أن هذا التاريخ علم وفن ، ويضع المناهج اللازمة في دراسة التاريخ ، ويشرح في مقدمته طريقته الفلسفية والعلمية من ناحية أخرى في دراسة التاريخ ، فيقول " أنشأت في التاريخ كتاباً ، أبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً فهذبت مناحيه تهذيباً وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريباً ، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً ، واخترعته من بين المناحي منهجاً عجيباً ، وطريقة مبتدعة ، وأسلوباً ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ،

---

١ دكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ مدخل إلى الفلسفة ـ صـ ٩٥ ـ ٩٦ .

ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك .. ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب [١] .

وهكذا يبدأ ابن خلدون في تناول التاريخ بالتحليل والنقد والتركيب بعد ذلك من حيث اعتبار التاريخ علم وفن ، أو كما يسميه أيضاً - في ظاهره علم ، وفن في باطنه ، فالنوع الأول (علم في ظاهره) : عبارة عن سرد أحداث الماضي ، والكلام عن الدول المختلفة كيف قامت واتسعت ثم زالت . فهذا إذن التاريخ بمعناه العام . والنوع الثاني (فن في باطنه) فرع من فروع الحكمة أو الفلسفة ، لأنه يبحث في أسباب الأحداث والقوانين التي تتحكم فيها - وهذا الوجه الثاني لفن التاريخ هو ما يعتبره فلسفة التاريخ . [٢]

وعلى ذلك فإن دراسات ابن خلدون ، ونظرته للتاريخ ، ليست تعتمد على النظر والتأمل العقلي لمجريات الأحداث ونظم السياسة وأحوال العمران والاجتماع الإنساني فحسب ، بل كان يعني أيضاً بتقرير الأحداث والكشف عما بينها من اقتران الأشياء بأسبابها ، أي أن ابن خلدون تمثل الدراسات التي تقوم على التقرير الموضوعي للوقائع والأحداث المرتبطة بالحياة ثم بتعليل أسبابها ، والكشف عن العلاقات العلية أو السببية بينها .. وهكذا .

فلم ينظر ابن خلدون للتاريخ كوسيلة للرصد الكمي لأحداثه ووقائعه فقط ، بل حاول الدخول إلى أعماقه والذهاب إلى ما وراء الأفكار لمعرفة دلالتها على عصورها ، وظروف نشأتها ، ومن هنا نجد ابن خلدون جعل للفكر الفلسفي التحليلي مجالاً لدراسة حركة التاريخ .

ولا يمكن الفصل بينهما إن ظلت الثقافات حية والحضارات مزدهرة ، فالتاريخ مليء بالحركات والفكر والجدل ، والباحث هو وحده الذي يستطيع أن يكشف عن الفكر الذي يقبع وراء الأحداث والوقائع الدائرة في باطن التاريخ ، والتي تؤثر في ظاهره .

وبعد أن وضع ابن خلدون تلك النظرة الفلسفية التحليلية لمجريات الأحداث التاريخية وما يواكبها من أحوال العمران والاجتماع الإنساني والكشف عن الأمور وأسبابها ، والفكر القابع وراءها ، فإنه يشير من ناحية ثانية إلى تمثل الجانب التركيبي في صياغة الأحداث ومجريات الأمور والوقائع متبعاً منهجاً نقدياً آخر لتلافي تلك

---

١ ابن خلدون - المقدمة - صـ ٦ - ط دار القلم بيروت ١٩٨٤ م .

٢ دكتورة زينب الخضيري - فلسفة التاريخ عند ابن خلدون - صـ ٥٤ ط دار الثقافة للنشر - ط ١٩٩١ م .

الأخطاء التي وقع أو يقع فيها المؤرخون السابقون أو المعاصرون كالتشيع للآراء والمذاهب ، أو الاقتصار في الأخبار على مجرد النقل فقط ، دون النظر إلى أصول العادة ، وقواعد السياسة ، والذهول عن المقاصد ، مما يؤدي إلى عدم التحق ، والوقوع في الظن والتخمين ، وتوهم الصدق ، أو الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع بسبب ما بداخلها من التلبيس [١] وهكذا .

وأخيراً تتجلى النظرة الفلسفية التركيبية في فلسفة ابن خلدون التاريخية " في أنه لم يفسر الظواهر الاجتماعية أو الوقائع والأحداث التاريخية ومجريات الأمور الواقعية في ضوء نظرية معينة دون غيرها ، بل في ضوء التفسيرات الاقتصادية والسياسية والسيكولوجية فضلاً عن التفسيرات الجغرافية أيضاً . " [٢]

* : أما الفيلسوف الألماني هيجل في محاضرات عن فلسفة التاريخ ، فقد اهتم بدراسة مناهج البحث التاريخية ، والطرق التي يجب أن يكتب بها التاريخ ، وهذا في حد ذاته نشاط تحليلي فلسفي ، يقوم الفيلسوف بتحليل مناهج البحث في العلوم وهو ما يسمى (بفلسفة العلم) في إطار ما يسمى كذلك بفلسفة المناهج حيث يشير هيجل : "بأن التاريخ الأصلي هو ذلك " اللون من الكتابة التاريخية الذي يقوم به المؤرخ الذي يعيش أصل الأحداث ، فينقل ما يجده أمامه أو ما يرويه له الآخرون في عصره ، وهذا يذكرنا بالجبرتي ، [٣].

كذلك أشار إلى ما يسمى بالتاريخ النظري - حيث يتجاوز المؤرخ العصر الذي يعيش فيه ، لكي يؤرخ لعصر آخر سابق على عصره ، كما هو الحال بالنسبة لمؤرخ معاصر يؤرخ تاريخ أو أحداث ومجريات الأمور في عصور قديمة أو وسطى .

أما التاريخ الفلسفي : فهو ذلك اللون من الكتابة التاريخية التي تصل إلى النشاط التركيبي للفلسفة ، لذلك يقدم هيجل صورة تركيبية عن مسار التاريخ البشري ، فيدرس التاريخ كوحدة كلية شاملة ، دون أن يقتصر على فرع معين من أنواع الحضارات البشرية ، ولا تاريخ أمة من الأمم ، بل تاريخ الإنسان بما هو إنسان .

ومما لا شك أن هذه الطريقة يتخللها عدد من العناصر الرئيسية وهي " أن العقل يحكم التاريخ ، كما أن مسار التاريخ هو المسار الذي يتحقق فيه العقل (أو ماهية العقل) ،

---

١ ابن خلدون - المقدمة - صـ ٣٥ ، صـ ٣٦ .

٢ دكتور أحمد محمود صبحي - في فلسفة التاريخ - صـ ١٣٥ - ط مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٨٩ م .

٣ عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ط ١٨٨١ م .

وإذا كـان العقـل يتحقق طـوال الـتاريخ ، فمـا هي الأسـاليب التـي يسـتخدمها العقـل لكـي يتحقق ؟

ومـن ناحية ثالثة : مـا هـو الشكل الـذي يتحقق فيه العقل ؟ إنـه الدولـة فـي نظر هيجل .

فكـان هيجل يبدأ في دراسته لعلم التاريخ بالتحليل الفلسفي لمناهج هذا العلم ، ثم ينتهـي إلـى الوظـيفة التركيبـية ، بوضـع صـورة تركيبـية شـاملة لمسـار الـتاريخ كمـا يتصوره .[1]

٤ - وعي الفلسفة وغاياتها الحضارية :-

الفلسفة ليست ذلك المعطـى الحضـاري ، أو الفكر الثقافي الذي تتميز به أمة من الأمـم ، أو شـعب مـن الشـعوب ، قديمـاً أو حديثاً ، بـل تعتـبر الفلسـفة فـي مضـمونها ، وحركاتها الفكرية النقدية والتأملية التحليلية ، جزءاً من حـركات الـتاريخ وحياة الأمم ، ارتبطـت الفلسفة دائمـاً بالوعـي الحضـاري ، والحـراك العلمي والعملي المرتبط بالوعي الفـردي والاجتماعي والتاريخـي الإنسـاني ، فالوعـي الفـردي وإن كـان يعبر عن حركة التاريخ فإن له استقلالية وحرية وقدرة على تجاوز المراحل والأحداث إلى طريق التقدم ، كمـا أن الوعـي الاجتماعـي ، يصـبح هـو الآخـر قـادراً علـى إحداث أنـواع مـن الـتقدم والـتطور المسـتمر عبر الأجيال والعصـور ، وعن طـريق الـتكامل والـتوافق أو التوازن بين الوعـي الفـرد والاجتماعي ، فـي نطـاق التفكير الفلسـفي تحـدث الطفرة المنشـودة ، لـتطور وتغـيير الـواقـع الـنظري وتغـيير الواقـع العملـي معـاً ، كمـا أن الوعـي بالـتاريخ وحركاته المسـدرة والموقف الحضـاري للأمم ، يكون قادراً على تحديد مهمة الفلسفة ، وتطور التفكير الفلسفي .

وممـا لا شـك أن لعـبقرية الـزمان والمكـان ، والظـروف السياسـية والاجتماعـية والدينـية والعمليـة ، أثـر بـالغ فـي تنشـيط التفكـير الفلسـفي ، أو ركـوده ، ومـن ثـم يكـون للفلسفة وجودها الدائم كجزء من حركة التاريخ الإنساني .

ففـي الحضـارات الشـرقية القديمـة ، والتـي شـهدت فجـر نشـأة الفكـر البشـري ، ونشـأة الإنسـان ، فـي الصـين ، والهند ، وفـارس ، ومصـر ، ومـا واكب تلك الحضـارات مـن ألـوان مخـتلفة مـن الفنون والآداب ، والعـائد والمعتقدات ، ومـا واكـب ذلك من حياة

---

١ دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - صـ ٦٧ - صـ ٦٨ .

علمية وعملية ، ظهرت (الحكمة) وتفكير الحكماء) وهو ما يعني الفلسفة والتفكير الفلسفي في الحضارة اليونانية الإغريقية .

وأصبحت الحكمة عند الشرقيين تعبر عن الوعي الحضاري والثقافي الذي يميز هذه الشعوب والأمم يعلوه مسحة أخلاقية وصوفية دينية ، بالإضافة إلى الصبغة العملية .

كذلك بالنسبة للحضارة الهللينية والهللينستية الإغريقية اليونانية والرومانية ، التي نشأت وتطورت في حوض البحر المتوسط وما حوله من شعوب وأمم ، وما واكب هذه الحضارة من فنون وآداب وعقائد بالإضافة إلى النزعة العقلية المجردة ، في تناول الوقائع والأمور الاجتماعية والسياسية بالدراسة والتحليل أثر كبير في ظهور ذلك الوعي الفكري الفلسفي ، وكان لظهور بعض الفترات الزمانية التي كانت تتاح فيها فرصة التحرر الفكري والحرية السياسية أثره أيضاً في ظهور نظم سياسية واجتماعية ، أعطت للفلسفة والفلاسفة حرية الفكر والتعبير حيناً ، أو حجّرت عليهم أحياناً أخرى . فقد ظهرت نزعة الشك عند السوفسطائيين ، الأمر الذي دفع إلى دراسة الوقائع والأمور الاجتماعية بحرية فكرية وشيوع نزعة النقد والتحليل للوقائع ، بسبب ظهور عصر من الديمقراطية الفكرية في أثينا ، يعتبر علامة بارزة على وعي الفلسفة في عصرها .

وينسحب هذا الوعي الفلسفي على ظروف ونشأة وتطور الحضارتين الإسلامية والعربية وكذلك الحضارات الحديثة ، ففي ظل الثقافات الإسلامية المتعددة في محيط الفلسفة الإسلامية التي عبر عنها فكر الفلاسفة الإسلاميين في عملية المزج بين التفكير الفلسفي ومصطلحاته وبين الفكر الديني وشرح نصوص في ضوء النظريات الفلسفية ، بالإضافة إلى الثقافات الكلامية عند المتكلمين ، أو علماء أصول الدين ، وما راج بين الفرق والمذاهب الأخرى كالصوفية على اختلاف مذاهبهم ، والشيعة وغيرهم ، كان للفلسفة أثر ومكانة فاعلة في تطور الفكر الثقافي الإسلامي والعربي ، أما الحضارات الحديثة ، فإن الوعي الفلسفي تخلل كثير من المذاهب ، وكان للعناصر الفلسفية مكانة فعالة عند المثاليين ، والعقلانيين .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن للفلسفة غايات حضارية بلا شك ، فليست الفلسفة هي " البحث الخالص عن الحقيقة المجردة ، كما كان يعرف عند القدماء أو عند فلاسفة العصور الوسطى وبعض المحدثين ، فقط ، بل وكما أشرنا أصبح للفلسفة وعي حضاري متداخل في الواقع الاجتماعي والسياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي

والمـادي ، كذلـك ، لذلـك لا نسـتغرب عـندما نقـرأ أو نسـمع عـن الفلسـفة السياسـية والاجتماعية والعقلية والدينية وهكذا .

لكن أصبح للفلسفة ، وعي واقعي ، كما كان لها أيضاً وعي عقلي نظري ، وأصبحت الفلسفة تعبر عن الوعي الواقعي والعملي في ظل الوعي العقلي التجريدي والتحليلـي والـنقدي ، فـي سـبيل إحداث التغير المنشـود والـتطور المسـتمر للحـياة الحضارية الإنسانية برمتها من أجل سعادة الفرد والمجتمع الإنساني .

وعلى ذلك فعن وعي الفلسفة ، وغايتها الحضارية لا تقف عند البحث الخالص عن الحقائق المجردة فقط ، لأن هذا أمر نظري أكثر منه واقعي ، فلا توجد حقيقة مجردة، بل توجد حاجات ومطالب وأهداف وبواعث وأوضاع اجتماعية محددة في عصور وأمكنة معينة ، فالمجرد لا وجود له في الذهن ولا في الواقع لأنه معاش في تجربة أولاً بما في ذلك المفاهيم الرياضية والتصورات المنطقية ، ولم يكن على مدى الفكر البشري أي بحث مجرد عن الحقيقة - بل وعن الواقع - لذلك كانت الفلسفة الصينية " الكونفوشيوسية " فلسفة عملية مرتبطة بسعادة الإنسان على الأرض ، وفي هذه الدنيا ، كذلك وجه الإسلام الذهن أو العقل الإنساني نحو منافع الأمة ومصالحها ، وعدم السؤال عن أشياء لا نفع فيها ، أو قد يأتي منها أضرار معينة ، لقوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوؤكم " سورة المائدة آية (١٠١) . والسؤال لا يجوز إلا إذا كان من ورائه نفع وعمل . كذلك عندما سأل أحد الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، قال له النبي الكريم " ما أعددت لها " ؟ ، وقد قال علماء أصول الفقه " أن كل سؤال لا ينتج عنه أثر عملي فإنه يكون عارياً عن العلم " [1].

ومما لا شك أصبح مفهوم الفلسفة بوعيها الحالي الحضاري لا يتوقف عند المجرد النظري بل يشمل العملي الواقعي والتجريبي ، سواء في الحضارات الشرقية والإسلامية ، أو في الحضارات الحديثة الأوربية والمعاصرة .

ومن هذا المنطلق لا نجد الفلسفة في وعيها الحضاري منعزلة عن واقع الحياة الإنسانية (الاجتماعية ، أو السياسية ، والأخلاقية ، والعملية ، والدينية) .

---

١ دكتور حسن حنفي - متى تموت الفلسفة ومتى تحيا ؟ (بحث منشور ضمن كتاب عالم الفكر - كتابات في الحضارة) - صـ ٨٤٠ ، مجلة عالم الفكر ديسمبر ١٩٨٤ م .

وهناك أمثلة كثيرة على تداخل الفكر الفلسفي لتغيير وتطور هذا الواقع بما يحقق الفضيلة والوصول إلى الحقيقة وتحقيق السعادة والأهداف المنشودة ، وهذا ما ذهب إليه كارل ماركس " حين بين أن الفلسفة لا تحاول أن تعرف العالم أو الوجود فحسب ، وإنما تحاول أن تغيره أيضاً " ، لذلك كانت الفلسفة تنزع دائماً إلى تغيير الواقع وتجديده ، وتقويمه بالأخلاق ، وبالسياسة ، وبالأيديولوجيا ، مثل تصور وإقامة مجتمع المدينة الفاضلة عند أفلاطون ، ومن بعده الفارابي (٣٣٩) م في الفكر الإسلامي ، والمجتمع التطبيقي عند ماركس ، والثورة الثقافية عند ماوتس تونج .

ومع أن الفلسفة ليست علماً أو فرعاً من العلوم ، فإنها تشمل كل العلوم ، إذ تفتح لآفاق أمام العلوم ، وتقف كذلك خلف العلوم ، وتعطي النسق الفكري والمنهجي لسلامة تحقيق نتائج العلوم ونظرياتها .

والوعي الفلسفي يؤثر في حياة المجتمعات ومصيرها ، والأمثلة كثيرة في ذلك : ففي الحضارة الفرنسية في القرن السابع عشر ، كان للفلسفة الرياضية والعقلية عند ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) م ، أثر في الفنون ، والآداب والعلوم ففي بناء قصر فرساي وتنسيق حدائقه التي اتخذت أشكالاً هندسية لا تعرفها الطبيعة - ظهر أثر الفلسفة الرياضية الديكارتية ، كذلك أثرت آراء الفلسفة التنويرية في الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، والآراء الفلسفية عند فولتير ، وجان جاك رسو ، ودلامبير ، بالإضافة إلى جملة الذين قدموا الآراء والحلول لعصر جديد ، مما أطاح بالنظم القديمة ، كذلك أثرت الآراء الفلسفية في المادية التاريخية عند أنجلز ، وكارل ماركس في الثورة البلشفية الروسية [1]. هذه الأمور وغيرها من أمثلة كثيرة أخرى تشهد بما للوعي الفلسفي من أثر حضاري في تطور وتغير المجتمعات الإنسانية إلى الأفضل ، وإن آل كثير من الفلاسفة بعض الاضطهادات من جانب السلطات الحكومية والدينية والسياسية في عصور مختلفة ، كما حدث بالنسبة لفيلسوف يوناني مثل سقراط الذي حكم عليه بالموت بدعوى تطاوله على عقائد الأثينيين والحكومات القائمة في عصره ، أو كما حدث للفيلسوف العربي الإسلامي الوليد بن رشد (٥٩٥) هـ ، الذي وشي به الفقهاء في عصره بالأندلس باسم التشدد في الدين ، فجرده أمير دولة الموحدين من مناصبه وعزله وأحرق كتبه ومؤلفاته وشروحه على فلسفة أرسطو ، أو كمصير الفيلسوف الهولندي باروخ أسبنوزا (Spinoza) والذي تكلم عن الفلسفة الحلولية Pantheism

---

١ دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٢٠ ط دار النهضة العربية ١٩٨٠ م .

، فنبذه الكنيست اليهودي ، بالإضافة إلى اضطهاد المجتمعات أو السلطات الكنسية لآراء وفلسفة برجسون Bergson وكذلك اضطهاد الفيلسوف الروسي بردائيف Berdiaif ، وكارل ياسبرز الذي ترك ألمانيا النازية وعاش لاجئاً في سويسرا ، [1].

وقد نبهت الفلسفة بوعيها الحضاري إلى أن الفائدة المرجوة منها وإن كانت ليست مباشرة ، إلا إنها سوف تتحقق بالفعل في المجالات الواقعية والعملية فالفلسفة ليست مهنة للكسب أو التجارة أو العيش ، ولا تنتج سلعاً ولا تكون مهنة أو حرفة ، وكثير من الفلاسفة القدماء والمحدثين كسقراط ، وأفلاطون ، وأبن سيناء ، وأبن رشد ، وكانط ، وبرجسون وجان بول سارتر .. وغيرهم لم يمتهنوا الفلسفة كحرفة للرزق والعيش ، بل شكلت الفلسفة عقولهم ومعارفهم " وأنتجوا فكراً وتصورات معرفية قابلة للتطبيق في الميادين العلمية والعملية فالتقليد الفلسفي الذي يقوم على التصورات العقلية المجردة ، والمنهج التحليلي النقدي لمجريات الأحداث والوقائع في الحياة الإنسانية نزع إلى التطبيق يعنى السلوك ، والعيش طبقاً للتعاليم والآراء الفلسفية ، فيتحقق الإصلاح والحياة الفلسفية المنشودة .

وبالتالي لا تنعزل الفلسفة والفيلسوف عن الواقع الحضاري الإنساني فكانط كان يقول " إن نجوم السماء فوق رأسي والقانون الخلقي في قلبي " ، إشارة إلى فلسفته الخلقية واحترامه الواجب والالتزام الذي منبعه القلب بما كان بادياً في سلوكياته وحياته وإلى جانب الأديان السماوية الإلهية ، كانت الفلسفة تشكل إطاراً روحياً وتأملياً عقلانية مشبعاً بنور العقل واليقين .-

فالوعي النسفي نافع حين يوقظ في الإنسان القيم الخلقية الرفيعة بالإضافة إلى توخي النظم والقوانين التي تحقق سعادة المجتمع بما فيه ، والتنبيه إلى عناصر الضعف الإنساني ، ونقص المعارف العلمية الإنسانية لم تغفل الفلسفة في وعيها أو غايتها الحضارية أن تربط بين النظر والعمل ، فالمشكلات العملية لا تقل أهمية عن مثيلاتها النظرية ، وإن كان النظر متقدماً دائماً على العمل ، كما ذهب كثير من الفلاسفة ، ومنهم ديكارت فالنظر الفلسفي هو مقدمة وأساس للعمل ، فقد كتب كانط Kant كتابه عن " نقد العقل العملي " لبحث المسائل النظرية لموضوعات العمل والسلوك ، كما أن الاتجاهات العملية في الفلسفات كلها لم تسقط من حسابها البحث النظري فسقراط ، كان يبحث عن المبادئ النظرية العامة للسلوك العملي ، كذلك كان أفلاطون وأرسطو ، وإن

---

١ المصدر السابق - صـ ٢٤ ، صـ ٢٥ .

سبقهم في ذلك كذلك الفلاسفة الطبيعيون الأوائل أمثال طاليس وانكمندريس وأنكسمانس وهيرا قليطس وديموقريطس ، حين كانوا يبحثون عن المبادئ الجوهرية لأصل الوجود الطبيعي العملي المشاهد ، كذلك ظل هذا الحال في فلسفات العصور المتأخرة والوسطى ، بصرف النظر عن خطأ المبادئ أو صوابها ، وفي الفلسفة الحديثة ذهب البرجماتيون ، ومنهم (مل) ، إذ تقوم البرجماتية على أساس تجريبي عملي ، وتؤسس في ضوء ذلك الأفكار ، إلا أن البحث هنا يكون نظرياً بغض النظر عن المنهج ، ويقوم على أساس استقصاء للعلل كما هو الحال عند علماء أصول الفقه في التراث الديني .

وهناك الاتجاهات العملية عند شلر Shiller ، وبيرس Pierce ، وكلها تؤسس العمل على البحث النظري ، سواء في العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية ، والرياضية والدينية ، بل إن الفلسفة الوجودية ذاتها ، باعتبارها رد فعل ـ ـى التيارات الفلسفية النظرية المجردة ، لم تغفل الأسس النظرية للسلوك الفردي الإجتماعي ، كما هو في نقد العقل الجدلي عند جان بول سارتر G . P .Sartir (١) .

لقد تصور بعض الباحثين (٢) أن الفلسفة قد انتهت عند اليونان بعد أن سادت الفلسفة العملية بعد أرسطو ، في المدارس الأخلاقية العملية ـ عند الراوقية والابيقورية ، فتحولت إلى البحث في السعادة واللذة وممارسات عملية في جماعات وحلقات ، دون طرح الأسس النظرية للبحث ، لكن هذا التصور يعتبر غير حقيقي بالنسبة للتيارات الفلسفية في تعاقبها الدوري والحضاري الإنساني فقد اعتبر كبار فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون ، أرسطو البحث الفلسفي لا يقتصر في مفهومه العام على النظر فقط ، بل وضعوا اعتبارات لحاجات الإنسان المادية ، ولم يغفلوا كون هذا الإنسان مهما بلغ من درجة الفكر والعقل حيوان ناطق ، له متطلبات المعيشة ونظم الحياة ، لذا اشترطوا الحاكم الفيلسوف ـ هو الذي يستطيع النهوض بإشباع هذه الحاجة والاعتدال النفسي ، وفي نطاق الفضيلة ـ الوسط العدل بين إفراط وتفريط كلاهما رذيلة .

هذا وقد اعتبرت المدارس الرواقية والأبيقورية مسئولة عن البحث في حاجات الإنسان العملية ، وإشباعها بغض النظر عن التصرف كما أن فقدان الشخص لحريته الخارجية ـ يدعوه إلى نشدان هذه الجرية في داخله ـ بجلب الطمأنينة النفسية ، أو

١ـ دكتور حسن حنفي ، متى تموت الفلسفة ومتى تحيا ؟ ـ (بحث منشور ضمن مجلة عالم الفكر) ، عدد ديسمبر ١٩٨٤ ، صـــ٢١٦ .

٢ـ المصدر السابق ، صـــ٢١٦ .

الانسجام لأجل السلامة ، والأثراكسيا ، وقد اعتبروا ذلك بالإضافة إلى اختيار الطريق المناسب نوعاً من الفضيلة ، وهذا في عصرهم واتجاهاتهم نوع من التفلسف . [١]

يتمثل الوعي الفلسفي وغايته الحضارية ، في الصلة الوثيقة بين الفلسفة والأديان ومجمل العقائد الدينية ، بغض النظر قليلاً عن بعض التيارات الفلسفية الإلحادية (السوفسطائية ، والمادية والوجودية بأشكالها وأنواعها) .

فقد ارتبطت الفلسفة منذ نشأتها بالدين ، وخرجت من المعابد والكنائس والأديرة ، فأشتغل بها رجال الدين (أو أصحاب الفكر الديني) وكما رأي كثير من فلاسفة التاريخ ، أن الفلسفة تطورت تطوراً طبيعياً للدين ، كما أن موضوعات الفلسفة أو التفكير الفلسفي المتمثل في الوعي الحضاري قريبة من الموضوعات في الأديان المختلفة ، فإذا كان موضوع الفلسفة الأولى هو الوجود المطلق ، فإن ذلك هو بعينه موضوع الدين الأول وهو الله عز وجل كما إن وسيلة المعرفة في الفلسفة - كالعقل ، والحدس مثلاً ، ليس بعيداً عن المعرفة في الدين وليكن هو الوحي ، والنبوة والإلهام والإيمان القلبي ، ولما كانت السعادة وتحقيق الخير للإنسان في الدنيا والآخرة غاية الدين والإيمان الصادق ، أو التوحيد الخالص - والعمل بالشرائع والفرائض فإن غاية الفلسفة كذلك تحقيق سعادة الفرد والمجتمع ، بإقرار المبادئ العامة والسامية التي تعترف بحقوق الإنسان في المواطنة وحرية الفكر والرأي ، والاعتقاد ... وهكذا وقد عبر عن ذلك كثير من الفلاسفة فابن رشد يقول " أن الفلسفة هي الأخت الرضيعة للشريعة ، متحدتان بالطبع متحابتان بالجوهر والغريزة .. كما أنه لا تعارض بين الحكمة والشريعة لأن الشريعة ناطقة بكل حكمة " [٢]ويذهب الكندي (٢٥٢ هـ) في رسالته إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ، إلى أن الفلسفة هي علم الأشياء بحقائقها ، ولا تتعارض مع الشريعة لأنهما متفقان في الموضوع والغاية " [٣]

١ـ للمزيد من التفاصيل في ذلك أنظر : دكتور عبد الرحمن بدوي ـ خريف الفكر اليوناني ـ ط دار القلم ببيروت ١٩٧٩ م ،

ـ كذلك : أفلاطون ـ ط دار القلم ببيروت ، ١٩٧٩ م

ـ كذلك يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ط بيروت ١٩٨٤ م كذلك دكتور محمد علي أبو ريان ـ تاريخ الفلسفة اليونانية (أرسطو والمدارس المتأخرة) ، ط بيروت ١٩٨١ م .

٢ـ ابن رشد ـ فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ صـ ٣١ ، صـ ٣٢ صـ ٣٥ ،صـ ٣٧ ، تحقيق دكتور محمد عمارة ط دار المعارف ١٩٨٣ م .

٣ـ الكندي ـ مجموعة رسائل الكندي الفلسفية (الرسالة الأولى) تحقيق دكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ط لجنة التأليف والنشر ١٩٥٧ م .

وإذا بدا تعارض بين الفلسفة والدين في الظاهر عند العامة من الناس فإن الشرع يقبل التأويل على منهج العقل . (١)

وقد أصبح للفلسفة وعي بالفكر المسيحي عند أباء الكنيسة الأوائل ، خاصة عند جيستان الذي رأي سقراط مسيحياً ، والفلسفة هي محبة الحكمة ، كما أن المسيحية هي المحبة ، فلا خلاف بين الفيلسوف والمسيحي . كذلك أستنبط أسبنوزا حقائق الإيمان من العقل الخالص ، وبلغ هذا ذروته عندما تحول إلى فلسفة ، والتثليث إلى جدل ، والقيامة إلى تاريخ ، كما تحولت الفلسفة إلى دين ، والمطلق إلى إله والعقل إلى وحي وبذلك نلاحظ تواصل الوعي الفلسفي الحضاري لدرجة عدم التفرقة بين الفلسفة والدين ، لأن كلاهما يحققان الفكر ، ومظهران للمطلق . (٢)

يتطرق وعي الفلسفة بالعلم وفي غاياتها الحضارية ، أنها ارتبطت بالطبيعة والطبيعة كما نعلم هي ميدان العلم والعلوم ، وتشكل بعض موضوعات الرئيسية ، كما كانت الطبيعة أيضا موضوعاً للفلاسفة الطبيعيين الأوائل من طاليس حتى لوفيبوس وديموقريطس ، الفلاسفة الذريين ، بل إن العلم ذاته نشأ من ثنايا فلسفة الطبيعة ، ثم ساعد على ازدهارها بعد نشأته ، كانت ، فلسفة الطبيعة مادة للعلماء ، كما كان العلم مادة لفلاسفة الطبيعة ، وقد ازدهرت الفلسفة الطبيعية في القرن التاسع عشر ، على الرغم من محاولات الفصل الشديدة بين الفلسفة والعلم ، فقد شكلت الفلسفة والتفكير الفلسفي الإطار النظري للنظريات العلمية والفروض السابقة على اكتشاف نظريات العلم وقبل إجراء التجارب اللازمة لاختيار هذه الفروض ، وقبل أن يثبت صدقها وأهميتها في تفسير ظواهر الطبيعة المختلفة ، فالنظر الفلسفي يسبق آليات العلوم دائماً ، وقد ثبت فاعلية التأمل والتفكير الفلسفي وأثره في اكتشاف ، وصياغة نظريات علمية - كالنسبية ، والجاذبية وغيرها ، ولذلك فقد نشأت فلسفة علمية ، على أثر الاكتشافات العلمية ، وازدهار العلوم الحديثة وطورها ، وأصبح هناك تنسيق وأضح بين الوعي الفلسفي بأهميته العلم والاكتشافات في التطور البشري ، والعقول الإنسانية وبين بناء الأسس المذهبية للتيارات السياسية التي نادت بالمادية ، الجدلية في حركة التاريخ وتغير المجتمعات ، عند فلاسفة الماركسية الاشتراكية المتطرفة من أمثال - أنجلرا ، وكارل ماركس ، أو بناء الأسس الميتافيزيقية لمذاهب فلسفية وجودية - كما هو الحال

١- دكتور محمد محمود أبو قحف - التفكير الفلسفي في الإسلام من الشرق إلى المغرب العربي - وتطوره وأثره في الفكر الأوروبي) ط المكتبة القومية بطنطا ٢٠٠٥ م .

٢- دكتور - حسن حنفي ، متى تموت الفلسفة ومتى تحيا - (مجلة عالم الفكر) ص ٢١٧ .

عند هيدجر، وبرجسون ، وسارتر ، وقد ساهم الرعي الفلسفي بأهمية العلم وأثره في تطور حياة المجتمعات والاكتشافات التي تحقق حاجات الإنسان وتوفر له المتعة المادية التي ينشدها ، أن دفع بالعديد من الباحثين والمفكرين المحدثين من أمثال سلامة موسى ، وزكي نجيب محمود وفؤاد زكريا ، وشبلي شميل ويعقوب صروف وغيرهم إلى الدعوة لإقامة فلسفة علمية ، كأحد طرق الإصلاح في العصر الحديث بالإضافة إلى تأسيس فلسفة لغوية تساعد على التحليل اللغوي للمصطلحات ومرادها ، مما يساعد على إثراء الحياة الفلسفية والفكرية .

إن يطور بعض الأنظمة العلمية ، هو جزء من النشاط العملي الضروري لتطور العلم وتطبيقاته التقنية ، كما أن فروع الرياضات ، أثبتت فائدتها وأهميتها في مجال التطبيق ، وفي هذا المجال لا يصح أن يغيب عن نظرنا وبالنا أن كل تطبيق علمي ، لأبد أن يسبقه النظر - أي الفكر والفلسفة ، وأن الصنعة والتقنية هي ثمرة البحث في الأسس البحته [1] . بالإضافة إلى الإطار الفلسفي الذي يحكم ويبلور النتائج والتطبيقات .

ومما لا شك فيه أن الفلسفة هي تعبير عن ظروف كل عصر تنشأ فيها ، وتعبر عنها وتؤثر فيها خاصة عندما تدخل الأفكار الفلسفية في نسق متكامل وتصبح (إيديولوجية) لذلك يصبح للفلسفة وعي بالعلوم الإنسانية وتتطلع في غاياتها إلى هذه العلوم ، إذ أن هذه العلوم تعكس روح العصر ، وكما يذهب بعض الباحثين " بالفعل لا يوجد فيلسوف إلا وطبق مذهبه في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ أو حتى القانون ، فنجد فكرة الدولة عند بوزاركين . وفكره السلام عند شيلر ، ورسالة في اللاهوت والسياسة للقديس أوغسطين ، وكتاب السياسة لأرسطو ، والجمهورية لأفلاطون ، وروح القوانين ، لمونتسكيو ، كما لا يوجد فيلسوف إلا وتوج مذهبه في موضوعات السياسة ، والاجتماع والاقتصاد ، فقد كتب توماس هوبز كتاب عن الإنسان والوطن وجان جاك رسو كتاب عن العقد الاجتماعي ، وهيوم كتب عن السياسة وأورتيجا عن ثورة الجماهير ، وهكذا ، وقد ظهر فلاسفة في التاريخ يفكرون في تقدم الشعوب من أمثال : هيردر ، وفيكو ، وتوينبي ، وشبنجلر وغيرهم كذلك . [2]

١- دكتور عبد الغفار مكاوي ، لم الفلسفة - صـــــ٤٥ .

٢- دكتور حسن حنفي - متى تموت الفلسفة ومتى تحيا - (مجلة عالم الفكر) صــ٢٢٠ .

وقد تحولت الفلسفة في الوعي الذاتي ، والتطلع إلى ما هو مثالي أو طوباني ، وأصبحت تبعد عن أماني وتمنيات قد لا نجد لها في الواقع كما هو عند توماس مور ، ودعاة الفلسفة الاشتراكية الخيالية ، وإن كانت قد اتخذت أشكالاً تخريبية فيها شيء من التعصب لمذهب واحد وبعض المذاهب ، مما قد يفقد الفلسفة روح البحث الحر ، أو القدرة على التحليل والنقد والحوار ، فصارت أحيانا إيديولوجية سياسية أو اقتصادية ، أو قومية أو دولية ، واستخدمت السلطة في سبيل ذلك أو الجيش والبوليس أحيانا أخرى . [1]

إلا أن هذه الفكرة الأخيرة - التي تفترض نوعاً من التعصب أو التخريب الذهني لا مجال لها في نطاق الفلسفة : أو الوعي الفلسفي الحر المعبر عن تاريخ الفلسفة الذي يشير على أنه " مستودع الحكمة الأبدية ، ومخزون الحقائق المطلقة والمفاهيم الأساسية والقضايا المستعصية ، فالفلسفة : هي المعرفة التي يؤدي امتلاك تاريخها واستيعاب قضاياها إلى تأكيد تحرر البشرية من الاهتمامات النفعية ، وتركيز الاهتمام على الأمور الأسمى والأكثر نقاءً ، مثل معرفة الله تعالى ، والروح ، "والأشكال الأخرى ، وحالاتها الأسمى والأنقى ، وحتى الفلاسفة المتشككون والتجريبيون قد بنوا وجهة النظر التي ترى أن الفكر النفعي ليس له الأهمية [2] التي يمكن أن تقصر الفلسفة والتقليد الفلسفي أو تجبر الفلسفة على الوقوف عنده ، أو بشكل يشكل نهاية المطاف .

ومع ذلك فإن اعتبار الفلسفة تفكيراً حراً في المجتمع ، وبحثاً في علومه المختلفة الآن الذي جعلها تتابع كل ما هو يجري ويستجد من تطورات ، فإن هذه الفلسفة وحدها القادرة على رؤية قوانين المجتمع الثابتة . فارتبطت بفلسفة التاريخ بالإضافة إلى إدراك الفلسفة لما هو ثابت من خلال التغيرات ، والماهيات المحمولة على الوقائع ، فأصبحت بذلك تعمل على تحليل التجارب البشرية لمعرفة ماهياتها ، تجارب الأفراد والأمم والجماعات ، وبالوعي اليقظ القادر على تحويل الوقائع إلى تجارب حية دالة ، يمكن إدراك ماهياتها بالحدس ، بالإضافة إلى قدرة العقل على تحليل الشعور لإدراك المعاني ، الشاملة فيه ، ففي الشعور بعمل العقل ، وفي التجربة يعيش الواقع . [3]

١- المصدر السابق ، صـ ٢٢١ .

٢- كاترين ويلسون - تاريخ الفلسفة الحديثة ، (بحث منشور ومترجم بكتاب (مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين) ، صـ ٦٣ ، ترجمة مصطفى محمود محمد مراجعة ، د. رمضان بسطاويس . ط الكويت مارس ٢٠٠٤ م .

٣- دكتور حسن حنفي - متى تموت الفلسفة ومتى تحيا - صـ ٢٢٢ .

وكما ارتبطت الفلسفة في وعيها الحضاري - بالدين والعلم ، كذلك ارتبطت " بالفن ، والجمال " ، إذ أصبح الفن - وإدراك معاني الجمال فرعاً من فروع الفلسفة ، ويشكل جانباً هاماً من تفكير كبار الفلاسفة القدماء وحتى العصر الحديث سقراط شعر بجمال الفضيلة وأدرك ماهياتها ، كما شعر بجمال المعرفة التي تقوم على العقل ، فربط بين الفضيلة أو الأخلاق وبين المعرفة وإدراك حقائق الأشياء وماهياتها في مقولته المشهورة " الفضيلة علم والرذيلة جهل " [١] أما أفلاطون فكان له الباع الطويل في تحديد معاني الجمال والخير بالذات ، والماهية ، وفرق بين الجمال الحسي والجمال بالذات واستخدام منهجه الصاعد في تحليل وتحديد معاني الخير بالذات ، والجمال بالذات وأشار إلى عالم المثل ، عالم الماهيات والتصورات والمعقول ، وأشار كذلك نظرية المحاكاة في الفن ، ورأي أنها يجب أن تقوم على أسس فلسفية عقلية ، لا مجرد المحاكاة الحسية أو التطابقية بين الأشياء ، في محاوراته وأهمها محاورة " فيدروس " [٢] كما أشار إلى فن الموسيقى ، وأثر جمال الألحان والإبداع الموسيقي في نفوس البشر ، خاصة الجيوش في ميدان القتال وكيف يكون للموسيقى الجميلة ، من أثر في شحذ همة الجنود في ميادين الحرب والقتال ، وأثر الفن السلبي والموسيقى أيضاً في الانحطاط بالهمة ، وجلب الفشل .. إلى غير ذلك [٣].

وإذا كان الفن لغة وتعبيراً يبدو بدائياً عن الفلسفة ، التي تحتاج إلى تنظير وتعقيل وترتيب ومنطق وحجة وبرهان ، في رأي بعض المفكرين المعاصرين [٤] ، فهذا هو دور الفلسفة ، وأهميتها ودورها الحضاري في تعميق معاني الفن والجمال ، كذلك لا تجد فيلسوفاً إلا ويتوج مذهبه بنظرية في الفن ، أو يطبقه في الجمال ، وبالإضافة إلى ما سبق عرضه عند سقراط ، وأفلاطون ، فإن أرسطو وضع كتاباً في الموسيقا ، وخصص كانط ، في المذاهب الفلسفية الحديثة ، كتباً في " نقده ملكة الحكم ، وملاحظات حول الجميل والجليل ، أما شيلر فوضع كتاباً في " التربية الجمالية

---

١. يشير سقراط إلى أنواع كثيرة من الفضيلة - الشجاعة ، فضيلة والحكمة والاعتدال وسعة الأفق فضيلة ، تمني الأشياء الجميلة والقدرة على إعطائها فضيلة ، الأعمال الطيبة ، والبعد عن الرذائل فضيلة .. وهكذا نظرنا - محاورة مينون (ملحق بكتاب فلاسفة الإغريق) ، صـ١٠٦ ، صـ١٠٧ - ريكس ورنر - وترجمة عبد الحميد سليم . ط الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٥ م .

٢- أفلاطون ، محاورة فيدروس - المأدبه - دكتورة أميرة مطر ط دار المعارف

٣- أفلاطون - محاورة الجمهورية ، ترجمة حنا خباز - ط دار القلم ببيروت ١٩٨٠ م كذلك دكتور فؤاد زكريا - دراسات على محاورات الجمهورية لأفلاطون صـ١٣ ، صـ١٥ ط دار القلم - بيروت ١٩٦٧ م .

٤- دكتور حسن حنفي - متى تموت الفلسفة ومتى تحيا - ومجلة عالم الفكر - صـ٢١٩ صـ٢٢٠ .

الإنسان " كذلك طبق هيجل مذهبه في دروس فن الجمال ، وكتب كل من أنجلز وماركس في الفن والأدب ، وأشار كير كينجارو إلى أن الجمال أول مراحل الحياة كذلك ارتبط الجمال بالتأمل الروحي والعقلي عند تولستوي [١] وهكذا نجد أن الصور الفنية وعمل الخيال - وظيفتان أساسيتان في ثنايا الوعي الحضاري للفلسفة ، وكما كان عند فلاسفة اليونان ، والعصر الحديث وعي فلسفي بالفن والجمال وكذلك وجد في الفلسفة ، الإسلامية ، متمثلة عند المتكلمين ، في تحليل الأفعال وتقسيم العقل إلى جميل أو قبيح ، أو تحسين وتقبيح ، مأخوذة قواعده ومبادئه من الشريعة ثم العقل ، فالشريعة الإسلامية أرست قواعد الأفعال الجميلة ، وذمت الأفعال الشريرة أو القبيحة ، كذلك العقل ، وقد لعب المعتزلة بالإضافة إلى الفلاسفة الإسلاميين كالفارابي ، وابن سينا والكندي وغيرهم دوراً هاماً وفعالاً في التعبير عن أسس الجمال والمعرفة والفن خاصة الموسيقى ، وصنف الكثير من المفكرين الإسلاميين وفلاسفتهم العديد من الوسائل - تتضمن دراسات وتعبيرات عن أصول ومبادئ الفن والجمال ، والموسيقى .. الخ [٢] وإبراز الوعي الفلسفي الجمالي والفني كما عرفه وعبر عنه بعض المفكرين والفلاسفة الإسلاميين حين سادة الأوساط الثقافية والعلمية العملية العربية والإسلامية الوعي بموضوعات الأشياء وطبائعها الذاتية والواقعية .

ولم يكن عصر النهضة الأوربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بعصر الفنون الإيطالية ببعيد عن هذا التمثل في الوعي الحضاري الثقافي المرتبط بالمزاج الفلسفي في العصر الوسيط ، فقد ظهرت في القرن السادس عشر عصر الفنون الإيطالية وأعمالاً فنية قد تبدوا مغايرة لأعمال العصر الوسيط ولو جزئياً ، إلا أن الإيطاليين لم ينتجوا فنونهم على حين غرة ، بل هم مدّنيون بقدر كبير لأسلافهم رجال العصر الوسيط ، وإن أضافوا أيضا معان أخرى فنية جميلة تسهد بالتميز والتطور الفني والذوق والجمال بلا شك مثال ذلك : فقد أبتكر الفنانون البناؤن الإيطاليون - طريقة البناء بالقوس المستديرة ، القبة والخطوط الأفقية بأساليب مركبة

١- المصدر السابق - صـــ ٢٢١ .

٢- الكندي وسائل الكندي الفلسفية - رسالة في الموسيقى د. محمد عبد الهادي أبو ريده كذلك - دكتور عبد الكريم عثمان - شرح الأصول الخمسة عند المعتزلة كذلك ، دكتور : علي سالم النشار - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ١ ط الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨١ م .
كذلك - طبقات المعتزلة ، تحقيق دكتور علي سامي النشار وآخرون ط منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٢ .

من عناصر لها أصول كلاسيكية وإذا وضعت جنباً إلى جنب تعطينا فناً جديداً وأصيلا " (١)

لقد ارتبطت الفلسفة في وعيها الحضاري أو الثقافي " بالعقل " فالعقل هو وسيلة التحليل وإدراك الواقع ، وفهم الظواهر ، والحوار مع الأخر ، بل وقبول الحقائق والبرهنة عليها فالقدرة الفعالة في الدفاع عما توصلت إليه من حقائق ، ويقين ، وإذا ما تتبعنا الفلسفة في مسيرتها التاريخية عبر العصور المختلفة ، شرقاً وغرباً ، نجدها تتمثل هذا الإبداع العقلي والمعرفي فلا مجال ولا شأن لعبقرية التفكير الفلسفي عند اليونان بدون العقل كذلك بالنسبة للفلسفة الشرقية والإسلامية ذات المسحة الأخلاقية والدينية الروحية ، ينسحب ذلك على عصور النهضة الأوربية والحديثة ، بعد ما نفض فلاسفتها عن أنفسهم غبار التيارات الإسكولائية المدرسية بظهور فلاسفة العلم أمثال فرنسيس بيكون ، والعقلانيين أمثال ديكارت والنقديين أمثال كانط ، بالإضافة إلى المثاليين التاريخيين أمثال هيجل ، وهيردر وفلاسفة الرياضيات وأصحاب الوضعية المنطقية مروراً بلبنتيز Liebnetz ورسل ، Reussll .

فالإبداع الفلسفي الذي سبق عند فلاسفة اليونانيين ، قام بفضل العقل وطريقة استعماله وتوجهه نحو الطبيعة كما هو الحال عند الطبيعيين الأوائل ثم أرسطو ، ونحو عالم المثل عند أفلاطون ، والبحث عن الفضيلة والمعرفة الحقيقية بطبائع الأشياء وماهياتها وتحديدها عند فيلسوف المعاني سقراط ، الذي يعتبر علامة في التاريخ الفلسفي الإنساني ممثلاً حقيقياً لحرية العقل ، والفكر ، والانتصار للمبادئ والتمسك بالفضائل ضد التسلط ، وحكم الطغاة من حكام أثينا ، وواجه الموت مخلصاً لكلمة العقل ، وحرية الفكر والعقيدة ، ونداء الفضيلة .

لقد عرفت الفلسفة ، والتفكير الفلسفي الطريقة والمنهج الملائم لمواجهة السلطة والتسلط ، ودعاوى التقليد والشركاء ، وحكم الطغاة ، والموروث من العقائد البالية في العصور الوسطى ، وبداية عصر النهضة والتنوير ، باستخدام العقل والتفكير العقلي القائم على التحليل والنقد والبرهان ، والحجة والمنطق فظهرت آراء وأفكار واكتشافات جديدة ، بظهور كوبرنيقوس (١٥٤٣ وجاليليو (١٦٤٢) ، وكادت أفكارهما التي تعارض الموروث من التراث اليوناني الأرسطي القديم أن تعصف بالفلسفة ، بل وقد كان ممكن أن ترتكب حماقات ضد الفلاسفة كما حدث لسقراط ، وكاد أن يحدث

١- كذلك برنتون . تشكيل العقل الحديث ، صـــ ٢٥ ترجمة شوقي جلال - ط الهيئة المصرية للكتاب ، ٢٠٠١ م .

لأفلاطون كذلك كما حدث لأبن رشد ، لكن إحياء المنهج العقلي ووعي المفكرين أهمية نفض غبار الماضي والموروث القديم يمثل عصر النهضة الفلسفية الواعية فالعقل والتفكير العقلي الشامل لجميع الوقائع والاعتبارات الخارجية والداخلية ، أو الطبيعية والعملية والنظرية وهذا يمثل كذلك عنصراً فلسفياً بالأصالة لأنه يتمثل الثورة على الموروثات القديمة ، من أجل اكتشاف الطبيعة ، والثقة بالمعرفة الإنسانية ، وقد استمرت الفلسفة بتأكيد العقل لذاته في القرن السابع عشر وسيادة العقلانية كتيار أساسي في الحياة العامة .

لقد تمثل انتصار العقل والعلم كذلك ضد السلطتين الدينية والسياسية في أوروبا منذ بداية عصر النهضة ، بظهور نظريات أهمها نظرية التطور التي قال بها تشارلز داروين Charles Daruien بالإضافة إلى دعاة الداروانية الحديثة ، وإن كانت مثل هذه النظرية تخضع للتحليل العلمي والنظر العقلي والفلسفي ، إلا أنها لم تثبت على المستوى الديني ، والأخلاقي ،كذلك ، إلا أنها تعتبر نوعاً من الثورة العقلية على التقاليد بصبغة فلسفية عقلانية وعلمية لاكتشاف الحياة الواقعية والإنسانية .

والجدير بالذكر أن الوعي الفلسفي العقلاني لم يكن قاصراً على مسار الفلسفة اليونانية أو عصر النهضة والثورة التنويرية ضد تيارات العصر المدرس الإسكولائي الأوروبي فقط ، بل ربما سبق كذلك في الفكر العربي والإسلامي ، متمثلاً عند المعتزلة [1] ومن سبقهم من طوائف القدرية في قولهم بحرية الفكر والحوار وتقبل الآخر ، وتبلورت نظرياتهم في قولهم بحرية الإرادة والاختيار ، ضد تيارات الجبرية والحشوية والمشبهة ، كذلك جماعات إخوان الصفاء حيث مزجوا بين الفكر والنظريات الفلسفية وبين الأفكار الدينية مستخدمين منهج التأويل ، في الشرح والتفسير ، والمقاربة بين المصطلحات الفلسفية والمصطلحات الدينية ، وغيرهم كثير من الفلاسفة الإسلاميين .

١- المعتزلة : فرق كلامية لعبت دوراً هاماً في تاريخ علم الكلام الإسلامي ، وتناول علماؤها قضايا العقيدة الإسلامية بالدراسة والبحث مثل الصفات ، والإلهيات والوجود والوحي والنبوة والمعجزات والآخرة ، وردوا على المشبهة والمجسم ودافعوا عن العقيدة الإسلامية بالأدلة العقلية ، وكان متجهم العقل والتأويل المجازي ، وأسس مذهبة المعتزلة وأصل ابن عطار (٨١) ، وهي عدد من الطبقات حتى القرنين السادس والسابع الهجري ، للمزيد أنظر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط دار التراث ١٩٩١ م ، كذلك الشهرستاني ، الملل والنحل جـ ١ تحقيق عبد العزيز الوكيل ط الحلبي ١٩٦٧ م .

وعلى ذلك فلم يعد من مهمات العقل الذي تتمثله الفلسفة في مسارها التاريخي مقصوراً على مجرد التبرير للمعطيات سواء كانت سياسية أو دينية أو أخلاقية أو واقعية ، بل في تحليل ونقد الواقع والأوضاع عن طريق التعمق في الفهم ومحاولة التغيير والإصلاح لما هو أحسن وأفضل ، وحتى لا تصبح الفلسفة مجرد علم فقط أو مشاهدة على الواقع ، ومجريات الأحداث والقضايا ، وحتى لا يصبح الفيلسوف مجرد شخص ناقل أو متفرج على الأحداث دون أن يكون مسيراً لها ، فالعقل إلى جانب الفلسفة متمثلاً في وعيها الحضاري ، قادراً على فهم كل شيء وتبريره .

لقد تمثلت الفلسفة في وعيها الثقافي وغاياتها الحضارية ، حتى الإنسانية ، وما يرتبط بالإنسان من علوم ومعارف طبيعية وإنسانية ، وكما أشرنا فيما سبق إلى الوعي الفلسفي بالعلوم الطبيعية ومناهجها المختلفة ، كذلك تعلقت بالعلوم التي تتصل بحياة الإنسان ، الفرد والمجموع في نطاق الحياة الإنسانية الشاملة ، فلم تنعزل عن الإنسان ، بل تنتهي الحكمة إذا لم ترتبط بالعلوم الإنسانية ، فالفلسفة بناء إنساني يقوم بها الإنسان لكي يتلاءم مع واقعه ، كما تفسر الإنسان العالم والواقع التي تحيا فيه وبه.

بناءً على ذلك أصبح للفلسفة القدرة على يقظة الوعي الإنساني ، والقدرة على النظر في الظواهر الإنسانية ، ووصفها وتحليلها ، لاكتشاف مدى توافقها مع العقل الإنساني ، والقدرة على تفسير الظواهر والقضايا المختلفة ساعد على إنفاذ العقل والفكر الإنساني من الواقع في الخرافات والسحر والأساطير والأوهام ، والاتجاه لكشف الحقائق التي تفيد الفرد وتساهم في تقدم وتطور الحضارة البشرية ، وقد حدد فلاسفة العلوم هذه الأوهام التي يجب التطهر منها ، لسلامة التفكير ووضوح العقل وهي :

أ- أوهام القبيلة ، وهي أوهام طبيعية بالنسبة للبشر ، يكتسبها الفرد مما يشيع في محيطه العام من تصورات وخيالات خاطئة دون إعمال العقل ، وقد ينخدع بها العقل أو يتأثر بالآراء والعواطف ... إلخ

ب - أوهام الكهف : وهي الأخطاء التي يختص بها الفرد لأن لكل إنسان كهفاً خاصاً به ، دون أن يدرك أوجه الشبه بين الأشياء ، فبعض العقول تنزع إلى التحليل ، وترى أوجه الخلاف والتباين في الأشياء أينما وجدت ، كالعلماء وبعض العقول الأخرى تنزع بطبيعتها تركيبية ، تميل إلى البناء والتركيب وترى أوجه الشبه بين الأشياء كالشعراء والفلاسفة ، والبعض الآخر يميل إلى تقديم ما هو قديم ، كذلك بعض العقول تحتضن

بحماس كل أمر جديد وقليل من العقول تحتفظ بالحد الأوسط ... وهكذا علماً بأن الحقيقة لا تعرف التحيز أو التعصب ..

جـ - أوهام السوق : وهي الأوهام أو الأخطاء التي يقع فيها الفرد من خلال التجارة واختلاط الناس بعضهم ببعض ، وعادة ما تنشأ عن تبادل اللغة ، لأن أداة التخاطب بين الناس ، حيث أن سوء تكوين الكلمات اللغوية ، وعدم موافقتها تعطيل شديد للعقل .

د- أوهام المسرح : وهي أوهام يقع العقل في أخطاء بسببها ، تلك التي تنتقل من نظريات الفلاسفة ، أو المفكرين المختلفة ، أو من قوانين وأدلة خاطئة ، أو غير عقلية أو منطقية برهانية ، وتصاغ بطريقة روائية أو مسرحية ، كما يشير إليها فرنسيس بيكون F, Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) م [1] ، وهو فيلسوف إنجليزي ، لم يقنع بفلسفة أرسطو ، ولم يرض عن نظام الفلسفة في القرون الوسطى ، إذ لاحظ أن وعي الفلسفة في غاياتها الحضارية ، لم يؤد إلى تقدم أو شيء جديد ، إذ أن فلاسفة القرون الوسطى كانوا يضيعون جهدهم في مناقشات - وأوهام - قليلة الفائدة ، بالإضافة إلى التلاعب بالألفاظ واللغة ، كذلك الاقتناع بالحقائق المجردة التي لا يبنى عليها عمل ، وعلى ذلك وجه بيكون اهتمامه وفلسفته نحو المسائل العملية ، التي تتصل بحياة الناس ، إلى دقة الملاحظة والتجربة والعناية بإعادة النظر إلى الاستقراء - لاستخلاص المعلومات وترتيبها ، وقال بضرورة تطبيق هذا المبدأ على العلوم الإنسانية وبصفة خاصة على الأخلاق والسياسة .[2] وبهذا التوجه الجديد ، يصبح للفلسفة الوعي الكافي بسيرتها الحضارية ، والتي نحتاج فيها إلى أساليب جديدة للتفكير ووسائل حديثة للفهم والعقل .

تستمد الفلسفة وعيها الحضاري من خلال اتصالها بالعلوم الإنسانية التي تتصل اتصالاً مباشراً بالإنسان ، سلطان الله تعالى في أرضه ، حامل الأمانة الإلهية التي عجزت عنها الجبال لقوله تعالى " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا " الأحزاب (٧٢) .

وقد اتضح ذلك في عرضنا للفلسفة ومسيرتها عبر العصور من اليونان حتى الآن ، وبالاتجاهات المثالية ، والواقعية ثم الإنسانية ، فمحاورات أفلاطون زاخرة بالموضوعات والقضايا الإنسانية ، كالمحبة ، والصداقة ، والجمال ، والعدالة ، والتعليم

---

١ ول ديورانت - قصة الفلسفة (من افلاطون إلى جون ديوي) - صـ ١٦٤ ، صـ ١٦٥ - ترجمة فتح الله محمد المشعشع - ط مكتبة المعارف - بيروت - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٢ ا - س رابيرت - مبادئ الفلسفة - صـ ٢٥٢ - صـ ٢٥٣ .

، والعلوم المختلفة ، وتمثل المدينة الفاضلة ، كما أن فلسفة أرسطو لم تبتعد كثيراً عن السياسة والأخلاق ، والتدبير المنزلي - أو الاقتصاد - وليست فقط المنطق الطبيعيات والميتافيزيقا - أو الفلسفة الأولى ، ناهيك بسقراط ، الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، متمثلاً ، الفضيلة ، والبحث في المعاني والماهيات ، كذلك كان البحث عن السعادة الإنسانية ، وكيف يمكن تحقيقها للإنسان عند مدارس الرواقية والأبيقورية ، رغم الاختلاف المنهجي أو الفلسفي بينهما .

يضاف إلى ذلك وعي الفلسفة المسيحية - هو الجانب الإنساني ، والذي يتلخص في عقيدة الله تعالى ، والإنسان ، وربما ما بقي منها هو : أريوس وأوغسطين ، أي الإنسان والتجربة الحية ، ثم شاع الاهتمام ببعض الموضوعات الحيوية عبر العصور الوسطى ، منها : العقل ، والنفس ، والاتصال ، والخلود ، والمعاد ، وهي تتصل بالجوانب الإنسانية ، في الفلسفة بلا شك ، ثم ازدهر هذا الوعي الفلسفي من خلال عصر النهضة الأوربية حتى العصر الحديث - عند ديكارت ، وبداية الوعي الأوربي (الكوجيتو) عند ديكارت حيث أصبحت الفلسفة مرادفة لهذا الوعي الذاتي والإنساني معاً .

وأصبحت المثالية الترنسندنتالية Transcendant الكانطية تطويراً (لكوجيتو) - الذي يتلخص في قول ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود) إثباتاً للأنا والذات ، محوراً للكون والوجود - ثم تحورت الذات إلى روح والروح إلى تاريخ عند هيجل ، حتى أصبح الوعي الفردي مرادفاً للوعي الحضاري - وأصبح الإنسان - هو الإنسانية كلها .[1]

كانت فلسفة التنوير قبل ذلك قد ربطت الفلسفة بالعلوم الاجتماعية فخرجت عن دوائر التخصصين في صياغة البراهين للاستدلال على وجود الله تعالى وخلق العالم ، وخلود النفس ، وتجاوزت ذلك إلى وضع الإنسان في المجتمع والتاريخ ، وأنظمة الحكم والمذاهب السياسية[2]

لقد قام الوعي الأوروبي بالكشف عن الجوانب الإنسانية في اللاهوت وفي الطبيعة ، فإذا كانت الموضوعات الفلسفية الكبرى تدور حول : الله تعالى والطبيعة والإنسان . وأن الفلسفة إما إلهية ، أو طبيعية أو إنسانية ، فقد كشف الوعي الفلسفي ،

---

١ دكتور حسن حنفي - متى تموت الفلسفة ومتى تحيا ؟ - (مجلة عالم الفكر) صـ ٢٤٢ .
٢- المصدر السابق - صــــ٢٤٣ .

أن الفلسفتين الإلهية والطبيعية ، هما في حقيقة الأمر فلسفة إنسانية ، وقد أشار فيورباخ ، " أن كل علم لاهوت هو علم إنسان مغلوب " [1] بمعنى : أن كل ما قيل عن أوصاف الله تعالى وصفاته هو قريب الصلة بالإنسان ، أو أن الله تعالى منح الإنسان مثل هذه الصفات - مع الفارق بين الألوهية المطلقة والإنسانية المتجزئة ، لقد كشف الفيلسوف اللغوي هوسرل أن العلوم الطبيعية ذاتها بناء إنساني ، وأن العلم هو الكشف عن البناء الشعوري للعلم في مرحلة ما قبل الفهم ، فالإنسان (في الكوجيتو) هو الأنا أفكر وهو موضوع التفكير - أو الوعي الفلسفي - في أن واحد .

وليس الوعي الفلسفي ، في المسار الحضاري الإسلامي والعربي بعيداً عما ارتبطت به الفلسفة في وعيها الحضاري المتواصل .

وكما سبق الإشارة إليه - ارتبطت الفلسفة في تراثنا العربي الإسلامي كذلك بالعلوم الإنسانية ، وبالموسيقى عند الكندي ، والفارابي ، ومعلوم الأخلاق والسياسة عند الفارابي ، في مدينته الفاضلة [2] وبالشريعة عند الفيلسوف العربي المغربي الأندلسي الوليد بن رشد (٥٩٥) هـ وعلوم الحياة مثل الطب والتشريح والنبات والصيدلة ، عند أبن سينا (٤٢٤) هـ ، وكذلك في رسائل جماعة إخوان الصفاء [3] وفي ارتباط الفلسفة بالتاريخ ، تجسد الوعي الفلسفي بالتاريخ لا من حيث رصد تاريخ الفكر الإنساني ، وتطوراته ومتغيراته المختلفة بل من حيث التفكير في تطور التاريخ وحركاته المختلفة ، والبحث عن قانون حكم هذا التطور ويحكم هذه الحركات ، وتاريخ الفلسفة هو التعرف على المذاهب والنظريات ، والفلاسفة الذين لعبوا دوراً هاماً وفعالاً في نمو الفكر وتطوره ونظرياته ، بالإضافة إلى التعرف على التجارب الإنسانية الفردية والاجتماعية - وروح العصور المختلفة ، والتي خرجت من خلالها النظريات والمذاهب الفلسفية ، كذلك فتاريخ الفلسفة هي تاريخ الروح الإنسانية في مواجهة الواقع ، ولا يمكن الفصل بين التاريخ ومجموع تجاربه وأحداثه ومذاهبه وبين الفلسفة كفكر وتصور ، وتحليل ونقد ، وبراهين ، وتركيب ، ونتائج تسبقها مقدمات .

وبدخول التاريخ في الوعي الفلسفي ، تتبلور وتزدهر غاياتها الحضارية ، التي تعبر عن رصيد الفكر الإنساني ، وإنجازات الروح والعقل الإنساني من خلال تجاربه ، وتفاعلاته مع الواقع ، والتصورات .

١- نفس المصدر ، صـــ ٢٤٣ .
٢- الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق دكتور علي عبد الواحد وافي ، ط ١٩٨٤ م .
٣- إخوان الصفاء ، الرسائل ، تحقيق خير الدين الزركلي - تقدم د. طه حسين . ط . بيروت ١٩٢٧ ، ١٩٥٨ م .

وقد شهد الوعي الفلسفي بالتاريخ عند الفيلسوف اليوناني - والعلم الأول أرسطو ، بعث التاريخ من جديد ، وهو تاريخ الفكر الفلسفي اليوناني ، فلم يمكن أرسطو يبحث مشكلة أو قضية فلسفية أو علمية إلا بعد أن يعرض لأراء السابقين عليه ، مما يفسح مجالاً لإحياء جدلية الفكر ، والمقارنة والتحليل قبل التركيب والصياغة ، وهذه أدوات الفكر الفلسفي ، وقد صار في هذا المنهج أيضا عملاقان من فلاسفة التاريخ وهما ابن خلدون (١٤٦) م ، وأرنولد توينبي ت عام (١٩٧٥ م)

كذلك عرض القديس أوغسطين (٣٥٠) م لتاريخ النبوة (في مدينة الله) مبيناً مراحل تقدم الوعي الإنساني ، واصفاً أسس فلسفة التاريخ .

وفي الفلسفة الحديثة منذ القرن الثامن عشر - أكتشف الوعي الفلسفي بالتاريخ - عند فيكو ، وكوندرسية ، وفولتير ، وروسو ، إذ ارتبطت الفلسفة التاريخ ، وأصبح التاريخ موضوعاً للفلسفة ، وأصبحت الفلسفة هي المعبرة عن تقدم هذا الوعي بالتاريخ ، وعبر هيجل عن ازدهار تقدم الوعي الفلسفي بالتاريخ حين أشار إلى أن التاريخ ليس هو الصور الفارغة من الأحداث والوقائع ، بل ملئ بالفكر ، وقد سبقه أبن خلدون (١٤٠٦ م) إلى أن التاريخ علم وفن ، تحليل وتعليل ، وجاء ماركس بالمادية التاريخية الجدلية التي تؤدي إلى تغيير الواقع والحياة الاجتماعية .

ثانياً : طبيعة التفكير الفلسفي ومنابعه :

قد يعتقد بعض الناس ، أوَ كما يشاع بينهم ، أن التفكير الفلسفي موقوف على طبقة من المفكرين أو الـ[illegible]ـين ، ذوي الإستعدادات الخاصة قد لا تتوافر لغيرهم ، أو لأنهم يبحثون في قضايا ومسائل فكرية أو نظرية هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع أو الحقيقة ، أو قولا يستسيغ البعض الأخر ما يذهبون إليه ، أو يصلون إليه من أفكار ومعان وتحليلات ونقد ، وكان التفكير الفلسفي - أو التفلسف لا يخص إلا طبقة معينة من المثقفين أو الناس ، وكأنهم في برج عاجي بعيداً عن الواقع ، والحياة العامة ، وما تموج به الحياة من علوم ومعارف وقضايا - اجتماعية ، وأخلاقية ، وسياسية وعلمية ودينية ، إيجابية ، أو حتى اقتصادية معاشه .

لكن مثل هذه التصورات ، أو الادعاءات الخالية من الصدق والصحة ، تزول ، وتنتهي حين يتعين الفرد في الإطلاع بماهية الفلسفة ، والتفكير الفلسفي أو التفلسف

حيث أن الفلسفة لون أصيل من ألوان الفكر الإنساني ، ليست مستقلة عن الفكر الإنساني ، أو عن العمل ، فالتفكير الفلسفي متداخل في أعماق الإنسانية منذ قديم الزمان ، يتطور بتطور الفكر والعلوم فلم يرتفع الإنسان عن مستوى الحيوان ، إلا بفكره ،

وقوته العقلية أو العاقلة ، فالحيوان يرى ويسمع ويتذكر ، لكنه لا يستخدم هذه القوى إلا في حاجاته الوقتية ، أو إشباع غرائزه وحفاظ نوعه أما الإنسان فإنه ينظر في ظواهر الكون على اختلاف أنواعها ، فيتصورها ، ويشكل موقفاً بشأنها ، ثم يجتهد الإنسان في محاولة التعرف على علل الظواهر ، وعلاقة حقائق الكون والوجود بظواهره فالإنسان يفكر ، ويعقل ، وبالتالي يبحث في ماهيات الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها البعض الأخر ، بهدف الوصول إلى العلل وربط الأسباب بالمسببات من أجل الوصول إلى تفسير واضح ومقنع لحدوث الظواهر ، وحل الألغاز التي تلم بها وكذلك صياغة نتائج مفسرة لأمور الحياة وحل مشكلاتها وقضاياها ، وهذا هو التفكير الفلسفي ، وظيفته التي نبحث فيها .

أن التفكير الفلسفي العميق في أنحاء الوجود ، والموجودات ، وطبائع الأشياء والوقائع ، لا يمكن أن ينفصل عن الإنسان ، فكما أن الصناع على اختلاف أنواعهم يعرفون دقائق أعمالهم ، ويكونون على علم كامل بدقائق اختراعاتهم وأعمالهم ، كذلك صاحب التفكير الفلسفي ، فإذا كانت الدهشة من أهم بواعث التفكير الفلسفي - كما ذهب أرسطو [1] فقد برز الإنسان في عالم مختلف في ظواهره ، وزمانه ، فبدأ يسأل : لماذا ؟ ، ومن أين ؟ وإلى أين ؟ وكيف ؟ وهكذا ، فبدأ صاحب التفكير الفلسفي يتلمس السبيل المختلفة في التفكير للوصول إلى حلول للمشاكل ، والقضايا ، والظواهر على اختلافها .. نعطي مثالاً على ذلك . فالمصريون القدماء هم واضعو ، أساس علم الهندسة لما ألجأتهم الحاجة لحل مشكلات الزراعة ، والبناء والمساحات المختلفة من الأرض ، وفيضان النيل ، كذلك الكلدانيون : نظروا في النجوم ليهتدوا بها في سيرهم وهكذا ، كلما أندهش الإنسان واعترضته مشكلات ، ونقصته حاجات - لجأ إلى التفكير العميق ، وهذا نوع من التفكير الفلسفي ، بل أن الفرد في كل سلوكيات حياته يفكر تفكيراً فلسفياً .

لقد عبر هذا اللون من الفكر عن ذاته ، بقوة وتجدد دائمين عبر القرون ، مثله في ذلك مثل الدين والعلم ، ولا يمكن لكل فرع من هذه الفروع الثلاثة : الفلسفة : والدين : والعلم أن يحل محل غيره ، أو يستغني عن الأخر .

فلا الإيمان بالقلب يغني عن الفلسفة - أو التفكير الفلسفي - لأن المؤمن لا يكف عن التفكير ، والتساؤل بالعقل عما وراء الإيمان ، من مجهول وغامض ، وقد جاء علم اللاهوت ، أو الأديان أو التوحيد لكي يؤكد على الإيمان المطلق بالوحدانية الإلهية ،

١- أ . س ، رابوبرت - مبادىء الفلسفة - صـ٣ ، صـ٤ .

والوجود الإلهي وأثره الفعال في عالم الوجود والموجودات ، وكان للتفكير العقلي والفلسفي دوره الأكيد في تدعيم صدق الإيمان والاستدلال على صدق الشريعة والعقيدة الإيمانية والقلبية بالله تعالى ووحدانيته وأثره الساري في الموجودات .

كذلك فإن العلم ، لا يغني عن الفلسفة والتفكير الفلسفي ، لأن العلم كشف عن قوانين ، واختراع نظريات ، وتقدم مادي يؤثر بنتائجه في حياة الإنسان والموجودات سلباً أو إيجاباً ، وقد يسخر العلم العقل لتبرير نظرياته وبحوثه واختراعاته دون نظر إلى ما تؤدي إليه الاختراعات والمكتشفات من آثار سلبية على حياة الإنسان ، أو لهدف أو مصلحة ما ، هنا يأتي دور الفلسفة والتفكير الفلسفي في تحليل ونقد نتائج الكشف العلمي ونظرياته وقوانينه وضبط العمليات العلمية ، للوقوف على المعايير الأخلاقية والدينية والحفاظ على حياة الإنسان من أثر سلبية قد تؤدي إلى حماقات تدميريه ، مادية ، أو أخلاقية ، أو دينية ، أو على حد قول " نقولا الكوزي (ت عام ١٤٦١) م ، أن العلم قد يبيع نفسه لمصلحة طبقة من الطبقات ، والعقل قد يطوع نفسه لأية مصلحة في سبيل أن يتخذ العلم كتعبير أوحد عن الوجود [١] أو يطوع قضاياه وقوانينه لتحل محل الفلسفة أو التفكير الفلسفي .

لكن إذا نظرنا إلى الحقيقة نجد أن لا يمكن أن يصبح العلم بديلاً عن الفلسفة ، لأن التفكير الفلسفي يدرك حدود العلم بالمعرفة ، كما يدرك ، عمق الإيمان ، والمعرفة الصادقة بحقائق الأديان وعلوم الشريعة والحقيقة ، كما يؤدي إلى أن يستيقظ الوعي ، والضمير الإنساني ، بمعاني الأشياء وماهياتها ودلالاتها ، كذلك فإن الفلسفة ، والتفكير الفلسفي يفتح المجال إلى عقل الإنسان لكي يدرك كل مالا يعرف بطرق العلم ، أو حتى الإيمان ، ويسبق إلى (اللا معروف) - أو الميتافيزيقي - الذي يمتد خارج نطاق العلوم المختلفة .

وهذا ما يعبر عن طبيعة التفكير الفلسفي ، وهو تجاوز حدود الواقع المعروف والإيمان بوجود المفارق ، أي الروح ، النفس ، الملائكة ، عالم العقول والماهيات ، عالم اللا منظور - العالم اللا مادي - الوجود الإلهي ومع إيمان الفيلسوف الواقع المادي ، والحياة الواعية وما بها من مشكلات وقضايا يجب النظر فيها والتفكير في حلول عقلية لها ، فإنه يحلق كذلك في نطاق مفارقة حدود الطبيعية ، وتجاوز نطاق العلم ، مما يميز التفكير الفلسفي كذلك ، هو محبة الميتافيزيقا ، ما بعد الطبيعة ، إنه البحث فيما

١- دكتور ، محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ١٢ ، ط دار النهضة ببيروت ، ١٩٨٠ م .

وراء العلم والعالم المنظور ، للوصول إلى المغزى الحقيقي من الوجود بأكمله ، التفكير الفلسفي يتجاوز أسئلة العلوم مثال ذلك : إذا كان السؤال العلمي يقول : هل الأمطار الرعدية مصحوبة دائماً بالصواعق .. ، فإن السؤال الفلسفي تعني : لم تصدق ، أولا تصدق هذه القضية وغيرها من قضايا العلم ، وبذلك يصبح التفكير الفلسفي قد تجاوز الطبيعيات وعلومها إلى المنطق ونظرية المعرفة ، وإذا ذهب التفكير الفلسفي من القضية نفسها إلى السؤال : هل هناك مدبر وراء ظواهر الطبيعة ، فإنه يكون قد تجاوز علوم الطبيعة إلى علم الإلهيات .

وإذا كانت الفلسفة والتفكير الفلسفي يعني معرفة الحقيقة ، فإنها أيضا " عمل " وفقاً لمقتضى تلك الحقيقة ، والتفكير الفلسفي بذلك لا يقف عند هذا الحد بل يحاول " تغيير " الواقع لما هو أفضل وفقاً لمقتضى الحقيقة .

فالفلسفة تنزع وكما أشرنا فيما سبق ، إلى تغيير العالم وتجديده وتقويمه بالأخلاق ، والسياسة والإيديولوجيا ، لأنها تنشد مجتمعاً أفضل ، عالماً مثالياً ، يعلو فوق المتناقضات ، حتى يحيا الإنسان في عالم أفضل يملؤه السلام ، والمحبة والأمن الطمأنينة الداخلية - تلك التي افتقدتها الحياة الاجتماعية والسياسية في ظل الدولة الرومانية - بعد عصر الفلسفة اليونانية الهلينية الأولى الأمر الذي دفع بفلاسفة " الرواقية " إلى وضع أسس جديدة للتفكير الفلسفي ، الذي ينجو إلى الفضيلة ونشدان الطمأنينة والسلام الداخلي حين يفتقد الإنسان حديثه الخارجية في ظل نظم السياسية واجتماعية مجحفة بحاجات الإنسان واحترام ماهيته ، بل والدعوة إلى تمثل فكرة المواطنة الكونية ، والمواطنة العالمية عند الأبيقورية كذلك والتي يستحب على ما يسمى " بالشفقة الإنسانية " Humano genere caritas - فللإنسان مواطنة في الكون - كما أنه مواطن في نفسه ، وكذلك فأنه جزء من العالم والكون ، كما أنه جزء من الجماعة الإنسانية .[١]

أن طبيعة الفلسفة ، التفكير الفلسفي تختلف عن طبيعة العلوم الأخرى حيث أنها : لا موضوع محدد لها ، لأن كل موضوع محدد هو موضوع لعلم من العلوم ، وبالتالي فليست الفلسفة علماً محدداً نستطيع أن نتعلمه ، ثم علم الجبر ، والهندسة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والطب والصيدلة ، والنحو ، واللغة ، والجيولوجيا وغير ذلك ، حيث أن كل علم من هذه العلوم له موضوعه المجرد الذي قد يختلف حوله الكثيرين وماله من

١- دكتور عبد الرحمن بدوي - خريف الفكر اليوناني ، صـ٤٩ ، صـ٥٠ ، ط دار القلم ببيروت ١٩٧٩ م .

قواعد ، وقوانين ، فإن الفلسفة نظر وتفكير شامل في كل الموضوعات ، إذ لا أتفاق في شيء أو على شيء ، فالشأن بالنسبة للإنتاج الفني الذي يحمل طابع الفردية ، والذاتية ، والأصالة والإبداع الفردي وإذا وجد إتفاق في التفكير الفلسفي ، فإنه يصبح تفكيراً علمياً لا تفكير فلسفياً ، ولأصبحت الفلسفة علماً كذلك ، لأنه لا اتفاق لأن الاتفاق من طبيعة المنهج العلمي ، وحيث أن المنهج الفلسفي ، ذاتي .

لقد حاولت بعض التيارات العلمية احتواء الفلسفة داخلها ، أو إخضاع الفلسفة إلى العلم ، لكن معظم هذه المحاولات باءت بالفشل ، حيث أن طبيعة الفلسفة والتفكير الفلسفي يختلف عن طبيعة العلم ، لكن الفلسفة وطبيعة التفكير الفلسفي له أثر كبير في خدمة العلم ، والعلوم الأخرى من حيث المنهج التحليلي والنقدي ، القائم على تعميق الأفكار والمعاني والاستدلالات على ماهيات وطبائع الأشياء ، فمن هذه الزاوية يصبح للتفكير الفلسفي أثرة الواضح وفائدته بالنسبة لدراسة الأشياء والعلوم الطبيعية والإنسانية ، لذلك ظهر ما يسمى بفلسفة العلم .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن فلسفة العلم هي : البحث فيما وراء النظريات العملية ، والنظرة الكلية الشاملة لمسائله أو تجاوزها إلى ما هو أرقى وأكثر معقولية ابتعاداً عن حدود الواقع المحسوس الذي يموج بتيارات متناقضة أو متعارضة .

وإذا كان التناقض هو أساس الوجود والواقع والطبيعة ، فإن طبيعة الفلسفة والتفكير الفلسفي ، يحاول تجاوز هذا التناقص ، وهذا الواقع إلى ما هو معقول وواضح ، وإلى جوهر هذا الواقع وهذا الوجود .

وإذا كانت النظريات العملية في شتى مجالات العلوم المختلفة ، متغيرة ومتطورة باستمرار ، طبقا للتطور وسنن التغير في الحياة والكائنات ولعل هذا التطور المستمر - هو أساس التجديد المستمر والاختراعات والاكتشافات فإن الفلسفة ، وطبيعة التفكير الفلسفي ، مع التسليم للعلوم بذلك ، إلا أن الفلسفة تؤمن بأن هناك علة ، وجوهر ثابت في الوجود ، لا يتغير ، كما توجد أفكار قائمة وراء المتغيرات .

إن اختلاف الفلاسفة فيما بينهم يتفق مع طبيعة الفلسفة والتفكير الفلسفي وواقعة ، تجريديا ، وذاتياً ، وكذلك يذهب هنري برجسون ١٩٤٠ م في توضيح الاختلاف بين الفلاسفة ، في القضايا ، والمشكلات ، الأمر الذي يجعل كل منهم له موقفه الخاص " بأن الفلاسفة ، أشبه بمجموعة من المتفرجين على ملعب لكرة القدم ، إذ يرى كل واحد

من هذه المجموعة الملعب واللاعبين من موقفه الخاص ، الذي لا يشاركه فيه أحد غيره [1] ولهذا فإن الفلسفة وتفكير الفلاسفة يحمل الطابع الفردي والذاتي أو الإبداعي .

للفلسفة والتفكير الفلسفي دور هام في تطور الأمم والشعوب والأفراد ، وظهر أن الفلسفة واضحاً في الإرهاصات الحضارية المختلفة ، بالمشرق وبلاد الغرب ، وساعدت أفكار الفلاسفة في نهضة الشعوب وتغيير النظم الاجتماعية والسياسية ففي أوروبا ساعدت آراء الفلاسفة مثل فولتير ، وروسو ، ووي لامبير في الإطاحة بالنظم القديمة ، وإيجاد حلول للمشكلات ، وإن كان ذلك كذلك بالنسبة للفلسفة وطبيعتها ، إلا أن ليس لها فائدة مادية مباشرة بالنسبة للفرد وكما أشرنا في سبق ، ليست الفلسفة مهنة لكسب العيش والارتزاق أو الثروة وكسب المال ، بل هي وسيلة من وسائل التنوير وتقديم الأفكار للشعوب ، والنظرة الفاحصة للوصول إلي الحقائق والمعاني والماهيات ، كذلك المعرفة وإزالة الجهل ، ولم تعرف فيلسوفاً على مرّ العصور أتخذ من التفكير الفلسفي مهنة أو وظيفة .

كان الفيلسوف اليوناني فيثاغورث ، يدرس لتلامذته العلوم الرياضية والبراهين الهندسية والنظرية - وهو يعلم ما يدور في أفق بعضهم حول الفائدة التي يحصلون عليها من وراء " البرهان الهندسي الذي يقول ، إن الزاويتين المتجاورتين على مستقيم قائمتين .. " فلما أعترض أحد التلاميذ على فيثاغورث قائلاً له : ما هي الفائدة المادية التي تحصل عليها من هذا البرهان ؟

فأعطاه فيثاغورث بعض النقود المالية ، متهكماً عليه ، شارحاً له أن طبيعة البرهان الفلسفي الهندسي يزيل الجهل ، والظلام الذي يخيم على العقول .

ويشير الفيلسوف الألماني كانط Kant ، إلى طبيعته الفلسفية ، يقول : أن نجوم السماء فوق رأس ، لكن القانون الخلقي في قلبي " إشارة منه إلى تقديسه للأخلاق ، والواجب الخلقي الذي منبعه الضمير والنية الطيبة وقد كان ذلك الالتزام الخلقي الكانطي بادياً في سلوكياته وحياته المختلفة .

ولما كان طلب الحقيقة من طبيعة الفلسفة ، فقد نجد ذلك في سلوكيات وحياة الفلاسفة القدماء أيضاً ، إذ كان الناس يشاهدون أحد فلاسفة اليونان وهو " ديوجين الكلبي " يسير في وضح النهار وهو يحمل في يده مصباحاً ، وعندما سئله بعض الناس

١- د: محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف ، صـــ ٢٤ .

عن ذلك قال لهم : أنني أبحث عن الحقيقة في وضح النهار ، وبهذه الإجابة كان يتهكم على الناس الذين يغرقون في ظلام الجهل ، وهم يظنون أنهم يعرفون ؟

إن طبيعة الفلسفة ، في نطاق فلسفة العلوم - هي تحليل وتبرير وبرهنة ، على المبادئ التي تقوم عليها العلوم المتخصصة ، والتي تقبلها كمسلمات لا برهان عليها ، مثال ذلك : أن العلوم تستند إلى أفكار أو مبادئ مسلمات - كالكلام (اللغة) ، والفن ، والمكان ، والزمان ، والعلة ، والمعلول ، والقوة ، والحركة ، والامتداد ، وباختصار المقولات وهي التي حددها أرسطو بعشرة مقولات ، وأشار كذلك إلى الجوهر والعرض.... الخ ، فمهمة الفلسفة هنا هو فحص وتوضيح وتبرير اليقين يمثل هذه المسلمان أو المقولات ، والتي يعمل العقل من خلالها يأتي دور الفلسفة ، في التحليل والتعليل ، التبرير ، والبرهان في نطاق ما يسمى بفلسفة العلم .[1]

ولذلك يشير الفيلسوف أبن سينا (٤٢٤) هـ ، " إلى الفلسفة الأولى : بأنها إفادة اليقين بمبادئ العلوم الجزئية "[2]

وبعدما عرضنا بإيجاز وتركيز شديد لطبيعة الفلسفة والتفكير الفلسفي فإننا نلاحظ أن لهذا التفكير جوانب أخرى ، أهمها (منابعه الأساسية) وهي كثيرة ومتعددة ، نحاول أن نجملها في عدة نقاط رئيسية : -

١- الوعي بتاريخ التفكير الفلسفي : -

مما لا شك أن تتبع تاريخ ونشأة الفلسفة والتفكير الفلسفي وطبيعته ، يعد من منابع الفلسفة ، إذ لا يستغني مفكر أو فيلسوف من تتابع التفكير الفلسفي قديماً وعير العصور المختلفة شرقاً وغرباً ، وفي هذا تشكيل جدلي وحوار ثقافي وحضاري يتمثله المفكر الفيلسوف تجاه آراء وأفكار ونظريات السابقين المعاصرين كذلك ، وقد يبدوا التفاعل الفكري بين الفلاسفة في مختلف جوانبه ومباحثه ، في المعرفة ، والوجود ، والطبيعة ، والأخلاق والسياسة والاجتماع وغير ذلك من خلال تشكيل المواقف المتشابهة وكذلك المختلفة بين المفكرين والفلاسفة ، ويصبح لكل منهم موقفه الخاص ورأيه الذاتي ، أو الموضوعي في مثل هذه القضايا ، بل وربما ترجع نشأة المذاهب والمدارس الفلسفية لهذه الأسباب ، فتلاحظ نشأة وتطور مذاهب ومدارس فلسفية طبيعية ، وجودية ، وميتافيزيقية وأخلاقية أو اجتماعية وسياسية ، لكل مذهب ومدرسة

١- دكتور محمد ثابت الفندي - فلسفة الرياضة ، صـــ ٩ ، صـــ ٦٦ ، ط ١٩٦٩ م .

٢- أبن سينا - كتاب الشفاء - ص١- صـــ ١٨ ، تحقيق إبراهيم مدكور ط دار المعارف .

أيدلوجيا خاصة بمفكريها وفلاسفتها ، فنجد مذاهب الطبيعيين اليونانيين الأوائل وعلى رأسها طاليس ، وأنكسمندريس ، وأنكسمانس ، وهيراقليطس بالإضافة إلى بارمنيدس ، وديموقريطس ، يبحثون في الطبيعة وينظرون بالدهشة والتعجب لهذا الوجود ، باحثين عن علل هذا الوجود الطبيعي وجوهره الأساسي ، وعن طريقة البحث العلمي والعملي ، التأمل النظري والعقلي يذهبون إلى افتراضات شتى ومختلفة ، ووصلوا إلى عدة مبادئ للوجود وأهل الكون - مثل الماء ، أو الهواء ، أو النار ، أو اللامتناهي أو الذرة ، وهي الجزيء الملون والمتداخل في تشكيل الموجودات وله طبيعته الخاصة ، ثم نجد مذاهب الرواقيين والأبيقوريين الذين تسوقهم الدهشة والتعجب كذلك إلى البحث في الواقع والحياة الإنسانية العملية ، للوصول إلى تحديد أفضل حياة تستطيع أن يحيا بها الفرد ، فقالوا ، العيش وفق القانون الطبيعي ، أو الانسحاب من الواقع ، إشباع غرائز الإنسان باللذة أو الحياة الروحية ، ونشدان الطمأنينة الداخلية للفرد ولكسب حريته الداخلية بدلاً من تلك التي فقدها خارجياً .

وكان للتعجب والدهشة أثرها الواضح في بلورة وتطور الأفكار الفلسفية عند كبار فلاسفة اليونان سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ثم انسحب ذلك أيضا على فلاسفة المشرق بالإضافة إلى الفلاسفة الإسلاميين كالكندي والفارابي ، وابن سينا ، وأخوان الصفاء والغزالي وابن رشد فأندفع هؤلاء للبحث والتأمل والنظر في قضايا ومشكلات الوجود الطبيعي والمتافيزيقي والإنساني .

٢- الدهشة أو العجب :-

يهتف الشاب اليوناني " تيازينوس " سقراط ، قائلا له : بحق الآلهة يا سقراط : أنني لا أفيق من الاندهاش من معاني الأشياء ويصيبني الدوار (الفزع) بمجرد النظر إليها ، فيجيب سقراط : حقاً أن هذه الحال بعينها هي التي تميز الفيلسوف ، وهذا (الاندهاش) وحده هو أصل الفلسفة .[1]

وعلى ذلك فإن فعل التفلسف أو الفلسفة - يبدأ مع الدهشة ، وهي طابع الفلسفة ، وجوهر التفلسف وقوته المحركة ، ولو زال لتوقف التفلسف ، ويتبلور ذلك في السؤال ، والعجب ، ماذا عن الطبيعة ، وعن الوجود ، البديهي أن توجد ، وتبصر ، وتتحرك ، ؟ هل من الأمور البديهية أن تولد ، وتعيش ، وتموت ؟ هل حياة الكائنات والقيم والنظم

١- أفلاطون - محاورة تياثيتوس (أو العلم) ، صـ١٥٥ ترجمة دكتورة أميرة مطر كذلك دكتور عبد الغفار مكاوي - مدرسة الحكمة صـ٨٩ وما بعده ، ط دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٧ م .

والنظريات والمواصفات .. الخ وموتها شيء وادنح بذاته ؟ أليس في نشأة الأشياء والموجودات ما يثير العجب والدهشة ؟ أن الشخص العادي لا يخطر بباله أن يسأل هذه الأسئلة ، في حين أن من يتعجب من وجود الموجودات ، وأنها ليست عدماً ، وأن مجرد وجودها يثير التساؤل والتعجب من حقيقتها ، هو أول من أطلق الفكر الفلسفي في عالم الوجود ، سواء من فلاسفة اليونان ، أو غيرهم [١].

ويذهب " فندلياند " - في كتابه مدخل إلى الفلسفة ، في تعريف معنى الدهشة ، هي كلمة يونانية (ثاومازين - Thaumazein - بأنها حيرة الفكر مع نفسه ، بينما يذهب القديس توماس الأكويني ، بأنها الشوق إلى المعرفة ، أو كما يقول أرسطو : فمن الدهشة ينبع الفرح ، وقد يكون للدهشة والاندهاش جوانب سلبية وأخرى إيجابية ، فالجانب السلبي قد يخرس الفرد لحظة أو لحظات ، أو يصرفه كما هو عليه ، أما الجانب الإيجابي ، فهو الاندهاش الذي ينطوي على الأمل الذي يدخل في صميم وجودنا البشري ، كدليل على أننا نشتاق إلى المعرفة الحقة ، مهما يتراكم من صدأ العادة والتكرار ، فما يلبث المفكر الفيلسوف - أن يصحو ، يدفعه الشوق إلى المعرفة ، فتفجر الدهشة العقلية في قلبه الفرح بالوصول إلى المعرفة ، فالمشغلون بالعلم ، والإبداع العلمي والأدبي يجربون مثل ذلك ، والذي يندهش هو المفكر - العاقل - أو الفرد الذي يريد الوصول ، ويسير على الطريق الصحيح في الفكر ، وطلب المعرفة الحق ، لذلك أشار بعض الفلاسفة المحدثين " باسكال ، وأرنست بلوخ " أن الله (تعالى) لا يندهش ، لأنه لا يفتقر إلى العلم أو الوجود ، كذلك الحيوان لا يندهش ، لأن نفسه الحسية لا يقلقها السعي إلى معرفة الأسباب [٢].

فالإنسان يندهش بطبعه لكل ما لا يعرفه ، فينبعث فيه روح التأمل والبحث ن وهذا ما أشار إليه كذلك أفلاطون وأرسطو .

يقول أفلاطون " إن الآلهة لا يتفلسفون لأنهم حاصلون على كمال العلم أما الإنسان فهو الذي يفلسف ، وتبدأ الفلسفة بالدهشة ، يذهب في محاورة " تيتاوس " : من جعل الفلسفة ابنة للاندهاش فهو حقاً على علم بأصلها ومنبعها ونسبها . ويعطي مثالاً من الواقع والوجود على ذلك ، فيذهب إلى أن منظر النجوم والكواكب ، الشمس وقبة السماء ، وهو منظر يدهشنا ، يدعونا إلى التأمل في الكون ، ومن هذا الاندهاش نشأت

١- دكتور عبد الغفار مكاوي - لم الفلسفة ، صـ ٣٠ - صـ ٣١ .
٢ المصدر السابق - صـ ٣٢ .

الفلسفة ، وهي أعظم خير وهبة الآلهة للإنسان الفاني " إن من خصائص الفيلسوف : هذا الشعور - الاندهاش - وليس للفيلسوف منبع غير هذا [١] .

يقول أرسطو أن الدهشة هي التي تدفعنا الآن كما حدث في الماضي إلى التفلسف ، لقد دهش الإنسان في البداية مما صادفه من مشكلات عادية [٢] ثم ما لبث أن ذهب إلى أبعد من ذلك ، فتساءل عن غرائب الكون والوجود كاختلاف أوجه القمر ، وحركة الشمس ، وأخيراً عن نشأة الكون كله .

لكن بعض الفلاسفة المتأخرين في الفلسفة " الهلينستية " اليونانية ، ذهبوا إلى أبعد من ذلك - حول منابع التفلسف ، والفلاسفة من أمثال أبيقور Epicure فذهب إلى أن " الحكمة - الفلسفة - قد لا تنبع من الدهشة (فقط) ، بل عكس ذلك ، من السكينة والسلام .

فالإنسان الحكيم أو الفيلسوف عند أبيقور مثلاً هو : الحاصل على السلام والسكينة- " أتراكسيا Ataraxia - لأنه تطهر من مخاوفه واضطراباته أمام ظواهر الطبيعة ، وما ينسج حولها الخيال من أساطير وخرافات ، لأنه استطاع تفسيرها تفسيراً علمياً ، ثم لم يعد ليدهش لشيء فيها ، ومثل هذا الرأي عند أبيقور ومدرسته الفلسفية قد لا يخالف مبدأ أو عصر الدهشة ، لأن الدهشة هي بداية التفكير لتفسير الظواهر ، وعندما يحصل الفيلسوف على نتائج هذا التفسير ، يحصل على نوع من السكينة الطمأنينة والسلام الذي يسعى إليه .

يذهب شوبنهور Schapenhaur ، في التمييز بين الفلسفة والعلم " بأنه لا كائن غير الإنسان يندهش من وجوده الخاص ، وما العقلية الفلسفية إلا مقدرة الإنسان على الاندهاش ، من الأحداث والأشياء اليومية ، ثم يتخذ ذلك موضوعاً للبحث عنده ، أما العالم - صاحب النظرة العلمية - قد لا يندهش إلا بمناسبة الظواهر النادرة والمنتقاه ، وكلما كان الإنسان أقل ذكاءً ، كان الوجود عنده أقل أسراراً " [٣].

٣ - الشك من أهم منابع التفكير الفلسفي :-

كلما تأمل الإنسان في الوجود ، وواقع الحياة الإنسانية ، كلما ازداد حيرة ، وعندما ينظر إلى واقع الأشياء المادية ، ويقابلها بالحياة العقلية والفكرية والروحية ،

١ دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٤٩ .
٢ يقول أرسطو : إن الدهشة أول باعث على الفلسفة " ا - س ، رابوبرت - مبادئ الفلسفة - صـ ٣ .
٣ يقول أرسطو : إن الدهشة أول باعث على الفلسفة " ا . س ، رابورت - مبادئ الفلسفة - صـ ٣ .

يزداد الشوق إلى البحث والنظر محاولاً الوصول إلى الحقيقة التي تشبع نهمه إلى المعرفة اليقينية بطبائع الأمور وماهياتها وإلى أين يصير ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ وإلى متى ؟ .. وهكذا يتولد عند الإنسان نوع من أنواع الحيرة وكثيرة التساؤل فيبدو أمامه ويتكشف التناقض ، مما يفضي إلى أنواع من الشك فيما يبدو من متناقضات الوجود ، والطبيعة والحياة .

وقد يصبح هذا الشك مفيداً ، ومفضياً إلى الحقائق ، أو يصير أحياناً أخرى سلبياً ، هادماً لكل حقيقة ، أو واقع حي وملموس ، وعلى ذلك نجد أن الشك من منابع ودوافع التفكير الفلسفي ، ويصير على أحد من الأنواع ، فيما أعتقد ومن خلال دراساتي أستطيع أن أحصره في أربعة أنواع ، هي : الشك المعرفي والمطلق والشك المنهجي ثم الشك الاعتقادي .

<u>(أ) الشك المعرفي :</u>

الشك ملازم للمعرفة ، ولاحق لها ، وفي الشك إحياء للمعرفة نفسها ولا توجد معرفة حقة بدون شك - وقديما قال إبراهيم بن سيار النظام ت عام (٢٣١) هـ ، وهو أحد فلاسفة المتكلمين من المعتزلة ، أن الشك هو أول درجة من درجات المعرفة الحقيقية " [١] ، ويقصد بذلك أن استعمال الشك يؤدي إلى تنقية المعرفة مما يعلق بها من شوائب الوصول إلى اليقين الذي يؤدي إلى الحقيقة ، وخطوة من خطوات البحث العلمي الجاد في استخلاص الفروض التي تصلح لتفسير ظواهر مختلفة وكذلك للوثوق من نتائج البحث العلمي بعد عدة خطوات وتجارب [٢] .

وقد نشأت بعض المذاهب والآراء الفلسفية على أساس من الشك في المعرفة العقلية ، واعترفت بشهادة الحس - والحواس - وحده ، ففي الفلسفة اليونانية ، نجد فلسفة هيراقليطس ، والذي اعتمد على التغير الطبيعي ومنه في إقرار نظريته في الفلسفة الطبيعية ، فقال : إن كل شيء يتغير ولا يبقى على حالة لحظتين متتابعتين ، فكل شيء مصيره إلى التغير والتطور والتحول ، إنك لا تستطيع أن تنزل النهر مرتين لأن المياه من حولك دائما وأبداً ، كذلك ذهب السوفسطائيون إلى الشك في كل شيء ، حتى العقل والمعارف العقلية ، وأقروا الحس والمعارف الحسية فقط ، واعتمدوا في ذلك على أن الإحساسات تختلف من فرد إلى آخر فيما يقرره فرد أن شيئاً ما بارد فقد يسميه الآخر

---

١ دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة - إبراهيم بن سيار النظام - ط لجنة التأليف ١٩٤٧ م .

٢ دكتور محمد محمود أبو قحف - تاريخ العلوم ومناهج البحث العلمي عند العرب - ط دار الحضارة بطنطا - ١٩٩٨ م .

حاراً ، لذلك فإن حقائق الأشياء ليست مطلقة بل فردية ، ذاتية خاصة بكل فرد على حدة ، وتختلف حقائق الأشياء باختلاف الأفراد ، لذلك يؤثر عن أحد السوفسطائيون وهو " بروتاغوراس " أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً " إذ أن ما يبدو لي وفي إحساسي حقاً ، قد يبدو للآخرين غير ذلك .

ولكن مع ذلك نجد فلاسفة آخرين من اليونانيين يذهبون إلى نقض ونقد ما ذهب إليه السوفسطائيون الذين يعتمدون على الحواس ، وكذلك هيراقليطس ، فيقررون أن هذا العالم ثابت وليس متغيراً ، وهذا ما أكده بارمنيدس وتلميذه زينون الإيلي ، فقد شك في الحواس والاعتماد على الحس في تقرير طبائع الوجود والأشياء والعالم ، فقال " أن العقل ، والمعرفة العقلية - يثبت استحالة التغيير والحركة ، ويؤكد على الثبات ، وأن الحقائق ثابتة ، الأمر الذي مهد الطريق أمام أرسطو لإقرار قوانين الفكر المنطقية الثلاثة ، مثل قانون الهوية ، وعدم التناقض ، والثالث المرفوع [1] .

ولا نستطيع أن نتجاهل حقيقة معينة ، ونحن بصدد ظهور نزعة الشك عند السوفسطائيون ، حيث أنها كانت نزعة أقرب إلى الشك كنظرية في المعرفة - وكذلك الشك المطلق في إمكان الوصول إلى حقائق أو إقرار مبادئ مطلقة وثابتة يمكن أن يؤسس عليها الحكم ، مثل - العدالة ، والمساواة ، والقيم والمبادئ الخلقية الأخرى ، والوجود الإلهي ، والميتافيزيقي .. وغير ذلك ، لكن هذه النزعة الشكية السوفسطائية المبكرة في تاريخ الفكر اليوناني أدت إلى إشاعة روح الجدل ، والنظر والمناقشة لكافة أوضاع المجتمع اليوناني في عصرهم ، وكذلك بالسبة للقوانين والمبادئ التي كان يضعها الحكام لخدمة أغراضهم الذاتية .. إلخ [2].

وكما أشرنا فإن هذا النوع من الشك المعرفة إذا أصبح نظرية في المعرفة ، ومن منابع الفلسفة كذلك ، فإنه يكون أقرب إلى الشك المطلق ، أو التوقف عن إصدار الحكم منه إلى الشك المنهجي المفضي والموصل إلى اليقين مثلاً فيما بعد .

(ب) الشك المطلق : وهو نوع من الشك في العقل والحس معاً ، ويؤدي بالشاك إلى تعليق الحكم ، والتوقف عن إصدار رأي أو حكم بشأن قضية أو موقف من المواقف ، ولا يعبر عن أي منهج فلسفي ، ولا يشكل منهجاً فلسفياً ، لكنه يؤدي إلى تبصير

---

١ للمزيد - راجع - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ١٣٠ .

٢ نظرنا : دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفلسفة اليونانية ، جـ ١ - أماكن متفرقة - ط دار الجامعات المصرية ١٩٨١ م .

الآخرين بأهمية البحث وضرورة عمل العقل والفكر ، فله مردود إيجابي عند الآخرين من غير صاحب هذا الشك نفسه .

ولعل أول من اصطنع هذا النوع من الشك في الفلسفة اليونانية هو " بيرون Pyrron " ويؤثر عنه قوله " يجب أن أعيش من غير رأي أو حكم ، فلا نثبت ولا ننفي ، أو نثبت وننفي معاً ، وكانت حياته مطابقة لهذا الشك المطلق ، ويؤثر عنه أنه وقع في حفرة ، وأراد تلامذته إنقاذه لكنه منعهم لأنه كان يشك في ذلك مما أدى إلى موته في الحفرة . [1]

(جـ) الشك المنهجي والمستنير : وهو من أهم منابع الفلسفة ، ويعبر عن طبيعة التفكير الفلسفي كذلك ، أو اصطناع مثل هذا النوع من الشك يؤدي إلى التحقق ، والوصول إلى اليقين المعرفي .

فالشك المنهجي تنبع منه الفلسفة الحقة ، والذي نتخلص منه باليقين ، وعندئذ يكون الشك بمثابة حذر ونقد وتمحيص ، ونفاذ إلى بواطن الأمور ، ويؤدي إلى تميز الثابت من المتغير ، والجوهر من العرض ، والحقيقة من الباطل ، وكل التيارات الفلسفية المستنيرة تقوم على هذا النوع من الشك المنهجي .

فأفلاطون رفض أن يصف المعرفة الحسية وشك فيها ، لكنه خرج من هذا الشك إلى اليقين بوجود عالم أطلق عليه " عالم المثل " والحقائق الأزلية ، ونسبة هذا العالم المثالي إلى عالم الحس الواقعي كنسبة الأشياء الموجودة خارج كهف إلى الظلال والأشباح التي يراها سجين في قاع هذا الكهف عندما توقد نار في الطريق فيعكس ضوؤها الأشياء المحسوسة الخارجية على سطح ذلك القاع على هيئة ظلال وأشباح فقط ، فلا يرى سجين الكهف إلا هذه الأشباح والظلال [2] . ومعنى ذلك أن الأشباح والظلال تمثل المعرفة الحسية التي يراها السجين أو الشخص غير المكتوف أو غير المتحرر منها دون أن ينظر إلى ما فوقها وورائها من نور اليقين المعرفي الأصلي ، وهو الذي أشار إليه أفلاطون بضوء النهار الخارجية التي تمثل عنده المعرفة العقلية ، أو عالم المثل الأصلي الحقيقي ، وهو عالم الحقائق الثابتة أيضاً .

كذلك نجد فيلسوفاً لاهوتياً آخر في في العصر الحديث وهو " جورج باركلي G Berkeley , " قد شك أكثر من أفلاطون في وجود العالم المادي والحسي ، لأنه اعتبر

---

١ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية ، دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٥٣ .

٢ أفلاطون ، محاورة الجمهورية - ترجمة حنا خباز بيروت ١٩٨١ م ، كذلك دكتور فؤاد ذكريا - دراسة لمحاورة الجمهورية - دار القلم بيروت ١٩٧٦ م .

أن إحساسنا بهذا العالم قائم فينا ، وفي فكرنا وحواسنا ، وليس نابعاً من عالم خارجي ، فليس لهذا العالم وجود حقيقي ، وهو يريد بذلك أن يفسح المجال إلى التطلع إلى عالم الروح ، الخالي من الشرور ، بدلاً من عالم المادة ومصدر الشرور والآثام ، وهذا ما يسمى بالمذهب اللامادي Immaterialism .

أما الطريقة المعرفية التي أقام عليها الفيلسوف الألماني كانط Kant ، منهجه في الشك ، فإنها تتفق وتختلف مع ما ذهب إليه أفلاطون من قبل ، مع وضع اختلافات الظروف والعصور والاكتشافات والتقدم العلمي في دراسة الوجود والطبيعة ونزول الأديان كذلك .

فقد فصل كانط ، بمذهبه النقدي التجريبي الترنسندنتالي بين عالم الظاهرات وفكرة ظاهرة العالم Phenomenality ، الذي نعرفه معرفة حقيقية في العلم ، وبين عالم الجوهر أو الشيء في ذاته (الله تعالى والنفس) وقد اعترف بالعالمين معاً .

فالعالم الحسي الذي احتقره أفلاطون ، ولم ير له نصيباً من الحقيقة إلا بقدر ما للأشباح من نصيب ، أصبح عند كانط عالم (الظواهر) الذي تتحدث عنه بثقة ويقين علوم الطبيعة في قوانينها التي هي قوانين الظواهر ، وقد أكد كانط أن هذا العالم الذي نعيش فيه ، ونعرفه حقاً هو عالم ظاهري فقط ، ولا يمكن أن يقول الفيلسوف الحق غير ذلك :

أما عالم الحقائق الخالدة عند أفلاطون (وهو عالم المثل) ، فأصبح عند كانط هو عالم الجوهر الذي ليست لنا معرفة علمية عنه ، وهو بعيد عن متناول المعرفة العلمية ، ومتروك لأقوال الميتافيزيقا وحدها ، ومن ثم فلا معرفة حقة عنه ، وهذا العالم قائم بالفعل ، لكننا لا نعرفه ، وربما يشير ذلك إلى شك كانط في هذا العالم المثالي الأفلاطوني ، لكن كانط مع ذلك لم ينكر هذا العالم ، فقد أشار وأثبت وجود عالم الشيء في ذاته ، أو عالم الجوهر ، أو عالم الحقائق الميتافيزيقية ، إلا أنه شك أو أنكر إمكان معرفته ، لأن ذلك متروك للميتافيزيقا وحدها .

وعلى ذلك أثبت كانط الحقائق الميتافيزيقية (كوجود الله تعالى ، ووجود النفس وخلودها) لا كمعرفة نظرية ، وإنما كنتيجة للضمير الخلقي ، لأنه لم تعد لديه إلا ميتافيزيقا الأخلاق ، بعد أن رفض الميتافيزيقا الأنطولوجية - التقليدية - التي كانت تدور حول إثبات وجود الله تعالى ، والنفس والجوهر والمادة .. إلخ) [1] إلا أنه من وجهة

---

١ دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٥٤ ، صـ ٥٥ .

نظري ، وفيما قرأت أيضاً أرجع المعرفة بالله تعالى والنفس وخلودها أيضاً إلى الوحي السماوي [1] كمصدر للغيب .

وربما يتضح لنا طريقة الشك المنهجي بصورة أوضح كدليل على منابع التفكير الفلسفي ، وفاعليته الحقيقية ، عند فيلسوفين كبيرين أحدهما الفيلسوف الفرنسي ديكارت في الفلسفة الأوربية الحديثة ، والآخر هو الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥) هـ ، في الفكر الفلسفي الإسلامي .

يبدأ رينـي ديكارت أصول منهجه في الشك والذي سوف يؤدي إلى اليقين المعرفي - بخطوات منتظمة - بما يعبر عن نسق فكري متكامل ، وهذا ما يميز الفلسفة الديكارتية ، فلم يكن ديكارت مفكراً بسيطاً بأي حال من الأحوال ، فقد نشأ في وسط عالم علمي مثقف ، زاخر بالأفكار والمذاهب المتصارعة ، ومر بمرحلة انتقال من النزعة المدرسية التقليدية إلى مرحلة جديدة ، وقرر أن معاصريه من الفلاسفة والمفكرين والمعلمين كذلك يعانون من حالة تشوش فكري في نظرتهم إلى الكون ، وقد شعر أنه جاء إلى الدنيا ليضع الأمور في نصابها . [2]

وقد بدأ ديكارت أولاً بطرح الأفكار والمعتقدات السابقة أيا كانت فلسفية أم اجتماعية أو سياسية أو دينية ، ومهما كان مصدرها ، لأنها في الغالب أفكار اكتسبت من إجماع الناس ، وهذا الإجماع قد لا ينهض دليلاً يعتمد أو يعتد به لإثبات الحقائق ، كما أشار كذلك أنه لا يجب أن نثق في شهادة الحواس ، لأنها في الأغلب تخدعنا دائماً ، فنحن نرى الملعقة مكسورة في كوب الماء ، كما نرى الشمس صغيرة والبرج دائرياً من بعيد .. وهكذا - الحواس خداعة .

ثم يشير من ناحية أخرى إلى أنه على الإنسان حين يبحث في المسائل العلمية أو الفلسفية " أن يتحرر من كل سلطة إلا سلطة العقل " ، كما عليه أن يتجنب أمرين هامين يتسببان في الوقوع في الأخطاء وهما : " التعجل " في إطلاق الأحكام من غير ترتيب [3]، والثاني " الأحكام المسبقة " ، وهي أحكام لا تدور على تدبر وروية .

---

١ للمزيد راجع - إميل بتروا - (كانط ، الترنسندنتالية) ترجمة دكتور عثمان أمين - ط الأنجلو المصرية .

٢ كرين برينتون - تشكيل العقل الحديث - صـ ٨٨ ، صـ ٨٩ .

٣ دكتور مصطفى النشار - فلاسفة أيقظوا العالم - صـ ٢٢٧ ط دار الثقافة للنشر والتوزيع - ١٩٨٨ م .

لقد آثر ديكارت أن يطرح كل الآراء والأفكار المسبقة ، حتى يبدأ منهجه الشكي من فراغ يقول ديكارت " آثرت أن أطرح جانباً كل رأي عندي يتطرق إليه أدنى شك ، واعتباره زيفاً مطلقاً ، ابتغاء اليقين .. إلخ " [1] .

بدأ ديكارت في وضع منهجه في الشك بعد أن أفرغ عقله من كل المعارف ، فاصطنع الشك الذي امتد به إلى كل ما يحيط به ، فشك في حواسه وفي عقله وفي العالم الخارجي ، بل أمعن في الشك لدرجة أنه تصور أن هناك شيطان ماكر يعبث به ، واستبد به الشك حتى شك في أنه يشك ، لكنه لم يستسلم لهذا الشك إذ وجد أن هناك أمل في الوصول إلى اليقين ، لأنه كلما شك فكر فوجد بذلك في شكه قاعدة لأول يقين عنده ، وهو أنه ما دام يشك فهو يفكر ، وما دام يفكر فهو موجود ، فقال أن اليقين الأول " أنا أفكر إذن أنا موجود " ، ومن هذا اليقين الأول الذي تكشف عنه الشك تتسلل حقائق يقينية أخرى ، كما تتسلل حدود متوالية هندسية ، أو حسابية ، ابتداءً من نقطة الكشف المعطاة ، فطبيعة الإنسان إذن الحقيقية هي " الفكر " والوجود ملازم للفكر والنفس ، ثم تدرج من هذا اليقين بالفكر وبالنفس إلى وجود الله تعالى ثم عن طريقه وعن طريق الأفكار الواضحة المتميزة التي أودعها الله تعالى في النفس بالفطرة أثبت أخيراً وجود العالم الخارجي المادي ، كما أن العالم الذي نعرفه هو عالم الفكر وعالم النفس ، والوجود الحقيقي هو الوعي الفكر والنفس ، فيجب أن يكون لدى الإنسان وعياً بنفسه وذاته وفكره وعقله قبل كل شيء وبعد كل شيء . [2]

ومما سبق يتضح لنا أن منهج الشك عند ديكارت أدى به إلى اليقين المعرفي وثبات وجوده كذات مفكرة لأنه شك وهذا الشك أدى به إلى الفكر وهذا الفكر نابع من ذات مفكرة ، وأن هذا الفكر لا يأتي إليه من نفسه لأن نفسه تشك والشك نقص ، فلابد أن يكون هناك كائن أعلى وأعظم وأكمل أهداه إلى الفكر ، لأن الفكر كمال ولا يأتي الكمال إلا من الكائن الكامل اللامتناهي ، وهذا الكائن الكامل هو الله عز وجل ، وبذلك أثبت وجود الله عز وجل ، ولا يمكن أن ينفصل بفكره عن الوجود ، لذلك فهذا الوجود

---

١ ديكارت ـ مقال عن المنهج ـ ترجمة دكتور الخضيري ـ أحمد أمين ـ القاهرة ، كذلك ـ دكتور كرين برينتون ـ تشكيل العقل الحديث ـ صـ ٨٩ .

٢ دكتور ـ محمد ثابت الفندي ـ مع الفيلسوف ـ صـ ٥٥ ، ٥٦ ، وللمزيد في التفاصيل : دكتور ـ مصطفى النشار ـ فلاسفة أيقظوا العالم ـ صـ ٢٢٧ ، ٢٣٠ كذلك : ديكارت : كتاب التأملات في الفلسفة الأولى ، ط مكتبة الأنجلو المصرية ـ ترجمة دكتور عثمان أمين ، كذلك ديكارت ـ مقالات في المنهج ـ أماكن متفرقة ـ كذلك : عثمان أمين ـ ديكارت ـ ط مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط القاهرة

في العالم ، ومن ثم فإن وجوده في العالم ، يشير ويعني أن هذا العالم موجود أيضاً ، وبذلك استطاع ديكارت عن طريق منهجه في الشك الذي هداه إلى الفكر والفكر هداه إلى يقين الوجود (أنا أفكر إذن أنا موجود) ، أهداه هذا اليقين الأول إلى إثبات وجوده كذات مفكرة ، ثم إثبات وجود الله تعالى ، ثم إثبات وجود العالم الخارجي - أو الوجود ككل - لذلك يتضح لنا كيف يصبح الشك منبعاً من منابع الفلسفة والوعي بالفكر الفلسفي وطبيعته .

وإذا انتقلنا إلى منهج الإمام الغزالي في الشك فهو يمثل أيضاً الشك المنهجي ، الذي يفرضه صاحبه رغبة منه في امتحان معلوماته ، واختبار معرفته ، وتطهير عقله من كل ما يحتويه من مغالطات وأضاليل ، وهذا النوع من الشك لازم للباحثين ، لأنه خير وسيلة لتصحيح الفكر واتقاء الأخطاء ، وهو خطوة تسلم إلى اليقين ، والمعرفة الصادقة فالشك (المنهجي عند الغزالي) أو غيره ممن يصطنعون هذا النوع منه ، وسيلة وليس غاية في ذاته ، يزاوله الباحث بإرادته ، ورغبته ويستطيع التحرر من شره [1].

ويضع الغزالي صورة متكاملة عن منهجه في الشك والذي أفضى به إلى اليقين فيما بعد ، في نسق فكري فلسفي متكامل ، سبق به منهج الفيلسوف الفرنسي رني ديكارت ، بل ربما تأثر ديكارت بهذا المنهج أيضاً - حيث كان اطلاع فلاسفة أوربا على الفكر الإسلامي والعربي متاحاً وميسوراً منذ بداية عصر النهضة الأوربية ، وحركات الترجمة ونقل العلوم الإسلامية والعربية إلى اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية فيما بعد .

يقول الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " تحت عنوان " مداخل السفسطة وجحد العلوم " - ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات ... فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بي طول التفكير إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ هذا الشك فيها يتسع ويقول : من اين الثقة بالمحسوسات ، واقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفس الحركة ، ثم بالترجبة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك بالتدريج ذرة ذرة ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار ، ثم

---

١ دكتور - توفيق الطويل - أسس الفلسفة - صـ ٣١٣ - ط دار النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٧٦ م .

الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار ... فحاكم الحس يحكم في المحسوسات ، ويكذبه حاكم العقل ، فبطلت الثقة بالمحسوسات ،ثم قلت لنفسي (أي الغزالي) : لا ثقة إلا بالعقليات وهي الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، وتقرر العقليات كذلك أن النفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً ومعدوماً ، واجباً ومحالاً في نفس الوقت ، عندئذ جاءت المحسوسات وقالت : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، فقد كنت واثقاً في المحسوسات ، فجاء حاكم العقل فكذب هذه الصفة ، وفي هذه الحالة لعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذ تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل من قبل فكذب الحس بالمحسوسات ، دخل الإمام الغزالي عند ذلك في أزمة نفسية عنيفة دامت شهرين كاملين ، حتى شفى الله الغزالي من ذلك الداء أو الأزمة النفسية ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال مرة أخرى ، حتى ترجحت الضروريات العقلية عنده ، وأصبحت مقبولة وموثوق بها ، وذلك بنور قذفه الله تعالى في صدره ، وهو مفتاح أكثر المعارف ، وهذا يعني نور الحدث، واليقين الصوفي المعرفي ، فقد شرح الله صدره ، ونور قلبه ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - قال الغزالي : هو نور يقذفه الله تعالى في القلب . [1]

فنور الحدس الإلهي - أضاء الطريق في عقل الإمام الغزالي - وأصبح لديه وثوق بالأدلة العقلية ، والضروريات الأولية ، والتمييز بين المتناقضات .

د - <u>الشك الاعتقادي</u>

وهو الشك الذي ينصب على المعتقدات يتفق الناس على التسليم بها ، ويطلق على ذلك إنكار أو عدم الاعتقاد/Disbelief وهو يتضمن الإلحاد في الدين Atheism [2] وقد اصطنع هذا النوع من الشك فلاسفة السوفسطائية الذين أنكروا الاعتقاد في المطلق والقيم والأخلاق ، وقولهم أن كل شيء نسبي وليس شيء أو قيمة ثابتة أو مطلقة ، وكذلك إنكار الوجود الإلهي أو الدين " أنه لا يعتقد في ذلك ، لأن أموراً كثيرة تحول بينهم وبين العلم " [3] .

---

١ الإمام الغزالي - المنقذ من الضلال - صـ ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ - تحقيق مصطفى أبو العلا - ط الجندي القاهرة - ١٩٧٣ م .

٢ دكتور - توفيق الطويل - أسس الفلسفة - صـ ٣٠٥ .

٣ دكتور - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية (السوفسطائيون) .

وهذا النوع من الشك يمثل الجانب السلبي من منابع الفلسفة أو التفكير الفلسفي ، إذ أن نفي الاعتقاد في أمر من الأمور ، قد يتضمن الاعتقاد في أمر آخر يقابله مثال : إذا أنكر شخص ما أن الأرض ثابتة فإن هذا الإنكار قد يتضمن الاعتقاد بأنها متحركة ، وإذا أنكر الملحد في الدين وجود الله تعالى ، فقد ينطوي إنكاره على وجود الاعتقاد بوجود إله آخر .. وهكذا ، وقد سادت مثل هذه التيارات الشكية الإلحادية في العصر الحديث ، وبصفة خاصة عند الفلاسفة الماديين الذين ينكرون الروح والعقل ، ويرجعون بأصل الأشياء للمادة فقط .

٤-**<u>الوعي بالضمير الخلقي :</u>**

الوعي بالضمير الخلقي من أهم منابع الفلسفة ، والتفكير الفلسفي وطبيعته ، وقد انشغل به كبار الفلاسفة قديماً ، فالنزعة الخلقية التي تتمثل في نداء الفضيلة عند سقراط ، كان دافعاً لإقرار القيم النبيلة والتمسك بها ، الأمر الذي أدى بحياته أخيراً ، ومنبع الضمير هو منبع الواجب والإلزام الخلقي ، الذي هو نداء الضمير ، وهذا هو جوهر الفلسفة التي تصل على تأصيل فكرة الواجب الخلقي - النابع عن الضمير الحر ، الذي لا ينبع من أي سلطة وغير تابع لأي سلطة خارجية ، سياسية أو قانونية أو حتى عقائدية ، فالإنسان خير بطبعه ، وما فيه من شرور ورذائل إنما هي نتيجة لجهله بماهية الخير والفضيلة أو الضمير ، والغرض من وجود الإنسان هو تفعيل هذه القيمة الخلقية التي جبل الله تعالى الإنسان عليها ، فالضمير الخلقي وما يلزم عنه من واجب خلقي ، لا يعتبر [illegible] من نظرية المعرفة ، وإلا يحتمل الشك ، وتختلف بشأنه النظريات والآراء ، لكنه نداء الخير ، كيقين مطلق من وجود الإنسان بقصد العمل به ، ولأنه منبعاً للإرادة الحرة ، وليس هدفاً لها ، وعندما يصدر هذا الواجب من الضمير ، يشعر الفرد بأن حريته كاملة ، وملئ إرادته ومتطابق لوجوده الصادق.

والواجب الخلقي النابع عن الضمير الإنساني الحر ، لا يخضع ولا ينبع من الحياة ، الاجتماعية أو السياسية التي يعيشها الفرد ، ويتمثله المجتمع من عادات وتقاليد وطقوس معينة ، بل ينبع من صميم وجود الإنسان ، ومن ضمائر الأفراد لذلك لا يختلف من فرد إلى فرد آخر ، (فلا تنقلب السرقة خير في حق فرد ما بينما تنقلب شراً في حق آخر .. لذلك فإن قيمة الواجب والضمير نداء للإنسانية كلها ، وقيمة الضمير تتجاوز حدود كل زمان ومكان ، بل هو تجربة للفيلسوف والمفكر صاحب الرؤية

الفلسفية ، تجربة محضة خالصة عن عادات وتقاليد الجماعات ، أو ذوي المصالح والطقوس المختلفة .

إن القيم الخلقية ، النابعة عن الضمير والواجب النابع عن النية والنفس المطمئنة الطيبة ، تمثلت دائماً في الأنبياء والفلاسفة والمصلحين ، وعظماء الأمم ، ثم هبطت منهم إلى واقع الحياة الاجتماعية .

يذهب هنري برجسون Bergson , H في كتابه منبعا الدين والأخلاق ومنبعهما متشابهان ، إلى تقرير الموقفين الاجتماعي والفلسفي ، فهناك دين وأخلاق ، منبعهما الفرد ، ويفيضان من الفرد إلى المجتمع .

فهنا الأخلاق التي تتحدث عنها الفلسفة ثم هنا الأخلاق والدين منبعهما المجتمع ، ويخضع فيها الفرد لمجتمعه ، وهناك أخلاق التي هي العادات .[1] فالفارق كبير بين الواجب الخلقي - الفلسفي - والعادات المتغيرة المتناقضة الفلسفية الخلقية - كانت دائماً هي محور التفكير الفلسفي الذي برز بقوة في فلسفة سقراط - الإلهية والإنسانية - وكانت دائماً هي محور اهتمامه بالإنسان لا الطبيعة ، فالمشهور عن سقراط أنه يرجع إليه الفضل في إنزال الفلسفة من السماء إلى الأرض ، وكانت تيارات السفسطة والجدل السوفسطائي المحير لعقول الناس وشباب أثينا في عصره - تزيده خوفاً وقلقاً على ضياع القيم الإنسانية النبيلة ، الأمر الذي دفعه على محاورتهم والرد عليهم ، وتبصير الشباب بالبصيرة الخلقية - والضمير الإنساني الحر .

لقد كان السوفسطائيون لديهم القدرة على قلب الحقائق إلى باطل والباطل إلى حقائق بنفس المقدار يثبتون وينفون ، .. بشتى الأساليب والألاعيب اللفظية ، فاتجه سقراط إلى تحديد المعاني ، والبحث عن الماهيات ، ليثبت للجميع أن هناك حقائق وفضائل خلقية ، مطلقة ، فوق الزمان والمكان ، وتتعدى حدود المكان كذلك - كالعدالة ، والمساواة والخير ، بل وحقوق الإنسان ، وأن البشر متساوون في الحقوق والواجبات ... وهكذا ، إن كمال النفس وتمثل الفضيلة ، والإلزام الخلقي الحر النابع من الضمير لا يورث ، هي أمور مختلفة تماماً عن الأموال والعقارات والأراضي وكافة الأشياء المادية .. إن النفس الباقية ، هي الضمير الخلقي الحر دائماً .

لقد صدرت عن سقراط كلمات ، ومبادئ هامة ، سطرتها محاورات أفلاطون - في هذا السياق " الفضيلة علم ، والرذيلة جهل ، لا أحد شرير بإرادته ، الإنسان

---

١ دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٥٨ ، صـ ٥٩ .

الفاضل سعيد ، اعرف نفسك بنفسك ، بالإضافة إلى تساؤلاته - كما أشرنا بإيجاز فيما سبق عن الماهيات التي هي من طبيعة النفس والروح ، ماهيات : الفضيلة والخير والعدالة والورع والحكمة ، وهكذا ، فإن بالنفس والروح حقائق إذا ما توصلنا إليها نستطيع تقرير مبدأي الضمير والواجب الخلقي الحر .

وإذا كان في اكتشاف النفس الإنسانية ، ما يعبر عن اكتشاف الضمير الخلقي ، وكذلك السر الإلهي في خلق الإنسان ، فإننا نجد صدا لذلك عند مفكري الإسلام وبصفة خاصة الصوفية ، إذ نجدهم يذهبون إلى القول " من عرف نفسه فقد عرف ربه " وقولهم أيضاً " تحسب أنك جرم صغير ، وقد انطوى فيك العالم الأكبر " فمعرفة النفس وفضائلها الخلقية والروح الإلهية فيها تؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى - لأنها أسرار الله تعالى في الكون وفضائله . (1)

ولما كانت الأخلاق ، وفكرة الواجب الناتج عن الوعي بالضمير الإنساني ، هي جوهر الفلسفة ولباب التفكير الفلسفي ، ومنابعه الأساسية ، فليست الأخلاق إذن أو الضمير ، موضوعاً من موضوعات العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع أو السياسة ، لأن هذه العلوم وصفية ، وترجع بالأمور إلى حقل الدراسات الاجتماعية وعلم العادات والتقاليد والطقوس كما أراد لها علماء الاجتماع ، مثل أوجست كومت Comte ودوركايم Durkhem وليفي بريل Levy Bruhl . فعلماء الاجتماع هؤلاء عندما أخضعوا الأخلاق ، والضمير الخلقي إلى واقع الدراسات والبحوث الاجتماعية الوضعية ، جعلوها نسبية ، وليست مطلقة ، وبالتالي فإن الفضائل والضمائر الخلقية ، تختلف باختلاف الشعوب والأمم والقبائل والمجتمعات بل والأفراد أيضاً ، وكذلك تخضع لتطورات واختلافات الزمان أو الحدود المكانية ، وبالتالي ما يصلح لشعب معين لا يصلح للآخر ، وما تقرر من المبادئ الأخلاقية في مكان معين تختلف من الأماكن الأخرى .. وهكذا ، تصبح الأخلاق علماً معيارياً ، كما أن فكرة الضمير أو الواجب فكرة معيارية ، نسبية ، مقيدة بالعادات والتقاليد والطقوس السائدة ، والمختلفة من مجتمع إلى آخر ، وبهذا يفقد الضمير الخلقي أهميته ، وجوهره .

ولم تكن الحكمة ، أو الفلسفة الخلقية ، بعيدة عن اهتمامات كثير من المفكرين أو فلاسفة الشرق ، وفي الحضارات والثقافات الشرقية والأديان قديماً .

---

1 للمزيد في ذلك راجع - الغزالي - إحياء علوم الدين - ط الشعب ١٩٧٣ م ، كذلك - الغزالي - روح القدس - ط الجندي ١٩٧٢ م .

فقد واكبت الديانة البوذية التي وصفها بوذا " سدهارتاجوتاما " الحكيم أو المستنير عند الهنود ، التيارات الفلسفية الأخلاقية السقراطية أو اليونانية منذ القرن السادس ق . م ، فالديانة البوذية الهندية فلسفة أخلاقية من الدرجة الأولى ، حيث كان اهتمام بوذا بالإنسان والفرد ، أكثر من اهتمامه بالبحث أو النظر في الإلهيات ووجود العالم . فكان يبحث دائماً عن الإنسان الفرد ، والأمة ، وأحزانه ، وكوارثه ، وكيف يمكن الوصول إلى القيم النبيلة التي تقلل من هذه الآلام والأحزان تلك التي تسببها كثرة الشهوات والملذات وطول الأمل في الحياة ، فاهتدى إلى الخلاص بالوصول إلى (النرفانا) بإماتة آنية النفس الإنسانية ، وتطهيرها من الملذات وطول الأمل في البقاء .

ومما لا شك أن هذا هو جوهر التفكير الفلسفي ، فكما جعل سقراط اليوناني الإنسان هو محور فلسفته الأخلاقية ، كذلك فإن بوذا الهندي جعل الفرد هو محور فلسفته الأخلاقية ، واهتدى إلى مجموعة من المبادئ والتعاليم التي تقترب من مبادئ وجوهر التعاليم الفلسفية عند سقراط ، فصدرت عن بوذا عبارات تدل على تمثل فكرة الوعي بالضمير الخلقي الإنساني منها : يقول بوذا " إن هذا العالم تعس ، حزين ، مليء بالآلام والأحزان ، إنه عالم عابر متنقل خادع لا يدوم ، إنه عالم خالي من أي روح أو معنى "

ويقول أيضاً " إننا نولد في أحزان ، في عالم عابر لا يكف عن الدوران ، لا نستطيع العمل أو التصرف إلا في ضوء الاعتقاد الكاذب في الدوام والثبات والاستقرار .. "

ويقول أيضاً " كل الأشياء التي نتمسك بها كاذبة ، لأنها زائلة وفقدانها يسبب لنا الألم والحزن ، لا نستطيع أن نضمن الخلود الدائم ، لذا نحيا دائماً في أحزان " .

إن الشيء الوحيد الذي يضمنه بوذا للفرد - خالياً من التحول والتغير - هو " النرفانا " - أي الخلاص من آنية النفس والتعقل بالواقع المتغير والمتحول - ، والإيمان بعدم الخلود في هذا العالم ، والبعد عن الملذات وطول الأمل في الخلود والبقاء " (1) .

ومجمل الفلسفة الخلقية البوذية ، يشير إلى ضرورة تمثل الفرد والإنسان لماهيته ، ونفسه وروحه التي تنزع إلى البقاء والخلود ، وهذا لا يحدث في هذا العالم المتغير المتحول ، ولا يتمسك الفرد بالملذات والشهوات لأنها كذلك متغيرة وزائلة ، وتجلب

---

١ للمزيد : دكتور : أحمد شلبي - أديان الهند الكبرى - صـ ١٤٢ ، ١٤٥ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤ م . كذلك دكتور : كمال جعفر - في الدين المقارن - صـ ٢٤٦ وما بعدها ط مكتبة دار العلوم ١٩٧٦ م .

علـى الفـرد الـرذائل والهمـوم والصـراع ، وهـذا لا يـتطابق مـع روح الفـرد وماهيـته وضميره وواجبه الأخلاقي تجاه نفسه .. بل يتجه مباشرة إلى النرفانا التي ليس لها وجود في هذا العالم المتغير بل في عقله وضميره .

٥ - وعي الفلسفة بالوجود المؤلم :

إذا كان الإنسان تصيبه الدهشة والتعجب ، فإن ذلك لكي يعرف ، وإذا ما أصابه شك ، فإن ذلك أيضاً لكي يصل إلى الحقيقة واليقين ، كذلك عندما ينظر إلى التاريخ الماضي أو الحاضر ، فذلك لكي يتبصر موقفه الفلسفي تجاه ما سبق وما هو حاضر ، استعداداً لما هو آت إليه فيما بعد ، وحتى يتعرف من معرفة أماكن ضعفه وقوته ، في حالة مواجهته للمواقف التعسة أو المؤلمة ، فإنه يتبدل موقفه ، وتنشأ عنده فلسفة من هذا المنبع تدور حول وجوده ما هو ؟ وما معناه ؟ وما أفعاله ؟ ومدى حريته إزاء تلك المواقف ، وما هو طريق خلاصه وسعادته ؟ وما هو مصيره ؟

يذهب أبيكتيتوس Epictatus ، أحد فلاسفة المذاهب الرواقية إلى " أن الفلسفة تنبع من شعورنا بضعفنا وعجزنا " وهو كفيلسوف رواقي يرى أن الفلسفة هي التي تبصرنا بطريق الخلاص من الخوف والألم ، والضعف والعجز ، وتكفل لنا السعادة كذلك ، ويذهب فلاسفة الأبيقورية إلى مثل هذا الرأي ، مع اختلاف بين الرواقية والأبيقورية من حيث الموقف الفلسفي ، فبينما يشكل الموقف الفلسفي الرواقي الجانب الروحي والعقلي من الحياة الإنسانية ، فيجد الإنسان سعادته ولذته في الروح والعقل والطمأنينة الداخلية والحريّة الروحية ، إذ تذهب الأبيقورية إلى أن لذة الفرد إنما تتحقق في الحصول على المتعة الحسية ، وكلاهما يريدان للإنسان أو الفرد موقفاً فلسفياً ، ينسحب من خلاله إلى الأتراكسيا ، أو اللامبالاة بالواقع الخارجي إلا فيما يحقق له حريته وعشق لذته وتحقيق ذاته في متعته والبعد عما يسبب له الألم أو الشعور بالتعاسة في حياته . [1]

فالوعي بالوجود المؤلم ، والتعس بالنسبة للفرد ، يدفعه إلى تشكيل موقف يبعده عن هذا الشعور ، ويدفعه إلى التفلسف ، وهذا منبع من منابع الفلسفة ، والتفكير الفلسفي

---

١ للمزيد من التفاصيل - دكتور عبد الرحمن بدوي - خريف الفكر اليوناني - ص ٧١ ، ١٠ ، ٦٢ ، ٦٣ وما بعدها

يقول أبيقور Epicure : " عندما تكون صبياً لا تتردد في التفلسف ، وعندما تكون كهلاً فلا تزهد في التفلسف .. وكذلك عندما تكون في موقف .

ويذهب الفيلسوف الوجودي المعاصر ، كارل ياسبرس Karl Jaspers " أن الوجود الإنساني هو دائماً وجود موقف Situation ، أي في مواجهة ما يقف في وجه حريته ، والمواقف تجيء وتذهب وبعضها لا يعود ، وفي كل موقف نحن ندبر له خططاً ، ونرد عليه بما تقتضيه مصلحتنا ، لكن هناك مواقف قصوى لا تتغير وتبقى كما هي في حقيقتها وإن توارت حدتها كأن يقع الإنسان تحت رحمة الصدفة ، أو أن يلتبس بإثم أو أن يموت .. وهكذا ، فقد يتألم الإنسان وعليه أن يصارع الحياة ، وإن كانت بعض المواقف تقف أمام الإنسان وإرادته الحرة ، فيجب أن يسلم بها ، ويفهم الفرد أنها تعطي معنى الحياة لوجوده .

ونحن - كما يقول كارل ياسبرس أيضاً : نتناس تلك المواقف القصوى ونعيش كما لو كانت غير موجودة ، فننسى الموت ، أو أننا تحت رحمة الصدفة مثلاً ، لذلك نرد على مثل هذه المواقف بأن نخفيها عن أنفسنا ، وإذا أصبحت واضحة أمام شعورنا نرد عليها باليأس منها . [1]

ولا شك أن الإنسان في مثل هذه المواقف القصوى أو التي يواجهها بنفسه للخلاص أو التوافق معها أو اليأس منها ، أو اكتساب منفعتها ، وما تجليه من شعور بلذة أو ألم ، ويخوض التجارب فيها ، يجد منبع الوجود ، ومفتاح الوجودية .

وإزاء تهديد الواقع والعالم والمستقبل للإنسان ، فبتلك المواقف القصوى لا يجد الإنسان أمامه إلا ثلاثة طرق مختلفة لمواجهة تلك المواقف هي : إما أن يتدين ويسلم بالقضاء والقدر ، وإما أن يسيطر على العالم والمستقبل بالعلم والصناعة وتنظيم المجتمع ، وإما أن يفلسف المواقف .

فالطريق الأول لا نناقشه وهو ما يتعلق بالتدين والتسليم للقضاء والقدر ، أما الموقفان الآخران وهما : السيطرة بالعلم والصناعة ، والتفلسف ، فهما الرئيسيان بالنسبة للإنسان في المواجهة ، فالعلم سلاح قوي للسيطرة على ما يهد الإنسان أو الفرد ، فالعلم أداة للتوقع - يقصد السيطرة - والقانون العلمي يقول : إذا حدثت ظروف معينة فإنه يتبعها نتائج معينة كذلك ، ولذل فهو أداة للتوقع يواجه بها الإنسان أو الفرد مفاجآت المستقبل ، فيسيطر الإنسان بالعلم على الأحداث والنتائج ، وكذلك الصناعة تؤكد

---

١ دكتور - محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٦٦ .

سيطرة الإنسان على الطبيعة والعالم ، بزيادة شعوره بالأمان والرفاهية ونظام المجتمع بلا شك يزيد من شعور الفرد بالأمان والطمأنينة والسكينة ، لأن المجتمع يحمي الفرد من الشعور بالعزلة عن الآخرين ، ويزيد من صلة التعاون والتبادل في واقع الحياة الاجتماعية مما يشعر الفرد بكيانه وحمايته من المستقبل المجهول بالنسبة له كفرد مثلاً .

لكن مع ذلك فإن العلم والصناعة وتنظيم المجتمع لها في ذلك حدودها ، فهناك مواقف كثيرة تتحدى الإنسان أو الفرد لا يستطيع العلم أو الصناعة أو المجتمع حمايته منها مثل ، الشيخوخة والمرض والموت المباغت مثلاً ، كذلك قد يؤدي العلم وقوانينه المختلفة والصناعات المختلفة إلى زيادة حدة الصراعات بين الأفراد والإنسان والأمم والشعوب ط إن لم تكن هناك ضوابط للصراعات والحروب وغير ذلك مما يحمي واقع الحياة الاجتماعية في شتى بقاع العالم والأمم والشعوب .

ومن هنا يكون للفلسفة دور كبير ، إذ تلعب الفلسفة أو التفكير الفلسفي دوراً هاماً في البحث عن السعادة والطمأنينة في الحياة ، وعن طبيعتها ، وكيف يمكن للإنسان أو الفرد الحصول عليها ، كذلك تبصر الإنسان والفرد بوعي الحرية والاختيار في عالمه الذي يريده ، فيختار المواقف التي يريدها حيال هذا العالم ، والناس ، فيخلق الإنسان والفرد باختياره وحريته عالمه الذي يريده والذي يعبر عن ماهيته .

ومع تسليمنا باختلاف المذاهب والآراء الفلسفية حيال المواقف المختلفة التي تواجه الفرد والإنسان " فالرواقية والأبيقورية مثلاً ، كانتا لا تبحثان عن المعرفة .. وبقدر ما كانتا تبحثان عن طريق النجاة والسعادة والطمأنينة في عالمها المضطرب " وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

أما الوجودية كفلسفة ، فلا تشكل مذهباً أخلاقياً ، لأنه لا توجد قيم خلقية مسبقة تضيء السلوك ، وإنما توجد مواقف حرة فحسب " [1] ، وعلى الرغم من هذا ، فإن الوعي الفلسفي ، وطبيعة التفكير الفلسفي يتضمن عناصر سلوكية وأخلاقية ، وكما أشرنا فإن طبيعة الفلسفة تتضمن نداءً للضمير الخلقي الذي يصلح للجميع .

ثالثاً : بين التفكير العلمي والتفكير الفلسفي :

لعلنا نقف قليلاً ونحن بصدد البحث في الوعي الفلسفي بأصول وتطور التفكير الإنساني في ضوء الحضارات وتطورها عبر العصور والأجيال قديماً وحتى العصر

---

١ المصدر السابق - صـ ٦٨ .

الحديث ، لكي نتعرف على جوانب التفكير العلمي وحقائقه أو خصائصه المختلفة والمقارنة بين هذا التفكير العلمي والتفكير الفلسفي وخصائصه المشتركة كذلك . إذ أنه يتضح لنا أن هناك جوانب كثيرة يلتقي فيها التفكير العلمي والفلسفي معاً ، مع وجود فوارق أخرى مميزة لكل تفكير ، لكن النظرة المتكاملة لكل من العلم والفلسفة على مر العصور ، وأن عملية الفصل بينهما مرحلة مؤقتة لم تدم طويلاً ، غذ سرعان ما التأم العلم مع الفلسفة ، وأصبح للتفكير الفلسفي دوراً أساسياً في تطوير وتعميق وتوجيه التفكير العلمي في مساره الصحيح ، في ضوء ما يطلق عليه الآن فلسفة العلم ، وفلسفة العلوم ، سواء في الطبيعيات والكونيات والرياضيات ، أو العلوم الإنسانية ، في التاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ، والقانون والتشريع ، بل في الديانات أيضاً ، وما يسمى بفلسفة الدين كذلك .

١ - العلم - المنهج العلمي :

كانت تطلق كلمة (العلم science) على المعارف العامة من قبل لكن الاستعمال الدقيق للكلمة ، قد حدد مدلولها وجعلها تختص بنوع معين من المعارف ، وهو الذي يتضمن التجربة والاختبار ، ويصطنع منهج الاستقراء الذي يقوم على عدد من الخطوات العلمية : الملاحظة ، ثم فرض الفروض ، ثم إجراء التجربة ثم اختبار الفروض ، ثم استنتاج النتائج عندما يثبت صحة فرض من الفروض ، أو غيرها صالحاً لتفسير ظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الكونية ، أو الإنسانية ، وأصبح تطبيق المنهج العلمي على الطبيعيات من ظواهر فيزيقية ، وكيميائية ، وجيولوجية ، وأحياء ، وفلك ، ونبات وحيوان ، وتطبيق ذلك كذلك في مجالات الطب ، والزراعة ، والصيدلة ، والبيطرة ، والرياضيات ، والإنسانيات كذلك .

لقد اتسعت مجالات العلم ، وأصبحت تشمل فروعاً كثيرة متعددة ، ومتشابكة ، بالإضافة إلى ما سبق ، أيضاً يشمل التفاعلات الذرية في العصر الحديث والعمليات العقلية من القوانين الرياضية ، وعلم الحركة ، الميكانيكا والديناميكا والإستاتيكا .. الخ ، وحركات الأفلاك والكواكب والنجوم ، والكائنات الفيروسية الدقيقة ، بالإضافة إلى علوم الفضاء وما يشمله أيضاً من علوم عسكرية وحربية وهكذا ، ونتيجة لذلك ، وتشعب العلوم المختلفة أصبح من المستحيل على عالم واحد أم يلم أو يحيط بأطرافها وفروعها ، فظهر التخصص الدقيق لكل فرع من فروع العلم المختلفة لتعميق البحث فيها ، والخروج بنتائج دقيقة تفيد العلم والبشرية .

لكن العقل البشري استطاع تصنيف العلوم والمعارف العلمية على مر العصور ، وأن يحكم الصلة بينها ، وأن يستنبط القوانين من خلال المشاهدات والتجارب والفروض والاختبارات ، ويسجل ذلك بدقة فائقة ، وهذه السلسلة المنطقية - تسمى بالطريقة العلمية أو منهج البحث العلمي ، كذلك أتاح ذلك الفرصة لأن يتشعب العلم إلى فروع كثيرة وهامة كما أشرنا فيما سبق .

وإذا كانت النتائج والبحوث العلمية التي تقوم على سلسلة من التجارب والاختبارات العلمية والمشاهدة والعمليات الرياضية والقوانين الحركية يتصل بعضها بالبعض ، إلا أنها تكون قابلة للتغيير بين الحين والآخر ، وفقاً للتطورات وقوانين البحث العلمي المختلفة ، فليست إذن قوانين أو نتائج مطلقة أو عامة ، وإلا توقف البحث العلمي عند حدود معينة ، فإذا كانت النظرة الكلية الشاملة من خصائص التفكير الفلسفي ، فإن النزعة العلمية تحكمها النزعة الجزئية والاستقرائية ، لذلك فإن الإضافات المعرفية المتجددة ، والاكتشافات التقنية والتكنولوجية الحديثة أثبتت التجديد في مجال البحث العلمي ، وزيادة الدقة في الحصول على النتائج المفيدة ، والتقليل من الأخطاء ، وضمان رفاهية الإنسانية والبشرية ، بغض النظر قليلاً عن بعض التجاوزات العلمية التي تتعلق بالمساس بالقيم الإنسانية العليا ، كالتناسخ ، والتلوثات الذرية والكيميائية وغير ذلك مما له أخطار على البيئة والإنسانية .

فإذا كان تاريخ العلم هو العلم نفسه كما يقول أوجست كومت Comte ، فإن العلم كثيراً ما يحلق في آفاق رمزية وفلسفية ، في الرياضيات ، ثم يعود مرة أخرى إلى مستوى الظواهر ، والمشاهدات والتجارب واستعمال الأجهزة الدقيقة [1] .

ولما كانت العلوم الطبيعية تصطنع المهج الاستقرائي التجريبي في دراسة الظواهر المختلفة للخروج بقوانين ونتائج تفسرها ، فإن العلوم الرياضية والصورية كالمنطق مثلاً ، تقوم على مقدمات وفروض ومسلمات ، وتقصد إلى قوانين الحكم والعدد والحساب ، أو شكلاً مثل الهندسة ، وتقصد العلوم المنطقية كذلك إلى إقامة القياس ومباحث الأحكام والقضايا ، فتتجه إلى مقدمات تلزم عنها النتائج كذلك . أما العلوم الإنسانية أو الاجتماعية والتي تتناول أحوال الإنسان منفرداً أو كالجماعات ، فتحاول استثمار مناهج العلوم الطبيعية والرياضية والمنطقية في مجالات بحوثها

---

١ دكتور عبد الحليم منتصر - تاريخ العلم - (ودور العلماء العرب في تقديمه) صـ ١٠ ، ١٢ ، ط دار المعارف ١٩٦٩ م .

المختلفة كذلك للخروج بنتائج وقوانين دقيقة تفسر الظواهر الاجتماعية والإنسانية فظهر ما يسمى بعلوم التاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ، والقانون ، والأنثروبولوجيا ، بالإضافة إلى علوم الأخلاق ، والفنون المتصلة بالإنسان ، كالفن والجمال ، وهكذا ، وإن كانت مثل هذه العلوم تعلوها النزعة الفلسفية ، والتصورات الرمزية كذلك .

وقبل أن نترك هذه الجزئية في بحث - العلم - وماهيته وفروعه نود أن نشير أيضاً إلى أهم خصائص العلم أو التفكير وخطوات البحث العلمي وهي : * استخدام المنهج الاستقرائي ، وتركيز البحث على الظواهر الطبيعية الجزئية كوقائع حسية ، وتصل البحوث التجريبية على إصدار أحكام وصفية وصياغة قوانين تكشف عن العلاقات الثابتة التي تربط بين الظواهر بعضها بالبعض الآخر ، ثم التعبير عن نتائج البحوث العلمية برموز رياضية ، وتحويل الكيفيات إلى كميات عددية ، حيث أن لغة الكم تزيد من الدقة في الحكم والوصف والتفسير ، يضاف إلى ذلك أن الدراسات العلمية تتمثل الموضوعية وإقصاء الخبرات الذاتية ، ودراسة الأشياء كما هي في الواقع ، أي النزاهة والتزام الحيدة ، أو عدم إخضاع البحث العلمي للميول والرغبات، وقد أصبحت الدراسات العلمية الآن أكثر دقة لما تتميز به من تطبيقات لقوانين العلوم الرياضية في دراساتها واستخراج نتائجها ، وهذا ما أراد تطبيقه علماء سابقون منذ بداية عصر النهضة العلمية في أوروبا مثل كبلر ١٦٣٠ م ، وجاليليو ١٦٤٢ م ولافوزييه ١٧٩٤ م ، وديكارت وهكذا . (١)

وكذلك عند علماء العرب من قبل من أمثال جابر بن حيان في مجال علوم الكيمياء ، والحسن بن الهيثم في علوم الطبيعة والكشف في البصرية ، وكل من ابن سينا ، وأبو بكر الرازي في علوم الطب والصيدلة . (٢)

وبعد هذا العرض الموجز للعلم ، ومدلوله ، ومناهجه ، نود أن نتناول علاقة العلم بالفلسفة ، ونزعة الفصل بين الجانبين ، ثم تأكيد مدى الصلة بينهما ، في ضوء الاتجاهات المختلفة .

١- المصدر السابق - صـ١٢ وما بعدها ، كذلك دكتور توفيق الطويل ، أسس الفلسفة - صـ١٣٣ ، ط دار النهضة المصرية ١٩٧٦ م .

٢- للمزيد : دكتور جلال موسى ، منهج البحث العلمي عند علماء العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية ، ط دار الكتاب ببيروت ١٩٧٥ م .

٢ـ علاقة العلم بالفلسفة والفصل بينهما :

متى بدأ العلم ؟ وأين بدأ ؟ وكيف تؤرخ للعلم الإنساني بفروعه المختلفة ؟ بل ، ما هي المراحل التي مرت بها العلوم المختلفة من خلال التطور الحضاري الإنساني على فترات التاريخ ؟ . [1]

كذلك ، ما هي الصلة الوثيقة بين الفلسفة والعلم ؟ ، ومتى بدأت ؟ وكيف تتحقق هذه الصلة ؟ ولماذا ؟ وهل حدث أو يحدث انفصال بين الفلسفة أو التفكير الفلسفي والتفكير العلمي .. ؟ ثم كيف يمكن تأكيد هذه الصلة بين الجانب الفلسفي والعلمي على فترات التطور الفكري الإنساني ؟

هذه التساؤلات أو غيرها ، تفرض على الباحث في تاريخ الفكر الإنساني ، والتطورات الحضارية ، ضرورة التحقق والبث والتنقيب فالعلم والفلسفة ، فكر ، وتأمل ، وتحليل ، وافتراض ، وتركيب ، ونقد ومقارنة ... وهكذا .

قد يجد الباحث من الصعوبات بإمكان تحديد هذه البدايات تحديداً دقيقاً ، فالبدايات بلا شك نشأت مع نشأة الإنسان على ظهر الأرض كما أن تداخل الحضارات الإنسانية على مر التاريخ ، كماً وكيفاً ، وامتزاج بعضها بالبعض الأخر ، علمياً وثقافياً ، قد يؤكد ما سبق أن افترضناه ، فالحضارات متصلة بعضها بالبعض الأخر ، تأثيراً وتأثراً ، ولا يمكن تمييزها إلا ببعض السمات والخصائص ، الفنية والتقنية ، والفلسفية أو الثقافية ، ومثل هذه الخصائص أو السمات يمكن أن نعتبرها الصفات الضارية المميزة لكل أمة أو شعب أو حضارة من الحضارات ، الشرقية ، أو اليونانية الإغريقية ، أو العربية الإسلامية أو حتى الضارة العلمية الحديثة .

فالحضارة الشرقية القديمة (الصين ، الهند ، بلاد فارس ، البابلية ، مصر) اصطبغت بالروح الدينية ، ومزج العناصر الفكرية والثقافية بأنماط من السحر والفلكلوريات والتصوف ، وممارسة بعض العادات والتقاليد بالقيم الأخلاقية والروح العلمية والعملية .

وفي هذا ما يميزها عن حضارات اليونان والإغريق في العصرين الهليني والهلينستي ، والتي تميزت بالنظرة العقلية التجريدية لاكتشاف علل الأشياء وأسبابها وأصولها ، وفي العصور الوسطى ، عصر الديانات وبصفة خاصة الإسلامية ، تعرف

١ـ مثل هذه التساؤلات وغيرها ـ راجع جورج سارتون ـ تاريخ العلم جـ١ صـ٤١ ، ترجمة مجموعة من العلماء . ط دار المعارف ١٩٧٦ م .

العرب على علوم السابقين عليهم شرقيين أو يونانيين ، ودرسوها ونقدوها وأضافوا إليها وجعلوا للنظرة العلمية والعملية - المستمدة من علومهم الدينية ، كالأصول والفقه أهمية كبيرة ، ومناهج استعانوا بها في بحث أصول الأشياء وتركيباتها وتحليلاتهم ، ولعب المنطق الأصولي الإسلامي والعربي أهمية في ضبط المسائل العلمية المختلفة فتميزت حضاراتهم بالعلم والعمل ، القائمين على التحليل والنظرة المجردة ، والتطبيق ، ونبذ دعاوى التقليد ، وطي صفحة البحث في اللامعقول .. وهكذا .

وقد استفادت الحضارة الأوربية الحديثة من تلك الحضارات السابقة وبصفة خاصة الحضارة العلمية والعملية الإسلامية والعربية فأنتج علماؤها مناهج البحث العلمي التجريبي والاستقراء العلمي ، مستعينين بالمناهج الرياضية والاستنباطية في تكميم الكيفيات ، وهذه الطرق كلها مأخوذة من العلوم العربية الطبيعية والإنسانية والدينية إذن لا يمكن لأي باحث في العلم ، أو ناظر في الفلسفة ، أن يجزم بأن العلم أو الفلسفة ، قد بدأ في زمن كذا ، أو في المكان كذا ، بل يمكن أن نقول : أن العلم - التفكير العلمي ، والفلسفة - التفكير الفلسفي ، قد بدأ حينما ، وحيثما ، عمد الإنسان إلى حل العديد من المشكلات والقضايا التي كانت تعترضه ، وإن كانت محاولات الإنسان الأول وقتية ، وغير دقيقة إلى حد ما ، ألا أنه على مرور الأيام والعصور استطاع الإنسان ، وعلماء البحث العلمي والمفكرين من الفلاسفة إخضاع الوسائل العلمية إلى عمليات من الضبط ، والتبرير ، والتبسيط ، والتحليل ، والترابط والتركيب ، للوصول إلى التكامل المعرفي في العلم ، والفلسفة .

وإذا كان تاريخ العلم لا ينفصل عن العلم نفسه كما يقول (هربرت دنجل) لأن العلم عملية ممتدة خلال الزمان ، بما يتعارض مع الفلسفة التقليدية [١]* .

فإن دراسة تاريخ الفلسفة والتفكير الفلسفي - يعنى دراسة الفلسفة ذاتها والتفكير ذاته أيضا ، لأن هذا التفكير متواصل عبر الأحقاب الزمانية المختلفة ، وإن كان لكل حقبة أو فترة زمنية معينة أتخذ التفكير الفلسفي أشكالاً مختلفة عن سابقتها سواء في الفترة الهلينية اليونانية أو الهلينسية الرومانية ، أو الأسكندرانيه أو الإسلامية والعربية أو الحديثة ، وفي كل هذه الفترات لم نلاحظ انفصالاً كاملاً بين التفكير والبحث العلمي وبين التفكير والبحث الفلسفي كذلك ، بل ظهر كما ذكرنا ما يسمى بفلسفة العلم .

١- دكتور صلاح قنصوة - الموضوعية في العلوم الإنسانية - صـــ ٩٠ ، صـــ٩١ ط دار التنوير - بيروت ١٩٨٣ م .

وبعد هذا العرض ، والتساؤلات ، نعقب على ذلك بالتحليلات في ضوء الدراسات التاريخية لنعقب صلة العلم بالفلسفة أو الفصل بينهما .

تلتقي الفلسفة بالعلم في عدة أمور نذكر من أهمها ، تقدم الفلسفة ، بصياغة المفاهيم العلمية وتحديد معاني المصطلحات وماهياتها ، وترتبط الفلسفة بالعلم في ممارسة نشاطها التحليلي ، بالإضافة إلى العمليات التركيبية في صياغة النظريات ، والنتائج ، وإذا كان العلم يهتم بالجوانب المتخصصة أكثر والتفصيلات الدقيقة ، فإن الفلسفة تهتم بإقامة التركيب الفكري المتزايد في سبيل صياغة النظرة الكلية الشاملة .

ومما لا شك أن ارتباط العلم والفلسفة ، ومواكبة التفكير الفلسفي للتفكير العلمي كذلك قديم ، يرجع إلى عصور النشأة العلمية والفلسفية .

وإذا نظرنا نظرة تاريخية إلى هذه العلاقة بين العلم والفلسفة ، فإننا لا نقف عند عصر واحد فقط بل ترجع إلى عصور متتالية ، فدراسة أصول وتطور الحضارات الشرقية القديمة ، الصينية ، والهندية ، والفارسية ، والبابلية والمصرية ، يتضح امتزاج التفكير العلمي ، والعمليات العلمية في العلوم الرياضية ، والطبيعية والفلك وغير ذلك بالفكر الأخلاقي والحكمة أو الفلسفة الدينية ، فالحكمة المشرقية وهي ترادف الفلسفة عند اليونان ، نشأة مع نشأة الدراسات والأفكار العلمية أو العملية ، " وعلى أرض مصر عاش الحكماء الأوائل العظام في التاريخ ، وإلى مصر جاء كثير من الفلاسفة يستلهمون الوحي والحكمة ، فقد أعترف أفلاطون بفضل المصريين عليه كرواد وأساتذة في كل ما هو سام من علم أو عمل وفكر ، "[1] وفي مصر على سبيل المثال - ظهر ، " بتاح حتب " حكيم الفضيلة ، والأخلاق ، وضبط النفس ، والإيمان بالإله ، والحساب في الحياة الآخرة ، وفي مصر امتزاج الفكر الديني ، بالفلسفي ، فأنتج فلسفة علمية وعملية ، يضاف إلى ذلك العلوم الرياضية ، والطبية ، وفنون الدواء أو العقاقير والأصباغ ، والعمارة ، والهندسة .. الخ ، وفي بلاد فارس وبابل امتزجت الحكمة الفلسفية بالدين ، والأخلاق ، والعلوم الرياضية والفلك ... الخ

كذلك في الحضارة الصينية والهندسية ، ظهرت فكرة العدد الرياضي ، والعدد العشري ، وغير ذلك عن فكرهم العلمي والفلسفي أيضا ، وسوف نوضح ذلك بالتفصيل

١- دكتور هنري توماس - أعلام الفلاسفة (كيف تفهمهم) ، صـ ٢٣ صـ ٤ ، ترجمة متري أمين - تقديم وتعليق دكتور زكي نجيب محمود ، ط دار النهضة العربية ١٩٦٢ م .

في الفصول القادمة ، عند دراسة الحضارات الشرقية وأثرهم في مجال التفكير الفلسفي .

وإذا تطرقنا إلى العصور اليونانية ، نجد الارتباط بين الفلسفة والعلم منذ النشأة الأولى للفلسفة الطبيعية ، " فلم يعرف الفكر اليوناني تلك التفرقة بين الفلسفة والعلم ، فقد كان الفيلسوف اليوناني عالماً كذلك على سبيل المثال فيثاغورث pythagaras (٥٨٢ - ٥٠٠) ق . م فقد كان عالماً في الرياضيات ، وفيلسوفاً وصاحب مدرسة فلسفية ، له مجموعة من النظريات والأفكار عن الكون ، وظهر عند اليونانيين دراسات عميقة وكثيرة عن علم الفلك ، وعلم الطبيعة ، وعلم الأحياء ، وعلوم الطب والحيوان والنبات ، والعقاقير ، وكانت الفلسفة ترادف مجموعة المعارف البشرية وكلمة (العلم) تدل على المعرفة بالإطلاق ، سواء مستمدة من الحواس أو من العقل ومبادئه ، وهذا واضح عند أرسطو ، الذي كتب في فروع المعرفة البشرية العلمية والنظرية ، في الطبيعيات ، السماء ، والكون والفساد ، والظواهر الجوية (الآثار العلوية) ، في الحس والمحسوس ، والتاريخ الطبيعي في علوم الحيوان ، والنبات والرياضيات والفلك .. وهكذا ، بالإضافة إلى ما كتبه عن الفلسفة ، في الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى ، والسياسة ، والأخلاق وقد اعتبر أرسطو أن ما كتبه في علم المنطق يعتبر مقدمة ومدخلاً ضرورياً لكل من العلم والفلسفة ، وثبت لأرسطو كثير من التجارب العلمية التي أجراها على الحيوانات والنباتات البرية والمائية ، وقد ورث أرسطو أو أكتسب نزعته العلمية من خلال ما شاهده ومارسه مع والده من ممارسات طبيه وعلمية ، وقد أشار جورج سارتون في كتابه عن تاريخ العلم بقوله " ليس تاريخ أرسطو استعراضاً لتاريخ الفلسفة فقط ، بل لتاريخ العلم أيضا وعلى الأقل ، حتى القرن الثامن عشر " [1] .

وهذا ما دفع بعض الفلاسفة المعاصرين ، وبصفة خاصة الوجوديين منهم ، إلى تفسير الفلسفة اليونانية المبكرة بأنها لم تكن مجرد نظر وتأمل ، بل موقف وخبرة حياتية وكونية ، والحقيقة انكشاف للوجود ، وليس مجرد مشاهدة للصورة تترائى أمام العقل النظري وتنتهي إلى اعتبار الذات محايدة لا مشاركة . ولذلك فإن منهج التفكير

---

١ - دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة ، صـ٧٢ ، صـ٧٣ ، كذلك جورج سارتون - تاريخ العلم - جـ ٢ - صـ٧٨ ترجمة إبراهيم مدكور وآخرون ، ط دار المعارف - بالقاهرة ، ١٩٧٦ م .

العلمي واحترام التجربة والتطبيق لم يكن بعيداً عن فلاسفة اليونان منذ فجر الفلسفة الطبيعية عندهم .[١]

وكما كان للنزعة العلمية أثرها الواضح إلى جانب النظر والفكر والصور العقلية الفلسفية عند كبار فلاسفة اليونان ابتداء من سقراط وأفلاطون وأرسطو مما يوضح امتزاج العلم بالفلسفة ، أو النظر والفكر logos بالعمل praxis ، وقد ظهرت مصطلحات فلسفية دقيقة مستنبطة من بعض التجارب العملية - كالجوهر ، أو الماهية ، والفن ، والخبرة والتجربة ، عند فلاسفة اليونان ، وقد كان لهذه المصطلحات وما واكبها من تغيرات أثرها الواضح في تطور التفكير الفلسفي عند اليونان ، وعلى مر العصور التالية ، كذلك ، فإن الفلاسفة الطبيعيون الأوائل عاشوا الخبرة والتجربة العلمية والعملية ، فلم يكن طاليس الطبيعي يبحث عن علة وجوهر الوجود الطبيعي والمادي ، بنظرة عقلية تأملية فقط ، بل كانت نظرية الفلسفة في البحث عن علة الوجود وجوهره مستنداً إلى التجربة العلمية والعملية - الأمر الذي دفعه إلى اعتبار " عنصر الماء " يشكل جوهر الوجود أصله الأول وحياة الوجود ، بصفة خاصة عندما اكتشف بالتجربة أثر الماء في الحياة بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان ، بل والطفيليات كذلك ينسحب هذا التفسير السابق على الفلاسفة الطبيعيين الآخرين أمثال انكسمندريس ، وانكسمانس الذي قال بالهواء كعنصر جوهري للحياة والوجود كذلك هيرا قليطس الذي اعتبر أن النار أصل وجوهر الموجودات أو ديموقريطس الذي اعتبر الذرة أو الذرات هي جواهر الموجودات بالإضافة إلى أنباذوقليس الذي ذهب على أن جواهر وعناصر الوجود والموجودات الأساسية هي : الماء ، والهواء والنار والتراب ، أو الرطوبة ، والبرودة والحرارة واليبوسة " وهكذا نجد أن التفكير العلمي لم يفارق التفكير الفلسفي ، أن العلم والفلسفة تواصلاً منذ العصر اليوناني .[٢]

وقد ظل التواصل العلمي والفلسفي في العصور اليونانية المتأخرة ، في العصور الهلينسنية عند المدارس المتأخرة بعد أرسطو ، عندما تحولت الفلسفة الطبيعية

١- دكتورة - أميرة حلمي مطر - دراسات في الفلسفة اليونانية - صـ٦ ، صـــ٧ ، ط دار الثقافة للنشر - القاهرة ١٩٨٠ م - كذلك - هيدجر (مارتن) - ما الفلسفة - ما الميتافيزيقا - صـــ١٢ وما بعدها ترجمة فؤاد كامل ، محمود رجب ، ط دار الثقافة ١٩٨١ م .

٢- للمزيد من التفاصيل : دكتورة أميره حلمي مطر - دراسات في الفلسفة اليونانية صـ٩ ، صـ١٠ وما بعدها . كذلك ، ريكس وورنر - فلاسفة الإغريق - أماكن كثيرة ، ترجمة عبد الحميد سليم - ط الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٥ م .

والأخلاقية والسياسية والرياضية إلى علوم طبيعية وعلوم أخلاقية وسياسية ورياضية في عصور المدارس الرواقية والابيقورية والأسكندرانية [١] وحتى العصور الوسطى ، حيث أنشئت المدارس والمجامع العلمية في ظل مدرسة الإسكندرية القديمة [٢] إلى جانب علوم اللاهوت والدين فكانت تدرس ألعلوم المختلفة إلى جانب الفلسفة ، على أساس أنها تنضم إلى رحاب التفكير الفلسفي ، لأن الفلسفة عرفت منذ القدم أنها أم العلوم .

ففي العصور الوسطى كانت الفلسفة خادمة للدين أو العلوم الدينية اللاهوتية ، سواء في اليهودية ، أو المسيحية أو الإسلامية ، وظهر أثر التفكير الفلسفي الأرسطي واضحاً ومسيطراً على الفكر اللاهوتي الكنسي ، وبصفة خاصة بعد أن اعتمدت الكنيسة آراء أرسطو وفلسفته في الطبيعة والفلك ، ويعتبر أرسطو هذا المعلم الأول - كما عرف في محيط الفكر الإسلامي ولهذا ، نجد أن الفلاسفة الإسلاميين كانوا متأثرين بطريقة أرسطو في الفلسفة والطبيعة ، فكتبوا في الطبيعة والكيمياء والطب والفلك وعلوم الفلسفة والرياضيات والموسيقى ، " الشعر وعلوم النبات والحيوان والعقاقير .. الخ ، ومن أمثال هؤلاء الفلاسفة العرب والمسلمين .. الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وجماعة إخوان الصفاء ، وابن رشد من فلاسفة المغرب العربي .

ولكن ماذا فيما يتعلق بالعلاقة بين الفلسفة والعلم في بداية العصور الحديثة ، وما هي دوافع الانفصال الشكلي ، والظاهري بين التفكير العلمي والفلسفي ؟

بدأ انفصال العلم عن الفلسفة تدريجيا منذ بداية عصر النهضة وظهور بعض الاتجاهات العلمية التجريبية الحديثة ، وربما قاد هذا النوع من الانفصال والتغيير بعض المفكرين العلميين ورواد البحث العلمي التجريبي ، الذين لجأوا إلى دراسة الظواهر الطبيعية عن طريق الملاحظة والاختراع للآلات والأدوات التي تمكنهم من اكتشاف أسرار الطبيعة والكون والظواهر المختلفة ، وقد بشر بهذا الاتجاه كل من روجر بيكون Bacon , R عام - (١٢١٤ - ١٢٩٤) م ، والذي حصر وسائل المعرفة في النقل والاستدلال والتجربة ، وهذه الطرق الثلاثة تعني " أنه لا يولد العلم

١- للمزيد من الدراسة والتفاصيل : دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفلسفة اليونانية (ارسطو والمدارس المتأخرة) كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف - مدرسة الإسكندرية الفلسفية ، ط دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٤ م ، يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية ط ١٩٨٤ م .

٢- ماكس مايرهوف - من الإسكندرية إلى بغداد - بحث منشور ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) - ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي ط دار العلم ببيروت ١٩٨٥ م .

ما دام لا يعطينا علـه ، أما الاستدلال ، فلا نستطيع أن نميز بـه القياس الخاطئ إلا إذا أبدت التجربة نتائجه ، فهي التي تظهره إلى المشاهدة ولذلك فإن للتجربة عدة نتائج منها ، التحقيق من النتائج التي تصل إليها العلوم بالاستدلال ، واستكشاف حقائق جديدة ، وبذلك يمكن تأسيس علم جديد قائم بذاته ، ومستقلا عن المعارف الأخرى وهو ما يطلق عليه " العلم التجريبي Science Expermintalis وهذا العلم يمكننا من السيطرة على الطبيعة ، ووسيلته الاستقرار ، واستخدام الحواس وبصفة خاصة حاسة البصر . [1]

أما الشخصية الثانية التي ظهرت في بداية العصر الحديث فهو وفرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٣٦) م ، فيلسوف إنجليزي شهير ، وضع ما يسمى بالأورجانون الجديد ، Novum Organun ، وهو الأداة الجديدة التي يعارض به منطق أرسطو الصوري ، وطريقته في التفكير ، ويعرض فرنسيس بيكون في قانونه الجديد ، أسس المنهج التجريبي الحديث ، وبهذا يمهد الطريق لمحاولة الاستقلال لعلم الطبيعة عن الفلسفة ، [2] التي تقوم على مجرد النظر والتأمل ، والتحليل أو التعليل للظواهر ، والخروج بأفكار ونظريات صورية ، ليس لها فائدة عملية للإنسان ، لذلك قال بيكون وهو يمهد للعلم الجديد " إذا أردنا وإذا أراد الإنسان أن ينتج أعمالا ، ينبغي أن تكون لديه معرفة بحيث يكون عالما وعارفا ، لأننا لا يمكن أن نسود الطبيعة إلا إذا درسنا قوانينها لذلك دعنا نتعلم قانون الطبيعة ، لنصبح أسيادا لها ، لأننا تجهلنا بها عبيداً لها ، والعلم هو الطريق للحياة السعيدة الفاضلة " [3]

كان أول العلوم التي انفصلت عن ومن الفلسفة هو علم الطبيعة أو الفيزياء physics ، على يد كوبرنيكس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣) ، وكيلر Kepher (١٧٥١ - ١٦٣٠) م وجاليليو Galile (١٦٤٢ م) وحتى فرنسيس بيكون ، كما أشرنا ، وربما يرجع الفصل التام بين الفلسفة والعلم على يد أسحاق نيوتن Neuton , ، (١٦٤٣ - ١٧٢٧) م وقد ألف كتابا أطلق عليه (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية * ، وهو يناقض من خلاله - علم الميكانيكا - حيث عرض قوانين رئيسية منها (قانون القصور الذاتي ، وقانون تناسب القوة والسرعة ، وقانون تساوي الفعل ورد الفعل المضاد) Counteraction –Equality of action ، وقد استخدم

١- دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - صـ٧٥ ، صـ٧٦ .

٢- المصدر السابق - صـ٧٦ ، كذلك ول ديورانت - قصة الفلسفة صـ١٥١ ، صـ١٥٢ .

٣- ول ديورانت - قصة الفلسفة - صـ١٥٢ .

إسحاق نيوتن كلمة الفلسفة الطبيعية ، ولم يستخدم كلمة العلم الطبيعي ، لأن لم تظهر كلمة العلم Science ، بمعناها الحديث أو المعاصر والتي تدل على الطريقة التجريبية الاستقرائية والتي تعتمد على الوسائل والأدوات والاختراعات ثم توالى انفصال علوماً أخرى مثل علم الكيمياء Chemistrys بعد اكتشاف الأيدروجين عام ١٧٨٤ م ، وإحداث الماء تركيباً من الأيدروجين والأكسوجين بنسبة يد٢ أ) ، وذلك على يد كل من كافندش ١٧٦٦ م Cavendish ، ولافوزيية (١٧٤٣ - ١٧٩٤ م) Lavaisier ، وقد استطاع دالتون Dalton وضع النظرية الذرية على أساس رياضي ، ثم توالى بعد ذلك انفصال علم الأحياء Biology على يد كلود برنارد Cloud Bernard ، ١٨٧٨ م ، وفي مطلع القرن العشرين ظهرت علوم أخرى منفصلة عن الفلسفة وهي علم النفس Psy Chology ، وعلم الاجتماع Saciolagy ، وعلم الأنثربولوجيا Anthorapology ،[1] وهو علم يقوم على دراسة الأجناس البشرية والحياة البدائية الإنسانية ، كدراسات ميدانية وحقلية مستخدماً الأدوات والجداول العلمية وآلات القياس الحديثة .

٣- نسقة العلوم في العصر الحديث أو المعاصر :

لقد أصبح انفصال العلم عن الفلسفة واضحاً في نهاية القرن الثمن عشر على يد هولباخ في كتابه "نظام الطبيعة الذي صدر عام ١٧٧٠ م ، وظهر بين العلماء والفلاسفة فجوة ، بحث لا يصطنع التجربة منهجاً - وامتد ذلك في القرن التاسع عشر وربما يرجع ذلك إلى غلبة الروح المادية على المشتغلين بالعلم ، وضعف اهتمام الفلاسفة الواقع .

لكن المؤرخين يلاحظون تحولاً آخر تمثل في الانتقال السريع من المادية المسرفة إلى الروحية ، والعقلانية في القرن العشرين .

وعلى ذلك يعرض الفيلسوف الإنجليزي (ولف A wajff) في بحث عن خلاصة العلم الحديث - إلى تاريخ هذا التحول الذي قارب بين العلماء والفلاسفة ، ويرجع هذا التحول الفجائي إلى أن العلماء قد أخذوا يتصورون المادة تصوراً جديداً ، فاعتبروا المادة مجرد شحنات كهربائية وإشعاعات موجبة ، ونحو ذلك .

ولذلك فإن العلوم في نظرهم أصبحت مجرد رموز يراد بها تفسير العالم ، فاصبح الوجود الحقيقي عقلياً تصورياً ، حتى وصف أحدهم هذا العالم ، بأنه فكر ،

١- دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - صـــ٧٨ .

ووصفه آخرون بأنه نور ، أو أن به روح وماهيات وطبائع .. وقد حدث شيء من التقارب بين العلماء ورجال الدين [١] وإذا كان الهدف من التجربة وتقدم العلم كما رأي العلماء هو السيطرة وتسخير الطبيعة لتحقيق خير الإنسان ورفاهيته ، إلا أن مثل هذه الأعمال ذهبت أدراج الرياح عندما انقلب العلم والاختراعات العلمية والاكتشافات إلى الأضرار بخير وأخلاقيات الإنسانية ، وضياع الكثير من القيم ، واصبح العلم يسير من جانب سلبي أخر إلى تدمير الإنسان ، أو التهديد بتدمير البشرية بين الحين والأخر .

فكان من الضروري التقريب بين العلم والفلسفة ، أو بين العلماء والفلاسفة والمفكرين في العصر الحديث ، وفي مجريات الحياة المعاصرة كذلك حتى يمكن التخفيف عن غلواء الحياة المادية ، وترشيد البحوث العلمية لخدمة الحضارة والمدنية الحديثة ، بحيث لا يؤدي التقدم العلمي والتكنولوجي إلى فقدان القيم والسلوك الأخلاقي ، والحفاظ على الحياة البشرية ، فكمال النفس وسعادتها لا يتوقف على الحياة المادية فقط ، بل لأن لها من غذاء الروح ، وتزكيتها ، بالقيم والإيمان العميق بالوجود الإلهي ، والارتفاع بالقيم الخلقية ، وضمان تحقيق الضمير الأخلاقي الذي هو نداء الإنسانية ، وحقوق الإنسان في الوجود ، والحياة الكريمة .

وعلى هذا ، فقد رجع العلم إلى رحاب التفكير العقلي والتصورات الفلسفية ، وذهبت الفلسفة لكي تصلح من شأن المناهج والبحوث العلمية باستعمال المنهج التحليلي ، والنقدي ، ثم استخدام وظيفتها التركيبية في استخلاص نتائج العلم وصياغتها وترشيدها فظهرت لكل علم من العلوم ، أو فرع من فروع العلم المختلفة ، فلسفة ، لذلك نجد كثيراً من التخصصات في مجال - فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية ، والكونية ، مثل : الفلسفة الطبيعية ، وفلسفة التاريخ ، وفلسفة السياسة والاجتماع ، وقد راحت الدراسات والبحوث العلمية في الحياة الحديثة والمعاصرة في هذه المجالات .

لكن ما هو المقصود : بفلسفة العلم ، وفلسفة العلوم ؟

المقصود بفلسفة العلم ، هو تلك النظرة التحليلية النقدية لمناهج البحوث العلمية ونظرياتها ونتائجها ، وتكون نظرة كلية وشاملة عن نتائج البحوث العلمية ، وخلاصة هذه النتائج توجهاتها ، ولذلك فقد أضيف هذا المبحث ضمن المباحث الجديدة التي أضافها المناطقة إلى مباحث المنطق ، ومما لا شك أن مبحث فلسفة العلم - أو فلسفة العلوم ، تشمل مبحث المناهج الذي يضم المناهج الاستقرائية والاستنباطية ، أو

١- دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - صـ ٢٢٠ .

الاستدلالية كذلك ، وكذلك فلسفة العلوم تشمل البحث في النظريات والفتوحات العلمية ، واستخلاص ما يساعد الباحثين [١] والمفكرين والعلماء على تكوين نظرة كلية وشاملة للكون والوجود . .

لقد حدث الاتصال بين العلم والفلسفة من خلال مبحث فلسفة العلوم وفي نطاق التصور العام والشامل للنظريات والفروض العلمية من حيث طبيعتها وأهميتها بالنسبة للإنسان وتفسير الظواهر الكونية والإنسانية أو الاجتماعية .

ومما لا شك أن العلوم بحاجة إلى تجديد النظريات واستخلاص النتائج واستنباط الأحكام من خلال ممارسة المنهج العلمي في مجال البحث ، ولذلك أصبح لكل علم من العلوم الطبيعية أو الإنسانية فلسفة ، تشكل النظرة المجردة في استخلاص النتائج وصياغة النظريات في تفسير الظواهر .

ولكي نكون أكثر دقة وتحديداً ، يجب أن نفرق بين (الحقيقة العلمية ، وبين ما يقال عن العلم " ، بمعنى أخر - يمكن أن نفرق ونحن بصدد تحديد المقصود بفلسفة العلم - أو العلوم - بين الحقائق العلمية ، وبين الشرح والتصور الشامل لهذه الحقائق .

مثال ذلك : عندما يصل العالم بعد إجراء تجاربه ، والعمليات التي يتبعها إلى تحليل (الماء) إلى مكونات ويعبر عن ذلك بالصيغة (يد٢ أ) يعني أن مكونات الماء تشمل (ذرتين أيدروجين في مقابل ذرة واحدة أكسجين) فهذه الصيغة تتعلق بالحقائق العلمية ، التي تسمى باللغة الموضوعية Object languaye ، وهذه لغة العلم في التعبير عن قضاياه .

أما إذا قام أحد بتفسير وشرح التركيب المكون لعنصر (الماء) (يد٢ أ) بصيغ رياضية دقيقة تعبر عن التركيب العنصري للماء فهذا التفسير والشرح تعبير (عن العلم) ، وليس في العلم ذاته لأن هذا مجرد شرح وتعليق على حقائق أو حقيقة علمية ، وعلى ذلك فإن الأقوال التي تقال عن العلم لا تدخل في اللغة الموضوعية للعلم ، وبالتالي تعتبر تعليق وشرح وتفسير .

فالفرق إذن بين العلم وفلسفة العلم تعني :

أن العلم : هو تلك اللغة الموضوعية .

أما فلسفة العلم : فهي اللغة الشارحة للعلم وحقائقه .

١- المصدر السابق - ص١٣٧ .

ففلسفة العلم : أقوال تقال عن العلم وليست جزء منه ، وهي دراسة وشرح وتعليق وتصور ، وهي دراسة تكمن وراء حقائق العلم ، ولا تدخل في صميمه ، لأنها لا تقرر حقائق علمية ، بل شرح على ما يقرره العلم من نتائج ونظريات وفروض .
ويعني أكثر دقه ، فإن فلسفة العلم أيضا : هي تلك الدراسات التي تتناول قضايا العلم بالتحليل المنطقي . [١]

وفيلسوف العلم ، يتناول الصياغة العلمية ، ويقدم بتحليلها لإبراز الجوانب المتعددة لها ، والمعاني المستخدمة لها ، كذلك يتناول الطرق التي يتبعها العالم للوصول إلى نتائجه ، ويقوم بتحليلها والطرق أيضا ، لكي يبين حدودها وشروطها وأبعادها المختلفة .

ومما لا شك أننا إذا تتبعنا آراء ونظريات بعض العلماء أو المشتغلين بالبحث العلمي ، واستخدام طرائق البحث العلمي ومناهجه المختلفة ، نجد أن هؤلاء من أمثال : إسحاق نيوتن ، وانيشتين ، والفيلسوف الذري المنطقي دالتون ، أو غيرهم لا تخلو آرائهم ونظراتهم ونظرياتهم من التأملات والأفكار الفلسفية ، واستعمال العقل في التحليل والفروض والتوقعات ، والاستنباطات بل والاستدلالات وغير ذلك ، كذلك قد نجد من بين العلماء فلاسفة ومن بين الفلاسفة علماء ، كما أن هناك فلاسفة مناطقة ، من أمثال : برتراند رسل (B, Russel) وهوايتهد ، وجون أستيورت مل ، ومما لا شك أن هناك علاقة بين فلسفة العلم ونتائج البحث العلمي أيضا ، ففلسفة العلم تشمل على مناهج البحث العلمي ، وغيرها من المفاهيم العلمية .

أما علم " [illegible]ج فإنه يشمل على الطرق والخطوات التي يتبعها العالم أو الباحث في بحثه ، ولذلك فإن فلسفة العلوم تشمل مناهج البحث أيضا ويصبح علم مناهج البحث جزءاً من فلسفة العلم ، بوصفه أقوالاً تصف طرق السير في العلم . [٢]

وكما أن هناك تباين وفرق بين لغة العلم التي تعبر عن حقائق العلم ، وبين لغة الفلسفة التي تعبر عن الشرح والتحليل والتعليل والنقد والشمول والصعود من الجزئي إلى الكلي ، والتعرف على الماهيات والمعاني والدلالات .. وهكذا ولا تدخل ضمن

١ـ الدكتور : محمد مهران : في فلسفة العلوم ، ومناهج البحث ـ صـ١٩ ، صــ٢٣ ط مكتبة سعيد رافت جامعة عين شمس ـ ١٩٧٨ م .

٢ـ المصدر السابق ـ صـ٢٣ ، كذلك للمزيد راجع دكتور صلاح قنصوه ـ فلسفة العلم ـ ط دار التنوير ببيروت ١٩٨٣ م .

اللغة الموضوعية التي تعبر عن حقائق بالإضافة إلى أن لغتي العلم والفلسفة متصلتان في العصر الحديث فإنه يجب البحث عن الفرق بين حقيقة العلم ، وحقيقة الفلسفة .

٤ـ الحقيقة العلمية والحقيقة الفلسفية :

الحقيقة العلمية خاضعة للعالم ومستمدة من التجربة ، من حيث أنها تصف فقط الوقائع المادية ، ولا تقول شيئاً أكثر مما هو في الواقع ، مثال لذلك قانون نيوتن Neuton ، في الحركة بالنسبة للأجسام ، فإنه يصف حركة جسم بالنسبة لغيره ، فهو قانون يصف الوقائع ، أي يبحث كيف هي واقعة على نحو ما تظهر لنا ، لكن القانون هنا لا يحدثنا : لماذا تكون الحركة ؟ ، كذلك بالنسبة لقانون الجاذبية ، أو القصور الذاتي ، أو القوة .. وهكذا

أما الفلسفة .. فإنها تتجاوز (كيف) الأشياء أو حدود وصف الحركي ، إلى لماذا هي ؟

يضاف إلى ذلك أن الحقيقة العلمية general ، لأن قانون الحركة عند نيوتن مثلا ، يحدثنا عن الحركة للأجسام بصفة عامة ، وليس بالنسبة لجسم واحد بالذات أو بعينه .

كما تتصف الحقيقة العلمية بالموضوعية objective ، وأنها غير ذاتية Subjective ، ويمكن للآخرين الرجوع إليها ، وقد أصطنع علم النفس الحديث والعناصر هذه الطريقة الموضوعية في دراسة النفس ، فعالم النفس يدرس ويحلل النفس الإنسانية بطريقة موضوعية ، لا تتعلق بنفس ذاتية واحدة أو معينة بل بصفة عامة ، لا يتأثر عالم النفس بذاته أو توجهاته ، " كما يقول العلماء : أن عالم النفس يدرس النفس بدون نفس [١]

وكذلك يحاول علماء الاجتماع دراسة المجتمعات البشرية وما فيها من تيارات ثقافية وعادات وتقاليد وأديان وطقوس ، وتركيبات أو ميكانزمات أو انساق اجتماعية ، بطريقة علمية موضوعية ، دون تأثير أو غاية معينة ، أو دون تدخل الأهواء الشخصية في الحكم على ظاهرة معينة مهما بلغت حساسية مشكلة أو قضية أو ظاهرة اجتماعية ، مثل : المخدرات ، والبغاء ، وأمور الزواج والطلاق ، وتفش ظواهر الموضه أو

١ـ دكتور محمد ثابت الفندي ـ مع الفيلسوف ـ صـ٧٢ .

التحديث أو غير ذلك - حاول كومت ، ودوركايم وليف بريل - وغيرهم من علماء الاجتماع الفرنسيين ذلك [1] .

أما الحقيقة الفلسفية ليست خاضعة للعالم ولا مستمدة من الوقائع المادية فقط ، حيث أن الحقيقة الفلسفية تتناول علل الوجود والعالم ، وتتساءل عن معناه ومغزاه .. وهكذا.

ففي التاريخ ، يصف عالم التاريخ الحروب ، ومجريات الأحداث وكيف حدثت ، وقد يصف حروباً أخرى مشابهة لحروب نابليون أو غيره ويقرر أنها شرور ، وبها فظائع ... إلخ كذلك عالم الطبيعة يصف الزلازل لكن الفلسفة ، قد لا تعني بهذا الوصف للوقائع والأحداث والزلازل والظواهر الطبيعية الجزئية ، لكنها تهتم وتعني : بالعلل جملة ، فتعلل الفلسفة لماذا الحروب ؟ ولماذا الزلازل ؟ ولماذا دخل الشر هذا العالم ؟ وهل هذه الشرور جوهرية أم عرضية ؟ وما هو الخير الذي تنشده الإنسانية ؟ وهل الخير جوهري أم عرضي ؟ وهكذا .

ففي فلسفة الفيلسوف المسلم ابن سينا ت عام (٤٢٧) هـ ، والفيلسوف الإنجليزي ليبنتز إشارة إلى هذا التعليل بالنسبة للشر والخير في العالم ، ومفاده عند كل منهما يقولان " إن الله تعالى كامل لم يخلق الشر أصالة ، ولكنه خلق المادة ، والمادة نقص في الموجودات ، فلزم عن نقصها الشرور والآثام ، دون أن تكون هذه الشرور مخلوقات لله تعالى .

هذا أسلوب التفكير الفلسفي دائماً ، الذي يبحث عن علل بعيدة ومبادئ وأصول أولية لا يتعرض لها العالم بالتاريخ أو بالطبيعة ، ويمكن أن تضيف إلى ما سبق أن الحقيقة الفلسفية لا تكون عامة ، لأن الفلسفة لا تهدف إلى صناعة قوانين عامة ، بل الفلسفة والتفكير الفلسفي يهدف إلى إقامة والوصول إلى اليقين أو الحقيقة الشخصية. [2]

فالفلسفة - إذن - عندما تصل إلى فكرة مجردة ، فإنما تهدف كذلك إلى قناعة فردية ، وتعبر عن مواقف ذاتية وشخصية ، أو مذهبية ، لذلك ظهرت اختلافات ومدارس فلسفية كثيرة في التاريخ الفلسفي والتفكير الفلسفي مختلف بلا شك من عصر لآخر طبقاً للتطورات الحادثة بالنسبة للعالم والنظم والقوانين والأمور الاجتماعية .

١- دكتور قباري إسماعيل - علم الاجتماع الفلسفي . ١٩٦٨ م .
٢ دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ ٧٣ ، ٧٤ .

وعلى ذلك فالحقيقة الفلسفية ذاتية Subjective ، لأنها متصلة بالأنا mai ، أو بالذات ، والمعرفة الفلسفية كذلك ليست سلبية ، بل معرفة إيجابية تضيف شيئاً إلى العالم حيث تضيف قيم جديدة ، وعلل ، وأسباب ..

كذلك تضيف إلى الحقيقة العلمية معاني ودلالات جديدة ومعقولية ، هي انتصار للذاتي والمثالي على الواقع ، هي انتصار أيضاً للروح على المادة ، والحرية الشخصية الذاتية على الضرورة الطبيعية ، والذات على الموضوع ، والشخص على العام .

مستوى اليقين المعرفي بالنسبة للحقيقة الفلسفية مصاحب لها ، ومنبعث عنها كما ينبعث الضوء عن الشمس ، ويحاول الفيلسوف تبرير هذا اليقين ليقنع به غيره بقول برديائيف N, Berdyaev أحد الفلاسفة المعاصرين " إني لا أبرهن قط حقيقة فلسفية لنفسي وإنما أبرهن للآخرين " [1].

ويقول الفلاسفة عن هذه الحقيقة أنها حقيقة مباشرة Direct من غير واسطة ولا برهان - أو حدثية - Intuitive - أي واضحة اليقين بذاتها - عند صاحبها .

أما بالنسبة للحقيقة العلمية - فهي عامة - وفي حاجة إلى البرهان عليها والاستدلال على صدقها من الخارج سواء بالتجربة والاختبار أو بالاستنباط deduction .. وهكذا .

٥ - خصائص التفكير العلمي والتفكير الفلسفي : -

هناك ثلاثة أنواع من التفكير ، تفكير العامة ورجل الشارع ، وتفكير العلماء - ورجل العلم ، وتفكير الفلاسفة - أو المشتغلين بالفلسفة .

ومما لا شك أن هناك اختلاف بين هؤلاء جميعاً ، من حيث المنهج ، والتوجهات ، والموضوعات ، وما يهم كل اتجاه في تفكيره ، بالإضافة إلى المؤثرات المختلفة في الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها ، كما يمكن أن نوضح أنه ليس ثمة تحديد واضح وقاطع فيما بينهما ، إذ قد يمكن لشخص واحد أن يستخدم أكثر من تفكير أو لونين منهما .

فالعالم أو رجل العلم قد يسير وفقاً لخطوات منهجية وفكرية محددة في أثناء القيام بالعمليات التجريبية ، وهو بذلك يسير وفقاً لخصائص علمية تتعلق بالتفكير العلمي ، ولكن خارج الإطار العلمي التجريبي يمكن أن يحصر تفكيره في إطار آخر وفقاً لمقتضيات حياته ، وكذلك بالنسبة للفلاسفة ، ورجال الفلسفة مثلاً .

---

١ المصدر السابق - ص ٧٤ .

وقد يحدث أن تظهر ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو الطبيعية أو السياسية ويقوم كل من العالم أو الفيلسوف بتفسيرها ، للوقوف على أسبابها بمنهج معين يتفق مع نظرته العلمية أو الفلسفية ، وقد يتعصب لها أو لمذهبه ، مما يؤدي إلى ظهور مذاهب ونظريات ومدارس مختلفة ، وكل منها يدعي الحق في جانبه . كما حدث بين المدارس وبين الفلاسفة والعلماء اليونان الأوائل في تفسير الطبيعة والكون ونشأته ، وجوهره الأول ، فطاليس قال أن عنصر الوجود الأول هو الماء ، وذهب أنكسمندريس إلى اللامتناهي ، وذهب انكسمانس إلى الهواء ، بينما أكد هيراقليطس على النار كلوجوس للوجود ، أما إنباذوقليس فقال بالعناصر الأربعة وتعصب أفلاطون لعالم المثل ، أما أرسطو فقد شكك في المثل واعترف بالوجود الطبيعي .. وهكذا ، إذا ما استعرضنا المدارس العلمية والفلسفية حتى العصور الحديثة ، نجد أن هناك مدارس تتعصب للمذاهب المادية ، وأخرى للمثالية ، وثالثة للعقلانية والنقدية .

وفي محيط المدارس الاجتماعية والأخلاقية ، نجد مذاهباً تتعصب للاتجاهات الوضعية الأمبريقية في تفسير الظواهر الاجتماعية والدينية والأخلاقية أمثال كومت ، ودوركايم ، وليفي بريل ، وإيفانز بريتشرد ، وسوريوكين ، .. إلخ ، بينما تذهب المدارس الفلسفية إلى تفسير هذه الظواهر وإرجاعها إلى الإلزام الخلقي وفكرة الواجب القائم على الضمير والنظرة المثالية التصويرية .

ومن خلال ذلك نستطيع أن نتبين كيف أن الفيلسوف ، أو العالم - رجل العلم - لا يمكن أن يظل كل منهما طوال حياته على مذاهب واحدة ، تصب في قالب واحد ، بالإضافة إلى أن الفيلسوف أو العالم رجل العلم قد يفكر كما يفكر رجل الشارع ، ولا ينفصل مطلقاً عن الحياة العامة ، وفي مثل هذه الحالة لا يتغير تفكير العالم رجل العلم أو الفيلسوف ، معبراً عن خصائص التفكير العلمي أو الفلسفي بالمعنى الدقيق .

وإذا أردنا أن نحصر هذه الأنواع الثلاثة من خصائص التفكير في تصنيف واضح ومحدد ، فسوف نستطيع التمييز بينها بسهولة ودقة :

أ - خصائص التفكير عند العامة ورجل الشارع : [1]

* - المبالغة : وهي خاصية أساسية لتفكير العامة ورجل الشارع يتضح ذلك حين يصف حادثة أو يشرح ظاهرة ، إذ نجد نوعاً من التهويل أو المبالغة ، والإسراف في الوصف ، والتجسيم للحادثة ، وقد يشترك في ذلك تفكير الأطفال كذلك

---

١ دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - ص ٧٩ .

* - إحالـة أسباب الأشـياء أو الظواهـر إلـى المجهـول ، عندما يستعصـي علـى العامـة ورجـل الشـارع تفسيرها ، كـأن تنسـب الأشـياء أو الأحـداث إلـى قـوى مجهولـة تتحكم فيها ، كالآلهـة بالنسبة للرجل البدائي ، أو عـوالم الجان ، والعفاريت والشياطين ، وكذلك اللجوء إلى السحر والشعوذة ، والحسد .. وهكذا .

* التعميم : يلجأ الكثير من العامـة ورجـل الشـارع إلى تعميم الأحكام ، دون أن يستند إلى أدلة كافية بالنسبة لظاهرة أو حدث معين وقع في بلد معينة أو في جهة أخرى ، يحـدث هـذا أحيانـاً بالنسبة للفـرد الـذي يـزور بـلاد الصـعيد بمصـر لأول مـرة ، فقـد يصطدم ببعض التقاليد أو العادات أو المعاملات الجافة المشددة ، فيعمم الحكم على كل البلاد ، كذلك بالنسبة للفلاحين بمصر وغيرها ، يعمم الحكم عليهم بأنهم لا يعقلون مثلاً ، أو قد يصـادف صـديق رجل لأول مرة من بلد ما ، فلا يجد معـاملة طيبة مثلاً ، فيحكم على أهل بلدته كلهم أنهم أغبياء أو بُخلاء ، أو يسود عندهم الجهل .. إلخ

- الربط الخاطئ بين الظواهر : حين يفسر رجل الشـارع العامي ظاهرة ماديـة بظاهرة ماديـة أخرى لا يرتبطان إلا بطريقة عرضـية ، مثال ذلك ، حين يربط الرجل العامـي أو العـادي بين حدوث حادثة وشيء مادي أو مشاهد ، كأن يربط بين سماع أو مشـاهدة نبـاح كلب ، وموت مـريض في نفس اليوم أو الوقت ، أو يربط بين سماع نعيق البومة ، وبين حادثـة سيارة ، أو بين قطـة سوداء وبين حدوث حريق مدمر للمنزل ، أو مشاهدة شخص معين وبين موت إنسان آخر أو انهيار عقـار معين .. وهكذا ، ينسحب ذلك علـى مـا نسميه بالنظرة التشاؤمية ، لأمور الحياة بصفة عامة .
- الذاتية : Egocentric - وهو أن يصـبغ رجل الشـارع تفكيره بميولـه وأهوائـه الذاتية ، وعقيدته القومية والدينية ، فيتلون هذا التفكير بلون الذات .

ب - التفكير العلمي : [1]

يمتاز التفكير العلمي بعدد من الخصائص التي يمارسها العلماء أو رجل العلم ، منها

- الدقة والتحليل : فالرجل العادي - رجل الشـارع تفكيره سطحي يتوقف على ما هو مشاهد فقط - بالنسبة للأشياء أو الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية أما تفكير

١- المصدر السابق - ص ٨٢ - كذلك دكتور زكي نجيب محمود - المنطق الوضعي - ج٢ - ص ٩ - ص ٢٧ ط القاهرة .

العالم ورجل العلم فإنه على العكس يمتاز بالتحديد الدقيق ، والتحليل العميق ، والغوص وراء نقطة ضئيلة لمعرفة أكبر كمية من المعلومات .

- تحويل الكيف إلى كم : الناس في حياتهم يدركون كيفيات الأشياء ويحكمون عليها دون وضعها في نسب أو معايير معينة ، لمجرد وقع هذه الأشياء على الحواس العضوية مثلاً : الماء قد يكون ساخناً أو بارداً ، ملمس الأشياء قد يكون ناعماً أو خشناً ، الحركة قد تكون قوية ، أو بسيطة ، أما التفكير العلمي الذي يمارسه العالم ورجل العلم ، فيمتاز بخاصية مختلفة في إدراكه للأشياء - وذلك بتحويل الكيف إلى كم ، أي أن الكيفيات تشكل نوعاً من الكميات ، أو توضع في إطار الكميات والنسب المعينة ، مثال ذلك : العالم - رجل العلم يدرك أن ذرة واحدة من الماء تحتوي على ذرتين من الأيدروجين وذرة واحدة من الأكسوجين بنسبة (يد٢أ) .

فالحرارة أو البرودة بالنسبة للعلم الطبيعي يعني درجات من الحرارة يقيسها العالم فالشيء أو الجسم الحار ، أو البارد له درجة من درجات الحرارة ، لا كيف من الكيفيات مثلاً ، لذلك فالعلم لا يصبح علماً إلا بتحويل ما هو كيف إلى ما هو كمي .. بالقياس - والموازين العلمية الدقيقة .

- التعميم : إن إدراك الإنسان لشيء واحد لا يكون علماً ، لأن العلم يعتمد حدوث أمور متشابهة ، مثال ذلك : عندما تجري تجربة على ذرات من الماء أو السوائل المشابهة لقياس درجات التسخين أو الغليان نستطيع التعرف على أن الماء يصل إلى درجة الغليان ، عند درجة حرارة = ١٠٠ م ، كذلك بالنسبة لتمدد المعادن ، فلم يصل العلماء إلى القانون القائل (أن المعادن تتمدد بالحرارة أو تنكمش بالبرودة) إلا بعد استقرار جميع ذرات وأنواع المعادن المختلفة المتشابهة في نفس الخصائص والصفات ، وهذا نوع من التعميم العلمي .
- وأن كان هذا التعميم في العلم يختلف عن (الفن) ، لأن ما يصح في الحكم على الطبيعة الفنية أو الجمالية لشيء أو ماهية ، قد لا يصلح لكي يعمم على الطبيعة الفنية أو الجمالية لشيء أخر .

ذلك لأن الفن له طبيعة ذاتية ، وخاصية تتفق مع الفنان في تشكيل موقفه الفني والجمالي بصدد أشكال أو ظواهر أو طبائع معينة .

- إمكان اختيار الصدق : يعتمد التفكير العلمي كذلك على إمكان التحقيق من صدق القضايا والقوانين العلمية ، وذلك بمراجعتها على عالم الواقع والحس

والمشاهدة وإجراء التجارب للتحقيق من صدقها ، وبذلك يمكن أن نخرج من حيز الذاتية العلمية لكل باحث أو دارس إلى حيز إمكانية إجراء الاختيارات للتحقق من صدق القضايا والنتائج بوسائل التحقيق العلمي التي تعتمد على - الملاحظة ، والفروض ، واختيار الفروض بالتجربة ثم الخروج بالنتائج والتحقيق من صدقها في التفسير أو التحليل .

الموضوعية : من خصائص التفكير العلمي الموضوعية ، فالعالم - ورجل العلم يتمثل الموضوعية في إجراء بحوثه العلمية ، بمعنى أن يحصر نفسه في الموضوع الذي هو بصدد دراسته أو بحثه دون التأثر بالأهواء الشخصية أو المواقف الذاتية أو الميول والرغبات والتمنيات ... الخ .

فالعلم يحصر جهود في موضوع تخصصه وتنحية الآراء ، ويجعل كل اهتمامه هو النتائج التي يخرج بها العالم من بحوثه وتجاربه ، والتعريف الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين للموضوع مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدونها " (١)

وعلى ذلك فإن العلم والفلسفة يتفقان في أنهما معاً يبحثان عن المعرفة ، لكن المعرفة التي يأتي بها العلم لا تكتفي بها الفلسفة ، لأن الفلسفة تهدف للوصول إلى ما هو كلي وشامل عن الكون ككل ، لا ينحصر في الجزئي الذي يذهب إليه العلم .

جـ - التفكير الفلسفي :

على الرغم من أن التفكير الفلسفي لا ينفصل انفصالاً مطلقاً عن التفكير العلمي حيث أنه أتضح لنا فيما بعد وجود عوامل وأمور أساسية مشتركة بين الناحيتين برغم المحاولات السابقة المستمرة للانفصال بينهما ، إلا أن التفكير الفلسفي يحتفظ بالكثير من المميزات والخصائص التي لا تتوافر عند العامة ورجل الشارع وكذلك عند العلماء ورجال العلم ، ومن ذلك .

* الاستقلال : فالتفكير الفلسفي يعتمد على العقل والمنطق ، ولا يخضع الفيلسوف في تفكيره لإجماع الناس ، وهذا لا يعني أن الفيلسوف يسكن في برج عاجي أو ينعزل عن المجتمع وسائر الناس ، إذ أن الحياة الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية تشكل جانباً هاماً وأساسياً من التحليلات الفكرية المنطقية للفيلسوف ، فهو دائماً ما يحاول تجاوز الواقع وما هو كائن إلى ما يجب أن يكون ، وإيجاد أيسر السبل

١- المصدر السابق - ص٨٥ ، كذلك - دكتور محمود فهمي زيدان - مناهج البحث الفلسفي - ط بيروت ١٩٧٤ م .

لتحقيق أفضل حياة بالنسبة للفرد والجماعة ، والتأكيد على القيم الإنسانية العليا التي يجب أن تسود المجتمعات الإنسانية تحقيق قيم الحق ، والخير ، والجمال ، ونداء الضمير الإنساني ، مثال ذلك الفيلسوف الإنجليزي في العصر الحديث برتراند رسل Bretran Russell ، على الرغم من أنه كان يعتز بفكره الفلسفي ويرفض الخضوع لأي سلطان سوى العقل والمنطق ، لكنه كان مثالاً للفيلسوف الذي يعيش حياة الناس والشعوب ، ويشارك في مناقشة وحل مشكلات المجتمع الإنساني ، يتضح ذلك في محاربته لاستخدام القنابل الذرية ، ودعوته المستمرة للقضاء على الحروب ، والاتجاه إلى تحقيق السلام ، ولذلك فقد أسس ما يعرف (بمحكمة رسل) - ويشاركه كذلك الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر ، وغيرهما [1].

* الشك : يصطنع الفيلسوف منهجاً في الشك ، بهدف الوصول إلى اليقين ، لا يقصد الشك لأجل الشك ، لأن ذلك يؤدي إلى هدم المعرفة ، كما أشرنا فيما سبق . لذلك فإن الشك المنهجي وكما استعمله كبار الفلاسفة أمثال ديكارت الفيلسوف الفرنسي ، والإمام الغزالي الفيلسوف والأصولي المتكلم والصوفي المسلم .. بالإضافة إلى دعوة إبراهيم بن سيار النظام المفكر المعتزلي إلى اصطناع هذا الشك المنهجي ، كانوا يهدفون من ذلك عدم التسليم أو الإيمان بشيء قبل فحصه فحصاً دقيقاً ، كذلك لإمكان إعادة اختيار ما يتوصل إليه العالم والمفكر من نتائج بعد البحث .

* المرونة في التفكير والمواقف : فالفيلسوف على وجه الحقيقة يكون لديه استعداد لاستبدال مواقفه أو وجهة نظره في بعض القضايا إذ ما تبدى له ما يناقضها أو يبطلها ، فإذا عرف الفيلسوف حقيقة تبدو أكثر دقة مما توصل إليه ، فسرعان ما يغير موقفه ويأخذ بها . وهناك فلاسفة ذهبوا إلى ذلك من أمثال : رسل وهيجل ، والقديس أوغسطين ، ويضاف إلى ذلك التسامح وسعة الصدر ، فالفلاسفة لا يتميزون بالتصلب أو التزمت المميت أو الكريه ، ومهما وجه إليهم النقد ، كذلك يناقشون القضايا بأفق واسع ، وعقول مفتوحة .. وهكذا .

* الهدوء والاتزان : من خصائص التفكير الفلسفي استعمال الفكر الهادئ ورسم التعبيرات بصورة متزنة ، مع التجرد من العواطف والانفعالات ، فالفيلسوف الحقيقي يترفع عن المحبة والكراهية بصورة عامة ، ولا يجعل الانفعالات أو العواطف لها مجالاً في سياق تفكيره الذي يجب أن يقوم على العقل والمنطق ، كما سبق الإشارة .

١- المصدر السابق - ص٨٥ - كذلك ، دكتور محمود فهمي زيدان - مناهج البحث الفلسفي - ط بيروت ١٩٧٤ م .

مثال ذلك الفيلسوف اليوناني والمعلم الأول أرسطو وجه انتقادات كثيرة لفلسفة أستاذه أفلاطون ، خاصة فيما يتعلق بنظرية (المثل) قال عبارته المشهورة ، يقول أرسطو " إنني أحب أفلاطون وأحب الحق ، ولكن حبي للحق أعظم " [1].

١ المصدر السابق - صـ ٨٦ .

الفصل الثاني

نشأة التفكير الفلسفي وأثره
بين الحضارات الشرقية واليونانية والغربية

الفصل الثاني

نشأة التفكير الفلسفي وأثره
بين الحضارات الشرقية واليونانية والغربية

الأهداف العلمية والتربوية والثقافية :-

أولاً :- دراسة المفاهيم الثقافية والحضارية والروابط الفكرية والعلمية والفنية .

ثانياً:- دراسة جوانب التفكير الفلسفي وعلاقته بالأنماط والنماذج الحضارية عند الشعوب القديمة وحتى العصر الحديث .

ثالثاً :- البحث عن نماذج الوعي الذاتي بالأفكار الحضارية عند شعوب الحضارات الشرقية مثل الصين ، والهند ، ومصر .

رابعاً:- الكشف عن الوعي الذاتي بالتيارات الفلسفية اليونانية في الحضارات الغربية والعصور الوسطى والحديثة.

خامساً :- الكشف عن معوقات التطورات الثقافية والحضارية في المراحل الإنسانية .

" الفصل الثاني "

" نشأة التفكير الفلسفي وأثره "
" بين الحضارات الشرقية واليونانية والغربية "

أولاً : الفلسفة بين المفهوم الثقافي والحضاري :-

الفلسفة - وكما سبق الإشارة إليها في الفصل الأول ، تقوم على التفكير العقلي ، والتأمل الذاتي الباطني لدى الإنسان منذ نشأته وفي حاضره وحتى مستقبله ، لون أصيل متداخلة في أعماق الإنسان وحياته المختلفة والمتشعبة ولا يمكن أن نفصل بين تفكير الإنسان وحياته مهما كان وخلال مراحله المتطورة ، فالإنسان يمارس التفكير على مختلف توجهاته وسلوكياته اليومية ، ولم ينفصل هذا التفكير عن جوانب التحليل والتعليل ، وربط الأسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات بالإضافة إلى تمثل التركيبات التي تقضي على إنشاء الأنساق والمفاهيم التي تحدد علاقاته بالأشياء والموجودات من حوله ، سواء كانت أشياء واقعية طبيعية ، أو سلوكيات أخلاقية أو أمور عقلية إبداعية تجريدية تقع في نطاق الإبداعات الفنية أو المعرفية ، أو حتى اللاهوتية وما يصاحب خيالاته ، وما يتعلق بعالم الملكوت والغيب الإلهي الأعلى .

وعلى ذلك فإن الفلسفة أو التفكير الفلسفي ليست بعيدة عن مضمون المفاهيم الحضارية أو الثقافية ، التي تحدد الإطار العام لحياة الإنسان وتطوره المستمر .

وقد حاول بعض الفلاسفة والمفكرين تحديد المفهوم الثقافي والمفهوم الحضاري ، ووضع صبغة محددة لكل من هذين المفهومين ، إلا أن كثيراً من المفكرين والفلاسفة المحدثين والمعاصرين لم يجدوا اختلافاً كبيراً ، وإن حاول البعض الفصل بينهما ، لكن الكثيرين منهم رأى أنه لا يوجد فرق بين المفهوم الثقافي والحضاري ، فاستعملوا كل من هذين المفهومين بمعان واحد ، فالثقافة تعبر عن الأطار الحضاري ، كما أن الحضارة بمفهومها الصحيح لا تخرج عن نطاق الثقافة التي تعبر عن حياة الأمم والشعوب في تطورها وتقدمها ، بصفة عامة ، هذا في عرف الباحثين ، والمفكرين المحدثين والمعاصرين .

ولكن من خلال دراساتنا المختلفة نلاحظ ، أن بعض العلماء والباحثين من المفكرين العرب والمسلمين قد لا يشير إلى المفهوم الثقافي ، إلا في نطاق الحضارة ، والمدنية .

فالحضارة في مفهومها العام أو الخاص ، هي التي تعبر عن ثقافة الشعوب ، سواء كانت مادية ، أو روحية فكرية ، فالعالم العربي وفيلسوف التاريخ عبد الرحمن بن خلدون (١٤٠٦) م ، مثلاً ينظر إلى معنى الحضارة في نطاق الواقع ، والحياة المادية التي تعيشها الشعوب والممالك ، لذلك يحدد مفهوم الحضارة " أنها تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ، أو بمعنى أخر أنها رفاهه العيش ومظهرها يكون واضحاً في المدن والقرى " [١]

ثم يذكر أبن خلدون الجوانب المختلفة التي تشكل المظهر الحضاري للدول والممالك المختلفة والتي تتمثل في الخروج من طور البداوة إلى المدنية والتحضر والذي يحصل فيه الملك ، وفي المظاهر الأخرى البادية في أنواع وألوان المطابخ ، والفرش ، والأبنية ، والصنائع المختلفة وما يلحق بهذه المدنية أو الحضارة من فنون ، وآداب وعلوم وغير ذلك .. [٢]

ومن الجدير بالذكر أن مفكري العرب والمسلمين كانوا يستعملون كلمة التمدن أو التمدين أحيانا كبديل عن كلمة الحضارة ، Civilzation ، إلا أنها تعني نفس الكلمة . [٣]

وإن اختلفت المفاهيم الحضارية قديمها وحديثها ، نظراً للطابع الخاص الذي يميز بين كل حضارة عن الأخرى ، فإن المفهوم الحضاري بمعناه الفلسفي العقلي لا يخرج عن كون الحضارة إن هي إلا نتاج لتفاعل الإنسان مع البيئة التي تحيط به ، وتصلح لهذا التفاعل الخلاق والمبدع ، وإن اختلفت مظاهر الحضارات الإنسانية ، فإن ذلك ناتج عن اختلاف المسميات المتصلة بالبيئة والظروف التي أدت إلى تفاعل الفكري الإنساني بالأشياء المحيطة به كذلك .

ويشير أرنولد بوينبي " إلى أن الحضارة الهللينية (أي اليونانية القديمة) - هي أولى الحضارات التي أمنت بالفلسفة الإنسانية دون قيد أو شرط ، وتكون هي الحضارة الوحيدة التي فعلت ذلك حتى هذا التاريخ ، كذلك فإن الحضارة قد ربطت نفسها بعجلة الفلسفة الإنسانية على نحو دقيق ، ثم يشير في هذا السياق إلى مدى تحقيق الإنسان سيادته على الطبيعة .. وهكذا ويشير كذلك إلى حضارات الشرق الأدنى والقديمة

١- ابن خلدون - المقدمة - صـ١٧٢ ط دار القلم بيروت ١٩٨٤ م .
٢- المصدر السابق - صـ١٧٢ ، صـ١٧٣ .
٣- دكتور أحمد الشامي - الحضارة الإسلامية - صـ١٣ ط دار الهداية - القاهرة - ١٩٩٩ م .

وحضارات المصريين في حوض نهر النيل [1] وإذا كان كل من ابن خلدون ، وأرنولد يوينبي قد أشارا إلى ربط المفهوم الحضاري بالواقع والحياة المدنية والسيطرة الإنسانية على الطبيعة غير البشرية ، وما يبدو في ذلك من حياة ومظاهر الترف والتقدم والإبداع والتفنن وغير ذلك ، فإن ذلك لا يخرج عن نطاق تفاعل العقل أو التفكير الفلسفي الإنساني مع الواقع والحياة الطبيعية .

ولكن من ناحية أخرى ، نجد أن كثيراً من العلماء والمفكرين المحدثين أو المعاصرين ، لا يفرقون بين المفهوم الثقافي والمفهوم الحضاري في نطاق التفاعل الفكري والفلسفي الإنساني مع واقع الحياة وما يحيط بالإنسان من أشياء .

وثمة تعريفات كثيرة لمفهوم الثقافة Culture - لعل أبسطها وأوفاها بالغرض هو تعريف العالم البريطاني الأنثربولوجي أدوارد بيرنت تايلور Edward Burnetee Tylor ، يقول : " أن الثقافة : هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن الأخلاق والقانون والتقاليد ، وكل العادات والقدرات الأخرى التي يكتسبها الفرد من حيث هو عضو في مجتمع معين " ، وإن كانت كلمة ثقافة لا تعني هنا أية أحكام قيمية ، فحين نتكلم عن ثقافة شعب من الشعوب والمقصود ببساطة هو طرائق المعيشة ، وأنماط السلوك ، وكل التراث الفكري والروحي وكذلك المادي مثل الآلات والملابس [2] وأنماط الحياة المختلفة ، فإن ذلك يدل على المفهوم الحضاري كذلك ، الذي يتفاعل من خلاله الإنسان أو الفرد مع البيئة المحيطة ، وتبدوا فيه كذلك مظاهر الإبداع والتفنن وغير ذلك .

وهذا ما ظهر من قبل عند ابن خلدون ، وكذلك توينبي اللذان استعملا كلمة الحضارة بدلاً من الثقافة ، في التفاعل المبدع لدى الفرد أو الإنسان .

ومن الواضح أن إدوارد تايلور ، لا يفرق بين " الثقافة " و " الحضارة بالمعنى الدقيق ، فكل من المفهومين يؤديان لغرض ومعنى واحد [3] وذلك في مطلع كتابه " الثقافة البدائية Primitive Culture فالثقافة تشمل المفهوم الحضاري أيضا بمعناها

١- أرنولد توينبي - تاريخ الحضارة الهللينية - صـ١٤ ، صـ١٥ ، ترجمة رمزي جرجس ، مراجعة الدكتور صقر خفاجة ، ط مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة . ١٩٦٣ م .

٢- دكتور أحمد أبو زيد - مقدمة كتاب ما وراء التاريخ (وليم هاولز) صـ٥ - ط دار نهضة مصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين - القاهرة - نيويورك - مارس ١٩٦٥ م .

٣ - E, B , tylor , primitive Cultur , Researches into the development of [illegible]ynguage , philosophy , Religion , lunguge , Art and Custom , P , ١ , Nol , ١ , - ١٨٧١ .

الأثنوجرافي الواسع ، إذا كانت : هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف والقدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع [١] فهذه الأمور بلا شك تقع في صلب الحضارة ومفهومها الدقيق والشامل ، بل أن الركائز الحضارية لأي مجتمع من المجتمعات أو شعب من الشعوب إنما تقوم على هذه المفردات من المعرفة ، والدين أو العقيدة ، والفن والأخلاق والنظم والقوانين والأعراف والعادات والتقاليد والعمارة وغيرها .

ومن الملاحظ أن بعض العلماء والمفكرين يفضلون استخدام كلمة الثقافة بمفهومها الواسع حين يتكلمون عن المجتمعات الأكثر تقدماً ، سواء كانت هذه المجتمعات قديمة عريقة ، أو مجتمعات صناعية حديثة .

إذ أن المفهوم الثقافي ينسحب على أسلوب الحياة السائد في المجتمعات بصرف النظر عن مدى تقدمها صناعياً أو تكنولوجياً ، غير أن ذلك أيضاً في نفس الوقت لا يمنع البعض الأخر من المفكرين والعلماء والفلاسفة من استخدام كلمة " الحضارة Civilization في الإشارة إلى التنظيمات الأكثر تعقيداً وتفاضلاً . [٢]

وثمة اتجاه أخر نجده عند ليزلي وايت Lislie whiye إذ يشير إلى أن الثقافة " تطلق على كل الملامح السلوكية التي تميز الإنسان عن بقية الأنواع الأخرى ، وتنحصر هذه الملامح السلوكية في الكلام الواضح والمفصل ، والنظم وقوانين الأخلاق وقواعد السلوك ، أو ما يسمى " بالأتيكيت " والأيديولوجيات واكتساب القدرة على استعمال الآلات والأدوات وغير ذلك ، ويضاف إلى ذلك مدى استخدام الإنسان للرموز والصور في التعبير عن الأشكال والأمور الأخرى ، ويحاول ليزلي وايت أيضاً أن يفسر الثقافة أو الحضارة بنفس المفهوم في صور نظرته إلى الرموز والرمزية ، وذلك من خلال نوعية من السياق ، السياق الأول : وهو ما يسمى بالسياق الجسمي الفيزيقي ، حيث تستمد الأشياء معناها من علاقتها بالكائن العضوي الإنساني وهو يؤلف السلوك ، والسياق الثاني ، وهو ما يسمى بالسياق فوق الجسمي أو ما فوق الفيزيقي ، وفيه يكتسب الأشياء والأحداث معناها من علاقتها بأحداث أخرى وتعتمد بدورها على رموز معينة ، وهذا السياق يؤلف الثقافة . [٣]

١- دكتور أحمد أبو زيد - الحضارة بين علماء الانثربولوجيا والأركيولوجيا بحث منشور ضمن مجلة عالم الفكر (كتابات في الحضارة) صـ٨ أو صـ (٦٣٤) ، المجلد ١٥ ، عدد ٣ ، ديسمبر ١٩٨٤ م .

٢- المصدر السابق ، صـ٨ / ٦٣٤ .

٣- المصدر السابق - صـ٨ / ٦٣٤ .

هذا ، وفي مقال عن (مفهوم الحضارة) ، يشير بدروأرمياس Pedro Armillos ، إلى أهمية التقدم الخلقي والفكري ، بالإضافة إلى إعطاء أهمية أخرى للأساليب والنظم التكنولوجية ، وما للعادات والعلاقات والنظم الاقتصادية والفنية من أهمية في التطور الثقافي والحضاري وهذا ما سبق أن يؤكد عليه العالم البريطاني الأنثربولوجي لويس مورجان ، leuis Morgan [١]

وبعد هذا التحليل لمفهومي الثقافة والحضارة في ضوء الدراسات والبحوث التي صدرت عن بعض العلماء والمفكرين العرب والمسلمين بالإضافة ، إلى العلماء والمفكرين الأنثروبولوجيين يتضح لنا أن المقومات الثقافية والحضارية أما تشكل قضايا فلسفية ، فالأخلاق ، والدين ، أو المعتقدات ، والعادات والأعراف ، والقانون ، والنظم والفنون واللغة والآداب المختلفة ، تقع في إطار النظريات والأفكار الفلسفية أيضا ، ولا يخلو فكراً فلسفياً سواء عند العرب أو الغربيين من مناقشة مثل هذه القضايا والأمور وعلاقتها بالفرد والإنسان والمجتمعات الإنسانية ، وهذا ما دفع بفلاسفة الحضارة في العصر الحديث إلى تأكيد هذه العلاقة بين المفاهيم الحضارية والثقافية وبين الأساليب والإشكاليات الجدلية والمعاصرين كذلك إيجاد كافة السبل من أجل تدخل العقل الفلسفي ، والتفكير المنطقي لدراسة أساليب ومفاهيم الحضارة الإنسانية ، وتحليلها حتى يمكن إصلاحها ، وإنقاذها وتوجيهها إلى المسار الصحيح في حالة ما إذا تعرضت الحضارات الإنسانية والثقافات البشرية إلى نوع من التدهور والاضمحلال الخلقي والاجتماعي أو الديني .

فقد ذهب اشفيتستر - إلى تشبيه الحضارة بالسفينة التي تمخر بها في تيار ملئ بالأمواج العاتية تحت شلال هائل ، ولابد من إنقاذها ، وإعادتها إلى المجرى الصحيح ... الخ [٢] وقد ظهرت مجهودات الفلاسفة لذلك ، فمنهم من رأي أن العلاج بالنسبة للحضارة والحفاظ عليها يكمن في الأخلاق بينما يتمثل ذلك عند الآخرين في الدين .

١- المصدر السابق كذلك - صـ٩ / ٣٥ / ٦ - (وجدير بالذكر أن مفهوم الثقافة يأخذ شكلاً تجريديا متصلاً بالدين عند وليم هاولز فيقول : أن الثقافة أنماط وأفكار مجردة تتخذ شكل الموضوعات والأفعال العيانية المحسوسة وبعد أن أستعمل الإنسان هذه الأنماط أصبح متمسكاً بها واتخاذها وسيلة لفهم الكون كله مما أدى لظهور الدين الذي يعد أشد جوانب الثقافة تجريداً وبعداً عن الحياة الحيوانية والمادية) وليم هاولز - ما وراء التاريخ - صـ ٣٢٨ - ترجمة أحمد أبو زيد ط دار نهضة مصر ١٩٩٥ م .

٢- ألبرت اشفيتستر - فلسفة الحضارة - صـ١٩ - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي - ط المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٣ م .

ومما يؤكد على ضرورة الصلة بين الفلسفة والحضارة ، ما ذهب إليه اشفيستر " الذي يلوم الفلسفة ويتهمها بالتقصير فيقول أن الفلسفة تفلسفت في كل شيء إلا في الحضارة ، فقد مضت قدماً لإقامة نظرية في الكون ، لكي نستطيع أن نعيد بناء كل شيء ، ويصف الفلسفة حين تدخلها في فلسفة الحضارة الإنسانية بالحارس الأمين الساهر على حفظها أو إصلاحها [١] أما الفيلسوف الأمريكي وليم أرنست هوكنج W , E , Hoching عندما يعرف الحضارة بأنها " تأثير الأفكار في نماذج الحياة الاجتماعية " فإنه يقرر الصلة الوظيفية بين الحضارة ومفاهيمها وبين الفلسفة ، إذ رأي أن وظيفة الفلسفة تكمن في الحكم على الحضارة بوصفها جزءً من معرفتنا للإنسان ماذا تعني ؟ وما الذي أنجزناه ؟ وماذا تبغي لكي تفعل ؟ هل وقعنا في أخطاء ؟ وهل نحن في خطر ؟ والحقيقة أن الفلسفة يجب عليها أن تساهم مساهمة فعلية في الحضارة ، يجب أن تتفلسف في الحضارة ، وهذا مما أكد عليه البرت اشفيستر من قبل [٢]

ومن هنا نجد أن كل من اشفيستر وهوكنج ١٨٧٣ م ، قد أكدا على الصلة بين الفلسفة والمفهوم الحضاري والثقافي ولما كانت الحضارات والثقافات بمفاهيمها ومقوماتها المختلفة متتابعة ومتطورة عبر الأدوار والعصور المختلفة ، بين التقدم والتطور أحيانا أو التدهور والتخلف أحيانا أخرى - كما أشار كل من ابن خلدون ، وأشبنجلر وأرنولد توينبي من قبل ، فإننا نحتم هذا الحديث والبحث في هذه الجزئية " بأن الحضارة ومفهومها أو كذلك الثقافة بمفهومها الحضاري أيضا، هي " الأعمال التي يضيفها الإنسان مسجلة ومكتوبة ، فهي التاريخ ، وهي حياة المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته ، ومكاسبه وإنجازاته وهي القيم والمعاني ، والمعارف والآداب والعقائد والأساليب والسلوكيات والمخترعات والمناهج والطرق التي تنطوي عليها حياة الأمم والشعوب [٣]، ومما لا شك أن هذه المجالات تشكل قضايا وإشكاليات الفلسفة كما سنراها فيما بعد .

١- المصدر السابق - صـ١٩ وما بعدها .

٢- للمزيد دكتور محمودوسيد أحمد - الحضارة والدين عند هوكنج - صـ٨ ط دار الحضارة بطنطا ١٩٩٤ م .

٣- دكتورة - أمنه نصير - حوار الحضارات من أجل الإنسان ، (تواصل لا صدام) - صـ٨١ - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ١١٩ - القاهرة - ٢٠٠٥ م .

ثانياً : التفكير الفلسفي في الحضارات الشرقية القديمة :-

تمهيد : نتناول في هذا الموضوع نشأة التفكير الفلسفي وأثره وأهميته في تطور وتاريخ الحضارات الشرقية القديمة والعصور الوسطى ، وذلك لكي نثبت بما لا مجال له في الشك مدى ما كان للحكمة أو الفلسفة الشرقية من توجيه للحياة الثقافية والدينية والأخلاقية والسياسية وتحديد علاقة الإنسان بالكون والأشياء والطبيعة من حوله .

ومما لا شك أن بلاد الشرق القديمة أو ما يسمى بالشرق الأدنى ، قد شهدت ظهور أول الحضارات أو الثقافات الإنسانية ، بما تضمه من علوم ومعارف وحكمة في مجال العلوم الرياضية ، والفلك ، فضلاً عن الطبيعيات والنجوم ، بالإضافة إلى حكمة الدين والتصوف ، والأخلاق ، وربما تركزت مثل هذه العلوم والمعارف والحكمة الفلسفية في دول ذات حضارات عريقة ، مثل الصين ، والهند ، وبابل ، وفارس ، ومصر ، وقد شكلت حضارات وثقافات الشرقيين حجر الزاوية في تشكيل حضارات وثقافات دول أخرى فيما بعد ، كاليونان ، وأسيا الصغرى ، والرومان ، فقد أكد كثير من علماء الحضارات مدى ما كان للمصريين والبابليين وأهل فارس والهنود والصينيين ، من أثر في مجال البحث والعلوم والفلسفة والحكمة ، فقد وضح " ديوجانس " في كتابه عن " مشاهير الفلاسفة " أن نشأة الفلسفة إنما تمتد إلى التراث الشرقي القديم ، وما كان للمصريين من حكمة وعلوم .. كذلك يذهب جورج سارتون Garg Sarton في كتابه " تاريخ العلم " فيقول " أن نور العلم قد انبثق من الشرق ، وان معارفنا العلمية .. والحكمة الفلسفية .. مهما يكن أمرها ، فنحن الغربيون مدينون بها إلى الشرق . خاصة بلاد ما وراء النهرين " كما أن التفرقة بين معنى العلم ، والفلسفة لم يتحدد أو يعرف إلا في مطلع العصر الحديث ، فالعلوم اليونانية وتراث الإغريق يقوم أساساً على تراث الشرق القديم ، ولم يكن تراث اليونان الفلسفي أو العلمي أن يبلغ ما بلغ من فكر ، وبحث وعمق بدون تراث الشرق ، وقد ثبت ما كان للأصول الفكرية والعلمية الشرقية من أثر في تطور العلوم اليونانية كذلك [1] وهذا ما سوف نوضحه في جزئيات البحث فيما بعد حتى يمكن إثبات خطأ ما ذهب إليه كبار فلاسفة أوربا في العصر الحديث ، من أمثال برتراند رسل B, Russell ، حيث اعتبر أن طاليس الفيلسوف الإغريقي القديم هو اول مؤسس للتفكير الفلسفي ، وكذلك ثبت خطأ ما ذهب إليه فيكتور كوزان V, Causin ، الذي رأى أن سقراط اليوناني هو أول

---

١ نظرنا - جورج سارتون - تاريخ العلم - [illegible] - طـ دار المعارف بمصر - ١٩٧٦ م .

من تفلسف ، وكذلك ما ذهب إليه سانت هيلر Saint Hilaire الذي رأى انحصار الفلسفة أو التفكير الفلسفي ونشأته فقط في المدارس اليونانية الثلاثة وهي : المدرسة الإيلية ، والفيثاغورية ، والأيونية . وهكذا.

ويؤكد ماسون أورسيل Masson Oursel ـ صدق ما ذهب إليه كل من ويل ديورانت ، وجورج سارتون في إثبات نشأة الفلسفة والتفكير الفلسفي في حكمة الشرقيين ، وحاول الكشف عن مكان النظر العقلي الشامل في تراث المصريين والصينيين والهنود والبابليين والفرس وغيرهم من أمم الشرق ، ويضع التراث الفكري والعلمي ، والفلسفي الشرقي في مكانه اللائق من التراث الفلسفي الإنساني .

ولنبدأ البحث عن نشأة وتطور التفكير الفلسفي عند حكماء الشرق الأدنى والقديم بداية من : المصريين ، والبابليين ، والفرس ، ثم الصينيين والهنود .

١ - التفكير الفلسفي وحضارة المصريين القدماء : -

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدءوا قصتهم باليونان وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، ولعلنا مخطئون في ظننا ، لأننا نجد بين اقدم القطع المتناثرة التي خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة قوية إلى الفلسفة الأخلاقية ، فقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذي كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس لهذا الشعب القديم " [١].

وعلى ارض مصر عاش الحكماء الأوائل العظام في التاريخ ، ويمكن ان نعتبر هذا القطر القديم معلم الإنسانية الأول ، وعندما كانت الأجناس البشرية تنتقل من مكان لآخر سعياً للمأكل والمأوى ، مر كثير منهم خلال دهاليز وادي النيل وهو أرض مصر ، حيث تجمعت فيه آلاف الناس ، وفي هذا الموطن شحذوا أفكارهم وذكاءهم عن طريق تبادل الخبرات المتنوعة ، وتخضبت عقولهم بالآراء والطقوس والعادات والخبرات العلمية والعملية المختلفة ، ولذلك أصبحت مصر مهد الفكر الإنساني المتمدين . [٢]

---

١ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ (الشرق الأدنى) ترجمة محمد بدران ، صـ ١٤٩ - ط جامعة الدول العربية ١٩٧١ م .

٢ دكتور هنري توماس - أعلام الفلاسفة (كيف نفهمهم) - صـ ٣ - ترجمة متري أمين مراجعة دكتور زكي نجيب محمود - دار النهضة بمصر ١٩٦١ م .

إن الحضارة المصرية القديمة ، بكافة أشكالها وأنواعها ومحتوياتها ـ من لغة وكتابة وأديان وأخلاق وحكمة وعادات ، وعلوم في الطب ، والأصباغ الكيميائية والأدوية ، والفلك والرياضيات ، وحكمة الموت والبعث ، بالإضافة إلى المحتويات العملية والتطبيقية لهذه الحضارة في المجتمعات المصرية من نظم وقوانين وأنساق حياتية أخرى .. جعلها تختلف عن كافة الحضارات الأخرى المعروفة في اعتبارين أساسيين : طول أمدها ، ثم استمرارها .

لقد كانت قصة الفلسفة الشرقية تبدأ بمثل هذه التأملات التي احتفظت بها الآثار المصرية ، فنحن في ظل ذلك نستطيع أن نتعرف على جهود الإنسان فيما له صلة بالتفكير المنظم ، مما يدل على أن هناك حضارة بمعنى منهج معين لمجتمع مصري تسوده نظرة في الحياة ملازمة له ، ومن الحكمة إعادة اكتشاف مصر القديمة ، أو بمعنى آخر علم المصريات Egyptology ، وهذه فكرة تلفت نظر كثير من المفكرين المحدثين والمعاصرين لإثبات أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفي . [١]

وإلى مصر نزح الكثير من فلاسفة العالم القديم ، يستلهمون الوحي ، ويسعون وراء الحكمة والتدريب ، فقد كان يضرب بحكمة المصريين المثل بين اليونانيين القدماء ، حتى أن أفلاطون أعظم فلاسفة اليونان اعترف بفضل المصريين عليه كرواد وأساتذة في كل ما هو عظيم من عمل وفكر [٢] ، بل إن أفلاطون قام زيارة على مصر ومكث عدة سنوات لكي يتعرف على حكمة المصريين وفلسفتهم الأخلاقية والدينية ، بالإضافة إلى علومهم الأخرى ، وتذكر المصادر المختلفة زيارة كبار فلاسفة اليونان الأوائل منهم طاليس ، وفيثاغورث على مصر وتعرفهم على الحكمة والعلوم الفلسفية والعملية [٣] .

وعلى ذلك ذهب المفكرون المحدثون من الأوربيين إلى " أنه يمكن إرجاع أصل كل تفكير (فلسفي ـ وعلمي) إلى الحكمة المصرية ، وذلك عن طريق أفلاطون والفلاسفة اليونانيين الآخرين ، وهكذا ومما يدل على الواصل الفكري والحضاري الإنساني والتأثير الفكري الفلسفي المصري على الحضارات والثقافات الأخرى ،

---

١ أ ، و ، ف ، توملين : فلاسفة الشرق ـ صـ ٢٥ ، ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ـ ١٩٨٠ م .

٢ هنري توملس ـ أعلام الفلاسفة ـ صـ ٣ .

٣ أشار وأثبت ذلك أكثر من مؤلف ومصدر ، مثل جورج سارتون في كتابه تاريخ العلم ـ جـ ٢ . دكتور توفيق الطويل ـ أسس الفلسفة ـ صـ ٣٧ ، دكتورة أميرة حلمي مطر ـ الفلسفة عند اليونان ـ ط دار الثقافة للطباعة ١٩٨٥ م .

وبصفة خاصة اليونانية والحدثية ، ما أشار إليه هنري توماس Hanary Thomas ، في أن اليونانيين قد أخذوا فلسفتهم عن الشرق ، ونحن بدورنا أخذنا فلسفتنا عن اليونانيين ، وهكذا انساب تيار الحكمة عبر الأجيال من غير توقف مبتدأ (بحوض نهر النيل) ، ويدلل على أن كل فكرة جديدة إن هي إلا مجرد فكرة قديمة ألبست ثوباً مختلفاً فنراها تحت أضواء مختلفة ، فكل ما نطلق عليه أسلوباً حديثاً في الفلسفة ، إن هو إلا تكرار وإعادة للقديم بعينه . [١]

ويشير ول ديورانت من طرف آخر إلى مظهر من مظاهر الحضارة المصرية القديمة والتي تتمثل من خلالها الروح الفلسفية والحكمة المصرية من خلال الاستلهام الفني للروح الدينية والطقوس الأخلاقية والصوفية عند المصرين القدماء ، فيقول " لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، فيوحي لهم بروائع فنهم ، فإذا مات ما بين الفنانين والدين الخالص ماتت بموته الفنون ، التي كانت تعيش على الدين ، فمع بقاءكل عقيدة او دين تبقى روح الحضارة وفلسفتها [٢].

هذا : وقد تجلت روح الفلسفة المصرية القديمة فيما يبدو من فنون وآداب وعادات وطقوس متمثلة في تلك التماثيل والرسومات والكتابات على جدران المعابد والمقابر وما تركت الحضارة المصرية من لفائف البردي والتمائم وغير ذلك من فنون تعبر عن الحياة المصرية ، وظروف وأصناف العبادات والآلهة .. مما يخرج عن نطاق بحثنا الآن . [٣]

ولكن نود أن نشير في عجالة على أهم مقومات الحضارة المصرية القديمة ، قبل ان نتناول نماذج التفكير الفلسفي عند أعظم الشخصيات المصرية في مجال الحكمة والفلسفة ، ومن هذه المقومات : اختراع الكتابة ، وهذا أعظم ما قام به المصريون من جهود حضارية ، سواء كانوا هم أول من اخترعها أم سبقهم في ذلك السوماريون أو الصينيون ، فهذه مسالة موضع جدل ، ونظر كذلك ، لكنهم كانوا مستقلين عن غيرهم ، إذ أن المصريين بدأوا الكتابة باستعمال صور للتدليل على أشياء وأفكار لا كلمات ، ثم أصبحت هذه الصور تدريجيا ومضي الزمن مصطلحات مبسطة ومعقدة مربوطة في النهاية على كلمات منطوقة ، وبذلك أصبحت كل صورة لا تمثل فكرة فحسب ، بل

---

١ هنري توماس - أعلام الفلاسفة - صـ ٤٩ .

٢ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ (الشرق الأدنى) صـ ١٤٨ .

٣ للمزيد من الدراسات والمعلومات في ذلك يمكن الرجوع إلى .. ادولف ارمان ديانة مصر القديمة (نشأتها وتطورها) .. ترجمة دكتور عبد المنعم ابو بكر وآخرون - مكتبة مدبولي - القاهرة - ١٩٩٥ م .

كلمات معينة من كلمات اللغة المصرية ز كذلك استطاع المصريون اختراع علامات هجائية ، بالإضافة على اربعة وعشرين حرفاً استخلصوها من لغتهم الهيروغليفية .

وقد حاول الباحثون إيجاد صلة بين لغة وحروف القدماء المصريين ، وبعض اللغات الشرقية الأخرى خاصة اللغة والحروف الصينية ، كما أوضح هؤلاء أثر الكتابة والرموز المصرية في اللغة والرموز الصينية ، إذ ذهب يوسف جويجن Goseph De guigne عام ١٧٥٩ م وهو الباحث في الصينيات إلى القول " أن الرموز الصينية مشتقة من المصرية ، وإن الصين نفسها كانت مستعمرة مصرية " كذلك أثرت الحضارة المصرية في أسلوب التوراة العبرية في الشرق الأدنى .. [١]

كذلك فإن اختراع ورق البردي لدى المصريين كان له قيمة اجتماعية وثقافية كبيرة ، الأمر الذي يسره وسهله كتابة الآثار والفنون والآداب والفكر والحكمة المصرية على أوراق يسهل تناولها بالإضافة إلى أدوات الكتابة والأحبار بدلاً من استعمال الأحجار والنقوش المختلفة عليها بالإضافة إلى الكتابات على العظام والجلد وغير ذلك ، يضاف إلى ذلك من المقومات الحضارية المصرية - الفلك وعلم النجوم - فمن خلال كثرة تأمل المصريين في النجوم وحركات الأجرام السماوية أنها موزعة توزيعاً غير متساو ، وأنها أبراج ذوات أشكال مختلفة ، لذلك أوحت لهم بأن توهموا السماء كلها محاطة بجسم الآلهة توت تحمل جسمها على يدها وقدمها ، وهذه الفكرة أدت بهم أن ينظروا على السماء كلها بأعينهم مرة واحدة ، وقد أفادهم ذلك بلا شك في تسيير مدار الحياة والزراعة إلى آخره [٢] .

أما " العمارة والهندسة " فلا شك أنها من أهم مقومات حضارة المصريين وتشير إلى فكر فلسفي وهندسي رائع يشهد بذلك الأهرامات بالجيزة ، ويمكن أن نجمل باقي مقومات هذه الحضارة العتيقة دون تفاصيل حتى لا تخرج عن نطاق البحث - العلوم الرياضية - والصناعات الفنية ، وصناعة المعادن وعلوم الطب والتحنيط وكتابات الموتى والأدعية والرموز وغيرها ، ثم الفن والآداب وهكذا [٣] .

ويحق لنا هنا ، وبعد هذا العرض لمقومات ومظاهر الحضارة المصرية ، ويشملها من مظاهر التفكير والإبداع ، أن نعرض لبعض النماذج والشخصيات التي تعبر عن جوانب التفكير الفلسفي والحكمي .

---

١ جون سارتون - تاريخ العلم - جـ ١ - صـ ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .
٢ المصدر السابق - صـ ٨٥ ، ٨٦ .
٣ للمزيد من التفاصيل - المصدر السابق - جـ ١ - صـ ٨٨ : صـ ١٢٨ .

ومن أولى نماذج التفكير الفلسفي هو ما ظهر عند فيلسوف وحكيم مصري شهدت له كتابات معظم المؤرخين والفلاسفة المحدثين وهو :

* (بتاح حتب) : -

يشير ول ديورانت إلى أن أقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية تعاليم بتاح حتب ، وتاريخه يرجع فيما يبدو لنا عام ٢٨٠٠ ق م ، أي على ما قبل كنفوشيوس (فيلسوف الصين) ، وسقراط (' فيلسوف اليونان) بوذا (الفيلسوف الأخلاقي الديني في الهند) بألفي عام وثلاثمائة [١].

وعلى الرغم من أن المعلومات قليلة عن هذا الفيلسوف المصري القيم ، فإن ما في مخطوط الحكمة الذي وضعه الكثير من المقتطفات والمعلومات عن نسقه الفلسفي ، أو ما يشير إلى فلسفته ، وقد كان بتاح حتب حاكم منفيس ، ورئيس وزراء الملك المصري ، ولما اقتربت حياته من نهايتها اعتزل منصبه وكرس نفسه لتعليم النشء أو الشباب والأطفال . [٢]

ولكن ما يهمنا هنا هو توضيح مذهب الفيلسوف المصري بتاح حتب الفلسفي ، ونستطيع الاستدلال على ذلك من خلال التعاليم والأفكار المروية عنه والواردة في كتاب مخطوط الحكمة " .

يبدأ بتاح حتب رسم فلسفته في التعليم بالنسبة للنشء بضرورة الالتزام بالحزم والنصح - لأن ذلك يعني الالتزام بالفضيلة ، لأن الأطفال والشباب في بداية عمرهم بحاجة إلى ذلك حتى لا يتركوا فرصة للوهن أو الضياع ، ولكي يصبح الأطفال شباباً أو الشباب رجالاً صالحين ، ويدعوهم كذلك للإنصات إلى حكمة الرجال الذين عاشوا في قديم الزمان ، ألئك الذين استمعوا لكلمات الله . [٣]

ثم يضع بعض التعاليم الإصلاحية للنفس ، وإذكاء روح الفضائل الأخلاقية بما يذكرنا بمذاهب فلاسفة اليونان في الفضيلة الأخلاقية فيما بعد .

يقول بتاح حتب : " لا تأخذ نفسك بالزهو لمعرفتك ، ولا تحسبن نفسك عالماً ، تحدث إليه الجاهل كما تتحدث إلى العالم على السواء ، عليكم أن تتعلموا الكثير بعضكم من بعض ، فالمعرفة لا حدود لها ، كما أنه ليس في الوجود أي فيلسوف يملك الحكمة كاملة والحديث المتسامح اللين " .

---

١ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - (الشرق الأدنى) صـ ١٤٩ .
٢ هنري توماس - أعلام الفلاسفة - صـ ٤ ، ٥ .
٣ المصدر السابق - صـ ٦ .

ويقول كذلك في تعاليمه للابن الحكيم من بعده " لا تتحدث بخشونة أو بتسرع واحذر من أن تخلق أعداءً بكلماتك ، لا تتجاوز الصدق ، ولا تفشي بكلمات قد ائتمنت عليها ، وسرد القصص في غير موضعها بفيض إلى النفس " .

والواضح أن بتاح حتب يجعل الفضيلة الحقيقية في تمثل الأعمال الرقيقة ، بالإضافة إلى الكلمات اللطيفة " عش في دار الرقة والشفقة فيأتي إليك الرجال يحملون إليك الهدايا بأنفسهم " وهذه الصورة التي رسمها بتاح حتب تذكرنا بالصورة التي رسمها أرسطو الفيلسوف اليوناني للرجل الكامل الدمث الأخلاق " [1].

ومن الفضائل الأخلاقية التي يشير إليها بتاح حتب قوله " تعلم أن تختط لنفسك طريقاً متزناً بين عواصف الحياة ولا تدع شيئاً يقلب اتزان شخصيتك ، الشخصية الصالحة هي أغلى هدية للحياة " [2]

يقول أيضا " لا تكن خجولاً إلى حد ألا تذكر الحق ، ولا متهوراً فتنطق زوراً وبهتاناً ، علم ولدك أن يفعل المثل ، ولا تدلله إن كان معوجاً وإذا كان يخرج كلاماً دنيئاً ، فعليك أن تلهبه ضرباً حتى يزداد حرصاً على اختيار كلماته ، وعناية بأعماله ، اكبح جماح نفسك وألجم لسانك .

وعلى ذلك فإن حرص بتاح حتب على ضرورة تعلم وتعليم الفضيلة ، وضبط النفس ، هذه الأمور تشكل أساساً أخلاقياً في فلسفتي الأخلاق عند سقراط ، وأفلاطون وأرسطو ، والمدارس اليونانية الأخرى .

أما من الناحية الميتافيزيقية الدينية ، فإن بتاح حتب يضعها في نسق فلسفي متكامل أيضاً ، لا يخرج عن نطاق الفكر الفلسفي الديني عند المصريين القدماء .

لقد كان الدين في مصر فوق كل شيء ، وفي كل مرحلة من المراحل الأخرى ، وفي كل شكل من أشكال الحياة ، من الطوطم إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره في الأدب والفن ونظم الحكم .. إلخ .

كان تصور المصري الديني يقوم على أن بداية الخلق هي السماء ، وظلت هي والنيل أكبر الأرباب أو الآلهة ، كما أن الأجرام السماوية أرواح أو صور لأرواح عظيمة ، وللآلهة ذوات إرادات مختلفة ، وكانت السماء في تصورهم اللاهوتي عبارة

---

١ نفس المصدر - صـ ٦ ، وللمزيد كذلك ، ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - (الشرق الأدنى) - صـ ١٥٠ ، وما بعدها .

٢ المصدر السابق - صـ ٧ - ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - صـ ١٥١ وما بعدها .

عن قبة تقف في فضائها بقرة عظيمة هي الآلهة " حتحور " والأرض من تحت أقدامها ويكسو بطنها عشرة آلاف من النجوم .. وهكذا [١].

لكن بتاح حتب كان من الحكماء والفلاسفة الأوائل الذين آمنوا بفكرة التوحيد ، كان بتاح حتب يؤمن بإله واحد ، وقد استعار العبرانيون هذه الفكرة من المصريين وبعض الشعوب الشرقية الأخرى .

وهذا الإله الواحد عنده - يشير إلى أسطورة إيزيس وأوزوريس ، فالإله الواحد عنده هو " أوزوريس " ومما لا شك أن هذه الأسطورة تمثل قصة الصراع بين الخير والشر ، وقد يتغلب الشر فترة لوقت ما ، لكن من المؤكد أن الخير سوف يسود في النهاية .

لقد أكد الفيلسوف المصري القديم بتاح حتب على أبدية الإله الواحد الحق ، وأنه يحمل شعبه مسئولية أعماله ، لكنه يهدي هذا الشعب إلى الطريق المستقيم الأعلى حيث الجنة الخالدة ، يقول كذلك " إن روح الإنسان كاللهب يتجه على أعلى ، يموت الإنسان ليحيا مرة ثانية " .

قد سجل بتاح حتب كذلك : إيمان الإنسان بالبعث بعد الموت ، وهذا الأمر حفز المصريين أن يصنعوا للميت كل ما يلزمه من المعيشة بعد البعث في قبره ، ودون على اثر ذلك ما يعرف بكتاب الموتى ، وما به من أدعية وابتهالات وإرشادات للميت حين يبعث حتى يهتدي به . [٢]

لقد كانت الفلسفة مرتبطة بالدين في مصر ، يتضح ذلك من خلال قراءة الأشكال والصور التي ترمز إلى معاني ودلالات " فمن أكثر الرموز المرسومة على حوائط المقابر إثارة ، صورة الميت وهو ينهض ، على قدميه ،وذراعاه ممدودتان على هيئة صليب ، وكان لفكرة الصليب هذه عند المصريين القدماء ، وقبل العصر المسيحي تشير إلى " دلالة الارتفاع والسمو أكثر مما تتضمن من حزن أو ابتئاس ، وكانت تمثل الجنس البشري ، وهو يصعد إلى أعلى نحو الحياة ، ولا تمثله وهو يهبط إلى اسفل نحو الموت " [٣] .

أما النموذج الثاني ، الذي يعبر بصدق عن فلسفة المصريين في الدين والأخلاق فهو

---

١ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - صـ ١٥٥ ، ١٥٦ .

٢ هنري توماس - أعلام الفلسفة - صـ ٨ .

٣ المصدر السابق - صـ ٨ ، ٩ ، كذلك راجع الرسومات والأشكال وتأويلاتها المختلفة عند المصريين القدماء والتي تصور فلسفة الموت والحياة والبعث والخلود - ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - صـ ١٥٥ .

" إخناتون " :

أمنحوتب الرابع ـ الذي شاءت الأقدار أن يعرف باسم " إخناتون " والذي ظهر حوالي الآلف والأربعمائة عام قبل المسيح عليه السلام ، وقد عثر له على تمثال نصفي واضح المعارف ، عثر عليه في تل العمارنة بمصر ، وبغض النظر عن صفاته الجسمية كما قراها علماء الحضارات ، فإن ملاك القول أنه كان شاعراً ، شاءت الأقدار أن تجعل منه ملكاً على مصر ، لم يكن يتولى الملك حتى ثار على دين(آمون) ، والأساليب التي كان يتبعها كهنة آمون ، وثار كذلك على مظاهر الفسق والفساد التي كانت متداولة بمعبد الكرنك من جانب كهنته ، مبتعدين عن الفضيلة ، وتمثل نقائص الإيمان والتوحيد السليم .

ذكره المؤرخون والباحثون في تاريخ الحضارات المصرية " أن الملك الشاب في حياته الخاصة ، كان مثالاً للطهر والأمانة " .

وكما ذكرنا ثار ثورة عارمة على الفساد السياسي الذي كان يرتكبه كهنة آمون باسم الدين ، وقال " إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من كل ما سمعت من حكمة " كره المال الحرام ، والمراسم المترفة التي كانت تملأ الهياكل وثار ضد الكهنة المرتزقة الذين سيطروا على حياة الأمة المصرية ، وأعلن في شجاعة : أن الآلهة وجميع ما في الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم إلا إله واحد ـ هو آتون [1].

ومن ذلك رأى إخناتون : أن الألوهية اكبر ما تكون في الشمس لأنها مصدر الضوء ، وكل ما على الأرض من حياة [2].

ويبدوا أن إخناتون قد اتخذ من الشمس مظهراً أو رمزاً لفكرة ومفهوم الوحدانية الإلهية المطلقة في الكون ـ للتخلص من وثنية الدين ، وما لصق به الكهنة من وثنيات وتعددية لاهوتية أخرى ، فكره إخناتون ذلك وتطلع إلى الوحدانية الإلهية ، ويمكن أن نعتبر هذا الملك المصري واضع أول نواة لأسمى إدراك الفكر البشري : إله واحد ، عالم واحد ، وقانون عالمي واحد ، توافق البشر . [3] ومن الملاحظ أن إخناتون قد كرس نفسه لخدمة الدين ، وتنقية العقائد من ظلام التعددية ، والوثنية التي كان يغذيها

١ ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ جـ ٢ ـ (الشرق الأدنى) صـ ١٦٨، ١٦٩ .
٢ المصدر السابق ـ صـ ١٦٩ .
٣ هنري توماس ـ أعلام الفلسفة ـ صـ ١١ .

كهنة لا يبتغون إلا الفساد والمكاسب المادية فقط ، لذلك فقد عرف باسم إخناتون بمعنى " مكرس الإله " وقد خلف وراءه ميثاقاً للحكمة يصلح لكل العصور [١].

وإذا كانت الفلسفة بمعناها النظري وليس العملي فقط إبداعاً مصرياً فإنها في المقام الأول موقفاً عقلانياً يتخذه الفيلسوف من مشكلة ما ، ولا شك أن موقف إخناتون من العقائد الدينية ، كان موقفاً فلسفياً فريداً عمقه الإقناع العقلي الشديد لديه ، بأن عقيدته التوحيدية هي العقيدة الصحيحة ، وأن ما عداها وهم وضلال .

وقد اتضح هذا الموقف الفلسفي عند إخناتون من خلال قصائده وأقواله المتعددة في الاستدلال على صحة معتقداته حول واحدية الإله وعالميته [٢].

يقول إخناتون :

أيها الإله الحي
يا مبدع الحياة
إشراقك جميل
في أفق السماء
قد خلقت كل الأشياء
تسير كل شيء حسب مشيئتك
إنك تربط جميع الأقطار
برباط محبتك

****

تضيء الأرض عندما يبزغ نور وجهك
فتصحوا الأرض مبتهجة من نومها
وترفع جميع المخلوقات أصواتها
بأنشودة العبادة لك يا مصدر النور والضياء
أنت خالق النبات في الأرض
والبزور في الأرحام
أنت قد غرستها وأخرجتها إلى الحياة
عندما يتحرك جنين الطير في بيضته

١ المصدر السابق - صـ ١١ .

٢ دكتور : مصطفى النشار - فلاسفة أيقظوا العالم - صـ ٢٢ .

تمنحه الأنفاس ليكسر البيضة
ويخرج على ضوء الحياة
كل شيء حي وأنت حياة العالم

****

كم من عجائب تصنعها أيها السيد
الإله الواحد الحي لجميع الكون
أنت الأب المحب للناس جميعاً
في مصر ، وسوريا ، وجميع أقطار الأرض [١]

****

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً
ما أجمل مطلعك في أفق السماء
أي آتون الحي ، مبدأ الحياة
فإذا ما أشرقت في الأفق الشرقي
ملأت الأرض كلها بجمالك

****

إنك في قلبيَ وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون   لقد جعلته حكيماً
بتدبيرك وقوتك   إنَ العالم في يديك
بالصورة التي خلقته عليها ، أنت أوجدت العالم [٢]

هذه الأبيات اقتطفناها من قصيدة إخناتون الطويلة ، وركزنا على ما فيه دلالات فلسفية عنده بالنسبة ، لفكرة أو عقيدة الوحدانية الإلهية ، وتصوره للوجود والكون ، وعلاقته بالإله الواحد ، والمشيئة الإلهية فيه ، بالإضافة إلى التصور الجمالي لعالم الوجود الإلهي والطبيعي والإنساني كذلك .

---

١ هنري توماس - أعلام الفلاسفة - صـ ١٣ ، ١٤ .
٢ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - (الشرق الأدنى) صـ ١٧٤ .

ويتضح لنا كذلك أن إيمان إخناتون بقوة علوية واحدة ما هو إلا أول تعبير رسمي عن التوحيد في التاريخ القديم ، ولكن فكرة وجود الإله في كل شيء تجعل فلسفة إخناتون أقرب نوعاً ما إلى المذهب الفلسفي الحلولي أي ألوهية الكون ، مما يمكن أن تعتبر فلسفة إخناتون في هذا الجانب مقدمة لفلسفة الحلول الاتحادي عند الفيلسوف الحديث أسبنوزا .[1]

كذلك تظهر فكرة الأخوة العالمية في فلسفة إخناتون لأول مرة في التاريخ الإنساني ، إذ يذكر " أن هناك نيلاً للمصريين تحت أبصارهم ، بينما هناك نيل آخر من الماء الحي في السماء لجميع الغرباء من الأقطار الأخرى وقال إخناتون " أنه على ضفتي نهر الحياة في السماء توجد قصور حية كثيرة ، يتنزل الله فيها جميعاً ، لأن قلب الإنسان هو مسكنه " .

ومن هنا نجد أن ملك مصر الفيلسوف إخناتون قدم إلى العالم المذهب الذي أهداه إليه تفكيره الفلسفي ، وتأمله العقلي ، وقلبه الصافي المضيء بنور التوحيد الإلهي : أول مذهب يعبر عن فكرة الإنسانية الواحدة ، والإله الواحد ، الأب الرحيم للجميع ، إله الحب .[2] بل والعطاء والخلق المستمر .

ومن الجدير بالذكر أن الفلسفة ـ والتفكير الفلسفي وجد مكانة كبيرة في ثنايا الحضارة المصرية بكل أشكالها ومظاهرها كما أشرنا فيما سبق ، عندما نهض المصريون بالآداب والعلوم والطب وغير ذلك ، ومن مظاهر التفكير والفلسفية : أن المصريين القدماء وضعوا دستوراً واضحاً للضمير الإنساني والفروق ، ونادوا بالعدالة الاجتماعية ، والاقتصار على زوجة واحدة ، وهم أول من دعوا إلى التوحيد الإلهي في الدين ، وكتبوا في الفلسفة ، ونهضوا بفنون العمارة والنحت ، وفنون الإدارة والتنظيم ـ التعليم والثقافة [3] وأثرت الحضارة المصرية بذلك في سائر الحضارات الأخرى .

٢ـ الفلسفة في الشرق الأدنى (بابل ـ آشور ـ فارس) :

أ ـ الشرق الأدنى ـ التاريخ الحضاري :

١ـ هنري توماس ـ أعلام الفلاسفة ـ صـ١٣ .

٢ـ المصدر السابق ـ صـ١٤ ، كذلك للمزيد ، ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ جـ٢ ، الشرق الأدنى ـ صـ١٧٥ وما بعدها .

٣ـ ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ جـ٢ ، صـ١٨٦ م .

أن أقدم هجرات للشعوب السامية سجلها لنا التاريخ كانت في اتجاه وادي الراقدين (دجلة - الفرات - وما بينهما - والبقاع الشاسعة المترامية شمالاً - جنوباً - شرقاً - غرباً)(الباحث) ، وذلك منذ ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف عام ، ق . م ، واستمرارها بعد ذلك من حين إلى حين وقد أدت إلى تكوين دول سامية قوية واسعة النفوذ والنطاق [١] .

إن العامل الغالب في تاريخ غربي أسيا في العصور القديمة ، هو نشاط تلك الشعوب التي كانت تقيم في وادي الراقدين ، وكانت هذه الشعوب بحكم موقعها الجغرافي ، تنجذب بالطبع نحو المحيط الهندي ، وكانت تتجه أيضا في اتجاه جبال إيران (فارس) ، وأرمينية من ناحية ، وفي اتجاه حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، وكان تأثير جيوشها وصور حضاراتها في كلا هذين الاتجاهين فاصلاً في أحكام التوازن الحضاري والسياسي في الشرق الأدنى ، وبذلك أصبحت أرض الرافدين - أو الشرق الأدنى - مركزاً طبيعياً من مراكز السلطان ، والقوى الحضارية والثقافية والدينية المختلفة . [٢]

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم - قد حدد أو أشار إلى هذه البقعة من الأرض وشعوبها ، في سورة الروم - حين هزمت جيوش الفرس - الجيوش الرومية في أدنى الأرض - فقال تعالى " ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون " سورة الروم الآيات (١، ٢ ، ٣) .

كان البناة الأساسيين للحضارة والتاريخ في وادي الرافدين (الشرق الأدنى) شعبين ينتميان إلى أصلين مختلفين ، أبدعا ما تضمه تلك المنظمة من آثار فنية وأدبية كبيرة وهما " السومريون ، والأكديون ، وقد عاش الشعبان مختلفين بعضهما ببعض إلى حد كبير ، فكانت حضارة أرض الرافدين وتاريخها نتاج شعب مركب يستحيل التمييز بين عنصريهما [٣].

كان مؤسس دولة الأكاديين هو " سرجون Sargon " وتحدثنا المصادر أنه امتدت سيطرته حتى شملت إقليم بابل ، وأشور وسوريا وأسيا الصغرى وصارت الدولة إدارة

١- سبتينو موسكاتي - الحضارات السامية القديمة - صـ٦١ - ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر - ط دار الرقي بيروت - ١٩٨٦ م .

٢- المصدر السابق - صـ٦٦ .

٣- المصدر السابق - صـ٦٨ .

منظمة مركزية ، وظهور الميل إلى الملكية العالمية ، وقد ظل كل هذا التصور سارياً فيما بعد حتى شمل كل تاريخ غربي آسيا حتى العصر الإسلامي أو العربي [١] .

أما فترة الدولة السومرية ففي حوالي ٢٠٠٠ ألفين ق . م ، فقد ظهر الأموريون ، فيما بعدهم ، وأسسوا سلسلة من الدول في فلسطين وسوريا وأرض الرافدين في الوقت نفسه ، وسيطروا على جنوب أرض الرافدين كذلك ، وظفروا بالصدارة ، وظهرت إحدى دولهم - التي سميت بالدولة " البابلية الأولى حوالي عام (١٨٣٠ - ١٥٣٠) ق . م ، [٢]

وكان سادس ملوك (الدولة البابلية هو " حمورابي المشهور الذي عاش عام (١٧٠٠ ق . م) ، وكان عهده بداية حضارة عظيمة وثقافة ونظم وقوانين مزدهرت ، وقد أمتد سلطانه إلى أشور وأجزاء من سوريا . [٣]

ثم ظهرت قوة حضارية أخرى ، يحملها شعب ينتمي إلى العناصر أو الأجناس السامية ، يتقدم نحو الصدارة في الشمال من أرض الرافدين وتعني به (الآشوريون) .

كانت الدولة الآشورية قائمة فعلاً لعدة قرون ، وقد استطاعت أشور أن تنهض وتصبح شيئاً فشيئاً دولة عظيمة - في الشمال ، وكان أشور بانيبال Ashur banipal (٦٦٨ - ٦٢٦) ق . م ، من كبار ملوك الأشوريين ، ثم أعقبه فيما بعد الملك " نبوخذ نصر Nebuchadnener والذي امتدت فتوحاته إلى مصر ، وفي عام ٥٨٦ ق . م ، استولى على أورشليم عاصمة مملكة اليهود ودمرها تدميرا . [٤]

ومما سبق يتضح لنا أن " بابل " من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة امتزاج الأكديين ، والسومريين ، ونشأة الجنس البابلي من تزاوج هاتين السلالتين ، وقد تأسست مدينة بابل وظهرت حضارتها على أثر ظهور شخصيتها القوية " حمورابي " الذي كان يفيض حماسة وعبقرية مشرعة وقانونية نادرة . [٥]

وصفوة القول أن حضارة ما بين النهرين (وادي الرافدين - الشرق الأدنى) والتي سوف تذكر طرفاً من مظاهرها وعلومها وفلسفتها الدينية والأخلاقية والأدبية والفنية فيما بعد ، استمرت أزماناً طويلة وعصوراً مختلفة وهي العصر : السومري ،

١- نفس المصدر - صـ٦٩ .
٢- المصدر السابق - صـ٧٠ .
٣- المصدر السابق - صـ٧١ .
٤- المصدر السابق - صـ٧١ ، صـ٧٢ .
٥- ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ٢ (الشرق الأدنى) ، صـ١٨٨ .

والبابلي ، والآشوري ، والكلداني ، [1] وكان لها أثرها البالغ الواضح لدى الشعوب والأمم الأخرى .

هذا عن تاريخ ونشأة وتطور ـ بابل ، وآشور ـ أما فيما يتعلق بالمظاهر الحضارية والثقافية ، فهي كثيرة ومتشعبة بين الدين والفنون ، والآداب ، والعلوم ، واللغة ، والقوانين والشرائع ، ونمط الحياة العامة والاجتماعية والسياسية والأخلاقية وغير ذلك ، ولكن تختصر ذلك في السطور القليلة الآتية :

كانت حضارة أرض الرافدين ، والشرق أدنى من نمط بالغ الرقي والتقدم ، يختلف اختلافاً ملحوظاً عن التراث السامي المشترك وحضارات الأمم السامية ، وأهم ما يميز الحضارة البابلية والآشورية هو انتقالها من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار .

وما أن نشأت الحضارة البابلية والآشورية نتيجة لعملية الاستيعاب المعقدة التي مرت بها ، حتى أخذت تؤثر تأثيراً بعيداً في المناطق المحيطة بها ، إذ أصبحت أرض الرافدين ـ الشرق الأدنى ـ مركزاً حضارياً انتشرت منه الأفكار ، الكونية والأسطورية والعلمية إلى جانب الأدب والدين وتغلغلت في آسيا الصغرى وبلغت بلاد اليونان وأثرت في فلسفتها . [2]

وتتجلى مظاهر الحضارة البابلية والآشورية في الدين ، والآداب والقانون والفن ، وليست هذه الجوانب وحدات مستقلة متميزة ومنفصلة ، وإنما هي متداخلة تؤلف معا وجدة مركبة ، وهذه ظاهرة طبيعية في الشرق الأدنى القديم ، فلم يكن يفرق عندئذ مثلا بين الأدب الديني والأدب الدنيوي ، أو بين القانون المدني والقانون الديني ، وكان الدين هو المعامل المسيطر في كل ركن من أركان الحياة الإنسانية ، ولعل هذا أبرز خصائص الحضارة في الشرق الأدنى القديم ، فكان الدين خلاصة القيم الإنسانية ، أما التأمل الفلسفي المستقل والإبداع الفني فلم يكن مستقلاً كذلك ، إلا بعد ذلك عند اليونان ، [3] لقد كان طابع التوفيق بين الأشياء ويتجلى في الطابع الحضاري والديني في الشرق الأدنى ـ فالإلهة السامية هي إلى حد كبير آلهة السومريين يتقبلها الغزاة المنتصرون كذلك مع بعض التعديلات والآلهة البابلية والآشورية امتزجت عقائدها وتفاعلت بعضها مع البعض ، كذلك فإن الآلهة عند الأكاديين من نوع مماثل للإنسان ولا تختلف إلا في أنها أكثر تجريداً وكمالاً ، ولها أسرار أسلحه ، وصدمات في معارك فيما بينها

١ـ جورج سارتون ـ تاريخ العلم ـ جـ١ ـ صـ٢١٣ .

٢ـ سبتينو موسكاتي ـ الحضارات السامية القديمة ـ صـ ٧٤ .

٣ـ المصدر السابق ـ صـ٧٤ .

كصراع وصدمات البشر إلا أنها أعظم وأهون وهذا يذكرنا بما جاء في ملاحم هوميروس اليوناني في الألياذة والأوديسة فيما يتعلق بالتصور الإنساني للآلهة على جبال الأولمب .[١]

ظهرت فكرة الثالوث الديني في حضارات الرافدين والشرق الأدنى عند البابليين والآشوريين والأكاديين والسومريين ، فمثلاً يتصورون " الآلهة تتكون من السماء متجسمة في آن Anu ، والهواء متجسماً في أنليل (Enlil) ، والأرض متجسمة في أنكي (Enki) ، أو آيا (Ea) وثالوث إلهي أخر هو : يتكنون من : الشمس ، والقمر ، والزهرة ، التي هي نجم الصباح [٢].

ولعل الإله " مزدك أو مردوك " قد اتخذ مظهراً بالغ الأهمية في عقائد البابليين وبصفة خاصة عند حمورابي ، الذي سن التشريعات والقوانين استلهاماً لهذا الإله ، وتشفعاً إليه والحفاظ عليه ، وظهر أثر ذلك في الأدب البابلي والأشوري ، حيث تشبع هذا الأدب بأمشاج أسطورية ، ولعبت فن الأسطورة دوراً فاعلاً في الأدب البابلي والأشوري ، وأفرز الأدب كذلك الكثير من القصص ، والقصائد الشعرية تقص مغامرات الآلهة والأبطال ، وكان من مميزات الحضارة البابلية الأشورية الأدبية كذلك هو احترام فنون الروايات والقصص عن أسلافهم ، وظهر ما يشبه القصص التقليدية الأدبية ، وتميزت العقلية الأدبية كذلك بالقدرة على استيعاب أدب السابقين وأشعارهم ثم إعادة إخراجه وصياغته في ثوب جديد ، ثم ظهر فن المحادثات والرسائل .

وكان القالب الشعري لا يتمسك بالقافية ، أو يقاس بالأوزان الشعرية (كما في اللغة والشعر العربي مثلاً) لكن يقوم الفن الأدبي والروائي في حضارة البابليين والأشوريين على عبارات متوازنة ومتتابعة ، وعلى تكرار الأنماط والأشكال المقبولة .

كذلك يظهر في الفن الأدبي في هذه الحضارات : الكشف عن الأصول الأولى للإنسان ، ومآله الأخير ، ويتناول كذلك جزءً كبيراً عن الخلق والكون ، وما ينتظر الإنسان وراء القبر .

وتوجد بعض الملاحم الأدبية ـ أو فن الروايات الشعرية المتتابعة المتوازنة ، تدور حول الإله الأوحد مردوك ، وتصويره كبيراً للآلهة وخالقاً للكون .. [٣]

١ـ المصدر السابق ـ كذلك ـ راجع ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ٧ وما بعدها .

٢ـ المصدر السابق ـ صت٧٥ .

٣ موسكاتي ـ الحضارات السامية القديمة ، صـ ٨٢ ، ٨٣ وما بعدها .

ولعل النظم القانونية والاجتماعية - من العلامات المميزة لحضارات الشرق الأدنى ببلاد الرافدين - عند البابلين والأشوريين ، فالنظرة القانونية علامة ثابتة مميزة لمنحاهم في التفكير - خلفت صورها على حياتهم الاجتماعية .

فثمة ميل طبيعي إلى التميز والتقنين يكمن وراء النظام التشريعي الضخم الذي نهضت به الحضارة البابلية والأشورية ، وهي إحدي الرسائل التي امتد أثرها إلى الحضارات الأخرى المجاورة لها ، ولعل الاكتشاف الأكبر في ميدان القانون ، هو قانون " حمورابي " ، وهو يبدأ بمقدمة يمجد فيها الملك المهمة التي ألقتها على عاتقه الآلهة ، وهي نشر العدالة في الأرض والدفاع عن الفقراء ضد الأغنياء ، وعن التقي ضد الآثمين .

وتوجد كذلك مجموعة من القوانين الأشورية ، أشد صرامة من قوانين حمورابي ، يضاف إلى ذلك أيضاً ، عدد من العقود والأحكام القضائية وتقارير عن المحكمات ، والوثائق المالية وغيرها ، مما يعد نوعاً من التشريعات التي تشير إلى التعقيدات في النظم القانونية ومستواها الراقي في تطورها ..

ومن مظاهر ذلك ، تقسيم المجتمع في قانون حمورابي إلى ثلاث طبقات الأولى : الطبقة العليا " أومل " ، وهم الأشراف يتمتعون بالحرية والشرف ، الثانية : طبقة العامة " مشكين " كانوا أحراراً لكنهم يخضعون لقيود قانونية ، الثالثة : طبقة العبيد " ورد " .

ومن بين أهم التشريعات القانونية في قانون حمورابي ، نذكر منها باختصار على سبيل المثال : : قانون العين بالعين والسن بالسن يقول " إذا أخذ شريف عين شريف آخر ، فليفسدوا عينه ، وإذا كسر عظمه فليكسروا عظمه هو الآخر ، وكان للأب سلطة عليا في الأسرة ، وإن لم تكن مطلقة ، وظل تنظيم الأسرة وعقود الزواج مثلاً : إذا اتخذ رجل زوجة ولكن لم يعقد معها عقداً مكتوباً ، لم تكن تلك المرأة زوجاً له " وكان الطلاق مباحاً لأسباب معروفة ، منها إذا غاب الزوج عن زوجته فترة طويلة " [1].

ومن المعالم الحضارية في الشرق الأدنى ، يتعلق كذلك بالفن وما أخرجته عقول الفنانين والمصورين البابليين والأشوريين من آثار فنية تتضح مظاهرها على

---

١ المصدر السابق - صـ ٩٧ ، ٩٨ - وللمزيد راجع كذلك ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ - الشرق الأدنى - صـ ١٩٠ ، ١٩١ وما بعدها .

جدران المعابد والقصور ، وأماكن الاحتفالات وطريقة البناء ، واستخدام الرموز والأشكال التي تعبر عن الطابع العملي والفكري والانفعالي ، وما يتسم به من قوة ، وعواطف دينية ، وأساليب الحياة ومما لا شك أن الرسوم الفنية ، وما يبدو على طابع البناء والتشييد من رموز ومعاني يختلف من شعب لأخر ، ومن حضارة لأخرى ، وإن كانت تبدو بعض أوجه التشابه والصلات ، لكن مما لا شك أن لكل حضارة طابعها الفني المميز لها ، وهذا ما نجده في طابع الحضارة الفنية عند البابليين والآشوريين وقد يتضح للوهلة الأولى مدى الامتزاج الفني في حضارات بلاد الرافدين أو الشرق الأدنى ، بين العناصر الفنية البابلية الآشورية والسامية أو البدوية التي تمتاز بطابع الحركة في مواجهة النيات عند الآخرين .

والأثر العام الذي يوحي به الفن في حضارة البابليين والآشوريين أنه فن تذكاري احتفالي ، ولم يهتم بشخصية الفنان ، أي لم يعبر هذا الفن عن الطابع الشخصي التلقائي في نفس الفنان الفرد ، لكن كان الفن يتجه في الأغلب الأعم إلى الاحتفال الرسمي بالأحداث الكبرى (الحربية والانتصارات في المعارك بالإضافة إلى الأحداث الدينية) .

كان الفنان يسعى للتعبير عن الأشياء بدقة في نطاق الإطار المنتظم للأساليب الفنية التقليدية ، وهو بذلك فن أو فنان أقرب إلى الصنعة الماهرة ، منها إلى التعبير عن رؤى عينية أو عرض للأشياء كما يراها هو .. ولذلك فإن الروح الإنسانية أو العواطف الانفعالات الإنسانية لم تكن واضحة في الفن البابلي أو الآشوري ، لأن الشخصيات أو الموضوعات التي تصورها الفنان هنا تأتي على نمط جامد هادي ، كذلك يمتاز الطابع الفني البابلي والآشوري ، بالسعي وراء التناسب وتناسق الأشياء ، وتقرير قواعد ثابتة والاتجاه أحيانا إلى كثرة التكرار .[1]

وبذلك فإن صور التجديد والتطور الفني يكاد يكون قليلاً ، إلا إذا حدث تأثير خارجي ، على إثر غزوات أو تبادل الخبرات الفنية أحيانا نتيجة الاختلاط بالشعوب الأخرى .

ومن الجدير بالذكر أن الطابع التقليدي في الفن البابلي والآشوري أو في بلاد الرافدين والشرق الأدنى بصفة عامة " أدى إلى استعمال الرمز استعمالاً واسعاً ، فصار الجزء المميز يستخدم للدلالة على الكل بأسره .

١- المصدر السابق ، صـ١٠٥ ، ١٠٦ .

مثال (الجبل) مثلا يرمز إليه بحجارة وضع أحدها فوق الآخر ، كما أن (الماء) يرمز إليه بخطوط متموجة تقطعها هنا وهناك دوامات صغيرة أو صور أسماك .

لكن هناك طابع أخر أمتاز به الفن لم تتغلب عليه نزعة التقليد التلقائي لتصوير الواقع ، وهو (تصوير الحيوان) ، حيث كان للفنان الحرية في تصوير الحيوانات بأشكال وحركات وأوضاع مختلفة ومميزة .

ولعل أثار الفن المعماري في الحضارة البابلية والآشورية ، قلاع وقصور ومعابد ، وعلى نطاق واسع ، وكان يسمح للشعب أن تنعكس أشعتها من زوايا وجدران ونوافذ مختلفة ، وينتج عن ذلك أضواء جميلة وظلال ، وكان يبدوا على الطابع المعماري الفخامة ، والفخامة ، مع الأنساق والتناسق - بالإضافة إلى كونها بالمرمر والزخارف .

يضاف إلى ذلك : أنه مع البناء الفخم ، والضخم للمعابد ، أو القصور ، كانت توضع تماثيل حارسة للأسود ، أو الثيران العظيمة لها رأس إنسان وكانت تطلى الجدران بالزخارف والنقوش المعبرة على الثقافة البابلية والآشورية [1] والذي يتلاءم مع الطابع الحربي واللاهوتي .

أما العلوم الفلسفية : فكان لها شأن واسع النطاق والتقدم في الحضارة البابلية والآشورية ، وإن كانت الآشورية أقل تقدماً علمياً أو فكرياً من البابلية - لاختصاصها بالطابع الحربي الفكري ، تأليه الملوك والساسة ، ويشير ديورانت عن أهمية العلوم البابلية " فيرى أنه ما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ، ثم يخطر بباله أن هذه البطائح الموحشة ذات الحرارة العالية الممتدة على نهر الفرات ، كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية ، كانت هي الخالقة ، لعلم الفلك ، وكان لها الفضل الكبير في تقدم الطب ، وإنشاء علم اللغة ، وأعدت أول قانون كتب في هذه الفترة ، وعلمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطبيعة ، والفلسفة ، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم ، بل ونقلت إلى العرب معارف علمية كثيرة ، وأيقظوا بها الروح الأوروبية في العصور الوسطى . [2]

وبطبيعة الحال ، والدراسة هناك نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن علوم الرياضيات والفلك والنجوم والزيجات أو الجداول ، والطب والكتابة ، واللغة في هذه

١- المرجع السابق - ص١٠٦ - ١١٢ - وللمزيد الصفحات التالية .

٢- ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ٢ (الشرق الأدنى) - ص١٨٧ ، ص١٨٨ .

الدراسة ، لأنها تخرج عن نطاق بحثنا ، وبحاجة إلى دراسات متخصصة أيضا ، لكن نشير في اختصار إلى نماذج بسيطة في علم الرياضيات البابلي : فقد أكتشف البابليون أو السومريون - الأعداد وعرفوا نظام العدد العشري والستيني ، أي عدد ١٠ عدد ٦٠ ، أي عرفوا الأعداد على التوالي من ١ ، ١٠ ، ٦٠ و ٦٠٠ ، ٣٦٠٠ وهكذا ، ووضعوا علامات تشير إلى هذه الأعداد فالعلامة ٨ تشير للعدد الواحد ، أما العلامة < فهي تشير إلى العدد ١٠ ، وكذلك يشيرون إلى الأعداد ٦٠ .. الخ ، وكذلك وجدت الجداول الرياضية العددية ، منها : مربع أهوا ، مربع ؟ هو ، ومربع ٣ هو ٩ ، ومربع ٦ هو ٦٠ هو (أي٦٠ ٢) .

وعرف البابليون أيضا ، كيف يقيسون مساحة المستطيلات ، والمثلثات المتساوية الساقين ، والقائمة الزاوية ، وعرفوا نظرية فيثاغورث حث المعرفة ، ثم أدركوا الزاوية المرسومة في نصف الدائرة وهي زاوية قائمة ، واستطاعوا أن يقيسوا حجم متوازي المستطيلات القائم ، وحجم الهرم الرباعي المقطوع .. وهكذا كان لهم تقدم في علوم الرياضيات والهندسة والحساب كبير .

وفي مجال (الفلك) على سبيل المثال وضعوا تقاويم للسنة البابلية من ٣٦٠ يوما ، وتقسيم الليل والنهار فيما بعد ٣٦٠ قسماً متساوياً واستند البابليون في تقويمهم الفلك إلى (القمر) وجعلوا شهوره ٢٩ يوما ، ٣٠ يوما وهذه الشهور القمرية تعقب بعضها بعضاً بشيء من الثبوت ولذلك كان معدل المدة أثنى عشر شهراً قمرياً أي ما يساوي (٣٥٤) يوما ، ويعزي إلى البابليين معرفة قسمة الشهر إلى أسابيع ، وكل أسبوع ٧ سبعة أيام ، ووضعوا ما يسمى بالأزياح الفلكية ، يضاف إلى ذلك معرفتهم بالمقاييس والأوزان للأشياء وكانت لهم معارف جغرافية كذلك ، وبالتاريخ الطبيعي النبات والحيوان بالإضافة إلى علوم الطب [1].

ب - الفلسفة والتفكير الفلسفي :-

حمورابي Hammurabi - ملك بابل ، وضع أقدم دستور تشريعي في العالم القديم ، منذ حوالي عام ٢٠٠٠ ق .م ، وكما أشرنا يتناول في دستوره التشريعي (باختصار شديد) أسس الحياة السياسية ونظم الحكم ، وتقسيم المجتمعات إلى طبقات ثلاثة مختلفة الدرجات ، وأسس العدالة وتطبيقاتها ، وشئون المجتمع والحياة الأسرية والاجتماعية والأخلاقية ، والقوانين .

١- نظرنا ، جورج سارتون - تاريخ العلم - جـ١ - صـ١٦٣ - صـ١٧٦ - صـ١٨٧ وما بعدها .

وقد يقال أن القانون التشريعي لكونه فرعاً من السياسة أو الاقتصاد يجب ألا يكون له مكان في كتاب يهتم بالفلسفة ، لكن هذا الرأي ليس صادقاً على الإطلاق ، فإن كتاباً يتناول تاريخ الفكر لا يمكن أن يتجاهل بالمرة أقدم المحاولات لوضع إطار لدستور تشريعي ، بقدر عدم تجاهله لأساس الطب أو الفن ، إن من ينشر الحكمة (الفلسفية) بين البشر لابد وأنه بالمثل ينشر القانون حكمة الفكر والعيشة الصالحة في المجتمع .

إن الحقيقة التي اعتبرها المشرعون من أمثال " حمورابي " ضرورية لصبغ قوانينهم بالصبغة المقدسة (فقد كانت تحاك حوله الأساطير واصطبغت شخصيته بالتقديس ولإجلاله حق الإله مروك[1] ، هذه الحقيقة لها أهمية كبيرة لدى الفيلسوف الذي يعتبره الناس مقدساً بصفة خاصة . [2]

لكن لماذا ينبغي على دارس الفلسفة أن يهتم بطبيعة القوانين ، ووسائل التشريع وهي مجرد عبارات ، وصياغتها تعبر عن بنود ودرجات ؟

إن دارس الفلسفة عندما يهتم بدراسة طبيعة القوانين والتشريعات ، لا يهدف إلى إضافة أشياء جديدة ، بل لكي يتأمل ، ويحلل وينتقد ويوضح الرؤية والهدف والأهمية بالنسبة للمشرع وللجمهور لتيسير وسائله التطبيقية ، وهذا ما دفعنا أن ندلل على وجود حكمة فلسفية في دراسة حمورابي وصياغات قوانينه التشريعية أو الدستورية .

وهذا يدخل ضمن التحليلات القيمية في الفلسفة ، لأن اهتمام الفلسفة بالقيم مشغولة بعلاقة الفكر بالتعبير ونتيجة ذلك ، كذلك مشغولة بتعريف وتفسير الكلمات ، وإن ما يأخذه المحامي أو المشرع على عاتقه في أثناء بحث فلسفي لمجموعة معينة من المشاكل ، فالفلسفة صورة من صور التشريع العقلي . [3]

وهذا مما لا شك يشير إلى حكمة فلسفية ، ومعرفية أو فكرية في مجمل الحياة السياسية والاجتماعية والتنظيمية أو التشريعية في بابل وعند حمورابي في بلاد الشرق الأدنى القديم .

* وننتقل من خلال هذه الإشارات الفلسفية إلى البحث عن الفلسفة في فارس ، ومما لا شك أن بلاد فارس أو الفرس ، جزء من الحيز الجغرافي الذي يشغله الشرق الأدنى القديم .

---

١ موسكاتي - الحضارة السامية القديمة - صـ ٩٦ وما بعدها .

٢ توملين - فلاسفة الشرق - صـ ٩٠ - ترجمة عبد الحميد سليم - ط دار المعارف ١٩٨٠ م .

٣ المصدر السابق - صـ ٩١ .

ظهر في بلاد فارس القديمة - وهي مواطن (الآريين ، إيران الآن) كثير من الحكماء الذين أطلق عليهم المؤرخون - أنبياء الفرس - لكننا ننظر إليهم من زاوية الحكمة الفلسفية التي خلفوها في تعاليمهم وعقائدهم ، فيما يتعلق بالوجود أو الأخلاق ، الممتزجة بالتعاليم الدينية على مذاهبهم دون الالتفات إلى كونهم من الأنبياء لأن ذلك قد يخرج عن مسار هذه الدراسة ، وعلى ذلك فإن هؤلاء الحكماء ، الذين يمثلون طوائف الكيومرثية (وحكيمهم كيومرث) والزروانية (وحكيمهم زروان) والمانوية (وحكيمهم ماني) والمزدكية (وحكيمهم مزدك) كذلك الزرادشتية (وحكيمهم زرادشت) يمثلون تيارات الحكمة والفلسفة الوجودية والأخلاقية والدينية عند الفارسيين ، وهم يجتمعون على بعض المبادئ مع الاختلاف في التفسير والتوجهات والتعاليم المقدسة ، وأهم هذه المبادئ التي يجتمعون عليها في فلسفتهم الوجودية هي أنهم يقولون بالأثنينية في الوجود ، الوجود المادي المظلم ، والوجود الروحي - النور - وبذلك فإن العالم له إلهين أيضاً إله الظلام أو الظلمة ، وإله للنور ، والصراع بلا شك قائم بينهما حتى ينتصر النور في النهاية .

وكذلك بالنسبة للفلسفة الأخلاقية ، فإن الصراع قائم بين الظلام (أهرمن) وهو مثل الشر في الوجود والعالم ، وبين النور (مزدان) وهو يمثل الخير في الوجود والعالم ، وسوف يظل الصراع بين الخير والشر أو بين أهرمن ومزدان حتى ينتصر الخير في نهاية العالم وتقوم القيامة ، لأن الشر وجوده في العالم عرضي ن أما الخير فإنه جوهر الوجود الدائم .[1]

ولكن أعظم هذه التيارات الفلسفية الوجودية والأخلاقية هي ما يمثلها أكبر حكماء وفلاسفة أو أنبياء الفرس " زرادشت " والتي يطلق على فرقته أو طائفته اسم ط الزرادشتية " ، وهي ما نركز عليها في هذا البحث لوضوح أفكارها الفلسفية وتعاليمها الأخلاقية والدينية .

* : زرادشت Zaroaster ، ولد ونشأ في بلاد فارس قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو خمسمائة عام أو يزيد والمؤرخون مختلفون في ذلك ، ويحيطون قصة مولده بالأساطير والأقاصيص بما يشبه معجزة ميلاد سيدنا المسيح عليه السلام ، ولا يهمنا هذا الجانب ، ولكن تجتمع كتب المؤرخين ، والحضارات الشرقية على أن

---

١ للمزيد من التفاصيل - أنظر الشهرستاني - الملل والنحل - جـ ٢ - تحقيق عبد العزيز الوكيل - ط الحلبي ١٩٦٧ م - كذلك دكتور علي سامي النشار - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ ١ - صـ ١٩٠ ، ١٩٣ - ط دار المعارف بمصر ١٩٨١ م .

رسالته في الحكمة الفلسفية والدينية بدأت وهو في سن الثلاثين .. وقد استهل رسالته بنوع من الفحص الروحي التي قامت به الروح الطيبة ، وكان يفصح للناس أن أهم شيء يريده هو الإصلاح ، وعندما خاطب الروح العليا للوجود - الإله الأعظم (أهورامازدا) - وهو في عالم التجسيد قائلاً له " ما هو الشيء الأول في الكمال ، وأيها الثاني ؟ وأيها الثالث ؟ رد عليه " أهورامازدا " مجيباً على تساؤلاته الثلاثة " إن أول كمال هو الأفكار السديدة ، وثانيها الكلمات الطيبة ، وثالثها الأعمال الصالحة " [1].

وتشير المصادر إلى أن زرادشت - الفيلسوف والحكيم الفارسي ، والذي يعتبره المؤرخون أفضل أنبياء بلاد فارس والشرق الأدنى القديم أنه عاش حياة النسك والتقديس - بما يشبه حياة يوحنا المعمدان عليه السلام [2] .

وقد وظل متمسكاً بإيمانه بأهورامازدا ، وهو رب النور ، الإله الأعظم ، وقد تجلى له أهورامازدا ووضع في يده (الأيستاق) أي كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه . [3]

- ولعل التراث الديني المستنبط من كتاب " الأبستاق " يشير إلى فلسفته في الوجود والطبيعة والإنسان والحياة الأخلاقية كذلك ، فمن الناحية الوجودية ، فقد نعثر على بعض النصوص والتراكيب في العبارات على فقرات نصف خلق الدنيا على ست مراحل (السماوات ، والماء ، والأرض ، والنبات ، والحيوان ، ثم الإنسان) ، وغضب الخالق على خلقه ونزول الطوفان الذي يهلك الخلق جميعاً عدا قلة صغيرة منهم ، وإن كان مثل هذه الآراء تشير إلى أن أصول الديانات البابلية أو التوراتية القديمة ، إلا أن الجوانب الفارسية الزرادشتية الأصيلة إنما تتضح في الفكرة السائدة في كتاب الأبستاق هذا ، وهي (ثنائية العالم الذي يقوم على مسرحه الصراع الذي يدوم اثني عشر ألف سنة ، بين الإله : أهورامازدا ، والشيطان - الذي يمثل الشر والظلام إهرمان .

ثم يشير إلى أن أفضل الفضائل هما : الطهر والأمانة اللذان يؤديان إلى الحياة الخالدة [4]

---

١ توملين - فلاسفة الشرق - صـ ١٤٨ .

٢ المصدر السابق - صـ ١٤٩ .

٣ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ (الشرق الأدنى) صـ ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

٤ ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ٢ (الشرق الأدنى) صـ ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

وإلـه الوجـود عند زرادشت يمثل دائرة السماوات كلها ، فأهورامـازدا ـ الإلـه الأعظم ، يكتسي بقية السماوات ويتخذها لباساً له ، وهو الضوء والمجد الأعلى وعيناه هما : الشمس والقمر ، لكن بصفة عامة ، إن الصورة التي اعتقدها زرادشت للإلـه الأعظم : أنـه يسمو على كل شيء ، وقد عبر عن هذه الفكرة بعبارات لا تقل جلالاً عما ورد في سفر أيوب ، يضـاف إلـى ذلـك أنـه جعـل للإلـه الأعظـم أهورامـازدا ، سبعة مظاهر أو صفات هي : النور ، والعقل ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود ، وهذه الصفات السبع صورها أتباعه من الزرادشتيين فيما بعد بأشخاص وأرباب السماوات، القديسين الذين خلقوا العالم وسيطروا عليه بأمر من أهورامازدا . الأمر الذي أدى إلى ظهور حركات الشرك والإشراك بالإلـه العظم ، بعد أن كانت سمات التوحيد أو الوحدانية غالبة على مذهب زرادشت الديني والوجود الإلهي . [1]

وجدير بالذكر هنا أن يسبق بعض التسابيح ، والتقديس للإلـه الأعظـم عند زرادشت قبل أن ننتقل لبحث مذهبه الفلسفي الأخلاقي .

يقول زرادشت : " هذا ما أسألك عنه ، فأصدقني الخبر يا أهورامازدا : من ذا الذي رسم مسار الشموس والنجوم ؟

ومن ذا الذي يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟

ومن ذا الذي رفع الأرض والسماء من تحتها وأمسك السماء أن تقع ؟

ومن ذا الذي حفظ المياه والنبات ؟

ومن ذا الذي سخر الرياح والسحاب ؟

ومن ذا الذي أخرج العقل الخير ؟ [2]

والمقصود بالعقل الخير هنا ـ ليس العقل الإنساني بالطبع بل الحكمة الإلهية ، هنا يذكرنا بفكرة الحكمة الإلهية عند فيلون Philon الإسكندري في الفلسفة اللاهوتية اليهودية بالإسكندرية منذ القرن الأول الميلادي ، وكذلك الكلمة ونظرية العقل في الفلسفة المسيحية في مدرسة الإسكندرية القديمة عند كل من كلمنت الإسكندري ، وأورجينس في القرنين الثاني والثالث الميلادي [3].

---

١ المصدر السابق ـ صـ ٤٢٨ .

٢ المصدر السابق ـ صـ ٤٢٨ .

٣ للمزيد ـ إميل بريهيه ـ الآراء الدينية لفيلون السكندري ـ ترجمة دكتور محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار ـ ط لجنة الترجمة والنشر ـ ١٩٥٥ م ، كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف ـ مدرسة الإسكندرية الفلسفية ـ ط دار الوفاء ٢٠٠٤ م .

إذن فمذهب زرادشت وفلسفته الدينية تقوم على فكرة التوحيد ، الذي تم تشويهها فيما بعد وامتزجت بالعناصر الغنوصية والتجسيم أو التشبيه مع شيء من الإشراك والتعددية ، أما فلسفة الوجودية فإنها تقوم على ثنائية الوجود والموجودات ، والتناقضات بينها ، الأمر الذي ينسحب فيما بعد على فلسفته الأخلاقية والصراع بين الخير والشر أو بين النور والظلمة أو بين مزدان و أهورامازدا .

* ورد في الأبستاق : تقسيم العالم إلى قسمين ، الروحاني والجسماني ، أو الروح والشخص ، وتقسيم الخلق (الأخلاق) إلى التقدير والفعل ، ثم يورد التكاليف للإنسان ويقسمها إلى ثلاثة أقسام كذلك هي : الاعتقاد والقول والعمل ، وتتم التكاليف للإنسان بهذه الثلاثة . فإذا لم يخرج عن الدين والطاعة وجرى على مقتضى الشريعة فاز الفوز الأكبر .

وعلى مذهبه الوجودي كما أشرنا : يعالج مسألة الخير والشر ، هل يصدران عن مبدأ واحد ؟ أو عن مبدأين ؟ يأخذ زرادشت بمبدأ الثنائية فيردها إلى أصلين متضادين هما مبدأ الوجود : النور والظلمة ، أو يزدان وأهرمن ، وقد امتزج النور بالظلمة لسبب ما ، فحدث عن هذا الامتزاج صدور الموجودات كلها ، فالموجودات والإنسان كذلك مزيج من نور وظلمة ، أو من خير وشر ، فالعالم في صراع دائم بين القوتين ، قوة الظلمة وقوة النور ، وتستمر القوتان في نزاع حتى تتغلب قوة النور ، فيخلص الخير إلى عالمه ، وينحط الشر إلى عالمه وهنا يكون الخلاص .[1]

وجدير بالذكر أن مَذهب الزرادشتية عرف بين العالم العربي والإسلامي وعند المؤرخين باسم المجوس ، أو عبدة النار ، ويبدو أن زرادشت وأتباعه من بعده ـ عبدوا النار ، وصارت عبادتهم علماً عليهم ، وتدل على فرقهم ومذاهبهم حتى العصور المتأخرة [2]

لكن هؤلاء المجوس ، أو عبدة النار أو الثنوية (أي أصحاب مذهب الأثنينية ـ الثنائية) يحسب لهم في فلسفتهم وحكمتهم أنهم بدءوا من فكرة الخير والشر من مبحث أخلاقي ، ثم انتقلوا إلى تفسير الكون كله ، ولاحظوا مذاهب التثنية في كل شيء ، الذكر والأنثى ، النور والظلام ، الصحة والمرض ، الروح والجسد .. إلخ [3]

---

١ دكتور علي سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ جـ ١ صـ ١٩٢ .
٢ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ٣ .
٣ دكتور علي سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ جـ ١ ـ صـ ١٩٣ .

ويحق لنا هنا ان نشير أخيراً إلى أهم معالم الفلسفة الخلقية ، أو مظاهر المذهب الأخلاقي عند زرادشت ، والممتزج بتعاليمه وحكمته أو فلسفته الدينية .

ومن ذلك ما أشار إليه في كتاب الأبستاق " على الإنسان واجبات ثلاثة هي : أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل عالماً " ، وأعظم الفضائل هي " التقوى ، ويأتي بعدها الشرف ، والأمانة عملاً وقولاً ، والوفاء بالدين واجباً مقدساً " ، كذلك جعل العدالة أول معالم الطريق إلى الهدف ، لذلك كان فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أفلاطون من أشد المعجبين بفلسفة زرادشت الأخلاقية في العدالة . (1)

٣ ـ حكمة الصين : ـ

ننتقل الآن لتناول رافداً آخر من روافد الحكمة في الشرق الأقصى ، في بلاد الصين ، وذلك بتناول نمطاً من أنماط الحكمة التي بدأت وتطورت على يد كبار حكماء الصين وفلاسفتها العظام ، الذين عبروا بأفكارهم وحكمتهم عن التراث الحضاري والثقافي ، والذي اعترف به كبار الفلاسفة والمفكرين الأوربيين في العصر الحديث .

إن الصينيين كانوا من أكثر الشعوب مدنية في التاريخ ، فكانوا يعتبرون العلماء والحكماء أبطالهم المفضلين ، وفي عهد كونفوشيوس الحكيم الصيني المشهور ، والذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد ، كانوا يفخرون بثقافته وتراثه الفكري والإصلاحي .

إن الصبغة العامة للثقافة والحضارة الصينية ، تدور حول الجوانب الأخلاقية ، متجهة إلى الإصلاح وتحقيق التوازن وتمثل الطريق الوسط في الحياة ، فالحياة السياسية والاجتماعية هي أكثر ما كان يشغل حكماء الصين ، وفلاسفتها ، وربما كان للجانب الديني المشبع بالأساطير الفلكلورية سمة مميزة إلى جانب الفلسفة الخلقية ، والمبادئ التي أراد الحكماء أن يفسروها في بواطن الحياة السياسية والاجتماعية ، والنظم التي تنظم العلاقة بين الأفراد والمجتمع ، وبين الحكام والساسة .

---

١ للمزيد ـ ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ جـ ٢ (الشرق الأدنى) ـ صـ ٤٣٢ ، كذلك ـ توملين ـ فلاسفة الشرق ـ صـ ١٤٩ وما بعدها .

وحكمة الصين كحكمة أي بلد أخرى تصور أحسن ما يمكن أن يفعل في بلد ممثلاً في شخص قلة من الحكماء ، ولما كان هؤلاء الحكماء (أو الفلاسفة) قد علموا ما علموه بالفعل إذ كانت حياة المواطنين تفتقر إلى الفضيلة [1]

لقد علم حكماء الصين الناس كيف يعيشون معاً في سلام ، ولم يدخر هؤلاء ذخيرة قيمة من الحكمة فحسب ، بل عرفوا أيضاً بروح المرح والفكاهة . وبدون الاستطراد في التفاصيل ، تتناول فلسفة الحكمة الصينية من خلال شخصيتين كبيرتين لهما أثرهما الواضح في بلورة الثقافة الحضارية الصينية ، عبروا عن ظهور فكر فلسفي أخلاقي واجتماعي لا يقل أهمية في تاريخ الفكر الفلسفي والحضاري الإنساني عن نظرائهم من الإغريق واليونان والأوربيين ، بالإضافة إلى فلاسفة الأخلاق المسلمين في العصور الوسطى ، كمسكويه (ابن مسكويه) ، أو الفارابي ، ومن أول فلاسفة الحكمة الصينية (لاوتزي - Laotze) بالإضافة إلى كونفوشيوس - العظيم . فكل منهما كلم الناس كيف يسلكوا طريقاً جديداً للحياة ، كما أن أعمالهما تشبه أعمال الأنبياء أو الفلاسفة والحكماء .. في توضيح الطريق للناس إلى تلمس الفضيلة والقناعة .

* أما الحكيم الصيني الأول فهو : لاوتزي - Laotze) ، ولسنا على علم دقيق بتاريخ ميلاده ، أو ظهوره ، لكن على كل حال فقد واكب ظهوره ظهور تلميذه أو نظيره كونفوشيوس - أي في غضون القرن السادس قبل الميلاد تقريباً . ولكن يرجع إليه الفضل في وضع عقيدة (الطاوية) ولعل أهم فكرة عند لاوتزي ، هي فكرة (الطريق) ، وهي تعبر عن الطاوية وهي من اهم الديانات التي اعتنقها واعترف بها معظم أهل الصين والقدماء وما زال لها أثرها في العصر الحديث .

وفلسفة (الطاو) tao تعني الطريق ، وتشير إلى السعادة ، وكذلك أساس الكون ، وكذلك تشير إلى الإله الذي يحفظ الكون ويمنحه الحركة والنظام ، وكما أن النجوم تحدد مسارها ، كذلك فإن للإنسان (طاو) أو طريق كوسيلة يربط وجوده بالواقع ، والطاو كما أنها أصل كل معنى للكون ، كذلك مسؤولة عن كل الأشياء المخلوقة ولما كانت الأشياء مخلوقة ، ويجب أن تخلق ، فإن الخلق يتم عن عنصرين هما : " ين Yin " وهو الظل ، " يانج " Yang وهو الضوء ، ويانج إيجابي أما ين فهو سلبي . فالأول يانج ذكر ، والثاني ين فهو أنثى . لكن هذا التقسيم للوجود والخلق

---

١ توملين - فلاسفة الشرق - صـ ٢٧٨ .

عند لاوتزي لا يعني ثنائية الكون أو تقسيمه ، لن ذلك من خصائص عالم الظواهر الطبيعية ، أما لب الواقع الحقيقي ، فهو الطاو ، الذي يشير إلى (الوحدة) .

ولعل هذا التفسير يشير إلى أن العقلية الصينية ، أو حكماء الصين لم تكن عاجزة عن التأمل الميتافيزيقي . [١]

ويعتبر لاوتزي ، أول فيلسوف يتجاوب مع دقة الطاو ، ووضع له كتاباً أطلق عليه (طاوتي تشنج Taote ching) ، والذي يعني كتاب دستور الطريق والفضيلة : The book of the way and or nirtue ، ولعل الفلسفة الطاوية من أكثر الفلسفات ثورية في صياغتها ، فهي تمثل الهجوم على كل شيء منحرف . ولذلك فيها نصائح تشير إلى عدم التدخل في أمر من الأمور ، ولذلك تطالب الحكومات ألا تتدخل في الأمور الخاصة بالناس ، وفكرة الحكومات عند لاوتزي تمثل الجانب الشرفي المجتمع ، وإذا كانت الفضيلة تتصل بالمعرفة عند سقراط الفيلسوف اليوناني المشهور ، فإنها عند لاوتزي تعني الجهل لذلك فإن صفة الجهل عنده تعني السعادة . وهذا يذكرنا بفلسفة الإتراكيا أو الطمأنينة بالانسحاب من الواقع عند فلاسفة اليونان المتأخرين (الرواقية مثلاً) [٢]

ولذلك فإن الحكيم الصيني يرفض الجدل ويدعو إلى البساطة والرضا لما لذلك من تأثير مهدئ على المواطنين ، والحكيم أو الفيلسوف في نظر لاوتزي هو الذي يباشر تعاليمه بدون جدل أو مجهود أو كلمات لأن التشريع الذي يأتي عن طريق التلقين أو الوعظ قد يؤدي إلى العكس من المقصود .. يقول " لو تخلص الناس من العلم لما عرفوا الجهل أو العلم ، لو تخلص الناس من الإحسان سيعودون إلى الحب الأبوي " يقول أيضاً " لو تخلص الناس من الحيل والمكاسب ، سيختفي اللصوص ، كن صريحاً وتمسك بالبساطة " هذا هو جوهر رسالته . والمجتمع المثالي عنده هو دولة صغيرة بها قلة من الناس . وهؤلاء يجب ان يكونوا راضيين بما عندهم ، ويعيشون ببساطة .. [٣]

ومن الواضح أن فلسفة لاوتزي تتضمن شيئاً من الفلسفة السلبية الناشئة عن تعاليم الطاوية ، لكن يوجد لدي كثير من تعاليم الحكمة تدعوا إلى الحذر ، وتلمس الطريق - فيها دعوات للإصلاح ، بعد أن سبق اليأس تحقيقه في ظل الحكومات الصينية المتعاقبة .

---

١ المصدر السابق - صـ ٢٠٨ .

٢ راجع دكتور عبد الرحمن بدوي - خريف الفكر اليوناني - صـ ١٢٥ ، وما بعدها .

٣ توملين - فلاسفة الشرق - صـ ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

يقول لاوتزي في نصائحه لتلميذه أو صديقه كونفوشيوس " ما إن تدق الساعة حتى يرقى الرجل العظيم إلى قمة الريادة ، التاجر الناجح هو الذي يخفي ثروته بحذر ، والرجل العظيم بسيط في سلوكه ومظهره ، إلق عنك كبرياءك وطموحاتك ، كن رجلاً صالحاً أفضل من كونك عظيماً أو رائداً .. " [1]

ويشير ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة ، بحكمة وفلسفة لاوتزي فيقول " ليس في الأدب قاطبة قطعة أجمل وأرفع مما قاله لاوتزي في سر الحكمة ، ويكمن هذا السر في إطاعة الطبيعة برضا وطيب خاطر ، يقول لاوتزي في ذلك " كل الأشياء في الطبيعة تعمل في صمت ، إنها تخرج إلى حيز الوجود وهي لا تملك شيئاً ، وتؤدي وظائفها ولا تطالب بحق ، وكل الأشياء تقوم بعملها ثم تقوم وتخمد وتهدأ ، وترتد إلى ما كانت عليه بعد أن تبلغ عنفوانها وقمة ازدهارها ، ولا يعني الارتداد إلى الأصل سوى الراحة وتحقيق ما قدر لها أن تكون ، والارتداد إلى الأصل قانون أبدي ، والحكمة هي أن يعرف المرء هذا القانون ويتقبله بنفس راضية ، وبال مستريح " [2].

يقول لاوتزي كذلك " أن أغنى إنسان هو المتحرر من شهوة الثراء ، وأكثر الناس بركة الذي يرجو بركات الآخرين ، إن الحكمة هي أن يبتعد الإنسان عن التفكير في الربح أو الخسارة ، أو في مرتبة سامية أو وضعية ، إن أنبل رجل في العالم الذي يعيش تحت السماء . [3]

* أما الحكيم الصيني الثاني فهو "كونفوشيوس" ، كما عرف في اللغة اللاتينية الأوربية ، ويطلق عليه اسم كونج فوتزي KUNG FUTZE في اللغة الصينية وهي تعني السيد الحكيم كونج ، وتعني المعلم ، وعلى شاكلة غيره من الحكماء والفلاسفة الروحانيين فقد حظي مولده ببعض الروايات التي تصوره في صور إعجازية ، تحف به الأساطير والأوصاف الفلكلورية ، وتجمع المصادر على أن مولده عام ٥٥١ ق . م في مملكة لو Lu شانتونج shantung الحالية بالصين ، ولا يهمنا صوره الإعجازية في مولده ، أو ما حيكت حوله من أساطير وفلكلوريات بقدر ما يهمنا هنا أهم تعاليمه وأفكاره الفلسفية التي تعبر عن حكمة الصين ، وحضارتها الثقافية والعملية .

كتب عنه كثير من الباحثين ، وتعرفوا على حكمته وتعاليمه الفلسفية ، ووصفوه بصفات الفلاسفة الحكماء والقديسين ، حاول تطبيق مبادئ الفضيلة ، والدعوة إلى

---

١ دكتور هنري توماس - أعلام الفلاسفة - صـ ٤٩ .
٢ المصدر السابق - صـ ٥٠ - كذلك ول ديورانت - قصة الحضارة (الشرق الأقصى) .
٣ المصدر نفسه - صـ ٥١ .

التوازن والاعتدال والإصلاح الخلقي والسياسي ، وصفه أحد تلاميذه بأنه " يسير في طريق الوداعة والتأدب ، وله علم بكل موضوع ، وذاكرة واعية ، ويحيط معرفة بالأشياء ، بل ويمثل الفضيلة ، كان معلماً رحالاً ، يتجنب الجدال مع الآخرين ، متسامحاً ، يدعو إلى الأمانة ، مؤمناً بتكامل الأسرة في المجتمع ووحدتها ، كقاعدة لدولة كاملة قوية ، ويؤمن كذلك أن عادة الأمانة تنبع من عوامل البر والإحسان في السرة والمنزل [١].

ولعل أهم ما جاء في حكمة كونفوشيوس وفلسفته في الحياة الاجتماعية والخلقية ، هو تلقين الحكمة والفلسفة للحكام أو السياسيين ، غذ قال لأحد الحكام حينما سأله عن الطريقة المثلى للحكم " أن يعطي الفرصة للجميع من الأمير حتى المتسول (الرجل العادي) لكي يعيشوا في تآلف ، وإزالة الأسباب التي تؤدي إلى ظهور اللصوص والمتسولين في المجتمع . والفكرة الثانية في حكمته الفلسفية بالإضافة إلى حكمة التآلف هي (الأمانة) وإقامة السياسة على شريعة المروءة المتبادلة ، وهذا يقلل من جشع الحكام والأمراء وتصير الثروة في متناول الجميع دون تخصيص ، وهذا يقلل من السرقات واللصوص أو الخروج عن القانون " [٢].

إن حكمة كونفوشيوس الفلسفية ـ تدعو إلى تكامل الفرد مع الحياة الاجتماعية ، وهذا لا يحدث إلا إذا كانت هناك عدالة اجتماعية ، وتحقيق ذلك يحقق للحياة قمة المجد والشرف والتواضع وتحمل مشاق الحياة وأحزانها برباطة جأش أو صبر .

ويبدو الجانب الحضاري في حكمة كونفوشيوس عندما أكد أنه ناقل وحافظ للأفكار والعلوم ، فقد كرس حياته كذلك لإعداد وتحرير العلوم والفنون الصينية ـ على طريقة المعلم ـ فكان يزود العقول بالمعارف المفيدة والأفكار الصائبة .

ولم تكن حكمة كونفوشيوس أفكار الذات ، والانسحاب من الواقع بل كان يدعو في حكمته إلى : ضبط النفس ، والعدالة ، والنظام ، والطاعة وتمثل آداب السلوك الأخلاقي ، وهو ما يعني التمسك بالقانون الأخلاقي .

كانت فلسفة كونفوشيوس تهدف إلى دوام علاقة المحبة بين أفراد السرة في الجنس البشري كله ، وعلى ذلك هو يدعو إلى فلسفة الأخوة العالمية . فعندما يشعر الأخوة نحو الآخرين بالمحبة والعطف ، فهذا طابع الإنسان الأسمى عند كونفوشيوس

---

١ هنري توماس ـ أعلام الفلسفة ـ صـ ٥٤ ، ٥٥ .

٢ راجع ـ توملين ـ فلاسفة الشرق ـ صـ ٩٢ وما بعدها . كذلك هنري توماس ـ أعلام الفلاسفة ـ صـ ٥٧ .

هو الذي يتمثل أربعة مبادئ هي : العلم الغزير ، السلوك الحسن ، الطبيعة السمحة ، والعزيمة القوية ، وهذه المبادئ يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي (العدالة) .

يقول " أحبوا أصدقاءكم ، ولكن أدبوا أعداءكم " لا تكرهوا الأعداء لأن الكراهية تولد كراهية ، لا تردوا الكراهية بالمحبة ، لأنها تولد الضعف . وعلى ذلك فقد كان كونفوشيوس لا يؤمن بالتسامح المطلق أو سياسة الاستسلام بل يدعو إلى تمثل شرف الأخلاق والقيم ، يقول " أليست العدالة وتبادل المثل بالمثل شيئاً واحداً " ، كان يدعو إلى الطريق الإصلاحي الوسط ، وقال : فلنشجع الخير ونقاوم الشر [1] ، لا تفسد الآخرين بفرط محبتك ، ولا تقضي عليهم بفرط كراهيتك .. وهكذا ، بما يذكرنا بالفلسفة الخلقية عند سقراط [2] وفلاسفة المشرق .

٤ ـ الفلسفة في بلاد الهند : ـ

بلاد الهند بلاد الأسرار والأساطير والثقافات الحضارية المشبعة بالأدب الفلكلوري الديني والفلسفي والشعبي ، وهذه البلاد ذات ثقافات وحضارات قديمة ، وصدق فيكتور كوزان عندما قال " الهند موطن أسمى الحكمة " وكما ذهب شوبنهاور أنه ليس في العالم القديم دراسة تسمو بالنفس مثل دراسة كتاب " الأوبانيشاد " وهو أول كتاب في الفلسفة الهندية القديمة .

وكلمة (الأوبانيشاد) تعني الجلوس بالقرب من معلم الحكمة ، وتشير بالتالي إلى الحكمة والفلسفة التي كان يتلقاها التلاميذ وهم جلوس بالقرب من أقدام معلمهم ، كذلك فإن الأوبانيشاد تمثل آراء الفلاسفة الذين لقنوا تلاميذهم الدروس ، وقد جمعت الأفكار والأحاديث التي تعبر عن اختراق العقل إلى ما وراء الأشياء من الحقائق ، وقد اعتبر الهندوس العقل هو أجمل شيء يتصف به الجسم الجميل . [3]

والهند من مراكز الحضارة القديمة في العالم ، وهي تضارع حضارات مصر والصين وآشور وبابل ، وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة مدى الرقي الذي عرفته الهند في الشئون المعمارية والزراعية والعلمية والاجتماعية والإدارية ، وغير ذلك وقد

---

١ المصدر السابق ـ صـ ٥٩ ، ٦٢ .
٢ للمزيد ـ دكتور يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ (سقراط) .
٣ هنري توماس ـ اعلام الفلاسفة ـ صـ ٢٩ .

اختلطت شعوبها بالشعب الآري (الإيراني) قديماً ، وحدث تبادل وتأثير في الثقافات والحضارات .[١]

وبلاد الهند متعددة اللغات والأديان كذلك ، ولعل أهم اللغات السائدة حتى الآن (السنسكريتية) ، والإنجليزية ، والأوردية ، واللغة العربية .. أما الأديان فقد ذهب علماء مقارنة الأديان على رأي مؤداه " أن الغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي ، وما هو فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية .. والهند حقل رائع لتطبيق هذه المبادئ ، فقد نشطت قوى الطبيعة وواجهها الإنسان الهندي وجهاً لوجه ، وأحس بالضعف نحوها ، فأصبح الهندي متديناً بطبيعته وازداد شغفاً بالروحانيات وكان الإنسان الهندي يسعى دائماً إلى معرفة الله تعالى "[٢] ويتخذ الزهد وسيلة للتخلص من دنيا المادة وينتظم في دنيا الروح .

وهيهات أن نجد هندوسياً لا يعبد إلهاً من الآلهة التي تنتشر عبادتها بالهند ، وبصفة خاصة يعبد ويعتقد في الأشياء التي تقترب منه ، ويشعر نحوها بالأمان والضعف والفائدة ، مثل عبادة البقر ، والنمر ، والنعامة ، وغير ذلك من الأشياء والمخلوقات المقدسة عنده ، وقد ظهرت عند الهندوس عبادة الثالوث المقدس ، وهو المكون من ثلاث قوى إلهية في قمة الوجود منها : البراهما ، ثم فشنو ، وسيفا . لكن مع الفكرة التعددية في عبادات وأديان الهنود .

كانوا ينزعون دائماً إلى فكرة التوحيد أو الوحدة ، فتشير بعض الكتابات إلى اعتقادهم في الإله براهما الإله الأعظم في قوة الوجود والذي منه وينزع إليه كل شيء .[٣]

إن أهم الكتب المقدسة كتاب (الويدات - القيداس ويشمل كذلك كتاب الأوبانيشادات) وفيها مجمل عقائد الهنود القديمة وشرائعهم ، وطبقاتهم الاجتماعية .[٤]

* لكن ماذا عن الفلسفة الهندية ؟

---

١ دكتور أحمد شلبي - أديان الهند الكبرى - صـ ٢٦ ط مكتبة النهضة المصرية - ١٩٨٤ م .

٢ المصدر السابق - صـ ٣٢ .

٣ - للمزيد من التفاصيل : المصدر السابق - صـ ٣٩ وما بعدها .

٤ - راجع : المصدر السابق - صـ ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٨ ، تفسير (البراهما : الإله الموحد - فشنو : الإله الحافظ - سيف : هو الإله المهلك) - المصدر السابق - صـ ٥٣ .

الفلسفة الهندية - أو حكمة بلاد الهند - شأنها شأن التيارات والأفكار الفلسفية التي نشأت وظهرت عند حكماء بلاد الشرق القديمة في مصر وبابل وأشور وفارس والصين وبصفة عامة إذا امتزجت حكمة الهنود وفلسفتهم بحضاراتهم وثقافاتهم المختلفة ، وظهر ذلك واضحاً في مواقفهم المختلفة من الوجود ، والطبيعة والعالم ، وفي أمور الغيب والروحانيات الإلهية ، وتطوراتهم في العبادات والألوهية ، بالإضافة إلى الإنسان وطبيعته المادية والروحية والعقلية ، وسلوكياته الأخلاقية ، وربما غلب الجانب الفلسفي والأخلاقي والروحي والديني على الجانب الأنطولوجي أو الوجودي ، وإذا ما حصرنا مجمل حكمة وفلسفة الهند في أكبر الديانات الهندية نجدها تدور حول ثلاثة أديان تمثل ثلاث طوائف أساسية تشكلت من خلالها حكمة وفلسفة الهند - وهي : الديانة الهندوسية (البرهماتية) والديانة الجينية ، ثم الديانة البوذية .

ونعطي فكرة موجزة عن كل ديانة أو طائفة من هذه الطوائف أو الديانات الثلاث ، على أن نفرد جانباً منفصلاً عن البوذية .

* فالهندوسية : ديانة الجمهرة العظمى في الهند الآن ، وتسمى الهندوكية كذلك ، وهي تمثل تقاليد الهنود وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم ، وأطلق عليها اسم البرهمية نسبة إلى (براهما Brahama) وهو القوة العظيمة السحرية الكامنة في الوجود التي تطلب العبادات - مثل قراءة الأدعية والأناشيد وتقديم القرابين ، ومن (' براهما) اشتقت كلمة (البراهمة) لتكون علماً على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي ، ولهذا سمي رجال الدين كهنة الأمة . ولهم طقوس وأفكار وأدعية تشملها كتبهم الدينية مثل الويدات ، والأبانيشادات ، وكما أشرنا أنهم ينزعون إلى التوحيد في إله واحد هو (البراهما) في قمة الوجود - يسانده إلهان أو صفتان هما : فشنو - الحافظ ، وسيفا - المهلك ..

قالوا الإله الآلهة (إندرا - براهما :

هو الأعلى عن كل شيء ، وهو الأسنى

إله الآلهة هو القوة العليا

الذي أما قدرته العاتية ترتعد كل شيء

في الأرض وفي السماوات العالية .. وهكذا [1]

وهم يؤمنون بعقيدة تناسخ الأرواح من إنسان لحيوان طيب أو خبيث .

---

١ دكتور أحمد شلبي - أديان الهند الكبرى - ص ٤٣ ، ٤٩ .

* أما الجيتية : طائفة دينية هندية كذلك نشأت في رحاب الهندوسية بزعامة (مهاويرا) إلا أنه انقلب على الهندوسية والبراهمة فكرياً ودينياً وسياسياً ، وأتى بأفكار وعبادات مختلفة عنهم ، ومن فلسفته الدينية : أن كل موجود إنساناً كان أم حيواناً أو جماداً يتركب من جسم وروح ، وكل روح خالدة مستقلة يجري عليها قانون (تناسخ الأرواح) - ومن فلسفته المسالمة ونبذ الحروب والقتال حتى بالنسبة للحيوانات والحشرات لا يجب قتلها لأنها كائنات مقدسة ، ويؤكدون على ضرورة التقشف والزهد للتخلص من التناسخ وإعادة الأدوار مرة أخرى ، قالوا في فلسفة الحياة : النجاة هي غاية الكون - التطهر من أوساخ الشهوات والعواطف الحيوانية ، التخلص من قيود الحياة ، ومن تكرار الموت والولادة ، غاية الكون النجاة التي تعني التمسك بالخير والابتعاد عن الشرور ويحبذون مظاهر العري والانتحار كسبيل للنجاة .. إلخ [1] .

ومن فلسفة وحكمة الجينية كذلك : أن الحياة الدنيا تعاسة مستمرة ، وشقاء متصل ، نعيمها زائل ، والعيش فيها باطل ، نطمح فيها إلى الخير فننال الشر ، ونبتغي السعادة فتصيبنا الشقاوة ، ومع أن هذه الفلسفة تشاؤمية ، ويكتنفها عقيدة الإلحاد الديني إلا أن بها ثلاثة أمور للنجاة والوصول إلى السلامة التي ينشدها الإنسان وهي :

- الاعتقاد الصحيح ، وذلك بأن تتخلص النفس من الذنوب اللاصقة بها ، وتحول دون وصول الروح إلى اعتقاد الشرور .

- العلم الصحيح : وهو معرفة الكون من الناحية المادية والروحية ، ويجب أن تكون المعرفة ناتجة عن قوة البصيرة وصفاء الروح ، يصل الفرد إلى ذلك يستطيع أن يفصل بين المادة والروح ، وتتكشف له الحقائق ، ويميز بين الحق والباطل ، والظن واليقين ، فلا تشتبه عليه الأمور .

- الخلق الصحيح : بالتحلي بالحسنات والبعد عن السيئات ، وذلك بعدم القتل وعدم الكذب ، وعدم السرقة ، والتمسك بالعفة ، والزهد في الملكية .

ومن فلسفتهم في طهارة الروح ، التمسك بالخلق الحميد والبعد عن الخلق السيء ، والتقوى ، والورع ، والاحتياط في الأقوال والأفعال ، تجنب الأذى لأي كائن مهما كان حقيراً ، التقليل من الحركات البدنية ، ومن الكلام كذلك ، يتصف الإنسان بصفات الكمال في فلسفتهم وهي ، العفو ، والصدق ، والاستقامة ، والتواضع ، والنظافة ، وضبط النفس ، والتقشف ، واعتزال النساء ، والإيثار .. إلخ ، كذلك في التفكير في

---

١ للمزيد : المصدر السابق - صـ ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

الحقائق الأساسية عن الكون ، والنفس بمنظار الحواس ، وكذلك العقل الصافي المتأمل والمفكر ، والسيطرة الكاملة على متاعب الحياة ، والقناعة والخلق الحسن والطهارة الظاهرية والباطنية ، وتقديس مخلوقات الوجود كلها حتى الحشرات .[١]

ومن درجات العلم في الفلسفة (الجينية) :

الإدراك بطرق الحواس ، وبطريق الذهن أو العقل ، ويشمل هذا القياس أو الاستقراء بطريق المشاهدة والفهم العقلي والحفظ ، كذلك العلم عن طريق الوثائق المقدسة ، فهذه الوثائق تشمل كل فكر علمي وفلسفي وديني ، وهي وسيط بين المعلم والمتعلم ، ثم العلم بالوجودان وإدراك الأشياء الموجودة بطريق الروح ، لذلك يجب أن تتطهر الروح من أدران الجسد لسلامة وصفاء الإدراك ، ثم العلم بالغيبيات للضمائر والسرائر في النفوس ، أو هو الإدراك الحدسي ، ولا يأتي إلا للذين ظهروا أنفسهم بالرياضة الشاقة .[٢]

*** المذهب البوذي " البوذية " :-**

هذا المذهب البوذي أو البوذية من أهم وأعظم المذاهب الدينية والأخلاقية في تاريخ الفلسفة والحكمة الدينية الهندية وأكثرها انتشاراً وبقاءً في بلاد مختلفة من الجزر والبلاد المجاورة للهند قديماً وحديثاً ، وللبوذية تعاليم وأفكار وآراء فلسفية تتعلق بالوجود والإلهيات والفرد ، بالإضافة إلى مذهبه في معالجة النفس الإنسانية وتطهيرها من أجل الوصول إلى عقيدة (النرفانا) أو الخلاص .

وتأسس هذا المذهب البوذي في القرن السادس ق . م عن طريق شخصية تعرف باسم سدهارتا جوتاما Sidharta Gautama الذي يشار إليه دائماً باسم بوذا Budda أي المستنير أو الحكيم المستيقظ من النوم .

وبإيجاز شديد فإن قصة بوذا أو الحكيم الهندي وفلسفته الدينية الأخلاقية تتلخص في أنه كان أميراً ابن ملك من ملوك الهند ، غادر قصر أبيه مطوفاً في الأرض ومتنقلاً من راهب إلى راهب حثاً عن إجابة محددة وسريعة عن سؤال حيره كثيراً ، وهو : لماذا يعاني الإنسان كل هذه الآلام ؟ لقد جلس بوذا تحت شجرة ناسكاً بالقرب من مدينة (جايا) ذات يوم ، وكاد اليأس يدب في قلبه حين تأخرت الإجابة عن هذا السؤال ، لماذا يعاني الإنسان من الآلام والأحزان والمتاعب في هذه الحياة ؟ ولكنه صمم على أن

---

١ المصدر السابق - صـ ١٣٦ ، ١٣٧ .

٢ المصدر السابق - صـ ١٣٨ ، ١٣٩ . كذلك توملين - فلاسفة الشرق : أماكن متفرقة .

لا يبرح المكان حتى تأتيه الإجابة أو الإشراقة ، فظل جالساً يتعبد تحت الشجرة حتى بلغ سن ٤٩ التاسعة والأربعين من عمره ، وذات يوم وهو يتأمل ويفكر في الحقيقة ، انكشفت له الإشراقات وجاءت الإجابة واضحة في عقله وهي : ضرورة التخلص من الشهوات والملذات وعدم اتباع الرغبات والمتع التي تؤدي إلى إعادة الميلاد مرة أخرى ، فعدم تعلق الفرد بالشهوات والملذات والعالم يؤدي إلى تخلصه من الآلام والأحزان التي يعاني منها .

وتتلخص الفلسفة البوذية الأخلاقية والوجودية والدينية في أن هناك غايتان : تتوجه إليهما همة السالك أو الفرد وهما : اتباع الرغبات والمتع المتولدة عنها تلك الرغبات التي تؤدي إلى إعادة الميلاد الكريه المضني واتباع الألم والمشقة .

والغاية الثانية : هي اتباع الطريق الوسط الذي يعمل على تفادي الانغماس في الشهوات وإعادة الميلاد .

هذا الطريق ينير البصيرة ، ويبعث بالفرد إلى طريق الحكمة الذي يؤدي إلى السلام والتخلص من الألم ، والوصول إلى (النرفانا) أي الخلاص وإماتة آنية النفس الإنسانية .

وتقوم الفلسفة البوذية كما وصفها بوذا ، على ثلاثة محاور أساسية هي : حقيقة وجود العالم ، وحقيقة الألوهية .

* وفيما يتعلق بالفلسفة البوذية في وجود العالم ، فإن بوذا ينظر إلى العالم نظرة متشائمة ، فالعالم يقوم على عدة خصائص هي : أن هذا العالم تعس حزين مليء بالآلام والأحزان ، كما أنه عالم عابر متنقل خادع لا يدوم ، كذلك فإنه عالم خال من الروح والمعنى والدوام .

يقول بوذا ، أننا تولد في أحزان ، تناوشنا الأحزان فيما بين ذلك ، ولعل السبب لهذه الأحزان أنه عالم عابر متنقل لاثبات له ، فلا شيء يبقى على حاله ، فالعالم فيضاً مستمراً للحوادث المتتابعة كشريط لا يكف عن الدورات ، ونحن لا نستطيع التصرف والعمل إلا في ضوء الاعتقاد الكاذب في الدوام والثبات والاستقرار .

أننا نجد أنفسنا متمسكين بالأشياء التي تصادفها محاولين إدامة الاحتفاظ بها ، مع أن طبيعتها عابرة متنقلة وزائلة وهكذا نصدم في أحلامنا وأمانينا حتى عند تملكنا لهذه الأشياء ، ويعترينا الخوف من فقدانها ثم يضطرنا الواقع المر إلى فقدانها فعلاً ، فنتألم وتحزن ، إذن لا مفر من الألم والحزن .

أننا لا نضمن لمتعنا وشهواتنا الخلود ، لذا نصبح دائماً ولا نزال تعساء ، ويقف بوذا عند هذا الحد فيما يتعلق بالبحث عن حقيقة العالم ، ولا يتناول السؤال عن خلق العالم ، هل هو قديم أم حادث ؟ لأن البحث في هذه المسائل يعتبر مضيعة للوقت ولا فائدة من ورائه .

إن السؤال في الفلسفة البوذية ليس سؤالاً كونيا ، أو وجودياً فيزيقياً يتعلق بأصل أو مصير الكون والوجود ، بل سؤال في صميم الإنسان ، لماذا يعاني من الألم والحزن ؟ وما هو السبيل للتخلص من ذلك والوصول إلى الخلاص ، أو النرفانا .

* الجانب الثاني في الفلسفة البوذية يتعلق ببحث حقيقة وجود الفرد : إذ لا يعترف بوذا بوجود الفرد الشخصي المتميز الثابت ، إذ أن الفرد نظير أي شيء في هذا الكون فهو مركب متغير دائم الصيرورة والتطور حتى ينتهي إلى شيء مخالف لما كان عليه في الماضي ، والتركيب الفردي يقوم على عدة عناصر مركبة هي : البدن ، الأحاسيس ، الإدراك ثم التصور والحالات العقلية والشعور والوعي وهذه المكونات الفردية تجتمع على هيئة خاصة ولكنها رهن التغيير والتحول الدائم والمستمر .

إن الشيء الوحيد الذي يسلم من التغير والصيرورة المستمرة في هذه الحياة المادية والإنسانية هي : النرفانا ، لأنها منفصلة عن هذا العالم ، لأنها تعني الخلاص ، والخلاص أو النرفانا في فلسفة بوذا يعني - إماتة النفس وشهواتها ورغباتها ، فتسلم من الشعور بالألم والتعلق بالأمل الذي يؤدي إلى تكرار المولد ، وإعادة الميلاد الكريه - وهذا يشير إلى محاولة البوذية التخلص من عقيدة التناسخ .

* أما الحقيقة الثالثة فهي تتعلق بمشكلة الألوهية في الفلسفة البوذية إذ نجد أن بوذا لم يؤمن بالإله الأعظم للكون - كما هو عند طوائف وديانات الهندوسية (البرهما) وبصرف النظر في البحث في هذا الجانب الميتافيزيقي ، ولا يعطي إجابات واضحة عن حقيقة وجود الله تعالى ، كما أن مواعظه وتعاليمه الأخرى خالية من المناقشات الميتافيزيقية في الإلهيات أو خلود الروح والنفس في الآخرة وبعد الموت .[1]

وقد اعتقد بعض الباحثين الغربيين أن فلسفة الأخلاق البوذية تمثل الجانب العقلاني في الفلسفة الهندية حيث أنها لم تركز على جوانب عقائدية تنطوي على أفكار أسطورية أو صوفية شرقية كما هو معتاد عند حكماء الشرق القديم .

١- أديان الهند الكبرى - صـ١٤٥ وما بعدها .

لكن تتبع بعض البحوث والدراسات في الفلسفة البوذية قد تشير إلى تضمن البوذية لعناصر دينية ، وجودية وبصفة خاصة في العصور المتأخرة حين أعتقد أصحاب بوذا في الوهيته وقدموا المعابد هم القرابين باسم بوذا ، كما أن بوذا لم يدع النبوة ولا الوحي ولم يشر في فلسفته إلى ذلك مما يعني أنها فلسفة أخلاقية . (١)

ومما لا شك أن الباحثين في الفلسفة الهندية عادة يهتمون بجذب الانتباه أولاً إلى عمقها ، وليس في ذلك أدنى شك ، وثانيا إلى تأكيد الأسرار الكامنة وراء الوجود وحياة الفرد وسلوكياته الأخلاقية وحياته الدنيوية وآلامها وكيف التخلص من حياة التكرار والميلاد - أو الخلاص من التناسخ والوصول إلى النرفانا .

ومما لا شك أن سجل العقائد الهندية تشملها مجموعة من الكتب المقدسة عن الهندوس والبوذية كالفيداس والابانيشودات (٢) وإذا كان تطبيق معنى كلمة (الفلسفة) هو الذي حال دون إطلاقها على حكمة الشرق القديم - وفي الثقافات الهندية أيضا ، فإن أتساع مدلول (حكمة) الشرق يتسع ليشمل الحياة العقلية والروحية معا ، وهذا ما دفع باحث غربي معاصر وهو ماسون أورسيل Masson oursel ، إلى أن يقول " أنه ليس ثمة إنسان يعتقد اليوم أن اليونان والرومان وشعوب أوروبا في عصورها القديمة والوسيطة والحديثة ، هم وحدهم أهل التفكير الفلسفي فقط ، إذ أنه في أماكن أخرى (بلاد الشرق) ، قد سطعت أنوار التفكير المجرد ، ويمكن أن نضع الفكر الشرقي في مكانة اللائق من التراث الفلسفي والعقلي الإنساني (٣) كذلك لا يمكن أن تقطع الصلة الوثيقة بين التفكير اليوناني وبين تفكير الشرق القديم (الأقصى ، والأدنى ، والوسط) .

٥- التفكير الفلسفي في الحضارة الإسلامية :

أ- تمهيد : عن الحضارة الإسلامية :

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت ، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة ، واتخذت لها صوراً أخرى فنية جديدة ، فكذلك الحضارة تستطيع البقاء ، مزعزعة الأركان بتغيير موطنها ودمها ، (٤)

١- دكتور - كمال جعفر - في الدين المقارن - صـ٢٤٦ كلية دار العلوم القاهرة ، ١٩٧٦ م .

٢- للمزيد - توملين - فلاسفة الشرق - صـ١٦٩ وما بعدها .

٣- دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - صـ٣٤ ، صـ٤٤ ط دار النهضة العربية بمصر ١٩٧٦ م .

٤- ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ٢ (الشرق الأدنى) ، صـ١٨٧ .

ولقد انتقلت الحضارة من بابل وأشور والكلدان ، ومن الهند والصين ومصر - إلى كريت واليونان وروما - حتى المحيط العربي والإسلامي في العصور الوسطى متواصلة من عصر النهضة إلى العصر الحديث .

أن مهمة مؤرخ الحضارات ، والباحث فيها شاقة وعسيرة ، أهمها تداخل الثقافات وامتزاج العناصر المختلفة المكونة لكل حضارة ، يضاف إلى ذلك كثرة الروافد والمكونات الحضارية أو الثقافية لكل أمة أو شعب من الشعوب قديماً وحديثاً ووسيطاً وكذلك عدم توافر آليات البحث والتحليل والتنقيب في بعض الجوانب والنواحي الحضارية فضلاً عن عدم توفي الموضوعية والحياد الكامل أو النزيه عند بعض الباحثين أو المؤرخين لتاريخ الحضارات ، وشيوع النزعات المذهبية والشعوبية والعنصرية عند البعض الآخر .

لكن ذلك لا يمنع من توافر الكثير من الدراسات والبحوث الحضارية ذات التأصيل الفكري والعلمي فضلاً عن كثير من المؤرخين والباحثين والعلماء الذين كانوا وما زالوا يتمتعون بقدر كبير من النزاهة والموضوعية .

وإذا ما انتقلنا إلى البحث في تاريخ وتطور الحضارة الإسلامية والعربية فإن مهمة الباحث لا شك قد تكون شاقة وعسيرة في بعض الجوانب إذ تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم المختلفة والمتشعبة والمتشابكة ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب ولغة ، واجتماع وفلسفة وعلم أصول وكلام وتصوف ، فضلاً عن العمارة والفنون والأساليب والتوجهات ، وعلى الجملة كافة العلوم والثقافات والمعارف المكونة للحضارة .

فقد درج العرب والمسلمون على تأريخ حوادثهم ، وعلومهم ومكونات ثقافتهم المختلفة العلمية والعملية في حوليات كما نرى عند الطبري وابن الأثير وغيرهما . فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ السياسي بالأدب والعلم والدين ، إذا لم يعرف أحد منهم ومن المتقدمين طريقة كتابة التاريخ الحديثة ، اللهم إلا شخصية علمية حضارية كابن خلدون في مقدمته ، والذي صور فيها كيف ينبغي أن يكتب التاريخ ، وأتبع طريقة في التصنيف والتبويب لمكونات ومفردات الحضارة العلمية والثقافة تعتبر علامة مميزة لهذا العالم والفيلسوف العربي الإسلامي في نهاية العصور الوسطى .

وعلى ذلك فإن تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة ، لم تكن واضحة عند العرب والإسلاميين ، فإذا أراد باحث أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية في مختلف

عصورها ، مع بيان العناصر المكونة لها ، والظروف التي أدت إلى ظهورها - كالعوامل الجغرافية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والأدبية والاقتصادية والدينية وغير ذلك فلن يجد شيئاً من ذلك واضحاً كل الوضوح في الكتب الإسلامية والعربية القديمة " ذلك أن القدماء كانوا يتصورون أن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف .. مثال ذلك ، نجد أن الجاحظ وهو أحد مؤرخي الأدب والفلسفة والعلوم الإسلامية والعربية ، عندما يكتب في كتابه " البيان والتبيين " تفسير آية قرآنية يضم إلى جانبها حكاية للشعراء ثم ينتقل منها إلى رأي لصاحب المنطق .. وهكذا ، كذلك الحال نجده في كتب العربية الأخرى مثل كتاب الأمالي لأبي علي القاري ، ونهاية الأرب ، وغير ذلك من كتب الأدب والتاريخ الأخرى ، فكلها استطراد لا نظام فيها [1].

ولكن مع ذلك نستطيع استخلاص العناصر والمكونات الأساسية للحضارة الإسلامية والعربية في العصور الوسطى - الثقافية والعلمية - فضلاً عن خصائصها ومميزاتها بالإضافة إلى الإشارة إلى تلك العناصر التي امتزجت بروافدها الفلسفية ، والتي عبرت عن مدى التواصل الحضاري بين الفكر الإسلامي والعربي وبين الثقافات والعلوم اليونانية أو الشرقية الأخرى .

وإن كنا هنا لا نؤرخ للحضارة الإسلامية وليس هذا بحث متخصص في هذا المجال ، إلا أننا نود الإلمام بصورة واضحة ومفيدة بالجوانب الحضارية العربية أو الإسلامية ، التي يظهر من خلالها التفكير الفلسفي وعناصره عند مفكري الإسلام .

وحضارة الإسلام أو حضارة العرب ، اسم لحضارة الشرق في القرون الوسطى ، لم يكن العرب أو المسلمين وحدهم منكري هذه الحضارة ولكن يشاركهم سكان الشرق الأدنى [2] بلاد الرافدين ، وكذلك اليونان ، وكما نعرف أن الحضارات الإنسانية متواصلة وممتزجة في روافدها الفكرية والثقافية والعلمية ، فإن ما نشأ في الحضارات الإسلامية من علوم وفنون ومعارف وثقافات وفلسفات وعمارة وإدارة واقتصاد هي بلا شك متأثرة بروافد وعناصر شرقية أو يونانية فيما بعد ، مع تميز الثقافة والفلسفة الإسلامية والعربية ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بجوانب التشريع والفقه والأصول

١- دكتور احمد فؤاد الأهواني - مقدمة كتاب ظهر الإسلام لأحمد أمين - صـ٦ ، جـ٤ ط مكتبة دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٢ م .

٢- ف - أرنولد - تاريخ الحضارة الإسلامية - صـ٣٥ - ترجمة حمزة طاهر ط دار المعارف ، ١٩٧٧ م .

الإسـلامية الأخـرى التـي صـبغت العناصـر الإسـلامية بالصـبغة العربـية والدينـية الإسلامية.[1]

وجدير بالذكر أن المؤرخين والباحثين قد اختلفوا حول مسميات الحضارة - هل هي إسلامية أم عربية ؟ أم أنها حضـارة إسلامية عربية ، البعض رأي أنها حضـارة عربية لوجدوا الطـابع العربي فيها - لكن يعترض على ذلك البعض ويقول : أن بهذه الحضـارة امتزجت علوم وفنون وثقافات غير عربية ، فارسية أو هندية أو يونانية أو غيرها .

وقد ذهب البعض الأخر إلى تسميتها حضارة إسلامية ، لتغلغل الروح الإسلامية فيها ، ولأن الإسلام هو الذي بعثها ورسم حدودها ، ويعترض آخرون على هذه التسمية لوجـود تأثـيرات حضـارية سـابقة علـى الإسـلام مسـتمدة مـن الحضـارات الفارسـية واليونانية والهندية وهذه حضارات مسيحية ومجوسية ..

وقد ذهب فريق ثالث لاعتبارها حضارة عربية إسلامية معاً ، أو لأنها نتاج للعروبة والإسلام معاً ، لكن هذه التسمية قد لا تنطبق على بعض البلاد والدول التي لم يدخلها العرب أو أنتشر فيها الإسلام مثل بلاد الصين والهند ، وأندونسيا : فلم يحكمها العرب ولكن انتشر فيها الإسلام لإيمان أصحابها بالدين الجديد وهو دين الفطرة الإنسانية

لكننا نـأخذ بالرأي القائل في تفضيل تسمية الحضارة الإسلامية ، لأن الإسلام نفـخ فـي هـذه الحضـارة مـن روحـه ، وصـورها فـي بوتقـة الفكـر الإسـلامي والعلـوم الإسلامية والشرعية ، الأمر الذي أدى إلى تقويم أحسن النظم والقوانين وأعظم القيم التي تصلح من شأن البشرية ولا ضير على الحضارة الإسلامية أن تتأثر في بعض جوانبها العلمية والفكرية والعلمية بـروافد الثقافات والفنون المستمدة من حضـارات سـابقة علـى الإسـلام [2] إذ ثبت أن الحضـارة الإسـلامية وعقـول المفكريـن والعلمـاء المسلمين استطاعوا هضـم الثقافات ودراسة وتطويـع الفنون الحضـارية الشـرقية أو اليونانية إلى التراث الإسلامي . وسادت الصبغة الحضارية الإسلامية بصفة عامة ، مع كثير من التميز .

وتنقسـم الحضـارة الإسـلامية إلـى قسـمين : الأول يضـم الجوانـب الروحـية (الفلسفية) والفكرية والثقافية - والإبداعية - والتي صقلها الإسلام وصبغها بصبغته أما

١- للمزيد في ذلك - المصدر السابق - صـ٨٣ - صـ١٢١ وأماكن متفرقة .
٢- دكتور أحمد الشامي - الحضارة الإسلامية - صـ١٤ - ط الهداية ١٩٩٩ م .

القسم الثاني : يتناول الجانب المادي ويضم الدراسات والبحوث التجريبية وإن كانت روافدها قديمة قبل ظهور الإسلام مثل علوم الطب ، والعمارة ، والهندسة ، والرياضيات ، والفلك والموسيقى والنظم السياسية وأصول التشريع والحكم فقد اصطبغت بالروح الإسلامية والطابع الحضاري الإسلامي ، المستمد من النصوص القرآنية قوله تعالى " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " سورة الزمر آية (٢٩) .

ولعل أهم ما يميز الحضارة الإسلامية في فروعها وعناصرها المختلفة ، وحدتها وترابطها بين جميع عناصرها ، كما أنها تتشابه في خصائصها المميزة لها في كل ميدان من ميادينها ، فإذا نظرنا على الفقه والتشريع ، والفلسفة والطب والصيدلة ، وعلوم الأدب واللغة والتفسير والشعر ، والاجتماع والقيم والفنون وغير ذلك من المكونات الحضارية الإسلامية ، فإننا نجد بينها ترابطاً ووحدة ، يتخللها خيوط رفيعة مترابطة تعبر عن الروح الحضارية الإسلامية ، ولما كان الإسلام دين ودولة ، عقيدة وشريعة ، نظام اجتماعي وسلوك أخلاقي ، وهي عناصر هامة في مكونات الحضارة ، فقد استمدت وجودها كذلك من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية الشريفة ، وهما مصدران من مصادر التشريع الإسلامي .[1]

وقد عبر بعض المستشرقين الباحثين في الحضارة الإسلامية عن روح التناسق الفكري والثقافي والمادي ، لذلك يقول " إن التطور الذي نالته حضارة الإسلام الروحية قد سار جنباً إلى جنب مع حضارته المادية ، وكما أن الفاتحين العرب أدركوا أن من الضروري لهم تكييف عاداتهم وفق النظم القديمة التي وجدوها عند الشعوب المقهورة أو التي فتحوها لنشر الإسلام بها ، فقد أدرك الفقهاء - الذين واجهوا فلسفات متضاربة ، ونزعات متشعبة ، أن عليهم أن يوضحوا القرآن ، وأن يقيموا على أساسه السهل والواضح صرحاً ضخماً من التعقيبات والتشريعات والشروح ، وعندما اصبح القرآن الكريم هو المصدر الأعلى للدين والشريعة والأخلاق ، صار من الضروري لهم التوفيق بين آياته وعمل تصنيف لتلك الآيات ووضع ترتيب لها ، والتماساً للقواعد والأحكام حاولوا باستخدام القياس والاستنباط أن يجعلوا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، تنطبق على الأحوال المختلفة .[2]

---

١ المصدر السابق - صـ ١٥ .

٢ - هـ ، سانت ل ب موسى - ميلاد العصور الوسطى - صـ ٢٧٣ - ترجمة عبد العزيز جاويد - ط المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - ط القاهرة ١٩٦٧ م .

وهكذا نلاحظ أن الحضارة الإسلامية ومكوناتها وروافدها وعناصرها المختلفة في جانبها المادي والعلمي ، وكذلك الثقافي والفلسفي ، كانت تسير عبر العصور متناسقة الجوانب في محيط الدولة أو الدولة الإسلامية المترامية الأطراف شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، تسودها الروح الإسلامية السمحة الطيبة ، والقيم الأخلاقية والتشريعية والسياسية المستنبطة من أصول الكتاب القرآن الكريم ، والسنة النبوية .. لذلك أنتجت فكراً علمياً وعملياً وفنياً وتجريبياً ، وكذلك فلسفة وثقافة إبداعية ، فيها من الطرافة والجدة والتوفيق المتواصل مع تيارات التفكير الفلسفي والأدبي الرائع عند الأمم الأخرى وكان لذلك تأثير واضح في الثقافات والعلوم التجريبية الأوربية في العصر الحديث .

ففي الجوانب العلمية والمادية التجريبية - ظهرت كثير من العلوم والمدارس حمل روادها لواء البحث العلمي ، نذكر على سبيل المثال - نشأة وتأسيس كثير من المدارس العلمية والمكتبات وتوافر وسائل البحث والتحصيل العلمي في ربوع الدول الإسلامية والعربية ، في بغداد ، والبصرة ، ودمشق ، ومصر ، والقيروان بتونس والمغرب ، ظهرت علوم كثيرة في مجال الطبيعة وعلى رأسها الحسن بن الهيثم ، والطب والصيدلة وعلى رأس ذلك ابن سينا ، وأبو بكر الرازي ، وفي علوم النبات والحيوان والكيمياء وعلى رأسها - رشيد الدين الصوري ، والجاحظ ، وجابر بن حيان ، والدورة الدموية ت ابن النفيس ، فضلاً عن الفنون والعمارة ، والعلوم الإنسانية كالتاريخ والاجتماع أو العمران البشري ، كابن خلدون ، والجغرافيا مثل : الإدريسي والعلوم الرياضية ، كالخوارزمي ، والبيطرة ، كابن البيطار وابن زهر الأشبيلي [1] .. وهكذا .

أما الجانب الثقافي والفلسفي - ظهرت في أحضان الحضارة الإسلامية كثير من المدارس الفكرية والفلسفية ورواد عظام يمثلون تيارات التفكير الفلسفي والإبداعي الأدبي والأصولي الديني .

ويمكن أن نشير إلى هذا الجانب من خلال بعض التيارات التحليلية عند بعض المستشرقين ، فقد ذهب سانت موسى - في كتابه عن ميلاد العصور الوسطى إلى أن " أول دراسة علمية للنحو العربي كانت بقصد المحافظة على نص القرآن الكريم ، ومن ثم الأصل في شطر كبير من الإنتاج الأدبي الرائع الذي ظهر في العصر العباسي

---

١ دكتور جلال الدين موسى - مناهج البحث عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية - ط بيروت ١٩٧٣ م .

يرجع إلى دراسة النصوص القرآنية ، كما أن تطور اللغة العربية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما شعر به علماء الشريعة الإسلامية من حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وقد ظهرت الرغبة في تتبع تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم لإجراء دراسات حول حياة الرسول الكريم وتقاليده الأسرية ، ويضم إلى ذلك حياة الأوائل للإسلام - الأمر الذي هيئ الباعث لدى المسلمين لكتابة التاريخ الذي ينطوي على قدر كبير من التراجم والأخبار والنوادر .

وقد ظهرت طائفة ضخمة من المصادر التي تعالج الفقه ، واستندت على القرآن الكريم ، باعتباره المصدر الأول للتشريع والفقه الإسلامي . [١]

هذا وقد كان لتشجيع الخلفاء العباسيين أثر كبير في نشأة وانتشار المدارس الفلسفية ، وترجمة النصوص والكتب الفلسفية من اللغات اليونا... إلى اللغة العربية ، وعلى ذلك فقد تم نقل وترجمة كتب الفلسفة اليونانية ، أو الشرقية الهندية والفارسية وغيرها إلى اللغة العربية ، وظهرت شخصيات كان لها أثرها في بلورة التفكير الفلسفي في الإسلام - والتوفيق بين الحكمة أو الفلسفة والدين . [٢]

ب - التفكير الفلسفي ومدارسه :-

قبل أن نتناول دراسة وبحث جوانب واتجاهات التفكير الفلسفي الإسلامي ومدارسه وأهم الشخصيات الفلسفية التي لعبت دوراً هاماً وحيوياً في بلورة الفلسفة الإسلامية في سياقها أو نسقها الحضاري ، نود أن نفرق بين ثلاثة مستويات للفكر الإسلامي شملتها المنظومة الإسلامية في المشرق أو المغرب العربي ، وهذه المستويات الثلاثة هي :

* المستوى الأول : وهو الدين الإسلامي - - أو الإسلام كدين إلهي ، فالدين الإلهي (وهو الإسلام) هو ما أوحي به على الرسول صلى الله عليه وسلم (وينسحب ذلك أيضاً على الديانات السماوية التي أنزلها الله عز وجل على الأنبياء والرسل عليهم السلام) .

---

١ سانت موسى - ميلاد العصور الوسطى - صـ ٢٧٣ .

٢ للمزيد من تاريخ الثقافات والحضارات الإسلامية والعربية أنظر :

ا - دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (مصر والمغرب والأندلس) جـ ١ ، جـ ٢ ، جـ ٣ ، جـ ٤ ، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ م .

ب - أحمد أمين - سلسلة كتب - فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام ، ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨١ م .

ولما كان الدين الإسلامي وحياً إلهياً لا تغيير فيه ولا تبديل كان أعلى مستويات الفكر الإنساني ، والمعيار الأساسي لتحديد مسار الفكر الإسلامي فلسفته - والدين ليس من قبيل الفكر العقلي ، أو نتيجة جهد عقلي قام به إنسان مفكر ، وإنما يعتمد في مصدره على الوحي الإلهي وهو غير العقل ، وهذا ما يميز الدين الإسلامي عن الإنساني ، والفلسفة .

* المستوى الثاني : الفكر الإسلامي - فقد نشأ نشأة طبيعية منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزول الوحي عليه ، فنراه يوصي سفراءه باستعمال الرأي فيما دون كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، فضلاً عن دعوة القرآن ذاته إلى تدبر الآيات الإلهية ، وتدبر القرآن ذاته ، قال تعالى " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " سورة النساء آية (٨٢) .

ثم ظهرت ضرورات أخرى ساهمت في نشر الفكر الإسلامي ، وتأسيس مدارسه في التفكير السياسي والاجتماعي والديني والأخلاقي ، فضلاً عن إحكام النظر والتأمل ، واستنباط الرأي واستعمال القياس أو الاجتهاد .

ففي مجال السياسة برز سؤال يقول : من هو الخليفة ؟ وبرز سؤال آخر في مجال الفكر الإسلامي وهو : كيف أفهم مراد الله عز وجل ؟ وهل لكي أفهم ذلك لابد من العقل - أو استعمال التفكير العقلي ؟ .. وهكذا

ومن أجل ذلك برزت عدة مذاهب أو مدارس فكرية ، تدعو إلى ضرورة العقل ، واستعمال أدوات التفكير العقلي في سبيل فهم النصوص القرآنية المقدسة - أي أن العقل ضروري لفهم مراد الوحي الإلهي ، منها المعتزلة وأهل السنة والأشعرية والفقهاء ، وإن اختلفوا فيما بينهم حول تقدير قدرة العقل ومداه ، فالمعتزلة وشيوخهم حاولوا تأكيد سلطة العقل وقدرته ومداه على النص ، أما الأشعرية وسائر أهل السنة فقد حاولوا التوفيق بين النقل والعقل وقصروا سلطة العقل على ما يتوافق مع مفاهيم النصوص دون الإخلال بقداستها ، وحاول الفقهاء الاستنباط واستعمال القياس على شتى نواحيه ومذاهبه .. وهكذا .

وإن ظهرت بعض الاتجاهات التي لم تؤكد على قدرة وسلطة العقل وأوكلت ذلك على ما يسمى بالإمام المعصوم ، وهم الشيعة ، أو التسليم للنصوص بظواهرها - أو تأويلها على باطنهم وهم الصوفية وهكذا .

وقد حاولت مدارس التفكير العقلي الإسلامي تقديم الوسائل المنهجية لفهم المعاني الحقيقية للنصوص القرآنية ، أو الأحاديث النبوية الصحيحة مثل مدرسة علم أصول

الدين ، لتحديد علاقة العقل بالعقيدة ، ومدرسة علم أصول الفقه لتحديد علاقة العقل بالشريعة .[١]

ومن خلال ذلك فقد تميز الفكر الإسلامي بالحركة الفعالة الإيجابية وعدم الخروج عن دائرة الدين الإسلامي ، وجهة وغاية ، وموضوعاً ، ومنهجاً . يضاف إلى ذلك أن الفكر الإسلامي أصبح محدداً للقضايا من حيث الجدل الإنساني ، فليست قضاياه قابلة للجدل العقلي ، أما إذا تعدى الجدل العقلي هذه الحدود وتوغل في الجدل والنقاش ومزج المصطلحات الفلسفية أو العقلية بالمصطلحات الفلسفية أو العقلية ، فقد تعدى نطاق الفكر الإسلامي ، وأصبح هذا الفكر يدخل ضمن نطاق التفكير الفلسفي ، أو الفلسفة الإسلامية ، وهو المستوى الثالث .

إذن الفكر الإسلامي ، فكر محدد وموجه في نطاق محدد ، يتخطاها ، أي في نطاق ما يسمى (بالحقائق التوقيفية) ، فقد حددها القرآن وأشار إليها الشرع ، ونهي عن الجدل فيها ، لأنها تقع في نطاق فوق النطاق العقلي ، أي لا يستطيع العقل الإجابة عنها ، مثل : مشكلات ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا ، ومشكلات القضاء والقدر ، ومشكلات تتعلق بالذات الإلهية ، أو السؤال عن الكيف لله عز وجل ، وأمور الغيب الكبرى مثل مسألة : الروح ، وكيفيتها .. وهكذا .

فقد روي ابن حجر عن أبي المظفر بن السبعاني أنه قال في القضاء والقدر " سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل ، فمن عدل عن التوقيف فيه فقد ضل وتاه في مجال الحيرة ولم يبلغ مراده ، ولا ما يطمئن إليه قلبه ، لن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص به ، وضرب دون الأستار وحجبه عن عيون الخلق ومعارفهم ، ولم يعلمه لنبي مرسل ، ولا ملك مقرب " وقد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن التنازع في القدر حينما خرج على أصحابه وهم يجادلون في القدر فقال لهم ، أبهذا أمرتم ؟ أبهذا أرسلت لكم ؟ عزمت عليكم أن لا تتنازعوا فيه .[٢]

كذلك فيما يتعلق بالروح لقوله تعالى " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " سورة الإسراء آية (٨٥) .

---

١ دكتور - محمد إبراهيم الفيومي - التطور التاريخي لمعنى الفلسفة - صـ ٢٨ .
٢ المصدر السابق - صـ ٣٠ .

كذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الجدل في الذات الإلهية ، فقال صلى الله عليه وسلم " تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا " .

لكن هناك مشكلات أخرى ، وقضايا تتعلق بالعلم الطبيعي والإنساني أباح القرآن الجدل فيها والنظر والسؤال حولها - لأنها تقع في نطاق التفكير العقلي - والاستعانة بالنصوص القرآنية في البحث والنظر ، وهذه المسائل تقع ضمن الحقائق (التوفيقية) .

" فما يخص العلوم الطبيعية والاجتماع الإنساني والأمور الخاصة بالتشريع تدخل في نطاق العقل والتفكير والقياس والتجربة يقول ابن عبد ربه : لا خلاف بين الفقهاء وسائر أهل السنة وهم أهل الثقة والحديث في نفي القياس في التوحيد ، وإثباته في الأحكام . [1]

*** المستوى الثالث : الفلسفة الإسلامية - فلسفة الإسلاميين) :**

يقوم هذا المستوى من الفكر الإسلامي عل محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين الفكر الفلسفي والنظريات والمصطلحات الفلسفية وبين النصوص الدينية عن طريق منهج التأويل ، من ناحيتين ، الأولى : إما تأويل مصطلح ديني بمصطلح فلسفي ، أو شرح النصوص الدينية في ضوء نظريات وأفكار ومعاني فلسفية ، والتي صدرت ونتجت عن الأفكار الفلسفية - التي صدرت ونتجت عن الأفكار الفلسفية التي تتعلق بالمشكلات والبحث في القضايا المتشابهة بين ما جاء به الوحي الإلهي من نصوص وبين ما وصلت إليه عقول الفلاسفة من نظريات فلسفية تتعلق : بالوجود ، والطبيعة ، والإلهيات أو الميتافيزيقا ، والمعرفة والأخلاق أو القيم الإنسانية وفي هذا المستوى من الفلسفة الإسلامية - يحاول الفلاسفة الإسلاميون المزج بين الأفكار والنظريات الفلسفية وبين معطيات الوحي والدين وعلى ذلك أصبح هناك مزيج من الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية ، والأفلاطونية المحدثة ، بالإضافة إلى أمشاج من الفيثاغورية والرواقية ، والهرمسية الفلسفية الإسكندرانية تغلغت عن طريق الفلاسفة الإسلاميين في نطاق الفلسفة والفكر الإسلامي ، وأصبح التأويل علامة مميزة لمثل هذه التيارات الفلسفية .

مثال ذلك : تأويل فكرة (الوجود والمطلق) - بالوجود الإلهي وفكرة أو نظرية العقول في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة بالملائكة ، والعقل الأول - بالقلم الإلهي ، والنفس الكلية باللوح المحفوظ ، والعقل الفعال - بالروح القدس أو الوحي الإلهي واهب

---

١ المصدر السابق - صـ ٣١ .

الصــور والمعـرفة والرســالات للأنبـياء والعلمــاء والشــعراء والمفكريــن .. وهكـذا ، فالفيلسوف الإسلامي ابن سينا ت عام (٤٢٤) هـ ، يؤول قوله تعالى " ويحمل عرش ربط فوقهم يومئذ ثمانية " سورة الحاقة آية (١٧) .

بأن المراد بذلك العقول الثمانية ـ نفوس الأفلاك السماوية كما ذهبت إلى ذلك الفلسفة الأفلاطونية اليونانية ، مثلاً [١].

وإن كانت هناك شبه علاقة بين الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية من حيث استخدام العقل والتفكير العقلي في دراسة النصوص الإلهية وتحليلها ، إلا أن هناك فرق شاسع بين الاتجاهين ، من حيث أن الفلاسفة الإسلاميين من أمثال : الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وإخوان الصفاء وغيرهم تأولوا النصوص الإلهية في نطاق وضوء النظريات الفلسفية اليونانية ، ومحاولاتهم المزج بين الفلسفة والدين ، مما يؤدي إلى دخول عناصر وأفكار ومصطلحات مخالفة وغريبة على الإسلام ، وهذا ما حذر منه علماء أهل السنة والسلف حفاظاً على سور الشريعة والعقيدة الإسلامية ، ومنعاً لكثرة الجدل أو التمرد الفكري وعدم الالتزام بأصول العقيدة وثوابتها .

وننتقل الآن إلى عرض وتحليل لمدارس التفكير الفلسفي وفروعه وهي :

* الفلسفة الإسلامية (المشائية) ، يطلق على هذا الفرع من فروع المدارس الفلسفية الإسلامية اسم (الفلسفة المشائية أيضا) ، حيث أن الفلاسفة الإسلاميون الذين تأثروا بأفكار وفلسفة الفيلسوف اليوناني أرسطو ، يطلق عليهم كذلك الفلاسفة المشاؤون) ـ نسبة إلى الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو طاليس ، لأنه كان يلقي محاضرات وتعالمه الفلسفية على تلامذته وهو يسير ويتمشى على الطريق أحياناً ، ولذلك يطلق عليه كذلك الفيلسوف (المشائي) . [٢]

لقد انتقلت الفلسفة اليونانية بمباحثها وروافدها المختلفة إلى العالم الإسلامي على أثر ظهور وتنشيط حركات الترجمة والنقل للتراث الفلسفي اليوناني إلى اللغة العربية ، وكان للخلفاء العباسيين الأثر الكبير في ذلك منذ عصر ازدهار الحضارة والثقافة العربية والإسلامية ونشأت المكتبات في مختلف البلاد العربية والإسلامية في بغداد وغيرها ، وكانت مليئة بالمؤلفات والمخطوطات الفلسفية ، فعرف المسلمون فلسفة أرسطو ، وأفلاطون ، وسقراط ، والمدارس المتأخرة من رواقية وأبيقورية وفيثاغورية

١ـ للمزيد دكتور علي سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ١ صـ٤٨ .

٢ـ هذا التوضيح كان لزاماً علينا أن نشير إليه ـ حتى يتضح مفهومه للدارسين من الطلاب والباحثين ، كما لاحظناه من استغراب عند كثير منهم .

، فضلاً عن تراث الفلاسفة اليونان الطبيعيين الأوائل من طاليس ومدرسته حتى هيراقليطس وديموقريطس صاحب النظرية الذرية في الوجود ، وعن طريق ذلك عرف الفلاسفة الإسلاميون نظريات فلسفية تتعلق بالميتافيزيقا ، والطبيعة - ومصطلحات فلسفية كالجواهر ، والأعراض ، والذرة ، والجزء الذي لا يتجزأ ، والجوهر الفرد ، والكمون ، والطفرة وتصنيف الموجودات إلى أجناس وأنواع وأفراد ، وفكرة الحدود والماهيات والطبائع أو العناصر الأربعة المكونة للموجودات ، وتداخلها وقواها .. وهكذا .

وقد انغمس الفلاسفة الإسلاميون في دراسة مثل هذه المصطلحات والنظريات الفلسفية اليونانية وظهر مجموعة منهم بالمشرق العربي وكذلك بالمغرب وعبروا أصدق تعبير عن مدى استيعاب العقل العربي والإسلامي وتفهم مثل هذه النظريات والمصطلحات وهضمها ومحاولة تطويعها إلى الفكر الإسلامي بما يتلائم مع ثقافاتهم وحضاراتهم وعقائدهم ، ويضرب ذلك مثلاً قوياً على تمتع العقلية الإسلامية والعربية بالفهم وتقبل الآخر ، ومن أشهر هؤلاء الفلاسفة الإسلاميون أثراً في إثراء الحياة الفلسفية الإسلامية .

الكندي أبو يعقوب (٢٥٢) هـ ، وهو يلقب بفيلسوف العرب الأول وحاول أن يوازن بين الفكر الكلامي الأعتزالي وبين الفكر والنظريات الفلسفية المجردة في الوجود والطبيعة والميتافيزيقا ، ومهد هذا الطريق الفلسفي أمام الفلاسفة اللاحقين عليه - ثم جاء الفارابي (٣٣٩) هـ ويلقب بالمعلم الثاني ، فعبر الطريق الفلسفي وشرح مصطلحات ونظريات فلسفية يونانية للفلاسفة الآخرين ، ومن بعده ابن سينا (٨٢٨) هـ ، إذ تناول دراسة النظريات الفلسفية الأرسطية ، والأفلاطونية بالشرح والتعليق ومزج بين الفكر الفلسفي وبين الفكر الديني وكانت له شروح ودراسات في المنطق الذي اعتبره قانوناً عاماً يحافظ على الفكر والعقل من الوقوع في الخطأ .

وقد ظهرت وصاحبت تيارات الفلسفة الإسلامية - وكانت على نفس المنهج في التوفيق والتلفيق بين الآراء والنظريات الفلسفية والعناصر الأفلاطونية وأمشاج الفيثاغورية وبين الأفكار الدينية منها تيارات فلسفية ظهرت عند جماعة إخوان الصفاء فلاسفة الصوفية من الإشرافيين والباطنيين كالسهروردي (٥٨١) هـ ، وابن عربي (٦٣٨) هـ ، ثم جاء ابن رشد (٥٩٠) هـ ، فيلسوف المغرب العربي ، وقام بشرح كتب ونظريات أرسطو الفلسفية وأثر تأثيراً عريقاً بمحاولاته في الشرح والتحليل

الفلسفي بالإضافة إلى منهجه والتوفيق بين الفلسفة ، والدين في معظم الفلاسفة الأوروبيين ، وبصفة خاصة القديس توما الأكويني وابن ميمون .

وقد استخدم الفلاسفة الإسلاميون في الشرح والتوفيق بين النظريات الفلسفية والنصوص الدينية منهج التأويل ، الذي يعتبر أداة فعالة في هذا المجال ، وقد سبق ذلك كبار الفلاسفة اللاهوتيين في الفلسفة اليهودية (فيلون إسكندري (٥٠) م وفلاسفة مدرسة الإسكندرية القديمة كذلك .

وهو منهج يقوم على تأويل مصطلح ديني بمصطلح فلسفي ، أو شرح النصوص الدينية في ضوء النظريات والأفكار الفلسفية الارسطية ، أو الأفلاطونية أو الفيثاغورية أو الرواقية .. [1]

* علم الكلام - وهو الفرع الثاني - أو المدرسة الثانية في نطاق التفكير الفلسفي في الإسلام - ويطلق عليه كذلك علم التوحيد - أو علم أصول الدين ، لأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية ، والإسلامية بالأدلة العقلية ، وهذا يعني أن علماء الكلام قاموا بالدفاع عن أصول ومبادئ العقيدة والشريعة الإسلامية بالأدلة العقلية والمنطقية ضد هجمات أعداء الإسلام من الخارجين أو الطاعنين عليه ، سواء من جانب أصحاب الديانات الأخرى أو من بعض الفلاسفة والملاحدة الذين دأبوا على مهاجمة الإسلام ومحاولة القضاء عليه قديماً وفي العصر الحديث .

ومثل علم الكلام ومدارسه وفروعه المختلفة مجموعة من الشخصيات الهامة ضمن مجموعة من الطبقات أو الفرق المعروفة بالمتكلمين .

وهم : أهل السنة والجماعة ، ويمثلهم عبد الله بن سعيد بن كلاب (٢٤٥) ق ، والأمام أبو الحسن الأشعري (٣٣٩) ق ، وهو يمثل فرقة الأشاعرة ومنهم - الباقلاني ، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني ثم الأمام حجة الإسلام الغزالي وفخر الدين الرازي .. وهكذا .

ثم فرقة المعتزلة : ويمثلهم - وأصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف ، والجاحظ ، وإبراهيم بن سيار النظام صاحب نظريتي الكمون ، والطفرة ، والقاضي عبد الجبار المعتزلي .. وهكذا ويمثل علماء أهل السنة من المتكلمين أيضا .. أبو

١- دكتور محمد محمود أبو قحف - التفكير الفلسفي في الإسلام - صـ٨٦ ، صـ٨٧ ، ط الدار القومية للطباعة والنشر بطنطا - ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ .

منصور الماتريدي (٣٣٣) ق . وهو صاحب المدرسة الماتريدية وكان لهذه المدرسة السنية أثر كبير في نشر الإسلام والدفاع عنه في بلادها وراء النهر والمشرق العربي .

هذه هي أهم الإشارات عن فرق ومدارس وشخصيات علم الكلام في الفكر الإسلامي ، ولكن بقي أن نشير إلى لمحة سريعة عن بعض الأنماط الفلسفية وهي " أنه لا شك أن المتكلمين ورواد علم الكلام كانوا في وسط فلسفي ، وأمام هجمات فلسفية من أديان أخرى على الإسلام ، بالإضافة إلى عقائد فلسفية متعددة يونانية وفارسية وهندية في البلاد التي فتحها الإسلام ، فتأثر بعض علماء الكلام خاصة المعتزلة ببعض النظريات والمصطلحات الفلسفية فاستخدموا فكرتي الجواهر والأعر ، وكذلك أفكار مثل الكون ، والطفرة ، والجزء الذي لا يتجزأ ، وذلك للأستدلال على قدرة الله تعالى في الوجود وحدوث العالم بالإضافة إلى استخدامهم لمنهج التأويل العقلي المجازي والرمزي للنصوص القرآنية ، وخاصة المعتزلة منهم ، مما عرّضهم للنقد الشديد من جانب علماء السنة والسلف ، ولعل أهم موضوعات علم الكلام أو التوحيد ، وهو علم أصول الدين ، إثبات وحدة الله تعالى ووحدانيته ، والاستدلال على صفاته الذاتية - العلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام والسمع والبصر والوجود وصفاته تعالى العقلية - وهما صفات الأفعال : المعز المذل ، العزيز الحكيم ، القوي ، الكبير ، العظيم ، الخالق البارئ ، المصور ... الخ .

ثم الصفات الخيرية : التي أثبتها الله تعالى لنفسه تعالى بالنصوص القرآنية ويمكن تأويلها على المجاز العقلي واللغوي مثل قوله تعالى " الرحمن على العرش أستوي " سو، ة طه آية (٥) ، أي صفة الإستواء ، وغيرها كذلك من موضوعات ودراسات علم الكلام ، مسألة وجود العالم حادث أم قديم ، وصلة الله تعالى كخالق لهذا العالم ، ومسائل النبوات والوحي والمعجزات والأسباب والعلل والمعلولات بالإضافة إلى الفعل الإنساني ، وحرية الإرادة في اختيار العقل لتبرير التكاليف [1] .. وهكذا .

* النصوص الإسلامية : وهو الفرع الثالث من فروع ومدارس التفكير الفلسفي في الحضارة أو الثقافة الإسلامية ، والتصوف شبيه في دراساته ببعض الجوانب الفلسفية ، فالتصوف بحث في الميتافيزيقا من ناحية ، وفي الزهد والتقشف والبعد عن ملذات الدنيا والاتجاه إلى رحاب الحضرة الإلهية ابتغاء رضوان الله تعالى ، وطلباً

١- للمزيد - دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام جـ١ ط دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٧٣ م - كذلك دكتور علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ١ ، ط دار المعارف ١٩٨١ م .

للمعرفة القلبية بدلاً من الاعتماد على العقل وحده ، ويقوم في منهجه على سلوك أخلاقي من قبيل مجاهدة النفس الإنسانية ، فيسلك الصوفي في طريق مقامات الوصول إلى الله تعالى ، كالمجاهدة ، والصبر ، والشكر ، والرجاء ، والحب وهكذا ، حتى يصل الصوفي إلى الرضا الإلهي الكامل فيصير له أحوالاً أهمها حال الفناء ، أي فناء العبد في المعرفة الإلهية الكاملة وينقسم التصوف الإسلامي إلى قسمين : الأول : التصوف السني وهو يقوم على الزهد والعبادة الخالصة مستنداً إلى الكتاب والسنة والآثار النبوية وسيرة كبار الصحابة من الزاهدين والعابدين الذين لم يرجوا من حياتهم إلا مرضاة الله تعالى .

والقسم الثاني : هو التصوف الفلسفي : وهو الذي يمتزج بالنظريات الفلسفية المستمدة من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، والفيثاغورية والرواقية مع امشاج من تراث الحكمة عند الهنود والفرس خاصة نظرية الفناء أو النرفانا الهندية - وقد تعرض فلاسفة الصوفية كابن عربي ، وابن سبعين والحلاج والبسطامي . وعبد الكريم الجيلي والسهروردي وغيرهم الكثير من النقد والتحليل لآرائهم الفلسفية من جانب علماء السنة ، والسلف ، ومزجوا ببعض النظريات الفلسفية الصوفية - كنظرية الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، والحكيم المسألة وغير ذلك مما لا يتفق مع أصول العقيدة الإسلامية البسيطة الخالصة .

كذلك يشار إلى طريق التصوف بأنه يمثل علم السلوك الأخلاقي في الإسلام .[1]

- : علم أصول الفقه - وهو الفرع الرابع من فروع التفكير الفلسفي العملي في الإسلام ويمثله جملة الفقهاء أو الأصوليين - الذين وضعوا أصوله وصنفوا موضوعات هذا العلم الإسلامي ، وعرفوا هذا الفرع " بأنه إدراك القواعد التي نتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية [2] وبمعنى أخر : هو علم استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة الشرعية الكتاب

١- للمزيد من التفاصيل : أ- دكتور علي سامي النشار - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ٢ (التصوف) - ط دار المعارف ١٩٦٩م

ب - دكتور محمد محمود أبو قحف - النصوص الإسلامي خصائصه ومذاهبه ، ط المكتبة القومية الحديثة - طنطا - ١٩٩٢ م

جـ دكتور أبو الوفا التفتازاني - مدخل إلى التصوف الإسلامي ط دار الثقافة ١٩٦٤ م .

٢- دكتور علي سامي النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام - جـ١ ، صـ٤٨ .

والسنة ، ويقوم كذلك على الإجماع والرأي أو الاجتهاد والقياس ، وأهم موضوعات علم الفقه : تحديد الحلال والمحرمات والزواج ، والطلاق ، والمواريث ، والدين ، والأركان الشرعية في العبادات وهكذا ولعل أهم المذاهب الفقهية شيوعاً وعملاً في الأمة العربية الإسلامية حتى الآن : المذهب الفقهي - الحنفي نسبة للإمام إلى حنيفة النعمان ت عام (١٥٠) هـ ، والمذهب المالكي - نسبة للإمام مالك بن أنس ت عام (١٧٩) هـ ، والمذهب الشافعي ، نسبة للإمام محمد بن إدريس الشافعي ت عام (٢٠٤) هـ ، والمذهب الحنبلي نسبة للإمام أحمد بن حنبل ت عام (٢٤٢) هـ ، بالإضافة إلى بعض المذاهب الأخرى التي تتبع المذاهب الأصولية الإسلامية كالزيدية والجعفرية ، والظاهرية بالمغرب العربي .. وهكذا .

- علم الاجتماع وفلسفة السياسة والتاريخ والأخلاق - وهذه فروع أخرى تضاف إلى تاريخ وتطور التفكير الفلسفي الإسلامي والعربي ، ولهذه الفروع موضوعاتها ومناهجها وشخصياتها - - بدأ المسلمون بلا شك دراساتهم في هذه الفروع كعلماء أو فلاسفة للمناهج في الاجتماع والتاريخ والسياسة ، منهم المسعودي واليعقوبي ثم ابن جرير الطبري ، والغزالي ، وانتهوا إلى ابن خلدون والماوردي والمقريزي [1] وهكذا ، وصدرت عن هؤلاء دراسات عميقة عن الاجتماع الإنساني ، والسياسة والأخلاق والتاريخ ، أهمها : مقدمة ابن خلدون ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ، والخطط والآثار للمقريزي ، وفلسفة الأخلاق لابن مسكوية ، وإحياء علوم الدين للغزالي .

ثالثاً : التفكير الفلسفي والحضارة اليونانية (في عصريها الهليني والهللينستي) :

١- التاريخ الحضاري والثقافي :

ما زالت جمهرة من العلماء ينظرون إلى الشرق الأدنى القديم كمهد للحضارات وأن إنسان الشرق عرف في عصوره القديمة - الزراعة والصيد والرعي واستئناس الحيوان وصناعات مختلفة كالفخار وغزل ألياف النباتات مثل الكتان لعمل الملابس ونسج الأقمشة ، وتبع ذلك أيضاً استخدام المعادن كالنحاس والذهب ، وعلى ضفاف

١- المصدر السابق - صـ٤٨ وما بعدها ، كذلك دكتور محمد محمود أبو قحف التفكير الفلسفي في الإسلام (من المشرق إلى المغرب العربي) . صـ٩٠ .

النيل والرافدين قامت أقدم حضارات العالم ، فانتشرت هذه الحضارات وبهذه الصورة كذلك إلى الشرق الأقصى في الهند والصين ، ونحن نعلم أن استخدام الحجارة على نطاق واسع في العمارة ، وفنون النحت والتماثيل وغيرها قد تم في مصر ، وفيما يسمى بعصر الأهرامات أو الدولة القديمة عام (٢٧٧٨ - ٢٤٢٣) قبل الميلاد ، ق . م ، والهرم هو أقدم عمارة هندسية ضخمة من الحجر منذ حوالي ٤٧٥ ق . م ، ولعل معرفة المصريين القدماء - والسومريين كذلك بالخط الذي يعتمد على الصورة ، ونظرية الرمز التصويري للأفكار ، تمثل عمقاً حضارياً وثقافياً ، فانتشرت الحضارات من الشرق إلى طريقه في الشمال ، وعبرت البحر المتوسط إلى جزيرة كريت ، وجزر بحر إيجه واليونان عام ١٦٠٠ ق . م [١] .

وعلى ذلك فقد ظهرت وانتشرت حضارة أخرى تضاف إلى تلك الحضارات الشرقية القديمة ، والتي تعرف بالحضارة اليونانية ، وتسمىَ كذلك بالحضارة الهللينية Hellenism ، وإن كان لفظ الهللينية ليس من مفردات اللغة الإنجليزية ، فإن لفظ يوناني و " اليونان " أكثر شيوعاً ، وثباتاً في التعبير عن التاريخ الحضاري في هذه المنطقة ، الواقعة في أقصى جنوب شرق أوروبا وما زالت على الخريطة حتى اليوم ، تمثل دولة من الدول الحديثة والمعاصرة ولفظ (هللينية) يرجع إلى لفظ ، أو اسم بلد تسمى (هيلاسي) وهي منطقة واقعة على الحدود التي تفصل بين وسط اليونان وشماله ، وتحوي معبد إلهة الأرض ومعبد أبولو في دلفي - وتشمل الطريق الذي يصل بين وسط اليونان وشماله ثم قارة أوراسيا التي تمتد في شمال اليونان - والهللينيون بمعنى سكان (هيلاسي) ، فاكتسبت معناها الواسع الدال على مفهوم (أعضاء المجتمع الهلليني) ، فالهللينية Hellenism اسم جامع يشمل مجموعة الشعوب المحلية ، في هذه المنطقة [٢] .

كانت الهللينية - (اليونانية) ، حضارة خرجت إلى الوجود في أواخر عام ٢٠٠٠ ق . م ، واحتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ حتى القرن السابع من العصر المسيحي (الميلادي) ، وكان أول ظهور لها على جانبي البحر الإيجي ، وانتشرت من

١- دكتور - عبد الحميد زايد - متى وأين بدأت الحضارة (هل من الضروري إعادة النظر في تاريخ ما قبل التاريخ الأوروبي) - صـ٢٤ / ٦٥٠ ، صـ٢٥ / ٦٥١ ، صـ٢٦ / ٦٥٢ - بحث ملحق بكتاب مجلة عالم الفكر - (كتابات في الحضارة) العدد ٣ - ديسمبر ١٩٨٤ م .

٢- أرنولد توينبي - تاريخ الحضارة الهللينية - صـ١١ - ترجمة رمزي جرجس مراجعة دكتور صقر خفاجة ، ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

هناك إلى ما حول شواطئ البحر الأسود ، والبحر المتوسط ، ثم أتسع نطاقها براً فتوغلت صوب الشرق إلى أسيا الوسطى والهند ، وامتدت غرباً إلى شواطئ شمال إفريقيا وأوروبا المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي ، وبما في ذلك جزء من الجزيرة الإيطالية .[١]

وليس من شك في أن الرومان كانوا أعظم من أعتنق الحضارة الهللينية من الشعوب قاطبة ، سواء تلك التي كانت تتكلم اللغة اليونانية ، أو غيرها ، يبد أن الرومان كانوا من ضمن الشعوب المهتدين لهذه الحضارة من المتأخرين .[٢] وربما عرفت حضاراتهم في هذه الفترة المتأخرة باسم الحضارة الهللينستية ، إذ اختلطت ثقافة الرومان وحضاراتهم وامتزجت ببعض الحضارات والثقافات الشرقية - فلم تعد الهللينية الأولى - ثقافة خالصة ، بل تأثرت ببعض التيارات والأفكار والثقافات والديانات الشرقية[٣] فالهللينية تعبر عن الحضارة أو الثقافة اليونانية النقية الخالصة الأولى (عصر ما قبل المدارس المتأخرة - أرسطو طاليس وما قبله ، أما بعد فتح الإسكندر الأكبر لبلاد الشرق وامتزاج الثقافات فلم تعد الهللينية خالصة ، بل تزاوجت مع ثقافات الشرق - فأطلق عليها مؤرخوا الحضارات وعلماء الثقافات والباحثين في التراث الفلسفي اليوناني اسم الهللينستية ، أو الهللينية الرومانية - البيزنطية ..[٤]

* كان اليونان يعتقدون أنهم أصليون في جزورهم ، والحقيقة أنهم جاءوا من أسيا ، فهم أريون ، أو هنديون أوربيون ، كانوا أربع قبائل كبرى مختلفون في اللغة واللهجة - الأيوليون والدوريون في الشمال ، والأخيون والايونيون في الجنوب ، وقد تفرقوا واستوطنوا [illegible] كبير من المدن والبلدان في هذه المنطقة من أسيا الصغرى (تركيا الآن) ، وجنوب وغرب المنطقة الواقع من أسيا الصغرى ، منها جزيرة لسيوس وشاطئ الدردنيل ، إلى خليج أزمير ، ثم الموره وأيونيا ، ثم استوطنوا كذلك جزيرتي خيوس ، وساموس ، بالإضافة إلى أقوس وملطية ، ثم قسم أخر من الشاطئ

١- المصدر السابق - صـ٥ ، صـ٦ .

٢- المصدر السابق - صـ٩ .

٣- بشير أرنولد توينبي إلى تأثر وامتزاج الثقافة الهللينية بالثقافات الدينية والاجتماعية المصرية - وأوضح أسماء الإلهة والأرباب المصرية القديمة عند الهللينية اليونانية - نظرنا - الفكر التاريخي عند الإغريق - صـ ١٩٠ - صـ١٩٢ ط مكتبة الأنجلو ١٩٦٦ م .

٤- للمزيد من التفاصيل - دكتور عبد الرحمن بدوي - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (صـ٤ - صـ٥) - الهامش - ط دار القلم بيروت ١٩٨٤ م .

الأسيوي إلى جنوب أيونية ، ثم جزيرة كريت التي تذكر في الأساطير اليونانية باسم طروادة . [1]

وقد تألفت بعض هذه المدن والبلدان ـ وازدهرت حضاراتها وثقافاتهم ، وظهر بها الكثير من رواد التفكير الفلسفي ، وتأسس مدارس فلسفية لها أثرها في تاريخ الفلسفة اليونانية ، فذكر منها أثينا ، ومقدونيا ، وأسبرطه ، وأيونيا ، وأفوس ، وملطية ، وتراقيا ، وخلقيدونيا ، وجنوب إيطاليا .. وهكذا . [2]

هذه فكرة موجزة وسريعة عن التاريخ والنشأة والمكان ، وفيما يتعلق بالجانب الحضاري الثقافي ، فقد كانت هذه المدن والبلدان أو المستعمرات مستقلة في السياسة والإدارة ، لكنها كانت تؤلف عالماً واحداً هو العالم اليوناني ، تجمع بين أجزائه وحدة الجنس واللغة والدين ، فكانوا يعبدون آلهة واحدة متشابهة مثل (تزوس ـ أوزيس) يذهبون إلى هيكله الأكبر في أولمبية المدرة ، وكانوا يأتون دلفي يستلهمون وحي الإله أبولون ، ويقدمون له القرابين ، وكانت لهم أعيادهم في أزمنة محددة توقف فيها الحروب ، وتقام الألعاب الرياضية وكانت تقام أسواق الأدب والفن ، وينشد الشعراء ـ الشعر ، ويغني المغنون ، ويستمتعون بالموسيقى ، ويعرض المصورون والمثالون عروضهم ـ المسرحية ، والغنائية ، وكان المهاجرون من الشعوب الأخرى يشاركونهم ، وكان الاتصال المستمر بين اليونان وأصولهم الأولى الأسيوية أو الهندية الآرية ، وتلاقي الأجيال عبر القرون من العوامل التي أدت إلى تبادل الأفكار والسلع ، والثقافات الحضارية الأمر الذي أدى إلى ازدهار وإنضاج الحضارة اليونانية على النحو الذي جعلها علامة مميزة في تاريخ الحضارات ، وجدير بالذكر أن بعض المستعمرات اليونانية كانت تجاور الأمم الشرقية ومنها أيونيا مما جعل اليونان ينتفعون بعلومهم ، وأعانهم على اصطناع مدينتهم فأصبحت هذه البلاد مهد الثقافة اليونانية ، وفي هذه المدن والمستعمرات اليونانية نظمت القصائد الهوميرية [3] ومنها خرجت العلوم والفلسفة .

١ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ١ .

٢ـ المصدر السابق ـ صـ٢ .

٣ـ المصدر السابق ـ صـ٢ ، كلمة الهوميرية : نسبة إلى الشاعر والأديب اليوناني هوميروس ناظم ملحمتي الإلياذة والأوديسية ـ من أهم التراث الثقافي والفلسفي اليوناني في العصور الأولى ـ وتحويان المركبات الحضارية والثقافية للمجتمع اليوناني وقد اختلف الباحثون في الحضارة اليونانية حول هوميروس لدرجة أن

ولعل اللمحات الحضارية تستطيع أن تبلورها باختصار في أن المجتمع اليوناني القديم لم يكن مجتمعاً مغلقاً ، تنحصر قيمته الحضارية في المنطقة التي قام بها على قسم من الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط ، بل امتدت الآثار الحضارية اليونانية إلى البلدان المجاورة وتفاعلت حضارة اليونان مع حضارات تأثرت بها أسبق منها في مناطقه مثل الشرق الأدنى ، ومصر ووادي الرافدين ، وعندما وصلت حضارة المجتمع اليوناني إلى مراحل النضج انتشرت في حوض البحر المتوسط وما يجاوره من مناطق أخرى - وما زال التأثير الحضاري والفلسفي اليوناني قائماً حتى الآن ، وإذا كانت جوانب النشاط الحضاري اليوناني متعددة ، منها ما يمس الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو الفكرية أو الفنية والأدبية فإننا نستطيع أن نشير إلى ثلاثة جوانب هامة وأساسية تتصل بموضوع البحث وهما الجانب الفكري والفلسفي : فقد ازدهرت وأثرت الأفكار التي قدمها فلاسفة اليونان مثل سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو على التفكير الفلسفي القديم في المناطق التي تطل على البحر المتوسط بشواطئه الثلاثة الأوروبية ، والآسيوية ، والإفريقية ، كذلك شمل تأثير التفكير الفلسفي اليوناني قضايا الفكر المسيحي ، وفي الفترة الأولى لانتشار الديانة المسيحية وفي صراعها الفكري مع الفكر الوثني ، توصل الفكر المسيحي في ضوء ازدهار وتأثير الفكر الفلسفي اليوناني إلى قدر كبير من التأصيل والتفصيل والتنظيم وقد أمتد أثر الفكر الحضاري والثقافي الفلسفي اليوناني من العالم المسيحي في أوروبا من القرون الوسطى حتى العالم العربي والإسلامي ، وقد تأثر به كبار المفكرين والفلاسفة الإسلاميين بالمشرق أو الغرب العربي والإسلامي .

- أما الجانب الثاني : فهو الأدب اليوناني : وبخاصة الأدب المسرحي الذي وصل في المجتمع اليوناني إلى درجة كبيرة من النضج ، أصبح معها قالباً أدبياً قائماً بذاته له معالمه الواضحة والمحددة على يد عدد من الشعراء والمسرحيين مثل : أيسخليوس Aeschylos ، وسوفوكليس Sophakles وأرستو فانيس Arislophanes ، وكذلك الفيلسوف أرسطو طاليس ، الذي فتن هذا العالم ، بفكرة الفلسفي ، وأدبه الشعري المسرحي [1] وإذا أشرنا إلى أفلاطون ، فما لا

اعتبره البعض مجرد أسطورة لكن المتفق عليه أن هوميروس عاش فيما بين ١٢٠٠ أو٨٥٠ ق . م ، للمزيد نظرنا : أمين سلامة ، الإلياذة لهوميروس ، صـ ٢٣ ط دار الفكر العربي ١٩٧٧ م .

١- دكتور - لطفي عبد الوهاب - اليونان (مقدمة في التاريخ الحضاري) ، صـ١٧ صـ ١٨ - ط دار المعرفة الجامعية .

شك فيه ، يمثل قمة الأدب الفكري ، والفن البياني واللغوي ، والنسق الفلسفي في محاوراته المختلفة ، وتصويره الأدبي البديع لقضايا التفكير الفلسفي في مباحث الميتافيزيقا ـ وعالم المثل ، والوجود الطبيعي ، فضلاً عن القيم والأخلاق الإنسانية الرفيعة ، ما رأي بمسائل السياسة وتصور المجتمع المثالي الفاضل ، مصوراً الحكمة في أبدع صورها على لسان أستاذه سقراط [١] ناهيك بمجموعة الكتابات التاريخية عند الإغريق [٢].

- أما الجانب الثالث : في التركيب الحضاري عند اليونان ، يتعلق بمجال العلوم أيضا ويكفي في هذا الصدد أن نقول ، إن التطوير الذي قام به علماء اليونان في علوم الفلك والرياضيات بفروعها ، هو الذي مكن العلماء من قياس محيط الكرة الأرضية بدرجة كبيرة من الدقة لا تفترق إلا بكسر بسيط عن قياسها الصحيح الذي توصل إليه العلم في العصر الحديث ، كما أن التقدم الذي أحرزه اليونان في مجال الطب كان له أثره في المجامع الطبية في مدرسة الإسكندرية الفلسفية والعلمية قديماً ـ وما زال علماء الطب يأخذون على أنفسهم حتى الآن بما يسمى بقسم أبقراط أو ما يسمى (قسم هيبوكراتيس Hippakrates) ويعرف عند العرب قسم أبقراط ، نسبة للطبيب اليوناني الملقب بهذا الاسم (أبقراط) [٣]

وجدير بالذكر أن التراث الحضاري والثقافي اليوناني ، قد أستغل وانتشر في عدد من المدارس العلمية والفلسفية في ظل الامبراطورية الرومانية في العصر الهللينستي ـ من تاريخ هذه الثقافة حين بسطت سلطانها على البلاد المطلة على البحر المتوسط ، في أنطاكيا بسوريا ، والإسكندرية بمصر بصفة خاصة ، إذ تأسس عدد من المجامع العلمية ، والدراسات الفلسفية بالإسكندرية وبها امتزجت ثقافات الشرق بثقافات اليونان ، وكان للأفكار والنظريات الفلسفية من أفلاطونية وأرسطيو طاليسية ، وأفلاطونية محدثة ورواقية وفيثاغورية أثرها في اللاهوت المسيحي بالإسكندرية بالإضافة إلى ترجمة وتفسير نصوص التوراة في ضوء المصطلحات والنظريات الفلسفية اليونانية على يد فيلون السكندري (عام ٥٠ م) ، وما يسمى بالترجمة السبعينية كذلك ، ونقلت

١ـ يمكن الإطلاع على مجموعة من محاورات أفلاطون في هذا الصدد ، على سبيل المثال لا الحصر ـ محاورات ـ الجمهورية المادية ، فيداروس ، فيدون ، ومحاورات أخرى ـ منها السياسي ، والقوانين .. الخ .

٢ـ أرنولد توينبي (الفكر التاريخي عند الإغريق ـ (من هو مرإلي عصر هيراكليس) ترجمة ـ لمعي المطيعي مراجعة دكتور صقر خفاجة ـ ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦ م .

٣ـ دكتور ـ لطفي عبد الوهاب " اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري " ـ صـ١٩ .

علوم اليونان وتطورت بالإسكندرية وظهر العديد من علماء الفلك ، والرياضيات ، والطب والكيمياء وغيرها من العلوم الفلسفية .[١]

ولعل المقومات الحضارية في المجتمع اليوناني من جغرافية ، وكتابية وثقافية ، وسياسية وعسكرية واقتصادية تجارية وقوانين دستورية وفنون وآداب كانت علامات مميزة لمظاهر هذه الحضارة التي استمرت إلى ما يقرب من ألف وخمسمائة عام - حتى بداية الفتح العربي والإسلامي لأمبراطوريتي الروم والقدس في القرن السابع الميلادي ، وشملت هذه الحضارة العصرين الإغريقي اليوناني (الهلليني) ، والعصر الروماني والبيزنطي (الهللينستي) بالإضافة إلى العصر الإسكندري - الذي يشمل مدرسة الإسكندرية الفلسفية [٢].

٢- التفكير الفلسفي (الفلسفة اليونانية) : -

أ - فجر الثقافة اليونانية : -

كانت قيادة الفكر عند الأمة اليونانية منذ القرن العاشر ق . م ، في أيدي الشعر والشعراء ، وكانت السيادة فيه لهذا الخيال الرائع في الشعر ، فكانت الملاحم الشعرية تصور حياة المجتمع اليوناني ، وما يعتلج فيه تيارات فكرية وسياسية واقتصادية وأخلاقية فضلاً عن قصص وحياة الأبطال في المعارك الحربية والعسكرية ، وقد أجمع المؤرخون في تاريخ الحضارات والثقافات على أن الفضل في هذا التصوير للحياة الاجتماعية والثقافية اليونانية منذ فَجرَ التفكير الفلسفي يرجع إلى شخصيتين كبيرتين هما : هوميروس Hiomer وهزيود Hiesiod ، وذلك من خلال ملاحمهما الشعرية والأدبية الإلياذة [٣] والأوديسية لهوميروس ، والأعمال والأيام لهزيود .

١- للمزيد من التفاصيل : ماكس مايرهوف - من الإسكندرية إلى بغداد (بحث منشور ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) - صـ٣٧ ، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي ، ط دار التعليم بيروت ١٩٨٤ م . كذلك ، دكتور محمد علي ابو ريان - تاريخ الفلسفة اليونانية - جـ٢ (أرسطو والمدارس المتأخرة) ط دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨١ م .

٢- راجع دكتور : محمد محمود ابو قحف - مدرسة الإسكندرية الفلسفية - ط دار الوفاء بالإسكندرية - ٢٠٠٤ م كذلك دكتور لطفي عبد الوهاب - التاريخ اليوناني والروماني - ط وزارة التربية والتعليم - ١٩٨٨ م ./

٣- قام الأستاذ أمين سلامة بترجمة الإلياذة بأسلوب أدبي وفلسفي رائع ، مع تعليقات وتتبع الخطوات التاريخية لمراحل تطور الفكر اليوناني في عصر هوميروس ، راجع ، هوميروس ، الإلياذة - ترجمة ، أمين سلامة ، ط دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ م .

وإذا ما نظرنا إلى الإلياذة للنظر فيما تحتويه من جوانب فكرية وثقافية بالإضافة إلى الأوديسية أيضا نجد أن ما تحتويه هاتين الملحمتين يعبر عن عمل فكري وأدبي رائع ، وظلتا قروناً طويلة أساساً للتربية والتعليم اليوناني ، وقد يطلق عليهما (إنجيل اليونان) ونجد هوميروس يصور من خلال وصفه لحرب طروادة تلك المآسي الاجتماعية والنفسية والأخلاقية التي يعاني منها المجتمع اليوناني ، ويشير إلى أن كل ما يحدث في الوجود من أمور ليس نتيجة للصدفة العمياء ، بل يكون صادر عن طبيعة الأشياء ذاتها ، أي أن ثمت قانوناً وضرورة وراء وقوع الأحداث ، كذلك هناك وحدة بين الأشياء ، وأن الحوادث في هذا الوجود لها أسبابها ونتائجها ، وأنه يجب التسليم بوجود قوانين خلقية ، ومثل هذه الأفكار تعد كتمهيد لظهور الفلسفة والتفكير الفلسفي في نشأته الأولى عند اليونان .[1]

كذلك نجد متابعة فكرية عند هوميروس لتحليل فكرة الوجود الطبيعي ، أما الطبيعة ، فيمعن في تشخيص الليل ، والظلمات ، والموت ، والنوم والحب ، والشهوة ، ويؤله الأرض ويقول " أنها ولدت الجبال الشاهقة ، والسماء المزدانة بالنجوم ، وأن الأرض تزوجت من السماء كذلك فولدت اقيانوس المصدر الأول للأشياء وكذلك الأنهار ويصور الإلهة بأنهم مثل البشر كلهم في خلود دائم ، ينصرون من يتقرب إليهم ويخذلون الآخرين ، والإنسان مركب من نفس وجسد ، والجسد يتكون من ماء وتراب ينحل بعد الموت ، والنفس هواء لطيف ينطلق بعد الموت إلى مملكة الأموات ، وأن الآخرة قد يكون فيها ثواب ، أو عقاب نادراً ، كذلك يصور هميروس الحياة الأخلاقية في المجتمع اليوناني البدائي مشيراً إلى استمساكهم بدرجة من الشرف ، ويشيد بتحكيم العقل وقمع الشهوات ، وضبط اللسان ، ومقت الكذب ، ومراعاة العدالة ، بين الجميع لخير المجتمع ، ويشير إلى احترام الوالدين والثأر لهما إذ الزم الأمر ، وحسن اختيار الصديق ، والوفاء له ، واحترام الإلهة والقسم بهم ، والنزوع إلى حياة الترف وتقبل الجمال [2] . وهكذا نجد أن ما ورد من صور حسية للحياة الطبيعية والآلهة وغير ذلك إنما هي رموز إلى معاني ودلالات فكرية أما تصوير هزيود للحياة الطبيعية والاجتماعية اليونانية في كتاب الأعمال والأيام - والذي جاء بعد عصر هوميروس بنحو قرن أو قرنين من الزمان قبل الميلاد فيقسم بشيء من الفهم والفكر المجرد

١- دكتور محمد علي ابو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية) - جـ١ صـ ٣٦ صـ ٣٧ وما بعده ، ط دار النهضة العربية ١٩٧٩ م .

٢- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية ، صـ٣ ، صـ٤ .

والواضح فتكلم عن الدين والأخلاق بكثير من الاحترام والوفاء ، ويشير إلى أهمية العدالة التي يوفرها الإله بين البشر ، ويمقت الظلم والغدر ، ويشيد بالإنسان الصالح والحكيم ويؤكد على أن العقاب من جانب تزوس الإله أتى لا محالة ، فيذل الأقوياء ، ويؤكد كذلك على أن الحق قوة القوة ، والإنسانية فوق الحيوانية .. وهكذا .[١]

وأخيراً ما الذي نستطيع استخلاصه من هذه التمهيدات البسيطة عن فجر الثقافة اليونانية بالنسبة لهوميروس وملحمتيه الإلياذة والأوديسة ، هو أن هوميروس يعتبر بشير الثقافة اليونانية والأوربية والغربية منذ القدم ، وأن ما جاء بالملحمتين من تصور للحياة اليونانية برمتها كان بأسلوب أدبي رائع مليء بالخيال والأسطورة والفلكلوريات والأنغام السحرية والعواطف الأخلاقية ، والرمز إلى طبائع الأشياء والحوادث ، والقوانين التي تحكم هذا الوجود وكذلك التعاليم ، بالإضافة إلى توحيد اللغة اليونانية والإرشاد عن الآثار المشتركة بين الشعوب القديمة في العادات والتقاليد والأعراف ، والنواحي الجغرافية التي كان يجمعها من البحارة والمسافرين عبر المستعمرات اليونانية والفينيقية والإيجية ، كذلك المعلومات عن الطب والفنون والحرف الأخرى فمثلاً يشير إلى أنواع الحرف الطبية في الحروب ، وكيفية علاج المرضى والمصابين ، وأنواع الجروح ، وأعراض التشنج والإغماء ، وعلامات الموت ، وخروج الروح من الجسد ، والتمرينات الرياضية ، بالإضافة إلى المقومات الثقافية التي يمتاز بها الشعوب ، الأدبية والفنية والجمالية .[٢]

وجدير بالذكر أن بعض الديانات والأسرار كان لها رواج في الثقافة اليونانية منذ فجرها الأول ، وأهمها الأسرار " الأورفية " حيث تتحدث عن أسطورة تصور العلاقة بين الخير والشر في هذا العالم والصراع بينهما المستمر إلى أن ينتصر الخير في النهاية بما يشبه الأسطورة المصرية القديمة " إيزيس وأوزوريس "[٣] ومؤداها " أن تزوس كبير الآلهة وهب ابنه ديونيسيوس السلطان على العالم ، فغارت منه (هيرا) إله الشر ، وألبت عليه طائفة من الآلهة الأشرار هم الطيطان فكان ديونيسيوس يتهرب منهم ويستحيل في صور مختلفة ليردهم عنه ، إلى أن انقلب في صورة ثور ، فقتلوه وقطعوه وأكلوه ، غير أن الإله (منيرفا) استطاعت أن تخطف قلبه وبعثت من هذا القلب ديونيسيوس من جديد ، فصعق الطيطان (وهم آلهة الشر) ، فخرج البشر من

---

١ المصدر السابق ـ صـ ٤ ، ٥ .

٢ جورج سارتون ـ تاريخ العلم ـ ـ جـ ١ ـ صـ ٢٩٣ حتى صـ ٣٠٣ ـ ط دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٦ م .

٣ للمزيد : أدولف أرمان ـ ديانة مصر القديمة ـ صـ ١١٠ ، ١١٢ .

رمادهم ، وهم أصل عنصر الشر ، وخرج من دم ديونيسيوس مبدأ الخير ، والجسد بمثابة القبر للنفس ، وهو عدوها اللدود .[١]

ومما سبق يتضح لنا أن على الرغم من اختلاط الأسطورة بالخيال والواقع في صور الحياة الثقافية اليونانية الأولى ، إلا أنه كان يتخلل ذلك نوع من التطلع الفكري والوعي الثقافي بحقائق الأمور المختلفة ، والأمر الذي أسفر في القرون التالية ابتداءً من القرن السادس أو السابع ق . م ، عن ظهور مجموعة من كبار المفكرين والفلاسفة الذين يتناولون الأشياء والأمور في الحياة الطبيعية والعقلية والاجتماعية بالنظر العقلي المجرد ، والبحث في طبائع الأشياء المجردة ، من أجل الوصول على تفسير عقلي أو فلسفي عن حقائقها .

ب - الفلسفة الطبيعية : -

قامت الحركة الفلسفية عند اليونان الأوائل بفضل عقول مجموعة من المفكرين والعلماء الذين كانوا يشتغلون بالفكر والسياسة والعلم ، وكانت الفلسفة منذ عهدها الأول مرتبطة بالتفكير العلمي والعملي بالإضافة إلى البحث التجريبي ، وكانت الفلسفة بذلك تضم جميع العلوم - واعتبرها اليونان هي أم العلوم ، ويلاحظ أن الفلاسفة اهتموا بالظواهر الطبيعية أولاً قبل أن يبحثوا في تفسير أدوات الإدراك لهذه الظواهر ، ثم بعد ذلك توالى البحث في أدوات الإدراك الإنساني ومشكلة المعرفة .[٢]

وقد تساءل هؤلاء المفكرون والعلماء عن حقيقة المبدأ الأول للأشياء أو ما هو جوهر الأشياء الطبيعية ، وبذلك بدأ الفكر الفلسفي عند اليونان بالنظر إلى الطبيعة[٣] . وتأمل مبادئها وجوهرها ، ومن ثم العلة في وجود وتكوين الأشياء والطبيعة ، كذلك سوف نلاحظ أن طريقتهم في البحث كانت تسير مرتبطة بالواقع الطبيعي ، فربطوا بين التأمل والنظر العقلي ، والبحث العلمي والعملي التجريبي ، وهو ما يعرف عند الباحثين المعاصرين بوحدة اللوغوس Logos ، والبراكسيس Praxis أو النظر والفكر والعمل ، لذلك رأى الباحثون في الدراسات الفلسفية الطبيعية اليونانية أن منهج التفكير

---

١ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٦ ، ٧ .

٢ للمزيد من الدراسة : المصدر السابق - صـ ١٠ ، ١١ ، كذلك احمد أمين ، زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ، صـ ١٨ ، ١٩ وما بعدها ، كذلك ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ ١ - صـ ٣٤٧ وما بعدها ، جورج سارتون - تاريخ العلم - جـ ١ - صـ ٣٦٠ وما بعدها .

٣ دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي ت جـ ١ (الفلسفة اليونانية) - صـ ٥٥ .

العلمـي واحـترام الـتجربة والتطبـيق لـم يكـن بعـيداً عـن الـيونان مـنذ فجـر فلسـفتهم الطبيعية . (١)

ولعل أهم من يمثل الاتجاه الفلسفي الطبيعي عند اليونان مجموعة من الفلاسفة يمثلون عدة مدارس فلسفية ، كالمدرسة الأيونية ، والمدرسة الملطية ، والمدرسة الإيلية ، والفيثاغورية وغيرها ، وهم علـى التوالـي : طاليس ، وأنكسمندريس ، وأنكسمانس ، ثم هيراقليطس ، ثم بارمنيدس ، وأنباذوقليس ، ثم ديموقريطس ، واصحاب المدرسة الرياضية فيثاغورس .

* : طالـيس (٦٢٤ ـ ٥٤٦) ق . م : هـو أحـد الحكمـاء السـبعة ، انفرد بالعناية بـالعلم ن قبل السياسـة والأخـلاق ، تبحر فـي العلـوم ، جـال فـي أنحـاء الشـرق ، وتأثر بحكمـة الشرق وفلسفته ، وعلومه ، وجاء إلى مصر فتعلم علم المساحة من المصريين ، اشتغل بقياس فيضانات النيل ، وضع دراسة لقياس ارتفاع الأهرامات وقال في نظريته " إن ظـل الشـيء يساوي ارتفاعه في وقت من النهار ، وظل الأهرام في ذلك الوقت هو يسـاوي مقدار ارتفاعه ، كمـا أن النسبة تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاعه في أي وقت " (٢).

أمـا أثـره الفكـري الفلسـفي الطبيعـي فـيدور حـول البحـث عـن أصـل الاشـياء وجوهرها وعلتها ، فقال أن المـاء هـي المـادة الأولى والجوهر الأوحد الذي تتكون منه كل الأشياء وتحيا بـه ، وهذا القول يشبه أو ترديد لكثير مـن القوال والملاحظـات فـي التراث الفلسفي الشرقي ، فقد جاء في التوراة " في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خالية ، وعلـى وجـه القمر ظـلام ، وروح الله يرف علـى وجـه المـاء " وجـاء فـي قصـة مصرية قديمة ايضاً " في البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كـان آتون وحده الإلـه الأول صـانع الآلهـة والبشر والأشياء " وقد دعم طاليس نظريته هذه فقـال " أن النبات والإنسان والحيوان يغتذوا بالرطوبة ، ومبدأ الرطوبة هو الماء ، فمـا مـنه يغتذي الشـيء فهـو يـتكون مـنه بالضـرورة ، كمـا أن الجراثيم الحية تولـد مـن الـرطوبة ، ومـا مـنه يولـد الشـيء فهـو مكـون مـنه أيضـاً إن الـتراب يـتكون مـن المـاء ويضـفي عليه شيئاً فشيئاً ، كمـا يشـاهد فـي الدلتا المصـرية ، حيث يتراكم الطمي ، فما ينطـبق علـى الأحـوال الجزئية ينطـبق علـى الأرض بالإجمـال ، فـالأرض خرجـت مـن

١ دكتورة ـ أميرة حلمي مطر ـ الفلسفة اليونانية ـ صـ ٧ وما بعدها . ط دار الثقافة ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ م .
٢ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ ١٢ .

الماء ، وصارت طافية في هذا المحيط اللامتناهي ، فالماء اصل الأشياء ، وله أقوال أخرى منها قوله : " إن العالم حافل بالآلة ، والنفوس ، وكل فعل إنما هو من النفس ، فتتكون المادة الحية التي يكون الماء هو عنصرها الأصلي . [1]

* : **أنكسمندريس** : (٦١٠ ـ ٥٤٧) : له جهود علمية ، ويذكر أنه اخترع المزولة ، وصنع كرة للأرض ، لكن أهم ما يعبر عن فلسفته الطبيعية أنه رفض مبدأ طاليس في القول أن الماء أصل الموجودات ، وقال : أن مادة الوجود لا متناهية من حيث الكم ، والكيف ، أي المادة الأولى للوجود غير محددة من حيث الكم ، وغير متعينة من حيث الكيف ، فالمادة الأولى مزيج من الأضداد جميعاً : من الحار والبارد والرطب واليابس ، وأن الحركة هي التي تفضل بين أجزاء المادة وهي التي تجمع بينها أيضاً ، بمقادير متفاوتة حتى تألفت الموجودات بالاجتماع ، أو فسدت بالانفصال ، وأول انفصال كان للحار والبارد فتصاعد البخار بفعل الحار ، وكان من هذا البخار الهواء ، أما الراسب فقد تصلب أو يبس بالتدريج ، فكان منه البحر والأرض ، والأرض جسم أسطواني ، لا تقوم على شيء لأنها معلقة وسط السماء ، متوازنة الارتفاع والعرض ، ثابتة فيما بينها وبين الأجرام الأخرى .. والأحياء تولد من الرطوبة بعد التبخر ، أي من المزيج التراب والماء والهواء ، والإنسان متحرر من اصل حيوانات مائية مختلفة عنه في النوع ، حملته في بطنها زمناً طويلاً إلى أن تمت قواه ، وتم تكوينه حتى استطاع أن يقف على اليابسة ويحفظ توازنه على الأرض ، فالتطور قانون عام عند أنكسمندريس ، غذ تخرج الأشياء من مبدأ اللامتناهي ثم تنحل وتعود إليه ويتكرر هذا الدور باستمرار ، وعلى ذلك فإن إنكسمندريس يقوم بتفسير تكوين الأشياء تفسيراً آلياً دون الإفصاح عن علة فاعلة في الوجود وبدون ـ غائية حقيقية في هذا الوجود ، فمجرد اجتماع عناصر مادية أو افتراقها بتأثير الحركة ، تتكون الأشياء أو تفسر .

* **أنكسمانس** : (٥٨٨ ـ ٥٢٤) ق . م : كان تلميذاً لأستاذه أنكسمندريس إلا أنه خالفه في المبدأ الأول للوجود وجوهره وعلته ، فقال بمبدأ مخالف اللامتناهي وقال : أن المبدأ الأول أو الشيء الوحيد للوجود شيء محسوس متجانس وهو (الهواء) إلا أن الهواء لا متناهي ، يحيط بالعالم كله ويحمل الأرض وهذا المبدأ ألطف من الماء ، وأكثر حركة وأوسع انتشاراً ، والهواء علة وحدة النفس والهواء هو نفس العالم وعلة

---

[1] المصدر السابق ـ صـ ١٣ ، ١٤ .

وحدته ، والموجودات تحدث عن الهواء عن طريق التكاثف والتخلخل من أعلى إلى أسفل وهكذا ، فينتج عن هذا النار وما ينتج من الظواهر الجوية النارية والكواكب ن والتكاثف ينتج الرياح والسحاب والمطر ، وتكاثف الماء ينتج الأرض ، وبتأثير الحركة ينتج التكاثف والتخلخل فتحدث الأشياء بأنواعها وهذا أيضا تفسير آلي للوجود ، لا يشير إلى علة فاعلة غائية او عاقلة .[1]

* هيراقليطس : (٥٤٠ - ٤٧٥) ق . م : فيلسوف طبيعي من بلدة أفسوس ، ومن أسرة أرستقراطية ، زاهد في كل الحياة ، وتوفر على التفكير ، احتقر عامة الشعب وسخر من معتقداتهم الدينية وأساطيرهم ، كان يحتقر العلوم الجزئية ويعتبر العلم الجدير به هو : التفكير العميق في المعاني الكلية ، ويؤثر عنه كثرة الرمز لمعاني الأشياء ، كان جاهلاً بكثير من المذاهب والعلوم الطبيعية ، إلا أنه جاء بأفكار جديدة في مجال التفكير الفلسفي الطبيعي منها قوله : " أن الأشياء في تغير متصل ، وأن التغير والصيرورة هما سمة الوجود والأشياء باستمرار وقال قولته المشهورة : إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين فإن مياهاً جديدة تجري من حولك دائماً وأبداً "[2] ، وقال أن النار أصل الموجودات والحركة في العالم ، ومنها وإليها ترجع الأشياء ، إن التغير صراع بين الأضداد ليحل بعضها محل بعض والشقاق أبو الأشياء ، اما الاستقرار والصمت فهو الموت ، والفناء والعدم ، فالتغير الذي تحدثه النار في الموجودات من الضد إلى الضد لولا المرض لما اشتهينا الصحة ، لولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الخير لما كان الشر ، الموجود موت يتلاشى ، والموت وجود يزول ، كذلك الشر خير يزول ، والخير شر يتلاشى ، فالخير والشر والكون والفساد أمور تتلازم وتنسجم في نظام العالم العام ، ولا يمكن تعيين خصائص ثابتة للأشياء فماء البحر أنقى وأكدر ماء ، يشربه السمك ، ولا يستسيغه الإنسان ، فهو نافع للسمك ، بينما يضر للإنسان ، ونحن موجودون وغير موجودين ، من حيث أن الفناء يدب فينا في كل لحظة ، فكل شيء هو بكذا وليس بكذا ، هو موجود وغير موجود .

فكرة هيراقليطس عن " أن النار أصل الموجودات) ليست هي النار الحسية ، بل نار إلهية لطيفة اثيرية ، نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية هي حياة العالم ، وقانونه الأزلي - اي هي اللاغوس Logas أي عقل الوجود بأكمله .. وفي هذا ما يشير على

---

١ المصدر السابق - ص ١٦ .

٢ دكتور عبد الغفار مكاوي - مدرسة الحكمة (هيراقليطس) - ص ٢١ - ط دار الثقافة - ١٩٦٧ م .

تمثل فكرة ان النار عنده تمثل الإله في الكون ، وهذا الإله نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلام ، فرقة وقلة ، يتخذ صوراً مختلفة كالنار ، أما النفس فهي بخار حار ، لأن الحرارة ضرورة للكائن الحي ، والنفس قبس من النار الإلهية ، تدير الجسم كما تدير النار وجود هذا العالم ، ويجب علينا أن نعرف القانون الكلي للعالم - أي اللوجوس عقل الكل ، والنار بها بداية الوجود ، وتحدث الانسجام الباطن للوجود والموجودات ومصدر التجانس والتوافق أو التفرق ونهاية العالم . [١]

فالكل هو الواحد ، والواحد هو الكل ، هكذا يعبر هيراقليطس عن فلسفته الوجودية والطبيعية ، الواحد هو الكل تعبير عن طبيعة اللوجوس الذي يجمع الأضداد المتفرقة في ذاته ، كما يجمع الليل والنهار والصيف والخريف والحرب والسلام ، ونستطيع أن نقول كذلك أن الكل هو الواحد لأن الكل يصدر عن الواحد كما ان الواحد يصدر عن الكل ، فكلاهما مرتبط بالآخر في تجانس وانسجام مستمر . فهذه علاقة ديالكتيكية اتفاق واختلاف في آن واحد في إطار علاقة متوترة . [٢]

- **أنباذوقليس** : (٤٩٠ - ٤٧٠) ق . م ، : حدث تطور فكري وفلسفي في دراسة الطبيعة عند بعض فلاسفة اليونان في هذه العصور التالية ، إذ تحول الفكر من تصور المبدأ الأول والوحيد للوجود والمكون للموجودات واستحالة عناصرها منه إلى القول ، بأن أصل الأشياء كثيرة حقيقية ، وأنه لا يوجد تحول من مادة إلى أخرى ، وإنما الأشياء والطبيعة تاليفات مختلفة من أصول ثابتة ، ومن هؤلاء الفلاسفة " أنباذوقليس " أشتهر هذا الفيلسوف بالطب والفلسفة والشعر والخطابة ، كان قوي العاطفة الدينية لدرجة إدعاء النبوة - أو الحكمة الإلهية ، يؤثر عنه الصلاح ، والدعوة والإرشاد للناس ، وكشف الغيب ، وكان يدعوا إلى الديمقراطية وإقرار العدالة - ومن أهم آرائه الفلسفية أنه وضع التراب كأصل للموجودات ، بالإضافة إلى الماء والهواء والنار ، لكنه جعل لكل عنصر طبيعي كيفية خاصة به - لا يستحيل إلى غيره ، فالحار للنار والبرودة للهواء ، والرطوبة للماء ، والصلابة أو اليبوسة للتراب - فلا تحول في هذه العناصر ولا يكتسب بعضها صفات الأخر ، لكن بانضمام هذه العناصر بكيفياتها إلى بعض تتكون الأشياء ، وبانفصالها تفسد الأشياء ، وتجتمع العناصر أو تنفصل بفعل

---

١ المصدر السابق - صـ ١٧ ، ١٨ . كذلك دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفلسفة - جـ ١ - (الفلسفة اليونانية) صـ ٨٠ ، ٨١ .

٢ دكتور - عبد الغفار مكاوي - مدرسة الحكمة - صـ ٢٥ . كذلك جورج سارتون - تاريخ العلم - صـ ٣٩ ، ٤٠ .

قوتين كبيرتين هما : المحبة التي تجمع العناصر المتشابهة لتكون الأشياء ، والكراهية التي تفصل بينها ، وتتغلب المحبة حيناً ، بينما تسود الكراهية أحياناً أخرى ، ويدور العالم كله في هذا الفلك باستمرار وفي أدوار متتابعة ، فتسود المحبة مرة يكون الوجود والحياة ، أو تسود الكراهية فيحدث الفساد والفناء أحياناً أخرى وهكذا وينسحب هذا التصور عند أنباذوقليس في تكوين وعلل المكونات في الموجودات على الإلهة والنفوس في هذا العالم ، ثم يفسر الإحساس في الحيوانات وفي الإنسان بأنه تقابل الأشياء وإدراك الشبيه للشبيه ، وعلى ذلك فإن الحياة عنده تعلل بأسباب آلية ، وتأثيرات البيئة ، باجتماع العناصر أو افتراقها بناءً على تأثيرات وفاعلية عنصري المحبة والكراهية في الوجود .

- **ديموقريطس** ، (٤٧٠ - ٣٦١) ق . م ، من كبار الفلاسفة الطبيعيين اليونان تتلمذ عليه فيلسوف أخر شاركه في تفكيره ومبادئه الفلسفية يسمى لوقيبوس ، أهتم ديموقريطس بأصناف العلوم والفنون والأخلاق والطبيعة والنفس والطب والنبات والحيوان والرياضيات والفلك والموسقى والجغرافيا إلا أنه لم يبق من علومه إلا شرزمات قليلة تستنبط منها آرائه الفلسفية - وهي أنه كان يؤمن بالنبات وعدم التغير المستمر في باطن وجوهر الأشياء ، ويفسر حركة الأشياء المركبة ، وكيف تأتي إلى الوجود وكيف يبطل وجودها ، ولما كان ديموقريطس هو صاحب النظرية الذرية في تفسير الوجود الطبيعي والنفس ، فإنه يعتبر أول الفلاسفة الذين أقاموا تفسيرهم لطبيعة الوجود والموجودات بناءً على نظرية الذرة ، أو الجوهر الفرد الذي يعرف بالجزء الذي لا يتجزأ ، يقول " أن الملاء والخلاء معناها المكونان الأساسيان للأشياء ، وينقسم الملاء على أجزاء لا حصر لها ويسميها بالذرات ، أو الأجسام الكيفية (وهي جواهر) لا تستطيع رؤية كل منها على انفراد لصغر حجمها ، ويفصل بين هذه الذرات فجوات من الخلاء ، ولا تقبل كل ذرة من الذرات الإنقسام لأنها لا تحتوي على خلاء في تكوينها الداخلي ، وهذه الذرات ليس لها بداية ولا نهاية لوجودها وهي متشابهة في طبيعتها ولكنها تختلف فيما بينها من حيث الشكل والحجم ، وتتغير في الكم أو الحجم دون التغير في الكيف [1] لأن لكل ذرة ، جوهرها وكيفيتها

١- دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي جـ١ (الفلسفة اليونانية) . ص-١٠٦ .

الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها ، أما الحركة فيفسرها ديموقريطس فتحدث في الذرات نفسها دون محرك من الخارج فالذرات في حركة دائرية مستمرة ترجع إلى أشكالها وأحجامها فحسب وبفضل الحركة تجتمع الذرات فتتلاقى أو تفترق فيحدث بتلاقيها أو بإفتراقها تكون الأشياء أو فسادها ، وقال أيضا أن الذرات التي تكون الموجودات قديمة أزلية ، حيث أن الوجود لا يخرج عن اللاوجود ، كما أن الوجود لا ينتهي إلى اللاوجود ، لأن الوجود ملاء متصل ، وغير منفصل ، وربما يشير ديموقريطس إلى الاستدلال على نظرية الذرية ومكونات الأشياء إلى التجربة ، فالتجربة تدل على وجود ذرات مادية غاية في الدقة والصغر كالتي تتطاير في أشعة الشمس ، وكالذرات المكونة التي تذوب في الماء ، والذرات الرائحية التي تتطاير في الهواء ونشمها ، كذلك دلت التجربة أن اللبن والخشب يرشح منهما الزيت والماء ، كما أن الضوء يخترق الأجسام الشفافة ، والحرارة تتخلل الأجسام ، وقالب الطوب يمتص الماء كذلك يشير إلى تكون النفس من أدق الجواهر الذرية والطفها وهي ذرات مستديرة لطيفة تنتشر في الهواء وتداخل الأجسام ، وتتجدد بالتنفس في كل وقت ، كذلك يذهب إلى تركيب الإله من هذه الجواهر الذرية المادية أيضا [1]

- ظهر مجموعة أخرى من فلاسفة الطبيعة اليونان قالوا بآراء تعد من فطنة العقل اليوناني في باكورته الأولى مثل أنكساغوراس (٥٠٠ ـ ٤٠٨) ق . م ، الذي يقول " أن الأشياء متباينة في الحقيقة كما تبدوا لنا ، إلا أن قسمة الأجسام تنتهي دائماً إلى أجزاء متجانسة للكل ، فالعظم إلى العظم ، واللحم إلى اللحم والخشب إلى الخشب ، فلا تلاشى القسمة طبيعة الشيء المقسم .
- ثم ظهر فيلسوف أخر يقول بمبدأ الثبات وعدم التغير وهو بارمنيدس (٥٤٠) ق.م ، فأمن بوحدة الوجود وقال قولته المشهورة " الوجود موجود واللاوجود غير موجود " وعلى ذلك فإن المعرفة عنده نوعان ، عقلية وهي ثابتة كاملة تستمد من الوجود القائم بالفعل ولولا الوجود لما كان هناك فكر ، ومعرفة ظنية تقوم على ظواهر الحواس ، وهي متغيرة

١ـ المصدر السابق ـ صـ١٠٧ ، صـ١٠٨ ، كذلك يوسف كرم تاريخ الفلسفة اليونانية ، صـ٣٩ ـ صـ٤٠ .

وعلى هذا المبدأ تم تأسيس معرفة كاملة أو علم كامل على ما هو غير موجود . [1]

وعلى هذا المبدأ تم تأسيس ما يسمى بقوانين الفكر الأساسية في المنطق ، وهي قانون الهوية الذاتية (أن الشيء هو هو) وقانون عدم التناقض (أي عدم الجمع بين الوجود وغير الموجود في وقت واحد وفي مكان واحد) ، وقانون الثالث المرفوع (وهو ما ليس ثمة وسط بين الموجود وعدم الموجود فإما أن يكون الشيء موجود أو غير موجود ولا ثالث بينهما) وكانت النظرة الفلسفية في الوجود عند بارمنيدس فاتحة جديدة في تطور التفكير الفلسفي عند اليونان ظهرت أثار ذلك في فلسفة المفكرين في العصور التالية عند سقراط ، وأفلاطون وأرسطو ، ووجهت الأنظار الفلسفية بعد هذا العصر إلى دراسة الوجود الإنساني والأخلاق والحياة الاجتماعية والسياسية بدلاً من التركيز فقط على الوجود الطبيعي من قبل .

- أما الفلسفة الفيثاغورية Phythagarion philos ، فتنتسب إلى مؤسسها الحقيقي فيثاغورث Phythagaras ، (٥٧٢ - ٤٩٧) ق . م ، وهو شخصية فلسفية جديدة بالنظر ، نشأ في جزيرة ساموس ثم هاجر إلى كروتونا Crotona في جنوبي إيطاليا ، ويقال أنه زار مصر ، وطوف ببلاد الشرق ، وتأثر بعلوم حكماء الشرق والمصريين ، وحكمتهم ، وهو أول من قال بلفظ " الفلسفة " حيث كان يقول عن نفسه أنه ليس حكيماً لأن الحكمة لا تضاف لغير الآلهة ، بل فيلسوفاً أي محباً للحكمة ، وأسس المدرسة الفيثاغورية ذات الاهداف الدينية والعلمية ، وأمتازت فلسفته بالبساطة والنظام في اتجاهها الميتافيزيقي الممزوج بالعلوم الرياضية ، وإذا كانت الفيثاغورية قد مرت بمراحل متعددة أولها الفيثاغورية المتأثرة بتعاليم فيثاغورث مؤسسها الأول بعد الميلاد ، فإنه لا يعنينا في هذا المقام إلا الحديث عن الفيثاغورية بصفة عامة المتأثرة بتعاليم فيثاغورث مؤسسها الأول ، ومن اهم تعاليمها ، أن الروح الإلهية هي القوة الفكرية لمعرفة الحقيقة الثابتة فالروح هي الآلهة ، وأن الجسم

١- للمزيد في ذلك : المصدر السابق - صـ٢٨ ، صـ٢٩ ، كذلك دكتور عبد الغفار مكاوي ، مدرسة الحكمة - صـ٢٠ ، جورج سارتون تاريخ العلم ، جـ٢ - صـ٤٥ ، صـ٤٦ ، كذلك دكتور محمد علي أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفي - الفلسفة اليونانية - جـ١ - صـ٨٨ .

سجين لها ، وأنها غير فانية ، وقد أثر ذلك فيَ فلسفة أفلاطون فيما بعد بالإشارة إلى فكرة الروح اللانهائية ، كذلك دخل فيثاغورث عناصر جديدة في التفكير الفلسفي وهو التفرقة بين المادة والصورة ، وأدخل عنصراً أهر في تفسير الكون وهو العنصر الرياضي ، فكان أول من طور هذا العلم معتقداً أن المبدأ الرياضي هو مفتاح كل شيء في الوجود ، لذلك قال " أن العالم أعداد وأنغام " - ولا تفسر طبيعة الأشياء أو الموجودات إلا بهذا المبدأ ، لا بالماء ولا بالهواء ولا بالنار ولا غير ذلك وقد تطورت فكرة العدالة حتى الفيثاغورية وأدت إلى قوانين ثابتة بهذه الخصوص ، كما أن تفسير العلاقة بين شيئين يتم عن طريق النسبة العددية ، وكالائتلاف بين الأنغام الموسيقية التي تعتمد على العدد بعنصريه الفردي والزوجي ، وقد كان فيثاغورث فيلسوفاً رياضياً وموسيقياً ووصفت فلسفته أنها فلسفة " الأعداد والأنغام " وتقوم هذه الفلسفة على التوحيد بين عالم الموجودات وعالم الأعداد ، فالأعداد مقدار أو شكل لا يرمز إليها بل تصور بنقط وترتيب بشكل هندسي ، فمثلاً الواحد = نقطة ، والأثنان يساوي = خط ، والثلاثة = مثلث ، والأربعة = مربع ، وهكذا ، تصف الأعداد بالأشكال ، كالمربع والمستطيل ، وترتب على ذلك ولهذا أصبح تفسيرهم للموجودات العقلية والحسية عن طريق العددية والرمزية ، فمثلاً يرمزون إلى العقل - بالواحد ، لأنه ثابت ، وللظن بالاثنين ، لأنه تردد بين طرفين ، والوقت (الزمن) ، بالسبعة لأنه يقابل أيام الأسبوع السبعة ، وظهرت تفسيرات أخرى بناء على نظرية الأعداد الرياضية في تفسير الموجودات منها " أنه من الأعداد صدرت النقاط ، ومن النقاط الخطوط ، ومن الخطوط المسطحات ، ومن المسطحات المجسمات ، ومن المجسمات الأجسام المحسوسة ، وعناصرها الأربعة ، وهي الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ، ومن حركاتها تكون العالم الحسي ذات الشكل الكروي في مركزه ، كما أن نظرية العدد الفيثاغورية تبين أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى هي آلهة وما لها من حرارة تنبعث منها تكون هي علة الحياة ، والقمر يستمد نوره من الشمس ، والبشر يقتربون من الآلهة لأنهم يشاركونهم في الحرارة - الحياة وللعالم إذن تتوالى رعاية الآلهة له

، ومن ثم فإن له قدر يسيره كذلك يفسر الفيثاغورية نظرية الائتلاف الموسيقي الذي مؤداة أن قوة الأصوات ثابتة لطول الموجات الصوتية ، وأن اختلاف الأنغام الموسيقية الصادرة عن أوتار القيثارة لا ترجع إلى اختلاف المادة المصنوعة منها تلك الأوتار ، ولكن ترجع إلى اختلاف طول الأوتار [1] ويمكن أن نستخلص مما سبق أن الفلسفة الفيثاغورية ، تعتبر تياراً جديداً ومتطوراً في تاريخ الفلسفة اليونانية ، حيث ادخلت عناصر فكرية جديدة ، أهمها نظر الأعداد الرياضية ، والائتلاف بين الأنغام والتفرقة بين الصورة والمادة ، والجسم والروح ، وأنه لا يمكن تفسير الوجود والموجودات على نمط مادي فقط ، بل الروح والعقل ركيزتان في هذا المجال .

- ننتقل إلى المحطة الأخيرة في تطور الفلسفة الطبيعية عند أنكساغوراس Anaxagaras فقد أحدث تطوراً في الفلسفة اليونانية أدت إلى ظهور تيارات فلسفية جديدة تتناول دراسة الإنسان والحياة الفردية والاجتماعية بدلاً من الوقوف عند تفسير الكون والوجود فقط فقدم مذهبه الذي يقوم على " أن الوجود له عقل يدير العالم " كما أن هناك تناقض بين المادة الجسمانية والعقل غير الجسماني ، فإن الوجود قائم على تناقض ضمني بين الطبيعة والإنسان ، لذلك فإن المشكلة المطروحة فيما بعد لا تقف عند مشكلة بحث الوجود الطبيعي فقط ، بل يجب أن نتطرق إلى مشكلة وضع الإنسان في الكون [2].

وبهذه الأقوال والمبادئ ، فقد أدى للإيذان بظهور فكر جديد يهتم بالحياة الفردية والإنسانية - وهو ما يسمى بعصر الفلسفة الإنسانية - السوفسطائيون وسقراط ، والذي تحول الفكر من النظر في الوجود والطبيعة إلى النظر في الإنسان وعلاقته بالموجود والكون ، وهبطت الفلسفة بذلك من السماء إلى الأرض مؤذنة بفكر فلسفي جديد .

١- للمزيد في ذلك : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ٢٢ وما بعدها ، دكتورة نوال الصايغ ، المرجع في الفكر الفلسفي - صـ٤٣ ، صـ٤٤ - ط دار الفكر العربي - ١٩٨٢ م .

٢- لا نريد الاسترسال في ذلك ، ونحيل الباحثين إلى المصادر الآتية : المصدر السابق - صـ٤١ وما بعده ، كذلك ولترستيس - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ٩٧ ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ط دار الثقافة ١٩٨٤ م ، كذلك ريكس وورنر ، فلاسفة الإغريق ، صـ٤٣ وما بعده ترجمة عبد الحميد سليم ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

جـ - الفلسفة الإنسانية (السوفسطائيون - وسقراط) :

لقد خطا أنكساغوراس بالفلسفة اليونانية خطوة جريئة ، وكما أشرنا فيما سبق ، فأخرجها من الطبيعة المادية ، ونحا بها نحواً جديداً في البحث والنظر ، إذ أيقن أن المادة وحدها لا يمكن أن تنتهي إلى هذا التناسق والتناغم والجمال في الوجود ، بل لابد أن هناك عقلاً حكيماً مديراً يسلك بالمادة سبيلاً سوياً في هدى وبصيرة ونظام دقيق ومحكم ، وإلى غاية معلومة ومقصودة [1] . وبهذا كان لفلسفة إنكساغوراس فتحاً جديداً في تاريخ وتطور الفلسفة اليونانية ، حين فرق بين المادة المجسدة ، وبين القوة العقلية المجردة ، التي تتحكم في تلك المادة ، وبين الجسم والعقل أو بين الطبيعة والإنسان .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن الفلسفة انصرفت منذ ذلك الحين إلى دراسة الإنسان ، وطبيعته وعلاقة الإنسان بالوجود والحياة من حوله ، وبدأت أنظار المفكرين والفلاسفة اليونانيين تتجه إلى الواقع الإنساني وخصته بالبحث والدرس ، وربما كان أول من اتجه إلى ذلك " السوفسطائيون " وهم جماعة من المفكرين الذين أشاعوا نزعة النقد والتحليل وتناولوا بالدراسة والبحث ، والنظم والقوانين والأخلاق والعقائد وواقع حياة الإنسان الاجتماعية والذاتية ، واستغلوا في ذلك مساحة الحرية الفكرية والديمقراطية السياسية التي كانت تتمتع بها أثينا في عصرهم بسبب ما أحرزته أثينا من انتصارات وتقدم على خصومها من الفرس . [2]

وهذا الجو المشبع بالحرية والديمقراطية العلمية والفكرية شجع هؤلاء على الدراسة والبحث ، وإشاعة النزعة الفردية والذاتية ، والبحث في حياة الإنسان حيث جعلوه هو المقياس للأشياء جميعاً الخير والشر والخطأ والصواب ، والحقيقة واليقين ، وكذلك نظروا للأمور نظرة الشك الذي يؤدي إلى نقص الحق ، وأثبتوا بنظرتهم في الشك أن لا حقيقة مطلقة ، ولا يقين مطلق ، وأن التناقض يكتنف كل شيء ، وكل حقيقة تحمل نقيضتها ، وأنه باستطاعتهم إثبات الشيء ونقيضه في نفس الوقت ، وهكذا .

وكلمة السوفسطائية : تدل على المعلم في أي فرع كان من العلوم أو الصناعات ، وبنوع خاص معلم البيان ، وقد عاصروا عصر كل من سقراط وأفلاطون ، وقد لحقهم التحقير من جانب كبار الفلاسفة ، لأنهم كانوا مغالطين ، وكانوا يتجرون بالعلم ، مجادلين ، يشيعون الشك في كل شيء ، الأمر الذي دفعهم إلى إنكار الحقيقة أو اليقين ،

---

١ احمد امين ، زكي نجيب محمود - قصة الفلسفة اليونانية - صـ ٩٤ - ط- لجنة التاليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٥ م .

٢ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٤٥ .

فشكوا كذلك في قيمة الأخلاق ، والقيم ، والقوانين ، والمعتقدات الدينية ، ونزعوا إلى الإلحاد ، وسخروا من شعائره ، ونزعوا إلى تمجيد القوة والغلبة ، وتأكيد الفردية والذاتية ، وجعلوا صالح الفرد فوق صالح الجماعة ، واستولى على فكرهم حب الذات والنفس دون الصالح العام أو المجموع .[1] وقد كان لفكرهم وجولهم في الحقائق ، وتجارتهم بالعلم والتعليم ، أثره السيئ على عقول الشباب ، وفساد الأخلاق والقيم ، وانحراف السلوك ، الأمر الذي دفع بفيلسوف ومصلح آخر أن يتنبه إلى هذا الاتجاه السوفسطائي ، ويرد عليهم ويحاول إصلاح ما أفسدوه في عقول شباب أثينا ، وهو سقراط .

وجدير بالذكر : أن السوفسطائيين لم يشكلوا مذهباً فلسفياً متكاملاً ولم تكن لهم مدرسة فلسفة ذات قيمة كبيرة في مجال التفكير الفلسفي اليوناني في عصورهم .[2] ولا يمكن مقارنتهم بالمدارس والمذاهب الفلسفية الإصلاحية العميقة الأخرى ، بل على الرغم من ذلك فإنه يرجع إليهم الفضل في إشاعة روح النقد في النظم والقوانين ، وشحذ همة الفكر إلى عدم التسليم بالحقائق المجردة فقط ، بل يجب النظر إليها وربطها بالواقع ، وتوجيه النظر على الذات الفردية الإنسانية .

ولعل أهم من يمثل مذاهب السوفسطائيين في تاريخ الفكر اليوناني ثلاث شخصيات كبيرة هم : برتاجوراس (٤٨٠ - ٤١٠) ق . م ، كان يشتغل في بداية حياته يجمع ويحمل الحطب ، لكنه تعلم الفلسفة على يد أستاذه ديموقريطس ، ومن أهم أقواله : الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، وهو مقياس ما يوجد منها وما لا يوجد " ويجمع بهذا القول بين فلسفة الثبات ، ثم التغير عند هيراقليطس ، ومعنى ذلك أنه يقصر الحقيقة على الذات الفردية والإنسانية لأنها مقياس كل شيء ، وهذا الفرك غير موضوعي ، وقد ذكره أفلاطون في محاوراته [3]، وهاجم أفكاره التي تشكك في الحقائق المطلقة ، ويقصر المعرفة على الفرد فقط ، لنه مقياس النفع والضرر ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، فالخير هو ما أراه أنا خيراً في صالحي ، والشر هو ما يراه غيري في عدم صالحه ، فما فيه خير لشخص قد ينطوي على شر بالنسبة للآخرين .. وهكذا . ومثل

---

١ للمزيد : المصدر السابق - صـ ٤٦ وما بعدها .

٢ ولتر ستيس - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٩٩ . كذلك احمد أمين ، زكي نجيب محمود - قصة الفلسفة - صـ ٩٧ .

٣ أفلاطون - محاورة تياتيتوس - (العلم) - صـ ٤٧ - ترجمة دكتورة أميرة حلمي مطر - ط الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٧٣ م .

هذا الفكر والمغالطة يؤدي إلى القضاء على القيم المطلقة الشخصية الثابتة : جورجياس (٤٨٠ ـ ٣٧٥) ق . م : تتلخص أقواله في انه لا يوجد شيء ، وإذا وجد هذا الشيء فإن الإنسان قاصر على إدراكه ، وإذا استطاع الإنسان الإدراك فلن يستطيع تبليغ ذلك على غيره ، وهذا تلاعب بالألفاظ ، وهدم للحقائق الثابتة ، وكذلك قوله بفكرة اللاوجود .. إلخ .

أما الشخصية الثالثة : هيبياس ـ ذكره أفلاطون في محاوراته ـ أنه من اشهر رجال الحزب الديمقراطي في أثينا ، وقدم تفسيرات للحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية في عصره ، سخر من القوانين الوضعية ، وشك فيها وفي قيمتها ، وقال : أنه يجب أن يخضع القانون الوضعي لقانون اعم وأشمل وهو " قانون الطبيعة " الذي يحكم الإنسانية جميعاً . [1]

* **سقراط** (٤٦٩ ـ ٣٩٩) ق . م ، Socrates ، ولد ونشأ في أثينا ، وكان والده يحترف عمل التماثيل ، وأمه قابلة (داية تولد النساء) ، كان قبيح المنظر ، قصير القامة ، بارز العينين ، كبير الأنف ، رث الثياب ، لكن الله تعالى أراد أن يكون هذا الرجل مستقراً لنفس قوية جميلة ذكية ، كان عادلاً حتى لا يؤثر عنه أنه ظلم أحداً قط ، حكيماً قل أن يخطئ في حكمه على شيء بأنه حق أو باطل ، كذلك كان ضابطاً لنفسه إلى حد يستدعي الإعجاب ، له مواهب عقلية لا تقل عن مواهبه الأخلاقية ، وعلى كثرة ما وهبه الله من عقل وفكر راجح ، إلا أنه كان دائماً يعلن أنه لا يعرف شيئاً ، فيلسوفاً محباً للحكمة ، كان يقول في عبارة مشهورة له " أنه يعرف شيئاً واحداً ، وهو أنه لا يعرف شيئاً " [2]

عرف في تاريخ الحضارة الهلينية اليونانية ، أنه من أنبل الرجال ، وطنياً التحق بالجندية للدفاع عن وطنه ، وخاض المعارك العلمية والفكرية ، لتبصير الشباب ، وتعليم الفضيلة ، وتثبيت الحقائق في نفوس الناس ، والإعراب عن كيفية الوصول إلى الحق ، بالعقل ، وقوة البصيرة والفكر المجرد ، لم يترك مؤلفاً أو كتاباً ، لكن الباحثين في تاريخ الحضارة والثقافة اليونانية استطاعوا الكتابة عنه ، من خلال ما كتب عنه تلامذته وبصفة خاصة أفلاطون عن فلسفته وحكمته وفكره ، في تلك المحاورات

---

١ دكتورة أميرة حلمي مطر ـ الفلسفة اليونانية ـ صـ ١٣١ ، ١٣٢ ، وللمزيد : يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ ٤٨ ، ٤٩ .

٢ـ احمد امين ـ قصة الفلسفة اليونانية ، صـ١١٠ ، صـ١١١ .

الكثيرة التي دونها أفلاطون في أساليب أدبية رائعة ، حيث أن معظم الجدل الدائر فيها حول العلوم ، والفضيلة الأخلاقية ، والنفس ، وقواها ، ومصيرها ، على لسان سقراط .

على الرغم من أن سقراط كان يعلم الشباب ، ويحاورهم ، إلا أنه لم يكن معلماً محترفاً ولم يتخذ من التعليم حرفة للكسب - كما سبق عند السوفسطائيين - بل كان يخرج إلى المنتزهات والملاعب العامة والأسواق ليلتقي بالناس ويتحدث معهم ، ويحاول إصلاح عقول الشباب ، ويصلح ما أفسده السوفسطائيون بتعاليمهم وتشككهم حول القيم ، والأخلاق ، والعدالة ، والحقيقة المطلقة في الوجود ، ولم يتحامل سقراط على الدين أو العبادة ، لا قولاً ولا عملاً ، وتحاشى القول حول الكون ، والظواهر السماوية والإلهية عند اليونان ، ولم يكن يهتم في فلسفته بالطبيعة ، أو الكون ، أو الميتافيزيقا السماوية ، قدر اهتمامه بالحياة الواقعية الإنسانية ، أي بالإنسان ، والفرد ، للبحث عن طبيعة السعادة وماهيتها ووسائل تحقيقها والتماس الفضيلة والمعرفة بكل شيء [١] .

لقد رأي سقراط أن العلم والمعرفة وسيلة لتعلم الفضيلة ، فربط بين العلم والمعرفة وبين الفضيلة فقال " الفضيلة علم والرذيلة جهل " .

لقد رأي سقراط أن كثرة (الحب) نوعاً من العبودية ، فكان ينصح الناس بالتمسك بفضيلة الاتزان ، والاعتدال وعدم التطرف ، ويصف من لا يستطيع التحكم في سلوكه بأنه مثل الحيوان ، وهذا الاتجاه الأخلاقي عند سقراط يمثل نزعته العقلية التي تتضح في أسلوب حياته كذلك [٢] .

لقد تأثر سقراط ببعض التيارات الدينية والروحية التي كانت تسود المجتمع اليوناني في عصره ، وخاصة الأوساط الفيثاغورية والرواقية بأثينا ، فأخذ يغذي عقله ، ويهذب نفسه ، وفهم الحكمة " على أنها كمال العلم لكمال العمل " [٣] .

وعلى حد وصف الدكتور عبد الرحمن بدوي لسقراط ، أنه كان يتصف بصلابة النفس والقناعة ، هادئاً محتفظاً بكيانه العقلي ، شديد الاحترام لوطنه ولقوانين الدولة ، ويمثل بحق الابن الحقيقي للروح اليونانية ، مستغرقاً أحياناً استغراقاً كاملاً في حياة باطنية وتأمل باطني كامل [٤] .

١- للمزيد - جورج سارتون - تاريخ العلم ، جـ٢ - صـ٦٨ ، صـ٦٩ .

٢- دكتورة أميرة حلمي مطر ، الفلسفة اليونانية ، صـ١٣٦ .

٣- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ٥٠ .

٤- دكتورة أميرة حلمي مطر - الفلسفة اليونانية - صـ١٤٤ .

عاش سقراط حياة حافلة بالجدل والحوار والتقلبات السياسية في المجتمع الأثيني وأشتد في نقد السوفسطائيين ، وبطلان أقوالهم وشكهم ، وسخر من نظم الأرستقراطية وما تجر ورائها من الأستبداد ، والظلم ، وكره النظم الديمقراطية التي تؤدي إلى أن يصعد ويتسلق إلى الحكم طبقات من الزراع أو الصناع ممن لا تؤهلهم نفوسهم ومعارفهم للحكم ، كل هذا ألب عليه جموع من السوفسطائية والشعب وأنهم يتهم ثلاث هي : خوضه في حق الإلهة ، والدعوة إلى آلهة جديدة ، وإفساد الشباب لألتفافهم حوله وإيمانهم بمبادئه ، الأمر الذي أدى إلى تقديمه إلى المحاكمة ، والحكم عليه بالموت ، يتناول السم ، إلا أنه مع ذلك ظل صابراً ، وصامداً أثناء محاكمته ولم يتراجع عما كان يؤمن به في باطنه من أن نزعة إلهية تدفعه إلى الإصلاح ، بالإضافة إلى مقت ما كان عليه المجتمع الأثيني من ضلال وفساد ، وكان يقول في رباطة جأش " أنه ذاهب إلى جوار آلهة أو أناس طيبون " مشيراً إلى خلود النفس في الآخرة بعد الموت [1] .

وتقدم فلسفة سقراط على أن " كل شيء طبعه أو ماهيته ، هي حقيقة يكشفها العقل وراء الأعراض المحسوسة ، وأن غاية العلم إدراك الماهيات وتكوين معاني تامة الحدود ، وكان يستعين الاستقراء ويتدرج من الجزئيات إلى الماهيات (أو الخصائص والصفات المشتركة بينها) .

وكان يرد كل جدل إلى الحد والماهية ، ويسأل عن : ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الظلم ؟ ما الحكمة وما الجنون ؟ ، ما الشجاعة وما الجبن ؟ ، ما التقوى وما الإلحاد ؟ ، ويصنف الأشياء في أجناس ثم أنواع لكي يمنعن الخلط بينها ، وبذلك يقال أن سقراط بهذا الأتجاه الفلسفي نقل العلم من مقولة الكمية إلى مقولة الكيفية ، وأوجد فلسفة المعاني أو الماهيات والتي سوف تتجلى عند أفلاطون وأرسطو في فلسفتهما ، التي ترى في الوجود مجموعة أشياء عقلية ومعقولة .

هذا ، وقد أهتم سقراط في فلسفته ـ بالأخلاق ، أو الفضيلة ، والبحث عنها ، والكشف عن ماهياتها لأن ذلك يتصل بالإنسان ، الذي هو روح وعقل قبل أن يكون متمثلاً في الجسد فقط ، ويقرر أن الإنسان مجبور على فعل الخير طبعاً ، أما الرذيلة والشر فإن فعلها نتيجة للجهل بماهية الخير والفضيلة ، لذلك ربط بين المعرفة والفضيلة ، فقال " الفضيلة علم ، والرذيلة جهل " ، فالشهواني رجل جهل نفسه وخيره

١ـ للمزيد ـ أفلاطون ـ محاورة فيدون صـ٤٣ ، ترجمة : نجيب بلدي ط لجنة التأليف ١٩٦١ م ـ كذلك أفلاطون ـ محاورتي أطفرون ، والدفاع (ملحق بكتاب محاورات أفلاطون) دكتور زكي نجيب محمود ـ ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ م .

، ولا يعقل أن يرتكب الشر عمداً ، وعلى ذلك فإن مذهب سقراط الأخلاقي يشير إلى الفرد ويطلب منه أن يكون مكتفياً بذاته ، وأن لا يكون عبداً لشهواته ، بل يكون متوازناً معتدلاً ضابطاً لنفسه ، ويحبذ سقراط الصداقة ، بحيث يتصل الفرد بالآخرين لأن الصداقة ضرورية لأهل المعرفة وتجعل العلم ، لأن العلم يحصل بالحوار والاجتماع والمناقشة ، كما يجب على الفرد أن يؤدي واجبه نحو الدولة ، والمجتمع ، وضرورة إطاعة القوانين لأنها مقياس الفضيلة بالنسبة للمجموع [1] وقد كان لسقراط منهج يقوم على مرحلتين لتوليد الحقيقة من أفواه الخصوم .

- وهما مرحلة التهكم : وفيها يتصنع الجهل ويتظاهر بالتسليم لأقوال خصومه ، ثم يلقن لهم الأسئلة ويعرض الشكوك شأن من يطلب العلم والاستفادة وينتقل من أقوالهم لأقوال أخرى لازمة منها ، فيوقعهم في تناقض ويحملهم بذلك على الإقرار بالجهل بالحقيقة .
- أما التوليد : فإنه يساعد محدثيه والمجادلين له بالأسئلة والأعتراضات المترتبة ترتيباً منطقياً على الوصول إلى الحقيقة التي أقروا أنهم يجهلونها فيصلون إليها وهم لا يشعرون ، فالتوليد هو استخراج الحق من النفس وبذلك يعتقد الناس أنهم استكشفوا الحقائق بأنفسهم . [2]

ومن الجدير بالذكر أنه قد ظهرت بعض المدارس التي أطلق عليها اسم المدارس السقراطية (أو صغار السقراطيين) تدعي أخذها بمنهج وفلسفة سقراط من بعده وتعبر عن روح الثقافة الحضارية اليونانية ، أهمها ، المدرسة الميغارية ، نسبة لاقليدس الميغاري - الذي تحدث عن الإرادة الأخلاقية ، والماهيات ثم المدرسة الكلبية ، نسبة لانتستانس الكلبي - الذي صار على طريق سقراط في التماس الفضيلة ، والبعد عن الحياة العامة ، والدعوة إلى الطبيعة أي أن يعيش الإنسان وفق الطبيعة - لا يتقيد بقوانين أو أمور أخرى ، ورأي أن الفضيلة في الأفعال وهي مكتسبة بالمران والتعلم - - ثم مدرسة سقراطية صغيرة أخرى هي القورينائية حيث اتجه إلى دراسة الحياة التي تقوم على الشعور باللذة والألم ، واعتبار اللذة التي يشعر بها الإنسان هي الخير الأعظم وهي مقياس القيم ، وهذا هو صوت الطبيعة بلا حياء ولا خجل . [3]

١- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ٥٣ ، صـ٥٤ .
٢- المصدر السابق - صـ ٥٢ .
٣- المزيد - المصدر السابق ، صـ٥٨ - صـ٦١ .

لكن أعظم ما تتمثل فيها الروح اليونانية الفلسفية والسقراطية الحقيقية هما فلسفة أفلاطون ، ثم أرسطو ، إذ يمثلان عصر ازدهار التفكير الفلسفي اليوناني في العصر الهلليني ، والحضارة الهللينية برمتها .

٤ - ازدهار الفلسفة اليونانية (أفلاطون - وارسطو) :

اتخذت الفلسفة مساراً متطوراً ، وجديداً ، واصبح للتفكير الفلسفي أثره العميق في تطور الثقافة اليونانية في ظل أوج ازدهار الحضارة اليونانية في القرنين الخامس ونهاية الرابع قبل الميلاد ، ووضعت أهم مباحث وقوالب الفلسفة بشتى فروعها ، واصبح التفكير الفلسفي علامة مميزة لتطور الحضارة الهللينية ، التي انفتحت وظهرت آثارها الثقافية والمادية أو الحضارية على بلاد المشرق الأدنى والأقصى ومصر ، بفتح الإسكندر الأكبر (٣٢٣) ق . م ، ببلاد الشرق ، بغية تحقيق مشروعه الحضاري الإغريقي ، بأن تسود حضارة الإغريق ربوع الأمبراطورية شرقها وغربها ومحاولة توحيد الحضارة والثقافات الإنسانية وتزاوجها ، وإن استطاعت الثقافات والحضارات الشرقية استيعاب وصياغة الأصول والمبادئ الفلسفية اليونانية مرة أخرى وأثرت في ثقافة اليونان فيما بعد فأخذت الثقافة والحضارة اليونانية بعد إنتهاء عصر الإسكندر الأكبر كثير من التيارات الدينية ، والأخلاقية ، ممتزجة بالنحل الدينية السحرية والفلكلورية وهذا ما أذن بظهور عصر ملاحق للعصر الهلليني ، وهو ما يسمى بالعصر الهللينستي .

كانت الفلسفة عند الطبيعيين الأوائل تهتم بالنظر في الوجود والطبيعية والأخلاق تقتصر على التصورات المادية فقط ، التي تنتهي إليها بعد طول بحث عن الأصول الأدبي للأشياء ، وكانت نزعة الفلاسفة الطبيعيين تقتصر على البحث عن علل الأشياء وانتهت إلى تحديد مبادئ وجواهر أولى تكون الموجودات وهي : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ، والذرة أو الجزء الذي لا يتجزأ ، حتى أن فكرة اللامتناهي تضم أضداداً ومتناقضات تتحرك لكي تتلاقى فتؤدي التقاء الأشياء أو فسادها ، لكن هذه النظرة تحولت في عصر الفلسفة الإنسانية - بظهور السوفسطائيين وسقراط نحو الإنسان ، وطبيعته ، والقوانين ، والأخلاق وجاء سقراط كما أشرنا لكي يثبت القيم ، والحقائق ، ويحترم القوانين في الدولة ظهر الثراء الفكري الفلسفي والعلمي ، بفضل كل

مــن أفلاطــون (٤٢٧ - ٣٤٧) ق . م ، وأرســطو (٣٨٤ - ٣٢٢) ق . م ، ومدارسهما فيما بعد .

وصلت الفلسفة اليونانية أعلى درجة استطاعت أن تبلغها عند أفلاطون وأرسطو ، فالفلسفة الطبيعية قد أقيمت على قواعد ميتافيزيقية ، وأصبحت تكون نظرة شاملة للوجود ، وظهرت فكرة الثنائية المطلقة للوجود لا سبيل لإلغائها ، وهي ثنائية المادة ، أو الهيولي والصورة ووضعت أسس وقواعد الفلسفة الأخلاقية الثنائية ، فلم تعد مجموعة من الآراء أو التوجهات الإرشادات السلوكية التي لا تسري فيها وحدة ، بل وضعت على قواعد ميتافيزيقية ، مطلقة - فالخير ، والعدالة ، والمساواة والقناعة والاعتدال المتمثل في الفضيلة ، قواعد وأصول عامة مطلقة لا تتحدد بمكان أو زمان أو مجتمع ، لأن ذلك يتعلق بالإنسانية والضمير العالمي كله ثم حدث ربط بين المعرفة والأخلاق ، وبين السياسة والأخلاق إبتداءً من سقراط وحتى أفلاطون أرسطو ، ووضعت نظرية المعرفة ، وتحدد معاني الألفاظ ودقتها ، كذلك .

بلغت ، الفلسفة بالمعنى الدقيق أعلى درجة قدر لها أن تبلغها في هذه الدرجة الحضارية ، عندما اصبحت النظرة إلى المشاكل الميتافيزيقية والأخلاقية ، والاجتماعية نظرة ثاتبة واسعة تقوم على الإدراك العقلي ، وما تنتج عن ذلك أيضا من اكتشاف الظواهر الكونية وما تخضع له من قوانين ، لقد أضيف إلي الفلسفة البحث العلمي بالمعنى الدقيق ، إلى جانب فلسفة التصورات والتي بلغت نهايتها عند سقراط ، وبشرت الفلسفة إلى الجانب البحثي العلمي الذي أخذ به أرسطو ، بدراساته العلمية على أنواع الموجودات المختلفة - النباتات الحيوانات مستخدما أصول المنهج العلمي من ملاحظة ، وتجربة واستقراء ونتائج ، بظهور المنهج الديالكتيكي ، عند أفلاطون ، ونظرته المثالية ، وإيمانه بعالم التصورات والماهيات ، عالم التصورات العقلية لا الإدراكات الحسية أو المادية .

ولم يكن أفلاطون وأرسطو على طرفي نقيض كما يتصور بعض الباحثين لكن كل منهما يكمل الأخر في فلسفته الطبيعية والميتافيزيقا والأخلاق والسياسة وغير ذلك فإذا كان أفلاطون أشتهر بأنه فيلسوف مثالي ، فإن أرسطو لا يقل مثالية عنه لأن الوجود الحقيقي عند أرسطو ليس هو وجود المادة ، بل

الوجود الحقيقي هو وجود الصورة ، وإذ كان أفلاطون جعل الصورة مفارقة للمادة فإن أرسطو قد جعل الصورة والهيولي توجدان معاً غير منفصلتين (١)

• **أفلاطون** (٤٢٧ ـ ٣٤٧) ق . م ، لم يشهد التاريخ فيلسوفاً قبل أفلاطون إنشاء فلسفة جامعة " plato " ونظاماً شاملاً لنواحي الفكر وجوانبة الحقيقية ، تناولت فلسفته جوانباً لم تتناوله عقول السابقين عليه ، أخذ أحسن ما سبقه من فكر فلسفي وأضاف إليه من الفيثاغورية ، والأيلية ، وأخذ من هيرا قليطس وانتهى بسقراط ، فقطف أصيل ازدهار الثقافة الحضارية من قبله وفي عصره . (٢)

ولد أفلاطون ونشأ في أثينا ، من أسرة أرستقراطية عريقة ، تشتغل بالسياسة لكنه لم يشأ أن يدخل غمار الأمور السياسية أو مناصبها ـ إذ صدم لما ارتكبته السياسة في حقه أستاذه سقراط (بالموت) ، فنأى نفسه ، وآثر الاشتغال بالفكر والفلسفة ، بحثاً عن الحقيقة ، والمعرفة اليقينية ، ووضع الأسس والقواعد للفلسفة الأخلاقية ، وأسس المدنية الفاضلة التي يتحقق فيها خير نظام يكفل الحياة السعيدة للفرد والمجتمع ، بالإضافة إلى وضع تصورات الميتافيزيقية عن عالم المثل ، عالم الأرواح والتصورات والماهيات ، عالم الإدراك العقلي ، المفضي إلى الحقيقة والوصول إلى اليقين ، عالم الصانع الأول للوجود .

لقد أيقن أفلاطون أن الحياة الفاضلة ، والحكومة العادلة لا بدلها من التمهيد بالتربية والتعليم ، ففكر في السياسة وكان يمهد لها بالفلسفة ، تشير المصادر إلى مغادرة أفلاطون أثينا ـ خوفاً من بطش الحكام به ، إلى جنوب إيطاليا وتعلم الفلسفة الفيثاغورية ، ثم ذهب إلى مدينة ميغاري حيث تعلم فلسفة إقليدس الرياضية ، ثم جاء إلى مصر ومكث في عين شمس ما يقرب من عشرين عاماً ، يتأمل ويتعلم حكمة المصريين وعلومهم ، وعندما رجع إلى أثينا ، أنشأ مدرسة بها عام ٣٨٧ ق .م ، أطلق عليها اسم الأكاديمية وهي عبارة عن جمعية علمية ودينية ، وكان التعليم فيها يتناول جميع فروع العلم والمعرفة دراسة وشرحاً مثل الرياضيات والفلك والموسيقى والبيان والمعرفة ووسائلها ، والأخلاق والسياسة والجغرافيا والتاريخ بالإضافة إلى علوم ومعارف الطب

١ـ دكتور عبد الرحمن بدوي ـ أفلاطون (ضيف الفكر اليوناني) صـ٤ ، ٥ ، ٦ ، ط دار القلم بيروت ١٩٧٦ م

٢ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب محمود ـ قصة الفلسفة اليونانية ـ صـ١٤٣ .

والتنجيم - إذ أن كل هذه العلوم والمعارف تدخل ضمن دائرة الفلسفة ، وجدير بالذكر أنه كان لا يسمح لأحد بالالتحاق بهذه المدرسة (الأكاديمية) ما لم يكن مهتماً ، دارساً للعلوم الرياضية والهندسية ، لذلك كتب عليها عبارة (لا يدخل علينا من لم يكن رياضياً أو مهندساً) .

وجدير بالذكر أيضا ، أن معظم الفلسفة الأفلاطونية وضعت من خلال ما صنفه أفلاطون من محاورات على مراحل عمره الثلاثة - مرحلة الشباب ومرحلة الرجولة ومرحلة الكهولة ، وكان معظمها يقوم على الجدل والحوار كثيراً ما يجري على لسان أستاذه سقراط وتلامذته ثم زعماء السوفسطائية بالإضافة إلى محاورات القوانين والجمهورية وهكذا [1].

ولكن ما هي أهم جوانب الفلسفة الأفلاطونية ، والتي نعتبرها علامة بارزة في تطور وتأصيل التفكير الفلسفي والحضارة الهللينية اليونانية .

تتبلور فلسفة أفلاطونية حول المباحث الأساسية التي تشكل بوتقة التفكير الفلسفي عند اليونان وهي : نظرية المعرفة ، والأخلاق ، والوجود ، والطبيعة ، والنفس الإنسانية ، بالإضافة إلى مباحث أخرى عن الفن والجمال ، والسياسة والمثل ، إلخ .

وفيما يتعلق (بالمعرفة) : من أهم المشكلات الفلسفية التي بحثها فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أفلاطون ، إذ أن السوفسطائيين أوقفوا المعرفة على مجرد الإدراكات الحسية فقط ، لذلك فهي مختلفة من شخص لآخر ، لأن الحواس التي هي مبعث هذه الإدراكات المعرفية لا تتفق عند الناس جميعاً ، حتى جاء سقراط وأثبت أن المعرفة مدركات عقلية ، لأنها تتكون في مجموعها من حقائق كلية يستخلصها العقل لا الحواس من الجزئيات ، ولما كان العقل عنصراً مشتركاً بين الناس لزم كذلك أن تكون المعرفة عند شخص تساوي مثيلتها عند الآخرين .. وهكذا .

أما افلاطون فقد هاجم نظرية المعرفة السوفسطائية التي تعتمد على مجرد الحواس فقط ، لذلك نجده يستعرض أنواع المعرفة وهي أربعة :

- الإحساس : وهي المعرفة الحسية التي تقوم على إدراك عوارض الأجسام .

١- للمزيد دكتور محمد علي أبو ريان ، تاريخ الفلسفة اليونانية جـ١ - صـ١٦٤ ، صـ١٦٥ ، كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ٦٣ وما بعدها .

- الظن : وهي المعرفة الظنية التي تحكم على المحسوسات بما هي كذلك .
- الاستدلال : وهي المعرفة الاستدلالية التي تقوم على علم الماهيات الرياضية التي تتحقق في المحسوسات .
- التعقل : وهي المعرفة التي تقوم على إدراك الماهيات المجردة عن كل مادة ، وهذه الأنواع من المعارف مترتب بعضها فوق بعض ترتفع النفس من الواحد إلى الذي يليه بحركة ضرورية إلى أن تطمئن إلى الآخر .

ورأى أفلاطون أن المعرفة إذا اقتصرت على الإحساس أو الحواس فقط ، إذن لاقتصرت المعرفة على الظواهر المتغيرة ولم تدرك الماهيات للأشياء ، ولأصبحت كل المعارف واحدة ، صادقة أو كاذبة على السواء تضم بالتالي المتناقضات أو المتضادات ، ولأصبحت المعرفة ظنية لا يقينية ، وليس الظن هو العلم الذي تتوق غليه النفس إنه قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً ، والعلم الصادق بالضرورة ، وموضوع الظن هو الوجود المتغير ، بينما موضوع العلم هو الماهية الدائمة ، والعلم قائم على البرهان ، والظن تخمين وقلق في النفس يدفعها إلى طلب العلم .

ولما كان الاستدلال من وسائل المعرفة كذلك : فإن العلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى تستخدمه كذلك ولو أنها علوم تبدأ من المحسوسات إلا أنها لها موضوعات متميزة عن المحسوسات ومناهج متميزة ، فالحساب مثلاً ليس هو الأعداد الجزئية كما يفعل التاجر ، ولكنه العلم الذي يفحص الأعداد وماهياتها ، كذلك الهندسة ليست هي مسح الأرض ، ولكنها النظر في الأشكال كما أن الفلك علم يفسر الظواهر السماوية بحركات دائرية .. وعلى هذا فإن هذه العلوم تضع أمام الفكر صوراً كلية ، ولذا يستخدم الفكر الصور المحسوسة في هذه الدرجة من المعرفة كواسطة للوصول إلى المعاني الكلية القابلة لها التي هي موضوع الفكر ، ثم يستغني العقل عن الصور المحسوسة ويتأمل المعاني ، ثم يستغني عن التربة ويستخدم المقدمات التي يستخدم منها النتائج .

أن أفلاطون يضع نوعاً من التدرج في المعرفة من الإحساس إلى الظن ثم الاستدلال وصولاً إلى التعقل المحض ، مستخدماً في ذلك " الجدل الصاعد " ليصل إلى العلم والمعرفة بالشيء المتكامل .

* فالجدل الصاعد أو (الديالكتيك) يهدف للوصول من خلال الكثرة المحسوسة إلى الوحدة المعقولة ، أو الصعود من المعقولات المتعددة إلى أعلاها مرتبة ، ومبدأها جميعاً فينتقل من تعميم إلى آخر حتى يصل إلى الجنس الأعم الذي يشملها جميعاً .

يعطي أفلاطون مثالاً لتعريف الجدل ـ عندما يتناول البحث في (الجمال) في محاورة المادية [1] إذ يصعد الفيلسوف من إدراكه للجمال الجزئي المحسوس إلى الجمال الأعم الذي يكون العنصر المشترك في كل المحسوسات الجميلة ، ثم إلى الجنس الأعم ، الذي يشمل جمال المحسوسات وجمال المعقولات من نسب هندسية ومعان خفية حتى يصل في النهاية إلى الجمال في ذاته ، ويحدد المبدأ المشترك في كل ما يمكن أن نصفه بالجمال .

- أما الجدل النازل أو (الهابط) : فإن الفيلسوف يعم أن يدرك الوجود الأعم ، أو أعلى الأجناس ، يهبط إلى الأنواع التي تتدرج تحته ، ويسير في هذا الهبوط وفق منهج التحليل وذلك باستخدام القسمة الثنائية ، بحدس المثل ، مراعياً الترتيب المنطقي ، وهناك فكرة تتعلق بنظرية المعرفة عند أفلاطون وهي قوله " أن العلم تذكر والجهل نسيان " . وتتلخص هذه الفكرة في أن النفس الإنسانية قبل اتصالها بالبدن كانت في عالم (المثل) وهو عالم الماهيات عالم التصورات عالم الخير بالذات عالم الآلهة والمعقولات ، وكانت بذلك تشاهد فيما وراء السماوات . وجودات ليست بذات ألوان ، ولا أشكال ، أي موجودات معقولة ، ثم ارتكبت هذه النفس الآثم أو (الخطيئة) فهبط إلى الجسد أو البدن الحسي الدنيوي ، فإذا أدركت أشباح المثل بالحواس تذكرت المثل ، ولنضرب مثالاً توضيحياً على ذلك : أننا نذكر صديقاً عند رؤية اسمه ، كذلك نذكر الخير بالذات بمناسبة الخيرات الجزئية ، والمتساوي بالذات والجمال بالذات بمناسبة رؤيتنا للأشياء المتساوية أو الجميلة ، كذلك بالنسبة للمبادئ الأولى ، الفطرية المغروسة في [illegible] النفس الإنسانية ، كمبادئ أو مسلمات الرياضيات ، الكل أكبر من الجزء ، والبراهين الهندسية .. وهكذا .

---

١ أفلاطون ـ محاورة المادية ـ أماكن متفرق .

فالتجربة فرصة ملائمة لعودة المعنى الكلي إلى الذهن أو العقل ، وما الاستقرار إلا وسيلة للتنبيه ، أما الشيء في ذاته فموجود بالنفس ومتصور بالعقل ، فالعلم تذكر والجهل نسيان .

- لكن ما هي نظرية (المثل) عند أفلاطون ، والتي أشتهر بها في دوائر الفكر الفلسفي اليوناني ، والإنساني بصفة عامة ؟

يقصد بالمثل هنا : الحقائق الثابتة وراء الظواهر المحسوسة الدائمة التغير ، ويضع أفلاطون لكل شيء في الوجود مثالاً هو حقيقته وماهيته فيما وراء المحسوسات والظواهر ، فهناك مثالاً للعناصر الأربعة ، ومركباتها والأحياء والنباتات ، وهناك مثال للمصنوعات فيقول أن للشجرة في الحديقة مثالاً ، هو حقيقتها وماهياتها ، كذلك فإن لكل التصورات الأخلاقية مثلاً خالدة مطلقة لا تتغير رغم تغير تطبيقاتها ، في الواقع المشاهد .

وعلى ذلك فإن للعدالة مثال ، وللخير مثال ، وللجمال مثال ، وللتصورات الرياضية مثال ، فالمثلث يوجد له مثال تتوفر فيه كل خصائص جوهرية في سائر المثلثات المحسوسة - وكذلك للفرس مثال : هو الفروسية ، وهكذا ، ولا يوجد للمثل هذه وجود العالم الطبيعي المرئي ، بل يوجد في عالم أعلى عالم المعقولات الحقيقية ، عالم الإله الأعظم ، كذلك المعرفة الحقيقية لا تتحقق إلا من عالم المثل ، عالم التصورات والماهيات والمعقولات الحقيقية .[1]

- وفيما يتعلق بعالم الوجود والطبيعة : فإن أفلاطون يقسم العالم والوجود إلى قسمة ثنائية ، فهناك عالمين : عالم المثل وهو عالم الحقيقة وهو الأساس وهو عالم المعقولات والحقائق الثابتة وليس محدوداً بحدود زمانية أو مكانية ، وعالم الوجود الطبيعي ، أو الطبيعة ، وهو عالم الظواهر المحدودة بالزمان والمكان ، وينقسم إلى قسمين ، جسماني وهي الظواهر التي نراها ونحس بها ، وغير جسماني ، وهو النفس .

ومن الجدير بالذكر أن أفلاطون لا يعترف بالعالم الطبيعي الحسي المشاهد لأنه عالم الأشباح والظلال والمتغيرات ، ويعترف بالعالم المثالي - لأنه عالم الثبات والمعقولات والتصورات والحقائق ، كما أن عالم الظواهر الحسية هذا يحاكي

١- للمزيد - يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " - صـ٦٩ وما بعدها ، كذلك دكتورة أميرة مطر " الفلسفة اليونانية " - صـ١٦٥ ، صـ١٧٥ .

عالم المثل ، ثم يشير إلى فكرة (الصانع) وهو الله تعالى عقل الكل الذي دبر وأوجد هذا العالم الطبيعي وظواهره ، بطريقة هندسية تتفق مع ما في عقل الصانع من تصورات له ، ثم يشير كذلك إلى فكرة النفس الكلية التي تدير عالم الموجودات من السماء إلى الأرض ، وتحركه حركة دائرية . أما النفس الإنسانية : فهي كنفس العالم التي هي علته وحركته ، ولها اتصال بعالم المثل كما لها اتصال بعالم الحس ، وللنفس قوى ثلاث : القوة الشهوانية وهي مصدر الغرائز وإشباع الحاجات ، والقوة الغضبية : وهي مصدر الشجاعة والإقدام ، والقوة العاقلة : وهي الحكمة المتصلة بعالم المثل ويؤمن أفلاطون ، ويعطي الأدلة على خلود النفس العاقلة ـ الحكيمة وعدم فنائها بموت الجسد .[١]

- وفيما يتعلق بالأخلاق ، فإن أفلاطون يتحدث عن الفضيلة ، وجملة الفضائل التي يجب أن تتحلى بها النفس الإنسانية : مثل الحكمة وهي فضيلة العقل تكمله بالحق ، والعفة : فضيلة القوة الشهوانية ، والشجاعة : فضيلة القوة الغضبية إذ تساعد العقل على ضبط الشهوات وتقاوم إغراءات اللذة ، ثم يشير أيضا إلى ضرورة خضوع فضيلتي العفة والشجاعة إلى فضيلة الحكمة حتى يكتمل سعادة النفس ، وكذلك تتحقق العدالة ، والعدالة عنده كذلك اجتماعية فهي تتحقق في حسن النظام السياسي الذي ينظم علاقة الفرد بالجميع والدولة بالمجتمع والعدالة تتسع كذلك للإحسان ، فلا يقابل الشر بالشر ، فالعادل سعيد والظالم شقي ، ولذلك فإن أفلاطون أشار في محاوراته إلى تصور أفضل نظام تحقق أعظم سعادة للبشر ، وولاية الحاكم الفيلسوف ، الذي يستطيع أن يشبع حاجات الأفراد الحسية والروحية .[٢]

- أرسطو (أرسطو طاليس) Aristotle : (٣٨٤ ـ ٣٢٢) ق . م ، ولد في مدينة أسطاغيرا Stagirus ، وهي مستعمرة يونانية من بلاد مقدونيا ، وكان والده طبيباً في بلاط الملك (أمنتاس) ملك مقدونيا وجد الإسكندر الأكبر ، التحق بأكاديمية أفلاطون في أثينا وظل عشرين عاماً بها يدرس ويتعلم العلوم الفلسفية حتى نبغ فيها ، وقد أعجب به أفلاطون

١ـ المصدر السابق ـ كذلك أفلاطون " محاورة فيدون (أو النفس) أماكن متفرقة .

٢ـ أفلاطون " محاورة الجمهورية " ـ ٤٢ وما بعدها ترجمة حنا خباز ط دار القلم ، ١٩٨٠ .

لذكائه الخارق ، واطلاعه الواسع ، لدرجة أن أطلق عليه اسم (العقل) وأقامه معلماً للخطابة بالأكاديمية وكانت بينه وبين أستاذه أفلاطون مناقشات حول بعض القضايا والمشكلات الفلسفية ، حتى يقال أنه أنتقد أستاذه في معظم نظرياته الفلسفية وبصفة خاصة (نظرية المثل) ، يضاف إلى ذلك أن أرسطو كان قد استطاع طول تعليم وتعلم ونظر وتفكير تكوين مذهبه الفلسفي في المنطق ، والمعرفة والطبيعة والوجود والأخلاق والسياسة وغير ذلك من العلوم الفلسفية ، وكان يطمع في ولاية رئاسة الأكاديمية بعد وفاة أستاذة أفلاطون ، لكنه أخفق في ذلك الأمر الذي دفعه فيما بعد إلى تكوين وإنشاء مدرسة أخرى أطلق عليها أسم " للوقيوم " Lycoum (أو الليسيوم) ، فاجتمع إليه التلاميذ ، فأخذ يدرس العلوم الفلسفية ويشرح قضايها المختلفة ، ويوضح مغاليق الفكر الفلسفي ، وكان من عادته أن يمارس التدريس وهو يمشي بجوار بعطن الطرق بها ، فأطلق المؤرخون لتاريخ الفلسفة عليه أسم : الفيلسوف (المشائي) ، واصبح يطلق على تلامذته والتابعين لفلسفته (الفلاسفة المشاؤون) . [1]

وجدير بالذكر أن الملك (فيليب) والد الإسكندر الأكبر ، كان يستدعيه لتعليم الإسكندر العلوم الفلسفية وشتى المعارف العلمية والفنون ، الأمر الذي ساعده فيما بعد على توفير أدوات البحث العلمي ، بالإضافة إلى توفير عدد من الخبراء والباحثين لمساعدته في جمع المعلومات المختلفة عن أنواع الحيوانات البرية والبحرية ، والنباتات المختلفة والأحياء [2] فأقام بذلك أقساماً للدراسات العلمية والتجريبية على أنواع الأحياء وتطبيق المعارف الرياضية والفلكية تطبيقاً عملياً كذلك ، مما يدل على أن أرسطو جمع في مذهبه بين العلوم العملية التي تقدم على الدراسات العلمية وأدواتها التجريبية وبين المعارف الفلسفية الأكاديمية النظرية ، وتقسيمه للعلوم الفلسفية إلى قسمين : قسم عملي وأخر نظري كما سنرى فيما بعد .

١- للمزيد في ذلك - يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " ، صـ١١٢ ، صـ١١٣ .
٢- المصدر السابق صـ١١٤ وما بعدها .

ويعتبر أرسطو هو العقل الفلسفي ، الذي بلور ودعم جوانب الثقافة والحضارة اليونانية الهللينية في عصرها الأخير ، فإذا كان سقراط يعتبر هو المعبر الحقيقي الأول عن روح الثقافة والحضارة اليونانية في المعرفة والأخلاق وميتافيزيقا النفس والإلهيات ، وكذلك أفلاطون هو المعبر عن جذور هذه الثقافة ووضعها في قوالبها المثالية والميتافيزيقية الأصيلة ، فإن أرسطو هو العقل الذي استطاع تأصيل ثقافة اليونان وحضاراتهم العلمية والعملية والفلسفية ، وحدد مباحث الفلسفة وعلومها المختلفة في شتى مجالاتها وفنونها وقضاياها في المعرفة والمنطق ، والوجود والطبيعة والكون ، بالإضافة إلى الرياضيات والأخلاق ، والسياسة وعلوم الأدب واللغة ، فضلاً عن تحديد أدوات البحث العلمي وطرقه الأخرى ، فجمع بذلك بين النظر Logos وبين العمل البراكسيس Paraxis ، ودخلت الدراسات والعلوم والفلسفة فيما بعد أرسطو في نفق أخر عميق ، قل أن نجد فيه إبداعاً فلسفياً على شاكلة الفلاسفة الأوائل ، وبصفة خاصة بعد انتهاء عصر الهللينية ، وموت أرسطو والإسكندر الأكبر .

- ولكن ما هو المذهب الفلسفي عند أرسطو؛ ومؤلفاته التي تعبر عن جوانب الثقافة ، وعقل الحضارة اليونانية في عصورها المزدهرة ، كان لأرسطو عدداً كبيراً من الأعمال والمصنفات العلمية والفلسفية والأدبية وأسس مدرسته اللوقيوم التي جذبت العديد من الباحثين والدارسين ، ولكن الطريقة التي كانت تدرس بها العلوم والفلسفة مختلفة عن طريقة مدرسة أكاديمية أفلاطون ، فلم يهتم أرسطو بدراسة الرياضيات والعلوم الفلسفية الأخرى كالأخلاق والسياسة أو الطبيعيات بطريقة تأملية نظرية فقط ، بل أضاف إلى ذلك تدريس علوم الأحياء والطبيعيات ، كما كان من الواضح أن لا نجد في عقل أرسطو العلمي ذلك الأسلوب الشعري الذي يتسم به أسلوب أفلاطون من قبله ، وبدلاً من أن يقوم لنا أرسطو فكراً تتجسم فيه الفلسفة مع الأسطورية والخيال ، إذ نجده يقدم لنا في منهجه أو مذهبه علماً مجرداً مركزاً ، وقام ببناء الاصطلاحات الفنية للعلم والفلسفة ، وإن ظهرت بعض المؤلفات لأرسطو يبدوا فيها استخدام

الأساليب الشعرية والفنية والحاورات الجدلية ، إلا أنها تمتاز بالتحديد اللفظي والمنهجي ، ودقة الأسلوب والتعبير .

ولعل أهم مؤلفات أرسطو ، والتي تعبر عن مجمل مذهبه الفلسفي والعلمي كتب عن المنطق ، وهو آله الفكر ، مثل المقولات ، والعبارة ، والقياس والبرهان ، والجدل ، والأنماط ، إلى جانب أقسام الأحكام والقضايا وكتب أخرى في الطبيعيات : منها السماع الطبيعي ، والسماء والكون والفساد الآثار العلوية ، والنفس .. ورسائل صغيرة تتناول الحس والمحسوسات ، التذكر ، واليقظة الحياة والموت والنفس وكتب في التاريخ الطبيعي مثل : تاريخ الحيوان ، أعضاء الحيوان وتكوين الحيوان ، وحركات الحيوان .. وهكذا .

وكتب في الميتافيزيقا ، وهي : تختص بالعلم الإلهي وبالفلسفة الأولى وكتب في الحياة الأخلاقية والسياسية ، بالإضافة إلى الخطابة والشعر .[1]

ولعل أهم ما يمتاز به أرسطو ومذهبه الفلسفي ، أنه يقوم على التفكير العلمي والفلسفي المنظم ، فوضع قوالب التفكير بنسق فلسفي محدد ومتكامل ، وأوضح طرق البحث والتفكير بنظام دقيق ومصنف .. الأمر الذي دفع بالفلاسفة والباحثين فيما بعد أن يسيروا على طريقته ومذهبه بعد أن كانت أنماط الدراسات والتفكير الفلسفي من قبل أرسطو تسير بطرق عشوائية وغير منظمة ، مما وضع أرسطو نموذجاً فريداً في تاريخ الحضارة اليونانية ، ومن أهم ما تجده عند أرسطو في بدايات تفكيره الفلسفي ، وضع المنطق وتحديد أصوله ومباحثه ، ثم تصنيف العلوم الفلسفية .

فالمنطق : هو آله الفكر ، يعصم العقل من الوقوع في الذلل والتناقض ، وببساطة - هو الفن والأسلوب الذي يساعدنا على تصحيح أفكارنا ، أنه نظام وأسلوب كل علم ، وكل نظام ، وكل فن ، حتى الموسيقى تلجأ إليه ، أنه علم لأن وسائل التفكير الصحيح يمكن

١- المصدر السابق صـ١١٤ ، صـ١١٨ ، وما بعدها - كذلك دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة اليونانية " - جـ٢ (أرسطو والمدارس المتأخرة) ط دار الجامعات ١٩٨٩ م .

اختصارها إلى مدى كبير ، وتحويلها إلى قواعد ، كالطبيعيات والهندسة وتدريبها لكل عقل عادي ، أنه فن ، لأنه بالممارسة يقدم للفكر الإتقان والدقة والضبط اللاشعوري السريع .[١]

أما تصنيف العلوم ـ فقد وضع أرسطو هذا العلم لكي يميز بتفكير منظم ودقيق بين أنواعها المختلفة ، فميز بين نوعين من العلوم : ووضعها في قسمين هما : العلوم النظرية ، والعلوم العملية ـ فالقسم الأول : هو العلوم النظرية : وهي ما كانت غايتها المعرفة ـ دون أن يكون لها صلة بحاجات الإنسان العلمية مثل : الفلسفة الطبيعية ، والرياضيات ، والفلسفة الأولى أو المتافيزيقا ـ الإلهيات .

والقسم الثاني : الفلسفة العملية : ولها صلة بحياة الإنسان أو الفرد العملية مثل : الأخلاق ، والسياسة والاقتصاد أو التدبير المنزلي ، وهي غايتها كذلك تقويم السلوك والإنتاج وكذلك فن الشعر .[٢] وجدير بالذكر أن أرسطو جعل المنطق علماً قائماً بذاته منفصلاً عن المعرفة ويطلق عليه المنطق الصوري عند المتأخرين والعرب والعصر الحديث وقد هاجمه معظم العلماء والفلاسفة العمليين والتجريبيين المحدثين وعلماء العرب كذلك ، لأنه يعبر عن صورة الفكر ، وليس العمل ذاته [٣]

* وإذا تطرقنا إلى النظر في جوانب المذاهب الفلسفية عند أرسطو بإيجاز حتى لا نخرج عن طبيعة البحث الذي نحن بصدده ، فإننا نتناول مذاهبه في . الوجود الطبيعي والميتافيزيقي والأخلاق والنفس والمعرفة.

وفيما يتعلق بالوجود ـ هذا يتصل بمبادئ البحث في الفلسفة أو العلم الطبيعي فهو عند أرسطو : المعلم الذي يتناول دراسة الموجود الجسماني المتحرك ، أي دراسة المادة التي تشمل الحركة أو السكون ، وأرسطو يؤمن بالوجود الطبيعي المادي المشخص ، الذي يتعلق بالمادة في الحقيقة وفي الذهن ، فكل ما هو طبيعي مادي ، وما هو مادي متحرك ، فموضوع العلم الطبيعي ـ كل ما هو متحرك حركة محسوسة بالقوة أو بالعقل ، والحركة تعني التغيير من

١ـ ول ديورانت ـ " قصة الفلسفة " ـ صـ٧٨ ، ٧٩ ، ترجمة فتح الله المشعشع ، ط مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٢ م .

٢ـ دكتورة أميرة مطر ـ الفلسفة اليونانية صـ٣٥٣ .

٣ـ دكتور علي سامي النشار " مناهج البحث العلمي عند مفكري الإسلام " ط دار المعارف ١٩٨١ م .

طرف إلى طرف آخر ، وهذه الحركة تكون في الكم : الزيادة أو النقصان ، وفي الكيف بالاستحالة ، أي التحول من كيفية إلى أخرى كالماء حين يستحيل إلى ثلج ، أو بخار بفعل التسخين ، وفي المكان - أي النقلة من جهة إلى أخرى .. وهكذا .

وعلى ذلك فالعلم الطبيعي يتناول الوجود الطبيعي بالإجمال ، وبالتفصيل ، وقد حدد أرسطو ثلاثة مبادئ أساسية في تفسير محتويات الجسم الطبيعي وهي : مبدأ الهيولي : وهو المادة الأولى - التي تتكون فيها الأشياء ووجودها بالقوة ، إلى أن تدخل عليها الصورة ، فتصبح مادة بالفعل أو شيء بالفعل . ومبدأ الصورة : وهي تمثل ماهية الشيء ، وصورته وشكله إذا التحقت بالهيولي تحولها من حال القوة إلى حال الوجود بالفعل .

ومبدأ العدم : فهو مبدأ بالعرض - وهو بداية صورة الشيء أو نهايته ، وإذا كانت الهيولي مادة هلامية غير متعينة ، فليست ماهية ولا كيفية ولا كمية ، بل موجود بالقوة ولا تدرك في ذاتها . أما الصورة : فهي كمال أول للهيولي ، وهي موجود بالفعل ، يخرج المادة من حال القوة إلى حال الوجود بالفعل ، وعن طريق الاتحاد بين الهيولي والصورة اتحاداً جوهرياً تتكون الكائنات وتوجد الموجودات والأشياء الطبيعية ، لن كل من الهيولي والصورة يفتقر إلى الآخر ، اللهم إلا بالنسبة للنفس ، او الروح قبل اتصالها بالجسد أو الموجود الإنسان أو الحيوان أو النبات ، كذلك صور الموجودات المفارقة مثل العقول الإلهية (الملائكة) والإله - المحرك الأول للموجودات .

وفيما يتعلق بالعلل في الوجود الطبيعي ، فقد حددها أرسطو في أربع علل رئيسية يدور حولها الوجود الطبيعي وهي : العلة المادية ، أي مادة الشيء ، ثم العلة الصورية ، وهي ماهية الشيء وطبيعته ، وشكله ، والعلة الفاعلة ، وهي المحركة ، ثم العلة الغائية ، وهي غاية الفعل ، والتي يتجه إليها الفعل أو الشيء ، فما من وجود أو حركة إلا وله أية ، في حركته ووجوده . [1] وجدير بالذكر أن أرسطو ينسب الحركة الأصيلة في الوجود إلى (المحرك الأول) الذي لا يتحرك إذا يعطي الدفعة الأولى للمتحركات للحركة ، وهو الإله أو القوة العاقلة

---

١ - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ١٤٥ ، ١٤٦

في الوجود ، وكل الحركات الطبيعية في الأرض والسماوات تتجه اتجاهاً غائياً وشوقياً للالتحاق به .

أما فيما يتعلق بالوجود الميتافيزيقي - الإلهيات عند ارسطو - فقد بلور نظريته في الفلسفة الميتافيزيقية من خلال نظريته في الحركة - أو المحرك الأول - للأشياء والكون الطبيعي بأكمله ، فالكون في تغير وحركة مستمرة ودائمة ، وهذه الحركة لا يمكن أن تكون من ذات المتحرك الطبيعي لأنه مادة - هيولي - لا تتحرك بذاتها . فلابد من وجود محرك بذاته يحرك الموجودات ، وه و منزه عنها . وهو الكائن الأول ، او العلة الأولى لجميع المعلولات والحركات.

وهذه العلة الأولى تؤثر ولا تتأثر ، وتخضع كل شيء إلى قانونها وناموسها ، إذن : فإن للكون قوة عاقلة أولى ، أو إله واحد - منزه عن الزمان والمكان والنقص أو التأثر بغيره ، وهذا الإله هو المحرك الأول ، عقل محض وفعله محض ، وصورة محضة ، موجود بالفعل دائماً . واحد أحد من كل جهة ، والدليل على وحدته ما يبدو في العالم من نظام ودقة وإبداع ، وهذا الواحد بسيط لا كثرة فيه ، لا يتجزأ أو لا يتبعض ، وهو قديم أزلي وأبدي ، وله غاية في الوجود ، وتريك الموجودات ، وبذلك ينفي أرسطو فكرة الصدفة أو الاتفاق في الوجود ، لن له غاية وغايته الإله أو العلة الفاعلة بالفعل لا بالقوة .

ومن صفات الواحد الأول أنه عقل وعاقل ومعقول ، عشق وعاشق ومعشوق كذلك ، يعقل ذاته .[1] وإن كان أرسطو قد قصر المعقولية على ذات الواحد ، فإن دىك يؤخذ على فلسفته الإلهية ، إذ يعني أن الواحد منفصل عن موجوداته في الظاهر ، كذلك قول أرسطو بفكرة الهيولي القديمة الأزلية يوقعه في خطورة القول بقدم العالم والمادة .

أما عن نظرية أرسطو في النفس ، فقد فرق بين نوعين من الموجودات الأولى ، موجودات طبيعية مادية لا تتحرك في ذاتها ، والثانية : موجودات طبيعية فيها حركة وحياة وهي الكائنات الحية ، وهي تحيا وتتحرك بفعل النفس ، التي تعتبر بالنسبة للجسم بمثابة الصورة من المادة ، والنفس هي غاية الجسم ، وآلة له ، فهي كمال أول للجسم المادي ، تتناسب مع خصائص هذا الجسم من النباتات إلى الحيوانات إلى الإنسان ، وعلى ذلك يعرف أرسطو النفس بأنها

---

١ - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ١٨١ وما بعدها .

كمـال أول لجسم طبيعـي ينمو ويـتغذى ـ بالنسبة للنباتات ، غذ أن لهـا نفس ، والنفس كمـال أول لجسم طبيعي آلي ينمو ويتغذى ويشعر هذا بالنسبة للحيوانات ، غذ أن للحيوانات قدر من الإحساس والشعور والإدراك بمـا يخدم غرائزها ويحفظ أنواعهـا ، وهـي كمـال أول لجسم طبيعـي آلـي يـنو ويـتغذى ويـدرك المعقـولات ـ بالنسبة للإنسـان ، فالـنفس تخدم غرائز الإنسـان وتحفظ نوعـه ، بالإضـافة إلـى الإدراك والشعور وتعقل الموجودات والأشياء أو التفكير فيها . ويشير كذلك إلى مـا يسمى بالـنفس العاقلـة أو الـناطقة وهـي تحتوي علـى جميع الـنفوس الأخرى ، ولذلك يسير على طريقة أفلاطون في تقسيم قوى النفس إلى : شـهوانية ، وغضـبية ، وعاقلـة ، وفضـائلها ـ العفة ، والشجاعة ، والناطقة العاقلة ، وللنفس العاقلـة قوى وأهمهـا : العقل بالقوة ، والعقل بالفعل ، والعقل بالملكة ، والعقل المستفاد .. وهكذا . [1]

وبالجملـة : فالنفس بقواهـا المختلفة هـي صـورة الجسم ، وحياته ومصدر الإدراك وحفظ الأنواع بالنسبة للكائنات كلها ، وبالنسبة للأفلاك أيضاً .

وفيما يتعلق بـالأخلاق في فلسفة أرسطو ، فهي مزيج من العلوم العملية لأنهـا تتصـل بـتحديد حاجـات الفـرد وتحصـيل السـعادة وتحديد طبيعـتها بالنسـبة للفرد والمجتمع ، لذا فـإن البحث فيها ليس سهلاً أو يسيراً بل يحتاج البحث في الأخـلاق إلـى مـنهج عملـي تتخللـه الـنظرة الفلسـفية الجدلـية ، وحـاول أرسـطو تأصيل القيم الأخلاقية والفضـيلة ويكمل مسيرة سقراط وأفلاطون من قبله ، في البحث عن القيم والفضـائل الأخلاقية التي توفر الخير والسعادة للناس جميعاً ، ولمـا كانـت الأخـلاق صـادرة عن العـرف مـن ناحية معيـنة ، فقد تختلف فـي الخيرات الـتي يسـعى إليها الـناس فمـا اكثر مـا يلحقهم مـن الأذى ، غذ بعضـهم تهلكـه الـثروة ، والـبعض الآخـر تهلكـه الشـجاعة ، لـذا فـإن هـذا العلم يحتاج إلى بصـيرة وخـبرة واسـتقراء للخـبرات والآراء الشـائعة ، مـع الاسـتعانة بخـبرة الشيوخ والفضـلاء ، لأن الـرجل الفاضـل يعرف الخير بالـتجربة ، ويكون اقدر علـى اكتسـاب معرفة الخير واستخلاص المبادئ الخلقية . فالأخلاق عند أرسطو : علـم حاصـل فـي العقـل مـع حسـن البصـر بالظـروف ومطاوعـة الإرادة ،

١ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ ١٥٣ ، ١٨٥ .

وخضوع الشهوات والاستعداد للعمل ، لذا يقول " أن الإنسان يجب أن يكون على شيء من الفضيلة ليصير فاضلاً " [١].

إن الغاية القصوى التي يجب أن تتوجه إليها أفعال الناس جميعاً هي : السعادة التي هي الهدف الأسمى من الحياة ، وهذه السعادة ليست في حياة اللذة ، لأن اللذة هي غاية البهائم والأجلاف والعوام من البشر . وليست السعادة كذلك في تكريم الناس أو الشرف من قبلهم للفرد لأن ذلك متعلق بأهواء الناس ، فقد يمنحوه أو يرفضوه كما يشاءون ، فيكون منح الشرف أو التكريم كاذباً ، فليس خيراً في ذاته ، ولا يجب أن يكون غاية في حد ذاته ، لأن الخير الحقيقي والسعادة الحقيقية ذاتياً لا يمنح ولا يمنع ، والسعادة في الحكمة وهي علة العقل ، والإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل ، ويجب أن تكون سعادته من جنس ما يمتاز به ، وحياة التفكير والفلسفة هي حياة السعادة الحقيقية ، ولكن أرسطو لم يغفل حاجات الإنسان المادية ، فأشار إليها بشرط أن تخضع للعقل .

ويشير أرسطو إلى " الفضيلة " وهي التي تتبع مسيرة العقل ، وهي تكتسب بالمران والتعود ، لأن السعادة طبيعة ثانية للفرد ، فيجب أن تصبح الفضيلة عادة في نفس الفرد ، وطبيعة ثانية له .

ويعرف أرسطو الفضيلة بأنها " اختيار الوسط العدل بين إفراط وتفريط كلاهما رذيلة " والوسط هنا هو الوسط الاعتيادي أو الإضافي دون الوسط للقسمة الرياضية ، مثال الفضيلة : الشجاعة لأنها وسط عدل بين إفراط هو التهور ن وتفريط هو الجبن . مثال آخر السخاء : فضيلة وسط عدل بين إفراط هو الإسراف وتفريط هو البخل . لكن السخاء قد يصبح أميل إلى التبذير منه إلى البخل . العفة : فضيلة وسط عدل بين إفراط هو الشره ، وتفريط هو الجمود ، لكن العفة قد تكون أميل على الجمود منها إلى الشره .. وهكذا . [٢]

وهكذا نجد أن أرسطو استطاع استكمال المسيرة الفكرية والفلسفية والحضارية اليونانية في أزهى عصورها الهللينية ، والتي بدأت بروحها الحضارية ونسقها الفلسفي منذ سقراط حتى أفلاطون المثالي ثم أرسطو عقل الفلسفة والحضارة اليونانية .

---

١ - نفس المصدر - صـ ١٨٥ ، كذلك دكتورة أميرة حلمي مطر - الفلسفة اليونانية - جـ ٢ - صـ ٣٩ وما بعدها .
٢ - المصدر السابق - صـ ١٨٥ ، كذلك دكتورة أميرة حلمي مطر - الفلسفة اليونانية - جـ ٢ - صـ ٣٩ .

٢ - الفلسفة والمدارس المتأخرة : (الهللينستية) :

أ - الفلسفة في دورها الثالث (الحضارة الهللينستية) :

يطلق المؤرخون في تاريخ الحضارة والثقافة على الفلسفة اليونانية في طورها الأول وهو فجر الثقافة والتفكير الفلسفي وعصر الطبيعيين الأوائل وتوجه العقل اليوناني للبحث في علل الموجودات وجواهر الطبيعة ، وطورها الثاني الذي شهد نزولاً للتفكير الفلسفي من النظر في الكون وعلله إلى دراسة الإنسان بظهور السوفسطائيين وسقراط ومنهجه الأخلاقي والمعرفي في فلسفة المعاني بالإضافة إلى تأصيل جذور الفلسفة الأخلاقية والمعرفية ، والمثالية والطبيعية عند أفلاطون وأرسطو ، اسم الفلسفة الهللينية أو اليونانية الخالصة (Hellinice philosophy) . وفي طورها الثالث عصر المدارس المتأخرة ، الفلسفة الهللينستية philosophy) Hellinistice) ، لأنها لم تقتصر على اليونانيين وحدهم ، بل لقد أسهمت فيها الشعوب التي تأثرت بهم وبحضارتهم ، وكانت اللغة اليونانية ، هي لغة العلم والثقافة عندهم .

وقد تميز هذا العصر المتأخر في تاريخ الحضارة والثقافة اليونانية الرومانية بنزعة تلفيقية وبالاهتمام بالعلوم الواقعية والمذاهب الأخلاقية العملية ، وكذلك المزج بين الآراء والمذاهب الشرقية مع ما كان لها من طابع صوفي ، ونحل سحرية ، بالفكر والفلسفة اليونانية . وقد لا نجد في هذه المرحلة المتأخرة - عصر المدارس الفلسفية - الدور الثالث الطابع اليوناني الخالص ، الذي ذاع وانتشر في دور النضوج الثاني ، بل شهدت هذه المرحلة امتزاج عجيب وواضح بين ثقافة اليونان وبين ثقافات الشعوب المجاورة ذات الحضارة المنتشرة في حوض البحر المتوسط وبلاد الشرق [١] وترجع هذه البداية - كما أشرنا في الفصول السابقة إلى فتح الإسكندر الأكبر أبواب الثقافة اليونانية للشرق ، وبالتالي فتح أبواب الثقافة الشرقية لليونانيين ، فحدث بذلك الامتزاج بين الثقافتين . [٢]

---

١ - دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفكر اليوناني (الفلسفة اليونانية) - جـ ٢ أرسطو والمدارس المتأخرة - صـ ٢٥٢ - ط دار المعارف الجامعية - ١٩٨٩ م .

٢ - دكتور عبد الرحمن بدوي - خريف الفكر اليوناني - صـ ٥ - ط دار القلم بيروت - ١٩٧٩ م .

هذه الحقبة من الحضارة الهللينستية أمست فيها الثقافة اليونانية ملكاً مشتركاً بين جميع بلدان حوض البحر المتوسط ، فمنذ وفاة الإسكندر الأكبر (٣٢٣) ق . م وحتى الفتح الروماني انتشرت هذه الثقافة رويداً رويداً امتداداً من مصر وسوريا ووصولاً إلى روما وأسبانيا ، وتوطدت في الأوساط اليهودية والرومانية ، تعد هذه الحقبة من بعض النواحي أهم الحقب في تاريخ الحضارة الغربية ، فكما كان للتأثير اليوناني صدا في الشرق الأقصى ، كذلك انفتح الغرب الإغريقي بفضل حملات الإسكندر - وكما ذكرنا لتأثير الشرق والشرق الأقصى - وتتبع ذلك مسيرة الفلسفة والتفكير الفلسفي اليوناني في هذه الحقبة ، هذه الفلسفة التي صرف اهتمام فلاسفتها المتأخرين عن الاشتغال بالأمور السياسية إلى اكتشاف القواعد العامة للسلوك البشري ، وإلى توجي الضمائر ، ولسوف تشهد كذلك صعوداً متدرجاً للديانات الشرقية والمسيحية ، ثم تفكك الإمبراطورية الرومانية بسبب الغزوات المختلفة للشعوب ، والانطواء الصامت الطويل الأمد والذي هيأ الظروف والأحوال لمولد الفلسفة منذ عصر النهضة وحتى العصر الحديث .[1]

وإذا كانت حصيلة المرحلتين الأولى والثانية - عصر أثينا الفلسفي العظيم وتغلغل التيار المثالي - والعقلي في مضمار الحضارة الهللينية اليونانية برمتها وصيغها بالطابع الفلسفي ، فما لبث أن تجمد وتوقف في عقائد متبلورة ، إذ انكفأ الإنسان على ذاته منكراً الثقافة مرتكزاً في داخل ذاته ، وفي إرادته المتوترة بالجهد واستطاعته في الاستمتاع المباشر بأحاسيسه وانطباعاته - في هذه المرحلة الثالثة - المتأخرة - وعلى ذلك نشهد في هذه المرحلة المتأخرة نشاطاً متواصلاً ومتزايداً للنزعة العلمية والعملية في شتى نواحي الحياة . غذ ستواصل العلوم مسيرتها وحياتها المستقلة عن التفكير النظري المجرد ، ففي القرن الثالث يظهر إقليدس (٣٣٠ - ٢٧٠) ق . م ، وأرشميدس (٢٨٧) ق . م ليواصلا البحث في العلوم الرياضية والفلك ، ثم تتطور علوم الملاحظة والنقد والتجربة في متحف الإسكندرية القديمة ، والذي كان امين خزانة الكتب فيها الجغرافي أراتوستانس (٢٧٥ - ١٩٤) ق . م .[2]

---

١ إميل برهييه - تاريخ الفلسفة (الفلسفة الهللينستية والرومانية) - صـ ٣٤ ، ٣٥ - ترجمة جورج طرابيش - ط دار الطليعة - بيروت - ١٩٨٨ م .

٢ المصدر السابق - صـ ٣٥ - كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٢١٠ .

وبناءً على ذلك فقد اتخذت الفلسفة ، والتفكير الفلسفي مساراً واتجاهاً جديداً ، فالمذاهب الفلسفية الكبرى في هذه المرحلة ، والتي شكلت ما يسمى بالمدارس الفلسفية ، كالرواقية ، والأبيقورية ، لا تشبه من قريب أو بعيد تلك المذاهب الفلسفية التي تقدمتعليها ، ومهما تكن هناك نقاط جذب أو التقاء في بعض النواحي ، إلا أن روحاً فلسفية جديدة ظهرت تتسم ببعض السمات منها : الأولى : أنه يستحيل على الإنسان أن يهتدي إلى قواعد السلوك أو يصل إلى السعادة ، إذ لم يرتكز على تصور للكون محدد بالعقل ، فالأبحاث في طبيعة الأشياء لا يكن هدفها في ذاتها أو إشباع فضول العقل ، وإنما غايتها أيضاً في توجيه دقة الممارسة ، والثانية : الانضباط المدرسي ، فالفيلسوف ليس من واجبه البحث فيما سبق الوصول إليه لمن كان قبله ، ولتكن الغاية في ظل التفكير المدرسي ليس هو البحث الحر المنزه عن الأغراض ، أو اللامحدود عن الحق ، بل تمثل حقيقة قائمة بالفعل ، وبذلك تكون النزعة عقلية متمذهبة ترد إلى الفلسفة اهتمامها بالمعرفة عن طريق العقل .[1]

والأبيقورية كذلك ، فبعد أن فقدت أثينا استقلالها ، وشعر المواطن أنه لم يعد حراً ، كل الحرية ، انكفأ على ذاته ونفسه ، منسحباً من واقعه على داخله يشد الأمان الداخلي والحرية الداخلية الباطنية . تلك التي افتقدها في الخارج ، كان بذلك في حاجة إلى فكر فلسفي ومدرسة ثقافية توضح له أصول الطريقة إلى تحقيق ذلك .

" لقد كان الباعث على الفلسفة هو بحث الفرد وراء ما يخلصه من شرور الحياة وويلاتها "[2] . ويعتبر ذلك في عرف المدارس الرواقية والأبيقورية فضيلة في حد ذاته ، ولهذا أصبحت الفلسفة شخصية بعد أن كانت عالمية ، مما أدى إلى عدم الابتكار إلا قليلاً في نواحي العلوم - ربما أهم الفرق والمذاهب التي تمثل تيار الفكر الفلسفي بعد أرسطو ، في المرحلة الثالثة : الرواقيون والأبيقوريون .

---

١ المصدر السابق - صـ ٣٦ .

٢ - احمد أمين - زكي نجيب محمود - قصة الحضارة - صـ ٢٨٩.

ب - أهم مدارس التفكير الفلسفي : -

* **الرواقية : الرواقيون : The Staics** مدرسة فلسفية كانت معاصرة لمدرسة أخرى هي الأبيقورية ، ومعارضة لها ، تنسب إلى مؤسسها زينون القبرصي في مدينة سنيوم Ciniom . كان يشتغل بالتجارة ، وينحدر من أصول فينيقية ، وكان يغلب على أهله النزعة الدينية التي يتميز بها الجنس السامي ، كان يذهب إلى أثينا ليحمل معه آراء وفلسفة سقراط والسقراطيين ، واستمع إلى كثير من فلاسفة الأكاديمية ، وكلمة الرواقي أو الرواقية تعني الرواق أو المظلة التي كان يلقي فيها دروسه في مدرسته التي أسسها ، وكان يمتاز بسمو الأخلاق .

مجمل آرائه وفلسفته متأثراً برأي هيراقليطس (أن النار هي الحياة واللوغس Lagas ، أي عقل الوجود مثبتة في العالم ، وتمثل الإله - الله تعالى - ويقول بالغائية والضرورة المطلقة ، ويقيم الأخلاق على الواجب ، وتأثرت الرواقية كذلك بتيارات الأفلاطونية ، والفلسفة عندهم تعني " محبة الحكمة ومزاولتها " والحكمة علم الأشياء الإلهية والإنسانية ، وتنقسم الفلسفة عند الرواقية إلى ثلاثة أقسام هي : العلم الطبيعي ، والجدل أو المنطق ، ثم الأخلاق.

والمنطق هو صورة الطبيعة في العقل ، والأخلاق خضوع العقل للطبيعة والفلسفة الرواقية - مادية وحسية ، ومن ثم فهي فلسفة علمية وعملية ، يتخللها الجانب الأخلاقي ، وشيء من المعرفة البسيطة والحية ، والعالم عندهم قديم ، ولكن نظامه حادث ، والعالم إلهي بالنار التي هي العلة الأولى والوحيدة ولما فيها من عقل وقانون وضرورة ، وقالوا بالمعقولية الكامنة في الأشياء ، ويستتبع ذلك القول بالعلل الغائية ، وكانت لهم عبادات يتوجهون إلى الله - الإله بالعبادة والصلاة ، ويقصدون به النار الوجودية ، ومن ثم فإن العالم جسم حتى كذلك تتخلل النفس أو النار مصدر الحياة .. وهكذا .

وربما أشار بعض فلاسفة الرواقية إلى أهمية المعرفة ، واعتبارها الخير الأسمى ، وأنها غاية الحياة المثلى ، إلا أن البعض الآخر كان يسخر من

ضروبها سواء كانت المقصود بها البحث والمعرفة بالنسبة لما وراء الطبيعة المادية ـ الميتافيزيقا ـ أو حتى المعرفة المادية .[1]

وربما كان أهم ما يميز فلسفة الرواقية ـ الأخلاق ـ والبحث فيها ، وتعاليم الرواقية الأخلاقية مؤسسة على مبدأين هما : أن العالم محكوم بقانون شامل ثابت ليس فيه استثناء والثاني : أن طبيعة الإنسان طبيعة عاقلة ، فصاغوا فلسفتهم الخلقية على هذا المبدأ وهو " عش على وفاق مع الطبيعة " ، والفضيلة هي السير على حسب العقل ، والإنسان الحكيم هو من يخضع حياته لحياة العالم ، وإذا كانت الشهوات جزأ من حياة الإنسان ، يجب محاربتها أو يجب ضبطها بواسطة العقل ، لأنها شر ، ولذلك تنتهي الحياة بالزهد والتقشف إذ لا خير في الوجود إلا للفضيلة ، ولا شر إلا للرذيلة ، فالموت والفقر والألم ليس شروراً ، والغنى والصحة واللذة والحياة ليست طيبات ، وعلى الإنسان أن لا يبحث عن اللذة ، لأن السعادة الحقيقية في حياة الفضيلة ، والدين الحق عند الرواقيين هو الخضوع لقوانين الكون ، وخدمة المجتمع والتقوى هي عبادة الإلهة ومحاكاتهم حتى ترتفع إلى درجة الكمال ، وهذا يحدث من صفاء القلب ومضاء العزيمة ، فالحكمة والفضيلة أو الدين والفلسفة شيء واحد .[2]

إذن فالفلسفة الرواقية ، عملية تتعلق بحياة الفرد ونفسه ، وما يهم الفلسفة عندهم إلا الإجابة عن سؤال هو (كيف أعيش) وهذا المبدأ سبق أن أشرنا إليه ، انسحاب الفرد من الحياة إلى داخله وباطنه لينشد الحرية والسكينة في ذاته بدلاً من تلك التي افتقدها في خارجه ـ الأتراكسيا [3] وقد برز من الرواقيين الرومانيين أهم زعماؤهم سينيكا ، وماركس أو راليوس وشيشرون [4]

---

١ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ ٢٢٣ وما بعدها ، كذلك دكتور محمد علي أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية) جـ ٢ ـ صـ ٢٧٣ .

٢ـ المصدر السابق ، كذلك أحمد أمين زكي نجيب محمود " قصة الفلسفة اليونانية " ـ صـ٣٠٢ ، صـ٣٠٣ وما بعدها .

٣ـ للمزيد ـ دكتور عبد الرحمن بدوي " خريف الفكر اليوناني " ، صـ٣٧ وما بعدها كذلك أميل برهييه ـ" تاريخ الفلسفة " الفلسفة الهللينسيتية والرومانية " ، صـ٤٥ .

٤ـ للمزيد المصدر السابق ـ كذلك أحمد آمين " قصة الفلسفة " صـ٢٩٣ .

*** الأبيقورية : الأبيقوريون : - the Epicureans**

تنسب الفلسفة أو المدرسة الأبيقورية إلى مؤسسها أبيقور ولد ونشأ في مدينة ساموس (٣٤٢) ق . م ، وذهب إلى أثينا وتلقى دراسته والتف حوله تلامذته وكان معظمهم من النساء والعبيد ، ويطلق على تلاميذه فلاسفة الحديقة حيث كان يقيم في داره مدرسته في حديقته ، كان أبيقور قوي النفس ، شديد الاعتداد بنفسه ، رأي أن فلسفته هي وليدة فكرة ، وهاجم معظم الفلسفات السابقة والمعاصرة له ، وكان تلامذته يحبونه ويقدسونه كثيراً وانتشرت تعاليمة الفلسفية في أنحاء كثيرة من العالم في اليونان ، ومصر ، وإيطاليا الرومانية ، وترك مؤلفات فلسفية كثيرة لكنها ضاعت بمرور الزمان ولئن الرواقية من قبله قد اعتبرت الفلسفة سبيلاً تؤدي إلى غاية ورائها وهي : الحياة العملية ، فقد بالغ أبيقور والأبيقوريون كذلك حتى كادت الفلسفة عندهم تخلو من البحوث والدراسات العلمية والرياضية لأنها في رأيهم دراسات قد لا تطابق الواقع العملي - ولا تنسجم مع روح الحضارة اليونانية الرومانية في عصورهم ، ولذلك لم يقدر الأبيقوريون من فروع الفلسفة إلا ما يبحث في الأخلاق ومعيارها الذي يقاس بهم الخير والشر ، أما علم الطبيعة فلا يراد لذاته ، ولكن لكي يوقفنا على أسباب الأحداث الطبيعية حتى لا تلقي في نفوسنا الرعب ، ولا يصبح للموت والإلهة مثل ذلك عندنا ، أما البحث في الطبيعة البشرية فهو وسيلة لغاية وتحليل لنفس الإنسان ليعرف ويدرك رغباته الحقيقية .

والمعرفة في الفلسفة الأبيقورية : أساسها أن الأشياء الجزئية التي نصادفها في الحياة والتي تصلنا عن طريق الحواس في وحدها الحقيقية ، فالأفكار والإدراك أن هي إلا سلسلة من الإدراكات الحسية من الأشياء الخارجة ، فانطبعت صورها في أذهاننا ، فالإدراك ، فالإدراك الحسي هو وحده المقياس الذي نقيس به الحقائق النظرية ، أما الجانب العملي من الحياة فمقياسه الشعور باللذة والألم . (1)

هذا العالم أنه ، محكوم بأسباب طبيعية لها نتائجها الطبيعية ، ليس فيه كائنات فوق الطبيعة ، والإنسان في هذا العالم حر الإرادة ، يبحث عن سعادته

١- أحمد أمين - زكي نجيب محمود " قصة الفلسفة اليونانية " - صـ٣١١ - صـ٣١٤ .

حيث كانت ، وكيفما يريد ، وعلى ذلك فإن وظيفة الفلسفة هي أن تعين على تحقيق سعادة الإنسان في هذا العالم .

كان أبيقور ، والأبيقوريون ، ماديون ، لا يرون في هذا العالم أرواحاً مجردة ولا شيئاً غير المادة ، وأن الأشياء مكونة من ذرات لا تختلف في كيفياتها بل في شكلها ووزنها ، حتى أن النفس كذلك ولا يجب أن نفكر في الموت حتى نحيا سعداء ، والموت ليس شراً ، لأننا إذا متنا لا نكون وإذا كنا لا نموت ، والموت هو نهاية الشعور ، ولم يفكر أبيقور في وجود الإلهة ، وأن أشكالها أجمل الأشكال وأطفى عليهم الصفات الحسية .[1]

إذن لا خوف من الآلهة ، ولا شيء آخر حتى من الموت ، وعلى الإنسان أن لا يبحث إلا عن كيف يعيش سعيداً في حياته على ظهر الأرض ، والبحث في هذا وظيفة علم الأخلاق .

ولما كانت اللذة هي أساس الطبيعة ، فإن الفرد يعتبر هو أساس الأخلاق ، وأساس الأخلاق اللذة ، وهي غاية الإنسان ، وهي وحدها الخير ، والألم وحده هو الشر الذي يفر منه الإنسان ، والفضيلة ليست ذات قيمة في ذاتها ، بل قيمتها فيما تشتمل عليه من لذة ، ومعيار اللذة أو الألم عند الأبيقورية بالشدة والمدة ، فيصح أن نرفض لذة عاجلة لأنها تستتبع ألماً أكبر منها ويصح ان نتحمل عاجلاً لأنه يستتبع لذة أكبر منه ، واللذة ليست وقوفاً على الحس أو الجسم فقط ، بل بأوسع معانيها ، فإن اللذة العقلية أوسع قيمة م اللذة الحسية ، لأن العقل يستطيع أن يتلذذ بذكرى لذة ما طيبة ، ويأمل في لذة مستقبلية ، وإن خير لذة يتطلبها الإنسان في هدوء البال ، وطمأنينة النفس ، لأن السعادة تعتمد على نفس الإنسان ، أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية ، ولعل الصداقة أهم اللذات العقلية عند أبيقور والأبيقورية كذلك ، وقالوا أن الفرار من الألم افضل من السعي وراء اللذة ، وليست اللذة في كثرة الحاجات لأن حاجات الحياة كثيرة يصعب سدها ، بل في أبسطها وأيسرها ، ففي البساطة اعتدال ، وابتهاج للنفس ، والحكيم هو الذي يسيطر سيطرة تامة على رغباته ، ولا يندفع إلى طريق الضلال ، ولا يرض لنفسه الذل ، وإن كان لابد فيجب عليه ان يترك الحياة مختاراً .

١- المصدر السابق - صـ٣١٤ - كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " صـ٢١٧ وما بعدها .

وفيما يتعلق بعلاقة الفرد بالدولة ، فذهب أبيقور والأبيقورية إلى ان القوانين في الدولة شرعت لحماية المجتمع من فرق الحمقى واللصوص وظلمهم ، فالحكماء وحدهم يعيشون الفضيلة ، أما عامة الناس فلا يردعهم سوى القانون وقوة الدولة ، لأنهم عاجزون عن تقويم أنفسهم ، كما ان الدولة بقوانينها نشأت بالتعاقد بين الفرد والمجتمع ، ولذا يجب احترام القانون وطاعته . [١]

وهكذا ، نجد أن التفكير الفلسفي في هاتين المدرستين الرواقية ، والأبيقورية ، عبر أصدق تعبير عن روح الثقافة والحضارة اليونانية الرومانية في عصورها المتأخرة من تمجيد لحياة الإنسان واللذة والحس على العمل ، وفق الطبيعة وطاعة القوانين وهذا يمثل قيمة الفضيلة عن حياة هذه الشعوب .

* : ظهرت بعض المدارس الفلسفية الفرعية الأخرى : والتي واكبت عصر الاضمحلال الفكري والثقافي في اليونان في عصور متأخرة ، وعبرت كذلك عن مظاهر أو الأشكال الحضارية في عصر الرومان وتلك الإمبراطورية المترامية الأطراف حيث أغلقت أبواب الإبداع الفلسفي الذي شهدته العصر الأولى ، كما أشرنا ، وأصبح من سمات التفكير الفلسفي - ذيوع نزعة الشك واللاأدرية ، بالإضاعة إلى نزعة التوفيق والتلفيق بين الآراء والمذاهب الفلسفية ، وهو ما يسمى بعصر " الانتخاب والتلفيق " مسايراً الروح الحضارية العملية الذاتية التي تنشد البحث عن حياة الإنسان وكيف تمكن له تحقيق لذته وسعادته ، ولم يعد البحث في الكون والطبيعة والميتافيزيقا أمراً ذا أهمية ، بقدر ما كانت عملية التوفيق بين المذاهب هي أهم ما يشغل الفردية أو عقول الفلاسفة والمفكرين ، بالإضافة إلى المزج بين الثقافات الشرقية واليونانية ، يتخللها نزعة التوفيق بين الدين والفلسفة ، عندما أصبحت لليهودية والمسيحية انتشارها الواسع في أرجاء الحضارة والثقافة الرومانية والبيزنطية وانتقال الفلسفة والثقافة من أثينا بسبب الاضطهاد المستمر والمتلاحق للمذاهب والفلاسفة والتيارات الوثنية إلى مدارس أخرى بحوض البحر المتوسط مثل إنطاكية والإسكندرية . [٢]

---

١ للمزيد - المصدر السابق - صـ٣١٥ ، ٣١٨ ، كذلك : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٢١٩ وما بعدها .

٢ راجع كتابنا : دكتور محمد محمود أبو قحف - مدرسة الإسكندرية الفلسفية - ط دار الوفاء بالإسكندرية ٢٠٠٤ م .

* ومن هذه المدارس باختصار مع التركيز على أهم ملامحها الثقافية والحضارية والفلسفية : الشكاك اللاأدرية بداية من (بيرون Pyrrho) وحتى (كارنيادس) اصطنع الشك من أجل الشك فقط ، ولم يصل الشك إلى هؤلاء بالبحث الفلسفي العميق ، ولكن كان الهدف منه أن الشك وسيلة للسعادة وذريعة لتخفيف ويلات الحياة أو الخوف والألم " . [1]

وتواكبت مذاهب أخرى تشير إلى عصر الاختيار أو الانتخاب Eclecticism ، إذ تلاشت الشخصية اليونانية ومميزاتها وخصائصها الفكرية واندمجت في الإمبراطورية الرومانية اندماجاً كاملاً ، وأخذ اليونان والرومان يتبادلان الآراء والأفكار والأساتذة والطلاب ، وقد استعرض الرومان مذاهب اليونان الفلسفية دون تعصب لمذهب دون آخر ، وأخذوا يتخيرون وينتخبون من كل مذهب فلسفي ما يتفق وروحهم الثقافية والحضارية ، مبرزين أوجه الشبه والتشابه بينها ويكون في مذهب يعبر عن مذهبهم ، وبصفة خاصة ما يتصل بالجوانب العملية والأخلاقية ، إذن وقف الرومان من الفلسفة موقف الاختيار أو الانتخاب دون أن يدفعوا بها إلى الأمام أو الإبداع ، ولم تظهر نظريات فلسفية ذات جدة وطرافة أو ابتكار ، ولم تحدث خلافات شديدة بين المذاهب ، فكان ذلك ادعى إلى نوع من الخمول ، والعكوف على استلهام تراث الأوائل الفلسفي والثقافي والحضاري ، وأخذوه بالشرح والتأويل في ضوء ما ظهر من عقائد وأفكار دينية ، فظهر ما يسمى بالشراح والمؤولين للتراث الفلسفي عند أوائل الفلاسفة الطبيعيين ، والسوفسطائيين وسقراط ، بالإضافة إلى أفلاطون والأفلاطونيين وأرسطو والأرسطيين ، وكذلك المزيج الفلسفي والعملي والعلمي في عصر المدارس الرواقية والأبيقورية ، والفيثاغورية الجديدة ، وظهر هذا الخليط م الاختيار والتوفيق بصفة خاصة في مدرسة الإسكندرية ، وقد كانت الإسكندرية التي أشار الإسكندر الأكبر بتأسيسها على يد قواده من البطالمة ، لكي تكون عاصمة وركيزة للثقافة اليونانية ومصدراً للإشعاع الفكري والحضاري اليوناني في مصر وبلاد المشرق فيما بعد ، وعاصمة للحكم بمصر ، والشرق ، ومركزاً تجارياً وثقافياً وحضارياً .

---

١ للمزيد ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب محمود ـ قصة الفلسفة اليونانية ـ صـ ٣٢٠ ، كذلك دكتور محمد علي أبو ريان ـ تاريخ الفكر الفلسفي ـ جـ ٢ ـ صـ ٣٠٠ ـ ٣٠١ وما بعدها .

وقد أصبحت الإسكندرية منذ عصر البطالمة وحتى العصور الرومانية والبيزنطية ، مكاناً طبيعياً تتلاقى عنده مختلف المذاهب الفلسفية لموقعها بين الشرق والغرب ، وصارت حلقة وصل بين الطرفين ، فامتزجت فيها المذاهب والآراء الفلسفية اليونانية من أفلاطونية وأرسطية ورواقية وأبيقورية وفيثاغورية وأفلاطونية محدثة مع الثقافات والمذاهب الدينية الشرقية وخاصة اليهودية (على يد فيلون السكندري) والمسيحية على يد كل من أورجينس وكليمانس السكندريان كذلك .[1]

يقول " أنج Inge) تقابل الشرق والغرب في شوارع الإسكندرية ، وفي قاعات الدرس بها وفي معابدها ، وفيها اصطبغت اليهودية أولاً ثم المسيحية ثانياً بالصبغة اليونانية " [2].

*في مدرسة الإسكندرية : شرحت مذاهب الفيثاغورية والأفلاطونية ومذاهب أرسطو في الهيولي والصورة ومدرسة الرواقية والأورفية في الزهد والتصوف وتم التفريق بين الروح والمادة ، وجعلهما عنصرين متميزين ، واتخاذهما مثلاً تكون أمام الإله نماذج يصور الخلق على غرارها . هكذا قال أفلاطون وذهبت الفيثاغورية الحديثة في الأعداد ، فاعتبروها نماذج مثالية صيغ على نسقها العالم ، أضيف في رحاب الإسكندرية ما ذهبت إليه الفيثاغورية الجديدة من أن " الكشف هو الوسيلة إلى المعرفة ، والبصيرة فوق العقل ، وبهذا انفتح الطريق أمام النزعة الصُوفية والتخلص من نزعة الشك حيناً من الدهر " [3] ، يضاف إلى ذلك وفي رحاب مدرسة الإسكندرية شرحت التوراة ، وترجمت مصطلحاتها في الوجود والطبيعة والإله والأخلاق والشرائع إلى اللغة اليونانية ، وهو ما يعرف بالترجمة السبعينية ، وعرفت بفضل جهود الفيلسوف السكندري اليهودي المدعو فيلون Philon (٥٠ م) . والذي رأى أن الفلسفة اليونانية وحي عميق غامض لبيان الحقائق على حين الكتاب المقدس الإلهي (التوراة) وحي واضح لبيان ما في الكون من حق ، ورأى أن الفلسفة اليونانية

---

١ - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٢٤٧ وما بعدها ، كذلك أحمد أمين - زكي نجيب محمود - قصة الفلسفة اليونانية - جـ ٢ - صـ ٣٢٨ .

٢ - دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي - جـ ٢ - صـ ٣١٨ وما بعدها .

٣ المصدر السابق - صـ ٣٣٩ ، كذلك للمزيد : دكتور زكي نجيب بلدي - تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية - ط دار المعارف - ١٩٦١ م .

مأخوذة من التعاليم العبرية وأن أفلاطون وأرسطو أخذا تعاليمها من موسى ومن التوراة وفيلون (٥٠ ـ ٥٠) م هو المسئول عن خلط التعاليم الفلسفية بالوحي والإلهام الشرقي .[١]

* : **وفي ظل الإسكندرية ، نشأت وظهرت وتأسست المدرسة الأفلاطونية المحدثة أو الحديثة** The New platonists ومؤسسها هو أمونيوس ساكاس Ammonius saccas (٢٤٢ م) .[٢] وهو أول المعلمين الإسكندرانيين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم أرسطو وأفلاطون ، وتناول بالشرح والتأويل نصوص الفلسفة الأفلاطونية ونظرياتها في المثل والأخلاق وغير ذلك ، إلا انه لم تصدر عنه هذه الشروح بالتفصيل ، غير أن تلميذه الذي تعلم عليه الأصول الأفلاطونية (أفلوطين ـ ٢٧٠ م) أكمل مسيرته الفلسفية في الشرح والتوفيق ، وأسس مذهباً ينسب إليه جديداً يسمى بالأفلاطونية الجديدة تطوف ببلاد الشرق مستلهماً روح الشرق ودياناته وحضاراته الثقافية من هندية وفارسية فضلاً عن الحكمة الإسكندرانية المصرية الممتزجة بالتعاليم الهرمسية والدينية المسيحية ، ويطلق عليه العرب والمسلمين " الشيخ اليوناني " ويعرف مذهبه باسم مذهب الإسكندرانيين)[٣] ، وترك أهم كتاباته وتسمى بالتاسوعات ، تضم خلاصة تأملاته وروحه الفلسفية والأخلاقية ، وأصبح لمدرسته فروعاً بالإضافة إلى الإسكندرية في الشام ، وأثينا .[٤]

* : كان **أفلوطين** فيلسوفاً ـ صوفياً ـ محبباً إلى نفوس الناس ـ معلماً أخلاقياً ، قريباً من العظماء ، له بصيرة نافذة في الطبائع البشرية ، بنيت حياته على الزهد والتدين في المسيحية ، ميلاً إلى تطهير الروح من أدوات الجسد ، وكان يصوم يوماً بعد يوم ، يقضي معظم أوقاته متأملاً مفكراً في الوجود وخالقه ،

---

١ احمد امين ـ زكي نجيب محمود ـ قصة الفلسفة اليونانية ـ صـ ٣٣٠ ، كذلك يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ صـ ٣٤٧.

٢ أمونيوس ساكاس : كان يشتغل حمالاً بمدينة الإسكندرية واعتنق المسيحية ثم ارتد إلى الوثنية مرة اخرى ، واشتغل بالفلسفة وشرح الأفلاطونية .

٣ الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ جـ ٢ .

٤ للمزيد : دكتور محمد علي أبو ريان ـ تاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية) جـ ٢ ـ .

محاولاً الاتصال بالله تعالى ، وقال عن نفسه أنه انجذب إلى الله اربع مرات . [1] ويقوم مذهبه على نظرية الفيض والصدور في الوجود .

* : ومجمل مذهبه الفلسفي في الوجود : أن هذا العالم كثير الظواهر ، ودائم التغير ، ولم يوجد بنفسه بل لابد له من علة سابقة هي السبب في وجوده ، وهذا الذي صدر عنه العالم - العلة الأولى (الواحد) - غير متعدد لا تدركه العقول ووحده هو أزلي وأبدي قائم بنفسه ، فوق المادة ، وفوق الروح ، وهو الإرادة المطلقة في الوجود ؟؟؟؟؟ ولأن الواحد الإله الله فوق العالم وغير محدود ، لا يمكن أن يخلق العالم مباشرة ، وإلا لاتصل به وهو بعيد عنه ولا ينزل إلى مستواه ، كما ان الخلق يعني العمل ، وهذا يستدعي التغير في ذات الله تعالى والله لا يتغير ، إذن كيف نشأ هذا العالم عن الله ؟ يلجأ أفلوطين إلى القول بالفيض والصدور الضروري عن الإله الواحد . ويتجه بفكره لاستخدام الرمز والاستعارة والتمثيل ، فيقول : أن تفكير الله في نفسه وكماله نشأ عنه فيض ، وهذا الفيض صار العالم ، إذ كما يبعث اللهب ضوءً ، والثلج برداً ، كذلك انبعث من الله شعاع كان هو العالم ، وأول شيء انبعث من (الواحد)أو(الله تعالى) ، (العقل) ، وله وظيفتان : التفكير في الواحد الله ، والتفكير في نفسه ، ومن هذا العقل انبثقت (نفس العالم) ، وهي ليست مجسدة ولا قابلة للقسمة ، ولهذه النفس ميلان ، إذ تميل إلى الواحد ، ثم تميل إلى اسفل إلى الطبيعة ، وقد انبثقت من نفس العالم - النفوس البشرية - وهذه النفس ، كالعقل ، تنتمي إلى العالم الإلهي الروحاني ، فوق عالم الحس أو المادة ، وهي دون العقل درجة في الروحانية ، لأنها قريبة من حدود عالم الحس والمادة ، وإن كانت ليست جسمانية أو حسية في ذاتها ، وتنتقل العلل والأسباب إلى اسفل ، ومن هذه النفس - خرجت نفس ثانية سماها افلوطين بالطبيعة ، وهي تشترك مع العالم المادي ، كما تمتزج نفوسنا مع أجسامنا ، وينبثق من هذه النفس أو الطبيعة النفوس الجزئية للكائنات الحية ، وكذلك المادة ، والتي تتشكل من هذه المادة والأجساد الدنيوية ، ومادة العالم ، نباتات وحيوانات وإنسان وجمادات وغير ذلك ،

---

١ راجع : أفلوطين - التاسوعات - ٦ ، ٨ ترجمة يوسف كرم (ملحق بكتاب تاريخ الفكر الفلسفي) جـ ٢ - ، ص ٤٠٣ وما بعدها .

وينتسب لهذه الطبعة المادية كل الشرور في هذا العالم ، لأن المادة مصدر التعدد ، والتعدد سبب للشرور والآثام .

ثم يشير في خطوات مذهبه الغنوصي الصوفي إلى أن غاية : الحياة هي التحرر عن المادة ، ومن هذا تنشأ الفضائل ، والفكر ، وينبثق التفلسف والحكمة ، ثم يلي ذلك سمو النفس فوق التفكير فتصل إلى المعرفة اليقينية بالحقيقة الإلهية أو المعرفة (اللدنية) ، أو تحصل على العلم اللدني . عندئذ تذوب النفس في الله ، وبالذهول والغيبة والهيام والوجد ، تتحد النفس بالله ، تعالى أو الواحد المطلق ، ويصير هي وهو وحدة واحدة .[1] فتتحد نفس السالك إلى الواحد الإله الأعظم ، بالذات الإلهية في وحدة حلولية ، وربما كان هذا هو ناطق بالمذهب المسيحي في المسيح عليه السلام ـ هذا وقد صار للأفلاطونية شراح ومعلقين أيضا ، وأصلوا مسيرتها الذوقية والفلسفية وأضافوا إليها منهم فورفوريوس Phorphyry وبامباكوس Iamblicus ، وسريانوس Syrianus ، وقد انتهت الفلسفة العقلية اليونانية عند حدود المدرسة الأفلاطونية المحدثة .

رابعاً : الفلسفة والحضارة : من العصر الوسيط إلى عصر النهضة : ـ

١ـ العصور الوسطى :

هي الفترة الممتدة بين العصور القديمة ، التي يرى المؤرخون أن أغلب ظواهرها ومعظم معالمها انتهت بنهاية القرن الرابع الميلادي ، وبرزت ظواهر أخرى ، واشتدت وغلبت على الناس والزمان حتى اصبحت طابعاً واضحاً لها ، ولها صفاتها ومميزاتها التي أجمع المؤرخون في تاريخ الحضارات والثقافات ، على تسميتها باسم العصور الوسطى ، وهو (العصر الوسيط) ، وظلت تلك الظواهر والمميزات حية وقوية مالا يقل عن عشرة قرون ، إلى أن انبثقت أحوال وتصرفات أخرى في فكر وحياة الناس وطرق معايشهم وتصرفات حياتهم ومعالجتهم لشئون : الفنون والآدب والتجارة والاقتصاد ، والاجتماع ، بحيث أطل عصر جديد في تاريخ الإنسانية ، عصر ثقافة وحضارة من نوع

١ـ للمزيد من الدراسة : أحمد أمين زكي نجيب محمود " قصة الفلسفة " ـ صـ٣٣٦ ـ صـ٣٣٩ كذلك دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفكر الفلسفي " جـ٢ ـ كذلك أفلوطين التاسوعات " ملحق بكتاب تاريخ الفكر الفلسفي جـ٢ " يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " .

جديد ، وهو الذي أصطلح الباحثون والمفكرون في تاريخ التفكير الفلسفي والحضارة باسم " عصر النهضة ".

وجدير بالذكر أن كتابات ودراسات الباحثين والمؤرخين لهذه الفترة من الأحداث والشعوب والعلوم والحضارات والثقافات ، بالإضافة إلى الكشف عن خبرات الأمم وثقافاتها ، مع ما يحيط بها من ملابسات وردود أفعالها إزاء ما يصطدم بها من عوامل ومؤثرات خارجية أو داخلية .. [(١)]

وفي عرضنا لتطور الفكر الفلسفي - وصيغته الحضارية الإنسانية والدينية تشير لأهم تيارات وتفكير فلاسفة العصور الوسطى - التي لحقت بالفترة اليونانية الرومانية الهللينسنية من نهاية القرن الرابع حتى بداية عصر النهضة في القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد نلاحظ أن أفكار القديس أغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) م ، تلت مباشرة وزمنياً الفلسفة الهللينستية وخاصة الأفلاطونية المحدثة ، وتأثرت بها مما كان له الأثر الفكري والفلسفي أيضا على سلسلة الأفكار الفلسفية واللاهوتية عبر العصور الوسطى ، إذ قد تميز التفكير الفلسفي بأنه تفكير لاهوتي ميتافيزيقي ، وإذا أضفنا إلى ذلك الفلاسفة العرب والإسلاميين من الكندي والفارابي وابن سينا وحتى إخوان الصفاء والغزالي وابن رشد ، نجد أنهم شاركوا في إثراء هذه الفلسفة من خلال الدراسة والتحليل والشروح ومحاولات هضم الأفكار والتوفيق بين الدين والفلسفة إذ تقلصت النزعة الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة في أفكار هؤلاء ، وأضافوا إليها العنصر الأرسطاطاليس عن طريق ترجمة فلسفة أرسطو والتعليق عليها ، فساهموا من ناحية أخرى في تغيير أتجاه الفكر الأوروبي ، فلم يعد تفكيراً أفلاطونياً بحتاً ، بل أصبح أرسطو طاليسياً أيضا ، وبدأ يتجول من تفكير ميتافيزيقي أو لاهوتي إلى تجريبي ، تتخلله النزعة العقلانية ، وثم تطور وتبلور هذا التأثير العربي الإسلامي من خلال فلسفة القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) م ، وهذا الذي يرجع إليه الفضل كذلك في إعطاء الفكر الأوروبي النزعة الاسطوطاليسية ، ووضع أسس وبداية التمييز بين الفلسفة واللاهوت ،

---

١. سانت موسى - " ميلاد العصور الوسطى " (المقدمة بقلم المترجم) ، صـ٦ ، صـ٧ .

وهذا الاتجاه الأكويني يشير إلى البدايات الأولى للتطور الفلسفي والحضاري لعصر النهضة .[١]

وجدير بالذكر أن الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، كانت تعرف كذلك باسم الفلسفة المدرسية School_asticism - أي التي كانت تعلم في المدارس والكنائس والأديرة ، ويحدد المؤرخون والباحثون فلسفة العصور الوسطى في عهدين : أولهما : يسمى أباء الكنيسة ، وليس للفلسفة فيه شأن كبير ، وثانيهما : يسمى العصر المدرسي ، لأن التعليم فيه كان يقوم به جماعة من الرهبان في مدارس الكنائس ، وقد أنشأ (شارلمان * كثيراً من هذه المدارس في جميع أنحاء فرنسا ، وكان مدرسوها من رجال الكنيسة أغراض الكنيسة لباساً فلسفياً وامتد هذا العصر حتى قيام النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر [٢].

ومما لا شك أن هذه المرحلة بدأت بالبحث عن المعرفة لا لذات المعرفة ، بل من أجل خدمة العقائد الدينية ، إلى أن تطورت بعد ذلك وأخذت النظرة الفلسفية تتسع لتشمل المعرفة العلمية ، حتى أنتهي الأمر منذ بداية النهضة والعصر الحديث إلى الاستقلال بين الفلسفة والعلم وبين المعارف الدينية .

هذه لمحة سريعة عن أهم خصائص ومميزات التفكير الفلسفي والتوجهات المعرفية والثقافية في العصر الوسيط ، ويحق أن تعطي بعض النماذج الفكرية والفلسفية الممتزجة بالنزعات الأفلاطونية والدينية ، فنشير إلى ثلاث شخصيات هامة تمثل بداية المرحلة ووسطها ونهايتها وهم :

*** القديس أوغسطين ، والقديس أنسلم ، ثم توما الأكويني :**

*** القديس أوغسطين : Augustine ،**

ولد عام (٣٥٤ ت عام ٤٣٠) م ، في بلدة طاجستا Tagasta ، في شمال إفريقيا ، وكان أبوه وثنياً وأمه مسيحية ، وكانت تحيي فيه النزعة الدينية

١- دكتورة نوال الصراف الصايغ " المرجع في الفكر الفلسفي " صـ١٢١ ط دار الفكر العربي ، ١٩٨٢ م .

٢- دكتور زكي نجيب محمود - أحمد أمين " قصة الفلسفة الحديثة " صـ٣ ، ط مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ م ، كذلك موسى " ميلاد العصور الوسطى صـ١٦٦ (حيث يشير إلى أبي سلطة الكنيسة البيزنطية وهي تمتد في كل الحياة وتسيطر سيطرة كاملة على الفكر وتوجهاته بحيث لا يخرج إلا من خلالها .

المسيحية وترتل له الصلوات كل يوم حتى فتح قلبه للدين الجديد ثم أنفق باقي عمره في نشر المسيحية والدفاع عنها مما جعل العالم المسيحي ينزله منزلة القديس الذي تقام به الحجة على غيره ، وتعهد ببناء مدرسة لنشر تعاليم المسيحية وعقائدها ، وقد ترسخت عنده عدد من المبادئ الرئيسية تعتبر مفتاحاً لفلسفته كلها فيما بعد وهي : إمكان اليقين ، وإمكان الروحانية ، وأن الشر ليس جوهرياً حتى يقتضي صنع الخالق ، وإنما هو عدم الخير ، وقد عرف ذلك من خلال كتب الأفلاطونيين ، وأخذ يتفهم المسيحية في ضوء ما أهتدى إليه من فلسفة ، ويؤول هذه الفلسفة على ضوء المسيحية . (١)

وقد كان منهجه الفلسفي يقوم على أن الفلسفة وسيلة السعادة التي يطلبها كل إنسان ، ولا تتوافر هذه السعادة إلا بطلب الخير الأعظم ولا يتوفر ذلك إلا بالله وليس في غير الله ، لأن الله وحده ثابت وكامل ، فعندما نطلب السعادة الثابتة ، نطلب الله ، علمنا بذلك أو لم نعلم ، قال في نص (لقد صنعتنا يا رب لأجلك ، وأن قلبنا لا يزال مضطرباً حتى يطمئن إليك) ، هل تبلغ الفلسفة إلى الله ؟ في الحقيقة لا يستطيع العقل بقوته الطبيعية أن يهتدي إلى الحقيقة بأكملها أو أن يحترز من الضلال ، وليس للفلسفة قوة وحدها لتحويل النفس من مجرد المعرفة إلى العمل الفاضل ، لكن المسيحية تعرض علينا الحكمة كاملة عن الله والنفس وتصل الحياة الصالحة للأتحاد بالله ، وإذا أردنا ذلك وجب علينا الإيمان ، وليس الإيمان عاطفة غامضة عاطلة عن العقل ، بل قبول عقلي للحقائق ، ولا ينفر الإيمان من نقد العقل ، لأن الإيمان لا يوجد إلا بالعقل ، لأن العقل ممهد للإيمان بتبصره واستيفائه للمعرفة اليقينية ، لذا فهو سابق على الإيمان ممهد له ، يقنع بوجوب الإيمان لا بموضوعه لذلك نقول (تعقل كي تؤمن * ، وللعقل مهمة بعد الإيمان وهي تفهم العقائد الدينية ، وهنا الإيمان يسبق العقل ليظهر القلب ويجعل العقل أقدر على البحث وقبولاً للحق بحيث نقول (أمن كي تتعقل) . (٢)

والمعرفة اليقينية عند أوغسطين تهديه إلى معرفة الحق والله ، فقد أيقن بوجود الله والروح والإدراك العقلي ، وإن جاز للإنسان أن يرتاب فيما تأتي إليه

١- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط " صـ٢٠ ط دار القلم بيروت ، ١٩٨٤ م .
٢- المصدر السابق - صـ٢٥ ، صـ٢٦ .

بـه الحـواس مـن معارف ، فلا يجب ولا يجوز أن يشك في إدراك العقل لأنه حق ويقيـن ، وعلـى ذلـك أنطلـق لإثبات وجـود الله تعـالى فيشـير إلـى أن الإحسـاس بالشـيء الخارجي والشك فيه يتضمن حتماً اليقين بوجود الذات ، لأني إذا كنت شاكاً فإن بهذا الشك أعلم أنني موجود ، ومعنى هذا أن الشك نفسه يتضمن إثبات وجود الكائن الشـاعر وجوداً لا يتطرق إليه الخطـأ ولا بد لكي أخطئ أن أكون موجوداً ، وشعور الإنسان بوجود نفسه دليل على وجود الله ، إن من يشك يجب أن يكون عالماً بحقيقة وعلى أساسها ، وبديهي أن الحقيقة لم تأتي إليه من العالم الخارجي بل من مصدر آخر هو الله . (١)

ولكن كيف خلق الله الكون ؟ يذهب القديس أوغسطين لإثبات ذلك بالأدلة العقلية اليقينية المنبثقة من الإيمان الديني المسيحي بكثرة ، فيرى " أن إرادة الله اتجهت منذ الأزل إلـى خلق العالم ، فأخرجه من العدم إلى الوجود إخراجاً ، بعد أن لـم يكن ، ولم يكن إلى جانب الله (تعالى * شيء من مادة يصوغ منها الكون الذي يريده ، لكنه خلقه دون أن ينبثق منه انبثاقاً (مخالفاً بذلك لفلسفة أفلوطين فـي الفيض والصدور) ، ويقول : بدأ الخلق حين بدأ الـزمان ، والله لـيس له زمـان ، ولا مكـان وقد تم خلق العالم على دهور متتابعة ، والله قوة مطلقة تسيطر علـى الوجود بأسره لا يحدها حد ، الله فعال لما يريد ، وهو علة لكل ما يقع في الكون ، ولكن فيما يكون فيه خير وشر أو رذيلـة ، فـإن الخير هو جوهر أمـا الشر أو الرذيلة فهو إمتناع الخير ، ليس ذلك شيئاً إيجابياً ، والخير هو الكمال ، وهذه طبيعة الله ، ولـيس الغرض مـن الوجود إلا الخير . (٢) وهذا يشير عند أوغسطين إلـى العلـة الغائية ، وغايـة الله مـن الوجود وأن خلق الله لهذا الوجود ليس عبثاً ، لكن لحكمة الله وإرادته .

*: الـروح فـي فلسـفة أوغسـطين بـدأت مـع الـزمان ، وإن كانـت أزلـية فإنهـا خـالدة أيضـا ، ليست مركبة وليست مادة ، وليس لها امتداد في المكان ، ويختلف جوهرها عن البدن ، خلـود الـروح من خلود العقل لأنهمـا شـيء واحد ومبادئ العقل خالدة ثابتة ، والروح هي الحياة نفسها .

١- زكي نجيب محمود - احمد أمين - " قصة الفلسفة الحديثة " صـ٤ ، صـ٥ .
٢- المصدر السابق - صـ٧ .

* : أما الأخلاق : فإنها الخير الأسمى والأتحاد بالله بواسطة التأمل ويستحيل أن يحدث ذلك في الحياة الدنيا ، بل مدخر للأخرة ، واجب الفرد أن يسير وفق القانون الإلهي تمهيداً للسعادة في الآخرة ، وهذا دافع للإنسان على الخير والفضيلة ، وأقوى ما يدفع الإنسان إلى الفضيلة والخير هو الحب ، حب الله ، وحب الإنسان ، ينشأ من ذلك الإحسان ، والإحسان هو أساس الحكمة والشجاعة والعدل ، أهل الله هم أهل " مدينة الله " وأهل (الدنيا) هم أصحاب الرذيلة والشر .. وهكذا [1].

*** القديس إنسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩) م**

فيلسوف لاهوتي إيطالي أكبر اسم في القرن الحادي عشر الميلادي ، أشتهر بأدلة على وجود الله تعالى ، جذب إليه الشبان من أنحاء فرنسا وأنجلترا ، عين أسقفاً ورئيساً لأساقفة كنتربري حتى وفاته ، وفيما يتعلق بمذهبه في فلسفة اللاهوت المسيحي ، سوف نجده يقترب من بعض البراهين الفلسفية عند الفلاسفة والأصوليين المسلمين وبصفة خاصة الغزالي في (برهان الخُلق) [2] فمنهج القديس إنسلم يقوم على تعقل الإيمان ، لأن الإيمان يولد في النفس المحبة ، والمحبة تدفع بالنفس إلى استعجال الرؤية الآجلة بالاستدلال ، فالإيمان شرط التعقل ، وشرط الشعور والذي يشعر يفهم ، والذي يفهم يتعقل ، والذي يتعقل يؤمن ، والتعقل وسط بين الإيمان في الحياة الدنيا ، ومعاينة الله في الآخرة ، هو اقتراب من علم الله ، ولا يرى أنسلم في إخضاع الإيمان للمنطق الجدلي فائدة كما لو كان من الممكن ألا يكون صادقاً ، ويرى أن الحقيقة أوسع وأعمق من أن يأتي بها البشر على أخرها ، ومن خلال كتابة (مناجاة النفس) يورد عدة أدلة على وجود الله تعالى ، مأخوذة من الجهات التي تتشابه فيها الأشياء ويتفاوت اشتراكها فيها ، فتؤدي بنا إلى علة أولى .

هذه الجهات ثلاث : الصفات مثل الخير والجمال ، والحق .. الخ ، وتفاوتها في الموجودات ظاهر ، ثم الماهية ، وبين الماهيات تفاوت أيضا ،

١- المصدر السابق - صـ٨ ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط " - صـ٤٤ وما بعدها .

٢- للمزيد من الدراسة ، الإمام الغزالي (٥٠٥ هـ ، كتاب ميزان العمل (حيث يوضح من خلال براهينه الرد على دعاوى الشيعة الباطنية في الأمام المعصوم " ط الجندي ١٩٧٣ م .

مثال : كلما يرى أن الفرس أرقى من الشجرة ، وأن الإنسان أرقى من الفرس ، وأخيراً الوجود ، والتفاوت فيه تابع للتفاوت في الماهية ، إذن : فليس وجود الإنسان كوجود الفرس .. ويمتنع التسلسل إلى غير نهاية لامتناع وجود عدد لامتناه ، إذن : فكل ما كان حاصلاً على شيء قل أو كثر من كمال ما ، فهو مستمد بمشاركته في مطلق ذلك الكمال ، (وهو الله تعالى) .

البرهان الثاني على وجود الله تعالى ، يستمده من (مجرد فكرة الله) ويقول " نحن نؤمن بوجود الله ، ولكن الأحمق يقول في قلبه (ليس يوجد إله) ، لكننا نقول لهذا الأحمق أنه وقع في تناقض مع نفسه في قوله هذا ؟ ، لأن الله هو الموجود الذي لا يتصور أعظم منه ، والأحمق يعرف ذلك ، إذ ففي عقله موجود هو بحيث لا يتصور أعظم منه ، ولكن مالا يتصور أعظم منه لا يمكن أن يوجد في العقل فقط ، لأن باستطاعتنا أن نتصور موجوداً مثله متحققاً في الواقع أيضا ومن ثمة أعظم منه ، وتكون النتيجة أن مالا يتصور أعظم منه يمكن تصور أعظم منه ، وهذا (خلف) ، وإذن يوجد من غير شك في العقل وفي الواقع ، موجود هو بحيث لا يتصور أعظم منه ، وإنما ينكر الأحمق وجود الله ويقع في (الخلف) لأنه يلفظ في عملية اسم الله دون تعقل معنى ما أو مع تعقل معنى آخر .. [1]يضاف إلى ذلك أن نظرية القديس أنسلم في المعرفة تقوم ، في الأشراق ، فقال " الأشراق في المعرفة العقلية " [2] .

* القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) م Thomas Aquinas

الفلسفة الأكوينية Aquines philasophy ، يمثل القديس توما الأكويني بفلسفته المرحلة الأخيرة من مراحل التكوين التطوري الفلسفي الممتزج باللاهوت الفلسفي وطريقة التوفيق بين الدين والفلسفة ، تلك النزعة التي سادت أروقة المدارس الفلسفية في العصر الوسيط في أوروبا وربوع الأمبراطورية الرومانية البيزنطية ، وكذلك الفترة التي شهدت المد الفلسفي والفكري الديني الإسلامي والعربي وبصفة خاصة بعد انتشار الإسلام في حوض البحر المتوسط والاحتكاك المباشر بين تيارات التفكير الديني واللاهوتي الأوروبي والإسلامي وعصر سيطرة الكنيسة على التفكير الفلسفي واستخدام

١- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط - صـ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ .

٢- المصدر السابق - صـ٨٩ .

الفلسفة لخدمة الدين وما شهدته أوروبا من عصور الظلام والحجر على الفكر أو تكبيل حرية التفكير الفلسفي وإذا كان التيار الأفلاطوني والأفلاطونية المحدثة قد ساد في أروقة المدارس الأوروبية ، فإن المرحلة الأخيرة في العصر الوسيط قد شهدت أيضا الجمع بين الأفلاطونية والأرسطاطاليسية من ناحية أخرى تمثلها المدرسة الأكوينية ، في نطاق التداخل بين اللاهوت والفلسفة .

ومما سبق يتضح لنا أن تطور الفلسفة في العصر الوسيط ، تطور غير مستقل ، بل أرتبط بتطور اللاهوت ، حيث أن النظرة الفلسفية مصحوبة بنظرة لاهوتية ، وربما أدى هذا إلى عدم اهتمام المفكرين والفلاسفة ببقاء نظام فلسفي متكامل فمن خلال مبادئهم اللاهوتية نستطيع أن نقف على مبادئهم الفلسفية ، " يضاف إلى ذلك عملية الدمج ليس بين اللاهوت والفلسفة فحسب بل بين الأفلاطونية والأرسطاطاليسية ، وكما كان سيطرت اللاهوت على الفلسفة وأصبحت السيطرة كذلك للأفلاطونية على الأرسطية " [1]

ومما لا شك أنه كان لهذا التداخل ، والمزج بين الفلسفة واللاهوت ، وبين الأفلاطونية ـ سطرتها على النزعة الأرسطاطاليسية في دائرة محصورة باللاهوت المسيحي أيضا ، انعكاس خطير على المستويات الثقافية والحضارية الأوروبية في العصر الوسيط وفي نهايته كذلك ، إذ أنصرف التفكير إلى الغوص في بطون اللاهوت وسيطرة الكهنوت المسيحي على المستويات الفكرية والعلمية والفلسفية الأخرى ، وخرج التأمل عن نطاق الكون والطبيعة والبحث في طبائع وماهيات الأشياء للوصول إلى الحقائق والقوانين التي تحكمها ، والذي يوصل إلى الاكتشاف أو الإبداع العلمي والفلسفي والفني إلى الدخول في باطن التراث والوقوف عند حدود التصوف الديني والأخلاقي ، والبحث عما تطمئن إليه النفس ، ويوفر لها السكينة التي افتقدتها في حريتها الخارجية ، وتقوقع الذات الأوروبية على نفسها وسيطرت الكنيسة على الفكر .

ولعل القديس توما الأكويني ـ والذي نشأ في نابولي في إيطاليا وتعلم اللاهوت في جامعة باريس حيث درس على القديس البرت الأكبر (١٢٥٦) م

١ـ دكتورة نوال الصايغ ـ المرجع في الفكر الفلسفي ـ صـ١٤٩ .

، وتأثر بفلسفته .. [١] خير وسيلة للمتصرف على هذا المناخ ، الفكري والفلسفي ، والذي يتضح في فلسفته التي تعاود إحياء الفلسفة الأرسطية مرة أخرى متأثراً في ذلك بفلسفة وأراء الفيلسوف العربي الإسلامي الوليد بن رشد (٥٩٥) هـ ، الذي شرح كتب ومؤلفات أرسطو الفلسفية في الطبيعيات ، والأخلاق ، والفلسفة الأولى الميتافيزيقا والمنطق والشعر والخطابة ، وكان لذلك أثرة في تطور الحضارة الثقافية الأوروبية .

* : منهجه : تقوم فلسفة توما الأكويني على التلاؤم بين الفلسفة اليونانية والمسيحية من جهة ، وبين الأفلاطونية والأرسطوطاليسية من ناحية أخرى ، ثم أستخدام المبادئ الأرسطاطاليسية كأداة للتحليل الفلسفي واللاهوتي وتوحيدهما ، فقد كان الأفلاطونيون قلة يؤكدون على علاقة الروح بالله تعالى ، ويضعوا الروح فوق كل اعتبار ، فجاء الأكويني ليؤكد على النزعة الموضوعية Objectivity أكثر من الذاتية Subjectivity إن الشيء المباشر للعقل الإنساني هو ماهية الأشياء المادية ، عن طريق التجربة الحسية، فمنهجه الفلسفي ينبع من العالم المادي وجداله يبدأ بالعالم المرئي ، وبراهينه تنتقل من الجزئي إلى الكلي ، إن العقل عند توما الأكويني لديه قوة المعرفة وليس لديه أفكار فطرية وللعقل القدرة الطبيعية لأستنباط الأفكار التي تنبع من التجربة والحس ، فالمعرفة تنتقل من الحس والجزئي إلى العقلي والكلي ، والأشياء لها تركيب عقلي ، وحسي ، والحس مركب من الروح والجسم أيضا ، ليس الروح فقط [٢].

والواضح أن التفكير عند القديس توما الأكويني يعلو على الفكر الأفلاطوني ولكن من خلال الفكر الأرسطي الموضوعي العلمي ، يصل على الفكر الميتافيزيقي الأفلاطوني ، فهو يبدأ بالعالم الموجود، ويبدأ بالتساؤل ما هو الوجود؟ وكيف يوجد ؟ ، فأفكاره متصلة بالواقع للوصول إلى الوجود الأعلى ، الذي هو نفسه الوجود ، فإذا كان أفلاطون قد قسم العالم عن طريق الماهية ، فإن الأكويني قسم العالم بالوجود ، وأكد على أن الحقيقة هي الوجود الإلهي ،

١- للمزيد - المصدر السابق - صـ١٥٠ ، كذلك يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط " صـ ١٦٩ ، ١٧٠ .

٢- المصدر السابق - صـ١٥٢ ، كذلك راجع يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوربية صـ١٤٧

وأن ماهية الله تعالى هي الوجود ، فثنائية الماهية essence ، والوجود Existence ، في قوتها الكامنة هي (الوجود) ذاته .[١]

وموضوع الأخلاق عنده يعني النظر في الإنسان من حيث هو مريد مختار والأفعال صادرة عن الإنسان بما هو إنسان ، أي الصادرة عن الإرادة العامدة، وحقيقة الفعل الإنساني ذاته المتجه إلى غاية مدركة ومراده ، كما أن الغاية هي مبدأ الأفعال الإنسانية ، ويلزم تعيين غاية الحياة وهي : السعادة والسعادة بالوصول إلى الكمال ، وكمال كل شيء على قدر وجوده بالفعل ، ولا يشير بالتالي إلى سعادة اللذة الحسية لأنها تشترك بين الإنسان والحيوان ، لكن إلى قوة الإرادة النابعة من العقل ، النابع من العقل ، وموضوع العقل هو الحق الكلي ، ولا يوجد الخير الكلي في الخليقة بل في (الله تعالى وحده) فالله تعالى غايتنا القصوى ، بدفعنا إليه دفعاً طلب السعادة [٢] وهكذا .

وربما كان منهج الأكويني هذا ممهداً ، للبدايات الأولى لعصر النهضة وحضارته .

٢- عصر النهضة والتفكير الفلسفي والحضاري : -

يشار إلى عصر النهضة ، إلى نهوض الإنسان الأوروبي من كبوته ، وغفلة عقله وتقوقعه حول ذاته ، وسيطرت الكنيسة ، ورجال الدين على شئون الحياة العامة بأكملها [٣] وتكبيل حرية الفكر وتمحوره حول ما تمثله الكنيسة من دراسات ، وما يمنحه رجالها من صكوك الغفران ، الأمر الذي ساد فيه ظلام دامس طوال فترات منقطعة في العصور الوسطى شهد فيها الزج بالعلماء والمفكرين والفلاسفة إلى محاكم التفتيش وتدوين أسمائهم في دواوين الفهرست ، وإن ظل هذا سائداً في الفترة التالية عند بداية عصر النهضة والذي بدأ منذ القرن الرابع عشر أو الخامس عشر وحتى السابع عشر الميلادي والذي يحدد له بعض المؤرخين من بداية غزو الأتراك وفتحهم للقسطنطينية عام (١٤٥٣ م) ،

١- نفس المصدر - صـ١٥٣ ، راجع يوسف كرم - " تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط " ، صـ١٨٠ وما بعدها .

٢- يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الأوروبية " ، صـ١٩٥ ، صـ١٩٤ .

٣- للمزيد - هـ - سانت موسى - " ميلاد العصور الوسطى " ، صـ١٦٦ ، صـ١٦٧ .

وهجرة العلماء إلى إيطاليا وتكوينهم لمراكز علمية وفلسفية بفلورنسا إحدى المدن الإيطاليا .

ولم يتمكن عصر النهضة من الناحية الفكرية والثقافية الحضارية ، حادثاً مباغتاً بغير تمهيد متواصلاً حتى العصر الحديث ، ولكن ما حدث في هذا العصر من حركات فلسفية وعلمية حضارية ، إنما هي نتيجة طبيعية لثلاث حركات كبرى شهدتها أوروبا وهي (بعث الآداب القديمة من جديد ، والإصلاح الديني ، ثم نشأة العلوم الطبيعية) .

* : أما النهضة الأدبية : فكان يقصد بها تحرير الحياة مما أصابها من عقم وجمود في عصر الظلام الوسيط ، وأن تنهض بالعقل من عثرته وتنفخ فيه روح الحرية والحياة والنشاط ، فكان غذاؤها في الآداب اليونانية وكذلك الآداب الروماني ، ولعل أول من حمل الواء هذه النهضة : بترياراك ، ودانتي (وهو شاعر فورنسى كتب الكوميديا الإلهية) ، وغيرهما من رجال الأدب ، فكانوا طليعة لنهضة أدبية وفكرية ، وقد استحث خطى النهضة فرار طائفة من علماء القسطنطينية حين فتحها الأتراك العثمانيون عام ١٤٥٣ م ، فلجأوا إلى إيطاليا ، فاتسعت حركاتهم وكان مركزها مدينة فلورنسا ، إيطاليا ، وبصفة خاصة في عهد حاكم إيطاليا في العصر الذي كان عالماً وفيلسوفاً وفناناً ، والذي بذل جهداً كبيراً في حماية الآداب القديمة وبعثها في ثوب جديد وأسس لذلك أكاديمية في حدائق قصره .

* : ثم ساير النهضة الأدبية هذه ، حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وانتشرت في أرجاء أوروبا فيما بعد ، وانتهت بالناس إلى الثورة على الكنيسة وسلطتها ، فأوجبت حرية الفرد واستقلاله في الرأي ، وأن يتصل بالله اتصالا مباشراً ، فلا يحتاج في توبته إلى وساطة راهب ، أو قسيس ، ما دام الإنجيل قد ترجم إلى لغاتهم ، فقرأه وفهموا معانيه - كما أن ظهور المطبعة إلى زيادة انتشار الكتاب المقدس ليقرأه العامة والخاصة على السواء .

* : ثم كان العامل الثالث هو عظيم الخطير بعيد الأثر في توجيه الفكر الحديث فيما بعد ، وهو - نشأة العلوم الطبيعية - والاقبال على دراسة الظواهر الطبيعية بالتجربة العملية ، وكان العالم قد اتسع أفقه ، بعد اكتشاف أمريكا ، والطريق البحري إلى الهند ، وقد انتهي العلماء إلى نتائج علمية باهرة أمثال : كوبرنيكوس : وبما اهتدى إليه جاليليو كذلك وكبلر ، وغيرهما - الأمر الذي أدى إلى توجيه

العقل اتجاهاً جديداً ، تهبط من عالم الغيب الذي كان يخلق في سمائه إلى عالم الواقع والطبيعة ومعطياته الحسية التي نستطيع اختيارها وإخضاعها لأدوات البحث وأساليب التجربة .[1]

فأزدهر العلم ، وظهرت الاكتشافات الجديدة والمخترعات مثل آلة الطباعة - كفتح جديد وخلاق في نشر الثقافة وأتاحة القراءة والتعليم للناس كافة ، والبوصلة والمجهر ، وغير ذلك مما كان أكبر عون للعقل على إزاحة الفلسفة المدرسية المتقوقعة حول الذات وأمور الغيب واللاهوت الممتزج بالأفلاطونية والماهية المثالية إلى الفلسفة الحديثة التي أكدت على أهمية البحث القائم على التفكير العقلي والتأمل والتحليل ، والتجربة والملاحظة ، وقد تمثل ذلك بصورة أكبر في فلسفة كل من بيكون Bacon ، وديكارت في مطلع الفلسفة الحديثة .

* : ويمكن أن نشير في إيجاز لبعض الأمثلة والنماذج التي تعبر عن جوانب التفكير الفلسفي والثقافة الحضارية لعصر النهضةThe Renaissance ، . Culture of

إذا كان بعض الباحثين يعتبر أن الفلسفة الحديثة تبدأ بعصر النهضة ، فإنني أذهب إلى أن عصر النهضة الذي يمتد من نهاية العصر الوسيط في القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر هو التمهيد الحقيقي لبلورة التفكير الفلسفي ونضوج النظريات الفلسفية فيما بعد ، وضوح المناهج العلمية والنهضة الحضارية الحديثة ، لذلك فإن عصر النهضة كان ذا ثراء علمي وفكري غزير ساهم في نهضة القرن السابع عشر والثامن عشر ، ولم تكن النهضة حركة شعبية وفلسفية محدودة بعدد من المفكرين أمثال روجر بيكون - (١٢٩٤ م) ، وتشير بالتفكير العلمي الجديد والتي استلهمه سمية فرنسيس بيكون ، (١٥٦١ - ١٦٢٦) م في المقالات التي تجدد من خلالها العلم الجديد ، ثم توماس هوبز Hobbes ، ولكنها كانت حركة واسعة بعلمائها ومكتشفيها ومخترعيها ، عملت على يقظة الفكر الفلسفي والعلمي الذي قلل من سلطة الكنيسة وزاد من سلطة العلم ، وقد ظهرت فكرة مفهوم الدولة عند توماس مور More (١٤٧٨ - ١٥١٦) م ، في كتابه اليوتوبيا ، Utopia وفي هذه الفترة ظهر معظم الفنانين والمبدعين من أمثال البرتي Alberti ،

١- دكتور زكي نجيب محمود ، أحمد أمين - قصة الفلسفة الحديثة - صـ٢٧ .

وميخائيل أنجلو Michael Angelo ، الذي انتهى من رسم كنيسة سيستين ، وكنيسة القديس بطرس ، وظهر ليناردوا دافنشي ، Leonardo Davinci ، بالإضافة إلى روفائيل Raphael وميكافيلي Machiavelli ، الذي وضع كتاب الأمير The prince ، عام ١٥١٣ م ، وفي هذه الفترة ظهر مفهوم الدولة وإعادة بناء المجتمع الثابت ، والفصل بين الدين والدولة ، واكتشاف كيفية حصول الفرد على السلطة والمحافظة عليها ، وأن الغاية تبرر الوسيلة في الفلسفة الميكافيلية السياسية ، وإن كان في هذه الفكرة تعارض مع يوتوبيا توماس مور الذي يبرر السعي للحصول على السعادة بطريقة الفضيلة .[1]

كان للتطور العلمي تأثيره على التطور الفلسفي في عصر النهضة ، إذ لم تكن الفلسفة منفصلة عن العلوم انفصالا كاملا ، وكان يطلق عليها اسم أم العلوم (The Queen of Ciences) ، فقد شمل التطور في الجوانب الحضارية والعلمية بالإضافة إلى ما سبق ذكره ، علوم مثل الفيزياء والتشريح ، (Anataing Pathology) واكتشاف الدورة الدموية عند هارفي Harvey ، (١٥٧٨ - ١٦٥٧) .

وقد كان لاكتشاف الفيزياء والتشريح والدورة الدموية وغير ذلك تأثير كبير على زعزعة ثقة الإنسان في النظريات الفلسفية التقليدية والتأملات الميتافيزيقية ، وتوجيه العقول نحو الأبحاث العلمية المبرهنة ، والتي تعتمد على الفروض ، واختيارها كوسيلة للتفسير والوصول إلى نظريات وتعميمها .[2]

لكن حدث اضطراب بين اللاهوتيين والعلميين على اثر التبشيرات العلمية الجديدة والتي تخالف معتقدات اللاهوتيين ، وكما أشرنا فيما سبق جاء كوبرنيكوس Capernicus (١٤٧٤ - ١٥٤٣) م بفرض علمي في الفلك يثبت أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول الشمس وحول نفسها وأن الشمس هي مركز العالم والأرض ولها حركتان ، دورة حول نفسها يومية ، ودورة حول الشمس سنوية ، وعندما إيده جاليليو Galileo (١٥٦٤ - ١٦٤٢) م ، مخالفا مذهب أراء أرسطو في الأرض والوجود الطبيعي واعتباره الأرض هي مركز

١- نوال الصايغ " المعجم الفلسفي " - صـ١٥٨ .
٢- المصدر السابق - صـ١٥٨ .

العالم ، خالفا بذلك معتقدات اللاهوتيين الذين رفضوا أن يكون للعلم سلطة فوق سلطة الروح وافتراضات ارسطو كذلك .. [١]

ويحق لنا أن نشير باختصار لبعض الشخصيات التي تمثل النزعة الفلسفية في عصر النهضة - والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ، وهذه الشخصيات هي التي تمثل ما يسمى بالفترة الإنسانية Humanistic ، من * : عام ١٤٥٢ - حتى ١٦٠٠ م ، وقد تركزت زعامة هذه النزعة في هذه الفترة في إيطاليا حيث توفرت النصوص اللاتينية واليونانية ، التي كانت محور التفلسف بالإضافة إلى التراث العلمي ، والذي ازدهر ف الفترة الثانية من عام ١٦٠٠ حتى عام ١٦٩٠ ، ويمثل العصر الذهبي ، إذ ذاعت فيه فلسفة كل من فرنسيس بيكون ، وتوماس هوبز في إنجلترا ، ثم بزغ فجر الفلسفة الحديثة المزدهر بفلسفة ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) م ثم أسبنوزا (١٦٧٧) م ، إذ قلد هؤلاء الفلاسفة العلماء الطبيعيين المعاصرين لهم سواء في المنهج أو في الآراء العلمية، إلى أن وصلوا إلى ما يسمى بعصر التنوير بنشر كتاب جون لوك (١٦٩٠) مقال في العقل الإنساني . [٢]

هذه إطلالة سريعة على هذا التطور الفكري والمنهجي في الفلسفة والثقافة الحضارية من عصر النهضة حتى فجر الفلسفة الحديثة .

ولعل أهم الفلاسفة الذين تركوا آثاراً فلسفية واضحة في عصر النهضة في الفلسفة والأدب - نيقولا دي كوسا ، ومونتاني ، وجيوردانو برونو ، ثم فيلسوف الأمير - ميكافللي - صاحب سياسة الغاية والقوة تبرر الوسيلة ..

* : **نيقولا دي كوسا** (١٤٠١ - ١٤٦٤) م Nicolas de Gusa .

ولد بألمانيا بمدينة كوسا - وتلقى العلم بجامعة بادوا بإيطاليا ، وتول سلك الكهنوت حتى أصبح كردينالا ، كانت نزعته أفلاطونية محدثة ، هاجم الفلسفة الأرسطية في صورتها القوية التي سبقت عند القديس توما الأكويني ، جعل للفلسفة غاية إنسانية ، ومثل الأفلاطونيين رد الكثرة في الوجود إلى الوحدة ، ثم أبتع المنهج التحليلي حيث أخذ يتدرج من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية ،

١- نفس المصدر - صـ١٥٩ .

٢ دكتور محمد علي أبو ريان - الفلسفة الحديثة - صـ ١٨ وما بعدها ، ط دار الجامعات المصرية الإسكندرية ١٩٧٢م .

ثم اتضحت له ضحالة العقل بالنسبة لإدراك الأمور الإلهية ، فقال بنسيه العقل الاستدلالي وعجزه عن إدراك الأمور الروحانية ، فاكتشف نيقولا دي كوسا أن الأداة الوحيدة التي يتم عن طريقها توحيد المعرفة هي (الحدس) ، Intution ، والحدس مرتبة أعلى من العقل الاستدلالي ، لأنه موقف خاص للنفس تشعر خلاله بذوبان المتناقضات وتلاشيها ، وتدافق الاحتداد وانسجامها ، فيمثل أمام النفس توحيد مطلق يشتمل على الله والعالم معاً ، فالله هو الموجود الأعظم اللامتناهي الذي يتضمن وجود الأشياء جميعاً في حال الوحدة ، أي حينما يتمثل ذلك الوحدة المطلقة أمام حدس النفس ، أما ذلك العالم الذي تدركه بالحس ، وتتعرف على موجوداته بالعقل ، فهو الصورة أو الوجه المتكثر للوجود المطلق الواحد ، وهذا العالم يعتبر لا وجود إذا قيس إلى وجود الله تعالى ، وعلى ذلك فإن نيقولا دي كوسا يتكلم عن نوع من الوحدة في الوجود ، تجمع بين العالم والإنسان والألوهية معاً ، وقدر أي من الضروري أن يفسر ذلك عن طريق العقل ، ليتضح حقيقة الاتحاد بين الإنسان والوجود الواحد المطلق أي الله تعالى - إن هذه اللحظة التي تتمثل فيها الوحدة المطلقة للألوهية أو للوجود أمام النفس عن طريق الحدس ، هي اللحظة التي يشعر الإنسان من خلالها بأنه متغير في هذا الوجود المطلق الداخل فيه حال ثناياه ، لا تمييز بينه وبين أي جزء من الأجزاء التي يشتمل عليها الوجود كله ، وقد أتهم بالقول بوحدة الوجود الفلسفية ، لكنه كان يقرر أن معنى توافق الاضداد والانطوار الإلهي في مقاصده يعني أن الله تعالى أوجد العالم عن قصد ، لا عن ضرورة ، وهذا ينفي كل اشتراك في الوجود بين الخالق والمخلوق ، فالخلق إلهي إرادي ، أي عن فعل مقصود ، وليس عن إيجاد ضروري .[1]

- **مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢) م**

وهو يمثل تيار الشك المذهبي الحر الناتج عن الإيمان بحرية الفرد والعقل في أن يتنحى عن المواقف التي لا تشكل حجراً عليه ، وهذا نوع جديد من الشك الذي ظهر في عصر النهضة الأدبية والتي أعلنت حرية الإنسان فيما يفكر ، وتعبر عن مدى انطلاق العقل من قيود الفلسفة المدرسية ، التي حيث الطبيعة

١- المصدر السابق - صـ٣٣ ، صـ٣٤ - كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " - صـ١٠ - صـ١١ وما بعدها ط دار العارف ١٩٧٩ م .

يحلوها ويتفكر في جوانبها ، وكان مونتاني Montaigne وهولـ اخلّل هذا الذهب بما أتاه الله من بيان رائع أخاذ ، يمثل عصر الفلسفة الإنسانية التي تشير إلى نمو الفرد ، وتعبر عن قوة شعور الإنسان بشخصيته واعتقاده أنه فرد ذو روح حساسة ، له أن يعارض السلطة وذويها ، وعليه أن يفكر بنفسه لنفسه .

لقد رأي مونتاني أن الحواس مخطئة فيما تنقل لصاحبها من ألوان المعرفة ، إذ لا تبعث على اليقين ، وعاجزة عن الكشف عن طبيعة الكون ولا يمكن أن يصل الإنسان عن طريق الحواس إلى قانون طبيعي يتفق على صحته كافة الناس ، وكذلك شك في العقل ، فرأي أن العقل البشري ليس أحسن حالاً من الحواس ، فالعقل ضعيف أعمى ، كما أن ما يقدمه من علم خداع يعتمد على التقليد ، ولا يمكن اتخاذه سبيلاً إلى المعرفة المؤكدة والثابتة ، إذن فلا محيص للإنسان عن (الشك) والارتياب ، وأقل ما يتمتع به الشك هو الحرية المطلقة من قيود التقليد .

وهكذا أشار مونتاني إلى الشك في عصره ، إذ أن لكل إنسان الحق في أن يفكر لنفسه ، وأن يتخذ من نفسه حكماً لنفسه لا سلطان عليه ولا رقيب .[١]

* : نيقولا ميكافللي (١٤٦٦ ـ ١٥٣٧) م Nicolaa Machiavelli

يعتبر ممثلاً للنزعة النقدية ، والدعوة للفصل بين السلطة الزمنية والدينية ، والانحلال من سيطرة الكنيسة على الدولة ، والداعية الأكبر لمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو صاحب كتاب (الأمير) ضمن فيه أفكاره ومناهجه الفلسفية السياسية ، إذ تحدث عن سياسة الحكم الواقعية ، وكيف يمكن للحاكم أن يكون متحلياً بصفات الحذر والقوة وأن يسلك في تحقيق أغراضه كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة بغض النظر عن مجافاتها للفضيلة والأخلاق ، ما دامت توصل إلى الهدف والغاية المنشودة ، ففي كتابه الأمير ـ Prince ، يوضح الخصال والخصائص التي يجب أن يتصف بها الحاكم والسياسي والتي تضمن له البقاء في الحكم أطول فترة ممكنة ، ويكون في مأمن من خصومه ، ومن هذه الخصال أو الخصائص " هي أن يكون الحاكم أو السياسي أقرب إلى الدهاء والمكر وعدم الصدق في وعوده والخداع للشعب ، والتظاهر بالإذعان

١ـ دكتور زكي نجيب محمود ـ أحمد أمين ـ " قصة الفلسفة الحديثة " ، صـ٣٣ .

للأمور دون تنفيذها ، وأن يجمع بين صفات الثعالب والأسود ، إذ إن الأسود لا تستطيع أن تكشف ما ينصب لها من شباك ، بينما تكتشفها الثعالب ، كذلك فإن الثعالب لا تستطيع أن تتغلب على قوة الذئاب ، بينما يقدر عليها الأسود " [١]

وبهذا يعتبر ميكافلي خير ممثل لعصر النهضة ، بما ردده في هذا الكتاب لكي يضمن الحاكم تفادي الوقوع في الشراك أمام غضبة الشعب والتظاهر بالخضوع للأمور فيها خداع للشعب ، فالجمهور يقنعون بالمظاهر دون المخابر ، ولهذا فإنه يمجد سياسة القوة ، والواقعية ، التي كانت سائدة خلال عصر النهضة ، وأيضاً سياسة التمرد على نظرية الخضوع للكنيسة وسلطاتها .

وبذلك فقد ضرب ميكافلي بنظرية القديس سان توما التي تؤدي بالحاكم أو السياسي للإذعان والخشوع لأوامر الكنيسة عرض الحائط ، وقد تتماش أفكار ميكافلي مع الأهداف الأساسية والسياسية في عصر النهضة لتوحيدَ إيطاليا بغض النظر عن الالتزام الأخلاقي أو الوازع الديني ، بل بتمجيد سياسة الواقع والدسائس والخديعة أو الغدر ، والمؤامرات والخيانة .. إلخ .

وقد تأثر بهذه الآراء المتطرفة والميكافلية كثير من الفلاسفة والساسة المشهورين من أمثال نيتشه ، وتاليران وبسمارك ، يضاف إلى ذلك انتقاد ميكافلي الأخلاق المثالية والمسيحية ، مشيراً إلى أخلاق القدماء في تمجيد الحياة والقوة وأن دياناتهم كانت تخلع الهيبة الإلهية على القواد والأبطال والمشرعين . ، أما المسيحية فإنها ترجئ غاية الإنسان إلى الجزاء الأخروي ، وتحث عن الإعراض عن الحياة الدنيا ، وتمجيد أخلاق المحبة والتواضع وتضع الحياة النظرية فق الحية العملية فأوهنت عزيمة الإنسان ، فهذه الأخلاق المسيحية نافعة للجمهور فقط ، أما الحكام أو الساسة فلا يذعنون لها . [٢]

*** جيوردانو برونو : (١٥٤٨ - ١٦٠٠) م ، Giurdano Bruno**

وهو من أواخر فلاسفة عصر النهضة الذين اعتنقوا الفلسفة الأفلاطونية المحدثة وحاول شرح عقيدته اللاهوتية في ضوء أقانيمها الأربعة الله والعقل الكلي والنفس

١- الدكتور محمد علي أبو ريان " الفلسفة الحديثة " - صـ٣٥ .

٢ دكتور طه بدوي - علم السياسة - صـ ٢٤١ وما بعدها ، ط المكتب المصري الحديث ١٩٦٥ م .

الكلية والمادة ، وآمن بنظريات العلماء الطبيعيين ، والفلكيين أمثال كوبرنيكوس ، وجاليليو ، ودافع عنها .

ولد في إيطاليا بالقرب من مدينة نابلي ، وكان كثير الترحال بين روما وباريس وطولون وأكسفورد والبندقية ، ودرس في عدد من الجامعات الأوربية ، كان ينخلط في سلك الكهنوت ، إلا أنه خلع ثياب الدين واتجه إلى الحياة المدنية ، عرض ودرس الفلسفة معارضاً لآراء الكنيسة داعياً إلى التحرر من سلطتها .

قام مذهبه على فلسفة وحدة الوجود ، المشوب بالنزعة الرواقية الأمر الذي أدانته محاكم التفتيش ، وعقيدة اللاهوتية تقوم كذلك على القول : بأن الله موجود لا متناه ، وهذا العالم أيضاً لا متناه وأن المكان لا نهائي ، وتتحرك فيه أجرام لا عدد لها ولا حصر ، وعدد من الشموس يدور حولها العالم والكواكب ، كلها تتألف من نفس المادة التي تتكون منها الأرض ، ومن الخطأ تصور هذا العالم الذي يتحول إلى عقل أن يكون له حدود وينتهي عندها ، فالكون كله وحدة متصلة لا نهائي تشرف عليه قوة واحدة لا نهائية ، ومجموع ذلك كله هو الله ، والله هو الكون وهو منشئه ومكون كل شيء في الوجود ، فالإنسان أو غير الإنسان مرآة تنعكس فيها صور العالم بعنصريه : العقل والمادة ، وكل ذرة في الوجود تعلن عن وجود الله ، وظهوره فيها ، وهي ذرة جسدية وروحية في آن واحد ، وعلى ذلك فهي صورة الله ، فهي إذن خالدة يستحيل عليه الفناء ، وهذا العالم يسير وفق قانون عام ينظمه .[1]

ومعنى ذلك أن جيوردانو برونو حاول أن يبرهن على أن هذا الوجود الواحد ترتبط فيه الأشياء برباط محكم وثابت لا يبدو فيه وجود أي تعارض أو تناقض بين وحداته ، وفي هذا الواحد المتماسك نجد العلة وهي الألوهية ، وهي نفس العالم أو " الطبيعة الطابعة " أما العالم فهو المعلول أو الطبيعة المطبوعة ، وهو الله (تعالى) كما يرى برونو الموجود في كل شيء وحال الطبيعة ، وحاضر في جزئياتها ، وكل موجود هو الصورة الجزئية اللاهوتية ، وهو (الموناد) الأعظم ، موناد المونادات Monades ، والنفس موناد حي ، وأما الجسم فهو أثر للموناد الحي ، وليس الجسم حقيقة في ذاته ، وأما الفكر فهو رجوع للموناد إلى ذاته .[2]

---

١ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ٢٨ ، ٣٠ .

٢ دكتور محمد علي أبو ريان - الفلسفة الحديثة - صـ ٢٥ ، ٢٧ ، كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ٣٠ ، ٣١ .

الفصل الثالث

مباحث الفلسفة

الفصل الثالث

[مباحث الفلسفة]

أهداف الدراسة في هذا الفصل : التربوية ، والعملية :

أولاً : استعراض المذاهب الفلسفية المادية والروحية في مباحث الوجود .

ثانياً : الكشف عن المذاهب الجمالية والقيمية والآثار الفنية والجمالية علي التكوين الثقافي والحضاري في المجمعات الإنسانية .

ثالثاً: الكشف عن أهمية التفكير العقلي وأثر الفلسفة وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية .

رابعاً : الكشف عن المبادئ والقيم الأخلاقية .

" الفصل الثالث "

" مباحث الفلسفة "

نتناول في هذا الفصل أهم مباحث الفلسفة ، والتي شغلت جوانب التفكير الفلسفي على مر العصور قديماً عند فلاسفة اليونان والعصور الوسطى وحتى العصر الحديث ، وتنحصر هذه المباحث والتي يتفق حولها أكثر الفلاسفة والمفكرين في : الوجود الطبيعي والميتافيزيقي ، والمعرفة ، والقيم وفروعها قيم الحق والخير والجمال ، وأضيف إلى ذلك ايضاً - علاقة الفلسفة بالعلوم الإنسانية أو الاجتماعية ، مثل التاريخ والسياسة والاجتماع إذ توجد مباحث مشتركة شغلت علماء الاجتماع بالقدر الذي شغلت عقول الفلاسفة ، مثل : المقولات ، والدين والأخلاق ، والقانون ، والفنون الأخرى .

أولاً : مبحث الوجود (الأنطولوجيا) Ontology , Being :

لنتساءل هل الوجود مستقل عن وسائل معرفتنا ، كالإحساس والعقل والشعور أم الوجود يتوقف عليها ، ويتحدد طبقاً لها ؟ وبمعنى آخر هل الوجود سابق على المعرفة ، أم المعرفة هي التي تسبق على الوجود ؟ هذا التساؤل حير عقول الفلاسفة والعلماء على مر العصور ، فمنهم من ذهب إلى الفصل بين الفكر والوجود كما قال ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود) قدم الفكر على الوجود ووصل من خلال هذه المقولة إلى إثبات الوجود الطبيعي العالم ، ووجود ذاته كمفكر ثم الوجود الإلهي ، ومنهم من ذهب إلى تقديم الوجود على الفكر إذ كيف أفكر أو أشعر بوجودي ، وأنا لست بموجود حقيقة ؟ وعلى ذلك صار الوجود مشكلة ضمن مباحث الفلسفة ، وذهبت بشأنه المدارس الفلسفية مذاهب شتى ومختلفة ، ومتفرقة بين المادية الحسية والواقعية ، وبين الروحانية والعقلانية المفكرة ، ولمزيد من التوضيح والرؤية نقسم هذه المذاهب إلى قسمين ، إحداهما يقول : بالوجود المادي الواحدي أو المتعدد ، والثاني يقول بالروحية والعقلانية أو المثالية ، متتبعين ذلك عبر تطور التفكير الفلسفي عند اليونان وحتى العصر الحديث .

١- المذاهب المادية والروحية العقلية عند اليونان :-

أ ـ المذاهب المادية ـ (الواحدية ـ والمتعددة :

إن الفلسفة كانت وما زالت تساؤلاً عن الوجود ، وهذه الفكرة أول ما أجتذبت أنظار فلاسفة اليونان الأوائل من الطبيعيين ، ولم يكن لها أي معنى يقف خلف هذا الكون المتعدد الظواهر المادية أمام الحواس ، كما سوف يظهر فيما بعد عند أرسطو والفلاسفة المثاليين أو العقلانيين فيما بعد ـ عندما نجدهم لا يقفون عند حدود الواقع أو الوقائع الكونية فقط ، بل يذهبون إلى ما وراء هذا الوجود بمظاهرة للكشف عن حقيقة علته وقوته الكامنة في وجوده .

* : تعتبر الواحدية المادية هي أقدم المذاهب في الفلسفة اليونانية ، ظهرت عند الطبيعيين الأوائل في المدرسة (الأيونية) ، إذ نجد طاليس يرجع جميع الأشياء إلى أصل واحد ومبدأ واحد ظهر عنه كل شيء ، وتقدم به كل شيء وهذا الأصل عنده هو (الماء ، كذلك يذهب تلميذه أنكسمندريس إلى أن أصل الموجودات ، وكل شيء من حركة أو سكون أو خلق إنما يرجع إلى عنصر ومبدأ واحد هو (اللامتناهي) ـ الذي يحتوي على جميع أتحاد وعناصر الوجود المتضادة ، وهذا اللامتناهي عنصر مادي أيضا ، تتحرك الموجودات وعناصرها داخلة ، فتتوافق أو تتعارض بقوتها المادية ، ثم يأتي أنكسمانس فيزعم أن أصل الوجود وعنصره هو (الهواء) ـ وهو عنصر مادي أيضا ، مصدر الحياة وتكون الوجود والموجودات السماوية والأرضية ونفس الوجود ، أما هيراقليطس فقد رجع بأصل الوجود ، إلى قوة أثيرية وهي (النار) وهي عنصر مادي أيضا ، لكنها تتمثل عقل الكل ، لوجوس Logoos الوجود إذ أضفى عليها صفة عقلانية من حيث ضبط الأنسجام الباطن في الأشياء مع إيمانه أيضا بأنها مصدر التحول والصيرورة في الموجود والوجود كله ، أما الفيلسوف الطبيعي الأخر ، الذي جاء بتعدد العناصر فهو أنباذوقليس إذ لم يقتصر على جوهر أو عنصر مادي واحد في الوجود بل قال بأربع عناصر أساسية تمثل جوهر الوجود والموجودات المادية ، وهي : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ، هي الأصول الأولى للأشياء جميعاً ، وهذه العناصر لا يتحول أحدها إلى الأخر ، بينما قوتان توحيد وهي المحبة ، وتفريق وهي الكراهية ، ويشير أنباذوقليس في مذهبه المادي المتكثر أيضا إلى نظرية في التطور التدريجي بين الموجودات ـ ويشير إلى أن كل شيء حتى المعرفة والإحساس إنما يرجع إلى المادة .

ثم جاء الذريون ، ومنهم ديموقريطس ، فأرجع أصل الموجودات وتكونها إلى عنصر مادي واحد وهو (الذرة) ، فالوجود يتكون من ذرات لا متناهية ، متشابهة في طبيعتها ، وتتميز الموجودات بالتالي من حيث أشكال وأحجام الذرات المكونة لها ، وكل ذرة لها كيفيتها الخاصة بها ، والتغير في الوجود يتعلق باتصال الذرات أو انفصالها ، والتغير في الوجود تابع لحركة ميكانيكية آلية .[1]

وقد اتجهت مدرسة فلسفية أخرى - إلى اعتبار الوجود كل واحد لا يتغير ، ولا ينفصل ، ولا حركة بين أجزاء الوجود - وهي المدرسة (الإيلية) وعلى رأسها ، (بارميندس) فقد أنشأ فلسفته في الوجود على فكرة الثبات وعدم التغير ، فالوجود ثابت ، مثبت في كل شيء ولا يخرج عنه شيء ، ومليء كل شيء وليس في العالم إلا المادة والوجود المادي ، وهو كل واحد متصل ، أزلي وساكن سكوناً ثابتاً ، وأن العقل هو الذي يدرك هذا الوجود المتصل الواحد لا يدرك شيئاً خارجاً عنه ، أو مغايراً له ..

ولكن حدث نوع من التطور في الفكر المادي الطبيعي عند الفلاسفة الطبيعيين إذ أشار " أنكساغوراس " ٤٢٨ ق . م ، إلى العقل ، وأهميته بالنسبة للوجود المادي ، فقد أتبع طريقة التفسير العقلي المحض ، ورفض فكرة التغيير الكيفي للأشياء ، وفسر اتصال وانفصال الجواهر المادية الموجودة بالفعل ، وأن الحركة في المادة تحدث بفعل موجود أسمى من الموجودات وهذا الموجود يجب أن يكون مفكراً وعاقلاً وقادراً وهو " العقل " . وهذا العقل متميز عن المادة ، غير قابل للقسمة لأنه بسيط وليس مركباً ، ووظيفته تفريق كتلة المادة ، المتشابهة من الأجزاء ، كاللحم والعظم .. الخ ويفسر الحركة بالدائرية ، ولذلك لا تنقطع ولا تنتهي عند حد معين ، ولعل هذا العقل في فلسفة أنكساغوراس المادية يشبه المحرك الأول عند أرسطو فيما بعد .[2]

ب - المذاهب العقلية والروحية ، الواحدية والمتعددة :-

أنتقل البحث الفلسفي ، وتطور الفكر من مجرد النظر في الوجود من حيث كونه موجودات وأشياء لها مظاهرها وظواهرها الخارجية المادية والتي ترجع عند الماديين إلى عنصر مادي واحد أو أكثر من عناصر أخرى ، هي أصل الوجود وجواهره ومصدر حركته وصيرورته آلية ميكانيكية - إلى النظر في الوجود نظرة عقلية أو روحية ومثالية للبحث فيما وراء هذا الوجود أو في باطنه من قوة أو قوى محركة

١- دكتور محمد علي أبو ريان - " تاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية) " ، جـ ٢ صـ ١٠٥ .
٢- المصدر السابق ، صـ ١٠٤ - يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " ، صـ ١٦٢ .

وموحدة ومبدعة ، دون الوقوف على المادة فقط ، ومن هنا بدأ مبحث الوجود يتخذ معنى العلم أو الانطولوجيا ، ويشير بعض الباحثين إلى أن وولف wolff (١٧٥٤) م أول من استعمل هذا المصطلح لكي يفرق بين دراسة الوجود والكون [١] فالكون : هو الظواهر الحسية التي تراها وتحسها في العالم من حولنا .

أما الوجود : فهو الخاصية الكامنة خلف هذه الظواهر ، والتي تعبر عن واقعة الحقيقي Reality ، فلو أننا أسقطنا الظواهر الحسية ، وحددنا خصائص الأشياء للوصول إلى ما ورائها من معاني أو مبادئ أو ماهيات فماذا نرى ؟ هل تصل إلى المبدأ الأساسي للوجود فتراه متمثلاً في المادة ، Mutler ، أم الطاقة Energy ، أم الذهن Mind ، أو العقل Reason ، أو الروح Spirit ؟ وبهذه التساؤلات تصعد بالوجود من مجرد الظواهر والكونيات إلى مشكلة في الوجود Problem of Bieng ، أو الأنطولوجيا Ontology ، [٢] ومن هنا لا يتوقف هذا العلم على الكونيات والطبيعيات وخصائصها الجزئية والحسية فقط ، بل يمتد ليشمل كذلك ما وراء ذلك أي ما وراء الطبيعة أو الوجود الميتافيزيقي كذلك .

وربما كان أرسطو (٣٢٢) ق . م ، هو أول فيلسوف يوناني حدد خصائص هذا العلم حين وصف الفلسفة الأولى (أي الميتافيزيقا) بأنها " البحث في الوجود بما هو موجود " [٣] وقد تأثر بهذا التعريف معظم الفلاسفة من بعده حتى أمتد ذلك إلى الفلاسفة العرب والإسلاميين ، في الثقافة والحضارة الإسلامية ، مثل الكندي [٤] والفارابي وابن سينا ، وكذلك عند ابن رشد وغيرهم .

وإذا كان أرسطو أطلق على هذا العلم في الوجود اسم الفلسفة الأولى فإنه يطلق على الموضوعات الطبيعية الكونية اسم الفلسفة الثانية ، كما يطلق على الفلسفة الأولى أيضاً علم الحكمة بمعنى أنه الغاية التي تسعى إليها العلوم الأخرى ، فالدارس للموجودات في سائر العلوم الأخرى لا يبدأ بالوجود بل ينتهي إليه ، فدراسة العلوم والموجودات الأخرى ليست إلا وسيلة جزئية للوصول إلى علم الوجود بما هو موجود ، وهو أيضاً العلم الإلهي أو اللاهوتي لاعتبار أن أهم خصائصه دراسة الوجود الإلهي باعتباره الموجود الأول الخالص والبحث في طبيعة الوجود الإلهي من موضوعات

١- دكتور محمد ثابت الفندي - مع الفيلسوف - صـ٩٥ .

٢- دكتور أمام عبد الفتاح أمام " مدخل إلى الفلسفة " - صـ٣٢١ .

٣- نفس المصدر السابق - صـ٣٢٢ ، للمزيد - يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " ، فصل (أرسطو) .

٤ للمزيد : دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة - رسائل الكندي الفلسفية (رسالة في الفلسفة الأولى) ٢ -

الميتافيزيقا ، فالوجود - أو علم الوجود - الأنطولوجيا - يبحث في الوقائع النهائية التي تقع خلف الظواهر الكونية الوجودية ، أو البحث عن العلل الأولى ، جواهر واحدة للموجودات ، وقد رأينا أن الماديين رجعوا بهذه العلل الأولى للوجود إلى عنصر أو عناصر مادية ، إلا أن الوضع هنا يختلف عند أصحاب المذاهب العقلية أو الروحية أو المثالية ، ونذكر بعض النماذج والشخصيات الفلسفية التي تعبر عن هذا الاتجاه عند فلاسفة اليونان .

تعتبر الواحدية الروحية أو العقلية ، سابقة في الفلسفة اليونانية مثل الواحدية المادية في بحث الوجود ، إذ تشير المصادر إلى المدرسة الإيلية وزعمائها مثل [1] زينون الإيلي ، وبارمنيدس وأكسانوفان وميلسوس ، فإن كانت نظرتهم للوجود تقول بالثبات المادي واللامتغير ، والسكون الدائم ، إلا أن هذه النظرة تصعد إلى مبدأ هذا الوجود الدائم ، وهو أن العقل وحده الذي يدرك هذا الوجود الثابت ، وبالتالي فإن العقل هو الذي يدرك العلم الحقيقي بالوجود ، وقد تأسس على ذلك علم المعرفة الحقيقي بطبائع الأشياء ، وعدم التناقض عن طريق العقل .

وتتجلى النظرة العقلية والروحية والمثالية ، بصورة أوضح عند كبار فلاسفة اليونان من أفلاطون حتى أرسطو ، من خلال النظرة الثنائية للوجود ، فما من موجود يتصف بالحياة الوجودية إلا ويشمل عنصرين أساسيين هما : الروح والبدن ، أو الجسم والنفس ، أو العقل وسائر الجسد ، فالجسد والبدن مادة حسية ملموسة ، أما الروح والنفس والعقل ، فلا يمكن ملامستها وهي أمور لا تلمس ، والبدن والجسم يمكن أن يتغيرا ويتحولا ويفنيا ويموتا ، أما الروح والعقل فلا يفنى ولا يتبر ، فهي أمور أو ماهيات قائمة بذاتها .

ويعتبر أفلاطون هو الذي دعم النظرة الثنائية بالنسبة للموجود الإنساني أو بالنسبة للعالم ككل ، فالإنسان عند أفلاطون يتكون من عنصرين هما : النفس والبدن ، ويبرهن في محاورة فيدون phaedo (عن النفس) [2] على خلود النفس immartality of saul بأنها إلهية والخلود من صفات الإلهية وما هو إلهي فهو خالد لا يجوز عليه الفناء ، إذن ليس لها اصل مادي ، أما البدن فهو مادة وسجن للنفس ، والفيلسوف يعرف أن النفس تصل إلى الحقيقة بانفصالها عن هذا البدن والحقيقة هي (

---

١ دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - صـ ٣٣١ .

٢ أفلاطون - محاورة فيدون (أو عن النفس) - صـ ٣٥ وما بعدها .

نور المثل Idaes) ومن هنا يصعد أفلاطون إلى تفسير حقيقة العالم والوجود ، فيشير إلى عالم المثل ، بأنه عالم الوجود الحقيقي ، عالم الفكر الخالص عالم الماهيات والصور والعقل والروح الخالدة ، الذي يمثل الوجود الروح العقلي الخالص ولم يخلقه أحد ، عالم الصانع الأول . أما هذا العالم أو الكون فليس هو الوجود الحقيقي بل هو عالم الظلال والأشباح والأوهام ، عالم المتغيرات والمتناقضات .. وهكذا .

وهذه الثنائية في علم الوجود نجدها عند أرسو أيضاً ، وإن كان ارسطو لم ينكر أو يرفض الوجود المادي الطبيعي الحسي المشخص ، إلا أنه جعل للصورة والماهية والفكر العقلي وجوداً حقيقياً ، يمثل الجوهر والأساس المبين والمحدد للوجود الطبيعي أو الحس المشخص .

رأى أرسطو ، بناءً على ما سبق ، أن العالم يتألف من مبدأين أساسيين هما : الصورة Farm والمادة Matter ، أو الهيولي والصورة ، والصورة هي المثال عند أفلاطون الذي يعبر عن الفكر والعقل والروح أو الماهية ، والهيولي هي المادة الأولى غير المتعينة ، والعجينة التي تشكلت بفصل الصورة ن فتكونت الأشياء أو عالم الموجودات الطبيعية والعقل في الإنسان هو صورته ، بينما البدن فهو مادته . [1]

يضاف إلى ذلك ان أرسطو يميز بين نوعين من الوجود ، هما : الوجود بالقوة ، وهو الموجود غير الفعال ، الغير متعين أو محدد قبل دخول الصورة أو الروح عليه أو الشكل ، مثال : البذرة ـ شجرة بالقوة ، الخشب سرير بالقوة ، أما الموجود بالعقل ، فهو الموجود عندما تدخل عليه مادته الصورة أو الفكرة أو العقل لتشكها على موجود أو وجود له فعل ووجود واقعي ومعروف ، وهكذا نجد أن فلاسفة الوجود نظروا على الوجود بحقيقته وماهيته لا بمادته فقط ، كذلك أضيف أن فكرة (المحرك الأول) عند أرسطو لها دور هام في تحديد نظرته للوجود ، وبحث عالم الوجود الحقيقي ، لأن هذا المحرك هو الذي يعطي الدفعة الجوهرية للحركات السارية والمنبثقة في عالم الوجود المادي والمشخص بما فيه من كائنات أيضاً ، ومن خصائصه انه ثابت لا يتحرك وإلا احتاج إلى محرك آخر لكي يدفعه إلى الحركة ، وهكذا في التسلسل ، فلابد أن هذا المحرك ثابت ، وهو يمثل جوهر الحرة الوجودية دون غيره .

---

١ للمزيد : دكتور محمد علي أبو ريان ـ تاريخ الفكر الفلسفي عند اليونان (ارسطو والمدارس المتأخرة) جـ ٢ ـ (فصل ارسطو) .

وقد تتابعت هذه النظرة الثنائية الروحية والعقلية عند فلاسفة العصور الوسطى ، من أفلوطين platuus (٢٧٠) م حتى القديس أوغسطين (٤٣٥) م ، فأفلوطين مؤسس المدرسة الأفلاطونية المحدثة ، لم ينظر إلى الوجود المادي ، بل شخص إلى عالم الوجود العقلي والروحي ، عالم الواحد الذي تولدت عنه ، وفاضت سائر الموجودات الأخرى ، فاض عنه العقل الأول ، ثم النفس الكلية ثم الطبيعة والعالم .

أما القديس أوغسطين فقد تأثر بأفلاطون تأثراً عميقاً في تفرقته بين الروح والعقل والنفس وبين الجس والمادة ، فالروح والعقل والنفس تمثل الوجود الحقيقي ، أما المادة لا معنى ولا بقاء لها ، وظل هذا التصور سائداً في العصور الوسطى حتى القديس توما الأكويني الذي تأثر بارسطو في النظرة إلى عالم الوجود الطبيعي ، وأضفى جانباً علمياً أو عملياً على فكرة عن الوجود متأثراً أيضا بتيارات إحياء الأرسطاطاليسية وروح الكنيسة اللاهوتية [(١)]

ومن الجدير بالذكر أن مبحث الوجود ، ودراسة علم الوجود لم يشغل عقول فلاسفة المدارس اليونانية المتأخرة ، فالمدرسة الرواقية والأبيقورية والسقراطيين والشكاك وغيرهم ، انصرفوا إلى الدراسات والبحوث المادية الأخلاقية ، والعملية ، لانشغالهم بما هو حادث في المجتمعات اليونانية والرومانية إبان الحضارة الهللينستية وما كان يعتلج في المجتمع اليوناني والمدن الرمانية المتناثرة في ربوع الأمبراطورية من تيارات دينية لاهوتية وأخلاقية وسياسية ، معلنين حقيقة واحدة وهي على الإنسان (أن يعيش وفق الطبيعة) وقوانينها ، لأن الطبيعة تقوم بقانون واحد لا يجب الخروج عنه ، اللهم إلا أن الفيثاغورية الجديدة نظرت إلى الوجود نظرة ، رياضية ، تقوم على فكرة الأعداد ، والأنغام ، فالوجود الحقيقي عند الفيثاغورية ، هو وجود العدد، والعدد يمثل أشكال الوجود المختلفة ، لذلك فروا الوجود بناءً على نظريات العدد الرياضي ، والأشكال الهندسية ، وأن الأنغام تؤدي إلى صيغة التوافق بين الوجود بصفة عامة ، فقالوا " أن العالم أو الوجود عدد ونغم " [(٢)] وبصفة عامة فإن أخلاق الرواقية والأبيقورية كانت مادية تمجد اللذة الحسية والمتعة والسعادة التي تبتعد بالإنسان عن الألم .

١- للمزيد من ذلك : أنظر ما سبق في الفصل السابق (عن الفلسفة في العصور الوسطى) ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط " - صـ٢٢٥.

٢- للمزيد - الفصل السابق ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " .

٢- المذاهب المادية والروحية والعقلية في الفلسفة الحديثة :

أ- المذاهب المادية في بحث الوجود :

يقدم الفيلسوف المادي الإنجليزي توماس هوبز (١٦٧٩) م Thomas Hobles فكرة عن المذهب المادي فيقول " العالم - أي الكون بأكمله جسمي ومادي ، أي أن له أبعاد في الحجم والمقدار ، كالطول ، والعرض ، والعمق ، وكذلك كل جزء من أجزاء الكون جسم ، وما ليس بجسم لا يمكن أن يكون جزءاً من هذا الكون " ، لكن الفضل في تشكيل المذهب المادي الحديث ربما يرجع إلى إسحاق نيوتن (١٧٢٧) م ، Neuton ، الذي أعطى دفعة قوية لتطور المذهب الآلي ، وجعل التفسير المادي للموجودات يتطور مع التفكير العلمي ، ولذلك نرى أن الأيمان بتقدم العلم يفسر لنا الطبيعة ، أو طبيعة الظواهر الروحية ويردها إلى المادة ، ولقد ذهب فريق من الماديين فزعموا أن العقل صورة من صور المادة ، التي تتميز بالقوة والتنوع والحركة والحياة والتفكير ، فليس ثمة شيء أسمه الروح أو العقل المستقل عن المادة أذ أحل فيها وهبها الحياة والحركة والفكر ، وليست الظواهر الوجدانية والنفسية والروحية إلا وظائف لأعضاء الإنسان ، فالتفكير وظيفة المخ ، كما أن الذوق وظيفة اللسان .

يقول جون تولند (١٧٢٢) م gohn toland ، أن المخ يفرز التفكير كما يفرز الكبد الصفراء ، وكما تهضم المعدة الغذاء ، كما أن الوعي والشعور يعتمدان على الوظائف الفسيولوجية للإنسان .

وقد حاول دافيد هارتلي (١٨٥٧) م David Hartly ، أن يرد علم النفس إلى وظائف الأعضاء ، فالإنسان ليس إلا مجموعة أعصاب وليست الأفكار إلا تداعياً عن طريق الاهتزازات العصبية ، فالأفكار في جذورها ذات طبيعة مادية ، ويقرر جوليان دي لامتري (١٧٥١) م أنه لا يوجد سوى المادة ، وأن التفكير ليس إلا مرحلة معقدة من التي تنشأ عن الإحساس والذاكرة ، ويقرر بول هنري هلياخ ، (١٨٧٩ -) P H , Holiach ، أنه لا يوجد وراء الظواهر المحسوسة أي موجودات غير مادية أو حسية ، فلا توجد سوى المادة لأنها الشيء الوحيد الذي يؤثر في حواسنا بطريقة أو بأخرى ، وليس العقل عنده إلا الجسم منظور إليه من وظائفه ، وكل شيء في الوجود يمكن تفسيره بالمادة والحركة لأنهما أزليتان أبديتان ، وتتحكم فيهما قوانين ضرورية ، وعلى ذلك لا وجود للنفس البشرية ، ويمتنع وجود الله عز وجل وتدبيره وعنايته وليس

في الطبيعة غاية أو هدف نعمل لأجله ، كما أن المذهب المثالي أضغاث أحلام زائف .[1]

كذلك يشير لودفيج بوخنر L , Buchner (في كتابه عن القوة والمادة Force – Matter) عام (١٩٥٤) م ، إلى أنه ينبغي علينا أن ننظر إلى التفكير على أنه ضرب من الحركة الطبيعية العامة التي تنقسم بها المادة إلى عناصر عصبية مركزية على نحو حركة تقلص مادة العضلة ، كما أن حركة الكون هي الضوء الأثيري الكوني ، إن كلمات مثل الذهن ، والروح والفكر والحساسية Sensibility ، والإرادة Volution والحياة live ، تدل على كيانات للشكل المادي الوجودي .[2]

ولكن هناك بعض الانتقادات والملاحظات على أصحاب المذاهب المادية في تفسير الوجود .

* عن القول بان العقل والنشاط الذهني والفاعلية الروحية ترتد في النهاية إلى المادة قول مسرف وبسيط ، إذ لا يمكن تصور كيفية صدور الإحساس عن الحركة ، ولا كيف يفرز المخ التفكير ، وكيف تكون الأفكار في جذورها ذات طبيعة مادية ، كذلك فإن المادة لا تساعد على النظر وإعمال الفكر والتميز بين الذات والموضوع ، ويذهب جون كيرد (١٩٠٨) م Caird , J وهو أحد الفلاسفة المثاليين الهيجليين إلى أن محاولة الماديين البرهنة على أن العقل انبثق من المادة قول فاشل ويقوم على أساس كاذب ، فليس العقل نتاجاً للمادة ، إذ لا يمكن تصور المادة دون استخدام المقولات الفكرية العقلية ، وكلما سرنا في تفسير المادة يتحتم علينا أن نستخدم أفكاراً كلية ، مثل الوحدة ، والكثرة ، والجملة ، والجوهر والسبب والنتيجة والتحديد والتفاعل المتبادل ، وكلها صور للفكر .[3]

ب - المذاهب العقلية والروحية في بحث الوجود :-

الفلاسفة الذين يمثلون هذه المذاهب الروحية والعقلية يعارضون الماديين في بحث الوجود ، إذ يتجه أصحاب هذه المذاهب ، في تفسير الوجود - والموجود بالروح والعقل أو ما يشبه الروح أو العقل وحده ، إذ يرى هؤلاء أن طبيعة الأشياء الكامنة

١- دكتور توفيق الطويل " أسس الفلسفة " - صـ١٥٥ وما بعدها .

٢- دكتور إمام عبد الفتاح إمام - " مدخل إلى الفلسفة " صـ٣٢٨ ، للمزيد من الدراسة أيضا - رابوبرت " مبادئ الفلسفة - صـ١٨١ ، ١٨٢ .

٣ المصدر السابق - صـ ٣٣٠ ، ٣٣١ .

وراء الظواهر المحسوسة روحية في أصلها ، إذ يعترفون بالعلاقة بين النفس والجسم وبين التفكير والمخ ، لكن هذه العلاقة ليست علاقة علية ، فليس الجسم علة ولا التفكير معلولاً للمخ ، لأن المخ مادة والمادة لا تشعر ولا تفكر والروح والعقل هما مصدر الظواهر المادية والبدنية فإننا إذا لم نستطع أن ندرك الأشياء بالحواس ، فإننا نعرفها بالتفكير المجرد وحده فالطبيعة إذن روحية لا مادية .

إذا كانت المذاهب الروحية والعقلية قد نشأت في ميادين الفلسفة بعد المذاهب المادية لأن العقل يتجه بطبيعته إلى المحسوس أو الموجود المرئي أولاً ، لكن سرعان ما يتجاوز فيما وراء المحسوس للكشف عن المجهول وأسراره ، وقد وضعت بذور المذاهب الروحية المثالية عند أفلاطون ، لأن الوجود الحقيقي لا يكون بتغير المثل أو نماذج الأشياء ، وتوجد مذاهب في التفسير الروحي للوجود متكثرة ثم مذاهب واحدية .

* وفيما يتعلق بمذاهب الروحية المتكثرة في الفلسفة الحديثة فخير من يمثلها الفيلسوف الروحي ليبنتز (١٧١٦) م Leibnits وجورج باركلي (١٧٥٣) م G , Berkly ، فقد هاجم ليبنتز المذهب المادي الآلي عند ديمقريطس الذي فسر به طبيعة الوجود ، واتجه على تفسير الوجود تفسيراً ديناميكياً ، فقرر أن الموجودات تتكون من ذرات روحية هي (مونادات) Monads ، متناهية العدد ، لا تقبل التجزئة بالعقل ولا في الذهن ، ولا تتعرض للفناء ، وتنزع دائماً إلى العمل والحركة وتتميز بأنها بسيطة لا شكل لها ولا مقدار ، وبها تتكون الأشياء ، أوجدها خالق ـ فتصدر عنه كما يصدر النور عن الشمس وهي مدركة وإن كان إدراكها متفاوت في القوة أو الضعف ، فيقوى إدراكها طردياً مع الترقي من الجماد إلى الحيوان فالإنسان ، الله هو مناد المونادات كم يسميه ليبنتز ، ومن ثم لا يكون للمادة في كل صورها أو العالم الطبيعي الخارجي أية وجود بذاتها .[1]

وثمة ثنائية تظهر عند ديكارت الفيلسوف الفرنسي ، والديكارتيين كذلك ، تظهر في تفسير العلاقة بين الجسم والمادة وبين النفس والفكر ، فديكارت رد الموجودات على ثنائية الفكر والامتداد ، ثم قرر اتحادهما ، وجعل الغدة الصنوبرية (في مقدمة المخ) واسطة الاتصال بينهما .

ثم جاء مليرانش (١٧١٦) م وردها إلى علل المصادفة والاتفاق التي تتحقق بها إرادة الله تعالى ، أما ليبنتز فقد رد الاتصال بين الموجودات إلى قانون التناسق

١ دكتور علي عبد المعطي محمد ـ ليبنتز فيلسوف الذرة الروحية ـ ط منشأة المعارف ١٩٧٢ م .

الأزلي الذي قرر فيه الله تعالى بتدبير معقول أعده منذ الأزل القديم لكل ذرة نظاماً تسير بمقتضاه بحيث تنسجم مع غيرها من الذرات الروحية .

أما جورج باركلي ، فهو رجل دين ، تولى كردينالاً في الكنيسة ، وقد فشت في عصره نزعة الإباحية ، وتيارات الإلحاد وظهر تمرد الناس على الدين واللاهوت المسيحي ، فثار ثورة عارمة على المادية ، والتمس في المثالية الروحية والعقلية الخلاص ، وتقويض الأسس التي قامت عليها النزعة المادية الإلحادية ، فانتهى إلى مذهبه في (اللامادية) ووضع لتفسيره كتابه " نظرية جديدة في الرؤية " A new theory of vision ، فهو فيه كتابة " أصول المعرفة الإنسانية " Principles of Human Knowledge ، ويتلخص مذهبه الروحي في " أن العالم الخارجي مجرد أفكار تقوم في العقل ، لا وجود لغير العقول ، وما يري فيها من خواطر ويدور فيها من أفكار والرأي عنده هو " أن الموجود هو المدرك ، والمدرك معنى ، وليست الأجسام إلا تصورات الروح ، والمادة مجرد فكرة والمادة معنى لا يمكن للإنسان أن يتصورها بغير صفاتها ، فالمادة إنما تعرف بصفاتها الحسية ، وليس هذا إلا من عمل العقل .

ولا يسلم باركلي بوجود معاني كلية مجردة مثل الزمان ، والمكان والحركة وغيرها ، لأنها لا توجد خارج الذهن ، إذ لا موجود إلا المدرك ، كما أن الموجود هو الحقائق الجزئية المحسوسة ، كالأشجار والحوائط وغيرها موجودات بشهادة الحواس يجوز الشك فيها .

إن الأشياء المرئيات ، والمسموعات والمذوقات وغيرها من محسوسات عند باركلي هي مجرد صور ، صورها العقل ، لأنها من عمل العقل الباطن ، ولهذا كادت اللامادية عند باركلي أن تحول المعاني إلى أشياء ، لا أن تحول الأشياء على معاني .

ثم يلخص باركلي خلاصة مذهبه الروحي فيقول : " أن الله تعالى بعنايته هو الذي نسق مدركاتنا ، ونظم بحكمته أفكارنا ، وعن هذه نشأت ما تسمى بالطبيعة عندنا وهذا الاتساق القائم في أفكارنا لدليل على وجود الله تعالى وقدرته على إحداث الخوارق والمعجزات .

وعلى ذلك فقد أثبت باركلي المحسوسات ، وعالم المعقولات والأرواح ابتغاء القضاء على المادية والإباحية والإلحاد في عصره ، فجمع بذلك بين التجريبية والروحية .[1]

---

١ دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - صـ ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

* وفيما يتعلق بالمثالية الواحدية ، أو الروحية ، فإنه يتمثل في المثالية المطلقة Absolute idealism الذي يمثل مذهبها في ألمانيا ـ فشته (١٨١٤) م وهيجل (١٨٣١) م ، وشيلنج (١٨٥٤) م ، وشوبنهاور (١٨٦٠ م ، وبشر بهذا المنهج في إنجلترا أيضاً توماس هل جرين (١٨٨٣) م ، وبرادلي وبوزانكيت وغيرهم في أمريكا في الوقت المعاصر .[1]

ويمكن تلخيص مذهب هؤلاء في المثالية الواحدية أو المبدأ الروحي الواحد في القول " أن الموضوع أو الروح المطلق المتمثل في الطبيعة هو أساس الوجود " ثم يذهب هيجل على القول " أن الفكر هو المبتدأ ، وكل ما في الكون حديث عنه وخبر ، والعقل البشري جزء منه في كل مراحله ، وهذا العقل الكلي هو التراث الروحي للإنسان في أعلى مظاهره ، ولهذا يتجلى في الفن والدين والفلسفة .[2]

٣ ـ الفلسفة الإسلامية ومذهب الوجود : ـ

لقد سرى مذهب الوجود في أوصال الفكر الفلسفي عند الفلاسفة الإسلاميين ، وكذلك عند علماء الكلام ، متأثرين بمذاهب فلاسفة اليونان ، والثقافة الإسلامية الدينية ، وإن كنا قد أشرنا إلى فلاسفة الإسلام والمتكلمين في الفصلين السابقين ، إلا أننا نركز هنا على موقفهم وتصورهم لمبحث الوجود وكيفية الملائمة والتوفيق بين نظريات الفلاسفة ومصطلحاتهم وبين الفكر الديني الإسلامي ، فمن ناحية انتقل المذهب الذري تحت ما يسمى (بنظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ـ عند المتكلمين ـ وأخذ به متكلمي المعتزلة ، والأشعرية ، وذلك للاستدلال على حدوث العالم والوجود الطبيعي ، وإثبات قد الله عز وجل ، وأهم من لخذ بهذا المبدأ من متكلمي الأشعرية ، الباقلاني (٤٠٣ هـ) والإمام أبو المعالي الجويني (٤٧٨ هـ) ، ويتلخص في أن العالم وأشياء الوجود الطبيعي تتألف من ذرات أو جواهر بسيطة ، وأجسام بالغة الدقة في الصغر ، وهي تتصف بالامتداد ، الشكل والحجم ، وهي في حركة دائمة ، ومنقسمة دائما حتى تنتهي إلى أجزاء لا متناهية في الانقسام ، ولما كان لهذا الانقسام نهاية فإن له بداية ، والشيء الذي له بداية ونهاية له أول وما له أول فلابد من نهاية له ، وعلى هذا فهو حادث وليس بقديم ، كما أن الوجود يتكون من جواهر وأعراض ، والجواهر

---

١ المصدر السابق ـ صـ ١٤٤ ، كذلك دكتور علي عبد المعطي محمد ، بوزانكيت (قمة المثالية في إنجلترا) ط دار المعارف ١٩٧١ م .

٢ دكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ مدخل إلى الفلسفة ـ صـ ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

تحل في الأعراض إذ ليس لها وجود بدونها ، فالأعراض محل والأعراض متغيرة ومتقسمة ، وبالتالي الجواهر التي تحل فيها تابعة لها ، وما يتقسم ويتغير فإن له بداية ، وما له بداية في الانقسام ، فلابد له نهاية أيضاً ، وعلى ذلك فأجزاء العالم والوجود الطبيعي حادثة وليست قديمة ، فالعالم حادث وليس بقديم ، وما يتبع وجود هذا العالم من الزمان والمكان والحركة ، والجوهر والإضافة ، والنقلة كذلك ، ومثل هذه الأحوال والمقولات لا تنطبق على الله عز وجل لنه مطلق خارج الوجود الطبيعي ، بيده الأمر والخلق والإيجاد والفناء للموجودات المتكثرة والمتحولة كذلك ، فالله تعالى قديم .[1] وهذا يتفق مع المذهب الديني الإسلامي في إثبات الخلق الإلهي للموجودات والوجود الطبيعي .

أما الفلاسفة الإسلاميين ـ فقد تناولوا مبحث الوجود ، بعضهم تأثر بنظريات الفلسفة في قدم المادة ، أو الهيولي الأولي آخذين بمذهب أرَسطو كابن رشد ، وحاول أن يدلل على أنه كان هناك وجود قبل الوجود لكن هذا الوجود تتقدمه القدرة والإرادة الإلهية ، وحاول الاستدلال ببعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى " وكان عرشه على الماء " (سورة هود آية ٧) وقوله تعالى " ثم استوى إلى السماء وهي دخان " (سورة فصلت آية ١١) ولكنه أراد أن يبين طلاقة القدرة الإلهية في الإيجاد حاضراً ومستقبلاً أيضاً مستدلاً بقوله تعالى " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات " (سورة إبراهيم آية ٤٨) .

وخوفاً من الوقوع في محظور وخطورة القول بقدم العالم مثل فلاسفة اليونان ، قال بفكرة الحدوث الأزلي .

وقد تابع الفارابي ، وابن سينا فكرة القدم اليونانية إلا أنهما حاولا حل هذه المشكلة الوجودية ، اتجها على فكرة الفيض والصدور عند أفلوطين وشراح الأفلاطونية المحدثة ، فوضعا اله تعالى الواحد في قمة الوجود ، وقد فاض عنه العقل الأول وفاض عن العقل الأول النفس الكلية ، وفاض عن العقل الأول عقل ثان وعقل ثالث .. وهكذا في سلسلة الفيوضات ففي مكل مرتبة يفيض عقل ونفس ، والعقل السماوي الدنيوي ، والذي هو مصدر الإلهام بالنسبة للشعراء والأنبياء والفنانين والمعرفة والعلماء ويؤوله الفارابي بروح القدس أو جبريل عليه السلام .

---

١ للمزيد : أنظر ـ دكتور محمد علي أبو ريان ـ تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ـ جـ ١ ـ ط دار الجامعات المصرية ١٩٧٣ م .

أما الكندي وهو فيلسوف العرب الأول ، فقد أخذ بنظرية الخلق الإلهي للوجود رافضاً نظريات الفلاسفة في قولهم بقدم المادة والوجود أو العالم الطبيعي ، وقد دلل الكندي على خلق العالم بما فيه من حكمة ونظام وتدبير وهذا لا يأتي من مادة بل من قوة عاقلة مطلقة تنظمه وتعطي له الوجود والنظام وهذه القوة الإلهية هي الله تعالى .

وقد استخدم الفيلسوف المسلم الكندي برهاناً عقلياً في تفسير الوجود والاستدلال على حدوثه وخلقه من خلال فكرتي (الأيس والليس) ، فالأيس يعني آنية الوجود ، أي الموجود ، أما الليس ، فهي تعني عدم الوجود ، وكلا اللفظين لا ينطبقان على الله عز وجل أو الوجود الإلهي بصفة عامة ، لأن الله تعالى موجود على الدوام في الأزل والحاضر والمستقبل الأبدي ، ووجوده لا يشبه الموجودات أو الوجود الطبيعي لأنه منزه عن كل المخلوقات والخلق .

وهذا العالم أو الوجود أيس عن ليس ، أي موجود عن عدم محض أي موجود ومخلوق عن لا شيء على الإطلاق ، وأثبت الكندي كذلك أن العدم غير متعين ، وليس بهيولي ، ولا مادة ، كما أن الحركة والكثرة في الموجودات وعالم الوجود لدليل على انه مخلوق وأن الذي نظمه خالقه ، وبه غاية أيضاً ، فالله خالق العالم لغاية ، وليس عبثاً ، أو بدون حكمة " كما أن هذا الوجود لم يكن صدفة أو اتفاقاً كما ذهب أرسطو أو الفلاسفة الماديين من قبل ، بل بفعل القانون الإلهي ، والحكمة والإرادة الإلهية . وهكذا.

وهذا مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف " كان الله ولا شيء معه " وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض " . [1]

---

١ للمزيد : دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة - رسائل الكندي الفلسفية - المبحث الأول ، كذلك : دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام - جـ ١ (الكندي) ، كذلك دكتور محمد محمود عبد الحميد أبو قحف - التفكير الفلسفي في الإسلام من المشرق إلى المغرب العربي - صـ ٨٧ وما بعدها ، ط الدار القومية للطباعة بطنطا ٢٠٠٦ م .

ثانياً : مبحث المعرفة ١- الأبستمولوجيا Epistemology :

نود أن نبحث في نظرية المعرفة من خلال ثلاثة تساؤلات أساسية يتشكل من خلالها فكر ومذاهب الفلاسفة منذ فجر التفكير الفلسفي عند اليونان - وحتى العصر الحديث ، وهي :

١- ما هي طبيعة المعرفة ؟

٢- هل في الإمكان قيام المعرفة ؟

٣- ما هي وسائل المعرفة ، ومنابعها وأدواتها عند العقليين ، والتجريبيين ، والوضعيين والاجتماعيين والصوفية .

١- طبيعة المعرفة : -

أ- طبيعة المعرفة عند فلاسفة اليونان : -

تعتبر طبيعة المعرفة والبحث عنها من أهم خصائص التفكير الفلسفي عند اليونان وفي العصر الحديث ، فقد أهتم سقراط بالبحث عن المعرفة الحقيقية بطبائع الأشياء وأمن بأن هناك حقائق كامنة وثابتة وراء المحسوسات ، يمكن الوصول إليها بالبحث عن ماهياتها ، ومعرفة حدودها ، وأندفع بمنهجه في التهكم والتوليد لمناقشة خصومه من السوفسطائيين المتشككين في المعرفة والحقيقة لإثبات هذه الحقيقة وتنقية عقول الشباب مما علق بها من شوائب الشك والإلحاد في الحقائق ، وحاول الربط بين المعرفة والأخلاق ، حتى يمكن للناس تجنب ارتكاب الرذائل أو الجنوح عن معرفة الفضيلة والخير . فرأي أن لكل شيء طبيعة أو ماهية ، هي حقيقته يكشفها العقل وراء الأعراض المحسوسة ، ويعبر عنا (بالحد) ، وأن غاية العلم إدراك (الماهيات) وتكوين معان تامة محدودة ، وعلى ذلك فإن المعرفة هي معرفة بالمبادئ الثابتة التي توجد خلف الظواهر المتغيرة ، والعلم هو البحث عن الكل وراء الجزئيات ، لأن ما يتغير لا يكون علماً بالمعنى الدقيق ، فكان يستعين الاستقرار ويتدرج من الجزئيات إلى الكليات أو الماهيات المشتركة بينها (الخصائص والصفات المشتركة) ، ويرد كل جدل إلى الحد والماهية ، فكان يسأل : ما الخير ؟ وما الشر ؟ ما العدل ؟ وما الظلم ؟ ، ما الشجاعة وما الجبن ؟ ، وهكذا كان يجتهد سقراط في تحديد الألفاظ والمعاني تحديداً جامعاً ، ويصنف الأشياء في أجناس وأنواع ، فيمتنع الخلط بينها ، ماذا يعني هذا عند سقراط ؟ هذا يعني أنه يريد استجلاء ماهية الأشياء لمعرفتها ، وتحديد طبيعتها ،

فالمعرفة الحقيقية إنما تكون عن طريق الماهية ، لأنها المعبرة عن الحقيقة ، ويتضح ذلك أكثر عند سقراط في محاولته أن يربط بين المعرفة ، وبين الأخلاق في قوله " الفضيلة علم والرذيلة جهل " ، فالفضيلة علم أي المعرفة بماهية الخير ، أما الرذيلة فهي جهل لانعدام المعرفة بالشر وأضراره بالنسبة للإنسان ، فإذا عرف الفرد ماهية الخير فإنه يندفع لعمل هذا الخير ، فيحصل بالتالي على السعادة ، ولكن عمل الشر والرذائل الدافع إليها الجهل بأهمية الفضيلة الخيرة وعدم المعرفة بماهياتها .

هكذا عبر سقراط عن حقيقة المعرفة وطبيعتها ، وجعل موضوعاتها الماهية المجردة ووضعها في العقل .

وجاء أفلاطون ليبحث عن المعرفة لذاتها ، ويحدد طبيعتها ووسيلتها وحقيقتها ، فاستقصى أنواع المعرفة ، كما كان رائجاً في عصر بين تيارات السوفسطائيين والهيراقليطيين القائلين بالتغير والصيرورة في كل شيء ، فوجد أن المعرفة تنحصر في أربعة أمور : الأول : الإحساس : وهو إدراك عوارض الأجسام ، وإشباعها .

الثاني : الظن ، وهو الحكم على المحسوسات بما هي كذلك .

الثالث : الاستدلال (الرياضي) وهو علم الماهيات ، المتحققة في المحسوسات

الرابع : التعقل ، وهو إدراك الماهيات المجردة من كل مادة .

المعرفة عند أفلاطون ترتيب بعضها فوق بعض ، فتصعد النفس من الواحد إلى الذي يليه بحركة ضرورية ، صاعدة إلى أعلى (الجدل الصاعد) ، ثم تهبط من التصورات الكلية إلى المفردات (الجَدل الهابط) متجلية حقيقة الأشياء وطبائعها .[1] وعنده أن العلم تذكر والجهل نسيان " وعلى ذلك يرفض أفلاطون العالم الحسي والمحسوسات ، ويصعد إلى عالم المثل ، عالم التصورات والماهيات عالم النفس الأول فيه المعرفة الحقيقية بماهيات ، والمعرفة الحسية ظنية والمحسوسات لا يمكن أن يقوم عليها علم أو معرفة حقيقية ، والعلم الحقيقي هو العلم بالماهيات والمثل الحقيقية للأشياء ، فكل شيء له مثال ، يعبر عن حقيقته ، وماهيته ويمكن إدراك ذلك بالعقل ، والتذكر ، وتذكر النفس أو العقل بعالمها الأول .

أما أرسطو : نجد أنه أول من نظر إلى العلم في مجموعة ووضع المبادئ أو تصنيف العلوم والفلسفة إلى قسمين : علوم ومعارف نظرية ، وهي التي ليس لها علاقة

١- راجع هذه الفكرة في الفصل السابق ، يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " (أفلاطون) ، صـ٦٨ ، صـ٦٩ .

مباشرة بحاجات الإنسان العملية مثل - علم الطبيعة والميتافيزيقا (الفلسفة الأولى) ، وعلم الرياضيات .

أما العلوم والمعارف العملية : فهي التي لها اتصال مباشر بحياة الإنسان العملية وتوفر له السعادة مثل : علم السياسة ، والتدبير المنزلي وعلم الأخلاق .. وهكذا .

فالعلم عند أرسطو : نظري : ينتهي إلى مجرد المعرفة ويقع على الموجود وينظر إليه من ثلاث جهات من حيث هو متحرك ومحسوس - وهذا هو العلم الطبيعي ، ومن حيث هو مقدار وعدد وهذا هو العلم الرياضي ، ومن حيث هو وجود بالإطلاق ، وهذا ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) .

وجدير بالذكر أن أرسطو يؤمن بالعالم الطبيعي والحسي المشخص ويقع عليه المعارف الحسية ، والعلم الطبيعي ، وهو عالم المادة ، كذلك يؤمن بالصورة ، والماهية ، والمعرفة الحقيقية بطبيعة الأشياء تكون من ناحيتين هما : الصورة - الماهية ، الشكل ، ثم المادة أو الهيولي ، وينظر إلى الموجود من ناحية كونه موجوداً بالقوة ، أو موجوداً بالفعل ، وينتقد بناءً على ذلك نظرية المثل عند أفلاطون .[1]

<u>ب - طبيعة المعرفة بين الواقعيين :</u>

* وإذا اتجهنا إلى بحث طبيعة المعرفة (مذهب الواقعية) عند (الواقعية Realism) ثم المثالية التصورية Idealism ، نجد أن (مذهب الواقعية) يقوم على أن للأشياء وجوداً عينياً مستقلاً عن الذات العارفة ، وتعتبر مذهب الواقعية أن المعرفة صورة مطابقة لحقائق الأشياء وفي العالم الخارجي ، لكن النظرة الواقعية تعبر عن رأي الرجل العادي الذي يعجز عن التمييز بين ظاهر الشيء وحقيقته ، إذ أن حقيقة الشيء هي التي تبدو لنا ، وقد سبقت الواقعية النظرة المثالية أو التصورية ، كما أن الواقعية تقرر أن معرفة العقل مطابقة لحقائق الأشياء المدركة ، إذ ليس للعالم الخارجي كما هو مدرك في عقولنا إلا صورة لهذا العالم كما هو موجود في الواقع والعلاقة التي تقوم بين الأشياء الخارجية وأفكارنا التي تمثلها في عقولنا علاقة مشابهة وتطابق .

فالمعرفة عند الواقعيين إدراك عقلي أو حسي مطابق للأعيان في الخارج أو هي انعكاس العالم الخارجي على العقل .

١- للمزيد في ذلك أنظر : دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة اليونانية " جـ٢ (أرسطو والمدارس المتأخرة) (أرسطو) ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " (فصل أرسطو) ، صـ١٦٩ ، صـ١٨٠ .

ولا شك أن مذهب الواقعي نقيض المذهب المثالي الأفلاطوني الذي يعتبر المثل Ideas ، كما وضحنا فيما سبق ، هي وحدها الموجودات الحقيقية ، فلا يؤمن أفلاطون بالموجودات العينية الواقعية المحسوسة لأنها ليست إلا مجرد أشباح وظلال تمثل ، أو نماذج تمثل ماهيات ، وصور عقلية للوقائع الحسية ، فلكل شيء في الوجود له مثال ، الإنسان له مثال ونموذج الإنسانية وصورته الواقعية هي هذا الإنسان ، والفرس له مثال الفروسية ، وصورته الواقعية هي هذا الفرس أو (الحصان) ، ويشمل ذلك جميع الموجودات الواقعية كالحيوانات والنباتات والجمادات ، حتى الحشرات والهوام .. وهكذا .

* وجدير بالذكر أن لمذهب الواقعية فروع منها (الواقعية الساذجة) ويمثل أصحاب هذا المذهب مرحلة سابقة على التفكير الفلسفي والعلمي ، ومن خصائصه أن أصحاب هذا الاتجاه يثقون في مدركات الحس ، أو الحواس ، لكن تجربتنا توضح زعزعة الثقة في صدق أحكام الحواس ، مثال ذلك : أن العصا المغروسة في الماء ، تبدو منحرفة أو مكسورة أمام العين أو الرؤية الحسية ، بينما هي ليست كذلك ، مثال آخر : أن المرئيات تبدو للرؤية الحسية العينية صغيرة الحجم ، أو قليلة العدد من بعيد ، كالشمس ، أو القمر ، أو مجموعة من الأشياء العددية ، بينما هي ليست كذلك في الحقيقة ، وهذا وغيره يفقدنا الثقة في المحسوسات وأحكام الحواس ، ويقرر الواقعيون وجود العالم الخارجي بالفعل ، وأنه قائم حتى ولو كان بعيداً عن مدركاتنا .

* وهناك فرع آخر من الواقعية (وهو الواقعية النقدية التقليدية) Traditional Critical) إذ يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الحس يدرك حقائق الأشياء ، وهذه الحقائق تنحصر في قوانين الطبيعة ، فالمادة شيء حقيقي لها وجود عيني خارجي ، ولكن الكيفيات التي تدركها الحواس ليست إلا من عمل الذهن ، وهذا يشير إلى أن الواقعية النقدية ترفض التسليم بالوجود الحقيقي لعالم المدركات الحسية بغير اختيار نقدي .

ويمكن أن نضرب لذلك بالمثال الآتي : هو أن الوردة الحمراء معناها أن في الوردة خاصية تثير في العين تحت ضوء ملائم إحساسا لا يكون له معنى ، وشروط الإحساس بالاحمرار يظل قائماً ، لأن خاصية الحمرة في الوردة موجودة وجوداً موضوعياً وليس ذاتياً ، إذن وجود الأشياء لا يتوقف على قوى إدراكها ، وقد رفض جون لوك G , Lock ، رد الحقائق والمبادئ المشهورة إلى فطرة العقل ، على نحو ما ذهب إليه أفلاطون وديكارت ، وجعل العقل عملاً إيجابياً ، وهو أن يؤلف من الصور الحسية التي تنقلها الحواس معاني جديدة .

* وظهر مذهب (الواقعية الجديدة : New Realism ، عام ١٩١٠ م ، ورفض أصحاب هذا المذهب التسليم برأي الواقعية التقليدية النقدية ووجود وسيط بين الشيء المدرك والذات العارفة ، وهو الصورة الذهنية في مذهب جون لوك ، بل قالوا : بضرورة تحليل العلاقة بين التي تربط بين الذات العارفة وموضوعاتها ، لأن الإدراك يقع مباشرة وبغير وسيط ، مما يجعل المعرفة بالشيء الخارجي صورة مطابقة ، لحقيقته في الخارج .

* ثم ظهر أخيراً مذهب الواقعية النقدية المعاصرة Contemporary Critical ، في أمريكا منذ عام ١٩١٦ م ، وقال أصحاب هذا المذهب ، بالثنائية التي يتميز فيها المدرك ، عن الشيء المدرَك ، مع القول بأن الشيء المعروف هو وجوده الخارجي ، وأن معرفتي به هي التي تؤدي إلى وجوده ، ولكن وجوده مستقل عن هذه المعرفة ، ورفضوا أن يكون هناك فارق بين ظاهر الشيء وحقيقته ، وما يبدو من الشيء والشيء في ذاته .[1]

جـ - مذاهب التصوريين أو المثاليين (التصورية المثالية) Idealism :

رفض التصوريون والمثاليون أن يكون للمعرفة إدراكاً مطابقاً للموجودات المدركة ، أو أن للأعيان وجود مستقل عن العقل الذي يدركها ، إن وجود الموجودات يتوقف عند التصوريين والمثاليين على القوى التي تدكها ، وهي نفسها ليست إلا صوراً عقلية .

لقد رفض ديكارت فيلسوف التصورية المثالية الحديثة الواقعية التقليدية وجعل الفكر سابقة على الوجود ، فقال بين الفكر والوجود في مقولته : " أنا أفكر إذن أنا موجود " وتوضح هذه المقولة أنه يجب قبل أن أتأكد من وجود الأشياء الخارجية ، أن أنظر في أفكاري من حيث هما كذلك ، وأن أعرف الواضح منها من الغامض ، ورأي ديكارت أن العالم الخارجي لا يمكن إدراكه إلا بعد إدراك الأفكار ، أن الفكرة تسبق الوجود وليس في وسعنا إدراك العالم الخارجي مباشرة عن طريق الحواس ، لأن معلوماتنا عنه تعبر عن الصور والأفكار الموجودة في أذهاننا .

ويبدو أن ديكارت يبدأ من التفكير ثم يسير منه نحو الوجود فمقولة (أنا أفكر إذن أنا موجود " هي ما يطلق عليها اسم (الكجيوتو) الديكارتي المراد بها القول أن واقعة تفكيري تقيم البرهان على وجودي .

---

[1] دكتور توفيق الطويل " أسس الفلسفة " صـ٣٢٣ ، صـ٣٢٤ .

وتتمثل هذه المثالية الذاتية عند هوبز وهيوم من فلاسفة التجريبية الحسية الإنجليزية عندما ذهب كل منهما إلى رد الأشياء الواقعية إلى التأثيرات الذاتية الحسية أيضا .

وقد ظهر أثر المذهب المثالي والتصوري عند جورج باركلي ١٧٥٣ م وعند عما نويل كانط ١٨٠٤ م ، وفيلسوف المثالية والتاريخ هيجل ١٨٣١م إذ ذهب هؤلاء إلى القول بأن الأفكار سابقة على المحسوسات التي تطابقها ، والمعاني الكلية على الجزئيات ، فإن أي كائن من الموجودات المحسوسة يعرف عن طريق الوقوف على ماهيته (أي خصائصه الذاتية التي تشترك فيها أفراده) ، وبهذا يتحتم أن تكون ماهيته سابقة على وجوده المشخص .

وجير بالذكر أيضا أن التصويرية المثالية قد تشعبت إلى العديد من الفروع لعل أهمها : المثالية الذاتية ، والمثالية النقدية .

* : فالمثالية الذاتية : subjective Idealism ، تفسر العالم المادي تفسيراً روحياً عقلياً ، إن الوجود هو الإدراك ، فوجود الأشياء يعني أننا ندركها ، والمدرك معنى وغير المدرك لا معنى له ولا وجود له ، والمادة لا تدرك في ذاتها ، لأنها معنى مجرد لا يمكن تصوره بعيداً عن كيفياته . هذه هي اللامادية Immaterialism ، عند جورج باركلي تهدف إلى تحويل المعاني إلى أشياء ، ولا تحول الأشياء إلى معاني ، إذ يقول " أن وجود الشيء هو إدراكه ، إذ ليس للشيء المادي وجود مستق عن إدراكي له " (1)

ويذهب فشته فيلسوف ألماني (حديث) إلى أن الطبيعة مكونة بقوانين فكري وليست إلا علاقة بيني وبين نفسي والفكر لا يدرك إلا تصوراته العقلية ، فهي الظواهر الوحيدة التي يمكن أن تكون على يقين من وجودها ، وأن الأشياء التي تدركها من الظواهر الحسية متضمنة في تتابع أفكارنا وتعاقب خواطرنا .

* أما المثالية النقدية Critical Idealism : - فنجد كانط Kant في كتابه الشهير نقد العقل الخالص ، يرفض المثالية السيكولوجية أو الذاتية ، ويقول بالمثالية النقدية ، التي تعني التمييز الدقيق بين الظواهر العقلية وبين تلك التي تكتسب بالتجربة ، وتعتبر الظواهر العقلية ضرورية لإدراك الأشياء ومعرفتها . ويرى ذلك أن المعرفة لا تستقي من التجربة الحسية وحدها الحسية وحدها ، ولا من العقلية وحدها ، بل يضيف إلى هذا وذاك علاقات زمانية ومكانية وعلية ، بالإضافة إلى المعاني الأولية في العقل ، وهي

---

١ المصدر السابق . ص ٣٣٥ .

سابقة على كل تجربة ، ثم يشير إلى أن التجربة ليست ذاتية خالصة ولا موضوعية خالصة . لأن الشيء الخارجي لا يكون موجوداً بعيداً عن العقل الذي يدركه .

لقد حاول كانط في نظرية المعرفة أن يجمع بين مذاهب التجريبيين وبين العقليين في وقت واحد .

وعلى هذا الرأي فقد أشار كانط إلى نوعين من المعرفة : أحدهما قبلية والثانية بعدية ، فالقبلية مجموعة المعارف المسلمات الموجودة في العقل ولا يمكن اكتسابها بالتجربة ، مثل المبادئ الأولية ، والمسلمات الرياضية ، والمعارف الفطرية ، أما البعدية : فهي المعرفة التي تأتي بالاكتساب إذ يكتسب العقل عن طريق التجربة الخارجية ، وعلى هذا أيضاً لاحظ أن إدراك العالم الحسي يقتضي القول بمبادئ لا تستطيع التجربة ن تزودنا بها لأنها أولية ، سابقة عل كل تجربة . وهي في نفس الوقت شرط لإدراك عالم التجربة هذه المبادئ مقولات أو إطارات فطرية في العقل (غير مكتسبة) وتجعل الإدراك ممكناً ، إن المعرفة البعدية aposteriaria شرط وجودها قائم في معرفة قبلية Apriaria .

ويتحدث كانط عن الترنسندنتال Transcendental هو المعاني الخاصة بالفكر وحده ، وهو يسبق التجربة سبقاً منطقياً لا زمنياً ، ويجعل التجربة ممكنة .

وعلى ذلك فإن كانط رفض اقتصار بيعة المعرفة على العقل وحده بل ضم إليه التجربة ، لأن الحقيقة لا توجد إلا في التجربة وليست وحدها بل يضم إليها ما في النفس ، لأنه وجد في النفس (العقل) معرفة سابقة على كل تجربة (أي القبلية - وهي معرفة رياضية) .

ومما لا شك أنه قد ظهرت مذاهب أخرى مثالية وتصورية عقلية عند هيجل ، وبرادلي ، وبوزانكيت وشيلنج والمثالية الجدية عند كرونتشيه الفيلسوف الإيطالي عام ١٩٥٣م .. [1]

---

١ - المصدر السابق - صـ ٣٣٦ ، كذلك للمزيد : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - ط دار المعارف ١٩٨٣ م ، محمد علي ابو ريان - تاريخ الفلسفة الحديثة - ، دكتور علي عبد المعطي محمد - قمة المثالية في إنجلترا ط ١٩٧٢ م .

٢ - إمكان قيام المعرفة :

يستدعي ذلك بعض التساؤلات ، هل في الإمكان قيام المعرفة ؟ أم أن هناك شك في المعرفة والوصول إلى اليقين ؟ وهل هناك يقين معرفي ؟ وما هي المذاهب المختلفة في هذا المجال ؟

ظهرت كثير من المذاهب التي بحثت في هذا المجال منذ عصر الفلسفة والتفكير الفلسفي اليوناني والعصور الوسطى حتى العصر الحديث . ولكننا نستطيع أن نضيفها في عدد من النقاط التي توضح مجال المعرفة والوصول إليها أو الشك فيها ، إذ ظهرت مذاهب في الشك ، ومذاهب في التيقن أو اليقين المعرفي ..

أ - مذاهب الشك : scepticism :

نستطيع أن نحصر هذه المذاهب في الشك في فروع ثلاثة هي : الشك المنهجي ، والشك المذهبي أو المطلق ، ثم الشك الاعتقادي .

* **الفرع الأول هو : الشك المنهجي** Methodical- doubt ، وهو أن يصطنع الباحث الشك منهجاً للتفكير يفترضه بإرادته ليخلص عقله وذهنه من معلوماته توطئة وتمهيداً للتفكير فيها بنفسه دون أن يتأثر في بحثه بموضوعاته السابقة ، فهنا يعتبر الشك منهجاً في التفكير ، وهو رغبة من الباحث لامتحان معلوماته واختبار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحتويه من مغالطات وأضاليل ، وهو يمكن الباحث من البدء بدراسة موضوعاته ، وكأنه لا يعلم شيئاً ، فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة أو المغالطات التي يتلقاها عن غيره من الناس أو يقرأها في كتب الباحثين ، وهذا المذهب خير طريق لاتقاء الأخطاء وخطوة تسلم إلى اليقين فيما بعد ، ويؤدي للمعرفة الصادقة ، فهو وسيلة لا غاية في ذاته يزاوله الباحث بإرادته ويستطيع التحرر من شره .[1]

وقد زاول هذا المنهج في الشك الفيلسوف اليوناني سقراط ، لمناقشة حكماء عصره والسوفسطائيين الذين أذاعوا الشك المذهبي في كل شيء وأبطلوا المعرفة وأماكن الوصول إلى اليقين ، فكان سقراط يناقشهم ليوضح أضاليلهم ويبصر الناس بالحقيقة والمعرفة ، لذلك اصطنع طريقتين وعلى مرحلتين : مرحلة سلبية وهي مرحلة التهكم ، لكي يخلص العقل من الأخطاء ، غذ نجد سقراط يبدو مع المحدثين له أو معهم وكأنه يريد أن يتعلم فيسلم بأقوالهم أولاً مصطنعاً الجهل ، ثم يستفسر ويسير الشكوك في صحة أقوالهم ، متسائلاً ومستنبطاً من أقوالهم أفكاراً تبين تناقضاتهم ، وهكذا ينتهي

---

١ دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - ص ٣١٣ .

من التهكم إلى تحرير عقولهم من الأخطاء السوفسطائية ، وعندئذ يبدأ في المرحلة الثانية وهي مرحلة (التوليد) أي توليد المعرفة الصادقة بالحقائق من أفواه ونفوس المحدثين له وإرشادهم إلى الحقيقة ، وهذا هو الجانب الإيجابي عنده .

كذلك ذهب أفلاطون عندما تشكك في قيمة المعرفة الحسية والظنية التي قال بها السوفسطائيون جاعلين الإحساس والحواس هي مقاييس المعرفة بالأشياء وطبائعها المختلفة ، فاستعرض أنواع المعارف ووسائلها المخلفة من الإحساس إلى الظن إلى الاستدلال ثم التعقل وانتهى إلى الشك في قيمة المعارف الحسية لأنها لا تؤدي إلى اليقين المعرفي بحقائق الأشياء وطبائعها ، وقرر أهمية الاستدلال الرياضي والبرهان العقلي عن طريق تأمل الصور والبحث عن مثلها العقلية التصورية .

أما أرسطو فقد فطن إلى الشك المنهجي في كتابه ما بعد الطبيعة وفرق بينه وبني الشك المطلق ، فأهمل المطلق وأوصى بضرورة مزاولة الشك المنهجي عند التعرض لأي مسألة علمية لأن هناك علاقة ضرورية بين الشك والمعرفة بحقائق الأشياء ، وأن المعرفة التي تأتى بعد الشك المنهجي تكون أقرب إلى الصواب - وتصل إلى اليقين .

وفي العصر الحديث اصطنع هاملتون ١٨٥٦ م مذهب الشك وقال : إننا نزاول الشك مؤملين أن ينتهي بنا إلى الاعتقاد " اما ديكارت وهو أهم من اصطنع مذهب الشك المنهجي في الفلسفة الحديثة فقد بعث برسالة على الأب ميلان يقول فيها " إن العقل حافل بأفكار بعضها خاطئ ولا سبيل إلى تطهير العقل من هذه الأفكار إلا بإفراغه من جميع ما فيه ، ولا يترك العقل فارغاً إلا داخله الشك من المحيطين به ، بل يجب إعادة الأفكار السليمة إليه مرة أخرى بعد أن يطرح الخاطئ منها ، ويضرب مثلاً لذلك " بالسلة التي تمتلئ بالتفاح إذ يجب إفراغها ، إذ يجب إفراغها لفحص ما بها من تفاح فاسد وآخر سليم . فيستبعد الفاسد ، ويستبقي التفاح السليم . [1]

أما دافيد هيوم ، فقد أطلق على هذا الشك ، بالشك الأكاديمي أو العلمي ، وصرح أنه ضروري لكل بحث سليم .

ومن الجدير بالذكر أن الفكر الإسلامي حافل بمثل هذه التيارات الفلسفية في مجال الشك المنهجي أيضا ، إذ أشار النظام (٢٣١ هـ) أحد متكلمي المعتزلة إلى أهمية اصطناع منهج الشك ، لأنه أول درجات المعرفة ، والذي يوصل إلى اليقين

١- دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة الحديثة " ، ١٩٨٣ م ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " ، دكتور توفيق الطويل " أسس الفلسفة " ، صـ٣١٤ .

بحقائق الأشياء ، واختيار نتائج البحوث والعلوم المختلفة . كذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٥٠٥) هـ ، فقد خاض تجربة الشك بعنف شديد ، واستعراض أنواع المعارف وطبيعتها ووسائلها من المعرفة الحسية التي تأتي عن طريق الحواس فقط ، إلى المعرفة العقلية عن طريق العقل وصولاً إلى المعرفة الذوقية القلبية الصوفية ، وانتهى إلى أن المعرفة الذوقية الصوفية التي تأتي عن طريق الكشف الإلهي والحدسي موصلة إلى اليقين المعرفي [1]

* : **الفرع الثاني هو : الشك المطلق** ، Absolute doubt ، أو الشك الهدام Destructive ، وقد يقف عند تعليق الحكم Suspension of gudgement ، المقصود بهذا الشك : هو التوقف عن إصدار الحكم ، فإذا تعرض العقل لدراسة مشكلة ثم عجز عن فهمها أو تقديم حل لها مال إلى التوقف وتعليق الحكم وعدم إصدار حكم بشأنها ، ويصطبغ هذا الشك بالصبغة السلبية ، يضاف إلى ذلك ما ذهب إليه السوفسطائيون في الشك في كل أنواع المعرفة والبلبلة في الأفكار واعتبار الحواس هي مقياس المعرفة بطبائع الأشياء والتشكيك في الأخلاق والأديان والنظم والقوانين وكل شيء في المجتمع اليوناني ، فأدى هذا إلى هدم اليقين والعقل والقيم وهكذا وقد بشر بهذا الشك الهدام أو المطلق اركسيلاوس (٢٤١) ق .م ، إذ بشر بنوع من الشك الذي يهدف إلى النقد وزعزعة الأفكار وقد استمر هذا الشك عبر العصور حتى مدرسة الإسكندرية القديمة عند أجربيا وسيكتوس أمير يكوس ، ويتمثل الشك المطلق عند " بيرون " زعيم هذا المذهب ، إذ أنكر إمكان التوصل إلى حقائق الأشياء لافتقار الإنسان إلى الإدراك الصحيح ، وأفتقد الثقة في العقل وأدوات الإدراك يقول " أنه يدرك ظواهر الأشياء ولا يعرف حقائقها " ، ويقول : إذا كنا نجهل حقائق الأشياء ولا نعرف إلا ظواهرها ، ولا تطمئن إلى وجود أدوات للإدراك الصحيح ولا يوجد مقياس للتمييز بين الصواب والخطأ ، فإن كل ما يبدو للإنسان أنه صحيح يمكن نقضه بنفس القوة ، بمعنى أنه يمكن إثبات نقيض الشيء بنفس القوة التي تثبت صدقه ، فإذا قلت عن شيء أنه موجود من قبل ، أو أنه موجود ولا موجود ولا غير موجود ، إذن فالحقائق نسبية وليست هناك يقين ولا مطلق .

إذن يجب على الإنسان أن يجهل الأشياء ، ويتوقف عن إصدار حكم فيها ، وحسبه أن يقول (لا أدري ، أو يقول : لا أدري أنني لا أدري) لأن كل حقيقة تقبل

١- الإمام الغزالي " المنقذ من الضلال " ، صـ١٥ .

السلب أو الإيجاب في نفس الوقت بقوة متبادلة ، ونتيجة ذلك هو راحة العقل ، أو طمأنينة النفس ، ويتمثل ذلك في حالة اللامبالاة Indiferenceo ، وعدم الشعور بالبيئة التي تحيط بنا : Insensibility environment ، مما يجلب السعادة وقد سبق الإشارة إلى رواج هذا المذهب في عصر المدارس اليونانية المتأخرة الرواقية والإبيقورية ، طلباً للسعادة الداخلية التي أفتقدها الفرد في الخارج ، فهذا الشك المذهبي أو المطلق - يشير إلى الشك في نفس الشك أيضا ، إن الشاك المطلق يشك في أنه على يقين من أنه يشك .

وقد ظهر في أوروبا مجموعة من فلاسفة الشك المذهبي أو المعرفي أيضا : في فرنسا ، وإنجلترا في القرنين السادس عشر والثامن عشر كذلك نشير إلى طرق منها ، أمثال : كورني أجريبا (١٥٣٣) م ، فقد أذاع الشك المذهبي في جميع العلوم ثم تناوله سانشيه عام (١٥٦٢) م فانتقد قوة العقل الفكرية ؛ لأننا لا نعلم شيئاً ، لا العلم ولا أنفسنا ، ثم كان موثنابي عام (١٥٥٢ م) إذ أعلن أن الأنسان لا يعلم شيئاً لأن الإنسان نفسه ليس شيئاً ، فترك البحث في العلوم والعالم الخارجي لأنه عالم الظن ، وأنطوى على نفسه ليلتمس اليقين من ذاته ، ثم أنتهى من ذلك إلى الشك المطلق ثم الفراغ ثم الجنون ثم الموت .

أما ديفيد هيوم (١٧٦٦) م في أنجلترا فقد شك في المعرفة التي تقوم على العقل فقط ، واثبت أهمية وجود العالم والمعرفة التي تستسقي من التجربة ، وشك كذلك في العلية الضرورية في الأشياء الطبيعية ، وعلاقة العلة بالمعلول ، ورأي أن رؤيتنا للعلة يصاحبها ضرورة تتابع المعلول لها ، وهذا مجرد تتابع للمعاني فقط .. وهكذا .

أما جورج باركلي فقد شكك في العالم الخارجي ورأي أن هذا العالم مجرد وهم ، وقال أن العقل ليس إلا مجموعة من الأحساسات تتعاقب بتداعي المعاني ، ثم ألقى العلية بمعناها التقليدي ، إذ أنكر وجود رابطة ضرورية بين العلة والمعلول ، لأن ذلك يرجع إلى التعود وتداعي المعاني أيضا .[1]

* : **الفرع الثالث هو الشك الأعتقادي : Disbelief** ، وهذا النوع من الشك ينصب على الدين والمعتقدات الدينية التي يتفق عليها الناس ويسلمون بها ، وهو يتضمن لإلحاد في الدين ، وقد مارسه السوفسطائيون في المجتمع اليوناني فقال

١- دكتور توفيق الطويل " أسس الفلسفة " صـ٣٠٠ ، صـ٣١١ .

جورجياس أحد زعمائهم عن الإله أو الدين " إن هناك أمور كثيرة تحول بيني وبين هذا الاعتقاد " فاتهم بالإلحاد .

ومما سبق يتضح أن الشك هو أزمة العقل الإنساني على مر العصور ، أنه طريقة في التفكير تثير العقول والقلق ولكن ما من مرحلة يظهر فيها شك حتى تنتهي ويتبعها مرحلة أخرى تشير باليقين ، والوصول إلى الحقائق ، مثال ذلك فقد أعقب شك السوفسطائيين ، الثقة في أدلة العقل وإثبات اليقين الذي أكده سقراط وأفلاطون ، وأرسطو ، وأعقب الشك في المدارس الفلسفية المتأخرة عند اليونان ، يقين فلسفي ديني لاهوتي وروحاني صوفي في العصور الوسطى ، وإمتزاج الفلسفة اليونانية بالروح الصوفية الشرقية كذلك وأعقب الشك في فرنسا نوع من اليقين المنهجي العقلي عند ديكارت ، وشك هيوم أبطله كانط بمذهبه النقدي .

ب - مذهب اليقين - أو التيقن : Dogmatism :

إذا كان أصحاب مذاهب الشك قد شككوا في إمكان التوصل إلى المعرفة الحقيقية بطبائع الأشياء ، بغض النظر عن أصحاب الشك المنهجي ، ورأوا التوقف عن إصدار الأحكام وأنكروا الإله والدين والمعتقدات الدينية التي تجمع عليها سائر طوائف الناس ، فإن أصحاب ودعاة مذهب (التيقين - أو اليقين المعرفي) ، قد أكدوا القدرة على إدراك الحقائق والوصول إلى يقين .

ويتمثل هذا المذهب عند دعاة الشك المنهجي - وكما سبق عرض تفصيلاته ، ذلك أن هذا المذهب وسيلة لإدراك المعرفة والحقيقة ، وسيلة لإدراك اليقين في المعرفة والعلم وهذا ما ذهب إليه سقراط - في منهجه وأثبت إمكان الحصول على اليقين بماهيات الأشياء ، والوصول إلى الحد أو التعريف بما يمنع الخلط بين الأفكار أو الأمور المختلفة ، وقد عبر عن ذلك سقراط في منهج التوليد الإيجابي - كذلك توصل أفلاطون إلى عالم المثل ، والماهيات الثابتة ، عالم الصور المعقولة عالم الخير الأقصى بالذات ، وهو عالم الحقائق الثابتة ، بعد شكه في عالم الوجود الظاهري - عالم الأشباح والظلال والمتغيرات .

وذهب ديكارت الفيلسوف الفرنسي الحديث في كتابه مبادئ الفلسفة ، إلى أننا لكي نفحص حقيقة ، أو نبحث عنها يجب أن نشك في كل ما يصادفنا ولو مرة واحدة وعلى ذلك فقد وضع مذهبه (الكجيوتوا) : مفاده " أنا الشك ، إذن أنا أفكر إذن أنا

موجود " فوصل عن طريق الشك كمنهج إلى تحديد طبيعته ككائن يفكر وما دام يفكر فهو لابد أن يكون موجوداً لكي يفكر .

ومن خلال هذا المبدأ استطاع إثبات وجوده ، وتحقق يقينا من ذلك ، وكذلك تحقق من وجوده في هذا العالم لأنه كائن موجود ولابد أن يكون في عالم ، ثم اتضح له يقينا آخر وهو أن مرتبة الفكر أرقى من مرتبة الإنسان أو الكائن الطبيعي ، لأبد أن يكون هناك كائن كامل قذف فيه هذه الفكرة ولأن الفكر من خصائص الكمال ، فإن الذي قذف فيه هذه الفكرة كامل لا متناهي وهذا لا ينطبق إلا على الإله ، فالله تعالى موجود إذن ، ومن خلال هذا المذهب الديكارتي استطاع أن يثبت وجود ثلاث أشياء هي وجوده كإنسان يفكر ، ووجود العالم ، ثم وجود الله تعالى لأن صدر عنه الفكر والفكر كمال والكمال لا يصدر إلا من هو أكمل منه .[1] وهذه الأشياء يقينية في ذهنه وعقله .

ومما لا شك أن أرسطو توصل هو الأخر من قبل إلى إمكان قيام المعرفة واعتبر الماهية أو الوجود في ذاته موضوعها ، وأن الحواس تدرك النسبي والعقل هو الذي يدرك المطلق .[2] فالعقل يدرك الماهية وهي الصورة الكلية ، أما الحس فإنه يقف عند إدراك العوارض التي تقوم بها الماهية وهي الصورة الجزئية ، وفي تحديد أرسطو لماهيات الموجودات فرق بين جانبين : حال الوجود بالقوة ، وحال الوجود بالعقل ، ويمثل الحال الأول المادة الهيولي ويمثل حال الثانية : الصورة ، أو الشكل ، وهو الحقيقة الكلية للوجود أو الجوهر .

: لكن أين الطابع الحضاري الثقافي لمراحل الشك المختلفة ؟

أقول أن مراحل الشك المختلفة كانت انعكاساً حقيقياً لهذا الطابع الحضاري والثقافي للشعوب والمجتمعات التي نشأت فيها ، فقد كان لانتصار أثينا العسكري وتفوقها السياسي والثقافي على الفرس في صراعها الدائم في العصور الأولى للحضارة الهللينية أثر بالغ في الافراج الديمقراطي وحرية الرأي والتعبير في عصر الفلسفة الإنسانية عصر السوفسطائيون وسقراط ، مما أتاح الفرصة للجدل الفكري والمذهبي وظهور نزعة النقد والتحليل للنظم والقوانين وتطور الثقافة في المجتمع

١- راجع ديكارت ، " كتاب مبادئ الفلسفة " ترجمة دكتور عثمان أمين ط دار الثقافة ١٩٥٩ م ، كذلك دكتور توفيق الطويل ، " أسس الفلسفة " صـ ٣١٤ ط ، ١٩٥٢ م .

٢- دكتور توفيق التطويل " أسس الفلسفة " صـ ٣٢٠ .

اليوناني كما كان للصراع السياسي في عصر أفلاطون أثره في محاولة أفلاطون البحث عن أفضل النظم السياسية وتصوره للعالم المثالي والأخلاق وطبيعة الحياة التي تكفل للفرد الحرية والأمن ، والتبصر بالحقيقة الوجودية ، كذلك كان لنزعة الإسكندر الأكبر بفتوحاته الكبرى لبلاد الشرق أثره في تطور وامتزاج الثقافة اليونانية وتشجيع ظاهرة البحث عن الحقائق في العالم الطبيعي والمعرفة والأخلاق .

وكان لفقدان المواطن اليوناني لحريته الخارجية ، وانطوائه على ذاته من أجل الحصول على حياة آمنة من الأخطاء الخارجية وتوفير وتحديد طبيعة السعادة التي يجب أن يطلبها ويعيشها في ظل التطورات والتغيرات السياسية والاجتماعية في عصر المدارس والحضارة الهللينسيتية ، الأثر الواضح في ظهور نزعة الشك المذهبي أو المطلق ، لفقدان المواطن لكل أسباب الحرية الخارجية ، أو في المبادئ الخلقية التي كانت سائدة وتعتمد على المادة أكثر من الروح ، وفي ظل مدارس الرواقية والابيقورية ـ لذلك أشار بعض الباحثين إلى عصر من عصور الشك في نهاية هذه المرحلة ، كذلك فإن التطور والتغير الحضاري والثقافي الأوروبي منذ عصر النهضة والعصر الحديث أثره في ظهور نزعات الشك المنهجي للوصول إلى يقين معرفي والشك المذهبي ، كما كان لنزول الديانات وامتزاج الفكر الديني العقائدي بالثقافة الإنسانية أثرها الواضح في ظهور نزعات في الشك المنهجي عند الغزالي والشك المذهبي المطلق عند أجريبا ومونتابي .

٣ـ منابع المعرفة ووسائلها :

هناك اتجاهات ومذاهب متعددة حول منابع ووسائل المعرفة ، وكل مذهب أو اتجاه يحاول إثبات صدقه وأهميته ، وهي المذهب العقلي في مقابل المذهب التجريبي ، ثم الوضعية بالإضافة إلى مذهب الصوفية الذوقية .

أ ـ المذهب العقلي Rationalism : -

يقول أصحاب هذا المذهب أن العقل مصدر لكل صنوف المعرفة الحقيقية ، التي تتميز بالضرورة والشمول Universality ، وهما الشاهد عند العقليين على أن قضايا المعرفة الصادقة أولية قبلية ، ويراد بالضرورة أن المعرفة العقلية صادقة ، مثال ذلك قولك إذا كانت (أ) أكبر من (ب) ، و(ب) أكبر من (جـ) ، فإن (أ) أكبر من (جـ) ، هذا حكم صادق ، ويوجب الصدق ضرورة عقلية لا خبرة حسية ، ومثل هذا ينسحب ويقال وينطبق على قضايا المنطق وأوليات الرياضيات ، كذلك فإنها تمتاز

بالتعميم ، ويراد بذلك أن مثل الحكم السالف الذكر صادق في كل زمان ومكان ، بصرف النظر عن تغير الظروف والأحوال والعقليون على اتفاق أن العقل قوة فطرية في الناس جميعاً ، وأن الاستدلالات تكون صادقة ما دامت تقوم على قوانين العقل ، أما التجربة فإنها تزود الإنسان بمعلومات متفرقة ترتقي باجتماع بعضها بالبعض الآخر إلى مرتبة العلم اليقيني ، وعلى ذلك فإن هناك نوعين من المعرفة ، وهما ما أشار إليهما الفيلسوف الألماني كانط ، المعرفة الأولية ـ أو البديهية القبلية apriori وهي المعرفة الفطرية التي تكون في العقل ، وهي واضحة بذاتها ومن ثم تكون صادقة .

أما المعرفة البعدي Apasteriori فهي التي تأتي اكتساباً وتكون عن طريق التجربة ويطلق عليها المعرفة التجريبية البعدي وتكون ممكنة عن طريق التجربة .

ومن مبادئ المعرفة الأولية الفطرية في العقل : مبدأ الذاتية Identity ، ثم مبدأ عدم التناقض Non contradiction ، كذلك الأوليات الرياضية مثل قولنا : المتساويان لثالث متساويان، والبديهيات المنطقية كقولنا الكل أكبر من الجزء ،وهكذا.

ظهر تيار فكري حدثي آخر إلى جانب التيار العقلي في الفلسفة الأوربية الحديثة فقد ساد الاعتقاد بوجود أفكار فطرية تتمثل في حقائق بسيطة غير مركبة وحقائق موضوعية غير ذاتية مثل فكرة ـ الله والنفس والامتداد ، ومثل هذه الحقائق تدرك بالحدس دفعة واحدة ، ويغالي أصحاب المذهب الحدسي Intuitionism ، في أهمية الحدس في الإدراك للحقائق البسيطة إدراكاً مباشراً دفعة واحدة ، من غير مقدمات نسلم بها .

ويعتبر ديكارت ـ والذي اعتبر العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس ـ من أهم المؤسسين الحقيقيين للمذهب العقلي والحدسي المباشر في المعرفة بالحقائق في الفلسفة الأوربية الحديثة ، فقد رد للعقل أهميته بعد موجة الشك المطلق التي ذاعت من قبل عند مونتاني وأركسلاوس وغيرهما ، كذلك رفض ديكارت السلطة الدينية ، وسيطرة الكنيسة على الحياة العلمية والمعرفية والثقافية ، يضاف إلى ذلك أنه فرق بين الوحي والنفس والله تعالى وبين ما للعقل من مجال للمعرفة فيه ورأى أن هذه الأمور لا تدرك إلا بمدد من السماء في ثلاثة أصناف هي :

* **الصنف الأول** : عرضي يرجع إلى الطبيعة مثل فكرة الجبل ، والشجرة ، والألوان وهذه أفكار غامضة لا تؤلف معرفة صحيحة .

* **الصنف الثاني** : صنف مصطنع ركبه العقل من الأفكار العرضية السالفة ، مثل صورة ، جبل من ذهب ، أو نهر من عسل .

* **الصنف الثالث** ، فطري لا يستفاد من الأشياء ، ولا ينشأ عن التركيب الإرادي ، وتتميز هذه الأفكار الفطرية بالبساطة والوضوح ، ولا تأتي بالاكتساب لأنها أولية ، ويشير ديكارت إلى الأساليب التي يتبعها العقل للوصول إلى المعرفة اليقينية الصادقة ، وتكون من خلال عمليتين هما :

* **الحدس** : وهو الإدراك المباشر عن طريق العقل المحض الذي تدرك به الأفكار والطبائع البسيطة التي لا تنقسم إلى أجزاء مثل : الوجود والوحدة .

* **والاستنباط** : وهو عمل يمكننا من أن نستخلص من شيء نعرفه معرفة يقينية نتائج تلزم عنه ويتم على خطوات بحركة ذهنية نستنتج شيئاً مجهولاً من شيء معلوم ، وبهاتين العمليتين نتوصل إلى المعرفة اليقينية .[1]

وقد سار على هذا الاتجاه والحدس العقلي فلاسفة آخرون منهم : أسبنوزا ، ومالبرانش ، وليبنتز .[2]

ب - المذهب التجريبي Empiricism :

رفض فلاسفة هذا المذهب الأفكار الفطرية الموروثة ، والمبادئ العقلية البديهية ، والقواعد القبلية التي لا تأتي اكتساباً ، فالحس والأوليات والبديهيات المنطقية مرفوضة ، وردوا المعرفة بكل صورها إلى التجربة .

ومن هؤلاء الفلاسفة التجريبيين وأكثرهم مغالاه في المعرفة الحسية جون لوك (١٧٠٤م) فقد رفض الأوليات والحدس وكل معرفة لا تأتي عن طريق التجربة ورأى أن العقل يولد صفحة بيضاء ينقش عليها المعارف بالتجربة ، فالتجربة هي التي تخط على هذه الصفحة سطورها ، ثم جاء فيلسوف آخر هو (هربرت سبنسر) فرأى أن المبادئ العلمية تجيء إلى النوع اكتساباً وتنقل بالوراثة من جيل إلى جيل آخر حتى تتصور للفرد أنها فطرية ، وهذه المبادئ متغيرة باستمرار الزمان والزمان ، لذلك فليست كلية أو ضرورية ، ويصوح توماس هوبز بأن كل موجود محسوس ، والإحساس فيه حركة في الجسم التي يحس ناشئة عن حركة الجسم المحسوس . وليس التخيل أو تداعي المعاني إلا مجرد حركات جسمانية ، كما أن العواطف والوجدان

---

١ دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - ص ٣٤٠ ك دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفلسفة الحديثة - (ديكارت) .

٢ دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - ص ٣٦٨ وما بعدها .

والشعور مرجعها إلى اللذة والألم اللذان ينشآن عن الدورة الدموية ، وليس العقل ومبادئه الأولية المزعومة إلا وليد اللغة التي نستخدمها .

ويرفض كوندياك (١٧٨٠) م التفكير العقلي كمصدر للمعرفة ويصرح بأن الإحساس الظاهري هو مصدر القوة النفسية جميعها ويرفض الأفكار الفطرية .

وعلى الرغم من أن الفلاسفة التجريبيين يرفضون أن تأتي الأفكار والمعرفة عن طريق المبادئ الأولية أو الحدس او العقل إلا أن جون لوك يقرر أن التفكير والعقل ليس مقطوع الصلة بالتجربة والحدس أيضاً ، بل يعترف بالتفكير العلمي ودوره في تفسير الأفكار المركبة ، ويرجع دافيد هيوم كل أعمال العقل المترابطة على جمع الظواهر المادية أو الحسية ، وهذا الترابط يرجع على قانون تداعي المعاني بالتشابه أو التجاور المكاني أو الزماني أو بالعلاقة العللية ، واعتبر قانون العلية Callsality مجرد عادة ذهنية Custom تنشأ عند الناس كلما رأوا حادثتين متشابهتين مطردتين ومتتابعتين في الوقوع .

* : ولعل أصحاب الوضعية المنطقية قد أعادوا الثقة القوية إلى المذهب التجريبي الأمبريقي الحسي الواقعي .

جـ ـ المعرفة بين الاجتماعيين والماركسيين : ـ

يهتم علم الاجتماع sociology بدراسة المجتمعات البشرية من الميكانيزم الاجتماعي أي التركيب الطبقي ، وأنماط السلوك ومجموعة القيم والظواهر الإنسانية المختلفة والعادات والتقاليد والطقوس وغير ذلك مما يتصل بالحياة الاجتماعية ومشكلاتها ، وعلى ذلك فإن علماء الاجتماع ذهبوا إلى رد كل شيء يتصل بالحياة على المجتمع ومن ذلك : المعرفة ، كذلك ردوا الظواهر العقلية وأنماط التفكير إلى واقع الحياة الاجتماعية من سياسية وأخلاقية وعقلية ومعرفية وقانونية .. وهكذا ، وقد ذهب إميل دوركايم من مؤسسي علم اجتماع الغربي الحديث إلى رفض العقل كمصدر للمعرفة ، أو مصدراً من مصادر المبادئ الكلية الضرورية ، لأن هذه الأمور نابعة من التصورات الاجتماعية ، ومن الخطأ تصور المبادئ الأولية أو قوانين المنطق ليست متغيرة بتغير الزمان والمكان والظروف والأحوال ، فإن استقرار تاريخ العلم يشهد بتطور هذه المبادئ والنظم العقلية حتى بلغت صورها في أذهاننا .

وعلى ذلك فإن نظرية المعرفة نابعة من الظوار والنماذج الاجتماعية ، إذ أن العقل الجمعي له دوره في بلورة نماذج المعرفة ، وتكوين العقل الفردي . وهكذا ذهب

دوركايم وغيره من الاجتماعيين إلى إبراز أهمية العقل الجمعي والقول أن مبادئ العقل وليدة العقل الجمعي وثمرة الحياة الاجتماعية . [1]

* : وفيما يتصل بأصحاب الاتجاهات الماركسية ، فإن كارل ماركس صاحب الفلسفة المادية التاريخية ، لا يقرر تأمل العالم الخارجي لمجرد المعرفة ، لأن المعرفة عنده لا تطلب لذاتها ، لكن الإنسان يقتحمها ويسخرها في تغيير البيئة التي يعيش فيها ، لقد ربط الماديون أو الماركسيون ، المعرفة بالعمل ، فالعمل هو الذي يحقق المراد من المعرفة (فالقطة لا تعرف الفأر لمجرد المعرفة فقط..) كذلك الفلاح أو الزارع لا يقنع بمعرفة حقل الحنطة (القمح) فقط ، بل من أجل الإنتاج والعمل ، فليست المعرفة إلا سلسلة من الوقائع تنتهي بالعمل .

وهذا العمل يراد به تغيير البيئة ، وتغيير صاحبه الذي يزاوله ، ومن هنا كانت الطبيعة البشرية ، وكان العالم في حركة متصلة وتغير دائم لا يعرف السكون ، وتكون المعرفة صادقة إذا أدت إلى تغير البيئة الاجتماعية ، فالماركسية والمادية الجدلية التاريخية تربط بين المعرفة والبيئة المادية التي تكون الإطار الذي يزاول فيه الإنسان نشاطه وحركاته وحياته .

إن الأفكار الإنسانية والرغبات لا تأتي تلقائياً عن العقل نتيجة للتفكير والتأمل ، بل هي وليدة النظم القانونية والمذاهب الأخلاقية التي يعيش الفرد في ظلها ، وهذه المذاهب والنظم القانونية والأخلاقية مرهونة بالظروف الاقتصادية . وعلى ذلك فإن العامل الاقتصادي هو الذي يحدد سائر العوامل ، ولذلك فإن هدف المعرفة تغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي . [2]

د ـ المعرفة عند الصوفية ورجال الدين :

المعرفة عند الصوفية طبيعتها ذوقية باطنية إشراقية ، والحقيقة تتكشف للعبد كلما اقترب من الله تعالى وخلص في عبادته ، وهي نور من الله تعالى يتجلى على قلب العبد المؤمن ، وكلما تعود ومارس العبد تلاوة الذكر اطمئن قلبه إلى الرضا الإلهي ، وتتكشف الحقائق بقدر إخلاص العبد في عبادته ، وللصوفية درجات يترقون خلالها

---

١ دكتور قباري إسماعيل ـ قضايا علم الأخلاق (دراسة نقدية من زوايا علم الاجتماع) ـ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ م .

٢ للمزيد ـ المصدر السابق ـ كذلك دكتور توفيق الطويل ـ أسس الفلسفة ـ صـ ٣٥٤ ـ ط دار النهضة العربية ١٩٦٧ م .

وصولا إلى رحاب الحضرة الإلهية تسمى مقامات الصوفية وهي عبادات ومجاهدات وصبر وإخلاص ، وتوبة ، وندم .. إلخ حتى ينكشف للعبد أحوالا كثيرة كلها كشف ومعرفة ومجاهدة ، والعقل عند الصوفية له حدود لا يتخطاها ، ويوجد وراء ذلك إدراك فوق مدارك العقول والبشر الحسية والعقلية ، وهو الإدراك (الحدسي) ، فالحدس الصوفي هو قاعدة العلم الحقيقي والمعرفة اليقينية ، وهو نوع من النور الإلهي المباشر في نفس المؤمن ، يحصل عنه كشف للحقائق اللدنية .. وقد عبر الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) عن هذا العلم فقال" العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقاربه إمكان الخلط والوهم ،،،، وهذا العلم لا يجيء عن طريق الحس أو الحواس ولا عن طريق العقل ، إن العلم اولي يأتي عن طريق الحس والظن ، لا يرتقي لمرتبة اليقين ، فالعين لا ترى الظل واقفاً لا يتحرك ، وتشهد التجربة عكس ذلك ، كذلك لا ثقة في العلم الذي يأتي عن طريق العقل ، ثم ينتهي الغزالي إلى القول : بالحدس الباطني كأداة لإدراك العلم اليقيني الذي ينشده الصوفية وأهل الذوق .[1]

وجدير بالذكر أن رجال الدين من علماء الكلام أو أصول الدين يستمدون المعرفة الحقيقية من النصوص القرآنية وأحاديث السنة الشريفة ، يضاف إلى ذلك تمجيدهم لطبيعة المعرفة العقلية ، وأهمية استخدام أدوات التفكير العقلي المختلفة لشرح وتفسير وتأويل النصوص الإلهية ، والقرآن الكريم كما نعرف يشيد بالعلم وطلب العلم والعلماء ، ويمتدح العقل ويدعوه إلى التفكير في ملكوت السموات والأرض ، فقال تعالى " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " سورة العنكبوت آية (٢٠) . وقوله تعالى " وفي أنفسكم أفلا تبصرون سورة الذاريات آية (٢١) .

ثالثاً : مبحث القيم " الأكسيولوجيا " " Axiology " :-

* تعتبر القيم Values من ضمن أهم مباحث التفكير الفلسفي قديما ، وفي العصر الحديث ، وإن كان بعض الباحثين ذهب إلى أن نظرية القيمة تسللت إلى معجم الفلسفة الحديثة ، إلا أنها تغذت إلى مذاهب الفلاسفة من أبواب متعددة وبأسماء مختلفة ، فسقراط حين أشار إلى مذهب أنكساغورلس في أن العقل مصدر عظيم للحركة ، فإنما يعني التفسير الأقصى لذلك أنه لابد أن يكون تصور للقيمة ، كما أن أفلاطون حين رأى أن الخير يمثل قيمة كبرى ، فإن ذلك يعد تتويجاً لعالم المثل إلى هو عنده عالم الخير

---

١ الغزالي - المنقذ من الضلال - ط الجندي - ١٩٧٣ م .

الأقصى ، أو الخير بالذات ، وبذلك يضع القيمة في الخير فوق الوجود ، أما أرسطو فقد حاول تنسيق الكائنات على أساس الغائية بإقامة علاقة غائية بين الموجودات والوجود المطلق - أو المحرك ، والحركة ، إلخ ، فإنه يكون قد حدد القيمة الجوهرية في الوجود ، ويؤكد الواقعية الموضوعية للكيفيات القيمية وسموها على سائر خصائص الكائنات ، وفي العصور الوسطى نجد مكانة القيم أو القيمة تتحدد في صورة الخير ، والخير الأقصى والكمال ، عند القديس توما الأكويني عندما حاول التوحيد بين القيمة العليا والعلة الأولى - أي الله بوصفه كائناً حياً أزلياً خيراً . [١]

وقد اتسعت نظرية القيم ، القيمة لكي تشمل جوانباً أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولكننا نحاول أن نقتصر على ما يتعلق بالجوانب الأصيلة عند الفلاسفة العقلانيين والمثاليين ، ويعتبر كانط في الفلسفة الحديثة أفضل من حدد مذهب القيم في كتابه نقد العقل النظري (بالبحث في الحق) وكتابه نقد العقل العملي (بالبحث في الخير) وفي كتابه نقد الحكم (بالبحث عن قيمة الجمال) . [٢]

وسوف نقصر اهتمامنا علا ثلاثة فروع أساسية تناولتها نظرية القيم هي : الحق ، والخير ، والجمال ، والعلاقات التي تربط بينها .

وقبل أن نتناول هذه الفروع الثلاثة ، نود أن نعطي فكرة عن طبيعة القيم وماهياتها وهل هي نسبية ام مطلقة ؟

١ - طبيعة القيم :

القيم صنفان : الصنف الأول : يلتمس لذاته ويطلب كغاية ، ويكون مطلقاً ، لا يحده زمان ولا مكان . مثال : جمال الزهرة يقوم لذاته ، ويطلق على هذا الصنف القيمة الباطنية الذاتية Intrinsic values ، أما الصنف الثاني : فينشده الناس كوسيلة لتحقيق غاية ، ولهذا يختلف فيه باختلاف حاجات الناس ومطالبهم ، مثال : السيارة قيمتها تحدد بما تؤديه من خدمات ، ويطلق على هذا الصنف القيم الخارجية Extrinsic [٣] وهذا الصنف الثاني يتلق - بلا شك - بتقييم الأشياء المادية ، ومدى تلبيتها لحاجات الإنسان ومتطلباته المختلفة ، وتتخذ كوسيلة لتحقيق الغايات ، فالشيء يكون ذات قيمة بقدر ما

---

١ دكتور صلاح قنصوة - نظرية القيمة في الفكر المعاصر - صـ ١١ ، ١٢ - ط دار الثقافة للنشر - القاهرة - ١٩٨١ ، كذلك - . ١٩٢٥ , Encyclopeadia of Britannica , Art , Value

٢ المصدر السابق - صـ ١٢ .

٣ دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - صـ ٣٧٥ .

يعود على الإنسان بفائدة ما ، وربما يتصل هذا المذهب بصفة أساسية بالمذاهب البرجماتية والحسية التجريبية ، فالفكرة ليست ذات قيمة إذا لم يندرج تحتها عمل ما ، وإن شئت القول ، تعود علي بفائدة ما .. !

وهذا الصنف يستبعد من دراستنا الآن ، لأننا نهتم في مجال التفكير الفلسفي - بالحق والخير والجمال باعتبارها قيم تشكل غايات في ذاتها ، لا وسائل لتحقيق غايات أخرى ، وهذا ما ذهب إليه سقراط ، حين بحث عن قيمة الفضيلة ورأى أنها غاية يطلبها الإنسان ، وهي إيجابية ، أما الرذيلة فإنها سلبية نتيجة لإغفال الفرد لماهية أو قيمة الفضيلة أو الخير ذاته ، ومن ثم رأى في ضرورة علاقة بين المعرفة والأخلاق ، أو بين العلم بالفضيلة أو الجهل بها قيمة في حياة الفرد .

ورأى أفلاطون أن القيمة الكبرى تتمثل في عالم المثل ، لأنه مثال عالم الخير الأقصى ، الخير بالذات ، وهو قيمة عليا ، أما أرسطو فقد حاول أن يجعل من الأخلاق قيمة عملية عليا . وهؤلاء الفلاسفة على اتفاق بأن القيم مطلقة عليا وليست نسبية ، بخلاف السوفسطائيين قالوا بنسبيتها .

ويعتبر كل من لابي Paul lapie ، وهارتمان Hartman ، هما أول من استخدم لفظ الأكسيولوجيا - كدلالة لمصطلح القيم في القرن العشرين منذ عام ١٩٠٦ م . (١)

لقد اختلف المفكرون بصدد القيم أهي صفات للأشياء ، بمعنى أن لها وجود مستقل عن العقل الذي يدركها ؟ أم هي من وضع العقل واختراعه ؟ لكن أحدث الاتجاهات عند وولف Walf - أستاذ المنطق بجامعة لندن " أن هذه القيم عينية أكثر منها معاني عقلية ، وذهب كثير من الفلاسفة إلى القوا بأنها نسبية مردها إلى الفرد ، وعلى ذلك كان اختلافها في الزمان والمكان وباختلاف الظروف والأحوال ، وعلى هذا الاعتبار لا تصبح القيم ذاتية ، إذ لا يوجد حق بالذات ، أو خير بالذات أو جمال بالذات ، لأن هذا لا يكون إلا بالقياس إلى تفكيرنا وشعورنا .

وقد حاول أصحاب المذاهب الوضعية تأكيد هذا الاتجاه في الاستدلال على نسبية القيم ، والسخرية من القائلين بالقيم المطلقة ممن يقررون وجود حق بالذات أو خير بالذات أو حتى جمال بالذات ، وقد ذهب إلى ذلك الفيلسوف (آير Ayer) من

---

١ المصدر السابق - صـ ٣٧٦ الهامش كذلك .

زعماء الوضعية المنطقية في إنجلترا ، إذ يؤكد على أن أحكام القيم لا تحتمل الصدق أو الكذب لأنها إما أن تكون تعبيراً عن وجدانات ، أو مجرد أوامر في صيغ مضللة.

وقد أدى الأخذ بهذه النظرية في الدراسة الفلسفية إلى الشك أو التقليل من أهمية فكرة المطلق ، التي كانت ثابتة باستمرار في مجالات القيم والمعرفة . وساعد ذلك على إزالة بعض القيم البالية تمهيداً لإقامة قيم أخرى تتسم بالحيوية والقوة ، ممهداً ذلك بالقول بأن القيم نسبية ليست مطلقة . لكن زعزعة الثقة في وجود القيم المطلقة أدى إلى شيوع روح الفوضى والتحلل الديني والأخلاقي بين بعض الشعوب ، وفوضت أو أزاحت الاعتقاد بالمثل العليا الحية والكامنة في أعماق النفس الإنسانية .

إن القول بنسبية القيم في رأي بعض الباحثين والفلاسفة المحدثين قد لا يؤدي إلى الضلال ، أو الخطأ ، لأن الأحكام القيمية value judgement ليست ذاتية خالصة ، وليست موضوعية خالصة كذلك ، وإن كان فيها صفة وعنصراً ذاتيا لكن مردها إلى صفة في الموضوع يوجب الحكم عليه بأنه حق أو خير أو جمال .

وعلى ذلك فإن الأحكام التقويمية بمعنى من معانيها أحكام وصفية واقعية Factula ، تصف الأشياء كما هي في الواقع وقد لا تتعرض لقيمها في ضوء ما ينبغي أن يكون. [1]

٢ - أنواع القيم :

يتناول مبحث القيم ثلاثة أنواع هي : الحق ، والخير ، والجمال ، ويضيف بعض المفكرين قيمة أخرى تضاف إلى القيم هي : التقديس الديني أو العبادة كقيمة رابعة لكن البعض الآخر مثل ماكس أوتو ، وشليرماخر رآها نمطاً فريداً من القيم ، ورأى آخرون أنها مجرد اتجاه نحو القيم الأخرى ، وذهب هوكنج وأمثاله إلى " أن وظيفة الدين هي : المحافظة على القيم الثلاثة - الحق والخير والجمال . " [2]

*** الحق : قيمة أخلاقية :**

تناول الحق كمشكلة وقضية أخلاقية عليا ، إذ يبدأ الفيلسوف تفكيره الفلسفي بالاستفسار عن طبيعة الحق ، والبحث عن معيار يطمئن إليه التمييز بين الحق والباطل ، شغلت هذه المسألة فلاسفة اليونان ، فمنهم من جعل الحس معياراً للصواب والخطأ

---

١ المصدر السابق - صـ ٣٧٦ .

٢ المصدر السابق - صـ ٣٧٧ .

والوجود والعدم ، ومنهم من أنكر الحس وأقر العقل مقياساً ، ومنهم من أنكر اليقين في العلم ووقف عند الاحتمال ورفض القول بالوجود المطلق ، أو معرفة الشيء في ذاته ، ومنهم من توقف عن إصدار أحكام ، واكتفى بإعلان اللا أدرية ، واستمر الجدل في هذه المسألة حتى العصر الحديث والفلسفة المعاصرة ، بين العقليين والتجريبيين ، فكانط الفيلسوف الألماني قال بالمذهب النقدي ، وجمع بين العقل والتجربة ، كمصادر للمعرفة الحقيقية .

ويذهب برنارد بولزانو (١٩٤٨) م B , Bolzano إلى أن الحق بالذات يظل كذلك في كل الحالات ، فإذا قلت أنه لا يستطيع الإنسان أن يعرف عدد الأزهار في شجرة في الربيع الماضي في مكان معين ، فإن هذا لا يثبت دليلاً على عدم وجود الأزهار المجرد أن معرفة عددها غير متيسر لإنسان قريب منها . ولهذا يمكن أن يقال أن الحق المطلق يوجد في ذاته ، لأنه يقوم مستقلاً عن عقل يمكن أن يدركه.

وقد أنكر الوضعيون والعمليون وجود الحق المطلق الذي لا يتقيد بزمان أو مكان السوفسطائيون يرفضون القول بوجود الحقائق والقيم المطلقة لأنها نسبية .

فالفرد عند السوفسطائيين مقياس الأشياء جميعاً ، وعلى ذلك فإن معيار الحقائق ومقياس القيم هو الإنسان أو الفرد ، الأمر الذي يشير إلى أن الحق كقيمة فردية ونسبية مختلفة من إنسان لآخر ، ومن زمان أو مكان لآخر وهكذا ليس الحق قيمة مطلقة . وهذا بلا شك عكس ما ذهب إليه أصحاب الاتجاهات الرياضية والمنطقية الصورية ، الذين جعلوا من الحق قيمة مطلقة بالذات لا يحده زمان ومكان ، فالحق عندهم قيمة عينية وموضوعية مستقلة تماماً عن دواعي العقل . [1]

وهناك أصحاب الاتجاه الوسط بين القائلين بنسبية الحق والقيم ، والقائلين بأن الحق مطلق والقيم مطلقة ، فقالوا : القيم جوهر الأشياء ، ووحدوا بين الحقيقة والقيم ، وقد رأى بعضهم أن فكرة الحقيقة Reality تحل في الفلسفة محل فكرة قيمة ، وأن لفظ حقيقي Real ، يطلق على ما كان حقاً أو صورياً كمعيار لكل تفكير .

في مجال العلوم الطبيعية ، وما في مستواها من العلوم الإنسانية أن معيار الصواب والخطأ أو الحق والباطل ، هو مطابقة الأحكام للواقع ، باستيفاء الخبرة الحسية والتجربة وحدها هي التي تحسم الخلاف متى نشب بين عالمين أو أكثر .

---

١ المصدر السابق - ص ٣٨٩ .

وفي مجال العلوم الصورية والرياضية والدينية - التي تصطنع مناهج الاستنباط العقلي يكون معيار الحق والباطل ، أو الصواب هو تناسق الفكر مع نفسه أي عدم التناقض مع المقدمات .

وفي مجال الفنون الجميلة فإن معيار الصواب والحقيقية يرجع إلى الذات الحسية ووجدانيتها وانفعالاتها ، وفي الفن التشكيلي خطوط ، ومثلثات ومربعات .. إلخ.

وقد ذهب أرسطو إلى أن مقياس التطابق من معايير الحق ، والتمييز بين الصواب والخطأ ، والاتساق أو عدم التناقض ، ونستدل على صحة قضية ما بالاستنباط العقلي ، ويقول المثاليون بمقياس أو معيار الترابطية وهو أن يكون الحكم مترابط مع مجموع الأحكام المعروفة ، ثم مقياس الوضوح بالذات الذي يحمل الشاهد على التصديق دون الشك ، ثم مقياس النفع في الحياة العملية ، عند أصحاب الفلسفة البرجماتية العملية في أمريكا ، ثم مقياس إمكان التحقق ، من مضمون العبارات بالرجوع إلى الخبرة الحسية ، وهذا قول أصحاب الوضعية المنطقية .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن العلوم الوصفية أو التقريرية التي تحاول تحديد العلاقات الثابتة بين الموجودات ووضع القوانين التي تفسرها ويطلق الحكم عليها ، تكون الأحكام التقريرية الوصفية ، نسبية وليست مطلقة ، وعلى هذا فإن معرفة الحق في هذه العلوم والقيم ، تصبح معرفة نسبية تختلف باختلاف الظروف والزمان والمكان ، بالنسبة للعلاقات الإنسانية ، وليس بالنسبة لحقائق الطبيعة ، ولكن ذلك الاتجاه لا يمنع من أن الحق كقيمة مطلقة ، خاصة عند الفلاسفة العقليين والمثاليين كذلك ، فقد أثبت سقراط من خلال منهجه في التوليد إلى الوصول إلى الحق ، إذ رأى أن الفضيلة هي العلم ، أما الرذيلة فهي الجهل بالفضيلة التي تصل بالفرد إلى عمل الخير ، لأن الفرد يفعل ذلك وهو يعلم ماهية فعله ، ففي ذلك العلم معنى الحق والحقيقة التي تتضمن ماهية الفعل وهو الخير ، وهو قيمة إيجابية ، أما أفلاطون فقد وجد الحق هو الخير - الوصول إلى الخير الأقصى يعتبر قيمة في حد ذاته ، وهو الجمال الذي يعبر عن تحقيق سعادة الفرد ، فمثال الخير هو الموجود الحقيقي ، والمثال هو الحق بالذات كذلك ذهب أرسطو في فكرة المحرك الأول ، وهو الوصول إلى الوجود أو الموجود الحق ، الذي تعشقه جميع الموجودات وتتشوق إليه للالتحاق به ، فهو حق وقيمة حقيقية في الوجود .

وفي الديانات أو الأديان السماوية ، اتجهت الأنظار إلى طلب الحق ، والبحث عنه وهو الله عز وجل ، فالعقل وهو يمثل الموجودات يطلب الحق كقيمة إلهية كبرى في الوجود ، والحق قيمة إلهية منفصلة عن التصورات الذهنية في المماثلة

بالموجودات الأخرى ، والإسلام بنصوصه القرآنية والأحاديث الشريفة أثبت أن الله تعالى هو الحق ، المطلق في الوجود ، والقيمة العليا التي ينشغل بها العقل .

*** الخير قيمة أخلاقية :-**

الخير قيمة أخلاقية كبرى ، تحتل مكانة عظيمة في تاريخ الفكر الفلسفي ، ومن أهم الأجزاء التي تكمل فلسفة الأخلاق عند فلاسفة اليونان ، فقد نظر سقراط إلى الخير الأسمى على أنه السعادة ، لأن الخير يحقق النفع للإنسان ، والغاية من كل عمل أخلاقي هو السعادة ، ويتجه أفلاطون في البحث عن الأخلاق إلى أنه البحث عن الخير الأسمى ، وكيف يمكن تحقيق هذا الخير الأسمى في جزئياته عن طريق اكتساب الفضائل ، وهذا بالنسبة للأفراد ، ثم يتجه البحث الأخلاقي إلى تحقيق الخير في الدولة وهو ما يتصل بالسياسة ، ويتضمن الخير في الأخلاق العملية عند أرسطو ، فالخير قيمة أخلاقية تحقق سعادة الفرد ، وتمثل الفضيلة وهي الوسط العدل بين الإفراط أو التفريط ، لكن فلاسفة العصر الحديث منهم كانط ، جعل السعادة منفصلة تمام الانفصال عن الدافع الأخلاقي .

فالدافع الأخلاقي عند كانط هو الواجب ، والواجب قد لا يكون له صلة بالسعادة فقد يأتي عن طريق تحقيق الواجب سعادة ، وقد يأتي عن تحقيقه الشقاء ، والنتيجة الأخلاقية واحدة في كلتا الحالتين ، لأن تحقيق الأخلاق هي تحقيق الواجب وليست تحقيق السعادة .[1]

ولكن ما هي طبيعة الخير ؟ تنقسم المدارس الفلسفية في تحديد طبيعة الخير إلى مذهبين ، المذهب الأول ، يتضمن اتجاه الحدسيين من المثاليين ، والثاني اتجاه يتضمن نظرية الغائيين ومنهم : التجريبيون .

* : **المذهب الأول** : اتجاه الحدسيين من المثاليين ، إذ يرون أن الخيرية تخضع لقوانين عامة ، ومبادئ مطلقة ، لا يحدها زمان ولا مكان ، وعلى هذا المستوى فإن مقياس الخيرية Criterion ، الذي يميز بين الأفعال الخيرية والأفعال الشريرة ثابت لا يتغير لتغير الظروف والأحوال ، وهذا يعني أن مستوى الخيرية شيء خارج عن العقل ، كمبدأ لا يتغير ويقوم خارج العقل مستقلاً عنه ، قائم في طبيعة الفعل والأفعال الإنسانية ذاتها ، وفي تصور المثاليين والحدسيين يرجع مستوى الخيرية الأخلاقية إلى الله تعالى ، فالخير خير لأن الله أمر به ومن الخطأ أن يقال أن الشر أمر به الله تعالى ، لأن طبيعة

١- المصدر السابق - ص٣٩٥ .

الله تعالى خير ، وإلى هذا ذهب جرسون(١٣٢١) م ، ووليم أوكام W, Occam ، ١٣٤٩ م ، وغيرهم من علماء اللاهوت في العصور الوسطى ، وحتى القديس توما الأكويني .

وهذا ما يشبه ما ذهب ويذهب إليه علماء الإسلام حين قالوا أن مقياس الخيرية الأخلاقية لا يقوم في طبيعة الأفعال - بل في إرادة الله تعالى [١].

وإذا كان كانط ذهب إلى أن الخيرية تقوم في طبيعة العقل ولذلك فإن المستوى ثابت لا يتغير الزمان أو المكان ، أو حتى الأحوال ، لكن ذلك أيضا مرهون بإرادة الجنس البشري (أعمل بحيث تستطيع أن تكون قاعدة سلوكك قانوناً عاماً للناس جميعاً ، وهذا القانون صوري لا يستمد من التجربة ، وبهذا يصبح الواجب عند كانط هو العمل بمقتضى قانون عام ، ولا يصدر هذا القانون عن عاطفة ، بل عن طريق العقل العملي وحده ، والخيرية مرهونة بالباعث باعتبارها مجرد تقدير عقلي لمبدأ الواجب ، وعلى ذلك فإن مبدأ الإلزام الخلقي والذي يتمثله كانط ، يؤكد على عمل الواجب - لذات الواجب ، لا شيء أو أمر خارج عن ذات الواجب ، لا لمنفعة أو تلبية لحاجات اجتماعية أو غيرها ، مثال ذلك " اللص الذي يمتنع عن السرقة خوفاً من القانون ، أو عقاب المجتمع أو لعاطفة ما أو أمر خارج عن ذاته ، لا يعتبر امتناعه هذا عملاً يدخل ضمن الواجب أو الأخلاق القيمية ، أما إذا امتنع عن السرقة لوازع الواجب الذاتي ، والنية الطيبة الخالصة فهو عمل أخلاقي وواجب ذاتي وهذا ما تمثله فلسفة كانط في ميتافيزيقا الأخلاق . [٢]

*** : المذهب الثاني :**

مذهب الغائيين - التجريبيين وأصحاب مذهب المنفعة واللذة ، فقد جعل أتباع هذه الاتجاهات المنفعة واللذة غاية الأفعال الإنسانية ، ومقياس خيريتها أيضا ، ومن هؤلاء اللذين والحسيين الفورينائيون ، والأبيقوريون ، قديما في عصر المدارس اليونانية المتأخرة والتي سادت الأخلاق النفعية في الحضارة الهللينستية والروحانية .

كذلك ذهب أتباع المذهب الحيوي الذين جعلوا الغاية التي تقاس بها خيرية الأفعال إشباع قوي الإنسان وغرائزه المختلفة ، وهذا المذهب معيب كذلك لأن يستبعد

١- نفس المصدر - صـ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

٢- دكتور محمد ثابت الفندي " مع الفيلسوف " - صـ٥٨ .

قوى الإنسان الأخرى كالتماس العلم ، والتضحية في سبيل مبدأ أو واجب أوجب الفرد لأقرانه والإبداع الفني مثلاً .

وقد وجد المذهب الحيوي والطاقة الحيوية رواجاً عند فلاسفة محدثين فضلاً عن أفلاطون وأرسطو إذ أن هؤلاء أشاروا إلى تقدير قوى الإنسان الخيرية التي يمكن توجيهها إلى خدمة المواطنين والآخرين والخدمات الاجتماعية .

وتقاس الخيرية الأخلاقية عند فلاسفة الأنانية والذاتية الفردية من أمثال نيتشه الفيلسوف الألماني (١٩٠٠) م توكيد الذات وإقرار النزعة الفردية ، والصراع من أجل بقاء الأصلح ، دون الاهتمام بالظروف والحياة الاجتماعية والآخرين . [١]

وإذا كان دعاة الخير الأقصى سقراط ، أفلاطون وأرسطو ، اتخذها كما أشرنا ، السعادة غاية قصوى لحياة الإنسان ، فإن الصوفية وأهل الزهد يتصورون الخيرية في نبذ الشهوات والملذات وأهواء النفس ، ومقياس الخيرية كقيمة أخلاقية تتضمن في إنكار الذات ، وعدم التعرض للعلاقات والانغماس في الحياة الاجتماعية ويتمثل هذا الاتجاه - الصوفية وأصحاب النزعات الدينية من الأجناس الأخرى مثل البوذيين ، والكلبيين ، والمدارس الرواقية . [٢]

ومن الجدير بالذكر أن بعض الفلاسفة الحسيين التجريبيين المحدثين ذهبوا إلى التطرف في الإشارة إلى مقياس الخيرية مثال توماس هويز Hobles ، الذي رد الأخلاقية إلى إرادة الحاكم المطلق ، ومعرفة الخير والشر حقيقة موضوعية مستقلة عن كل إرادة ، إنسانية ، أو إلهية ، لأن طبيعة الفعل هي التي تحكم علية إن كان خيراً أو شراً . [٣]

*** : الجمال : قيمة في مجال القيم :**

اعتبر الباحثون أن الجمال - كقيمة من أهم المباحث الفلسفية والحضارية للشعوب والأمم ، والذي يستدعي النظر ، ووضع ضمن التصورات الذاتية والموضوعية ، ولما للجمال خاصة في الفن من أثر في تمييز خصائص وسمات

١- دكتور توفيق الطويل " أسس الفلسفة " ، صـ٤٢٦ .

٢- المصدر السابق - صـ٤٢٨ - كذلك دكتور توفيق الطويل " فلسفة الأخلاق " ط منشأة المعارف الإسكندرية - ١٩٦٠ .

٣- المصدر السابق - صـ٤٢٧ ، كذلك دكتور توفيق الطويل " مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق " ، أماكن متفرقة ط دار النهضة المصرية ١٩٥٣ م .

الحضارات الإنسانية على مر العصور ، فالجمال الفني مظاهر متعددة ، تصبغ بها وتميز بها الحضارة ، وعلامة بارزة على رقي الأمم والشعوب ومدى تقدمها ، وأثرها ، وتأثيرها على الأمم والشعوب بحضارتها قديماً ووسيطاً وفي العصر الحديث ، واعتقد أن التأثير المتبادل بين الإيديولوجيات ومظاهر التفكير والفلسفة ، هو المكون الرئيسي للحضارة والمظهر الثقافي .

ولكن ما هي طبيعة الجمال كقيمة ، في مجال القيم المختلفة ؟

لقد انقسمت المذاهب الجمالية إلى أقسام : الأول : ينظر إلى الجمال كقيمة ذاتية والثاني : ينظر إلى الجمال كقيمة موضوعية ، له خصائص وسمات عينية مستقلة عن العقل .

* : **وفيما يتعلق بالقسم الأول** : فقد قرر أصحابه أن الجمال هو معان عقلية ، وليس صفات عينية تقوم في الشيء الجميل مستقلة عن كل إدراك ، وقد ظهر من يمثل هذا الاتجاه الذاتي في فهم الجمال تولستوي (١٩١٠ م Tolestoy ، وخلاصة الرأي عنده أن قيمة الشيء الجميل سواء كان قصيدة شعرية ، أو صورة فنية أو تمثالاً ، أنما يقوم على تأثيرها فيمن يتلقوها ـ وهو اشتراك في الانفعال ، والقصد من ذلك إشراك غيره في عواطفه ، وهذا قول الفلاسفة القائلين بالجمال الذاتي .

* : **أما القسم الثاني** : فيمثله الفلاسفة الذين يجعلون للجمال وجوداً موضوعياً ، ولهذا يتفق في تذوق الجمال والاستمتاع به جميع الناس في كل مكان وزمان فالشيء الجميل يقوم بالقياس إلى مَا فيه من خصائص تشير إلى الإعجاب بجماله ، ومن دعاة هذا المذهب برايس (١٧٩١) م Price ، إذ أن الجمال عنده حالة في الشيء الجميل ، تلازمه وتقوم فيه ، ولو لم يوجد عمل يقوم بإدراكها ، وقد طبق سيفل بل Civle Bail نظرية أفلاطون في موضوعية الجمال ، عندما تحدث عن دلالة الآثار الفنية ومشاكل النقد الفني .

وجدير بالذكر أن اتجاهاً مخالفاً قد ظهر وحاول أن يثبت أن تصور الجمال يتغير من عصر إلى عصر آخر ، ومن جنس إلى جنس آخر ، بل وقد يختلف باختلاف الأفراد في المكان الواحد ، والبيئة الواحدة ، وقد يختلف الناس في تذوقهم للقطع الموسيقية مثلاً ، والصور الفنية والشعر ، مثال ذلك : أنه ليس من اليسير على الشخص الأوروبي أن يستمتع بالموسيقى الصينية أو الشرقية أو لا يستطيع أن نطرب بسماع قطع من الشعر العربي أو المصري أو الموسيقى الغنائية أو العكس . ...

* **: ولقد نشأ اتجاه ثالث** : يحاول أن يربط بين الجانبين الذاتي والموضوعي ، أي يربط بين الشيء الجميل وبين العقل الذي يدركه ، أي بين الذاتية في الإحساس بالجمال ، وبين الواقعية الموضوعية ، ولذلك ذهب أصحاب هذا الاتجاه (الوضعية المنطقية) إلى أن تقويم الجمال معناه : إسقاط لمشاعرنا وعواطفنا على العالم الخارجي ، وأما نسبية الجمال فهي إشباع عاطفي ، لأن إضافة الجمال إلى شيء معناه دوافع في نفوسنا قد اتضحت بالتأمل في حالة توازن وانسجام عاطفي ، فإن الجمال والقبح ، كالخير والشر ، لا يعبران عن وقائع ، ولكنهما يعبران عن عواطف ومشاعر ، وانفعالات ، والعبارات الجمالية لا توصف بالصواب أو الخطأ ، ودراسة الجمال من أجل بيان علة الشعور بالجمال عند الفرد والجماعة .[١]

* **: وقد نشأت مدرسة أو قسم رابع** : هي المدرسة الاجتماعية إذ عمدت إلى إلغاء الفروق وتجسيم الذوق الاجتماعي ، إذ لا تعترف بفردية الفنان ، ولا تتردد في رد الشعور الجمالي إلى ذوق المجتمع ، كذلك يتوخى أصحاب هذا الاتجاه لاصطناع المناهج العلمية لدراسة الظواهر الجمالية الواقعية .[٢]

وإذا كان المقصود بفلسفة الجمال هو الإبداع الفني والآثار الجميلة التي تثير المشاعر الوجدانية ، وتلهب الذوق العام ، وما يثير افتتان الناس على مر العصور وما يتعلق بالنظر الفعلي ومناهج التفكير النظرية ، فإن هناك طرف آخر يتعلق بالجمال ، من حيث كونه (علم الجمال) أي الجمال كعلم ، ويهدف إلى اصطناع المناهج العلمية والتجريبية ، لذلك انصرف عن دراسة الجمال كقيمة ، يتعلق بما ينبغي أن يكون ، إلى البحث الواقعي كما هو قائم وكائن بالفعل ، وهذا يتعلق (بطبيعة الفن والمناهج التي تتبع لتضيف الفنون الجميلة) .

رابعاً : الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية :-

١- تمهيد :

العلوم الإنسانية هي العلوم التي تدرس الإنسان ، والسلوك الإنسانية ، من جوانبه المختلفة قديماً وحديثاً ، ومحاولة دراسة الإنسان قديمة ربما نجد بدايتها الأولى في عبارة الفيلسوف اليوناني سقراط Socrates ، " أعرف نفسك بنفسك " إذ كيف يحاول الإنسان معرفة العالم الذي يحيط به ، ومع ذلك فهو يجهل نفسه وذاته ؟ لذلك

١- دكتور توفيق الطويل " أسس الفلسفة " ، صـ٤٥٨ .

٢- المصدر السابق - صـ٤٧٠ ، صـ٤٦٢ .

فإن سقراط أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض حين نبه إلى ضرورة معرفة الإنسان لنفسه .[١]

وقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة أن يعود الإنسان إلى نفسه ، لينظر ويتبصر في قوله تعالى " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " سورة الذاريات آية (٢١) .

وقد أدى اهتمام الباحثين بدراسة الإنسان إلى ضرورة نمو الاتجاه إلى وضع علوم إنسانية تتعلق بالإنسان ويكون هو محورها ، وإن ظل البحث في فلسفتها يكتنفه كثير من الصعوبات ، وممن هذه العلوم ، علم النفس إذ يدرس سلوك الإنسان بوصفه معبراً عن عوامل داخلية فيه أو خارجية مكتسبة أو وراثية ، ثم علم المجتمع بوصفه معبراً عن علاقة الإنسان بغيره في داخل المجتمع والمشكلات المترتبة على ذلك ، وعلم الاجتماع إذ يدرس الظواهر الاجتماعية وتغيرها كتجسيد للسلوك الإنساني ، وعلم الأنثروبولوجيا : يهتم بدراسة تطورات الإنسان وسلوكياته من حيث العادات والتقاليد والطقوس ، والفلكلوريات المختلفة ، وعلم السياسة : يهتم بدراسة سلوك الفرد وعلاقته بالدولة والنظم والحقوق والواجبات وكيفية قيام السلطة وأنواعها ونظامها ، وعلم التاريخ : يدرس الحياة الإنسانية والأحداث وتطوراتها وتفاعلاتها عبر مراحل زمنية كثيرة ، وعلم القانون : يدرس كيفية ضبط السلوك الإنساني وفقاً لقواعد وقوانين يتم تشريعها لضمان الحقوق وتنفيذ الواجبات ولتحقيق فكرة ومبدأ العدالة ، وعلم الجمال والفنون : يدرس سلوكيات الإنسان تجاه الأشياء والموضوعات التي يقبل عليها من حيث القبول الحسن أو النفور من القبيح .. وهكذا .[٢]

وليس من شك في أن هناك بل وتوجد صلة قوية بين الفلسفة وهذه العلوم الإنسانية والاجتماعية ، لأن الفلسفة بناء إنساني يقوم بها الإنسان ليتكيف من خلالها مع الواقع ، إذ أن الفلسفة تفسر له العالم ، وتشرح ألغازه ومراميه ، ومن هنا فإن الفلسفة تعبر عن يقظة العقل الإنساني واكتشافه قدرته على النظر العقلي ليس بالنسبة للظواهر الطبيعية فحسب ، بل بالنسبة للإنسان ، إذ تحيا الفلسفة إذا ما كانت تفكيراً في الإنسان ، وإذا ما استمدت مادتها من العلوم الإنسانية .[٣]

١ـ دكتور عزمي إسلام ـ " في فلسفة العلوم الإنسانية " (بحث منشور ضمن كتابات في الحضارة) ـ صـ٢٤٩ / ٨٧٥ ـ مجلة عالم الفكر ديسمبر ١٩٨٤ م .

٢ المصدر السابق ـ صـ ٢٥٠ / ٨٧٦ .

٣ للمزيد : دكتور حسن حنفي ـ متى تموت الفلسفة ومتى تحيا (بحث منشور ضمن كتابات في الحضارة) ـ صـ ٢٤٢ / ٨٦٧ .

وبعد هذا التمهيد نتناول صلة الفلسفة ، ومكانتها بالنسبة للعلوم الإنسانية وما يتعلق بالعلوم الاجتماعية الأخرى ، التاريخ - السياسة ، الدين ، الأخلاق ، القانون ، مقولات الفكر ، الفن والفنون الجميلة .. إلخ .

٢ - التاريخ - (وفلسفة التاريخ) :

التاريخ History - دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ، أيا كانت معالم هذا التطور وظواهره ، واتجاهاته ، وقد أشارت الكتابات أن كلمة التاريخ تعني مجموعة الحوادث التي ظهرت في حياة البشرية ، والإلمام بتلك الحوادث ، وهي كلمة Historia يونانية الأصل تدل جذورها على معنى الرؤية والمشاهدة والاستقصاء بقصد المعرفة (١) .

فالتاريخ وعاء الخبرة البشرية التي تتعلق بالماضي وتستهدف جهود المستقبل ، والتنقيب في طوايا فكر الأمم والشعوب وارتباط ذلك بالحياة ، واصلة بسيرة الإنسان في الأرض ، والجهود المتصلة بالحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والفكرية ، وقد تدرجت الدراسات التاريخية عبر العصور والأجيال كمرآة وسجل يرصد ألواناً من الأحداث والأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار ، بالإضافة إلى أن التاريخ باعتباره يعني بدراسة الأحداث ، إذ هو الأحداث نفسها ، ولما كان يشمل الماضي والحاضر والمستقبل كنوع من التنبؤات والتوقعات المستقبلية ، فإنه لا يترك حدثاً كبيراً أو صغيراً مهما كان موقعه إلا وتناوله بالبحث والتدقيق ، مع ضرورة تمثل الموضوعية ، وعدم التشيع للآراء والمذاهب واختيار وسائل البحث الدقيق ، وهذه الأمور نبه إليها عالم التاريخ وفيلسوف التاريخ العربي عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته . (٢)

والتاريخ بهذه الكيفية علم ، يستهدف جمع المعلومات وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها في تسلسل وتعاقب ، ويحاول هذا العلم أبرز الترابط بين هذه الأحداث والمعلومات وتوضيح علاقة السببي بينها ، ويفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات ثم بين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث ، فالتاريخ سجلاً للماضي وظواهره ومعاركه السياسية والحربية فقط ، ولا ترجمة لحياة الزعماء والحكام فقط بل يشمل الحياة بجوانبها المختلفة . (٣)

---

١ دكتور رافت غنيمي الشيخ - فلسفة التاريخ - صـ ٧ - ط دار الثقافة القاهرة ١٩٨٨ م . . كذلك دكتور إسحق عبيد - معرفة الماضي من هيرادوت إلى توينبي - صـ ١ - ط القاهرة ١٩٨١ م .

٢ راجع : ابن خلدون - المقدمة - صـ ٣٥ ، ٣٦ .

٣ للمزيد - دكتور رافت الشيخ - فلسفة التا[illegible]يخ - صـ ١٠ ، ١١ .

والتاريخ بهذه الكيفية علم ، وفن ، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون ت عام (١٤٠٦) م (٨٠٨) هـ ، " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وإن يعد في علومها العريقة .. " [1]

وهذه العبارة تشير إلى علم التاريخ - وهو فن - وكذلك حكمة التاريخ وفلسفة التاريخ ، الكامنة في باطنه ، وتحتاج إلى تحقيق ، وتعللي وتحليل .

* ومن ننطلق لدراسة الفلسفة والتاريخ ، وليس المقصود هو تاريخ الفلسفة أو التفكير الفلسفي ، بل صلة الفلسفة والتفكير الفلسفي بتحليل وتعليل وتعلق باطن التاريخ وهو ما يسمى " بفلسفة التاريخ " وهذه تعني أن التاريخ يقع ضمن مباحث الفلسفة ، وليس منفصلاً عنها . وفيما ذهب بعض الباحثين " الفلسفة حركة التاريخ ، وفصلهما مثل فصل الروح عن البدن ، لأن الروح غير المرئية لا مستقر لها إلا في عالم الغيب " [2]

. ولكن : متى نشأت فلسفة التاريخ ومراحل تطورها ؟

* إن فلسفة التاريخ ، النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية ، ومعرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال ، والتاريخ يسير وفق خطط معينة ، وليس بطريقة عشوائية ، وإن فلسفة التاريخ هي رؤية المفكر للتاريخ أو حكمه عليه . [3]

وقد اختلف بعض الباحثين والمفكرين المعاصرين حول تأسيس فلسفة التاريخ وصياغة هذا المصطلح ، فمنهم من رأى أن الفيلسوف الإيطالي فيكو Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) م ، مؤسس فلسفة التاريخ قبل تأسيسها على يد مونتيسكو (١٧٥٩) م وجان جاك رسو (١٧٧٨) م وفولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) م ، وكوندرسيه في ألمانيا (١٧٩٤) م ، من خلال كتابه العلم الجديد . [4]

بينما ذهب آخرون إلى اعتبار الفيلسوف الفرنسي فولتير كان أول من صاغ مصطلح فلسفة التاريخ من بين الفلاسفة الأوربيين ، وكان يقصد بها دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف ، أي دراسة تحليلية عملية تحليلية ناقدة ، ترفض الخرافات وتنقح

---

١ ابن خلدون - المقدمة - صـ ٣ ، ٤ .

٢ دكتور حسن حنفي - دراسات فلسفية - صـ ٣١٠ - ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ م .

٣ لمزيد من التفاصيل : دكتورة زينب الخضيري : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون - صـ ٦٥ .

٤ دكتور حسن حنفي - دراسات فلسفية - صـ ٣٦٤ .

التاريخ من الأساطير والمبالغات من أجل نشر الحرية والتنوير العقلي ، وتعد نقطة الانطلاق في فلسفة التاريخ عند فولتير من استنكاره أن تصبح دراسة التاريخ أكواماً مترامية من المعارك الحربية أو المعاهدات السياسية دون معنى مفهوم من الحكمة بادية ، لقد كان فولتير يهدف إلى تعديل صفة الدراسات التاريخية من التاريخ السياسي والحربي إلى فلسفة الحضارة ، وأن تصبح مهمة فلسفة الحضارة تتسع لدراسة التاريخ وتتبع العقل البشري ممثلاً في شتى مظاهر النشاط الإنساني .

إلا أن العلامة العربي عبد الرحمن بن خلدون يعتبر أول من بشر بفلسفة التاريخ ، فنقطة الانطلاق عنده هي التمييز بين الظاهر والباطن في التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق " [1].

وعبارة ابن خلدون تتضمن جانبين هما : فلسفة التاريخ تتجاوز السرد والحشد لأخبار لا رابط بينها ، والجانب الثاني : إن فلسفة التاريخ تهدف إلى التعليل . وعلى ذلك تتحدد مقولات فلسفة التاريخ على عدة جوانب هي : الأول : **الكلية** : إذ يطلب الفيلسوف الوحدة العضوية بين الأجزاء التاريخية والحوادث ، وكذلك فإن نقطة البدء في فلسفة التاريخ هو تكامل بين الأجزاء وترابط بين الوقائع ، ويتشكل من ذلك كله ما يسمى بالتاريخ العالمي أذلي يصبح مادة الفيلسوف ، ففلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين ، ولا تكتفي بمجتمع خاص ، وإنما تضم العالم كله في إطار واحد من الماضي حتى الحاضر ، بل يمتد التفسير والتحليل إلى المستقبل ، إذن يتجاوز فيلسوف التاريخ الوقائع الجزئية إلى التاريخ العالمي . [2]

الثاني : **العلية** : يلجأ الفيلسوف في فلسفة التاريخ إلى اختصار العلل أو الأسباب الجزئية للأحداث التاريخية إلى علة واحدة أو سبب واحد أو علتين أو سببين ، يفسر في ضوئها التاريخ العالمي ، وهذا يقتضي تشكيل وقائع تاريخية لكي يقدم منها صورة عقلية ، ونعطي مثالاً توضيحياً على ذلك : فنظرية المادية التاريخية للفيلسوف الألماني كارل ماركس نجده أرجع الأحداث التاريخية إلى سبب واحد وهو العامل (الاقتصادي أو المادي) وقال أن العصر القديم وهو تاريخ الإنسان كان قائماً على الاقتصاد القائم

---

١ ابن خلدون - المقدمة - صـ ٤ وما بعدها .

٢ دكتور أحمد محمود صبحي - في فلسفة التاريخ - صـ ١٢٤ .

على الرق وفي تاريخ العصور الوسطى قامت المجتمعات على الاقتصاد المستعبد ، بينما يقوم مجتمع العصور الحديثة على الاقتصاد الرأسمالي ، ثم تنبأ أن يقوم مجتمع العصور الحديثة في الزمن المقبل وحياة المجتمعات على الاشتراكية في وسائل الإنتاج ، إذن مسألة العلية ركن أساسي في فلسفة التاريخ [١] .

وقد ظهرت عدة قضايا لفلسفة التاريخ المعاصر منها : قضية النسبية في التاريخ وما يتعلق بها من القيم ، واشتهر من تعرض لها كل من دلتاي ، وشبنجلر وماكس فيبر ، وكارل ماركس ، ثم قضية العلية في التاريخ ، ومن القائلين بها توينبي (أرنولد توينبي) ، وإن كان سبقه إلى ذلك ابن خلدون (١٤٠٦) م ثم قضية التقدم والتخلف في مجرى التاريخ وأخيراً قضية التنبؤ بما سيكون عليه التاريخ ، وقد ذهب البعض إلى التفاؤل ، وذهب الآخرون إلى التشاؤم (وإن كان كروتشه) قد ذهب إلى رفض الماركسية كفلسفة للتاريخ فإنه اعتبر فلسفة التاريخ هي البحث عن المطلق اللامحدود فيما هو محدود ومحصور بل قد يلتمس فلاسفة التاريخ العالمية والشمول فيما هو محصور ومقصور .

إن فلسفة التاريخ تعالج القصور في دراسة التاريخ كالإغراق في الأحداث ، وتعمل فلسفة التاريخ على تحويل الأحداث إلى نسيج مترابط له معناه في تفسير سلوك الإنسان على مسار التاريخ دون الدخول في تفصيلات عقيمة ، يضاف إلى ذلك أن فلسفة التاريخ تتمثل في الوصول إلى الحقيقة عن طريق البحث الدائب عن الحقيقة . [٢]

ولذلك يستمد فيلسوف التاريخ مادته من الوقائع ومجريات الأمور المترابطة أو المعللة حتى لا يقع في الإغراق في المجردات التي تزيد الأمور تعقيداً .

٣ ـ الفلسفة والسياسة : (الفلسفة السياسية) :-

السياسة في أكثر معانيها انتشاراً هي : علم القوة وتنظيمها في المجتمعات ، أما الفلسفة ، فهي تنظيم مستمر لعملية التعقل واكتشاف المبادئ المنظمة للتطبيق العلمي .

ولما كانت الأداة التي يمكن لها تحقيق هذا التوفيق بين القوة والعقل في المجتمع هي الدولة ، فقد يحدث أن تنجح الدولة في إخضاع القوة للعقل ، وقد تهدف أن يكون مثلها الأعلى هو تتويج العقل على مقعد القوة ، ولكن يحدث في الغالب أن تفشل .

---

١ المصدر السابق ـ صـ ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .

٢ المصدر السابق ـ صـ ١٢٥ وما بعدها ، كذلك دكتور رافت غنيمي الشيخ ـ فلسفة التاريخ ـ صـ ١٩ ، ٢٠ .

ويعتبر أفلاطون أول من اهتم بالبحث عن إمكانية هذا التوفيق ودعا إلى هذا الهدف في فلسفته السياسية .[1]

لقد ظهرت العلوم السياسية ، شأنها شأن العلوم الأخرى - الطبيعية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وعلم النفس والتاريخ والإدارة في محاولات للاستقلال عن الفلسفة وتقنين الظواهر الإنسانية المختلفة من أجل الوصول إلى قوانين تحكم العلاقات القائمة بين الفرد والدولة ، والمجتمعات والدول ، بالإضافة إلى النظم التي تيسر هذه العلاقات وتنظمها في قوالب محددة ومتوازنة مع تحديد نظم الحكم والأهداف التي تصير إليها في إطار تحديد الحقوق والواجبات ، وكل هذا من أجل تبرير إمكانية الاستقلال التام الفكر الفلسفي التي كانت تدور في فلكه هذه العلوم على مر العصور منذ اليونان حتى العصور الحديثة ، لكن رغم ذلك فمازالت للأفكار الفلسفية مكانها في مجال السياسة ، وذلك لأن الظواهر السياسية شأنها شأن الحياة الأخلاقية هي أمور تفترض الإرادة الإنسانية التي تتصف بالحرية ، ويكون من الصعوبة الوصول إلى قوانين محددة تصلح للتنبؤ بسيرها وضبطها وفقاً للتقنين العلمي ، ولذلك يبقى للفلسفة السياسية طابعها المعياري Normatiue ، والذي يتجاوز البحث فيما هو كائن إلى المثل العليا التي ينبغي أن تكون ، ومن هنا يحدث أن تتصل السياسة بالأخلاق على اعتبار أن الأخلاق تتمثل ميدان الحرية .

وتحاول الفلسفة السياسية تحقيق قيم إنسانية مثل العدالة والحرية والسعادة لأفراد المجتمع ، ولذلك تحاول تقييم الواقع السياسي على ضوء ما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع ، حتى يمكن تحقيق هذه القيم ، فالصفة المعيارية للفلسفة السياسية تتسع إذن لكي تستوعب التصورات المثالية للمجتمعات النموذجية أو ما يسمى باليوتوبيا(Utopoia) ، يضاف لذلك أمكن للفلسفة السياسية دراسة الإيديولوجيات (علم الأفكار) Ideis ، ودراسة الوسائل التي يمكن بها تطبيق الأفكار وتحويلها إلى خطة عمل ، لتغيير المجتمع - كما في الفلسفة الماركسية ، أو المحافظة على المجتمع كما هو قائم - كما في التيارات المحافظة القديمة .

لقد حاول فلاسفة السياسة منذ أفلاطون بناءً على طابعهم المعياري تشخيص أعراض مجتمعاتهم ، ووصف الحلول للإصلاح السياسي والأخلاقي دفقاً للمبادئ العقلية التي تساق على فهم الأحداث والعلاقات ونظم الدولة والقوانين والأفراد من

---

١ دكتورة أميرة حلمي مطر - في فلسفة السياسة - صـ ١ - ط دار الثقافة ١٩٧٨ م .

حيث الحقوق والواجبات ، وعادة ما تزدهر الفلسفة السياسية عندما يحدث للدولة بعض الانهيارات أو الصراعات ، كما حدث بالنسبة لتوجهات أفلاطون في (عصوره المدنية المثالية أو الفاضلة) على أثر التفكيك السياسي والاضطهاد السياسي في أثينا ، وترك أفلاطون للاشتغال بالأعمال السياسة [1] كذلك حاول هوبز في القرن السابع عشر أن ينقذ الدولة من الصراع الديني والحرب الأهلية ، وجاء جون لوك وحاول أن يرسي حقوق ملكية الأفراد ، وبظلها يحكم القانون ، ويدافع عنها ضد أخطاء الملكية المطلقة . [2]

ومما لا شك أن الفلسفة السياسية تتميز عن علم السياسة إذ أنها تتخذ منهجاً في البحث يختلف عن المنهج التجريبي ، بل المنهج الذي يتناول دراسة طبيعة المشكلات وتحليلها والبرهنة عليها .. وكذلك تتصل بما يسمى بالنظرية السياسية التي تشمل تطور الفكر السياسي الذي يعني بتحقيق طبيعة المشكلات السياسية والتفكير فيها كما سبق للفلاسفة السابقين من واقعهم السياسي مثال ذلك : ما يظهر لنا من دراسات لحقوق الأفراد والتعبير عن آرائهم بحرية كاملة ، وكيفية ممارستهم للحقوق السياسية والمشاركة في الحياة العامة ، وغير ذلك لم يكن متاحاً الآن لو لم تكن قد سبقت مجموعة من جهود الفلاسفة والمفكرين من قبل ، عند أفلاطون وأرسطو ، وفولتير ومنتسكيو والتمهيد للثورة الفرنسية وهكذا .

حقيقة أن الفلسفة السياسية نشأت في أحضان الفلسفة اليونانية منذ سقراط والسوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو ، ثم تطورت بأشكال مختلفة في الحضارة الهللينستية المتأخرة وحتى العصر الحديث ، وإن لم تكن قد شهدتها الحضارات الشرقية في ظل الإمبراطوريات المختلفة ، ولكن ذلك لم يمنع من ظهور نظم وتشريعات سياسية في الصين والهند وفارس وبلاد ما بين النهرين في بابل وآشور ومصر ، حيث لم تناقش فكرة الحرية ، وإرساء قيم مثل تحقيق العدالة وما يترتب عليها من حقوق واجبات تجاه الدولة أو الحاكم والمحكومين ، قدر اهتمام الحكام بوضع تشريعات ونظم تؤكد سيطرت الحاكم وطاعة الحكام باعتبارهم يمثلون ظل الإلهة في الأرض ، إذ قد ظهرت تشريعات حمورابي [3] تبين طرق الحكم وقواعد التنظيم السياسي للطبقات

١- راجع أفلاطون " الجمهورية " - صـ٣٦٨ وما بعدها - ترجمة فؤاد زكريا .

٢- دكتورة أميرة حلمي مطر " في فلسفة السياسة " صـ٨ .

٣- سبق الإشارة إلى هذا الموضوع في الفصل الثاني - وللمزيد راجع ول ديورانت " قصة الحضارة " (الشرق الأدنى) ، جـ ١٣ .

الاجتماعية ، والعلاقات بين الأفراد ووسائل الحكم ـ بقدر ما يؤدي إلى ضبط الحياة السياسية والاجتماعية والخلقية .

ونحاول هنا ـ بعد هذا العرض الموجز لنشأة وتطور الفلسفة السياسية وتوجهاتها ومناهجها ، أن نشير بإيجاز أيضا إلى بلورة التفكير الفلسفي المتصل بالسياسة عند السوفسطائيين وسقراط ثم أفلاطون حتى العصور التالية .

لقد كان المفكرون والفلاسفة اليونانيين يعتقدون أن هناك مبادئ عامة مطلقة وحقائق كلية تنطبق على المجتمع البشري وكما تنطبق على كل شيء آخر في الطبيعة وتتضمن ما يبتغيه الإنسان من حياة طيبة لنفسه ، وما على الفيلسوف إلا أن يكتشفها (أي لقوانين والمبادئ) ، وعلى هدى هذه المبادئ والمعايير العامة يستطيع الحكم على المؤسسات السياسية والقوانين السائدة وتقدير مدى صلاحياتها ثم تصور القوانين البديلة التي تجعل المجتمع أقرب ما يمكن إلى الحقيقة .

عندما ظهر السوفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد على أثر ازدهار حركة التفكير العقلي والحرية الديمقراطية ، كان لهم دور فعال في جذب الانتباه إلى دراسة الحياة الاجتماعية والإنسانية ، فاتجهوا إلى البحث عن الفرد ، وطبيعة السعادة التي يريد الحصول عليها ، ولذلك فإن أهم الموضوعات التي تعرضوا إليها هي الأخلاق والسياسة ، وإن لم يكن لهم فلسفة سياسية أو أخلاقية متكاملة، إلا أن كان لآرائهم إرهاصات وأوليات تثير الجدل والفكر حول مشكلات الفرد وطبعتها في المجتمع اليوناني بالإضافة إلى تحديد علاقة الفرد بالدولة والأشياء من حوله ، وأشاعوا نزعة النقد فيما هو مطلق ، بالنسبة للقيم والأخلاق ، والقوانين والدساتير أو حتى المعرفة ، وعلى ذلك أكد السوفسطائيون على أن المؤسسات السياسية هي نتاج التقاليد والعادات وما تعارف الناس عليه في تعاملهم ، وأساس وجودها وطاعة الناس لها هو الخوف من العقاب ، أو الأمل في الجزاء أو لمجرد أنها تقاليد وأعراف نشأوا في ظلها ولم يحاولوا معرفة السبب في وجودها ، ولو أنهم حكموا عقولهم وفكروا لتغيير الوضع ، ونفضوا عن أنفسهم قيود المعتقدات والتقاليد ، فالناس يطيعون القوانين ليس عن اقتناع ولكن لوجود من هو أقوى منهم يفرض عليهم ذلك ، فالقوانين والدساتير السياسية لم تقم أصلاً لصالحهم بل قد تكون ضد ما يعتبرونه خيراً لهم ، إن مفهوم العدالة الذي تنطوي عليه قوانين البشرية (الوضعية) ليس في الحقيقة سوى مصلحة الأقوى دون النظر إلى مصلحة الأفراد ، لقد جعل السوفسطائيون معيار تحديد صلاحيات المؤسسات الدستورية أو القوانين السياسية والأنظمة البشرية هو عقل

الإنسان ، وهو معيار فردي وليس جماعي ولا موضوعي ، فالخير والشر مفهومان نسبيان ، وليس هناك ما يثبت أو ينفي وجود الآلهة ، بل لعلها مخلوقات فرضت لتخويف الناس حتى يطيعوا الأوامر . [١]

ومما لا شك أن نظرية السوفسطائيين السياسية نابعة من نزعتهم الفردية الذاتية إذ جعلوا الفرد هو مقياس كل شيء ، الخير والشر على السواء ، ولم يكن لديهم معيار ثابت أو موضوعي ، فالمعيار الحقيقي عندهم للحكم على الأشياء هو مدى ملاءمتها لطبيعة الإنسان ، وحسب هؤلاء أن أسلوبهم في التأمل والتحليل المنطقي الذي انطوي عليه مذهبهم التحليلي وسلطوه على القضايا السياسية والأخلاقية كان بمثابة تمهيد منهجي للنظرية السياسية عند الإغريق والفلاسفة فيما بعد ، كما أن اهتمامهم بالتفكير السياسي وربطه بالأخلاق ، جعل من الأخلاق عنصراً أساسياً من عناصر الفكر السياسي والفلسفة السياسية فيما بعد مما دفع كبار الفلاسفة - سقراط ، أفلاطون ، أرسطو ، لإرساء دعائم الأخلاق والقيم بالإضافة إلى رسم نظريات سياسية ووضع الأفكار التي تربط بين الأخلاق والسياسة ، وتوضيح الأصول والمبادئ الرئيسية لمجتمع المدينة الدولة - [٢]

* : وإذا اتجهنا إلى الفكر السياسي عند سقراط نجد أنه كما ربط بين المعرفة والأخلاق ، حاول أن يربط بين الأخلاق والسياسة أيضا ، إذ انتقد الأفكار السياسية والأخلاقية عند السوفسطائيين وشرع في توضيح مذهب وفلسفته السياسية ، فيؤكد على أهمية الفعل لأن الإنسان بعقله وروحه وليس بحواسه فقط ، ويؤكد على الثقة في القوانين والدساتير التي تضعها الدولة ، وأن احترام الفرد للقوانين ودساتير الدولة فضيلة ، وإذا كانت الأخلاق غايتها خير الفرد ، فإن السياسة وقوانينها ونظمها تهدف إلى تحقيق هذه السعادة أو الخير ، وهذا يشكل حياة المدينة الدولة الفاضلة .

وأن لم يهتم سقراط بالطبيعيات والإلهيات ، قدر اهتمامه بالقيم والأخلاق ، فإن كان يريد أن يرسي قواعد البنية السياسية التي تقوم عليها الدولة الفاضلة ، ولذلك أهتم بتحديد معاني الألفاظ والمصطلحات والسؤال عن ماهيات الأشياء لتعريف معاني العدالة ، والمساواة ، والأمانة ، والشجاعة ، والشرف وذلك لضمان وضع المبادئ الأساسية التي تتواءم وخير الفرد والمجتمع في المدينة الفاضلة يذهب سقراط إلى أن

١- فوستر - أساتذة الفكر السياسي ، جـ١ ، صـ١٢٧ - كذلك دكتور عبد الكريم أحمد " تاريخ النظرية السياسية " ، ط معهد البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية ، ١٩٦١ م .

٢- جون باول - " الفكر السياسي الغربي " - صـ٣٥ - ط ١٩٦٤ م .

هناك مبادئ مطلقة للعدالة ، والمساواة ، والحرية ، والحق والخير والجمال ، على الإنسان بعقله اكتشافها ، لأنها تصادف في نفسه ماهياتها لأن الإنسان خير بطبعه ، مجبول على الخير ، وهو أمر جوهري ، أما الشر فهو عارض ، فالإنسان اجتماعي بطبيعته ، ولا يستطيع أن يعيش بمفرده ، وأن الدولة وجدت كنتيجة ضرورية لحاجات الإنسان الاجتماعية ، فالإنسان والدولة يكونان معاً كلاً اجتماعياً ، ولا يمكن لأحدهما أن يكون له هدف يختلف أو يتناقض مع الآخر ، فالصواب بالنسبة للإنسان هو نفسه الصواب بالنسبة للدولة ، وهذا الصواب يشمل مصلحة الفرد والمجتمع معاً وهو جوهر الفضيلة فالإنسان بطبيعته يفعل الصواب لأنه يعرفه ، وهذه هي جوهر فلسفته السياسية [1]

وأن كان سقراط قد هاجم الديمقراطية الأثينية ، وأساليبها المختلفة في الحكم فذلك لأنه كان يطالب بضرورة تربية المواطنين سياسياً أولاً ، واختيار الحكام من بين من ثبت أنهم أقدر من غيرهم على القيام بمهام الحكم علمياً وفكرياً وسوف يتضح ذلك عند تلميذه أفلاطون ، في صورة الملك الفيلسوف والذي جعله قمة التنظيم السياسي في محاورة الجمهورية [2]

* : إذ ما اتجهنا إلى مناقشة الفكر السياسي عند "أفلاطون"، نجد أنه وضع خلاصة المناقشات والتحليلات الفلسفية السياسية في إطار نظرية فلسفية سياسية متكاملة ويعتبر أفلاطون أول فلاسفة اليونان في صياغة النظرية السياسية في صورة محاورات مثل الجمهورية ، والقوانين ، والسياسي ورجل الدولة ، وقد تأثر بفكره سقراط في أرستقراطية الحكم ، ووضع الأسس الضرورية اللازمة للتربية السياسية للحكام إذ يشترط أن يكونوا من بين المتعلمين أو الفلاسفة والحكماء .

كانت أثينا في عصر أفلاطون (٣٤٣) ق . م ، قد صارت مسرحاً لصراع بين حزبين سياسيين كبيرين ، بين أنصار الديمقراطية ، وأيضا حكم القلة (الأوليجارشية) كل فريق يستعين بأنصار له ضد الآخر مع تعارض المصالح بين الأغنياء والفقراء ، فأنقسم مجتمع المدينة الدولة إلى مدينتين متعارضتين في مصالحها ، ومثل هذا الصراع يؤدي إلى الانشقاق في الحياة بما يتعارض مع الحياة المتناسقة التي تعتبر عند فلاسفة الإغريق الهدف الأصلي من التجمع السياسي ، كما أن نطبق النظام الديمقراطي

١- دكتور عبد الكريم أحمد " تاريخ النظرية السياسية " صـ٢٦ ، صـ٢٧ ، كذلك دكتور عبد الرحمن بدوي " أفلاطون (ضيف الفكر اليوناني) " صـ٤٥ ط دار القلم بيروت ١٩٧٦ م .

٢- راجع أفلاطون " محاورة الجمهورية " ترجمة وتعليق فؤاد زكريا - ط دار الكاتب العربي عام ١٩٦٤ م .

الأثيني أدى إلى استيلاء مجموعة (الديماجوجيين) محترفي إثارة الجماهير للوصول إلى أهم مناصب الدولة ، لذلك أنحط مستوى أداء الخدمة السياسية والعامة ، فعم الخلل وتسربت الفوضى وانحلت الأخلاق ، وصار الأمر يتطلب في رأي أفلاطون إلى تغيير جذري في الأوضاع والمؤسسات السياسية [1] وقد لفت نظر أفلاطون الانتصار الساحق الذي حققته القلة في النظام العسكري في أسبرطة على أثينا ، الأمر الذي جعله يؤكد على أهمية النظام الفردي الأرستقراطي الذي يتولى أمور السياسية حاكم ويشترط أن يكون فيلسوفاً .

* : **حكم الفلاسفة** : لما كانت الفضيلة هي المعرفة ، فإن ذلك ينتهي إلى وجوب أن يتولى الحكم أكثر الناس معرفة أن أفضلهم للمناصب العامة ، والمعرفة عند أفلاطون هي الثورة على استخلاص أفضل الأوضاع للتنظيم الاجتماعي من المبادئ العامة لتطبيقها بهدف الوصول بالمجتمع إلى الكمال ، والأفراد الذين لديهم القدرة المطلوبة لذلك هم القلة ، وهم كذلك الفلاسفة ، ولذلك يجب أن يترك لهم الأمر في تنظيم المجتمع والقيام بعمليات الحكمة ، فالدولة لا ينصلح نظامها السياسي حتى يصير الفلاسفة ملوكاً وحكاماً ، وتتوافر للملوك والأمراء قدرة الفلسفة وروحها . [2] وهؤلاء هم أفضل الأفراد في معرفة الأحوال السياسية وأحوال المجتمع ، ومراعاة للمصالح العامة ، واستخلاص أفضل الأوضاع ورسم السياسة العامة ، وإشباع متطلبات الناس المادية والروحية أيضا .

ويتضح التفكير السياسي عند أفلاطون من خلال نظريته المتكاملة وتصوره الشامل لنظام الدولة المثالية ، والمجتمع والدساتير والحكام وشئون الإدارة العامة ، والحرية ، والتصور الأمثل لهذا النظام يتضح من خلال بعض نماذج التفكير الفلسفي السياسي .

* : الدولة وغايتها ومهمتها عند أفلاطون ، هي تحقيق الفضيلة ، وهي غاية الفرد أيضا ، وكما أن الانسجام بين أجزاء النفس هي غاية الفرد الإنسانية ، فكذلك غاية الدولة تحقيق الانسجام في النظام ، فغاية الدولة والأصل في تكوينها هو تهيئة أفضل الظروف لتحقيق الفضيلة التي هي غاية الفرد ، فالدولة تنشأ حينما يشعر الناس بأن الواحد منهم لا يستطيع أن يكفي نفسه في إشباع حاجاته ، يجتمع الناس بعضهم مع

١- دكتور عبد الكريم احمد " تاريخ النظرية السياسية " ، صـ٢٨ .

٢- أفلاطون - الجمهورية - الكتاب الأول - صـ٣٧٢ .

بعض ليستطيع الواحد أن يكمل الأخر ، وكما ظهر النزاع الترف بين الطبقات اقتضى الأمر إلى ظهور طبقتين ، طبقة الحكام ، وطبقة رجال الجيش .

وإن كان أفلاطون يشير في محاورة السياسي إلى حياة المجتمعات الطبيعية الأولى وهي أفضل أنواع الحياة على الفطرة ، دون ما حاجة فرد لأخر ، إلا أنه تمشياً مع الواقع السياسي والاجتماعي للحياة الإنسانية يؤكد على أهمية الدولة كمصدر لتحقيق غاية الأفراد وانتظام الحياة وإشباع حاجات الأفراد ، وتنظم العمل والإنتاج . . الخ . [١]

* : يقسم أفلاطون يجتمع المدينة الدولة بحسب التخصص إلى ثلاث طبقات وفقاً للتحليل الفلسفي للنفس الإنسانية ، وهي : : الطبقة الأولى : طبقة الأغلبية من عامة الناس التي تحركها الدوافع والرغبات والحاجات الشخصية ـ وهي تقابل القوة الشهوانية في النفس الإنسانية . والطبقة الثانية : هي طبقة الجند والحَرس ورجال الجيش وهي أقل عدداً من الأولى ، يحرك أفرادها دوافع الشهامة والشجاعة والبطولة وهي تقابل القوة الغضبية في النفس الإنسانية ، أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الحكام ، وهم الفلاسفة أو الحكماء ، وهي طبقة قليل العدد بالنسبة للآخرين وعرف عن أفرادها الحكمة وتؤهلهم طبيعتهم وتدريبهم لاكتشاف الحقائق والمبادئ العامة والقوانين أو الدساتير ، وهي تقابل القوة العاقلة في النفس الإنسانية .

وجدير بالذكر أن النظام السياسي في مجتمع المدينة الدولة كان طبقياً ، ينقسم المجتمع إلى طبقتين كبيرتين هما : طبقة السادة ـ الحكام والجند والجيش ، وطبقة العبيد الذين تحركهم الصناعات والتجارة والأعمال الدنيا .

ويتضح فلسفة أفلاطون السياسية في تعبيره عن صلة الأفراد بالدولة ، حيث رأي أن يكون الفرد مسخراً لأجل الدولة ، ويضع أفلاطون نظاماً خاصاً لتربية الفلاسفة أو الحكام ويرى أنه يجب أن يخضعوا لتدريبات شاقة ويحرم أن تكون لهم حياة عائلية ، أو أن يكون للحكام الفلاسفة أو الحاكم الفيلسوف أي ممتلكات ، لأن الممتلكات والأموال والحياة العائلية تعرضهم لإغراء التحيز ويجب أن يعيش الحكام الفلاسفة حياة شيوعية يوفر لهم المجتمع كل حاجاتهم حتى لا يعرقل انشغالهم بالحياة الخاصة وصولهم إلى الحقيقة ، وبحيث لا يكون هناك ما يؤثر على فضيلتهم .

١ـ عبد الكريم أحمد " تاريخ النظرية السياسية " صـ٣١ ، كذلك محاورة أفلاطون " ـ السياسي ـ أماكن متفرقة .

من هذا المنطق فإن الحاكم الفيلسوف يعمل الخير يريد الإرادة الصادقة . يستطيع أن يتصور القوانين العادلة ، والفلسفة هي الوسيلة الوحيدة لوضع سياسة محكمة أن الفلاسفة أصلح الناس لإقامة النظام الإلهي على الأرض ، وبذلك يمكن إنشاء المدينة الدولة ، ويشير أفلاطون كذلك إلى ضرورة تربية الأطفال بما يستقيم مع اختيار أحدهم فيما بعد للتحكم ، والاهتمام بطبقة الجند والحراس ووضعهم في المستوى اللائق بهم حتى تنطبع في قلوبهم حياة الشجاعة ، وفضيلة العدالة فيعرفوا ما يطلب منهم ، وما يجب أن يتجنبوه .. هكذا ، ثم يشير إلى ضرورة تعلم الموسيقى والألعاب الرياضية ، بالإضافة إلى التربية الروحية والعقلية بما ينمي في النفوس القوة الروحية والبدنية . (١)

ولكن ما هي الأدوات والوسائل والأساليب التي يمكن بها تحقيق الدولة الفاضلة أو المدينة في فلسفة أفلاطون ؟

يشير أفلاطون إلى القانون والعدالة ، فبعد التدريب الصارم للفلاسفة للحكام وإبعادهم عن كل المغريات المادية والعاطفية يمكن أن تطمئن لوضع مصائر المجتمع في أيديهم دون رقابه من أية جهة . لأن الفلاسفة يصنعون القوانين ذاتها بلا قيود ويحققون للناس أفضل حياة ممكنة ، مثل الطبيب الذي يعطي المريض الدواء الذي يشفيه من المرض ، ومن ثم فإن المعرفة تؤدي إلى اكتشاف الحقيقة وتطبيق العدالة ، كما أن المعرفة الفلسفية لدى الحاكم الفيلسوف لا تنطوي على منطق القانون ، لأنها تكتشف العدالة ، والعدالة هي الحقيقة ، والحقيقة لا تخضع لأي سيادة ، وقد استعرض أفلاطون في محاورة الجمّهورية (٢) الثلاثة أنماط من ، تصور مفهوم العدالة وتحقيقها منها : وجهة النظر السوفسطائية التي تذهب إلى أن العدالة مجموعة معايير يحددها الناس في ظروفهم المعيشية ووفقاً لطبيعتهم لكنها تكون خاضعة للأنانية ، فالعدالة هنا تكون خاضعة لما يفرضه القوى على الضعيف ، ووجهة النظر الثانية هي أن للعدالة مفهوم موضوعي مطلق لا يتغير بتغير الظروف التي يعيشها الناس ، وتتضمن مبادئ عامة أزلية يمكن اكتشافها بالعقل ، ووجهة النظر الثالثة وهي وسط بين الاثنين تقوم على أن العدالة ليست حقيقة مطلقة كما ذهب سقراط ، ولا هي حكم القوى على الضعيف الذي تصوره السوفسطائية ، بل هي : ما يقرره الناس في صورة تفاهم بينهم جميعاً على أن لا يتعدى أحد مهما كان قوياً على الأخر مهما كان ضعيفاً ، ومن هذا

١ـ للمزيد ـأفلاطون " الجمهورية " صـ١٧٩ ، دكتور عبد الكريم أحمد " تاريخ النظرية السياسية ، صـ٣١ ، صـ٣٢ ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " صـ١٤٤ .

٢ـ أفلاطون " الجمهورية " ـ صـ٣٣٩ .

التفاهم تتكون معايير العدالة وتطبيقها [1] وبذلك فقد أعطى لحكم الفرد (الحاكم والفيلسوف) أهمية في توضيح مفهوم العدالة ، واكتشاف حقيقتها وتطبيقها من خلال مبدأ التفاهم بين فئات المجتمع بحيث لا يتفوق أحد على الآخر .

* : ورأى أفلاطون من ناحية أخرى ، أنه إذا توفر وجود الملك الفيلسوف الذي يجمع بين حب الحكمة وممارسة السلطة لمصلحة الجميع واكتشاف المبادئ الموضوعية للعدالة المطلقة ، فلا حاجة للقانون ، ولما كان الإنسان المعصوم من الخطأ قد يتعذر وجوده ، فإنه يمكن تطبيق حكم القانون ، لأنه هو البديل الوحيد .

* : يضاف إلى ذلك أن أفلاطون يشير إلى ضرورة دراسة تاريخ وتطور المجتمعات البشرية ، لأن القوانين قد تتعدد وتختلف ، وذلك من أجل استخلاص أفضل القوانين ، ورأى ضرورة وضع بعض الإجراءات التنظيمية لحسن سير الدولة ، مثل وضع قيود محكمة على السلطة حتى لا تنحرف ، وتحبيذ الفصل بين السلطات المختلفة ليقوم كل منها بمهمة الرقيب على الأخرى . وهكذا . [2]

* أما أرسطو (٣٢٢) ق . م . ، فإنه لم يكن بعيداً عن سالفيه في تمثل الفكر الفلسفي السياسي ، لكنه كان أكثر واقعية ، وإن كان مهتماً كذلك بتقديم صورة واضحة للحياة المثالية للمدينة الفاضلة كذلك . إذ نجده قد جمع بين الواقعية والمثالية ، ويشير إلى أهمية الدولة ونشأتها وأنها تقوم على العلاقات الطبيعية بين الناس ، ويوضح أهمية وجود الثروة ، ويربط بين السياسة والاقتصاد في تكوين الدولة والمجتمعات البشرية ، ويعترف بأن الإنسان مدني بالطبع كذلك ولا يمكن أن يعيش بمفرده بمعزل عن الجماعة [3] ، ويشير أرسطو إلى تصوره للمجتمع المثالي كما ذهب أفلاطون في تقسيمه الطبقي الثلاثة ، والوظائف المقررة لها ، وقد ارتفع بالعمل الفكري والنظري إلى أعلى الدرجات بينما هبط بالعمل اليدوي إلى أحط الدرجات أيضاً ، وقد أشار كذلك إلى أن تحقيق السعادة التي هي غاية الفرد في المجتمع لا يأتي إلا عن طريق تحقيق العدالة ، وقد طالب أرسطو المدينة الفاضلة والقائمين فيها وعليها بمزاولة الفكر الفلسفي ، وتأمل حقائق المثل بالإضافة إلى أعمالهم اليومية .

١- دكتور عبد الرحمن بدوي " افلاطون (ضيف الفكر اليوناني) - صـ٢٣٢ .

٢ للمزيد من التفاصيل - أفلاطون - محاورة القوانين - ترجمة دكتور محمد حسن ظاظا - ط ١٩٨٦ . كذلك دكتور عبد الكريم احمد - تاريخ النظرية السياسية - صـ ٣٥ .

٣ أرسطو - كتاب السياسة - الكتاب الأول - (الباب الثاني) - ترجمة لطفي السيد - كذلك دكتورة أميرة حلمي مطر - في فلسفة السياسة - صـ ٤٤ .

ويشير أرسطو إلى توجيه المواطن إلى حياة التأمل والفلسفة والنظر العقلي ، ورأى أن الدولة لها دور في التربية العقلية والفلسفية للمواطن بحسب المثل الأعلى ، وكذلك التربية البدنية والرياضية ، وذلـ لتهذيب الأخلاق والغرائز والاستعلاء بها ، وكذلك يتفق أرسطو مع أفلاطون في ضرورة انتقاء القصص والفنون التي تعمل على نشأة الفرد المواطن على الفضائل ، ويصنف أرسطو في فلسفته السياسية أنواع الشعوب الآسيوية ، وسكان لبلاد الشمالية ، ويعطي لكل منهم مميزات وخصائص معينة من حيث سرعة الفهم ، التأمل ، إتقان الفنون .

ويذهب أرسطو أنه لكي نكفل قيام مدينة مثالية ومستقرة يجب توافر بعض الشروط منها : أن يظل لها حجم معين بحيث تكون وحدة قائمة بذاتها ، لا تعتمد على اقتصاد غيرها ويكون للسكان حجم لا يزيد كثيراً ولا ينقص كذلك ، حتى يمكن حفظ النظام .

ويوضح أن من أسباب قيام ثورات ، هو عندما تشعر الأقلية بظلم من الأغلبية أو أن الأغلبية ترى أحجاماً من الأقلية ، ويرى أن الأقلية عندما يكون لها تراث من التقاليد الممتازة تستطيع خدمة البلاد ، ويكون حكمها حسناً ، والعكس بالنسبة للأغلبية . [1]

* : وجدير بالذكر أن التفكير الفلسفي السياسي تطور عبر العصور حتى الفكر الإسلامي ، إذ نجد تأثيراً واضحاً للآثار الفلسفية السياسية من أفلاطون وأرسطو لدى مفكري الإسلام مثل الفارابي (ت عام ٩٥٠) م ، في تصره للمدينة الفاضلة ، والحاكم الفيلسوف أو النبي ، وتكوين الدولة وطبقاتها وأنواع التجمع الإنساني وتقسيمه للمدن الفاضلة والتمييز بينها وبين المدن أو المجتمعات الناقصة أو الفاسدة وأهمية تقسيم العمل ، وشيوع روح التعاون ، وفضيلة العدالة ، والتربية الخلقية ، وهكذا ، وقد صنف الفارابي كتاباً باسم آراء أهل المدينة الفاضلة ، وضح من خلاله خلاصة فكره السياسي . [2]

* أما عبد الرحمن بن خلدون (١٤٠٦) م فقد ضمن في كتابه (المقدمة) البحث في قيام الأمم والشعوب وتولي الممالك والحكام ، والأدوار التي تمر بها الدول من حيث الازدهار ثم الأفول (التدهور) بسبب زيادة الترف وتفشي الفوضى وفساد

---

١ للمزيد - دكتورة أميرة حلمي مطر - في فلسفة السياسة - صـ ٥٦ .

٢ المصدر السابق - صـ ٦٢ ، ٦٣ وما بعدها ، كذلك الفارابي - أهل المدينة الفاضلة .

الأخلاق ونظرية الأدوار والأكوار، ثم وضح عوامل الترابط وأهمية التعاون وتقسيم الأعمال وربط بين فلسفة التاريخ وفلسفة السياسة وأحوال العمران والاجتماع .. وهكذا .[1]

ولا يخلو ابن خلدون مثل الفارابي من التأثر بالنظريات الفلسفية والسياسية اليونانية ، إلا أنه يعول دائماً على فكرة العصبية والقبلية ودورها في الولاية والحكم وتكوين الأمم أو تدهورها وفقاً لنظرية الخلافة في الفكر الإسلامي ، ثم يبلورها في صيغ فلسفية سياسية .

* وقد شملت النزعة الفلسفية التجريبية أو العقلية التفكير ووضع وتحديد النظم السياسية في العصر الحديث عند توماس هوبز (١٦٧٨) م ، والذي تحدث عن نظرية الحكم المطلق ، والملكيات المطلقة ، وتبريره لنظرية السيادة ، والصالح العام ، وصالح الحكام شيء واحد ، فمصلحة الحاكم والمحكوم شيء واحد كذلك ، وأشار إلى أنواع نظم الحكم من الأرستقراطية إلى الديمقراطية لكنه كان يفضل حكم الفرد المطلق ، بصفة خاصة في حالة الحروب وصراع الطبقات ، وإجازته لنظرية وراثة الحكم وهكذا ، وقد ظهر جون لوك (١٧٠٤) م بنظريته في حالة الديمقراطية الليبرالية ، والقانون الطبيعي وفي كل الأحوال يحكم مذهبه الحسي التجريبي ، وتنظم حق الملكية وأنواع السلطات ويرى أن السلطة التشريعية هي أعلى السلطات في الدولة ، ويرى الفصل بين السلطات ، وتطور الفكر السياسي الفلسفي الغربي الأوربي من مونتسكيو في كتابه (روح القوانين) ونظرية العقد الاجتماعي - إلى هيجل في فلسفته المثالية ...[2]

٤ - الدين والأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع :-

أ - فلسفة الدين :-

إن الخبرة الدينية متأصلة في أعماق الإنسان وإنها لازمته خلال مراحل تطوره ويمكن أن نسلم أن هذه الخبرة وتفسيرها والتعبير عنها خضع كذلك لنفس تطور الإنسان ، وقد ارتبطت الخبرة الدينية ارتباطاً وثيقاً بالإطار الثقافي الذي وجدت فيه ومما لا شك أن الخبرة الدينية في ارتباطها بالخلفية الثقافية ترتبط أيضاً بالخلفية أو

---

١ ابن خلدون - المقدمة . كذلك دكتورة أميرة حلمي مطر - في فلسفة السياسة - صـ ٧٢ وما بعدها .

٢ للمزيد دكتورة أميرة حلمي مطر - في فلسفة السياسة - صـ ٩٠ ، ٩٨ وما بعدها . كذلك دكتور طه بدوي - علم السياسة - ط المكتب المصري الحديث ١٩٦٥ م .

الجانب الأخلاقي ، ولها تأثيرها المباشر في تطوير وتقييم السلوكيات الأخلاقية في المجتمعات الإنسانية ، ففي الحضارات الشرقية القديمة كان للخبرة الدينية أثرها وتأثيرها الواضح في بلورة الإطار الفكري والثقافي والعلمي ، الأمر الذي جعل معظم فلاسفة الحضارات ومؤرخيها يشيرون إلى أن الثقافة الحضارية الشرقية ذات صبغة روحية وصوفية ، تلتمس أنواعاً من العبادات والطقوس مهما اختلفت بعضها عن الأخرى ، فهي تصب في الوعاء الثقافي والأخلاقي العملي لهذه الشعوب أو الحضارات كذلك بالنسبة للحضارات اليونانية القديمة ، إذ ثبت ما للخبرة الدينية من أثر في تعميق بعض الاتجاهات الصوفية السرية في النحل الأورفية القديمة . [1]

وتسرب ذلك بطيئاً عند سقراط ومثاليات أفلاطون ، والفيثاغورية ، وحتى عصر ظهور الديانات السماوية فيما بعد - وانتشار المسيحية وامتزاج تعاليمها بالأفلاطونية ، وشراحها في الإسكندرية ، وهرامستها إلى أن ظهرت الديانة الإسلامية ، فكان لخبرتها الروحية والعقلانية أثرها الواضح في تفسير الظواهر الكونية والأخلاقية والعملية كلها . وتقويم السلوكيات والأخلاقيات العربية القديمة ، بالإضافة إلى العبادات الوثنية والقضاء عليها ، وتوجيه سلوكياتها إلى عبادات روحية متجهة إلى الإله الخالق الأعظم للكون والوجود كله (الله عز وجل) .

ومن هنا كان الفهم الفلسفي للدين ، ينظر إلى الخبرة الدينية على أنها ظاهرة روحية ، بالإضافة إلى تأثيره في الوعاء الثقافي والتقويم الأخلاقي .

إن الخبرة الدينية أصيلة إذن في أعماق الإنسان ، كما أن الفهم الفلسفي للدين يكمن في أعماق الإنسان أيضاً ويحتاج إلى تفسير وقد ينحصر هذا التفسير والتعبير عن هذا الفهم الديني من ناحيتين : إحداهما إيجابية والثانية سلبية ، الناحية الإيجابية ، وهي تسمى عادة بالإيمان ، وتنتهي بوجود كائن روحي عالي متعالي سامي أسمى من الوجود الإنساني المادي وهو (الله تعالى) مع تنوع الصفات التي تنسب لله تعالى .

الناحية السلبية : وهي التي يتجه أصحابها إلى إنكار وجود الله تعالى ، وقد أشار ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) إلى هذين الجانبين الإيجابي : الإيمان بوجود الله ، والسلبي الإلحادي - عند البدائيين وعند المؤمنين من البشر وتطور ذلك على مر العصور . [2]

---

١ راجع : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية (العقائد الأورفية) .
٢ دكتور إمام عبد الفتاح - مدخل إلى الفلسفة - ص ١٠٥ .

وإذا أردنا أن نستعرض بإيجاز علاقة الفلسفة بالدين ، نجد أن هناك ارتباطاً قوياً الفلسفة والدين ، وقد أثمر ذلك على مر العصور فلسفات دينية تشكل جانباً كبيراً من التراث الديني والثقافي والحضاري الإنساني مثل الفلسفة المسيحية ، وفلسفة اللاهوت اليهودية ، والفلسفة الإسلامية ، وقد سادت هذه التيارات الفلسفية الدينية ، خاصة في العصور الوسطى وأثمرت عن وجود كثير من الفرق والمذاهب الدينية التي اصطبغت جوانب من التأويلات الفلسفية والرمزية للنصوص والآثار التراثية الدينية عبرت عن جوانب وخصائص كل ديانة أو فرقة والتي تميزها عن غيرها .

* ففي التراث الثقافي اليوناني القديم ، ارتبطت الفلسفة بالدين ، فقد مهدت الأساطير الدينية لنشأة التفكير الفلسفي ، وظهر في ملاحم هوميروس الإلياذة والأوديسية ، وهزيود ، وهم من عباقرة الشعراء والقصاصين اليونانيين أحاديث عن عقدة الآلهة اليونانية ، وقدرتهم على الحركة والسيطرة ، ووجودهم على جبال الأولمب ، ونصرة أصدقاءهم أو التنكيل بأعدائهم ، كذلك ظهرت فكرة الآلهة عند الفلاسفة الآخرين في العصور التالية . (1)

وقد سبق الإشارة إلى الحضارات الشرقية - المصرية ، والبابلية والفارسية ، فضلاً عن الهندية والصينية ، وما يتبعها من عقائد دينية تشير إلى تمثل فكرة الألوهية وتأثير ذلك في الثقافات والأخلاقيات . (٢)

* ساد التفكير الديني في العصر الوسيط ، وبعد نزول الديانات السماوية - اليهودية والمسيحية والإسلام - إذ ليس في وسع العقل وحده أن يصل إلى جميع الحقائق ، بل أن هناك مجموعة من الحقائق لا نصل إليها إلا عن طريق الوحي ، مهما كان من دقة العقل وصحة براهينه ، لقد كانت الحقائق الدينية نقطة انطلاق العقل للاستدلال على صدقها ووجودها ، والإيمان بها كذلك ، ويذهب القديس إنسلم Anselm ST, (١١٠٩) م ، أن للعقل القدرة على البرهنة على صحة المسائل الدينية (٣) بينما ذهب القديس توما الأكويني Tomas Aquinas (١٢٧٤) م إلى أن العقل والوحي وسيلتان للمعرفة وقد صدرا من اصل واحد ، وأن الله أودع العقل في الإنسان ، وهو الذي أعلن الوحي وحقائق للناس ، فالعقل والإيمان يؤديان إلى حقيقة واحدة ، وإن كان العقل لا يستطيع أن يصل إلى جميع الحقائق الدينية ، إذن فلابد أن يضاف الوحي إلى

---

١ للمزيد من الدراسة - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - صـ ٦ .
٢ للمزيد - راجع - توملين - فلاسفة الشرق القديم - صـ ٢٥ .
٣ دكتور إمام عبد الفتاح إمام - مدخل إلى الفلسفة - صـ ١٠٥ .

العقل ، وعلى ذلك فإن الفكرة التي سادت العصور الوسطى والأديان كانت تنادي بعجز العقل البشري وحده بغير نور الإيمان عن الإحاطة بكثير من المسائل ، ولذلك صبحت الفلسفة في هذا العصر مساندة للدين ، وتعلم اللاهوت ، وفي الفكر الإسلامي سادت عدد من التيارات الفلسفية الدينية ، منها تيارات علم الكلام ويمثلها فرق المتكلمين الذين اعتنوا بالعقل واستعملوا مصطلحات وأفكار فلسفية في تفسير بعض الأفكار الدينية في الوجود والطبيعة والإرادة ، وتيار الفلاسفة الإسلاميين الذين حاولوا تأويل النصوص والمصطلحات الدينية في ضوء النظريات والمصطلحات الفلسفية محاولة التوفيق بين نظريات الفلسفة وحقائق الدين ، ومن المتكلمين المعتزلة ، والأشعرية ، والفلاسفة الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، وجماعات أخوان الصفا والغزالي وغيرهم .

* : ومنذ عصر النهضة والعصر الحديث ـ حدث نوع من محاولات الاستقلال والانفصال بين الفلسفة واللاهوت أو الدين ، ربما لأسباب علمية ، وأخلاقية وسياسية لمنع سيطرة الكهنوت واللاهوت على حرية العقل ، والإرادة ، والطموح الإنساني في الكشف والإبداع والتشوق إلى ما وراء الطبيعة ، وظهر اعتزاز بالعقل وأهميته وتقدمه على اللاهوت في أوربا على الدين والعقيدة ، فذهب ديكارت في كتابه " مقال عن المنهج " [١] إلى أن يقول " ينبغي علينا ألا نقبل شيئاً على أنه حق ما لم يظهر لنا أمام العقل أنه كذلك ، بحيث تختفي مظنة الشك ، وذهب الفيلسوف الألماني كانط Kant (١٨٠٤) م للفصل بين الفلسفة وبين الدين على اعتبار أن استخدم العقل الفلسفي في دائرة اللاهوت محاولات عقيمة لا تجدي شيئاً ، كما أنه يستحيل البرهنة على وجود الله بالأدلة العقلية لأن هذه القضية تخرج عن حدود المعرفة البشرية بأسرها ، وتدخل في مسلمات فلسفة الأخلاق ، والمذهب الأخلاقي يقتضي التسليم بخلود الروح الإنساني وكذلك التسليم بوجود إله قادر خير . [٢]

* وإن كانت هناك بعض الفروق بين الفلسفة والدين ، فإنه لابد وأن هناك جوانب أخرى يلتقيان حولها ، إذ تلتقي الفلسفة بالدين حول دراسة الكون والإنسان وعلاقة الإله الأعظم ، أو القوة الميتافيزيقية بهذا الوجود ، أما الفروق فقد تنحصر في فكرة محددة وهي أن الدين حقائق ووحي مطلق لا شك فيه ، وله جوانب توقيفية يستطيع العقل ولا الفلسفة النظر فيها لأنها فوق طور العقل ـ كالغيب والذات الإلهية ،

---

١ ديكارت ـ مقال عن المنهج ـ أماكن متفرقة .
٢ دكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ مدخل إلى الفلسفة ـ صـ ١١٨ .

والملائكة وغير ذلك ، كما أن الفلسفة لها مجال أوسع من مجال الدين ، قد تتجاوز اللاهوت الديني للبحث فيما وراء الوجود ، متحررة من أي قيد أو سلطة دينية أو غيرها . كما أن المنهج في الدين يعتمد على الإيمان المطلق ، وقبول قضاياه والتصديق بها مطلقاً ، أما الفلسفة فقد لا تقتنع بذلك قبل أن تتأكد عن طريق الاستدلال والمنطق وهكذا .

فهناك بين الفلسفة والدين صلة وفوارق ، فالدين به مسلمات ومبادئ بينما الفلسفة قد تبدأ من الفراغ والتحرر الكامل من القيود وتنتهي إلى نتائج أو براهين ، تسلم بالتالي إلى حقائق .. إلخ .

* إذا كانت الدوافع التي تقود الفلاسفة في الفلسفة الأخلاقية هو في الأغلب الأعم الرغبة في وضع الأسس المنطقية لمعتقداتهم الأخلاقية الشخصية ، ومثل هذا ينطبق على الفلسفة السياسية ، وفلسفة الفن والجمال ، فإن ذلك لا يختلف أيضاً بالنسبة لفلسفة الأديان ، ففلسفة الدين تهدف إلى وضع الأسس المنطقية والبرهانية للمعتقدات والخبرات الدينية ، ونعطي مثالاً فيما يتعلق بالجدل حول (وجود الله تعالى) من خلال مفهوم الله تعالى :

فقد يقول الأحمق من داخله أنه لا يوجد إله - لكنه يقر بأن ما يعنيه بالإله هو كائن أكبر وأكثر اكتمالاً من أي كائن آخر - الآن فإن الكائن يكون أكبر وأكثر اكتمالاً إذا وجد في الواقع بالمقارنة مع وجوده في الفكر فحسب " - إذن الأحمق مخير على القبول بوجود الله ، ما دام ناتجاً عن مفهوم أن الله تعالى حتماً موجود ، وهكذا فإن البرهان مصمم لإقناع أي شخص على الإطلاق ، حتى أكثرهم عناداً في إنكار وجود الله تعالى ، إن الله تعالى موجود ، حتى أن وجوده محتم ، فالأحمق الذي يبدأ من دون تسليم بهذا الوجود ، ينتهي مضطراً للإقرار به إذا قبل بالإثبات أو البرهان ، وهذه هي بالطبع الكيفية التي يبغي أن تكون بمعنى أن الفلسفة ينبغي أن تقودنا إلى تحدي أفكارنا الأساسية ، وإخضاعها إلى التحقيق العقلاني . ومع نهاية التحقيق العقلي نكتشف ما هي الأفكار التي يمكننا التمسك بها ، وأيها التي يجب التخلص منها . [١]

مثال آخر للتشابه والتباين بين الديانات ، يدخل ضمن فلسفة الدين أو اللاهوت في الفلسفة المسيحية ، فالروابط بين وجهات النظر المسيحية واليهودية حول طبيعة

---

١ أوليفريمان - فلسفة الدين - (بحث منشور ضمن كتاب - مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين) ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ - ترجمة مصطفى محمود محمود - مراجعة دكتور رمضان البسطويسي ، عالم المعرفة - مارس ٢٠٠٤م .

(الشر) على الأبرياء ، لكنه لا يفعل ذلك بوضوح ، والشروح التفسيرية لهذه الظاهرة تأخذ شكل الجدل بأن الله لديه مبرر قوي لسماحه للشر بأن يحدث ، ففي سفر أيوب Book of Job على سبيل المثال أن الشر هناك لاختباره ، وقد يكون ذلك قاسياً على أطفاله الذين يهلكون كجزء من هذا الاختبار ، وقد يرمز سفر أيوب عند المسيحيين للاقتداء مثل (المسيح Jesus) الذي يوجد جسراً أو معبراً بين معاناة هذا العالم ، واكتمال عالم السماء الإلهي ، وهو الشيء الذي لا يتحقق بالفعل في سفر أيوب لأن أيوب يواجه إلهاً قادراً ، يخبر بأن المخلوقات البشرية لا تستطيع أن تفهم كيفية تشييد هذا العالم .

إن هذا الرمز أو هذا الشخص وهو (عيسى المسيح Jesus christ) وفكرة مشاركة الله في آلامنا تؤخذ للارتقاء بالفكرة ، بأنه توجد هوة لا سبيل إلى اجتيازها بين المكان الذي نحن فيه ، والمكان الذي يوجد فيه الرب .[١]

لقد ذهب هيجل Hegel إلى أن اليهودية Judoism ، توحيدية محددة إلى درجة أنها تستخلص السماء بالكامل من العالم اليومي ، وتضعها بأكملها فوق العالم ، وهنا تؤكد الروابط الوثيقة بين الأديان على الفوارق بينها بدلاً من أن تخفيها ، فاللاهوت إلى حد بعيد الموضوع الأساسي لفلسفة الدين ، كما أن الفن بهذا الموضوع الأساسي لفلسفة الجمال .

ويشير بعض الباحثين الغربيين أنه يجب أن تأخذ فلسفتنا الدينية في الحسبان تناولها اللاهوت ككل ، وليس لاهوتاً معيناً ، ولا نجعل الرابطة بين الفلسفة والدين تبدو ضيقة أو محددة للغاية ، ففلسفة الدين في أوربا أو الغرب قد لا تذهب بعيداً عن اللاهوت المسيحي ، بينما ننظر في حدود ضيقة إلى ليهودية والإسلام ، وهذا تقييد فوق العادة ، فهناك تشابه قد يكون في الحقيقة تباين في فلسفة الديانات بين الأديان المختلفة " فما يحقق روح الكون من وجهة نظر الديانة الكونفوشيوسية confucianism - هو أمر مختلف تماماً عن المدخل أو المنهج المسيحي . "[٢]

---

١ المصدر الساق - صـ ٢١٨ هناك مجموعة من المصادر الأجنبية في هذا المجال منها : Brian Davies , An Intiducation to the Philosophy of Religion , Ox ford university press ١٩٣١ .

٢ المصدر السابق - صـ ٢٢٠ - وهناك مصادر أجنبية أخرى تضاف هنا منها : Thomas Marris , God and philosophers : The Reconciation of Faith and Reason , Newyork Oxford university press ١٩٩٤ - الترجمة (توماس موريس : الرب والفلاسفة ، التصالح بين الإيمان والعقل) .

ب - الأخلاق والدين في إطار علم الاجتماع :-

يذهب علماء الاجتماع إلى اعتبار الدين والأخلاق من ظواهر المجتمع [1] وهذا ما أعلنه علم العادات الأخلاقية ، وقد عالج هذه القضية علماء الأنثروبولوجيا على أساس أن الدين والأخلاق أنساق لها وظائفها وضرورتها في البناء الاجتماعي ، كما أنها نظم تتفاعل في الميكانيزم أو التركيب الاجتماعي ، لذلك يؤكد أوجست كومت A , Comte ، في فلسفته الوضعية إقامة الأخلاق بحيث يستند في ذلك إلى العلم ، ويستند كذلك إلى النسبية وملاحظة الواقع ، فالأخلاق عند كومت تدعو إلى المحبة والعيش للآخرين يقول " إن العيش للآخرين ليس قانوناً لواجب فحسب ، بل إنه أيضاً قانون للسعادة والرفاهية " لقد وضع أوجست كومت ما يسمى بالديانة الوضعية التي تتجه نحو عبادة الإنسانية ، لأنها تدعو إلى تمجيد ذلك الكائن الأسمى والذي تتحقق فيه معاني الخلود والبقاء والتضحية . والمنهج عند كومت في دراسة ظاهرتي الدين والأخلاق يقوم على افتراض الصلة الوثيقة بين الجانبين لأنهما يشكلان نسقاً اجتماعياً ونظماً تتفاعل خلال الأفراد في المجتمع فالأخلاق هي أخلاق الواقع والدين هو دين الواقع ،دون التحليق في آفاق الميتافيزيقا والفلسفة الأخلاقية أو الدينية عند الفلاسفة وعلماء اللاهوت .

والأخلاق في نطاق الدراسات الاجتماعية عند كومت ، تقوم على النظرية الوضعية التي تعترض على فكرتي " الإلزام الخلقي والإرادة الخيرة " التي يقول بها كانت في فكرته عن الواجب ، كذلك اعترض كومت على الأخلاق النفعية ، وأخلاق العاطفة ، لأن مثل هذه التيارات الأخلاقية ليس لها سند من العلم ، فالأخلاق في نطاق علم الاجتماع تستند إلى التجربة ، ولذلك فهي نسبية ، نبذ ما ينبغي أن يكون فما يجب لا أساس له في الواقع ، لأنه من قبيل الوهم الذي لا يعترف به الواقع والمؤكد والعضو النسبي .

فالفلسفة الوضعية عند كومت تهدف إلى إحلال الروح العلمي محل الروح الديني ،ولا تعتز بميتافيزيقا الدين ، كذلك تحاول دراسة المعرفة والأخلاق من جهة العلم بدلاً من أخلاق الفلسفة ، والميتافيزيقا الأخلاقية

لقد اقتحم علم الاجتماع الوضعي صميم المشكلة الدينية (الأنثرولوجيا) والكوزمولوجيا ، وهي أبواب الفلسفة الهامة التي ترتبط بميتافيزيقا الدين ، وفلسفة

---

١ دكتور مصطفى شاهين - علم الاجتماع الديني - صـ ٦٤ - ط دار التراث القاهرة عام ١٩٩١ م .

الوجود ، وهذه مباحث في الوجود المطلق ، والوجود الإنساني ، وفكرة الألوهية ، يقول فيرجليوس " أن فلسفة الدين بحث في موضوع الدين من الناحية الفلسفية وطبيعة الدين وقيمته ، وصدق دعواه ، والدين والأخلاق لهما صلة قوية بالله تعالى والإنسان ، وما يشمل ذلك من دعوات وصلوات وشعائر .. الخ .[1]

* ولكن ما هي الصلة بين الأخلاق والدين عند الفلاسفة والاجتماعيين ؟

إذا كان الفلاسفة قد شيدوا أنساقهم الخلقية ، وأقاموا قواعد الأخلاق على أساس الدين ، عندما افترض الفيلسوف كانط " للواجب الخلقي " مصدراً إلهياً على اعتبار أن الدين عند كانط هو المصدر البعيد للأخلاق ولفكرته عن الواجب ، فإن أصحاب الفلسفة الوضعية الاجتماعيين فصلوا بين الأخلاق والدين ، إذ هاجم كومت comte الحلول التي قدمها علم اللاهوت الكاثوليكي في مجال الأخلاق ، لأنها تتسم بالجمود في رأيه ولا تتابع مقتضيات العصر الحديث والتقدم في البحث العلمي .[2]

كذلك ذهب تلميذه إميل دوركايم ، في كتابه التربية الخلقية " إلى إعلان الاستقلال التام بين الأخلاق والدين ، وأعلن أن التربية الخلقية ذات صبغة دنيوية محضة ، وإذا كان هناك اتصال بين الأخلاق والدين في المجتمع الإسلامي وفي المجتمع المسيحي القديم أو ما زال حتى اليوم ، فإن الدين يضمن للأخلاق احتراماً ويحيطها بهالة من التقديس ، ووظيفة الدين عند دوركايم لذلك هي حماية الأخلاق .[3] لأن الدين عنده لا يؤسس الأخلاق بقدر ما هو رباط ضمان لها وأساس لحمايتها ، فالنظام الأخلاقي لم يشرع للآلهة ، وإنما شرع للناس ، لقد ازداد استقلال الأخلاق بعد قيام " البروتستانتية " . لأن المذهب البروتستانتي يقلل من شعائر الدين وقيمتها ، ويخفف من حدة الطقوس الدينية ، لأنه يمثل حركة إصلاحية دخلية في الديانة المسيحية القديمة .

وفي مجال الفلسفة : فهناك اتصال وثيق بين مصادر المشكلة الأخلاقية وأصول المسائل الدينية ، لأن الأخلاق تفترض إرادة وسلوك وعمل ، كما أن الدين في ذاته اعتقاد وإيمان ومعرفة بالحق . فالفرق بين الفلسفة وعلم الاجتماع في موقفهما من الأخلاق والدين هو : أن علم الاجتماع نفترض النسبي والوصفي ، أما الفلسفة فإنها

---

١ دكتور قباري إسماعيل - علم الاجتماع والفلسفة - جـ ٣ ط دار الكتاب العربي - ١٩٦٧ م .

٢ المصدر السابق - صـ ٢٦ ، ٢٧ .

٣ للمزيد من الدراسة في هذا المجال أيضاً - راجع - دكتور مصطفى شاهين - علم الاجتماع الديني (صـ ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ - ط دار التراث - ١٩٩١ م .

تنظر إليها من ناحية المطلق والمعياري . الفلسفة تنظر دائما إلى الكليات ، خارج الزمان والمكان أو الارتباط ببيئة معينة أو محددة ، إذ أن منبع الواجب والقوانين الآمرة في مدرسة كانط الفلسفية قواعد أخلاقية مطلقة ، لما ينبغي أن تكون عليه الإرادة الخيرة ، والسلوك الإنساني القديم .

أما في مجال علم الاجتماع . فالقيم والمبادئ الخلقية مرتبطة بحدود البيئة والزمان والمكان ، تتقيد بالنسبي وليس بالمطلق .

* : ولكن هناك كثير من الانتقادات الفلسفية التي توجه إلى علم الاجتماع والفلسفة الوضعية الاجتماعية في موقفها من الدين والأخلاق ، والفصل بينهما على أسس ومعايير واقعية وحسية ونسبية ، في الإطار الزماني والمكاني والبيني ، ومن ذلك :

أن النظرية الاجتماعية والتي يتبناها كل من أوجست كومت ، وإميل دوركايم ولوسيان ليفي بريل ، ورادكليف براون ، وغيرهم من علماء الاجتماع قاصرة عن تفسير أدق المعاني الدينية والمشاعر الوجدانية والمبادئ والأصول الأخلاقية المطلقة ، وترجع بكل القيم الدينية والإيمانية والأخلاقية إلى الواقع الاجتماعي النسبي ، والذي يخضع إلى التجربة ، القاصرة عن التعمق في معاني الدين والإيمان والقوانين الأخلاقية الإنسانية ، والضمير العالمي لحقوق الإنسان ، ونجعل من المجتمع والحياة الاجتماعية بما تحمله من متناقضات وقصور هي المصدر الأساسي للإيمان والإلهيات والمشاعر الوجدانية ، والأخلاقية " فالقضية الأساسية عند الاجتماعيين في تفسير الدين ترى أن الشعور الديني يتولد لدى الإنسان بالوقوف إلى قوة هائلة تتعدى وجود الإنسان وتفرض إرادتها كأمر أخلاقي ، وهي إرادة كائن متسامي ، وهذا الكائن لا يتحقق بالعقل إلا في وجود المجتمع كواقعة طبيعية " [1] .

وعلى ذلك فالإنسان يؤمن بقوة مقدسة تهبط إليه من عالم البناء الاجتماعي ، لأن هذا الإنسان اجتماعي بطبعه ، وغارق بأصوله الوجودية في كيان اجتماعي في زمرة الجماعة ، وفي محيط جمعي هو الذي يوفر له الأمن والطمأنينة ، فالقبيلة أو الأسرة أو المجتمع عند دوركايم كائن عضوي اجتماعي يعيش خلاله الأفراد ولا ينفصلون كأفراد عن بنية العقل الجمعي . فالدين رابطة اجتماعية .

وعلى ذلك فقد وجه الفلاسفة انتقادات كثيرة إذ يعلن (فارمر Farmer) فشل النظرية الاجتماعية في تفسير وجود الله تعالى ، فكيف يمكن لهذه النظرية تفسير وجود

---

١ دكتور قباري إسماعيل - علم الاجتماع والفلسفة - جـ ٣ - صـ ٨٠ .

" الضمير العالمي " الذي يتعدى حدود المجتمع الأمبريقي العملي ، فالشعور الإنساني يصل بين الإنسان وأخيه الإنسان في كل مكان وبه تتحقق الرابطة الأخلاقية كما يرى الفلاسفة .

وفي ضوء النظرية الاجتماعية في الدين ، لا يمكن تفسير الشعور الديني العميق حين يتحقق في كبار الصوفية والأنبياء وحين يؤكد قيمة الإنسان بما هو إنسان ، إذ كيف يمكن تفسير نبالة القيم والمثل العليا الإنسانية والتي تؤدي إلى تأسيس ميثاق الأمم المتحدة أو الميثاق الدولي العالمي والذي وضعته لجنة حقوق الإنسان .[1]

كيف يمكن لنا في ضوء النظرية الاجتماعية القاصرة : أن نعالج فكرة أو عقيدة الإيمان بالله تعالى كقيمة جمالية وكريمة تتصف بالكمال واللطف والوجود ؟ والله تعالى مصدر التعليم والرحمة وهو الرؤوف الرحيم بعباده في كل زمان وفي كل مكان ، وكيف يمن تفسير الدين بمعناه الإنساني النبيل باعتباره الرابطة التي تؤكد صلة الإنسان بسائر الأفراد الآخرين ؟ فقد يثبت فشل النظرية الاجتماعية كذلك في تفسير بعض الظواهر والتي قد تكون ضد المجتمع وذلك بالابتعاد عن القيم الدينية والأخلاقية . مثال ذلك : فقد يحمي الإنسان باسم الشفقة والرحمة رجلاً هارباً من حكم العدالة ، أو مجرماً خارجاً عن القانون . وكذلك الشعور الديني بفكرة المساواة ، وما أصل القهر ؟ واحترام الملكيات الخاصة والعامة وظهور الأنبياء ، وخوارق الطبيعة أو المعجزات الإلهية .. !

وهذه بعض الانتقادات الفلسفية التي توجه إلى النظرية الاجتماعية ، لكن أوجيست كومت وضع نظرية اجتماعية في ضوء التطورات والتعبيرات الاجتماعية على مر العصور - لتفسير مراحل الألوهية ، فحددها في ثلاثة أطوار أو مراحل ، وفي كل مرحلة منها تضم مجموعة من العناصر والثقافات الأخلاقية والاجتماعية والدينية .

المرحلة الأولى : الحالة الوثنية : تبدأ في حياة المجتمعات الإنسانية الأولى البدائية بظاهرة عبادة الطبيعة كالشمس والنجوم والكواكب .

المرحلة الثانية : حالة تعدد الآلهة : تبدأ عندما يتحرر الفكر الديني من الحالة الوثنية الأولى ، ويتقدم من النظر في الطبيعة إلى النظر العقلي والتأمل والخيال ، وتلتمس المجتمعات والأفراد آلهة متعددة ، وما يسمى بالطوطم كعلامة مميزة أو لكل مجتمع أو فرد عن الآخر .

---

١ المصدر السابق ، كذلك دكتور قباري إسماعيل - قضايا علم الأخلاق دراسة نقدية من زوايا علم الاجتماع - ص ١٤٦ - ط الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٨م .

المرحلة الثالثة : وهي حالة التوحيد الإلهي ، ويطلق عليها أوجست كومت حالة التقهقر [1] نظراً للابتعاد عن عناصر التعددات الاجتماعية والمشحونة بالثقافات الدينية المختلفة وما يشملها من عناصر السحر والكهانة ، وغيرها . هذا الاتجاه في الفلسفة الوضعية الاجتماعية اتجاه إلحادي ، وهذا الشعور الإلحادي انتشر في أوربا بدعوى المدنية والعلمانية . ونصرة الحداثة وما بعد الحداثة .

٥- الأخلاق والقانون في الإطار الفلسفي :-

ترتبط الدراسات الأخلاقية الفلسفية ارتباطاً وثيقاً ، وتعتبر مبحثاً عاماً من مباحثها القيمية ومن حيث كون الأخلاق ، علماً له قواعده ومفاهيمه وأصوله ، وكما صنفها من قبل أرسطو [2] أو كونها فلسفة باعتبارها ذات معايير ومبادئ مطلقة وكلية تخرج عن نطاق الحدود المكانية والزمانية والبيئية ، وتفترض فكرتي الواجب والإلزام الخلقي لذات الواجب أو ما ينبغي أن يكون ، وقد سبقت دراسة هذه الأمور من قبل ، وترتبط الأخلاق وفلسفتها القيمية بالقانون ، من حيث الأسس والأصول والقواعد القانونية التي تتعلق بالسلوك والعقل الإنساني ، وما هو واجب وقائم بالفعل ، وما يجب أن يكون ، وقد أشار كثير من الباحثين إلى اعتبار القواعد الأخلاقية تمثل قواعد القانون ، وفلسفته أو روحه .

لقد ظلت المجتمعات زمناً طويلاً لا تعرف التفرقة بين القواعد القانونية والقواعد الأخلاقية ، حيث كانت مختلفة ، وكان فيها ما هو راجع إلى الدين أو الأخلاق أو القانون ، ومثل هذه المجتمعات لم تكن في حاجة إلى تشريعات صادرة من سلطة معينة في المجتمع لإقامة النظام بها ، إذ كانت قواعد الدين والتقاليد وما انطوت عليه تلك القواعد من إكراه عنيف كفيلة بحفظ النظام داخل الجماعة .

إن الوعي الخلقي داخل الجماعات القديمة ، كان يعتبر الكذب والسرقة والاعتداء على حقوق الغير خطيئة ، ولقد كانت الاعتقادات راسخة في النفوس بوجوب عمل الخير ، والبعد عن الشر والخطايا ، وكان هذا الاعتقاد كافياً لتحقيق أمن الجماعات والمجتمعات داخلياً .

لقد ظل القانون مختلفاً على هذا النحو بقواعد الدين والأخلاق إلى الحد الذي كان ينظر فيه إلى القواعد التي تصدر من الدولة عند الإغريق وبلاد اليونان القديمة ، على

---

١ دكتور قباري إسماعيل - علم الاجتماع والفلسفة - جـ ٣ - صـ ٨١ وما بعدها - ط دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .
٢- يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " صـ١٨٣ وما بعدها .

أساس أنها قواعد أخلاقية تهدف إلى تحقيق الخير والسعادة ، ولكن مع تقدم النزعة الفردية في المجتمع الروماني عرف الرومان التفرقة بين القانون والأخلاق .

وقد شاع الخلط بين الأخلاق والقانون في العصور الوسطى كذلك ، حيث كان ينظر إلى قواعد القانون على أساس أنها قواعد عالمية للسلوك حيث تستوعب في طياتها قواعد الأخلاق ، وفي مطلع القرن الثامن عشر ، اشتدت الحاجة إلى محاربة الطغيان ، طغيان الدولة في بطشها بحرية الرأي والعقيدة ، والاعتقاد ، فبدأت بوادر التفرقة بين القانون والأخلاق ، حيث كان الهدف منها هو إرجاع كل ما يتعلق بالفكر والاعتقاد والضمير إلى الأخلاق لا إلى القانون .

وقد كان توماسيوس Tomasius ، رجل القانون أول من حمل هذه التفرقة بين الجانبين ، فالإنسان عندما يؤدي واجباً ، إنما يشعر بقدر من الارتياح يملأ نفسه ، أما إذا تقاعس وعصى ما فرضته الأخلاق من أمور ، شعر بالقلق والوحشة داخل نفسه .

أما القانون : فهو لا يوجه خطاب إلى الضمير ، وإنما ينظم علاقة الأشخاص فيما بينهم ، ويهدف القانون إلى تحقيق الأمن والسلام الخارجي ، والداخلي ، وذلك بما يتضمنه من أحكام تمنع الاعتداء على الضمير ، ويلاحظ كثيراً أن القواعد القانونية في ذات الوقت قواعد أخلاقية ، مثال ، القاعدة التي تحرم القتل والاعتداء على مال الغير أو الآخرين ، وعلى عرضه - هي قاعدة قانونية ، تعد في ذات الوقت قاعدة أخلاقية ، وهذا يعني أن هناك دائرة تتسع للقواعد الأخلاقية والقانونية ، أو قد يستقل كل منهما بنطاقه الخاص به . (١)

وبدون الاستطراد ، فإن نطاق القواعد الأخلاقية والقانونية هو المجتمع وأفراده ، وطبقاته المختلفة ، كذلك فإن قواعد أخلاقية تدخل في نطاق القانون ، والقانون يتمثلها في تطبيقاته المختلفة . (٢)

وعلى أية حال فإن الأخلاق كفلسفة نظرية أو علم عملي لها مشكلاتها ونطاقها وأثرها في المجتمع ، وارتباطها بمعالجة السلوك الإنساني والعلاقات المختلفة ، وتحديد القيم والفضائل ونعالج جوانب الضمير الإنساني ، في إذن متصلة بالحياة السياسية والاجتماعية والقانونية ، والثقافية ..

١- دكتور رمضان أبو السعود " الوسيط في شرح مقدمة القانون المدني " صـ١٠٣ ، صـ١٠٨ ، ط ١٩٨١ م .

٢- المصدر السابق - صـ١٠٩ وما بعدها ، كذلك دكتور توفيق الطويل " الأخلاق " أماكن متفرقة - ط دار فلسفة الثقافة للنشر - القاهرة ، ١٩٨٥ م .

٦- المقولات بين الفلسفة وعلم الاجتماع :-

إذا كانت الفلسفة أو الفلاسفة اهتموا بنظرية المعرفة وأهم الأفكار المحركة لها وهي المقولات Categories ، مثل : المكان والزمان ، والعلية أو السببية ، والعدد ، والإضافة ، والكم ، والكيف ، والجوهر والوضع ، والفعل ، وغير ذلك من إطارات المعرفة ، فإن علم الاجتماع والاجتماعيين حاولوا هم أيضا الكشف عن الأصول الاجتماعية لهذه المقولات وحقائقها التراثية والثقافية والعلمية بصفة عامة ، فأضافوا إلى الفلسفة عنصراً هاماً طالما تجاهلته الفلسفة أحياناً ، ولقد أثر المجتمع وبيئته في نشأة المعرفة ، على حين وقف الفلاسفة عند حدود المصادر الفردية وحدها .

أ - المقولات في مجال الفلسفة :

لقد عرف الفلاسفة المقولات : بأنها مجموعة المبادئ الإنسانية التي توجد في العقل ، والتي لا يستطيع بدونها أن يفعل أو يعمل ، وذهب الفيلسوف الألماني كانط " إلى أن المقولات مجموعة التصورات العامة والرئيسية للفهم الخاص ، وهي الصور القبلية للمعرفة التي تمثل الوظائف الضرورية للفكر " .

بينما يذهب فيلسوف آخر وهو لالاند Lalande ، فيعرف المقولات بأنها المبادئ العامة والأساسية التي اعتاد الفكر في الرجوع إليها ، حين يحدد عناصر الأشياء من حيث أنها القوانين الأولية للمعرفة ، وعلى ذلك يقول رينوفييه : أن المقولات بهذا المعنى تصورات أو مبادئ عامة للفكر ، هذا ، وقد حاول علماء الاجتماع أن يجعلوا منها رواسب اجتماعية ، رسبت في الذهن الإنساني بتأثير التجارب الاجتماعية والتاريخية التي مر بها الإنسان منذ تكوين المجتمعات الأولى ، وبهذا أصبح العقل نتاجاً للتاريخ الاجتماعي حيث يقوم العقل كما يرى هربرت سبنسر بوظيفة حيوية ، كما أصبحت الوراثة الاجتماعية هي قانون الحياة .[1]

وبعد هذه التعريفات لمعنى المقولات ، فقد أتجه فلاسفة اليونان لبحثها مثل أفلاطون وأرسطو ، فقد عالج أفلاطون المقولات ، كالوجود والسكون والحركة والعلل وغيرها بطريقة ميتافيزيقية في جوهرها ، فأشار إلى فكرة المقولات ليعني بها " مثال الشيء " فأخضع مشكلة المقولات إذن إلى منهجه المثالي ، أو عالم المثل ، وفصل بين الشيء والوجود عندما يميز بين ما هو معقول ، وبين ما هو محسوس ، فلم يكن يعترف

١- دكتور قباري إسماعيل " علم الاجتماع والفلسفة " (المقولات) ، جـ٢ صـ١٧ وما بعدها ، ط دار الطلبة العرب بيروت ، ١٩٦٨ م .

أفلاطون بالموجودات المشخصة الحسية ، لأنها أشباح وظلال للمثال والمثل التي هي الماهيات والجواهر الأساسية للمقولات التي يعتمدها عالم التصورات . فالمقولات إذن هي على الحقيقة المثل .

أما أرسطو : فإنه لم يفصل بين الفكر والوجود فصلاً تاماً ، لأنه يعترف بالوجود الطبيعي والحسي المشخص ، فالموجودات عبارة عن جواهر وأعراض ، ينظر إليها من خلال الهيولي . والفكرة عند أرسطو تتطابق مع الشيء ولا تتحقق إلا بذلك ، فالحقيقة عنده تتمثل في تطابق العقل والوجود ، وفي اتفاق الفكر والأشياء .

والمقولات عند أرسطو ، منطقية من جهة ، وميتافيزيقية من جهة أخرى ، ومن حيث أصولها ومصادرها هي : أجناس الوجود ، لذلك أصبحت المقولات عند أرسطو هي أكثر الأجناس عموماً ، ومتصلة بالمعاني والتصورات الكلية . والمقولات عددها عند أرسطو عشرة مقولات : هي " الجوهر ، الكيف ، المكان ، الزمان ، الوضع ، الفعل ، الكم ، الإضافة ، الانفعال ، الملك ، ويطلق عليها أسم " قاطيغورياس " يعني الإضافة والإسناد ، وتدخل المقولات ، أو المقولة محمول في قضية كلية ـــ كأن تقول (النفس جوهر) أو سقراط إنسان وهكذا ، يقول هاملان " أن المقولات الأرسطية تجزيدات وصور مجردة عن مضمونها الواقعي ، على عكس المقولات عند كانط ، فهي صور منطقية ، أما هيجل فإنه نظر إلى مضمون الفكر ، وأخذ يبحث في مادة الفكر وما يتعلق بفحوى المقولات فأنشغل بمادة تلك المقولات ، وعلى ذلك فإن هيجل حاول أن يقيم همزة الوصل بين العقل والوجود الواقعي فأصبح كل ما هو واقعي معقولاً ، وكل ما هو معقول واقعياً .[1] وهيجل لم ينظر إلى المقولات وهي عارية تماماً عن الواقع لأنها لا تتضمن في ذاتها أية حقيقة ، وإذا ظلت الحقيقة صورية خالصة دون أن تلتبس بالواقع فهي إذن تجريد فارغ ، ومنفصلة عن مضمونها ومحتواها ، فالواقع والمعقول كما يصوره هيجل شيء واحد ، وهذا الشيء الواحد ليس صورياً لأنه ليس عارياً عن المادة والمضمون ، بل هو شيء خصب ممتلئ ، بالاختلاف والحركة والحياة لأنه زاخر بالمتناقضات .[2]

ويمكن أن نتناول بعض هذه المقولات في تصور الفكر الفلسفي وتحددها بالزمان والمكان ، والعلية أو السببية ثم مقولة العدد .

١- المصدر السابق . صـ٣٨ ، صـ١٨١ ، ١٨٢ .

٢- دكتور قباري إسماعيل " علم الاجتماع والفلسفة " ، جـ٢ (نظرية المعرفة) ، صـ١٨٣ وما بعدها .

*** : مقولة الزمان وطبيعتها الفلسفية :**

الزمان الفلسفي له طبيعة ميتافيزيقية ، يختلف عن الزمان الاجتماعي فالتصور الأفلاطوني للزمان إستاتيكي دائري يستند إلى تتابع الحركة الرئيسية المطلقة للأجرام الفلكية ، فالزمان في محاورة طيماوس الأفلاطونية هو الصورة المتحركة للأبدية ، يتميز بالسرمدية والأبدية ، أما أرسطو فقد ربط بين الزمان والحركة ، فاعتبر الزمان هو مقدار الحركة ، وليس الحركة ذاتها كما ذهب أفلاطون الزمان الأفلاطوني دائري مقفل يتألف من دورات متعاقبة ، أما الزمان الأرسطي فإنه يسير في خط مستقيم ، يستند لفكرة الآن ، والآن هو الذي يحدد الماضي والمستقبل في حركة مستقيمة أفقية ، ولما كان الزمان عند أرسطو هو مقدار الحركة، وهو عدد الحركة المقاسة باللحظات والآنات ، فهو زمان حسي يقاس بالحركة ، زمان الساعات والمتواليات ، والزمان عند أرسطو إذن نوع من العدد ، والمقدار أو الكم .. وهكذا نجد أن أرسطو يربط بين الزمان ونظريته في الوجود ، فربط بين الزمان ولا نهائيته وبين فكرته عن قدم العالم وأبديته وأزليته ، فلم يؤمن أرسطو بدائرية الزمان الأفلاطوني ، وإنما يؤكد على لانهائية الزمان الأفقي المستقيم فالزمان عنده أبدي لا بداية له ، ومن ثم لا نهاية له .

وفي المذاهب الفلسفية الحديثة ، فقد ظهرت عدة مدارس في تصور فكرة الزمان بين الواقعية ، والتصورية ، فأصحاب المدرسة الواقعية : يقولون بواقعية الزمان في الخارج ، لاعتبار الزمان عندهم والتجريبيين ظاهرة فيزيقية عملية تخضع للكم والقياس والملاحظات ، ومذهب ديكارت يعطينا مثال لهذه الواقعية الزمانية ، فالزمان الديكارتي يستند إلى فكرة اللحظة ، أو البرهة الحاضرة ، تلك الفكرة التي تميز الخلق المستمر عند ديكارت ، ففكرة الخلق عبارة عن لحظات متتابعة وهي لحظات تشير لخواص ذاتية للأشياء باعتبارها مخلوقات ، بينما يذهب " أسحق نيوتن " إلى أن العلم الطبيعي يحتاج في التفسير العلمي إلى افتراض واقعية الزمان والمكان ، وكل منهما يقوم في وحدة لا متناهية مطلقة متجانسة الأجزاء ، وقد طلع إسحاق نيوتن علينا بفكرة " السرعة المنتظمة " حيث أن كل السرعات عنده إنما تتألف من عنصرين رئيسيين هما : العنصر المكاني ، الذي تبدأ منه الحركة ثم تنتهي ، والعنصر الزماني وهو زمان السرعة المستغرقة في سائر الحركات ، والذي هو أيضا زمان الحركات المستغرق في سائر الحركات ، والذي هو أيضا زمان الحركات المستغرق في سائر السرعات ، لذلك أكد إسحاق نيوتن واقعية الزمان ، بنظريته في السرعة المنتظمة .

أما المدرسة التصورية ، يمثلها ليبنتز ، حيث وجه انتقادات لواقعية ديكارت وإسحاق نيوتن ، فيقول " ليس في فكرة الزمان ما يشير إلى جوهريتها الشيئية ، ولا تتصل مقولة الزمان بعالم الأشياء الواقعية فالزمان عند ليبنتز تصوري مجرد بحث ، فالزمان والمكان يجب أن ينظر إليها على اعتبارها مجرد اعتبارات في الذهن ، فلكي تكون لدينا فكرة عن (المكان) يجب أن نتصور علاقات مواضع الأشياء ، كما أن اللحظات التي تقع خارج الأحداث لا وجود لها ، فهي ليست إلا تتابع الأحداث من وجهة النظر التصورية الخالصة ، فالزمان هو تتابع الأحداث والمكان تصاحب في الوجود ، وكل منهما من قبيل التصورات العقلية ، لذلك فهما تصورات فحسب . (١)

*** : مقولة المكان في نطاق التصور الفلسفي :**

يتقاسم مقولة المكان عند الفلاسفة موقفين : موقف التصورية الواقعية عند أرسطو وبرجسون ، والموقف الثاني ، التصورية المجردة عند كانط .

*** : الموقف الأول عند أرسطو** ـ إذ نظر إلى المكان الواقعي المحسوس ، وهو المكان الطبيعي الذي يتميز بالأبعاد الثلاثة ، فالمكان عنده موضع الهندسة ، لأن الأشكال الهندسية عند أرسطو تتعلق بالمكان ، إلا أن الشكل الهندسي عنده صورة بلا مادة .

وفي الفلسفة الحديثة ، نجد برجسون يرفض الحلول الصورية لمقولة المكان أو الأفكار القبلية التي قال بها كانط ، ويقول : بواقعية المكان وينتقد فكرة كانط عن المكان باعتباره المكان تجريداً ذهنياً ، والتصور البرجسوني للمكان متجانس مثل التصور الكانطي ، إلا أنه يتميز بأنه مكان واقعي ، وهو الوسط المادي الواقعي يفضله ويشيد الفكر تصوراته في الكم والمقدار ، وهو المادة التي على أساسها يكون العقل فكرة العدد ، والمكان هو الكم الواقعي المتجانس الذي يقبل التقسيم والتكميم ، وثم فالمكان هو مبدأ العدد ، وليس الزمان المعدود ، لأن الزمان عند برجسون كذلك هو ديمومة تستعصي على لغة الكم ولا يقبل القياس ولا العدد ، أو المعدود وإذا كان الزمان عند برجسون كيف ، صرف ، وجريان دائم لا ينقطع وهو ما يميز الحياة الوجدانية والروحية ، فإن المكانية هي الكم ، إذ أن الكم هو العنصر المميز لعالم المادة .

والمكان عند برجسون كذلك هو من أساليب العقل حين يتعامل مع المادة الجامدة ، والصفة الأساسية للعقل هي صناعة المكان فالمكان من إنشاء العقل ، وصناعة لأجل

١ـ دكتور قباري إسماعيل " علم الاجتماع والفلسفة " (نظرية المعرفة) ـ جـ٢ ، صـ١٩٩ ، صـ٢٠٠ ، صـ ٢٠١ وما بعدها .

المادة ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن التصور المكاني عند برجسون فضلاً عن كونه واقعيا ومن إنشاء العقل ، وصناعة للمادة فهو أيضا تصور " برجماتيكيا " ومن خلق العقل العملي حين يتعامل مع سائر الأجسام والحركات والمقادير في وجودها الكمي الجامد .

* : **أما الموقف الثاني** ، التصورية المجردة فيمثله " الفيلسوف الألماني كانط " ، فتصوره للمكان يختلف عن أرسطو وبرجسون ، إذ عرض كانط لموقفه عن المكان في كتابه نقد العقل الخالص ، حيث عرض عرضاً ميتافيزيقيا لفكرة المكان ، وحاول تبرير " أولية المكان " لأن المكان ليس تصوراً إمبريقيا منتزعاً من التجربة الخارجية ، إذ كيف تدرك اللانهائي من محتويات المكان الحسي الواقعي التجريبي ؟

فإذن تصور المكان لا يكون إلا في ذاته ، هو صورة أولية من صور العقل ، مثال : أننا نتصور المكان على أنه لا متناه ، وليس في التجربة الحسية سوى المقادير المتناهية ، إذن فالمكان اللانهائي هو تمثل قبلي ، وتصور معطى في العقل ، ولا يوجد في التجربة ، يقول كانط في نص " إن المكان تصور قبلي كأصل وأساس لكل الحدوس الخارجية ولا يمكن أن يتصور الإنسان استحالة وجود المكان ، على حين يمكن أن يتصور مكاناً خالياً من الموضوعات ، وعلى ذلك يمكن اعتبار المكان كشرط لإمكان قيام الظاهر . " [1]

فالمكان عند كانط هو صورة ، أو قالب أو إطار ينتظر الامتلاء عن طريق الحس والامتدادات الآتية من التجربة الخارجية ، وبالتالي ليس واقعياً ، أو حسياً ولا يستند إلى التجربة كما هو عند أرسطو ، وجون لوك ، ودافيد هيوم .

وقد حاول بول موي أن يوفق بين النظريتين الأرسطية والبرجسونية وبين النظرية الكانطية ، فقال " المكان صورة أولية وهو رمز ومقياس لكل مقدار ، وليس معنى ذلك أنه يعرف عن طريق الحدس الفطري ولكنه ينشأ بواسطة نشاط العمليات العقلية المستقلة ، فيبدوا أولاً في الإدراك الحسي ، ومن بعده في الرسم أو في غيره من الأساليب العملية " [2]

١- دكتور قباري إسماعيل " علم الاجتماع والفلسفة " (نظرية المعرفة) صـ٢١٢ وما بعدها .

٢- المصدر السابق - صـ٢٢٦ .

*** : مقولة العلية " السببية " في التصور الفلسفي : -**

إذا كان علماء الاجتماع حاولوا أن ينسبوا المقولة العلية أصولا اجتماعية فإن الفلاسفة اهتموا بهذه المقولة وجعلوها الرابطة التي تربطنا بالعالم ، ولعل من الأفكار الغامضة التي تشير إلى أن " لكل معلول علة " ولا يمكن التسليم بأنها فكرة واضحة بذاتها ، بل أن العلية كمسلمة قد تفتح المجال أمام قبول كثير من المتناقضات ، وإذا كان جون أستيورت مل قد ذهب إلى اعتبار العلية قضية تجريبية ، تكتسبها بالتجربة واعتبارها تلخيصاً لإحصاء الجزئيات ، لكن هذا الرأي ليس حاسماً ، لأن الإحصاء يؤدي إلى نتائج محتملة ، والاحتمال لا يتضمن اليقين ، كذلك فإن ما يقول به " هاملان " بأن العلية هي الرباط الضروري لسياق الظواهر وتتابعها في نمط عقلي محدود، يرفضه " دافيد هيوم " الذي رفض الارتباط الضروري بين العلة والمعلول ، وأعتبرها ضرباً من السفسطة والوهم . (1)

وقد فسر دافيد هيوم العلة : برده إلى العادة والتداعي فقط ، لأن الرابطة بين العلة والمعلول فكرة غيبية لا تستمد من التجربة حيث أن كل أفكارنا هي انطباعات تصدر عن مشاعرنا ، فما تؤكده التجربة أن العلة والمعلول حادثان مختلفان ، وتحليل أحدهما عقلياً لا يدل وحده على الآخر ، مثال : إن حركة الكرة الثابتة في لعبة " البلياردو " حادث قائم بذاته بالنسبة لحركة الكرة الأولى ، وليس بينهما علاقة تشير إلى ضرورة ، إذ أننا لا نشاهد إلا مجرد تعاقب وتتابع بين حركة الكرة الأولى وحركة الكرة الثانية .

وجاء كانط فأعتبر العلية مبدأ " قبلي " يتصف بالضرورة والكلية فأنقذ كانط العلم والمعرفة من الشكوك التي أثارها دافيد هيوم حول العلية . ويرى كانط أن العقل الخالص مزود بالعلية ، بلك المقولة التي تنصب فيها مادة الأحداث الآتية من الخارج ، فترتبط العلة بالمعلول ، ويتصل السابق باللاحق ، والتالي بالمقدم (أي المعلول بالعلة) في ارتباط ضروري يحتمه العقل ، ويؤكده الفكر وإن لم تحتمله التجربة .

وجدير بالذكر أن بعض الفلاسفة ذهب لمحاولة المساواة بين العلة والمعلول ، وأنه لا سبق لأحدهما على الأخر مثال : إذا قلنا أن الأوكسجين والأيدروجين هما علة تكون الماء ، إلا أننا نستطيع أن نقول نفس الطريقة أن الماء هو علة تكوين الأكسوجين والإيدروجين ، وهنا تتحقق فكرة المساواة بين العلة والمعلول ، ويذهب مايرسون كذلك

١- المصدر السابق - صـ٢٢٦ .

بضرب مثال من العلوم الطبيعية فيقول " عندما نقول أن هناك علاقة علية بين الضغط والحرارة ، فإننا نفهم من العلية علاقة ثابتة بين الطرفين بحيث إذا تغير أحدهما تغير الأخر تبعاً لذلك .. ، وهذا يناقض قول كانط " بفكرة أولية أو قبلية العلة " [١]

ومن الجدير بالذكر أيضا أن فكرة العلية كان لها دور في فكر وفلسفة المفكرين والفلاسفة الإسلاميين ، إذ ذهب علماء الكلام إلى رفض العلاقة الضروري بين العلة والمعلول ، إذ أن حدوث الأشياء والتأثير المباشر بين العلة والمعلول متعلق بالإرادة أو الأمر الإلهي .. وجعلوا هذه الفكرة مناسبة لتفسير خوارق الطبيعة والمعجزات الإلهية في الكون ولدى الأنبياء والرسل بينما ذهب ابن رشد (٥٩٥ / هـ لإقرار الضرورة العلية وربط تأثيرها مرة أخرى بالأمر الخارج عن الأشياء وهو الأمر الإلهي ، وربما دفعه إلى هذا الرأي تأكيده القدرة الإلهية وطلاقتها في عالم الوجود الطبيعي على الرغم من وجود قانون الضرورة العلية وارتباط المعلول بالعلة وجوداً وعدماً ، وكذلك أثبت طبائع الأشياء لتقرير قدرة الله تعالى والأمر الإلهي في الموجودات ، وأن الأفعال لا تكون إلا بالأمر الإلهي ، وتفسير خصائص الموجودات ، وتمايزها بعضها عن الآخر . [٢]

*** مقولة العدد في التصورات الفلسفية :-**

مقولة العدد من الأفكار الفلسفية ، حاول علماء الاجتماع اكتشافها عن طريق المصادر الاجتماعية التي قد تفسر نشأة فكرة الأعداد .. وإن كانت في نطاق الفلسفة تجريداً خالصاً ، بعيدة عن أشياء العالم المشخص ، فاتصلت فكرة العدد بالمباحث الميتافيزيقية .

فقد عالج أفلاطون مسألة العدد في ضوء نظريته العامة في المعرفة والوجود فاعتبر الأعداد موجودات عقلية ، ونظر إلى موضوعات الرياضيات على أنها (مثل مفارقة) ، وذكر أن للمثل أعداداً ، أما أرسطو فقد هبط بالأعداد من عالم المثل الثابتة عند أفلاطون إلى عالم الحركة والتغير والزمان ، وربط بين العدد والزمان ، وخلط بين حركة الأعداد ، حركة الزمان ، واعتبر الزمان هو عدد الحركة ، أو هو الحركة المعدودة التي هي شكل من أشكال الحركة القابلة للعد .

١- المصدر السابق - صـ٢٢٦ ، صـ٢٢٧ وما بعدها .

٢ دكتور محمد علي ابو ريان - تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام - (مبحث الأشاعرة) - طـ ١٩٧٢ م ، كذلك ابن رشد - مناهج الأدلة في عقائد الملة - صـ ١٢٣ ط ١٩٨٢ م - كذلك تهافت التهافت - جـ ٢ - صـ ٧٨١ .

وإذا ذهبنا إلى فيثاغورث ، والفيثاغورية ، نجد أن الفيثاغورية ، أي الفيثاغوريين ربطوا بين فكرة العدد وبين عالم الوجود ، فالعدد عندهم مبدأ الوجود ، وهذا الوجود شكلاً هندسياً ، لذلك درسوا صلة الأعداد بالأشكال الهندسية ، ورمزوا بذلك إلى الأشكال الهندسية (بنقط) تدل على المستقيم ، أو المثلث ، أو المربع أو المسطح ، فحصلوا بذلك على أعداد مستقيمة أو مثلثة أو مربعة ، مثال : العدد واحد يقابل المثلث ، وأربعة يقابل المربع ، والخمسة يقابل المسطح .. وهكذا ، ونلاحظ أن فكرة العدد عند الفيثاغوريين ظهرت في صورة تطابق بين النسب الرياضية والنسب الوجودية ، فحدث خلط بين الأعداد وبين الأصول الأنطولوجية الوجودية ، إذ أن العالم عندهم هو " عدد ونغم " .[1]

وفي الفلسفة الحديثة ، نجد أن كانط ، لم ينظر إلى فكرة العدد أو مقولة العدد ، تصوره قبلية ، لأن العدد صورة تصدر عن الفعل التركيبي للعقل ، وعلى ذلك فإن القضايا العددية هي قضايا تركيبية مثال : إذا قلنا أن العدد ٣ + ٧ = ١٠ ، أو ٧ + ٥ = ١٢ فإنها قضايا عددية تركيبية نشأت عن التركيب العقلي للأعداد ، لأنها عملية فعل وإنشاء من الفكر وقد وضع كانط الخواص الرياضية في موضع وسط بين الفهم الخالص وبين الحس التجريبي البحث ، فالأعداد لا ترتقي إلى المعقول الكامل الذي يتحقق في عالم المثل ، لأن الماهيات الرياضية وثيقة الصلة بالمحسوسات ، هذا ، وقد أكد هاملان ما ذهب إليه كانط من حيث الأصل التركيبي العقلي لفكرة العدد ، وأضاف إلى ذلك اعتبارها مقولة أولى ، وتتضمن فكرة العدد في ذاتها فكرة العلاقة حيث أن الأعداد تمتاز بأنها منعزلة ومنفصلة على الرغم من كونها متحدة في مجموعة العدد ، كما أن فكرة الزمان مقولة تتألف من العلاقة والعدد معاً ، فالعدد مركب من الوحدة والكثرة وهذا يكون فكرة العدد ، أما برجسون : فقد ربط بين فكرة العدد وبين فكرة المكان ، إذ تستند فكرة العدد إلى فكرة المكان ، فالمكان هو المادة التي بفضلها يكون العقل العدد ، ويتفق مع رأي هاملان في أن الوحدة والكثرة أساس يستند إليه العدد ، يقول برجسون في نص : " أن العدد غالباً مجموع وأحداث ، أو بمعنى أوضح تركيب الواحد بالكثيرة فالعدد هو ذلك الكل المؤلف من الوحدات والأجزاء ، وذلك المجموع المركب من الوحدات المتشابهة والمتجانسة فيما بينها " مثال على ذلك : حين تقوم

١- دكتور قباري إسماعيل ، علم الاجتماع والفلسفة - جـ٢ - صـ٢٤٠ ، ٢٤١ وما بعدها ، urkheim sociology and philospphy , trans by , pocock , london ١٩٥٣ .

بتعداد مجموعة من الخراف في قطيع ، نجد أنها مجموعة متجانسة ليس بينها فروق فردية ، فعندما تبدأ بالعدد نجد أننا نكرر بالتتابع صورة المعدود " فمقولة العدد حدس بسيط تنطوي على : " أن فكرة العدد تنطوي على كثرة من الأجزاء أو الوحدات المتجانسة " [1]

ب ـ المقولات في مجال علم الاجتماع : ـ

اتجهت الدراسات والبحوث الاجتماعية إلى ميادين عميقة من ميادين التفكير الفلسفي والميتافيزيقي ، وحاول علماء الاجتماع الأوروبيين استقطاب ميادين الفكر الفلسفي إلى داخل الدراسات الحقلية الاجتماعية الإنسانية ، فبالإضافة إلى الدين والأخلاق ، اجتذبت مشكلة المقولات ، على أساس أنها تشكل عناصر اجتماعية ، وتستمد جذورها من العقل الجمعي فمقولات الفكر والتي يعمل العقل من خلالها وما يصاحبها من التركيبات الفكرية أو العقلية تصطبغ بالعناصر الاجتماعية ومشحونة بالتراث الثقافي الاجتماعي ويستشهد علماء الاجتماع على ذلك بالدراسات الحقلية والميدانية التي أجراها هؤلاء على المجتمعات المختلفة ، وخاصة البدائية والقبلية فتناولوا : مقولات : الزمان ، والمكان ، والعلية أو السببية ، ثم مقولة العدد ، وهكذا ، لكي يصبح العقل الإنساني ومقولات الفكر تشكل إطاراً حضارياً ومعرفياً ، ونتاجاً للتاريخ الاجتماعي ، فليست المقولات من معطيات العقل الفردي ، أو الفهم أو الوجدان كما ذهب الفلاسفة من قبل ، بل هي أدوات الفكر التي صدرت عن حركة التاريخ الحضاري والاجتماعي ، والعقل الجمعي .

لقد نشأ العلم والفلسفة في أحضان الدين ، والدين من الظواهر الاجتماعية ، كذلك فإن المقولات هي صور من الفكر الاجتماعي ، مشبعة بالعناصر الاجتماعية ، والصور الحضارية السائدة في المجتمع ، ومن ثم فإن العقل لا يستطيع أن يقوم بوظيفته بدونها ، كذلك فإن المقولات صدرت عن الدين باعتباره ظاهرة اجتماعية وأخلاقية عند دوركايم لذلك نجدها مشحونة بالعناصر الدينية ، فالتصورات الدينية تصورات اجتماعية كذلك ، وتعبر عن حقائق جمعية ، فالطقوس الدينية وشعائرها تشيع جواً فكرياً بين الجماعات . ولما كانت مقولات الفكر صادرة عن العقل الجمعي والإطار الاجتماعي بعناصره المختلفة ، فإنها تعبر عن علاقة جوهرية بأعراضه ، أو

١ـ المصدر السابق ـ ص٢٤٦ وما بعدها .

علة بمعلول ، كما تعبر عن علاقات مكانية وزمانية ، والإضافية والعددية والكمية والكيفية في نطاق العلاقة بالواقع والحياة .

أن كل فكرة من أفكارنا ترتبط بالمقولة ، في إطار زماني ، أو مكاني ، أو الأين والمتى ، ولا تستطيع تتابع الأحداث والوقائع إلا في نطاق مقولة العلية أو السببية ، أو المعلولية ، يقول دوركايم " أن المقولات التي يسميها الفلاسفة مثل أرسطو ، غيره بمقولات العقل ، كالزمان والمكان ، والعدد ، والسببية أو العلية ، والجوهرية والجنس وغير ذلك هي تطابق وخصائص عامة للأشياء " وذلك في الإطار الاجتماعي وعناصره الثقافية والحضارية .. وتشيرهنا إلى أربع مقولات وهي : الزمان ، والمكان ، والعلية ، ثم العدد .

<u>* : الزمان الجمعي : -</u>

ذهب علماء الاجتماع إلى أننا لا نستطيع تمثل الزمان في فكرنا إلا بإخضاعه للبحوث الوضعية التي تمتد إلى قياس لحظاته وتقسيم أناته (الآنات) ، والعبير عنها بالدلالات والوقائع والأحداث والأيام والأسابيع والشهور والسنين - وهكذا يقول دوركايم " لا تستطيع أن تدرك معنى الزمان إلا إذا ميزنا جزئياته البسيطة التي تنساب خلال نتاجه المتتالي المستمر فالزمان ليس مجرد تتابع يسبح في فراغ ، وليس صورة فارغة جوفاء كما ذهب الفلاسفة وكانط من قبل " [1]

أن التجربة الشعورية الذاتية قد تكون هي الأصل السيكولوجي لفكرة الزمان لكن هذا الزمان الشعوري ذاتي ، فردى يقتصر على زماني أنا ، أما الزمان الموضوعي ، فهو الزمان العام ، زمان الإنسانية كلها ، لقد رفض دوركايم الزمان السيكولوجي - الذاتي الفردي واتجه إلى الزمان اللانهائي ، زمان كل إنسان في كل حضارة إنسانية ، زمان الكل ، الزمان الجمعي أو الاجتماعي .

ولما كان الزمان تنظيماً للأحداث ، وتصنيفاً للوقائع فلابد أن يكون مشتقاً من طبيعة الحياة الاجتماعية ، والحضارية الثقافية وما يتخللها من تتابع مرتب لمختلف الظاهرات والأحداث الدينية ، والسياسية ، وغيرها ، وتقسيمات الزمان ودوامها في أيام ، وأسابيع وأشهر وسنين وقرون ، لها صلتها الوثيقة بدورات اجتماعية وحضارية .

١- دكتور قباري إسماعيل " علم الاجتماع والفلسفة " جـ٢ - صـ٣٩ ، صـ٥٣ .

وما الطقوس : وممارسة الشعائر ، والأعياد وغيرها إلا وتحدث حتى إطار التقسيمات الزمانية ، كما أن الإيقاعات الزمانية في حياتنا الفردية ، هي نتاج لحياتنا الاجتماعية - الجمعية - فالزمان المطلق إنما يتحقق وجوده في حياة المجتمعات والحضارات الإنسانية ، إن تاريخ العالم ليس إلا تاريخ الحضارات والمجتمعات إذن فمقولة الزمان عند الاجتماعيين ، ودوركايم منهم ظاهرة اجتماعية ، تتشكل في بنية المجتمع ، وتشكل نظاماً اجتماعيا ثابتاً ، يقول عالم الاجتماع (موريس هاليفاكس) " إن فكرة الزمان تعتبر إطاراً اجتماعيا من إطارات الذاكرة ، وعنصراً عملياً ورئيسياً من عناصر عملية التذكير ، حيث أننا أثناء قيامنا بالتذكر إنما نحاول أن نتوصل إلى الأحداث من خلال معرفتنا وتذكرنا لزمانها أو مكانها " [1]

ويشير هاليفاكس من ناحية أخرى إلى الدلائل الاجتماعية التي تكشف عن عناصر الأحداث التاريخية التي تكمن في فكرة الزمان يقول : " إن المجموعات الزمانية والتقاويم المستعملة في قياس الزمن ، قد صدرت جميعها بصدور حضارات ظهرت في مجتمعات فردية كما هو الحال في مصر ، واليونان ، وفارس وفلسطين والهند ، ومن هنا أصبح لدينا تقاويم هامة مثل التقويم المصري ، والتقويم الفلسطيني ، والتقويم الفارسي والهندي .. الخ ، كما أن هناك أحداث هامة تعتبر مبدأ تاريخياً لحساب السنين مثل الأولمبيات الأولى ، وتأسيس روما ، وسقوط روما أمام غزوات البرابرة هو الحد الفاصل بين التاريخ القديم والتاريخ الوسيط " يضاف إلى ذلك الأحداث الدينية الكبرى في تاريخ المجتمعات مثل ميلاد المسيح (التقويم الميلادي) وكذلك التقويم الهجري ، هكذا وجدير بالذكر أن بعض علماء الاجتماع أجروا دراسات حقلية على مجتمعات بدائية مختلفة لاكتشاف الأصول الاجتماعية للزمان .

مثال ذلك : دراسات رادكليف براون ، وإيفانز بريتشارد على مجتمعات الأندومان ، والفوير ، وقد أسفرت هذه الدراسات التجريبية والميدانية الحقلية عن أن الزمان الاجتماعي عند هذه القبائل تدور القصص والأساطير فيها حول أصل الليل والنهار ، كذلك ربطوا بين الدورة الزمانية وبين ظهور الحشرات المقدسة .

مثال : تسمع نغمات وألحان أو أصوات الحشرات المقدسة في مطلع الفجر بينما تنقطع هذه النغمات والأصوات عند طلائع الليل " ، ويضاف إلى ذلك ارتباط الأساطير بالزمان عند هذه القبائل ، (الأندومان) فمثلا تقول الأسطورة أن رجلاً من الأسلاف

١- المصدر السابق ، ص٤٦ - ص٤٨ .

قتل حشرة مقدسة تسمى (سيقادا) فعم زمان الظلام هذا العالم . [1] فللأساطير قيمتها الاجتماعية في تفسير شكلاً من الأشكال الاجتماعية للزمان .

لقد أشار (إيفانز بريتشارد) إلى علاقة الزمان بالمكان في ضوء نظرية البناء الاجتماعي - فقال (بالزمان البنائي) يحدث في النسق الاجتماعي ، وهو تغييري ، كحركة تغييريه وتقدمية تطرأ على الأنساق الاجتماعية الثابتة بين سائر الأفراد والأسلاف ، أو الفرد والعشائر ، أو بين العشائر والقبائل وغيرها ، وهو زمان الأشهر والفصول ، وتتابع السنين ، بين الماضي والحاضر ويساعد ذلك على تنظيم حياة الفرد والإنسان طبقاً لأحواله الاجتماعية .

***: مقولة المكان وأصولها الاجتماعية الحضارية :-**

بحث علماء الاجتماع مقولة المكان انجذبوا بها إلى حقل الدراسات الاجتماعية ، والبحوث الوضعية رافضين فكرة المكان كوسط مبهم غير محدد على الإطلاق في نطاق التصورات الميتافيزيقية وقالوا " أن تنظيم الأشياء والموضوعات في نسق مكاني فإنما نضع تلك الأشياء عن اليمين ، أو عن الشمال ، أو تحديد موضوعها من الشرق أو الغرب وهكذا . والمكان عند دوركايم ليس ذاتياً قبلياً مطلقاً ، بل هو المكان (النسبي) يتحدد بموقف الفرد الفيزيقي الطبيعي - وهو المكان الاجتماعي إننا عندما نتأمل التقسيمات المكانية ، نجدها مقيدة بتصورات المجتمع للمكان ، فالإنسان يدرك المكان بفضل الوسائل الاجتماعية التي لابد من عبورها لكي يتفهم الواقع الحقيقي ، فالمجتمع هو المركز الحقيقي للإدراك المكاني ، يقول دوركايم " المكان الاجتماعي هو المكان القبلي هو المكان العشائري الذي يحدد طوطم القبيلة أو العشيره " .

والطوطم هو العلامه المميزة للتحيزات أو الحدود المكانية للأفراد أو القبائل والعشائر المختلفة ولنشأة التقسيمات الاجتماعية والعلة التي بفضلها تعددت المواضع المكانية ، مثال : الشمال يلحقه طوطم العشيرة أو القبيلة التي تسكن في الجهة الشمالية ، والجنوب كذلك ، فمقولة المكان ليست اجتماعية بصورتها فقط ، بل اجتماعية بصورتها ومحتواها ، مثال أخر " إن التصور المكاني في الفكر الصيني القديم هو تصور رباعي الشكل ، لأن الأرض رباعية الهيئة ، وتنقسم إلى مربعات ، وينسحب هذا على تقسيمات الأراضي الزراعية والسكانية ، وينعكس على هذا التصور المكاني الرباعي الشكل بعض الخصائص والصور الدينية الاجتماعية الأسطورية أو الغيبية .

١- المصدر السابق - ص٤٩ .

ويذهب سوروكين ، أحد علماء الاجتماع إلى التميز بين الأشكال المكانية الهندسية وبين ما يسميه (بالمكان السسيوثقافي) الذي ينجم عن الظاهرات السسيو ثقافية السائدة في بنية المجتمع وقد أكد سوروكين على التجانس بين المكان الهندسي والمكان السسيو ثقافي إذ أن المكان الهندسي يتعلق بأشكال هندسية أو تقسيمات مكانية متكررة لها أبعاد متعددة ، أما المكان السسيو ثقافي ، فهو الذي يتعلق بالمكانة الاجتماعية التي يشغلها الإنسان أو الفرد في طبقته الأسرية أو في المجتمع ، ولا تتغير بتغير المكان الهندسي الذي يكون فيه ، مثال : إن الرئيس أو الشخص الذي ينتقل من واشنطن إلى الصين أو طهران ، فإنما يتحرك في مكان هندسي طبيعي ، ولكنه لم يغير بطبيعة الحال من مكانته الاجتماعية .[1]

وقد أشار علماء الاجتماع إلى فكرة أخرى وهي : أن الوحدة المكانية قد لا تميزها حدود أو علاقات ، ولكن مع ذلك تعتبر متميزة بالنسبة للسكان الأصليين . مثال : إن الزائر الذي يسير في الصحراء والواحات والسهول والوديان قد لا يعرف أين يبدأ المكان أو أين ينتهي ، وعلى العكس ، فإن السكان الأصليين لهذه المساحات إمكانية يعرفون حدود مساكنهم فيها ، وقواهم أو مدنهم كذلك فالوضوح والتمايز المكاني يظهر لدى السكان الأصليين ، بينما يكون غامضاً على الزائرين أو الغرباء عن المكان .

كما يوضح إيفانز بريتشارد : ما يسمى بالمسافات البنائية ، تلك المسافات الاجتماعية القائمة بين الأفراد والعشائر والقبائل وهي تختلف باختلاف الأنساق المكانية منها مثلاً : المسافة السياسية وهي تقوم على علاقات تربط بين القبائل الشرقية والغربية ، والمسافة بين القرى وبين الأقسام الإقليمية ، والمسافة المكانية بين طبقات العمر المختلفة ، وهكذا [2] تلك هي البناءات السياسية أو الاجتماعية ، الحضارية والثقافية .

<u>* : الأصول الاجتماعية لمقولة العدد : -</u>

حاول علماء الاجتماع تأكيد الأصل الاجتماعي لمقولة العدد منهم لوسيان ليفي بريل وقرانزيواس ، ودوركايم وغيرهم ، ويرجعون بالعدد إلى أنه يستند إلى أصول لغوية ، واللغة ظاهرة اجتماعية ، فإن بعض الدراسات الحقلية الاجتماعية أثبت أن بعض المجتمعات لم تكن تحسن التعبير عن ضمير الجمع (نحن) فيقولون مثلاً " أنا

١- المصدر السابق . صـ٥٤ ، صـ٥٥ وما بعدها .

٢ المصدر السابق . صـ ٥٨ وما بعدها .

وأنت " أو " أنا وأنتم " ويقال أحياناً أخرى عندهم " أنا وهم " أو " أنا وهو " وهذه تعبيرات لغوية تنسحب على التعبيرات العددية ، بالمفرد والجمع .. وهكذا .

والمجموع العددي يرد عند الاجتماعيين إلى مفهوم المجموع الاجتماعي ، لأن المجتمع هو الكل الذي يحوي مجموع الأشياء والأنواع الجزئية .

وقد أثبتت بعض الدراسات الاجتماعية ، اتصال الأعداد بالعناصر الدينية والأسطورية والغيبيات ، كذلك اكتسبت الأعداد في المجتمعات ظواهر التقديس .مثال : وجد عند كثير من الشعوب والقبائل ظاهرة تقديس العدد أربعة ، كما أن فكرة العدد نسبية ، تختلف باختلاف الزمان والمكان ، كما وجد أن الأعداد تسمى بأسماء مختلفة طبقاً لنوع العدد . مثال : يطلق على عدد معين اسم (حزمة) تشير لأعداد معينة من الأشياء . كذلك فهناك وسائل متعددة لعمليات العدد ، مثل العد على الأصابع أو بالإصبع ، أو بمقبض اليد أو بالأصداف أو بالحبوب والحصى .

وقد ينظر إلى العدد على أنه صورة كيفية عند القبائل البدائية الصينية بحيث لا يتصل العدد بفكرة الكم أو الكمية .. مثال : الرجل الصيني يشير إلى العدد (١٣) بمعنى أنه يجلب النحس أو التعاسة ، ولا يعني أنه يتكون من ١٢ + ١ = ١٣ ، أو يساوي ١١ + ٢ = ١٣ ، فالكم عنده ليس كما رياضياً مقسماً باعتباره كماً مجرداً ، وإنما هو كم عاطفي ، غيبي يتصل بالمشاعر والأحاسيس بالسعادة أو التعاسة فهناك نحس وشر مسيطر .. [1]

*** مقولة العلية أو السببية وأصولها الاجتماعية :**

انتقلت مقولة العلية أو السببية من نطاق الفلسفة وارتباطها الوثيق بنظريات الوجود والمعرفة والعالم ، إلى مجال الدراسات والبحوث الاجتماعية التفسيرات الميتافيزيقية لمقولة العلية ، والضرورات العقلية التي تربط بين العلة والمعلول ، أو اعتبار علاقة العلة والمعلول من قبيل الأفكار الأولية العقلية أو القبلية بالذهن . كما تصور الفلاسفة ، كما رفض دوركايم ما يدعية أصحاب الاتجاهات العلمية في رد العلية إلى فكرة التواتر التي تشهد بها التجربة ، أو العادة عند دافيد هيوم .

حاول دوركايم وزعماء المدارس الاجتماعية إذن تفسير مقولة العلية بالرجوع إلى مصادر موضوعية ، وأصول اجتماعية ، على اعتبار أنها من صنع العقل الجمعي الذي يقدمها للعقل الفردي ليشاهدها في حياته الاجتماعية ، ومن خلال تجربته اليومية .

---

١ المصدر السابق - صد ٧٤ ، ٧٥ وما بعدها .

يشير دوركايم إلى فكرة " القوة الجمعية " على أنها النمط الأصلي للقوة الفاعلة التي هي العنصر الأساسي لمقولة العلية أو السببية ، وهذه القوة الجمعية ترجع لأصول دينية ، تتركز حول " الطوطم " الذي هو المصدر الأول لسائر القوى الظاهرة والخفية ، والطوطم قوة دينية تثير مشاعر القبيلة وجمع أفرادها ، والطوطم تجسيد مادي مختلف الأشكال لجوهر روحي لا مادي تكمن في هذا الجوهر طاقة روحية وطبيعية في أركان الكون ، فالعلية أو السببية صادرة عن قوة الطوطم الروحية المنتشرة الطاقة ، وهي علة كل حركة في المجتمع ، والأصل المباشر لسائر الأحداث الاجتماعية .

ويبرر لوسيان ليفي بريل ضم العلية إلى الأصول الاجتماعية ، بأن العقل البدائي يربط بين مختلف الظاهرات الإنسانية والحيوانية والفيزيقية ربطاً علياً ، والبدائي يعتقد أن بإمكانه التأثير في الظاهرات إما بطريقة الاحتكاك أو بالملامسة أو بالأفعال السحرية ، التي يتردد صداها إلى مسافات بعيدة . مثال : أن كثرة وجود الأسماك في البحيرات ، وكثرة الثمار على الأشجار ، وسقوط الأمطار في المجتمعات البدائية البدائية المغلقة تتوقف على القيام بطقوس وممارسة شعائر دينية خاصة بالقبيلة ، أو قد تنتشر الأمراض وتقوم الحروب بين المجتمعات وفيها بسبب غضب رئيس من الرؤساء الروحانيين . وينشر في المجتمعات الهندية إعتقادات بأن أسباب الفشل في الصيد ، أو الهزيمة في الحروب أن زوجة الرجل أكلت طعاماً فاسداً معيناً ، أو أحدثت أفعالاً في غياب زوجها .

إذ يربط الرجل البدائي بين حدوث الظواهر وبين علل وأسباب غيبية ، والخلاصة أن دوركايم والمدارس الاجتماعية يرجعون بالعلية والسببية لأصول دينية ، والدين ظاهرة اجتماعية ، ومن ثم فهي من صنع الجماعة ولا ترتد إلى عقل الفرد ولا إلى التجربة .[1]

---

١ المصدر السباق - صـ ٢٢٤ ، ٢٢٦ وما بعدها . كذلك صـ ٦٧ .
كذلك للمزيد . ١٩٣٦ , Lawie Tyler : , The primitive Religion , London

الفصل الرابع

الفلسفة الحديثة والمعاصرة

الخصائص العامة والمقدمات

الفصل الرابع
الفلسفة الحديثة والمعاصرة

أهداف الدراسة : العملية والعلمية والتربوية في هذا الفصل :-

أولاً: وضع مقدمات عامة حول البدايات الأولى للفلسفة والتفكير الفلسفي الحديث.

ثانياً: الكشف عن الخصائص والاتجاهات المنهجية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

ثالثاً: بحث وتحليل النزعات العلمية والعملية والبرجمانية في الفلسفة المعاصرة وأثرها في توجيه العمليات التربوية والاجتماعية والسياسية في المجتمعات العربية الحديثة والمعاصرة.

الفصل الرابع

" الفلسفة الحديثة والمعاصرة "
" المقدمات والتطورات - الخصائص وأهم الشخصيات "

أولاً : المقدمات والتطورات : -

رأينا في الفصول السابقة [1] من هذا البحث ، كيف نشأ التفكير الفلسفي وما يواكبه من التطور الحضاري والثقافي بين الشعوب والدول الشرقية ، واليونانية والإسلامية ، والأوربية الغربية ، من العصور القديمة والوسطى وحتى عصر النهضة والبدايات الأولى لظهور التفكير الفلسفي الحديث والمعاصر ، وقد تمثل ذلك من خلال كثير من المدارس والمذاهب الفلسفية والثقافية والحضارية ، ونحن هنا نريد أن نشير إشارات خاطفة لمراحل تطور نزعة التفكير الفلسفي والعلمي كمقدمات أولية تربط بين عصر النهضة وتطوره مبشراً ببدايات أولية للفلسفة الحديثة والمعاصرة .

تبدأ الفلسفة الحديثة - فيما ذهب معظم المفكرين والمؤرخين لتاريخ الفكر الفلسفي الحديث - بعصر النهضة [2] وإن لم يكن عصر النهضة له تحصيل فلسفي كبير غير أنه كان ذا طابع علمي غزير ساهم في نهضة القرن السابع عشر ، ولم تكن النهضة حركة شعبية فلسفية كبيرة ، بل محدودة بعددمن المفكرين والعلماء في مقدمتهم فرنسيس بيكون Bacon (١٦٢٦) م وهوبز Hobbes (١٦٧٩ م) ، وميكافللي Machivelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) م ، وغيرهم ، يضاف إلى ذلك يقظة الفكر الفلسفي والعلمي الذي قلل وحجم سلطة الكنيسة وسيطرة رجال الدين ، وزيادة سلطة العلم ، والتطلع إلى الطبيعة واكتشاف القوانين التي تسيرها ، وإمكانية تسخيرها لتحقيق ما فيه فائدة أو خير الإنسان ، وتفتقت المشكلات العلمية والفلسفية التي سوف تقود جوانب وتوجه مناهج التفكير في العصر الحديث ، وتطور هذ التفكير حتى الآن .

وإذا كان التطور العلمي قد شمل مختلف العلوم ، كالفيزياء ، والتشريح وأنواع الفنون وحتى ليوناردو دافينشي (١٥١٩) م ، بالإضافة إلى ظهور نظريات علمية عند علماء أفذاذ من أمثال : كوبرنيكوس (١٥٤٣) م ، وجاليليو (١٦٤٢) م ، وحتى إسحاق نيوتن (١٧٢٧) م صاحب نظرية الجاذبية ، فإن تقدم العلوم الرياضية

---

١ تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث .

٢ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - ص ١ ط دار المعارف ١٩٧٩ م .

في عصر النهضة فتح آفاقاً جديدة للمعرفة ، وإذا أضفنا إلى اكتشاف نظريات ومناهج علمية وتجريبية جديدة واختراع الآلات والأدوات الاستكشافية العلمية مثل اختراع الميكرسكوب عام (١٥٩٠) م والتلسكوب عام (١٦٠٨) م والتعرف على المغناطيسية في عام (١٦٠٠) م عند جيلبرت ، فإن المناهج الاستقرائية ، والاستنباطية الرياضية وما يصاحب ذلك من فروض استنباطية ، لم يكن بعيداً عن تلك المقدمات الأولية التي نقلت في عصر النهضة بإمكانياته المحدودة إلى عصر الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

لقد كان الفكر في العصور الوسطى له الصبغة الدينية المحضة ، وكان الدين هو الذي يحدد أغراض العلم ويسن نظم البحث ، لكن عوامل النهضة والإحياء أدت إلى سرعة الانقلاب على النظم الموجودة ، واشتد السخط بين المفكرين على ما كان سائداً من عقائد قديمة وعتيقة ، وصار الحق ليس ما يتوارث عبر الأجيال والعصور ، وما يتعارف عليه الناس ، بل اصبح الحق يعتمد على ما يمكن أن يبرهن عليه ، ويقتنع به عن طريق العقل ، أو التجربة .

لقد بدت طلائع الفلسفة الحديثة التي كانت أول عهدها أميل إلى الاتجاه نحو الطبيعة ، ومحاولة التعرف على العالم من جديد ، كذلك اتخذت طابع الفردية ، ولغت عقل الفرد وتحريره من رق رجال الكنيسة وسيطرتها ، بالإضافة إلى التطلع إلى تقرير حق الأفراد في الحكم على الأشياء ، وأصبح لكل فرد أن يبحث وينتقد بدون قيد من أية سلطة خارجية ، وعلى هذا الأساس قامت أو نشأت الفلسفة الحديثة ، وكان أول من حمل لواءها - بيكون ، وديكارت (١٦٥٠) م ، واتفق هذان الفيلسوفان في الغرض ، وقد اختلفا في الوسيلة المؤدية إليه ، إذ بينما يذهب بيكون إلى أن المصدر الوحيد للحقائق هو ملاحظة العالم الخارجي ، وتجربة ظواهره ، فإن ديكارت يعترف بأن يكون العقل عاملاً مساعداً تتدفق منه المعرفة إلى جانب العالم الخارجي الذي ينتقل إلينا علمه بالحواس ، وكان بيكون يعتبر هو مؤسس الفلسفة التجريبية ، كما كان ديكارت واضع الأساس للفلسفة العقلية بمفهومها الجديد .[1]

وجدير بالذكر أن الفلسفة الحديثة قد مرت بعدد من التطورات أو المراحل ، نشير إليه باختصار [2] إذ أنه من المتعذر علينا أن نحدد بالضبط تاريخاً معيناً لانتهاء

---

١ دكتور زكي نجيب محمود - أحمد أمين - قصة الفلسفة الحديثة - صـ ٣٤ ، ٣٥ - ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ م .

٢ للمزيد - المصدر السابق - كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ٨ - وما بعدها .

الفصل الرابع

" الفلسفة الحديثة والمعاصرة "
" المقدمات والتطورات - الخصائص وأهم الشخصيات "

أولاً : المقدمات والتطورات :-

رأينا في الفصول السابقة [١] من هذا البحث ، كيف نشأ التفكير الفلسفي وما يواكبه من التطور الحضاري والثقافي بين الشعوب والدول الشرقية ، واليونانية والإسلامية ، والأوربية الغربية ، من العصور القديمة والوسطى وحتى عصر النهضة والبدايات الأولى لظهور التفكير الفلسفي الحديث والمعاصر ، وقد تمثل ذلك من خلال كثير من المدارس والمذاهب الفلسفية والثقافية والحضارية ، ونحن هنا نريد أن نشير إشارات خاطفة لمراحل تطور نزعة التفكير الفلسفي والعلمي كمقدمات أولية تربط بين عصر النهضة وتطوره مبشراً ببدايات أولية للفلسفة الحديثة والمعاصرة .

تبدأ الفلسفة الحديثة - فيما ذهب معظم المفكرين والمؤرخين لتاريخ الفكر الفلسفي الحديث - بعصر النهضة [٢] وإن لم يكن عصر النهضة له تحصيل فلسفي كبير غير أنه كان ذا طابع علمي غزير ساهم في نهضة القرن السابع عشر ، ولم تكن النهضة حركة شعبية فلسفية كبيرة ، بل محدودة بعددمن المفكرين والعلماء في مقدمتهم فرنسيس بيكون Bacon (١٦٢٦) م وهوبز Hobbes (١٦٧٩ م) ، وميكافللي Machivelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) م ، وغيرهم ، يضاف إلى ذلك يقظة الفكر الفلسفي والعلمي الذي قلل وحجم سلطة الكنيسة وسيطرة رجال الدين ، وزيادة سلطة العلم ، والتطلع إلى الطبيعة واكتشاف القوانين التي تسيرها ، وإمكانية تسخيرها لتحقيق ما فيه فائدة أو خير الإنسان ، وتفتقت المشكلات العلمية والفلسفية التي سوف تقود جوانب وتوجه مناهج التفكير في العصر الحديث ، وتطور هذ التفكير حتى الآن .

وإذا كان التطور العلمي قد شمل مختلف العلوم ، كالفيزياء ، والتشريح وأنواع الفنون وحتى ليوناردو دافينشي (١٥١٩) م ، بالإضافة إلى ظهور نظريات علمية عند علماء أفذاذ من أمثال : كوبرنيكوس (١٥٤٣) م ، وجاليليو (١٦٤٢) م ، وحتى إسحاق نيوتن (١٧٢٧) م صاحب نظرية الجاذبية ، فإن تقدم العلوم الرياضية

---

١ تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث .

٢ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ١ ط دار المعارف ١٩٧٩ م .

في عصر النهضة فتح آفاقاً جديدة للمعرفة ، وإذا أضفنا إلى اكتشاف نظريات ومناهج علمية وتجريبية جديدة واختراع الآلات والأدوات الاستكشافية العلمية مثل اختراع الميكرسكوب عام (١٥٩٠) م والتلسكوب عام (١٦٠٨) م والتعرف على المغناطيسية في عام (١٦٠٠) م عند جيلبرت ، فإن المناهج الاستقرائية ، والاستنباطية الرياضية وما يصاحب ذلك من فروض استنباطية ، لم يكن بعيداً عن تلك المقدمات الأولية التي نقلت في عصر النهضة بإمكانياته المحدودة إلى عصر الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

لقد كان الفكر في العصور الوسطى له الصبغة الدينية المحضة ، وكان الدين هو الذي يحدد أغراض العلم ويسن نظم البحث ، لكن عوامل النهضة والإحياء أدت إلى سرعة الانقلاب على النظم الموجودة ، واشتد السخط بين المفكرين على ما كان سائداً من عقائد قديمة وعتيقة ، وصار الحق ليس ما يتوارث عبر الأجيال والعصور ، وما يتعارف عليه الناس ، بل اصبح الحق يعتمد على ما يمكن أن يبرهن عليه ، ويقتنع به عن طريق العقل ، أو التجربة .

لقد بدت طلائع الفلسفة الحديثة التي كانت أول عهدها أميل إلى الاتجاه نحو الطبيعة ، ومحاولة التعرف على العالم من جديد ، كذلك اتخذت طابع الفردية ، ولغت عقل الفرد وتحريره من رق رجال الكنيسة وسيطرتها ، بالإضافة إلى التطلع إلى تقرير حق الأفراد في الحكم على الأشياء ، وأصبح لكل فرد أن يبحث وينتقد بدون قيد من أية سلطة خارجية ، وعلى هذا الأساس قامت أو نشأت الفلسفة الحديثة ، وكان أول من حمل لواءها ـ بيكون ، وديكارت (١٦٥٠) م ، واتفق هذان الفيلسوفان في الغرض ، وقد اختلفا في الوسيلة المؤدية إليه ، إذ بينما يذهب بيكون إلى أن المصدر الوحيد للحقائق هو ملاحظة العالم الخارجي ، وتجربة ظواهره ، فإن ديكارت يعترف بأن يكون العقل عاملاً مساعداً تتدفق منه المعرفة إلى جانب العالم الخارجي الذي ينتقل إلينا علمه بالحواس ، وكان بيكون يعتبر هو مؤسس الفلسفة التجريبية ، كما كان ديكارت واضع الأساس للفلسفة العقلية بمفهومها الجديد .[1]

وجدير بالذكر أن الفلسفة الحديثة قد مرت بعدد من التطورات أو المراحل ، نشير إليه باختصار [2] إذ أنه من المتعذر علينا أن نحدد بالضبط تاريخاً معيناً لانتهاء

---

١ دكتور زكي نجيب محمود ـ أحمد أمين ـ قصة الفلسفة الحديثة ـ صـ ٣٤ ، ٣٥ ـ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ م .

٢ للمزيد ـ المصدر السابق ـ كذلك يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ـ صـ ٨ ـ وما بعدها .

في بعض المذاهب ، وتظل الأجيال مترددة حائرة ، تعتنق بعض المذاهب أو تخلطها الواحد بعد الأخر . [١]

وإذا كانت الفلسفة اليونانية تعلوها مسحة جماليه في نواحي الحياة ، والأدب والفن والاعتقاد وإلهة الفن والأدب بالإضافة إلى النزعة الأخلاقية والنظر فيما وراء الطبيعة واكتشاف عالم المثل الأفلاطوني ، وانسحب الاتجاه الفلسفي في العصر الوسيط إلى محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، والمزج بين التراث الشرقي وما فيه من نزعة صوفية وبين التراث الفلسفي العقلي ، فإن الفلسفة الحديثة قد اختلفت عن ذلك في نواح كثيرة هي :

١- يغلب الطابع العلمي والصبغة العلمية على الفلسفة الحديثة ، إذ ألتزم الفلاسفة المحدثون بنزعة تجريبية في تفكيرهم واتجاهاتهم ، فلم يعد هناك مجال لتحكم القيم في الواقع لكي تكون ذلك دليلاً على صدق هذا الواقع ، كذلك لم يعد الدين يتدخل في فكر الفيلسوف لكي يجد من حريته ، أو يملي عليه حقائق الوحي الإلهي المنزل ، وعلى ذلك لم تعد الفلسفة الحديثة خادمة للدين أو الكنيسة ، كما حدث في العصور الوسطى ، بل أصبحت خير معبر التقدم العلمي والانطلاق في سائر ميادين العلم .

٢- أصبح الفيلسوف في العصر الحديث أكثر جرأة على الواقع من العالم الطبيعي ، فالعالم الطبيعي يلتزم بالدقة والموضوعية في منهجه ، ويتحرى الدقة في الواقع بتفصيلاته وجزئياته ، ولا يمكن أن يصل إلى قانون كلي لا يعد التأكد من صدق الفروض ، وسلامة النتائج ، أما الفيلسوف الحديث والمعاصر ، فإنه يجمع النتائج المختلفة للعلوم الاجتماعية والطبيعية ، ويحاول أن يؤلف منها صورة واحدة للعالم ككل مترابط الأجزاء ، بحيث نجد في هذا الكل مكاناً للقيم الفنية والخلقية والدينية التي تتمشى مع نتائج البحث العلمي .

٣- الفلسفة الحديثة ذات طابع علمي Itiscientic ، حيث يتجه الفيلسوف إلى الواقع والأشياء الخارجية ويقترب منها لمعرفة حقائقها .

٤- تتميز الفلسفة الحديثة والمعاصرة بالطابع الفردي Individualiotic [٢] فإذا كانت الفلسفة اليونانية القديمة ارتبطت بنظام سياسي أو ديني أو اجتماعي معين ، وقد عبر كل من أفلاطون وأرسطو عن وجهة نظر المواطن الحر في المدينة الدولة اليونانية ،

١- يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " صـ٧ ، صـ٨ .

٢- زكي نجيب محمود - أحمد أمين - " قصة الفلسفة الحديثة " - صـ٣٢ .

فإن هذا يختلف عن وجهة النظر الفلسفية الحديثة والمعاصرة ، كذلك عندما فقدت المدن اليونانية استقلالها السياسي ، فقد وجدت الفلسفة الرواقية القديمة تعويضا عن هذا الاتجاه ، فقالت بأن العالم كله مدينة واحدة يجتمع فيه الآلهة والبشر على السواء ، لقد ذهب كل من شيشرون ، وسينكا إلى اعتناق فكرة مدينة العالم كله ، ووضع على أثرها القانون الروماني ، فإن ذلك يختلف بالطبع عن النزعة الفردية التي تمثلها النزعة الفلسفية الحديثة والمعاصرة .

لقد أهتم الفيلسوف الحديث والمعاصر بضرورة مواجهة الواقع بنفسه فيناقش ويحلل القضايا والأوضاع السياسية والاجتماعية بفكره لا بفكر الجماعة كذلك بدون أن يخضع لسلطة دينية أو كنيسة أو لسلطة حكومية ، فالفيلسوف الحديث مثله كمثل الفنان ، أو الشاعر الذي يرسم لوحة أو يصور موقفا طبقا لما تمليه عليه مشاعره الخاصة ، وانطباعاته الفردية وهو بذلك يستطيع أن يظهر الأصالة والإبداع الحر دون التقيد بأي نزعة دينية أو سلطة سياسية .

٥ـ من أهم مميزات التفكير الفلسفي في العصر الحديث ـ والفلسفة المعاصرة أنها ذات إنتاج دولي ، فالفلسفة الحديثة والمعاصرة تتضمن إنتاجا دولياً Intarnational ، فإذا كانت الفلسفة اليونانية القديمة قد نبعت من الفكر والعقل والضمير اليوناني ، بالإضافة إلى فلسفة العصور الوسطى ، فإن الفلسفة الحديث تتداخل فيها عناصر فلسفية وتيارات فكرية وعلمية كثيرة ومختلفة ، فهي تمثل تراثاً إنسانياً عاماً ، ودولياً تنتقل من مكان لأخر بالترجمة والنشر والتحقيق والشرح والتعليق والنقد .

لم يعد التفكير الفلسفي مقصوداً على طبقة معينة ـ كما كان عند اليونان والعصر الوسيط مثلاً ، حيث سادت النزعات الطبقية ، أو تابعاً لتيارات مذهبية معينة ، بل هو امتداد للفكر الإنساني ككل ، لذلك ظهر ما يسمى بالعولمة ، والعلمانية ، وظهر ما يسمى بفكر ما بعد الحداثة ، ونعرات التحديث وما يصاحب ذلك من أفكار التفكيك وإعادة صياغة النصوص ..

٦ـ لا تستطيع مع هذا أن نغفل حقيقة هامة وهي امتداد بعض الأفكار الفلسفية والمذهبية على شيء من التطوير والتجديد من العصر الوسيط حتى العصر الحديث وبصفة خاصة فيما يتعلق بالفلسفة والفكر الإسلامي ـ مثال ذلك امتداد تأثير الفكر الأشعري والاعتزالي ، والفلسفي عند ابن رشد عند كثير من المفكرين المحدثين أو المعاصرين ،

وظهر أثر ذلك في مدرسة الشيخ والأمام الأكبر مصطفى عبد الرازق [١] ومن قبله الأمام محمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، ورفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهم كذلك امتداد بعض الأفكار والمعتقدات السلفية من الأمام أبن تيمية وابن القيم حتى مدرسة حسن البنا ، ومحمد بن عبد الوهاب الآن . [٢]

ثالثاً : الاتجاهات المنهجية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة :

تتمثل الفلسفة الحديثة والمعاصرة عدد من الاتجاهات المنهجية ، تعتبر إضافات للتوجهات الفلسفية السابقة ومن ذلك :

١- دراسة العلاقات المنطقية بين المذاهب الفلسفية السابقة على الفيلسوف أو للأحقية عليه ، إذ نجد من خلال بعض الدراسات التحليلية مدى العلاقات التي تربط بين تيارات فلسفية حديثة أو معاصرة وتلك السابقة عليها ، فمثلا قد يعارض أحد الفلاسفة التيارات الفلسفية المدرسية في العصور الوسطى ، ومع ذلك قد يتأثر ببعض جوانبها في فكره فالفيلسوف الإنجليزي بيكون ، والفرنسي رنيه ديكارت رغم معارضهما للفلسفة المدرسية الوسطى ، إلا أنه توجد بعض التأثيرات الفلسفية ، لديهما ، كذلك قد يحاول أحد الفلاسفة المحدثين أو المعاصرين إشباع مدرسة فلسفية معينة ومع ذلك يضيف إليها من فكره الفلسفي ، وذلك مثلما أضاف كل من أسبنوزا ولينتز إلى المذهب الديكارتي .

وقد يحاول الفيلسوف الحديث أو المعاصر أن يوفق بين مذهبين معارضين مثلما حدث من جانب الفيلسوف الألماني كانط ، في الجمع والتوفيق بين المذهب العقلي والمذهب التجريبي الحسي .

٢- يعتبر الفيلسوف الحديث والمعاصر ممثلا لعصره ، ومترجماً عن التيارات العلمية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية في عصره الذي يعيش فيه ، وبالنسبة بالمدرسة التي ينتمي إليها ، مثل ديكارت وتوماس هوبز ، وجون لوك ، وجون أستيورت مل ، وجان بول سارتر ، وبرتراند رسل وغيرهم ، إذ أن فلسفة هؤلاء أو غيرهم تمثل صدا واسعاً للتيارات الثقافية ، والفنية ، والعملية والدينية والتربوية والتعليمية .

١- الشيخ مصطفى عبد الرازق " التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية " ط القاهرة ١٩٤٤ م .
٢- دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة الحديثة " صـ٩ ، وما بعدها .

٣ـ من أهم الاتجاهات المنهجية في الفلسفة الحديثة كذلك الاهتمام بحياة الفيلسوف وشخصيته ، وقد ظهرت مثل هذه الدراسات كذلك في مدرسة التحليل النفسي الحديثة ، إذ أن دراسة حياة الفيلسوف الخاصة والبيئية التي نشأ فيها وعقائده ينير الطريق أمام المعرفة الدقيقة بفلسفته أو اتجاهاته العلمية والدينية والأخلاقية الفلسفية مثال ذلك : أن الفيلسوف باروخ أسبنيوزا ، كان يهودياً ذاق مرارة الإضطهاد على يد محاكم التفتيش في أسبانيا وطائفته كذلك الأمر الذي دفعه أن يحول الاتجاهات الآلية والعقلانية في فلسفة ديكارت إلى نوع من الفلسفة الروحية التي تضفي على النفس الأمن والسكينة ، كذلك ظهور النزعة التفاؤلية الواضحة في المزج بين فلسفة ليبنتز وفخته من خلال تفضيلهما لحياة الكفاح والنشاط ، وقد كان للتربية الدينية البروتستانتية الصارمة عند الفيلسوف الألماني كانط ، أثرها الواضح في التخطيط المنطقي المحكم في مذهبه الفلسفي ، أما المزاج الحاد ، والرغبة الجامحة عند شوبنهور لتحقيق النجاح مع عزوفه عن العمل الجاد ، ظهر أثره الواضح في فلسفته التشاؤمية .[1]

وهكذا فإن فلسفة كل مفكر تعبر عن خلاصة تجاربه الحيوية ومدى تفاعلها مع المذاهب الأخرى ، السابقة أو اللاحقة أو المعاصرة لها .

رابعاً : أهم الشخصيات الاتجاهات الفلسفية الحديثة والمعاصرة :

١ـ نزعة الأستقراء (المذهب التجريبي والحسي والنقدي) :-

اتجهت الفلسفة الحديثة بعد عبور عصر النهضة إلى توطيد أركان المذهب الحسي والواقعي المادي ـ وظهور نزعة الاستقراء العلمي والمادي في إنجلترا بفضل أعلام مجموعة من الفلاسفة العلماء من أمثال فرنسيس بيكون (١٦٢٦) م ، وتوماس هوبز (١٦٧٩) م ، وجون لوك (١٧٠٤) م وغيرهم ، ويرجع الفضل إلى هؤلاء في وضع أصول المنهج الاستقرائي القائم على التجربة الحسية ، ويرجع نشأته إلى إنجلترا ، وطبيعة التفكير الواقعي الذي كان سائداً في هذه البلاد ، وهذا المنهج يقوم على الملاحظة والتجربة أولاً فالباحث لا يستطيع الوصول إلى تصميمات كلية أو أحكام إلا بعد القيام باستقراء الظاهرة * وقد هب فرنسيس بيكون إلى تأصيل هذه النزعة وهذا المنهج [illegible] فلسفة الحديثة بعد أن توجه بالنقد للمذاهب الميتافيزيقية والنطق الصوري الأرسطي ، وأعتبره أداة فاشلة ولا تؤدي إلى تقدم العلم ، لذلك ألف كتاباً في " تقدم

١ـ للمزيد ـ دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة الحديثة " صـ١٦ ، صـ١٨ .

العلم " ، ثم وضع كتاباً أخراً في (المنطق الجديد) ثم وضع مجموعة من المقالات في الأدب والسياسة والاجتماع والأخلاق تتضمن هذه المقالات أمثالاً واتجاهات تؤكد بأن الإنسان هو خادم الطبيعة ومفسرها ، وأطلق عبارته المشهورة العلم قوة Science is A farce ، ثم أتجه بيكون إلى وضع تصنيف جديد للعلوم بناءً على قوى الإدراك الثلاثة وهي : الذاكرة - والمخيلة - والعقل وقد جعل موضوع الذاكرة : التاريخ ، وموضوع المخيلة الشعور ، ثم موضوع العقل وهي الفلسفة .

* : **التاريخ موضوع الذاكرة** : ينقسم قسمان ، قسم يتعلق بالإنسان وهو التاريخ المدني ، وهو تاريخ الكنيسة وتاريخ الإنسان بمعنى الكلمة أو أثار الإنسان عبر التاريخ .

والقسم الثاني يتعلق بالطبيعة ، وهو التاريخ الطبيعي مثل : وصف الظواهر السماوية والأرضية ، الخاصة بعلوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا ، ثم علم وصف المسخ ، حيث كان يرى مثل رجال العصور الوسطى أن المسخ يكشف عن قوى خفيه ولهذا أشار إليه ثم التاريخ الطبيعي ، وهو وصف الفنون التي تستخدم القوى الطبيعية لتغيير مجرى الطبيعة ، وتسهيل سيطرة الإنسان عليها ، .

*: علوم المخيلة : وهو الشعر القصص ، والتمثيلي ومنه أيضا الرمزي ، وتأويل القصص والاساطير ، وهكذا .

* : **موضوع العقل** : الفلسفة ، وتنقسم إلى فلسفة طبيعية وفلسفة إلهية ، ثم فلسفة إنسانية ، والفلسفة الطبيعية تنقسم إلى علم ما بعد الطبيعة ، ثم العلم الطبيعي ، وعلم الميكانيكا والسحر ، أما الفلسفة الإنسانية : فهي تنحصر في أقسام : نفسية وجسمية وعلاقات اجتماعية وسياسية ، كذلك علوم العقل مثل المنطق وعلم الإرادة أو الأخلاق .. وهكذا . والقاسم المشترك بين علوم الفلسفة والعقل فهو علم المبادئ أو الفلسفة الأولى . التي تضع المبادئ والعلل للعقل ليسترشد بها في مجال البحث .

لقد ضمن بيكون خلاصة مذهبه الاستقرائي الجديد في كتابه المنطق الجديد New logic منتقداً المذاهب الفلسفية والنظرية والفلسفية المدرسية وقد قسم بيكون هذا المنطق إلى قسمين :

* : **قسم سلبي** : حيث يبين فيه أخطاء الفكر القديم ، وضرورة الاحتراس من الأوهام ويسميها أيضاً بالأصنام ، مثل أوهام الكهف والقبيلة .. إلخ . ويوضحها بيكون على النحو التالي : أوهام القبيلة : وهي الميل الطبيعي إلى تصديق الخرافات ، والتنجيم والأساطير ، والتسرع في إصدار الأحكام دون ملاحظة أو تجربة دقيقة ، وأوهام

الكهف : التي تتعلق بطبيعتها الفردية ، وتختلف من فرد لآخر وحسب البيئة التي نشأ فيها الفرد من حيث التعليم والعادات الموروثة ، وأوهام السوق : وهي الأخطاء التي يرتكبها الناس أثناء تبادل اللغة والألفاظ ، والسوق هو المكان الذي يجتمع فيه الناس لتبادل الأحاديث والمنافع ..

ثم أوهام المسرح ، وهي الأخطاء التي يرتكبها الفرد من القدماء الذين يفسرون الطبيعة حسب أهوائهم ، بدون الاعتماد على الملاحظة والتجربة ، بل يعتمدون على الخيال .

كذلك رأى بيكون ضرورة الفصل بين الدين والعلم أو بين الدين والمعرفة اللاهوتية وبين العلم والمعرفة العقلية التي تعتمد على التجارب الحسية .

* : **القسم الإيجابي** : من المنهج : فقد ضمه الجانب العلمي ، فوضع أسس المنهج الاستقرائي الذي يمكن عن طريق استكشاف صور الطبائع البسيطة ، وقد قسمه إلى ثلاث مراحل : **الأولى** : جدول حضور الظاهرة موضوع الدراسة ، ثم الثانية : جدول غياب الظاهرة ، والثالثة : جدول الدرجات ، وقد أعطى مثالاً تطبيقياً على ظاهرة الحرارة . [1]

* : **أما توماس هوبز** (١٦٧٩) م قال أن كل ما هو موجود فهو مادي ويرجع إلى حركة ، لذلك فإن نقطة البدء في فلسفته المادية الحسية تتفق مع موقف بيكون من قبله كوبر نيقوس وجاليليو وغيرهم ، وعرف الفلسفة بأنها العلم الذي يستخرج العلل من معلولاتها ، والمعلولات من عللها ، والمنهج هنا منهج قياس Deductive ، وشرطي ، وينطوي على قدر من العلل ، إذ أن لكل معلول علة ، وهذه العلة تكون معلولة لعلة أخرى .. وهكذا . ولابد أن تنتهي لعلة أولى للأشياء جميعها وهي الله تعالى ، ويرى هوبز كذلك أن علم لا يمكن أن يعطينا معرفة يقينية عن الله تعالى وصفاته ، بل يجب أن نلجأ في ذلك إلى اللاهوت والدين والوحي ونبتعد عن الفلسفة.

ترجع أهمية المذهب الفلسفي عند هوبز إلى محاولته وضع نظرية عن العالم على أساس المادة والحركة ، فالحقيقة الأساسية في الوجود عنده هي المادة والحركة ، وقد كانتا هما المبدآن الأساسيان في عصره ، والمادة : هي الجوهر الأول ، أما الحركة : فهي الشرط الجوهري لتأسيس وجود الأشياء جميعاً ، كذلك فإن عمليات الفكر ما هي إلا حركات في المخ والقلب وأعضاء أخرى ، والدولة كذلك ، والمجتمعات الإنسانية

---

١ للمزيد : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ٤٥ ، ٤٩ وما بعدها .

كذلك ، إن هي إلا نوع من تأليفات مركبة . ولا نستطيع تفسير أي حدث في الكون إلا بإرجاعه إلى الحركة ، ففلسفة هوبز إذن فلسفة آلية استدلالية ، قائمة على الطبيعة والرياضيات ، أما دراساته عن الإنسان فقد كانت تدخل في نطاق النزعة الحسية التجريبية .

* أما عن نظرية المعرفة عند هوبز : فإنها تقوم على افتراض أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة ، والعقل الإنساني إن هو إلا ذرة حسية ذات طابع حسي ، ومصدرها الإحساس ، والإحساس نفسه يأتي نتيجة للضغط الذي يحدثه الشيء الخارجي على العضو الخاص بطريقة مباشرة كما هو الحال في الذوق واللمس ، أو بطريق غير مباشر كالبصر والسمع والشم ، وعلى ذلك فإن الضغط ينتقل من الوسط الهوائي ، وهذا الضغط المتجه إلى عضو الحس يكون بداية الحركة متجهة إلى المخ أو القلب ويستجيب المخ أو القلب لإحساس اللون أو الصوت أو الرائحة أو الإحساس بالحرارة والبرودة .

فالإحساس ما هو إلا عملية من عمليات المخ المادية تبدأ بالمنبه الخارجي وتنتهي باستجابة المخ أو القلب لها .

ويفسر هوبز الانفعالات أيضاً بأنها حركات جسمية سواء كانت خارجية أو داخلية ، والتخيل عنده إحساس متقادم والذاكرة مجموعة من الإحساسات قديمة ذابلة .

أما تداعي المعاني ، فإنه يرجع إلى حركات مادية في المخ ، إذن فإن هوبز يفسر سائر نشاط الفكر بالحركة الآلية .[1]

* **جون لوك** Jahon Lacke (١٧٠٤) م ، فيلسوف إنجليزي ، تتميز فلسفته بنها تجريبية ، أي أن معرفتنا تأتي إلينا من الحس sense perception وضع عدد من البحوث والمقالات عن " الفهم الإنساني " Essay concerning وهي مقالات تدور حول مقدرة العقل على إمكانية رؤية الأشياء ، وكذلك مقال عن الحكومة ، هاجم فيه نظرية الحق الإلهي للملوك بالإضافة إلى شرح نظريته السياسية ، ثم نشر بعض الدراسات عن التربية تتضمن الأفكار عن التربية Some thoughts concerning Education .

وبخصوص فلسفة جون لوك المعرفية لا نج مكاناً للأفكار الفطرية كما هو عند ديكارت ، واكتفى بالحسيات فقط ، ورأى أن هذه الأفكار الفطرية تأملية لا يوجد اتفاق

---

١ دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ٤٠ ، ٥٥ .

عـام حولهـا ، مثل المبادئ العملية والأخلاقية الواضحة ، إن القواعد الأخلاقية يستلهمها الفرد عند الميلاد ، وفي تفهمه لها بتعلمها ، فكيف تكون أفكاراً فطرية ؟ إن المعرفة تقع بالتجربة لا العقل ، ففي التجربة Experience توجد معرفتنا ، وهذا يعني أن أفكارنا تأتـي إلينا مـن حواسنا التـي تفصـح للعقل الأشياء المرئية ، يقول لـوك : أن المبادئ الأخلاقية التي تتبع مـن خبرتنا الحسية ، نحصل عليها عن طريق التجربة العملية فيمكن عندئذ تفحصها وانتقاؤها ، والموافقة عليها أو رفضها . مثال : العدالة مستقاه من تجاربنا ومعارفنا وليس هناك ما يسمى بالنموذج للعدالة أو الأخلاق Ethics ، لا يوجد في فلسفة جون لوك مـا يسمى بالقوانين الأخلاقية Moral Rules التي يجب على الأفراد أن يتبعوها [1] ، إن الخير هو ذلك الشيء الذي يسبب أو يزيد متعة العقل أو الجسم ويبعد الألم والشر : هو الذي يسبب أو يزيد الألم ويبعد اللذة ، إن الأخلاق عند لوك نفعية مثلما هي عند جيرمي بينتام Germe Bentham، إن العل ناتج من الرغبة في الحصول على السعادة ، وتحقيق اللذة ، والفضيلة في اهتمام الفرد بالمصلحة البعيدة المدى ، فالفلسفة التجريبية هي أساس المذهب التجريبي عند لوك ، فالتجربة والحواس أساس المعرفة التي تأتي عن طريق الاكتساب وهو يرى أن ليس ثمة أفكار فطرية لن العقل يولد صفحة بيضاء تنقش عليه المعارف بالتجربة ، وهكذا [2] .

ونكتفي بهؤلاء الفلاسفة الثلاثة الذين يمثلون قمة النزعة التجريبية في الفلسفة الحديثة ، وقد صار على هذا المنهج بعض الفلاسفة الآخرين من أمثال :

* **دافيد هيوم** (١٧٧٦) م ، الذي رأى أن المنهج التجريبي الذي طبق بنجاح في العلوم الطبيعية يجب أن يطبق كذلك في العلوم الإنسانية أو في دراسة الإنسان ، كذلك جورج باركلي (١٧٥٣) م ، على الرغم من نزعته الدينية الروحية ، إلا أنه لم يغفل الواقع الذي يخضع إلى ظواهر العالم الذهني العقلي ، وفلسفته المثالية تقود إلى العالم المادي ، وإن كان باركلي قد نفى الجوهر المادي عند لوك ، فإنه رد ذلك إلى الجوهر الروحي ، فالأشياء لا وجود لها إلا إذا كانت مدركة بالعقل أو الذهن [3] .

وجدير بالذكر الإشارة إلى تيارات فكرة أخرى منها فلسفة التنوير التي يقودها جان جاك رسو J , J , Rausseau (١٧٧٨) م الذي اعتبر ا، الحرية والمساواة هما هدف فلسفته الحقيقية في كتابه العقد الاجتماعي ، فالإنسان عنده يولد حراً ، لكنه مكبل

---

١ دكتورة نوال الصراف الصايغ - المرجع في الفكر الفلسفي - صـ ١٨٨ .

٢ المصدر السابق - صـ ١٨٩ ، كذلك دكتور يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ١٤٢ حتى صـ ١٥٢ .

٣ للمزيد المصدر السابق - صـ ١٩١ وما بعدها ، كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة .

بالسلاسل في كل مكان ، وقد ميز بين فضيلة الطبيعة ، وبين فساد المجتمع المنظم ، وقد اعتقد كذلك بأن التقدم هو المسئول عن الرذيلة فرفض ذلك ، كما ان المساواة الأخلاقية والسياسية إنما ترجع إلى الملكية الخاصة والمجتمع السياسي .. [١]

* : لقد كان للفلسفة الكانطية Kantianism صداها الواسع تاريخ وتطور الفلسفة الحديثة ، لقد اهتمت الفلسفة الكانطية " نسبة للفيلسوف الألماني المؤسس لها كانط Kant (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) م " إلى تأسيس منهج شامل ، ومبدأ فلسفي يأخذ بالميتافيزيقا العقلية Rationalistic Metaphysics ، والتجربة الحسية Sense Experience فقد كان كانط قد تأثر بفلسفة ليبنتز العقلية ، وفلسفة هيوم الحسية غير أنه أخضع كل ذلك للتحليل ، وكان اهتمامه نقديا لكل من الفلسفة العقلية والفلسفة الحسية ، ومن ثم جاء بفلسفة توصف بأنها فلسفة نقدية Criticism .

لقد بحث كانط كيفية المعرفة بالأشياء ، لذلك تقدم ببحث في نقد العقل الميتافيزيقي Metaphysical Reason ثم نقد العقل العلمي Scientific reason .

وكانت الفكر الرئيسية في فلسفة كانط النقدية ، تكمن في أن معرفتنا تتبع من مصدرين وهما : الفهم Understanding ، والذي يمثله التفكير الميتافيزيقي ، والثاني : الحسي أو الواقع an Actuality Sensibility والذي يمثله التفكير العلمي ، ولأن الجمع بين المصدرين فقط يمثلان المعرفة المتكاملة ، وينسحب على ذلك التقسيم المعرفة إلى نوعين : نوع قبلي Apriori (أولي ، فطري غير مكتسب) ، والنوع الثاني : بعدي Apasteriore ، أي حسي واقعي مكتسب لاحق . إن الوعي ـ يفكر ، والحس ، يعطي ، موضوعات الفكر .

فالمعرفة القبلية ، والبعدية متداخلتان ، ووحدتهما تعطينا المعرفة المتكاملة بطبائع الأشياء ، فالمنهج العقلي ، والمنهج الحسي يندمجان في منهج واحد عند كانط [٢].

تتميز فلسفة كانط إذن ، بالجمع بين الفلسفتين الحسية والعقلية ، والتفكيرين الميتافيزيقي والعلمي ، وقد عبر كانط عن هذه الفلسفة في كتابه الشهير نقد العقل الخالص :وتساءل كيف تعرف ؟ وجاء بالمنهج المتعالي أو الترنسندنتالي Transcendental Method ، الذي يقول : بأن وراء الظواهر الحسية المتغيرة

---

١ المصدر السابق ـ صـ ٢٠٠١ .

٢ دكتورة ـ نوال الصراف الصايغ ـ المرجع في الفكر الفلسفي ـ صـ ٢٠٧ . كذلك ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ـ صـ ٢١٣ ، ٢١٧ وما بعدها .

جواهر ثابتة ، وحقائق مطلقة ، وأن المعرفة العلمية وحدها لا تستطيع أن تعطينا الحقيقة الكاملة ، فلابد أن تعتمد على أحكام خالصة عقلية ، وبنفس الوقت فإن الأحكام العقلية الخاصة لا تكفي لمعرفتنا ، لأنها لا تطابق الحقيقة ، بل تسهم فقط في تنظيم تجربتنا .

إن وظيفة العقل هي تركيب معلوما الحواس ، ويعتمد العقل في ذلك على المبادئ القبلية أو الأولية ، أي منطق أو منسق للمادة ويسميها كانط بالمقولات Catagories ، ومن خلال ذلك نستطيع أن نعرف الأشياء في حقل التجربة .[1]

٢ ـ النزعة العقلية والمثالية :ـ

لا نريد ونحن بهذا الصدد من البحث والدراسة أن نحيط بجميع أطوار ومراحل المذاهب العقلية وشخصياتها في العصر الحديث ، تلك التي وضعت أصولها منذ عصر النهضة ، كما أشرنا فيما سبق ، لكننا نتناول بعض الشخصيات أو المذاهب التي تجمعت فيها خلاصة المذهب العقلي أو المثالي .

* النزعة العقلية أو الفلسفة العقلية Rationalism تتميز هذه النزعة بالتأكيد على أن العقل لا الحس هو مصدر المعرفة ، لأن العقل هو القوة الفطرية التي لا تخضع لسيطرة الخرافات ، فالحقيقة تتبع العقل لا التجربة ، والعقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس كما عبر ديكارت ، فالمعرفة العقلية تبدأ بالمسلمات والفروضات مثل الرياضيات والقوانين المنطقية والأوليات ، وهي محمية وصادقة ـ كلية لا جزئية ، ليست مكتسبة فالشيء هو عين ذاته ، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر . مثال : كالقول أن الشيء لا يمكن أن يكون موجوداً أو غير موجود في وقت واحد ، فالمعرفة العقلية فطرية ثابتة غير متغيرة ، قبلية لا تدرك بالحواس دفعة واحدة ، لا تدريجياً ، وهي ذات منهج استنباطي لا استقرائي ، تتجه المعرفة من البديهيات العقلية إلى الحقائق الواقعية من النظرية إلى الواقعية ، والدليل على ذلك نظرية ديكارت التي ترتكز على مبدأ " أنا أفكر إذن أنا موجود " .

* ففلسفة ديكارت عقلية ، فصل فيها بين الفكر والوجود ، قدم الفكر على الوجود ، وجعل الفكر هو أساس إثبات الوجود ، واهتدى من خلال ذلك إلى إثبات عدد من الحقائق الوجودية ، منها : إثبات ذاته ككائن يفكر ، وما دام يفكر فهو موجود ، ولا

---

١ المصدر السابق ـ صـ ٢١٠ ، ٢١٢ ، كذلك للمزيد من المراجع : إميل بزوا ـ الترنسندنتالية عند كانط ـ ترجمة دكتور عثمان أمين ـ ط الأنجلو المصرية .

يمكن أن يفكر بدون هذا الوجود . ثم انتقل بعد ذلك إلى إثبات وجود هذا العالم لأنه كإنسان يفكر وموجود ، فلاشك أنه يوجد في هذا العالم الموجود ، والعالم الموجود يضمه كما يضم سائر الموجودات الأخرى ، ثم انتقل من هذا الإثبات إلى إثبات حقيقة إلهية وروحية عاقلة كبرى في هذا الوجود ، وهو الوجود الإلهي فأثبت وجود الله تعالى في قمة الموجودات لكنه مفارق ومتمايز عنها ، لأن الفكرة التي تدل على وجوده ، لم يخترعها من داخله ، لكن لابد أن يكون هناك كائن كامل لا متناهي أهداه إليها ، وقذف بها في ذاته ، ففكرة أنا أفكر - كلية فطرية كاملة ولا تأتي من كائن ناقص ، بل من كائن كامل لا متناهي ، وهذا لا ينطبق إلا على الله عز وجل ، وقد أشار ديكارت إلى أن هناك حقائق لا يمكن أن تخضع للعقل بل للإيمان بها مثل : النفس والوحي الإلهي .

* : لكن فلسفة ديكارت العقلية كان لها امتداد ، وتأثير فيما بعد عند بعض الفلاسفة المحدثين منهم على سبيل المثال " نيقولا مالبرانش Nicolas Maleranch ، كان قسيساً لم يجد روحانية في فلسفة أرسطو ، وتأثر بفلسفة اللاهوت عند أوغسطين وتوفي عام (١٧١٥) م ، اطلع على كتاب الإنسان لديكارت ، واطلع على مذهبه في إثبات وجود الله وروحانية النفس وخلودها ، له كثير من المؤلفات منها ، كتاب المحبة ، وكتاب " حديث بين فيلسوف حديث وفيلسوف صيني في وجود الله " عام (١٧٠٨) م ، فهو فيلسوف لاهوتي عقلاني ، التقى مع ديكارت في موضوع (أن العقل - أو الفلسفة - يجب أن يكون بمنأى عن أي تسليم فعلي سابق ، أما الدين فموضوعه الإيمان .

تقوم فلسفة مالبرانش على محاولة التقريب بين الفلسفة والدين والاتحاد بينهما ، فالكلمة الإلهية هي التي تلقي في الذهن الإنساني المعاني التي يفكر بها . ورأى مالبرانش أن هناك مطابقة بين حقائق الوحي وحقائق العقل ، فحقائق الوحي يذعن لها الإيمان ، والفلسفة تحاول تفسيرها وإلقاء الضوء عليها للمطابقة بين الوحي وبين العقل ، ولا شك أنهم متطابقان لأن مصدرهما واحد وهو الكلمة الإلهية . ومهما كانت الحقائق للوحي الإلهي - التنزيل غامضة - فإن العقل لا يستطيع إجلاءها وإدراكها ، وهذا الجلاء هو رؤية الحقيقة كما يراها الله تعالى ، ما دام الله تعالى هو الذي يلقي المعاني في الذهن الإنساني وهكذا .

ثم تتجه فلسفة مالبرانش إلى " المعاني " وهو لم يتعلم الاتجاه العقلي من فلسفة ديكارت فقط بل أنه تعلم من أوغسطين اتحاد النفس مباشرة مع الله تعالى ، وأنه توجد في الله القدرة التي تمنحنا الوجود ، فالنور الذي يضيء قولنا ، والقواعد التي تتحكم في إرادتنا من الله تعالى ، والمعاني هي مثل المخلوقات ثابتة أبدية ، إنها توجد في الله

تعالى ، إنها ماهية الله تعالى تلك التي تيسر للمخلوقات أن تشارك وتقلد الماهية الإلهية ، وقد ذهب مالبرانش مثل ديكارت إلى اعتبار الجسم الإنساني كالآلة ، وجميع أحوال الإنسان كذلك مستنداً إلى مبادئ ميتافيزيقية .

ذهب مالبرانش إلى تفسير الموضوعية لكي يبين إلى أي حد تكون معرفتنا بالأشياء موضوعية ، فذهب للتمييز بين ، الشعور والمعاني ، فالشعور تغير بسيط في النفس ، نتعرف عن طريقه وبغير وضوح حالة نفوسنا ، أما المعاني : فإنها تعرض لنا في وضوح خصائص وصفات مستقلة عنا ، وعن التغيرات النفسية ، فالمعاني تنطوي على الطبيعة الواقعية ، فنستطيع أن نميز بين مشاعرنا بالألم والحزن ، وبين المعاني كالدائرة ، أو العدد ، فنستطيع أن نستدل عليها دون أن تكون شيئاً منا ، وتكشف عن حقائق ثابتة ، إن المعرفة بالمعاني تكشف عن موضوع الإدراك ، فالإدراك ليس سوى جزء معين من الامتداد ، يتخذ شكلاً معيناً سواء كان ساكناً أو متحركاً ، لذلك ندركه كما ندرك الأشكال الهندسية ، كذلك نجد أحوالاً مثل الضوء ، واللون والصوت والذوق ، وهذه الأحوال من صنع أنفسنا .

وإذا كان إدراك الأجسام ينطوي على نوعين من الإدراك مختلفين هما : الامتداد - ويتمثل في المعاني ، والمشاعر مصدرها الإحساس - لكن التعويل في ذلك كله على الإرادة ، مثال : إذا أبصرت العين جسماً من الأجسام فإن الحكم عليه بكونه صغيراً أو كبيراً يستمد من واقع الرؤية البصرية ، إلا إذا تدخل العقل لتصحيح الإدراك البصري بتأثير معارف سابقة عن الموضع .

إن الرؤية في الله تعالى ، هي مصاحبة للعقل الإلهي ، اتجاه من النفس إلى اجتلاب الحضور الإلهي ، والإشراق الإلهي ، فمعاني الأشياء والامتداد المعقول توجد في ذات الله تعالى ، إن رؤية ماهية الأشياء تعني رؤية الجوهر الإلهي ، بقدر ما يتناسب مع الموجودات بالمشاركة في الجوهر ، إذن فإن نزعة مالبرانش هنا : مسيحية حلولية .[1]

* وإذا اتجهنا إلى النزعة المثالية في الفلسفة الحديثة ، نجد أنها واسعة الانتشار في بعض المدارس الحديثة أو المعاصرة يمثلها عدد من الفلاسفة الكبار من أمثال كانط

---

١ دكتور محمد علي أبو ريان - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ١٠٨ ، ١٠٩ .

المنطق عند بوزانكيت ـ منطق مثالي ، فلسفي ، يقوم على حقائق ميتافيزيقية ، أهمها مبدأ (الحقيقة هي الكل) ، بكل ما تشير إليه وحدة الفكر ، والواقع ، ومن ترابط الأنساق واندماج الأجزاء ، إن الحكم المنطقي كلي ، وضروري وعام ، مثال : مبدأ عدم التناقض : لا يجوز أ، تعتبر هذا المبدأ الفلسفي منطقياً فحسب ، بل يكون أيضا فلسفياً وميتافيزيقياً وأنطولوجياً وأبستمولوجياً ، إنه ببساطة صورة أخرى لمبدأ (أن الحقيقة هي الكل) هذا المبدأ مطبق في المعرفة ، لأنها كلية مترابطة على الوجود من حيث أنه وجود كلي واحد مترابط .. وهكذا .[1]

* : تتابعت هذه النزعة الفلسفية المثالية ، والتصورات الكلية للحقائق المختلفة في عدد من المدارس الأوروبية الأخرى عند هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) م ، ومدرسته الهيجلية ، والتي تمثل اتجاهات مضادة للنزعات الحسية التجريبية ، وقد سبق أن أشرنا إلى فلسفة هيجل في الفصول والموضوعات السابقة .[2] كذلك تتابعت النزعات المادية كرد فعل للمثالية ـ الحقائق الكلية ، في عدد من المدارس والفلسفات المادية Materialism ، وأهمها الفلسفة الماركسية Marxism ، أو المادية الجدلية Dialectical Materialism ، والتي جاءت ناقدة للفلسفة الهيجلية ، وأهم من يمثل الماركسية[3]، الفيلسوف الألماني كارل ماركس Karl Marxis ، (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) م ، بفلسفته المادية الجدلية والتي ترفض المبادئ الميتافيزيقية ، وأهم ما يميز فلسفة ماركس الجدلية المادية أو التاريخية (أنه ليس وعي الأفراد هو الذي يقرر وجودهم ، ولكن العكس ، فإن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم ، كما أن أهم عناصر فلسفته : مبدأ الحتمية الاقتصادية ، ونظرية القيمة العمالية ، والاهتمام بطبقة البلوريتاريا ، واعتبار أن النظرة الاشتراكية والحركات العمالية هي أهم ما يؤدي إلى تغيير التاريخ والوعي به واعتبار العامل الاقتصادي وأدوات الإنتاج ملك للدولة عوامل للتغيير الاجتماعي .

١ـ المصدر السابق ـ صـ٢٩٧ ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة أماكن متفرقة " ـ صـ٤٢٨ .
٢ـ للمزيد ـ يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " صـ٢٧٤ وما بعدها .
٣ـ للمزيد ـ دكتورة نوال الصراف الصايغ " المرجع في الفكر الفلسفي " ، صـ٢٢٢ وما بعدها .

٣- الفلسفة المعاصرة : مناهجها الفلسفية وأهم شخصياتها : -

أ - الفلسفة المعاصرة - وخصائصها :

وكما أن الفلسفة الحديثة امتداد لعصر النهضة ، فإن الفلسفة المعاصرة هي أيضاً امتداد وتطور فلسفي وثقافي وحضاري للفلسفة الحديثة ، فالفلسفة المعاصرة Contemperary philosophy ، تشمل الحركات الفلسفية الأوروبية والأمريكية ، في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين - فظهرت تيارات فلسفية مثل فلسفة الظاهريات Phenomenology ، والفلسفة الوجودية Existentialism وتشمل كذلك الفلسفة التحليلية Analytic philasophy ، والفلسفة اللغوية Linquistic philasophy ، والفلسفة الوضعية Positivism ، ثم الفلسفة البرجماتية Pragmatism ، في أمريكا ، وما تتضمنه من عناصر التفكير العلمي . [1] وتتميز الفلسفة المعاصرة بكثرة التنوع ، والتغير ، والتعدديات المذهبية الفلسفية ، ثم تتابعت التحولات الفلسفية والثقافية نحو التطور الفكري للنظر فيما بعد الحداثة ، وما يواكب ذلك من نعرات التحديث والتفكيك والعولمة - Globalization .

فالفلسفة المعاصرة ما هي إلا استمرار للفلسفة الحديثة ، بتياراتها المختلفة وتطوراتها الثقافية والحضارية ، وتحاول أن نعرض لبعض المذاهب الفلسفية المعاصرة .

ب - بعض المذاهب الفلسفية المعاصرة وشخصياتها : -

*** : فلسفة الظواهر - (الظاهريات) Phenomenology**

فلسفة الظواهر - الظاهريات : هي التي تعني بوصف الظواهر بدقة وترتيبها بإحكام ، وهي دراسة حدسية للماهيات منبعها الوعي دون الرجوع إلى أي تفسير علمي - استقرائي أو استنباطي ، ولا تأخذ بالمعلومات السابقة ، أو الخاضعة للتجربة الحسية. [2] بل هي معرفة تأتي مباشرة من الوعي .. Consciouoness ، والوعي هو إدراك المرء لذاته وما يحيط به ، أن الحقيقة للفرد هي الحقيقة التي تعيش في وعيه ، والتجربة الذاتية هي تجربة مشتركة بين الذات والغير ، وهناك عالم من الذات وعالم من الغير ،

١- دكتورة نوال الصراف الصايغ " المرجع في الفكر الفلسفي " صـ٢٣١ ، كذلك دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة الحديثة أماكن متفرقة " .

٢- المصدر السابق - صـ٢٣٣ ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " - صـ٤٦٠ .

المنطق عند بوزانكيت - منطق مثالي ، فلسفي ، يقوم على حقائق ميتافيزيقية ، أهمها مبدأ (الحقيقة هي الكل) ، بكل ما تشير إليه وحدة الفكر ، والواقع ، ومن ترابط الأنساق واندماج الأجزاء ، إن الحكم المنطقي كلي ، وضروري وعام ، مثال : مبدأ عدم التناقض : لا يجوز أ، تعتبر هذا المبدأ الفلسفي منطقياً فحسب ، بل يكون أيضا فلسفياً وميتافيزيقياً وأنطولوجياً وأبستمولوجياً ، إنه ببساطة صورة أخرى لمبدأ (أن الحقيقة هي الكل) هذا المبدأ مطبق في المعرفة ، لأنها كلية مترابطة على الوجود من حيث أنه وجود كلي واحد مترابط .. وهكذا .[1]

* : تتابعت هذه النزعة الفلسفية المثالية ، والتصورات الكلية للحقائق المختلفة في عدد من المدارس الأوروبية الأخرى عند هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) م ، ومدرسته الهيجلية ، والتي تمثل اتجاهات مضادة للنزعات الحسية التجريبية ، وقد سبق أن أشرنا إلى فلسفة هيجل في الفصول والموضوعات السابقة .[2] كذلك تتابعت النزعات المادية كرد فعل للمثالية - الحقائق الكلية ، في عدد من المدارس والفلسفات المادية Materialism ، وأهمها الفلسفة الماركسية Marxism ، أو المادية الجدلية Dialectical Materialism ، والتي جاءت ناقدة للفلسفة الهيجلية ، وأهم من يمثل الماركسية [3]، الفيلسوف الألماني كارل ماركس Karl Marxis ، (١٨١٨ - ١٨٨٣) م ، بفلسفته المادية الجدلية والتي ترفض المبادئ الميتافيزيقية ، وأهم ما يميز فلسفة ماركس الجدلية المادية أو التاريخية (أنه ليس وعي الأفراد هو الذي يقرر وجودهم ، ولكن العكس ، فإن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم ، كما أن أهم عناصر فلسفته : مبدأ الحتمية الاقتصادية ، ونظرية القيمة العمالية ، والاهتمام بطبقة البلوريتاريا ، واعتبار أن النظرة الاشتراكية والحركات العمالية هي أهم ما يؤدي إلى تغير التاريخ والوعي به واعتبار العامل الاقتصادي وأدوات الإنتاج ملك للدولة عوامل التغيير الاجتماعي .

١- المصدر السابق - صـ٢٩٧ ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة أماكن متفرقة " - صـ٤٢٨ .
٢- للمزيد - يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " صـ٢٧٤ وما بعدها .
٣- للمزيد - دكتورة نوال الصراف الصايغ " المرجع في الفكر الفلسفي " ، صـ٢٢٢ وما بعدها .

٣- الفلسفة المعاصرة : مناهجها الفلسفية وأهم شخصياتها :-

أ- الفلسفة المعاصرة - وخصائصها :

وكما أن الفلسفة الحديثة امتداد لعصر النهضة ، فإن الفلسفة المعاصرة هي أيضاً امتداد وتطور فلسفي وثقافي وحضاري للفلسفة الحديثة ، فالفلسفة المعاصرة Contemperary philosophy ، تشمل الحركات الفلسفية الأوروبية والأمريكية ، في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين - فظهرت تيارات فلسفية مثل فلسفة الظاهريات Phenomenology ، والفلسفة الوجودية Existentialism وتشمل كذلك الفلسفة التحليلية Analytic philasophy ، والفلسفة اللغوية Linquistic philasophy ، والفلسفة الوضعية Positivism ، ثم الفلسفة البرجماتية Pragmatism ، في أمريكا ، وما تتضمنه من عناصر التفكير العلمي .[1] وتتميز الفلسفة المعاصرة بكثرة التنوع ، والتغير ، والتعدديات المذهبية الفلسفية ، ثم تتابعت التحولات الفلسفية والثقافية نحو التطور الفكري للنظر فيما بعد الحداثة ، وما يواكب ذلك من نعرات التحديث والتفكيك والعولمة - Globalization .

فالفلسفة المعاصرة ما هي إلا استمرار للفلسفة الحديثة ، بتياراتها المختلفة وتطوراتها الثقافية والحضارية ، وتحاول أن نعرض لبعض المذاهب الفلسفية المعاصرة .

ب- بعض المذاهب الفلسفية المعاصرة وشخصياتها :-

* : فلسفة الظواهر - (الظاهريات) Phenomenology

فلسفة الظواهر - الظاهريات : هي التي تعني بوصف الظواهر بدقة وترتيبها بإحكام ، وهي دراسة حدسية للماهيات منبعها الوعي دون الرجوع إلى أي تفسير علمي - استقرائي أو استنباطي ، ولا تأخذ بالمعلومات السابقة ، أو الخاضعة للتجربة الحسية .[2] بل هي معرفة تأتي مباشرة من الوعي .. Consciouoness ، والوعي هو إدراك المرء لذاته وما يحيط به ، أن الحقيقة للفرد هي الحقيقة التي تعيش في وعيه ، والتجربة الذاتية هي تجربة مشتركة بين الذات والغير ، وهناك عالم من الذات وعالم من الغير ،

١- دكتورة نوال الصراف الصايغ " المرجع في الفكر الفلسفي " صـ٢٣١ ، كذلك دكتور محمد علي أبو ريان " تاريخ الفلسفة الحديثة أماكن متفرقة " .

٢- المصدر السابق - صـ٢٣٣ ، كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " - صـ٤٦٠ .

وهذا يتضمن أني أعيش في ذلك العالم الذي أشاركه مع الغير ، فالمعرفة هي تجربتي المباشرة التي لا تخضع للبحث العلمي أو المعلومات السابقة الحسية ، بل لتجربة الوعي المباشر والذهاب إلى أشياء كما تبدو للوعي كظواهر ، ولقد ظهرت هذه الحركة الفكرية في ألمانيا من خلال جهود أدموند هوسرل ، Edmand Husserl وتلامذته أمثال هارتمان ، وهيدجر ، وماكس شيلر [1] وإن كانت بذور فلسفة الظاهريات سبقت أيضاً عند فلاسفة ألمانيا الكبار أمثال كانط وهيجل ، لكن فلسفة هوسرل ، كانت أكثر تمايزاً ووضوحاً في القصد والتمييز بين الذات والوعي ، وبين التجربة والظواهر الواقعية . .

ويعتبر الفيلسوف الألماني هوسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨) م علامة مميزة في فلسفة الظواهر . فقد كان دارساً للعلوم الرياضية له كتاب عن (فلسفة الحساب) وقادته الرياضيات لدراسة الفلسفة ، فقد أراد أن يقيم الفلسفة كعلم لكي يصبح لها أساس لا يتطرق إليه الشك ، لذلك وضح من خلال مؤلفاته في المنطق ، والفينومنولوجيا بالإضافة إلى مجموعة محاضرات ألقاها في السربون : أن هناك مبدأين أساسيين لهذه المهمة أحدهما : المبدأ السلبي : يعني أنه يجب التحرر من كل رأي سابق ، باعتبار أن ما ليس مثير هنا ببرهان ضروري فلا قيمة له ، وهوسرل لا ينكر العالم الخارجي ولا يرتاب في وجوده ، ولكنه يطلب إلى العقل أن يضع بين قوسين ، الوجود الواقعي للأشياء لكي يحصر نظرة في خصائصها الجوهرية كما هي ماثلة في الشعور .

أما المبدأ الإيجابي : يدل على ماهية هذا الموضوع إذ يقول : أنه يجب الذهاب إلى الأشياء أنفسها ، أي إلى الأشياء الظاهرة في الشعور ظهوراً بيناً ، مثل اللون الأزرق أو الأحمر ، والصوت والحكم وما إلى ذلك من ماهيات ثابتة مدركة بحدث خاص . [2]

وعلى ذلك فإن المنهج عند هوسرل في الظواهر أو الظاهريات ، لا يبدأ بالتجربة الحسية ، أو التجربة العقلية ، بل بالتجربة النفسية - أو النقية - ويتطلع فقط إلى تجربة نقيه ، وهذا يعني أنه يهتم بموضوع الوعي Consciouoness وموضوع المعرفة هو ما يظهر للأنا المفكر Transcendental , Ego . أن التفكير يصحب كل تجاربنا ، وهذا هو المبدأ الأول في كل تساؤل فلسفي إن موضوع المنهج في فلسفة

١- يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " صـ٤٥٩ ، صـ٤٦٠ ، كذلك دكتورة نوال الصايغ ، " المرجع في الفكر الفلسفي " صـ٢٣٣ .

٢- يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " - صـ٤٦٠ .

الظواهر هو أن التجربة من فعل الوعي المستقل ، ولا يهتم إلا بما يبدو للوعي ، وهذا يؤدي إلى اعتبار العالم المحيط بنا ظاهرة وجود ، وليس عالماً موجوداً ، أن الحقيقة ، الواعية هي التي تعرف بواسطتها الظاهرة . [١]

*** : الوجودية : Existentialism :-**

تبدأ الوجودية : المعرفة ، بالوجود ، لأن الوجود يسبق الماهية ، Existence precedes essence ، وهذا عكس فلسفة الظاهريات ، التي تقرر أن الماهية هي التي تسبق الوجود Essence precedes existence ، فالمعرفة الوجودية هي التي تؤدي إلى الماهية ، وما الطبيعة الإنسانية إلا نتيجة الوجود الإنساني ، ولكن ماذا يعني أن يسبق الماهية ؟ ، إن اعتبار الوجود الإنساني يسبق الماهية ، أي أن الإنسان يوجد بلا ماهية ، ككائن حي ، ويتوقف وجوده على مبدأ حريته في الاختيار وتحمل المسئولية ، وهذا الاختيار هو الذي يحدد ماهيته ، مثال ذلك : " أن بذور الشجرة هي التي تحددها كشجرة ، فوجود الشجرة يرجع إلى وجود البذرة ، التي يعطيها ماهية الشجرة ، وهذا ينطبق على الإنسان الذي باختياره تتحدد ماهيته ، فالاختيار يتطلب الوجود .

إن أهم مبادئ الوجودية : هو اختيار الإنسان لوجوده ، وللشخصية التي يؤديها من خلال حرية الاختيار لأخذ قراراته ، إن الفرد حر باختياره ، وهو مسئول عن هذا الاختيار نحو نفسه ونحو غيره ، فالاختيار يتضمن المسئولية فعلى الرغم أن الإنسان حر في اختياره ، إلا أنه مقيد بمسئولية هذا الاختيار لأن في اختياره تحديد لمصيره ، لتأخذ مثال : الفنان في مفهوم لوجودية " إنه حر وغير مقيد بالقيم الاجتماعية ، أو الثقافية ، فهي ليست حتمية ، ولكنه مسئول باختياره لتصرفاته ، فتصرفه يحدد ماهيته ، وما إبداعه الفني إلا تمثيل لماهيته . [٢]

وترجع جذور الفلسفة الوجودية إلى سوركين كيركيجارد Sorken Kierkegaard ، الذي أنتقد فلسفة الظاهريات في مبادئها التي تقول : بأن الماهية تسبق الوجود " ، وأثبت العكس أن الوجود هو الذي يسبق ماهية الأشياء ، وانتشرت هذه الفلسفة الوجودية في ألمانيا وحمل لوائها كارل جاسبرس Karl gespers ،

١ـ دكتورة ـ نوال الصراف الصايغ " المرجع في الفكر الفلسفي " صـ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
٢ـ المصدر السابق ـ صـ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

ومارتن هيدجر Mortin Heidegger ، وفي فرنسا : بدأت الوجودية مع جبرائيل مارسيل Gabrial Marcel ، وجان بول سارتر Gean , paul sarter ، وغيرهم.

إن الفلسفة الوجودية تهتم بالإنسان ووجوده لإثبات فرديته وتحقيق حريته ، وفي نفس الوقت مسئولية هذا الاختيار ، إنها تنظر إلى الإنسان كذات وتهتم بعلاقة هذه الذات بالغير ، إن المعرفة الوجودية : هي معرفة الذات الحقيقية والشعور الذاتي هو أسمى أنواع المعرفة ، بل هي أسمى من المعرفة العقلية أو الحسية . [1]

ويكفي أن نشير إلى بعض هؤلاء الفلاسفة الوجوديين المحدثين أو المعاصرين وهم : * : سورين كيركيجارد Soren KierKegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥) م فيلسوف ، ولاهوتي دنمركي ، ظهر مع ظهور الحركة الفلسفية الوجودية في أوروبا وأمريكا ، وبأفكاره عن أهمية الوجود الفردي والذاتي يعتبر عند الباحثين من الأوائل المؤسسين للوجودية ، وتقوم فلسفته على التأكيد على أهمية الفرد تجاه الجماعة ، وقد كان لتجاربه الذاتية والشخصية في حياته انعكاس على فلسفته وفكره الوجودي " فقد تربى في أسره متدينة ركزت على الشعور بالذنب " ، وقد صاحبه قلق في حياته انعكس على فلسفته ، لقد أكد كيركيجارد على الفرد ، وأهميته ، وانعزاله ، لقد أكد على أهمية الفردية والحاجة إلى ظهورها في العصر الذي عاش فيه (القرن التاسع عشر) والذي فقد فيه مفهوم الإنسان ، أهميته ، في ظل غياب الشخصية وذوبانها في العمليات الميكانيكية ، والجماعة Group ، أو الجمهور [illegible] ، فالإنسان ليس عضواً في جماعة بل هو شخص Person ، يسعى لتحقيق ذاته وسط الجمهور الذي لم يعد يعرف كيف يعيش - إن المعرفة العقلية ليست كافيه ، بل هي المعرفة الاندماجية ، يجب أن يكون الفرد واضحاً في عقله ، يعرف ماذا يريد ؟ وكيف يفعل ؟ ولماذا يفعل ؟ .. وهكذا ، ويؤسس منهجه الفلسفي على : دور الذات في معرفة الحقيقة ، فمنهجه ذاتي لتأكيده على الوجود الفردي ، فالإنسان وجود ، وليس عضواً بيولوجياً ، أو اجتماعياً ، إن الفرد وجود ، له قيم يختارها وليس في إمكانه أن يعيش بلا عواطف .

إذ كان المنهج الديكارتي والمنهج الوجودي يبدأ بفكرة الفرد (أنا أفكر إذن أنا موجود) فإن منهج كيركيجارد الوجودي يقوم على أن الفرد ليس هو الفكرة ، لأن وجوده يختلف عن وجوده كفكرة ، إنه يجب أن أوجد لكي أفكر ، .. وهكذا .

١- نفس المصدر - صـ٢٣٩ .

* : كارل ياسبرز Karl Gaspers (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩) م ، مهندس الفلسفة الوجودية ، وأول من أستخدم مصطلح وجودي ، Existentialist ، ولد بألمانيا ودرس القانون والطب ، وتقوم فلسفة الوجودية على : تحليل نظرة الإنسان تجاه العالم ، والقرارات التي يتخذها إزاء المواقف التي يواجهها مثل الموت ، والتغير ، والشعور الذنب ، إن فلسفته ليست ميتافيزيقية أو علمية ، بل وصف منظم للوجود الإنساني ، من حيث الوعي والتجربة ، مع الاهتمام بالفرد والإنسان اليوم ، ويتكون منهج ياسبرز الفلسفي من تجارب الفرد الأولى وتحليلها ، ويذهب إلى تأكيد المعرفة الذاتية ، والتفكير في فلسفته يبدأ وينتهي بالذاتية ، ويتضمن منهج ياسبرز الوجودي بالتركيز على (الأنا الموجودة) وتجاربها نقداً للمعرفة العلمية لأنها لا تكفي ، وللتجربة أهمية في منهج باسبرز في فلسفته الأخلاقية ، حيث يركز على القوة الكامنة لفردية الفرد الحرة ، واختياره الحر ، والاختيار هو حرية الفرد في وجوده ، والإنسان حقيقي ما دام يختار ، ولكي يختار لابد أن يكون واعياً ....وهكذا [1].

* : هيدجر Heidegger (١٨٨٩ ـ ١٩٨٦) م من أكثر الفلاسفة تمثيلاً للفلسفة الوجودية بألمانيا ، تتضح فلسفته الوجودية في مقالته " عن ماهية الحقيقة " ، ويتساءل ما هي الحقيقة ، وما يجعل الشيء حقيقياً ؟

أن الحقيقة هي اكتشاف الوجود ، إنها في ماهيتها هي الحرية ، وما عدم الحقيقة إلا عدم تطابق الوجود مع ماهيته ، لقد رفض فلسفة الظاهريات عند هوسرل في إهمالها لوجود الفرد ، كذلك رفض أن تكون الحقيقة عقلية عند ديكارت ، إذ أنتقد المدارس التقليدية ، والحديثة في هذا المجال وأتى بفلسفة جديدة تعبر عن عمق الوجود ووجود الفرد أن أسس الفلسفة الميتافيزيقية عند هيدجر هي إنها " تبحث عن الموجودات بما هي موجودات ، والوجود كموجود ، وعلى ذلك فإن المنهج الذي تقوم عليه فلسفة هيدجر الوجودية يقوم على الإيمان بالوجود الكلي وليس العقلي أو الحسي ، والمعرفة عنده ليست عقلية أو حسية بل المعرفة عنده معرفة وجودية أو الوجود في العالم Being in the world ، وعلى ذلك فإن معرفة الإنسان للوجود تتمثل بالعلو ، من خلال خصائص ثلاث للمعرفة : وهي : الواقعية : Facticity وتعني أن الإنسان دائماً في العالم ، ولا يكون هناك عالم بدوني أو أكون بدونه فمفهوم العالم والأشياء فيه ليس مفهوماً مستقلاً عنا ، والثانية : هي الوجودية : Existentiality ، وهي لا تعني

١ـ للمزيد من التفاصيل ـ المصدر السابق ، صـ٢٤٥ .

وجود الأشياء كحجارة أو بنيات في العالم ، بل الوجودية الذاتية الداخلية ، فالإنسان يحاول أن يذهب إلى أبعد من ذاته ، هادفا إلى ما هو غير كائن ، وفي علوه ليس هو فقط في العالم ، بل ويشكل العالم ، إن الإنسان في سعيه الإبداعي يصبح شيئاً مفقوداً ، وهذه هي الخاصية الثالثة للإنسان .

فالإنسان في حياته مع الغير ، ولأجل الغير لفي حالة الاغتراب ، وبذلك لا يصبح ذاته ، فالخصائص الثلاث السابقة ، تعني أن الإنسان حر ، وفي نفس الوقت مقيد - إنه في صراع دائم مع ذاته ومع غيره في وجوده ، .. وهكذا ويؤكد هيدجر أن الاهتمام بالوجود اهتمام قديم منذ بارمنيدس الفيلسوف اليوناني القديم حتى الآن ، والحقيقة كانت تعني الوجود الغير مخبأ Unhidden Being ، وعند أرسطو تعني مطابقة الفروضات مع الوقائع . [1]

* : جابريال مارسيل Gabrial Marcel ، (١٨٨٩ - ١٩٧٣) ، فيلسوف فرنسي ولد في باريس ، عمل كضابط بالصليب الأحمر في الحرب العالمية الأولى ، واتضح له من خلال عمله فشل الفلسفة المجردة في محاولتها معرفة وحل مشكلات الوجود الإنساني ، وكان لتجربته العملية بالإضافة إلى تحوله للديانة الكاثوليكية عام ١٩٢٩ م ، انعكاس على فلسفته ومذهبه في الوجود ساهم في نشر الفلسفة الوجودية في فرنسا بعد انتشارها في ألمانيا ومن أهم كتبه " فلسفة الوجود The philasophy of Existence ، وكتاب الوجود والتملك Being and Having ، لقد اعتبر الوجود هو محور فلسفته لقد نظر إلى الإنسان واعتبره كموجود في العالم ، وربما كان هدفه هو تحقيق الذات الإنسانية ، وتعميق جذوره في الوجود غير منفصل عنه .

ومن ثم فإن فلسفته تتميز بالوحدة التي ترجع بجذورها إلى الفلسفة الأفلاطونية والمسيحية والتي تقول بالحقيقة الخالدة ، إن التلاؤم هو المبدأ الحقيقي الذي يسعى إليه الوجود الإنساني ، فنقطة بداية فلسفته هي الميتافيزيقيا كذلك ما دامت البداية هي الوجود . وكلمة الوجود عنده تعني مجموعة الأشياء الموجودة لا الأشياء الجزئية ، إن الوجود عنده خالد ، أبدي مستمر غير مستهلك ، وعن طريق المشاركة بالوجود يمكن للإنسان أن يقهر الوحدة واليأس ، وعن طريق الوجود يستطيع الإنسان أن يصل إلى أعماق الروح الإنسانية وإشباع لتجربة الحب والإبداع ، إن قمة الإنسان تكمن في الوجود ، والمعايشة لا في الفعل Doing ، أو التملك Having ، هو قبول الإنسان

١- المصدر السابق - ص٢٤٦ ، ص٢٤٧ وما بعدها .

للمرح وهذا المرح هو قمة الوجود الإنساني ، والذي لم يعد موجوداً في الوقت الحاضر بعد أن أصبح التنظيم الاجتماعي يقوم على مبدأ تقسيم العمل ، حيث أن الإنسان يقيم لا كوجود أو معايشة بل كتحصيل وإنتاج .[1]

ومما لا شك أن منهج جبريال مارسيل يعكس أفكار الفلسفة : إذ بالوجود تبدأ الفلسفة ، إننا لا تبدأ المعرفة بأنا أكون Gan ، كما في منهج ديكارت بل نحن نكون we are ، لأن الوجود ليس شيء أو نوع أو مضمون ، بل الوجود ذلك الذي يشارك بالفكر ، والذي من الفكر يبدأ معناه .

ومما سبق يتضح أن مارسيل يحول مقولة ديكارت الشهيرة " أنا أفكر إذن أنا موجود " إلى مشاركة جماعية إنسانية لفكر الوجود ككل غير مجرد وهي (نحن نفكر إذن نحن موجودون) ، تمتلك حرية كاملة ، ومشاركة ومعايشة حقيقية في الوجود والعالم غير منفصلين عنه .

*: جان بول سارتر Jean , Paul Sarter ، (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) م ، فيلسوف وجودي ، وكاتب مسرحي فرنسي ، درس في جامعة السربون وحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٢٩ م ، وله الكثير من المقالات الفلسفية ، والمسرحيات الأدبية ، من أهمها ، مقال (الأنا والذات Ego and self) ، وكتاب علو الأنا The Transcendence of the Ego ، ثم كتاب الوجود والعدم : Bieng and Nothing ness ، وغير ذلك ويعتبر سارتر هو أكبر وأشهر الفلاسفة الوجوديين ، إذ أن للانعكاسات الفلسفية الوجودية أثرها الظاهر على فلسفته ورواياته الأدبية والمسرحية ، تقوم فلسفته الوجودية على مبدأ هام وهو : أن الأنا ليست سابقة في الوعي - كما هي في فلسفة الظاهريات عند هوسرل ، بل الأنا موجودة في العالم Bieng in the world ، وقد تميزت فلسفة سارتر أنها ميتافيزيقية وليست علمية أو وضعية أو تحليلية أو برجماتية ، والوجود هو محور فلسفة سارتر ، لأن الوجود هو محور فلسفة سارتر ، لأن الوجود يسبق الماهية ، Existence precedes essence ، وهذا يعني أن الإنسان يظهر في العالم أولاً ، وبعد ذلك يعرف ذاته ويكونها ، فالإنسان ليس شيئاً إلا ما يعمله ويكونه لذاته . وهذا هو مبدأ الذاتية عند سارتر Subjectivity ، لأن الإنسان هو الذي يعرف ذاته ويكون مستقبله ، بناء على ما عزم عليه ، أن العزيمة Mill ، تعني قراراً واعياً من قبل الإنسان الذي يعبر عما يود أن

١ـ المصدر السابق ـ صـ٢٤٨ .

يكون ، فاختياري بما أريد أن أكون يمثل عزيمتي كاختياري أن أكون سياسياً أو عالماً أو غير ذلك .

إن الإنسان باختياره هو المسئول عن ذاته وعن غيره في الوجود ، وإذا كان الإنسان يختار ذاته وبنفس الوقت باختياره هذا يختار جميع الأفراد ، لأنه باختياره يحدد قيمة ، لذلك فإن مسئولية الاختيار كبيرة ، لأنها لا تضمني أنا فقط ، بل وتضم الإنسانية جمعاء ، هذا ويميز سارتر بين نوعين من المواقف الأخلاقية في الاختيار ، فهناك من يضحي بقيمه وسعادته في سبيل الغير وتقاليد المجتمع ، وهناك من يفضل ذاته وسعادته ويضحي بمجتمعه وتقاليده في سبيل ذاته .

وينسق منهج سارتر مع سياق فلسفته الوجودية ، إذ يرفض منهج ديكارت في الأنا أفكر ، ويستبدل بها الأنا موجود ، كذلك يرفض منهج هوسرل بالوعي بالشيء ، ويؤكد على الوجود ، فمثلاً علم الجمال لا يذهب إلى دراسة لذوق ، بل إلى دراسة الأشياء أو الموجودات الجميلة ، كذلك القيم الأخلاقية لا تحتاج إلى تعامل بطريقة غير مباشرة ، بل إلى التعامل مباشرة مع الأشياء .. وهكذا . [1]

وجدير بالذكر أن نشير إلى ظهور نوعين من الوجودية في هذا العصر ، أحدهما : وجودية مؤمنة : تبين تحقيق الوجود الذاتي والوعي الإنساني في الوجود في ظل الديانات والإيمان بالله تعالى ، والثانية وجودية ملحدة تلغي الدين والأخلاق وتعطي الإنسان الحرية الكاملة في التعبير عن ذاته وحريته الكاملة لكائن في الوجود دون قيد ديني أو أخلاقي ، وقد ساهمت فلسفة سارتر الوجودية في تطور الفلسفة الوجودية فيما بعد وظهرت عند سيمون دي بفوار في الحركة التحررية للمرأة والفكر الاجتماعي المعاصر .

* **:الفلسفة البرجماتية : Pragmatism**

البرجماتي : فلسفة عملية أدائية ،وتعتبر أول إسهام فكري وعلمي عملي أمريكي للفلسفة الغربية ، وتغلغلت في الثقافة الأمريكية وظهرت تأثيراتها المختلفة ، وظهرت كرد فعل للفلسفة الميتافيزيقية والمثالية عند هيجل وغيره . وتتميز البرجماتية باستنادها على التفكير العلمي ، إذ تنظر إلى حقيقة الفكرة من خلال نتائجها العملية والنفعية ، لا من الناحية الذاتي بغض النظر عما تحققه من نتائج . وهذا يعني أن

---

١ المصدر السابق - صـ ٢٥١ ، ٢٥٢ - كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - صـ ٤٥٨ .

الحقيقة متغيرة بتغير الظروف والأحوال ، عكس الحقيقة الميتافيزيقية التي تنظر إلى الفكرة بأنها ثابتة .

والحقيقة البرجماتية مرهونة بنتائجها المستقبلية ، ويتوقف نجاح الفكرة من خلال تجربتها العملية والنفعية .

إن مقياس حقيقة الفكرة هو مدى ما تحققه من منفعة في حياتنا العملية ، وهذا يعني أن الفكرة تعتبر صادقة إذا أدت إلى نتائج عملية نفعية، وتعتبر غير صادقة إذا لم تحقق نتائج نفعية .

ومن أهم الفلاسفة البرجماتيين : تشارلس بيرس Charles Peirce ، ووليم جيمس William James ، وجون ديوي Jhon Dewey ، فقد وضعوا مبادئ البرجماتية في المعرفة والتي محورها كما وضحنا فيما سبق ، هو الاهتمام بالنتائج لا بالمبادئ ، تهتم بالغايات لا بالمقدمات ، وبالعمل لا بالمثل .

* : **تشارلس بيرس** Charles Peirce (١٨٣٩ - ١٩١٤) م مؤسس الفلسفة البرجماتية ، وواضع أهم مصطلحاته ، كان أستاذاً بجامعة هارفرد الأمريكية Harvard ، له مجموعة من المقالات والكتب(فلسفة بيرس - وكتابات فيرس الفلسفية) . ولعل أهم ما كان يميز فلسفته ومنهجه البرجماتية : أنه كان يبحث عن تفسير عام لمعنى الحقيقة بطريقة تحليلية ومنطقية ، يهتم بالمعنى العملي أكبر من النظري . ورأى انه لكي نؤكد المعنى لدى مفهوم فكري فلابد من أن نعتبر نتائجه العملية .[1]

* : **وليم جميس** : William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) م ، هو أحد الفلاسفة الأمريكيين الذين أسسوا الفلسفة البرجماتية ، درس الطب بجامعة هارفرد ، وكان أستاذاً للتشريح فيها ودرس علم النفس ، وأصدر مجلده (مبادئ علم النفس The principles of psychology ، وله محاضرات في الفلسفة وعين أستاذا للفلسفة ، وظهرت أشهر مؤلفاته كذلك باسم : (معنى الحقيقة The Meaning of truth ، ١٩٠٩) .

وتقوم فلسفة جميس البرجماتية على البحث عن الحقيقة ، وقد اعتبر أن الفكرة تعتبر صادقة بقياس نتائجها ، ولكي نصل إلى أفكارنا بوضوح فإننا نحتاج للنظر في

---

١ دكتورة نوال الصايغ - المرجع في الفكر الفلسفي - صـ ٢٥٧ . كذلك يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة (الفلسفة في أمريكا) صـ ٤١٦ وما بعدها .

النتائج العملية والتي يمكن تصورها ضمن الموضوع ، لأن من وظيفة الفلسفة هو الكشف عن الحقيقة ، فهي فلسفة نفعية عملية .

لقد أهتم وليم جميس بالواقع الإنساني ، وهذا يعكس اتجاهه البرجماتي كاتجاه فلسفي لخدمة الغايات الإنسانية ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى سيطرت البرجماتية ونزعتها الفلسفية العملية النفعية على الفكر الأمريكي ومما لا شك أن منهج جميس يتفق مع فلسفته البرجماتية إذ يهتم بما هو حسي متطرف ، والحسي يعني عكس العقل ، فالعقليون عند جميس أصحاب مبادئ ، بينما الحسيون فلاسفة أصحاب حقائق Facts ، ويشير جميس إلى أنه لابد من اعتبار التأثيرات والنتائج التي يتضمنها الشيء لكي نصل إلى معرفة الحقيقة .[1]

* : جون ديوي Gohn Deuey (١٨٥٩ - ١٩٥٢) ، هو رائد الفلسفة البرجماتية الأمريكية ، طور في الفلسفة البرجماتية مثل السابقين عليه ، درس الفلسفة وعين رئيساً لقسم الفلسفة في جامعة شيكاغو ، وأسس مدرسة عملية تدريبية وله كثير من المؤلفات منها : المدرسة والمجتمع ، the school and society ، وله كتاب أخر باسم : الشروط المنطقية لمعاجلة عملية الأخلاق - the logical condition of a scientific treatment of Morality ، وكتاب كيف يفكر - How to think ، وقد عرف ديوي لا كفيلسوف فقط بل كمفكر تربوي ولعل أخر كتبه هو كتاب " المعرفة والمعروف (Knowing and the Known) عام ١٩٤٩ م .

وتقوم فلسفة جون ديوي البرجماتية على الواقعية التجريبية ، ولا تستند إلى الفكر المتافيزيقي ، بل تقوم على الفكر العلمي والعملي الذي يهدف إلى تغير المجتمع - فالفكر الفلسفي عنده : هو فكر ادائي ، له وظيفة عملية وينبثق من العلاقة بين الأثارة والاستجابة ، وهذا يعني أن الفكر يبدأ بالتجربة ، وعملية التساؤل هي عملية استجابة لأي موقف ، وما التجربة إلا علاقة الكائن الحي بالبيئة التي يعيش فيها ويتجاوب معها ويهتم جون ديوي كذلك بالدعوة إلى التغير الاجتماعي والثقافي وهذا يشير إلى أن الفكر التجريبي يجب أن يتبعه التطبيق .

ويتفق منهج ديوي مع سياق فلسفته البرجماتية التجريبين - فالمنهج عنده تجريبي يتضمن نقل الطرق التجريبية من حقل العلوم الطبيعة إلى حقل أوسع وهو حقل

١- المصدر السابق ، صـ٢٥٨ كذلك دكتور زكي نجيب محمود - أحمد أمين " قصة الفلسفة الحديثة " ، صـ٤٠٦ ، صـ٤٠٧ ، كذلك ول ديورانت - قصة الفلسفة " ، صـ٦٢٢ ، وما بعدها .

العلوم الإنسانية - ولا يستند منهج ديوي التجريبي العملي إلى المطلق ، أو القبلي بل هو منهج عملي ، واختيار للحقائق الواقعية ، وطرق تحقيق قيم وتقاليد مرغوب فيها .

إن هدفه الفلسفي هو حل مشكلات الحياة الإنسانية ، لأن الهدف من الفلسفة هو كيف يمكن حل مشكلاتنا اليومية ؟ الحل هو " العمل على تغيير اتجاه القيم والعادات إلى اتجاه أخر ، ومهمة الفيلسوف هي كيفية إيجاد طرق جديدة تؤدي إلى الغايات المرغوبة ، ويجب أن يسعى الفيلسوف إلى تعديل المواقف والعادات حتى يصل إلى فلسفة النمو Grauth . أن البيئة ومؤسساتها الاجتماعية يجب أن تتطور بطريقة تناسب التطور في طرق مناسبة لمقدرة الأفراد ، وتقييم القيم والأفعال . [1]

ففلسفة ديوي ليست ميتافيزيقية ، ولا تؤمن بالقيم المطلقة أو الغايات الثابتة ، بل يهدف إلى فلسفة تتوافق مع الواقع ، لكي تتبين علاقات المشكلات الطبيعية والأخلاقية الإنسانية والاجتماعية والتعليمية بعضها بالبعض ففلسفته ذات نزعة طبيعية تجريبية Emperical Naturalism .

* : ظهرت تيارات فلسفية أخرى معاصرة ، يهتم بالجوانب الوضعية والمنطقية وفلسفة اللغة ، ويحق أن نشير في إيجاز شديد إلى هذه التيارات دون الدخول في تفاصيلها ، وهذه التيارات المعاصرة تتركز على سبيل المثال لا الحصر فلسفة اللغة ، والفلسفة الوضعية المنطقية .

* : فلسفة اللغة Linguistic philosophy ، تعتبر من الحركات الفلسفية التي سادت في التيارات الفلسفية المعاصرة ، وذلك لما للغة من أهمية في التعبير عن الأفكار وترجمة وشرح المصطلحات التي تعبر عن ماهية الفكر ، والموضوعات والقضايا الفلسفية والإنسانية ، وربما يرجع الفضل في تأسيسها إلى الفيلسوف المعاصر لودوفيج فينجنشين Ludduig wittgensten ، (١٨٨٩ - ١٩٥١) م ، ومجمل الموضوع هو أن الفلسفة نشاط ويجب أن يكون لها محتوى حقيقي ، وهذا ينصب على اللغة ، واللغة اهتمام مبني على التحقق ، فاللغة هي طريقنا إلى المعرفة وهذا يتضمن كذلك كيفية استعمال الكلمة في الجملة ، لأن لكل جملة منطقها الخاص ، ومما لا شك أن هذا الاتجاه الفلسفي اللغوي جاء كرد فعل للتفكير الميتافيزيقي ، وقد أوضح فينجنشتين : أن هدف الفلسفة لا يكن في تفسير حقيقة الإشياء ، بل في توضيحها

١- دكتورة نوال الصايغ " المعجم في الفكر الفلسفي " صـ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، كذلك ول ديورانت " قصة الفلسفة " ، صـ٦٢٤ - صـ٦٢٧ ، ترجمة فتح الله محمد المشعشع - ط مكتبة المعارف - بيروت ١٩٨٢ م .

للوصول إلى المعاني فالفلسفة لا تعدوا أن تكون تحليلاً لغوياً ، وما المشكلات الميتافيزيقية الإنتاج خطأ استعمال اللغة ، حيث يصعب برهان الفكر علمياً ففلسفة اللغة تسعى إلى توضيح الأفكار وبرهنتها لغوياً من أجل الوصول إلى المعرفة الدقيقة لما نبحث عنه ، وما سبق معرفته لا الكشف عن حقائق لا نعرفها [1] لقد اعتبرت فلسفة اللغة أن البحث في الميتافيزيقا وقضايا الكون ، والإنسان والقيم والمبادئ والمصير أمور غير ذات معنى ، ما دام ليس بالإمكان إيضاحها أو البرهنة عليها بالبحث العلمي . ورأي كذلك أن اللغة كوسيلة للمعرفة بالعالم والأشياء ، يجب أن تركز على تفسير معنى الشيء الذي تعبر عنه الكلمة ، وكيفية استعمالها ويقول " من الخطأ أن نتساءل ما معنى الكلمة ، دون أن نعرف كيف نستعملها " . [2]

* : أما التيار الأخر ، فهو تيار الفلسفة الوضعية المنطقية :-

Logical pasitivism ، ولعل أهم فلاسفتها المعاصرين هو : الفريد جولز أير Alfred Jules Ayer (١٩١٠) م وهو فيلسوف إنجليزي حصل على تعليمه في جامعة اكسفورد ، وتزعم الحركة الوضعية وتهدف الفلسفة الوضعية المنطقية إلى تغيير اتجاه الفكر الفلسفي من التفكير الميتافيزيقي إلى التفكير العلمي القائم على المنهج التجريبي الحسي والذي ساد في الفكر الأوروبي من قبل عند بيكون ، وجون لوك ، وهوبز وغيرهم ، ولعل من أهم مبادئ الفلسفة الوضعية : هو التحقق من صحة ما نبحث عنه فالمعرفة يجب أن تثبت ، وتبرهن بملاحظات عملية وتبريرات حسية ، وهذه هي معايير الوصول إلى الحقيقة ، فما لا يحس لا معنى له ، وما لا معنى له لا حقيقة له ، فالمعرفة يجب أن نخضع إلى الواقع التجريبي ، حيث أن المعارف القبلية ، الأولية ، الفطرية ، المسبقة مجردة ليست معارف حقيقية ، لأنها لا تصل بنا إلى إجابات وحلول مبررة تبريراً علمياً ، بشأن الوجود والموجودات .

إن معايير الحقيقة المعرفية في الفلسفة الوضعية المنطقية لا تعتمد على الميتافيزيقي ، ولا على ما هو ثابت أو مطلق ، بل على ما هو متغير ، وتجريبي واقعي واستقرائي ، لا استنباطي ، لذلك رفضت الوضعية خصائص التفكير الميتافيزيقي أو

١- دكتورة نوال الصايغ " المعجم في الفكر الفلسفي " صـ٢٦٣ ، صـ٢٦٤ .

٢- للمزيد من الدراسة أنظر ، جيرارد ليفنجستون " فلسفة اللغة (مقال منشور بمجلة عالم المعرفة (مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين) " صـ٢٢٥ ، صـ٢٢٨ ، ط مارس ٢٠٠٤ م .

العقلي أو المجرد ، واهتمت بخصائص التفكير التجريبي الأمبريقي الواقعي الحسي الذي يمكن فيه التبرير والإثبات .

لذلك ذهب آير Ayer إلى ضرورة القضاء على الميتافيزيقا لأن الفيلسوف الميتافيزيقي في نظرة كالشاعر ، كلاهما يتحدثان كلاما فارغا من خلال استعمالهما للغة . [١] وقد تزعم عدد من المفكرين المصريين والعرب المعاصرين لهذه الفلسفة ، ومن هؤلاء الدكتور زكي نجيب محمود ووضع كتاباً باسم " الوضعية المنطقية " ولم ينتبه لما سوق بجلب هذا الفكر من هدم للقيم والمعاني الأخلاقية والجمالية المطلقة فضلاً عن القيم الإلهية في عالم الوجود الإنساني .

وجدير بالذكر أن بذور دعوة الفلسفة الوضعية وجدت عند فلاسفة اجتماعيين فرنسيين في القرن التاسع عشر وهم أوجست كومت وإميل دوركايم حيث رفضوا الفروض الميتافيزيقية في دراسة الواقع الاجتماعي وأرجعوا كل شيء إلى المجتمع . [٢]

١ـ للمزيد : المصدر السابق ـ صـ٢٦٨ ، كذلك دكتور زكي نجيب محمود " المنطق الوضعي " صـ١٢٠ .

٢ـ دكتور قباري إسماعيل " علم الاجتماع والفلسفة " " قضايا علم الاجتماع والأخلاق " كذلك يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " صـ٤٣٢ وما بعدها .

الفصل الخامس

فلسفة الحضارة

الفصل الخامس
فلسفة الحضارة

الإحداث التربوية والفلسفية والعملية من هذا الفصل

أولا : بحث وتحليل الحلقات الحضارية وعناصرها العلمية والعملية

ثانيا: الكشف عن عوامل ونشأة الحضارات الإنسانية والجوانب الفنية والثقافية

ثالثا: تحليل الجانب الفلسفي للحضارات الإنسانية والكشف عن الوعي الذاتي للحضارة الإنسانية وأهمية الفلسفة بالنسبة لتطور الحضارة الإنسانية والحفاظ على القيم والبادئ، الأخلاقية والتربوية والعملية والدينية والحريات السياسية والاقتصادية .

" الفصل الخامس "

" فلسفة الحضارة "

أولا : تمهيد : - حلقات في التاريخ الحضاري : -

نتناول في هذا الفصل ، بمنهج تحليلي تركيبي دراسة الجوانب الفكرية والثقافية التي تشكل جوهر وروح الحضارة لدى الأمم والشعوب المختلفة والكشف عن تلك الخصائص والمميزات الثقافية الحضارية التي تعبر عن الذات الحضارية والروح الخلاقة في عمقها وجذورها وتطوراتها عبر الدول والأمم المختلفة ، والعلاقات السائدة ، ومدى اختلاط الثقافات وامتزاجها وتباينها ، فالحضارة ليست كلمة تطلق أو تقال لكي تعبر عن التركيب الثقافي ، والتراث المعرفي والعلمي أو العملي وتشتمل اللغات والآداب ، والعلوم والسياسة والأخلاق بالإضافة إلى الأمور الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من المكونات الحضارية في دوراتها المختلفة لدى الأمم والشعوب فقط ، بل الحضارة في جوهرها هي الروح الخلاق ، الذي يتخلل الباطن التراثي وأوصاله المختلفة ، ويصبح هو الذات المعبرة ، والعلامة المميزة في دورات التاريخ الحضاري .

وجدير بالذكر أن دورات التاريخ الحضاري ، لا يقتصر على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، أو في فترة زمنية معينة ، بل يظل هذا التاريخ الحضاري متصل الحلقات ، قد يؤثر بعضه في البعض الأخر ، في ظل من التمايز أو التباين لدى كل أمة أو شعب أو في فترة زمنية دون أخرى .

وبنظرة شاملة في تاريخ الحضارات ، يتضح أن هذه الحضارات يمكن تقسيمها من وجهة نظري إلى أربع حلقات حضارية متصلة مع إثبات تمايز كل منه عن الأخرى بخصائصها المعبرة عن روحها وجوهرها وذاتها . فالحلقة الأولى : تشمل مجموع الشعوب والدول أو الإمبراطوريات في بلاد المشرق القديم ، ويقع في إطارها شعوب ودول الصين واليابان وجنوب شرق أسيا ، والهند وفارس وبلاد الرافدين وما بين حوض البحر المتوسط والبحر الأحمر ومصر ، وقد تميزت حضارة هذه الحلقة بالتراث العملي والعلمي والتنظيمات السياسية والاجتماعية بالإضافة إلى شيوع الروح الدينية والنزعة الصوفية السحرية والغنوصية المعرفية ونزعة التوحيد الديني

والأخلاقي وتشوف الغيب وعبادة الرموز الوثنية والطبيعية لكي تصل بالفرد إلى المجهول الذي يقف خلف الواقع ، متمثلاً ذلك عند الهنود ، والصينيين والمصريين والفارسيين .

* : **والحلقة الثانية :** تشمل شعوب ودول أسيا الصغرى ـ تراقيا ، واليونان وحوض البحر المتوسط من الشمال والغرب ، والتي عبرت عن حضارة يونانية إغريقية عرفت في التاريخ الفلسفي : بالحضارات الهللينية ، والهللينستية ، وظهرت جذورها الأولى في مقدونيا ، وأثينا ، وتراقيا ، وجنوب إيطاليا ، تلك التي أنتجت عباقرة التفكير الفلسفي والعلمي ، وخلقت حضارة يونانية إغريقية رومانية فيما بعد سيطرت على معظم شعوب ودول حوض البحر المتوسط وامتدت إلى الشعوب والبلاد المجاورة بفارس وبلاد الرافدين ومصر وشمال إفريقيا .. مع تمايز هذه الحضارة ، بعبقرية التنظيم العقلي والمعرفي ووضع قوالب التفكير الفلسفي والعلمي في الوجود الطبيعي ، والميتافيزيقي ، والأخلاق والقيم ، والمعرفة ، والمنطق بالإضافة إلى علوم الرياضيات والفلك والأدب واللغة والشعر ، والتنظيمات السياسية (المدينة الدولة) ، والاقتصادية والاجتماعية ، وتمايزها بسريان النزعة العقلية التجريدية ، ووضع أصول المنطق والمزج بين الفكر والعمل أو التجربة .

وقد كان ضمن الأهداف الرئيسية لفتح الإسكندر الأكبر (٣٢٣) ق . م ، لبلاد المشرق ودخوله بلاد ما بين النهرين وفارس والهند ، ثم مصر هو أن يجعل للحضارة اليونانية الإغريقية السيادة والسيطرة على سائر الحضارات الشرقية ، ويجعل منها حضارة عالمية بما تتميز به من خصائص ومميزات ، لأن الذي أدى إلى هذا المزيج الحضاري اليونانية والشرقي والذي تلاقى فيما بعد في رحاب الحضارة العربية والإسلامية في الحلقة الثالثة .

* : **والحلقة الحضارية الثالثة :** هي الحضارة العربية الإسلامية ، فقد تلاقت روافد الثقافات الشرقية القديمة وروافد الثقافات والحضارات اليونانية الإغريقية في مزيج مختلط مع حضارة وثقافات العرب والمسلمين ، بعد أن فتح العرب والمسلمون الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية ، فانتشر الإسلام شرقاً وغرباً ، مدعماً بعقيدة دينية جديدة ، تعبر عن عقيدة التوحيد الإلهي الخالص ، التي تستند إلى كتاب منزل ، ووحي إلهي مبشر على النبي صلى الله عليه وسلم ، يخلو من التناقض العجيب الذي غشيَ من قبل الكتب والديانات الأخرى ، أنطلق المسلمون يؤسسون عقيدة ويتدارسون ثقافات وتراث الأمم الشرقية واليونانية ، ويتعمقون في المزيج العلمي

والثقافي والفلسفي ويقارنون ، ويحللون ، مكتشفين الخصائص والمميزات الحضارية ، مستخلصين تمايز حضارة وعقيدة الإسلام عن غيرها ، فاستطاعوا هضم الروافد والتيارات الثقافية والحضارية وتطويعها للثقافة الإسلامية والعقلية العربية ، مسترشدين بما جاء في كتابهم السماوي (القرآن الكريم) ونصوصه الإلهية وما ورد عن سنة نبيهم العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، واضعين أسس الحضارة ومحددين سبيل نشأتها وتكوينها العلمي ، والثقافي المعرفي والديني ، والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك من مكونات الحضارة ، فظهرت مدارس فلسفية وفكرية ومذهبية من متكلمين ، وأصوليين وفقهاء ، وفلاسفة وعلماء في شتى نواحي المعرفة والعلوم عبرت عن روح وجوهر الحضارة الإسلامية والعربية ، والذي ظل أثره سارياً حتى عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، بعد انتهاء عصور الظلام الأوروبية أو العصر الوسيط) ، فامتدت حضارة الإسلام بجوهرها وروحها من حدود الصين والهند شرقاً حتى الأندلس غرباً ومن حوض البحر المتوسط وتركيا شمالاً حتى أواسط وشمال إفريقيا جنوباً ، فأصبحت حضارة الإسلام تعبر عن جوهره الذي يقوم على عقيدة التوحيد الإلهي المطلق ، والقيم الأخلاقية الرفيعة والجمع بين الفكر والعمل ، والفلسفة والعلم معاً ، واحترام حقوق الإنسان وحرية العقيدة والدين والفكر والنظر والعمل ، وروح المساواة بين البشر وتقديس العمل كعبادة ، والمساواة بين المرأة والرجل واحترام الفروق الفردية بينهما ، والتذكير بحياة آخره تضمن الحساب العادل .

وهكذا ، كانت روح حضارة الإسلام ، تحقيق الوسطية والتعادلية بين الأشياء ، ولا تسمح لطرف أن يفتئت على الآخر ، روح الفضيلة التي كان ينشدها فلاسفة اليونان من قبل ، ذلك الوسط العدل بين إفراط وتفريط كلاهما رذيلة . ممثلاً ذلك في قوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً " سورة الإسراء آية (٢٩) . وقوله تعالى " كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس " سورة البقرة آية (١٤٣) .

* أما الحلقة الرابعة : فهي الحلقة الحضارية الحديثة ، وهي تبدأ منذ انتهاء العصر الوسيط ، وبداية عصر النهضة الأوربية ، وقد انقشع غبار سلطة الكنيسة عن الدولة وادعاء الحق الإلهي للحكام والأمراء الأوربيين .

وتتسم المجتمع الأوربي روح الحرية في الفكر والفلسفة والثقافة والعقيدة ، وانطلق المفكرون للبحث والنظر وإحياء التراث اليوناني القديم باعتبار حضارتهم

الأوربية الحديثة امتداد لهذا التراث الفلسفي والعمي ، فظهرت عدة مدارس ومذاهب تبشر بالتنوير والتقدم منذ طريقة فرنسيس بيكون وحتى ديكارت ثم كانط إلى عصر التنوير ، وهكذا . وقد سبق الإشارة إلى هذه الأمور في الفصل السابق .

لكن الروح الحضارية الغربية الأوربية عموماً انطلقت إلى الجمع بين النظر والعمل ، مفضلة الانغماس في الجانب المادي الطبيعي الفيزيقي على أساس أنه أصل الاختراع والتقدم ، فكفرت أوربا الحديثة بالروح والدين والأخلاق والقيم مفضلة زيادة سيطرت الإنسان على الطبيعة وتسخير قوانينها لفائدة الإنسان ، فضاعت القيم والأخلاق ، وظهرت الحروب الطاحنة ونزعات السيطرة والاستعمار والسيطرة على الشعوب ، بهدف الغزو وتكوين الإمبراطوريات ، وذلك بفعل المذاهب النفعية والحسية الأوربية والأمريكية الحديثة .

تلك هي الحلقات والتطورات الحضارية ، بما فيها من إشارات موجزة للخصائص والمميزات .

ثانياً : الحضارة :-

١ - ما هي الحضارة ؟

اتجه الباحثون والمؤرخون لتاريخ الحضارة الإنسانية إلى محاولات عديدة لإيجاد صيغ ملائمة لتعريف الحضارة ، وبيان مدلولاتها في اللغة والاصطلاحات الفكرية أو العلمية ، وقد تبين لنا بعض الاختلافات في تحديد المفهوم والدليل الحضاري والدقيق لمعنى الكلمة ، طبقاً لطبيعة التوجهات العلمية والفلسفية لدى الباحثين والفلاسفة ، وإن كان جوهر الحضارة يكاد يجمع عليه هؤلاء من حيث ، أن الحضارة تعني الإنسانية في عصورها المختلفة من تقدم أو تطورات مادية أو ثقافية تحفظ على الإنسان حياته وتوفر له قدراً من الرفاهية والمدنية ..

يضاف إلى ذلك الخلط بين استعمال كلمة " الحضارة " وكلمة " الثقافة " فكثير من الباحثين والمفكرين يستخدمون لفظ الضارة كمدلول ثقافي ، أو يشيرون في بعض الأحيان بالمدلول الثقافي كتعبير عن حضارات الشعوب وما تشمله من عناصر مادية وفكرية وروحية وسلوكية .. وهكذا . كذلك قد لا يستطيع البعض الآخر أن يفصل بين كلمة الحضارة بمدلولها الثقافي وبين كلمة " المدنية " .

ونحن بهذا الصدد نود أن نوضح مثل هذه التوجهات المتباينة حول مدلولات الحضارة أو الثقافة .

* يذهب العالم البريطاني إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylar في كتابه " الثقافة البدائية " Primitive Culture إلى تعريف الحضارة ومدلولاتها ولا يفرق بين الحضارة والثقافة - فكلاهما بدلالة واحدة .

يقول " الثقافة - الحضارة : ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد ، وكل العادات والقدرات الأخرى التي يكتسبها الفرد من حيث هو عضو في مجتمع معين " [1]

وحالة الثقافة في المجتمعات الإنسانية تعتبر من حيث إمكان بحثها في ضوء مبادئ عامة معينة ، موضوعاً خليقاً بقوانين الفكر والسلوك عند الإنسان ، إذ يمكن رد التجانس الظاهر في الحضارة إلى تشابه الأعمال الناتجة عن العلل المتشابهة ، بينما يمكن من ناحية أخرى اعتبار مراتب الحضارة المختلفة مراحل للنمو والتطور ناتج للتاريخ السابق ، ويؤدي مهمته الصحيحة في تشكيل المستقبل ، وإن كانت كلمة " الثقافة Culture ، تشير إلى أسلوب الحياة السائد في المجتمعات ، بغض النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها ، فإن هذا لا يمنع من أن بعض الكتابات أو التوجهات البحثية ، تستخدم كلمة " حضارة " Civilization " للإشارة إلى التنظيمات والأفكار الأكثر تعقيداً وتفاضلاً " [2]

ويذهب ليزلي وايت Leslie White في مقال له عن علم الثقافة - Culturology ، إلى أن الثقافة تطلق على كل الملامح السلوكية التي تميز الإنسان عن بقية الأنواع الأخرى ، مثل الكلام الواضح المفصل ، والنظم وقوانين الأخلاق وقواعد السلوك والأيدلوجيات واكتساب القدرة على استعمال الآلات والأدوات ، ولكن الإنسان يتفرد عن سائر المخلوقات الأخرى باستخدام الرموز ، وبناءً على ذلك يفسر ليزلي وايت (الثقافة أو الحضارة) ، في ضوء نظرية إلى الرموز والرمزية ، والتي تعتمد عليها الأشياء وتستمد وجودها منها وهي على نوعين ، رمزية تتعلق بالسياق الجسمي أو الفيزيقي ، فتستمد الأشياء معناها من علاقتها بالكائن العضوي الإنساني وهذا يؤلف السلوك ، والنوع الثاني من الرمزية : يتعلق بالسياق فوق الجسمي أو

---

١ وليم هاولز - ما وراء التاريخ - المقدمة - ترجمة دكتور أحمد أبو زيد - صـ ٥ - ط نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٥ م .

٢- دكتور أحمد أبو زيد " الحضارة بين علماء الأنثربولوجيا والأركيولوجيا " بحث منشور ضمن مجلة عالم الفكر) - صـ٦٣٣ / صـ٧، ٨ - الكويت - عدد نوفمبر ١٩٨٤ م .

العضوي ، وفيه تكتسب الأحداث والأشياء معناها من علاقتها بأحداث أخرى غير جسمية - تتعلق بالقيم والأخلاق والتاريخ وغير ذلك مما يؤلف الثقافة الحضارية .[١]

ومن هنا نلاحظ أن المدلول أو المفهوم الحضاري أو الثقافي يكتسب كل منهما مدلولاً واحداً ومفهوماً غير متباعد ، ما دامت الحضارة والثقافة بعيدان في أدق تفاصيلهما العامة ثم الخاصة عن الحياة السلوكية والاجتماعية والفنية والأخلاقية بالإضافة إلى النظم والقوانين والفنون لدى الإنسان في المجتمعات والشعوب المختلفة ، وبالقدر الذي يسمح فيه بإبراز عوامل التمايز والطابع الذي يوضح الملامح الحضارية ، في مختلف الشعوب والمواطن والعصور .

وثمة محاولة أخرى للتمييز بين (الحضارة) Kultur - كما يسميها الألمان ، وبين (المدنية) Civilsation كما يسميها الفرنسيون ، على أساس أن المدنية لا تعني أكثر من وصفها مجرد التقدم المادي ، لكن هذا التمييز غير دقيق إلى حد كبير ، إذ أن كلمة المدنية قد استعملت حتى الآن بنفس المعنى المفهوم من كلمة (الحضارة - الثقافة) عند الألمان ، فكلمة Kultur تعني تطور الإنسان إلى مرحلة التنظيم الأعلى ، وإلى مستوى أخلاقي أسمى ، وبعض اللغات تفضل استعمال أحدهما ، وبعضها يفضل استخدام الأخرى ، فالألمان يستخدمون Kultur ، بينما يفضل الفرنسيون استخدام Civilisation ، وليس هناك أي مبرر تاريخي أو لغوي لوضع تفرقة بين الكلمتين ، إننا نستطيع أن نفرق بين حضارة أخلاقية أو غير أخلاقية ، أو بين مدنية أخلاقية ومدنية لا أخلاقية ، لكن لا تستطيع أن تفرق بين الحضارة - وبين المدنية (Kultur Civilisation) .[٢]

والحضارة ، والثقافة ، والمدنية ، قريبة الاستخدام والدلالات عند معظم المفكرين والمؤرخين لتاريخ وتطور الحضارات والثقافات ، وثمة فوارق في المستوى الضعيف ، فالحضارة والثقافة والمدنية دلالات على مفاهيم التقدم والتطور ، والانتقال والترف والمؤثرات السلوكية ومتعلقات المستويات القيمية والخلقية وهكذا ، وثمة مشاركة عربية إسلامية في مضمار التعريفات الحضارية وفلسفتها عند عبد الرحمن بن خلدون (١٤٠٦) م فالحضارة عنده : تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش وسائر عوائل المنزل ،

١- المصدر السابق - صـ٨ / ٦٣٣ .

٢- البرت اشفيتسر" فلسفة الحضارة " - صـ٣٦ ، صـ٣٧ ، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي " مراجعة الدكتور زكي نجيب محمود " - ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٣ .

وطور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرقة للملك ، وأهل الدول يقلدون في طور الحضارة ، وأحوالها للدولة السابقة قبلها ، وهذا ما وقع للعرب - أهل البداوة - بعد الفتح الإسلامي في فارس والروم ، إذ قلدوا وأخذوا من حضاراتهم .. الخ (١)

فالحضارة - كما إنها تقدم وتطور ومظاهر سلوكية وفنية وأخلاقية وبعيد عن المدنية والفكر والتراث القيمي والاجتماعي أو الثقافي ، فهي كذلك ترف وتفنن وإحكام للصنائع ، يضاف إلى ذلك أنها تأثير الأفكار في نماذج الحياة الاجتماعية ، كما ذهب هوكنج Hocking - ووظيفة الفلسفة عنده تتمثل في الحكم على الحضارة ، بوصفها جزءً من معرفتنا للإنسان ، ماذا تعني ؟ وما الذي أنجزناه ؟ وماذا تبقى لنفعله ؟ - الحقيقة أن الفلسفة يجب أن تساهم مساهمة فعلية في الحضارة ، بل يجب عليها إن تتفلسف في الحضارة ، وهذا ما أكد على أهميته ألبرت أشفيتسر ، الذي لآم الفلسفة ، وأتهمها بالتقصير في القيام بهذه المهمة . (٢) وسوف نوضح ذلك فيما بعد .

ويذهب أشبنجلر إلى أن الحضارة ما هي إلا الظاهرة الأساسية لكل تاريخ العالم الماضي والمستقبل ، والفكرة العميقة التي لا تفهم إلا في طبيعته الحية ، والحضارة في رأيه تولد عندما تستيقظ فيها روح كبيره ، وتنفصل عن الحالة الروحية الأولى ، ثم تنمو في تربة بيئة ما يمكن تحديدها ، وتظل مرتبطة بهذه البيئة إلى أن تنتهي حياتها عندما تكون هذه الروح قِد حققت جميع إمكاناتها الباطنة على هيئة شعوب ، ولغات ، ومذاهب دينية وفنون وغير ذلك ، والحضارة عندما تحقق هذه الأمور تكون بذلك قد استنفذت إمكانات روحها التي تتجسد في هذه الإنجازات ، فتتحول إلى مدنية ، إلى أخر مراحلها - أي الفناء والانحلال . (٣)

ومما لا شك أن هذه النظرة التشاؤمية للحضارة وأدوارها التي تمر بها حتى نهايتها وانحلالها ، تشكل جانباً من جوانب التفكير التحليلي النقدي لتطور الحضارات الأوروبية أو تبشير بانحلالها ، نظراً لانغماس الحضارة الغربية الأوروبية الحديثة في التيارات المادية والتشكيك في القيم الخلقية والدينية ، ويمكن أن ينسحب هذا التفسير عند اشبنجلر على الأدوار الحضارية المختلفة التي مرت بها الشعوب والأمم السابقة كذلك ، وهذا ما أشار إليه فيلسوف وعالم التاريخ العربي عبد الرحمن بن خلدون في

١- ابن خلدون " المقدمة " صـ١٧٢ .

٢- دكتور محمود سيد أحمد " الحضارة والدين عند هوكنج " ، صـ٨ .

٣- نيفين جمعه " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " - صـ٥٨ ، صـ٥٩ ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١ م .

مقدمته .[1] أيضا ، حيث أشار إلى نشأة الدول والممالك وأدوارها الحضارية وما يتبع ذلك من حياة الترف والمهادنة للأعداء وشيوع روح الكسل والتواكل والفوضى الأمر الذي يعجل بزوالها ، وظهور ممالك وحضارات أخرى على أنقاضها ... وهكذا .

ومثل هذا التفسير الدوري للحضارات - يدعونا إلى البحث عن الأدوار المختلفة التي تمر بها الحضارات حتى تصل إلى أوج ازدهارها ، ثم زوالها .

٢- أدوار الحضارة :

الحضارات شأنها شأن الدول والممالك ، تدور في دورات ، وتمر بأدوار ، بين الازدهار والأفول - أو الزوال - عبر العصور والتاريخ ، فقد تزدهر الحضارة في عصر من العصور وفي جهة من العالم قديماً أو حديثاً شرقاً أو غرباً ، وتصل إلى أوج ازدهارها في مختلف النواحي الثقافية والفكرية والمذهبية ، والدينية والسياسية والاقتصادية والحربية ، ثم ترجع بالدورات إلى حالة التدهور أو التقهقر ، ثم تقوم على أنقاضها حضارة أخرى بجذورها ومعالمها ليصبح تراثاً حضارياً أنتهي مع بزوغ عصور التقدم والتطور والاختراع ، كالحضارات ، المصرية القديمة ، واليونانية والرومانية والفارسية والهندية والصينية ، إذ قد تظل الحضارات الماضية أو القديمة تحتفظ بروحها وعناصرها المتمثلة في الفنون ، والآداب والعلوم والمذاهب الفلسفية والدينية والأخلاقية ، كعلامات مميزة لها ، فالحضارة الغربية الأوروبية وما واكبها من آختراع وتقدم مادي وثقافي في العصر الحديث ، لا يمكن أن تغفل ما كان للحضارات العربية والشرقية القديمة أو السابقة من آثار وفنون مختلفة ، تعبر عن أصالة الشعوب والأمم التي عايشتها وتركت بصمات واضحة عليها ، فالحضارة مثل الكائن العضوي أو الحي ، يمر بأدوار بين النشأة والنمو ثم التدهور ، وكما ذهب إلى ذلك أشبنجلر في كتابه عن تدهور الغرب ، كذلك ذهب المفكر العربي عبد الرحمن بن خلدون ورأي أن الدول والحضارات تتعاقب عليها أطوار ثلاثة هي :

*: **طور البداوة** : مثل معيشة البدو في الصحاري والجبال وهؤلاء لا يخضعون لقوانين مدنية ، ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم ، وتحكمهم رابطة العصبية ويغلب عليهم التقشف وطابع الغلبة والشهامة والنجدة وأخلاق الفضيلة كالدفاع عن النفس والنجدة والغيرة [1]

١- للمزيد - ابن خلدون " المقدمة " صـ١٧٠ وما بعدها .

* : **طور التحضر وتأسيس الدولة** : يكون ذلك عقب الفتح والاستقرار في المدن ويمكن أن يكون الانتقال من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر أو الحضارة مدفوعاً بأسباب سياسية أو عناصر دينية ، ويحصل نوع من التعاضد لنشر الدعوة الدينية أو المذهبية أو الإصلاحات السياسية ، ولأسباب اقتصادية وترف العيش وعادة ما يتوقف تقدم الحضارة وازدهارها على مزايا الأرض (الاقتصاد) ، و(الحكومة) والسياسة ، وكثرة السكان ، وهكذا ويمكن تطبيق ذلك على الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الفرس والروم ، وتكوين وازدهار الحضارات العربية التي شغلت العصور الوسطى بأكملها . . وكان من مظاهرها ، التقدم

* : في العلوم الطبيعية والفنون والآداب واللغة والبيان ، والمذاهب الدينية ، والأصولية الكلامية والفقهية ، وضع أصول المنطق التجريبي عند المسلمين في مجال أصول الفقه ، بالإضافة إلى المذاهب الفلسفية ، فضلاً عن إنشاء المدارس العلمية ودور العبادات كمنارات علمية ودينية ، في مصر وبغداد ودمشق ، أو الشام والقيروان والأندلس وغيرها .

* : طور التدهور : إذ أن عوامل تحضر الدول قد تكون هي ذاتها عوامل تدهورها ذلك أن الحضارة وإن كانت غاية العمران ، فهي في الوقت نفسه مؤذنة بنهاية هذا العمران ، نتيجة للانغماس في الترف والنعيم ، فزيادة الترف يؤدي إلى ضعف الدولة كذلك ، ويفسر ابن خلدون ذلك بأسباب اقتصادية وأخلاقية ونفسية .[١]

وقد أشار أرنولد توينبي - في كتابه " الفكر التاريخي عند الإغريق " إلى دورات الحضارة الإنسانية ، مشيراً إلى الدوران الحضاري اليوناني الأغريقي نحو مصر ، وفضائل وأدى النيل ونهر النيل في ازدهار احضارة المصريين والسكان وظهور الأعمال الدينية والآلهة ، وتبني اليونان لحضارتهم وتأثير الأنماط الثقافية والدينية المصرية على الثقافات الحضارية اليونانية كمشاركة في حوض البحر المتوسط وشمال القارة الأفريقية وجنوب إيطاليا واليونان .[٢]

١- للمزيد من التفاصيل : ابن خلدون " المقدمة " صـ٨٤ ، كذلك دكتور أحمد محمود صبحي " في فلسفة التاريخ " ، ثـ١٤٣ ، صـ١٤٤ ، صـ١٤٦ ، صـ١٤٧ .

٢- أرنولد توينبي " الفكر التاريخي عند الإغريق (من هومر إلى عصر هيراقليس) " صـ١٦٨ ، صـ١٧٠ وما بعدها - ترجمة لمعي المطيعي - مراجعة دكتور محمد صقر خفاجه ، ط مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٦ م .

وكما ذهب أشبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) م ، في كتابة عن " تدهور الغرب " والذي صدر في مجلدين عام (١٩١٨ - ١٩٢٢) والذي شرح فيه فلسفته في التاريخ في أعقاب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، وفي هذا الكتاب يعالج أشبنجلر جميع موضوعات الحضارة الإنسانية وإنجازاتها ، ويذهب في تحليله الفلسفي للحضارة الغربية ، إلى أن تدهور الغرب ما هو إلا ظاهرة محدودة الزمن والمجال ، تدرك مدى خطورتها ، لذلك يجب أن تدرك ، ما هي الحضارة وعلاقتها بالتاريخ المتطور ، وإلى أي مدى ترتبط هذه الأشكال بالشعوب ، واللغات والعقائد والدول والقوانين ، وإلى جانب ذلك ضرورة معرفة مفهوم كل التاريخ وما هو تاريخ العالم .

ويستخدم أشبنجلر كلا من كلمتي الحضارة - والمدنية - كتعبير عن المفهوم الدوري عن تتابع ضروري ، وهي المصير المحتوم للحضارة ، ويشير كذلك إلى أن العالم القديم قد انتقل إلى مرحلة المدنية في القرن الرابع ، أما العالم العربي فقد تجاوز مرحلة الانتقال إلى المدنية في القرن التاسع عشر الميلادي .

وقد أستفاض أشبنجلر بالمدنية العالمية والمقاطعة بدلاً من العالم من حيث أنهما يمثلان ركيزة أساسية لكل حضارة ، فالمدنية هي نقطة تتجمع فيها أسباب الحياة الأقاليم واسعة ، أن المدينة العالمية هي الواقعية ، هي المجتمع بدلاً من الدولة ، هي الدين العالمي أو (العلمي) لا دين القلب ، ويترتب على هذا أن المثل الأعلى للحياة يصبح قضية مادية ، وينشأ التعارض بين هذه المدينة وجميع التقاليد الممثلة للحضارة مثل الكنيسة والفن ، والعائلات ، لأنها تمثل خاتمة الحضارة ، وبداية لمرحلة جديدة من مراحل الوجود البشري ، غير محددة المعالم ، ولكنها حتمية لا يمكن تجنبها . [1]

وترتبط الحضارة بفلك التاريخ في فلسفة الحضارة عند أشبنجلر ، تزدهر أو تنشأ وتتطور وتنتهي من خلاله ، " إن التاريخ مكون من كائنات حية عضوية هي الحضارات ، إذ تشبه كل حضارة - الكائن العضوي تمام التشابه ، فميلاد الحضارات ونموها وأزدهارها ثم أفولها ، ما هو إلا عملية بيولوجية تشبه ما يحدث للكائنات الحية ، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان ، سواء بسواء ، وبذلك يكون التاريخ العام بمثابة الترجمة لحياة هذه الحضارات التي تعتبر تراكيب عضوية .

---

[1]- نيفين جمعة علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرولد توينبي - ص٥٦ ، ٥٧ .

ولما كانت الحضارات تشابه الكائنات الحية أبان تطورها من وجهة نظر أشبنجلر ، فإن ذلك يعني أنها تمر في مراحل عمر تشبه مراحل أعمار البشر ، أي أن لكل حضارة طفولتها ، وشبابها ، ونضجها ، وشيخوختها .

بل يمكن القول أن : لكل حضارة دوراً كأدوار السنة (الربيع ثم الصيف والخريف ثم الشتاء) ومثال ذلك يمكن الحديث عن إنجازات المملكة المصرية القديمة في مصر ، التي بدأت بالأسرة الرابعة ، والتي كانت تكافح ضد الجهل وعصور الظلام ، ثم أخذت تتضح هذه الأعمال من خلال الوعي وتزداد صلابة ، وتمثلت في أيام المملكة الوسيطه وعياً كاملاً لقوة إبداعية ناضجة (فترة الربيع) وكان الاكتمال والنضوج في فترة (أبو الهول) ، ولكن تعقب ذلك فترة التدهور التي يتجه الإنسان خلالها إلى ممارسة الطقوس الدينية ، كما حدث في زمن (إيزيس) ، وذلك الشكل يعد مألوفاً في كل حضارة تعاني الاحتضار [1] والموت والتدهور . وبعد أن عرضنا التصورات الفلسفية للأدوار الحضارية المرتبطة بالتاريخ عند أشبنجلر ، وبعض الأمثلة التطبيقية لتصور هذه الأدوار الحضارية عند الشعوب والأمم ، والدول القديمة ، وتشبيهه للحضارات بالكائنات العضوية والحية في نشأتها ونموها وتطورها ثم تدهورها وأفولها ، فإنه يضع بعض التصورات الفلسفية عن روح الحضارة وعناصرها الأساسية .

فيذهب أشبنجلر " إلى أنه بالإمكان الكشف عن روح كل حضارة من خلال طابعها الخاص ، وأسلوبها الذي تتميز به ، والذي يمكن رؤيته بوضوح في كل مظهر من مظاهرها ، مثل (الفن ، والدين ، والعلم ، والسياسة) ولكن يجب أن تشير إلى أن هناك ضرورة باطنية لكل مظهر ، وهذه الضرورة الباطنية والجوهرية هي واحدة بالنسبة لجميع الحضارات .

فالظواهر التي تكشف عنها الحضارة الواحدة ، تناظر الظواهر التي تكشف عنها بقية الحضارات في كل التفاصيل ، وهناك أمثلة يضربها أشبنجلر لتوضيح مفهومه في ذلك ، منها : النحت الكلاسيكي ، والجوقية الأوروبية الغربية ، أهرامات الأسرة الرابعة ، والكاتدرائيات القوطية (والبوذية الهندية) ، كذلك عصور الدول المتنازعة مثل (عصر بركليس ، والعصر الأموي) ، فهناك إذن مشاكله بين هذه المظاهر الحضارية .

---

[1]- المصدر السابق - ص ٦٠ - كذلك دكتور عبد الرحمن بدوي - أشبنجلر ، ص ٩٨ وما بعدها ، ط مكتبة النهضة المصرية - ١٩٤١ م .

لقد استبان أن كافة الإبداعات العظيمة ، وأشكال - الدين والسياسة والفن والحياة الاجتماعية والاقتصادية ، أنها تظهر وتكمل نفسها وتنتهي في أوقات معاصرة في كل الحضارات ، والتركيب الباطن لأي من هذه الإبداعات أو من الأشكال الخاصة بالحياة الاجتماعية ينطبق كلية وبدقة على مماثليها من الأشكال في الحضارات الأخرى .[1]

وينتقل أشبنجلر من مرحلة التصور الفلسفي للأدوار الحضارية المرتبطة بحركة التاريخ ، إلى وضع تصوره الفلسفي فيما يتعلق بالكيان الحضاري ، وخصائص الحضارة وطابعها واتصالاتها والرابطة الروحية السارية في أوصالها ، إذ رأى أشبنجلر ، أنه بالرغم من أن الحضارة تتميز بنفس الصفات التي توجد عند الكائن الحي العضوي إلا أن لكل حضارة كيانها المستقل المنعزل تماماً عن كيان غيرها من الحضارات ، ولا سبيل لاتصال أية حضارة بأخرى ما دامت كل حضارة تشكل وحده مقفلة على ذاتها ، وما يلاحظ من تشابه في الموضوع بين حضارة وأخرى ما هو إلا تشابه ظاهري ولا يتعداه إلى الجوهر ، فلكل حضارة طبيعتها الخاصة التي لا يستطيع أي نوع آخر من الناس أن يمتلكها بالشكل ذاته ، ولكل حضارة ، بما في ذلك الأفراد الذين يستوعبونها ، تمتلك نوعاً خاصاً من التاريخ بواسطة هذا النوع ، ولذلك نجد أن نزعت الإنسان الغربي الحديث تختلف عن الإنسان الكلاسيكي القديم ويرجع أشبنجلر هذا إلى كون الحضارات تعبيراً عن الروح ، وهي تختلف من حضارة إلى أخرى سواء فيّ جوهرها أم في أسلوبها ، فإذا ما اشتركت الأسباب الخارجية المؤثرة في حضارتين ، تغلبت هذه العناصر على نحو مغير تماماً للنحو الذي تقبل عليه الحضارة الأخرى .

ويعلل أشبنجلر هذا بأن كل حضارة لا تستطيع أن تهضم هذه العناصر إلا بإحالتها إلى طبيعتها ، ولهذا يصبح ما هو حقيقي بالنسبة لحضارة ما غير حقيقي بالنسبة لحضارة أخرى .

وينتهي أشبنجلر إلى أن جميع الحضارات لا توجد صله بينها ، السابقة أو اللاحقة عليها ، غير أن هناك ظاهرة خطيرة في صلة الحضارات بعضها بالبعض الآخر ، يطلق عليه أشبنجلر ظاهرة التشكل الكاذب .[2]

---

[1] - المصدر السابق - صـ٦١ .
[2] المصدر السابق - ص٦٢ ، ٦٣ - كذلك دكتور عبد الرحمن بدوي كتاب أشبنجلر - ص١٢٦ ، ص١٢٧ - كذلك عبد الرحمن بدوي ، خريف الفكر اليوناني - المقدمات .

ويرى أشبنجلر أن هذه الظاهرة تحدث حينما تنتشر حضارة قديمة انتشاراً قوياً في نفس المكان الذي تولد فيه حضارة أخرى جديدة ، فان هذا من شأنه أن يعوق الحضارة الجديدة ، ويؤخر نموها ، بل ويقف حائلاً دون شعورها بذاتها وهويتها .

وفي الحقيقة أن لكل حضارة رابطة بين روح الحضارة وبين العالم الأكبر ، ويؤدي الاختلاف في الأرواح إلى اختلاف الروابط ، وبهذه الاختلافات تختلف الحقائق ، ويكمن الأساس الميتافيزيقي لهذه الفكرة في فكرة الروح [١] فالكون كله وحده مطلقة ، وأن القوة الخالقة واحدة في الكون إلا أن هذه الوحدة ليست ساكنة ، بل في حركة دائمة ، ولذلك فالروح هي الحركة الكلية التي تظهر من خلال ، الحركة الذاتية للروح في علاقتها مع ذاتها ، والروح الموضوعية ، في شكل الوحدة الواقعية أو العالم ، باعتبارها ضرورة حاضرة ، ثم الروح المطلق ، بوصفها وحدة موجودة في ذاتها وبذاتها وخالقة لذاتها باستمرار . [٢]

٣- مظاهر الحضارة وعناصرها :

لسنا هنا بصدد التأريخ للحضارة ، أو دراسة واستعراض المظاهر الحضارية للشعوب أو الأمم المختلفة ، ولكننا نحاول الكشف عن جوانب الحضارة الإنسانية عند بعض الأمم والجهات المختلفة ، ومظاهرها وعناصرها ودلالاتها الفلسفية والثقافية ، وفيما يتعلق بالعلوم والآداب والفنون ، والتنظيمات الاجتماعية والسياسية ، تلك التي تبين الطابع الجوهري والمميز للحضارة عند بعض الأمم أو الشعوب قديماً أو على مر العصور .

لقد تجمعت المعالم الحضارية الكبرى في وديان الأنهار العظمى والتي تقع في مناطق مختلفة من العالم ، ومن الواضح أن حضارة متعددة الظواهر لا تستطيع أن تنمو إلا في إقليم يستطيع فيه جماعة من الناس أن يعيشوا معاً في سلام نسبي مع توافر سبل الراحة ، فيقسمون فيما بينهم أعمالهم الكثيرة ، ويجنون ثمارها ، ويشجع بعضهم بعضاً .

وهذه الأنهار العظمى هي نهر النيل ، والفرات ودجله والسند والكنج والهوانج هو البيانجستي . [٣] ومما لا شك أن هذه الأنهار العظمى تقع في بلدان شهدت أعظم الحضارات الإنسانية في التاريخ البشري وهي مصر - وبلاد الرافدين التي تضم حضارات الكنعان ، وبابل وأشور وبلاد الصين والهند ، وعلى ضفافها ومنابعها البلدان المجاورة لها شهدت

---

[١]- دكتور عبد الرحمن بدوي - أشبنجلر - صـ١٣٥ وما بعدها .

[٢]- دكتورة نيفين علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " ، صـ٦٣، كذلك دكتور عبد الرحمن بدوي - أشبنجلر صـ١٣٥ وما بعدها .

[٣]- جورج سارتون " تاريخ العلم " جـ ١ . صـ٧٣ .

روافد ثقافية وحضارية أخرى ممتدة في حوض البحر المتوسط شمالاً وشرقاً وجنوباً لدى الإغريق واليونان والشام والفينيقيين ، وهكذا .

ولا شك أن هذه الأنهار لم تكن تحمل إلى البحار في مصابها ماءً فحسب بل تحمل رجالاً أيضا وسلعاً وأفكاراً ، لابد أن تكون كبيرة إلى درجة تتيح الوسائل إلى التجمع البشري ، والمنافسة الكبيرة عند مصباتها .

كما أن أية حضارة - حتى أقلها نضجاً - تبدو من تعدد الظواهر والتعقيد بحيث لا يمكن أن تنشأ بين جماعة صغيرة ، بل لابد من جماعات كبيرة نسبياً ، وينبغي للباحث هنا أن يعرف أن عنصراً واحداً قبل (اللغة) وما يقضي إتقانها من الاختيارات الوجدانية واللاشعورية والتي لا يمكن تسميتها ولا إدراك تعقيداتها ، ليصور لنفسه ضخامة الجهود التي يتطلبها التطور في أية حضارة الإغريق اليونان ، لما لهذه الحضارات من مظاهر فكرية وثقافية وفلسفية عميق الأثر والجذور في حوض البحر المتوسط ، وسوف نشير إلى روافد الحضارات الصينية والهندية كذلك إذا لزم الأمر .

ومما لا شك أنه إذا كان من مستلزمات الحضارة وجود الشعب أو كثرة عدد السكان والحدود الجغرافية والدولة بالإضافة إلى النظم السياسية ، والاجتماعية والقوانين التي تنظم العلاقات وتشارك في صياغة الحياة العامة للبشر ، فكذلك نجده متوافراً ومن أهم الأسباب لقيام حضارات في مصر ، وبلاد الرافدين ، والصين والهند وحوض البحر المتوسط وحضارات الإغريق واليونان والرومان وهكذا ، لكن الأهم بالنسبة لموضوع بحثنا هو البحث عن مظاهر الحضارة في هذه البلدان والأمم والشعوب في الجوانب الفكرية والثقافية والفلسفية ، وغير ذلك مما يتعلق بالنضوج الفكري والأخلاقي أو الفلسفي عند الأمم ذات الحضارات .

* : فلنأخذ بعض هذه المظاهر والعناصر الحضارية عند المصريين القدماء فنجد (اختراع الكتابة) : من أهم وأعظم ما قام به المصريون من جهود حضارية ، سواء كانوا هم أول من اخترعوا الكتابة وحروفها وهجائياتها أم سبقهم إليها السومريون أو الصينيون ، فهذه مسألة موضع جدل ، إلا أنهم اخترعوها مستقلين عن غيرهم ، ويكفي أن نشير إلى أن المصريين بدأوا الكتابة باستعمال (صور) للتدليل على أشياء أو أفكار لا كلمات ، ثم أصبحت هذه الصور تدريجياً ويمضي الزمن مصطلحات مبسطة ، ومعقدة ومربوطة في النهاية على كلمات منطوقة وبذلك أصبحت كل صورة تمثل فكرة ، وكلمة من كلمات اللغة المصرية

يضاف إلى ذلك اختراعهم لعلامات الهجاء والرموز المعقدة للغة الهيروغليفية ، فضلاً عن استعمالهم لأربعة وعشرين حرفاً استخلصوها من لغتهم ، وقد أشار بعض الباحثين في (اللغات الصينية) إلى أن الرموز الصينية مشتقة من اللغة المصرية .. مما يعني أن هناك تشابه واضح بين الحروف واللهجات واللغة المصرية الهيروغليفية والصينية [١] .

وقد اخترع المصريون أدوات الكتابة مثل الأقلام ، والأحبار وأوراق البردي ، وهذه من مظاهر ومستلزمات الثقافة الحضارية ، ودلالته الفكرية والعلمية ، وقد أشار سارتون إلى كيفية وصناعة الأوراق المصرية من نبات البردي المنتشر في الدلتا المصرية ومستنقعاتها المختلفة ، وما يهمنا هو باللغة الأوروبية وكلمة Bible الكتاب المقدس . [٢]

وفي مجال العلوم الفلك ، والطب والرياضيات والمساحة واختراع أنواع المعادن والصناعات والأصباغ وغيرها ، فلها دلالات حضارية عند المصريين ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل السابق ، لكن ما يهمنا هو الجانب الثقافي الفلسفي ، وتمثله هذه العلوم من عمق جذور الحضارة المصرية وتسير أمور الحياة العملية والاجتماعية وما يواكب ذلك من تنظيمات سياسية خاصة بالدولة المصرية في عصورها المختلفة .

أما الجانب الذي يجب أن نشير إليه في الحضارة المصرية ، لما لذلك من خصائص المظاهر الهندسية بالغة الدقة في بناء الأهرامات ، وتشيد المعابد والمسلات وفنون التشكيل الفني والجمالي البادئ على جدران المعابد والتماثيل ، فإن ذلك يشير إلى مفاهيم ثقافية وذاتية عميقة ، ربما انتقلت بمظاهرها وخصوصياتها بطرق وأشكال إلى الفنون والعمارات اليونانية كذلك ، فقد أخذ اليونان عن عهد المصريين المبادئ الأولى لفن النحت ، فجاءت التماثيل اليونانية في عصرها المبكر نسخه من الاتجاه المصري مثال لذلك : الوقفه المتصلبة ، والنظرة المتجهة إلى الأمام ، والذراعان الملتصقتان إلى الجانبين ، واليدان المقبوضتان والقدم اليسرى المتقدمة قليلاً على القدم اليمنى ، وهي صفات نجدها جميعاً في عدد من التماثيل اليونانية الموجودة في المتحف الوطني في أثينا .

---

[١] - المصدر السابق - صـ٧٦ ، صـ٧٩ .
[٢] - المصدر السابق - صـ٨٢ .

كما تأثر الفنانون اليونانيون في القرن السادس قبل الميلاد وأخذوا من معابد مصر عمارة الأبهاء والأعمدة ، لتصبح بعد ذلك هي النمط السائد عند اليونان ، كما يتضح من مقارنة معبد الكرنك ، وبقايا معبد سقارة في مصر ، بمعبد البارثينون في أثينا . [1]

وقد أضاف المصريون إلى مجال الفنون والعمارة - مجال الطب والتشريح وما في ذلك من مبادئ وخطوات علمية دونت على أوراق البردي وأخذها اليونان وظهر تأثيرها الثقافي والحضاري عند أبقراط وجالينوس [2] وقد أشار معظم كتاب الحضارات إلى انتقال كثير من التراث الثقافي الديني .

* : عند المصريين ، وتعاليم الحكمة والأخلاق المصرية ونماذج الآلهة وأسمائها إلى حوض البحر المتوسط وكتاب الموتى وتعالمه المختلفة إلى إيطاليا وبلاد اليونان ووجد كذلك إرهاصات في الحضارة الهللينية . [3]

* : أما حضارة ما بين النهرين في وادي الرافدين الشرق الأدنى ، فمظاهرها وخصائصها الثقافية والفنية كثيرة ، وتوافرت مستلزماتها الرئيسية والاجتماعية والقوانين المشرعة المنظمة للمجتمع وعلاقاتها فضلاً عن نشأة الفنون والعلوم والثقافات المختلفة ، في مجال علوم الفلك والرياضيات والطب والطبيعيات والصناعات ، وفنون العمارة والتماثيل والمعابد والآلهة وغيرها شأنها شأن الحضارة المصرية . [4] إلا أن أهم ما يهمنا هنا هي المظاهر الثقافية والفكرية ، فقد ظهر اختراع الكتابة وأدواتها ووسائلها ، وخطوط اللغة المسمارية ، واللهجات السومرية ، والأكادية ، وإن كانت اللغة السومرية ليست لغة سامية لأنها أقرب من اللغات المغولية والصينية ، واليابانية ، غير أن اللغة الأكادية ثبت صلتها باللغة السامية القديمة والتي انحدرت منها اللغتين العربية والعبرية ، واللغة الأكادية ظهرت لدى اللهجات البابلية والأشورية والكلدانية ، ولها علامات ورموز تصورية ، وكان للرموز التصويرية أو المصورة دلالة على الأفكار أو الحقائق ، وبالاطلاع على الصور الرمزية لهذه اللغة نجدها مجدولة في أشكال مختلفة لكل شكل دلالة على موضوع أو فكرة أو شيء [5] وإن اختلفت عن الصور الرمزية التي ظهرت في كتابات المصريين القدماء - وفي لغتهم

---

[1] - الدكتور - لطفي الوهاب " اليونان (مقدمة في التاريخ الحضاري) صـ ٢٠ ، صـ٢١ - ط دار المعرفة الجامعية بدون تاريخ .

[2] - نفس المصدر - صـ٢٠ .

[3] - أرنولد توينبي " الفكر التاريخي عند الإغريق "صـ١٩٢ ، صـ١٩٣ .

[4] - للمزيد جورج سارتون " تاريخ العلم " - جـ١ ، صـ١٤٣ وما بعدها .

[5] - المصدر السابق - صـ١٥٢ ، ١٥٣ .

الهيروغليفية ومن الدلالات الحضارية في بلاد الرافدين كذلك حفظ التراث الثقافي ، في ألواح وسجلات من الطين ، وكذلك النقوش والرموز المحفورة بهذه الألواح التي تمثل سجلات الحفظ ، وإنشاء المدارس وخزانات الكتب مع مبادئ ولهجات اللغة المستعملة .[١]

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى حضارات بابل وأشور والكلدان وغيرهم في مجال العلوم المختلفة ، كالرياضيات ، والفلك والنجوم والصناعات ، والجغرافيا ، والنبات والحيوان ، والطب .[٢]

إلا أن ماله دلالات فلسفية حضارية في بلاد الرافدين ، النظم السياسية والتنظيمات الاجتماعية وما صاحب ذلك من قوانين وشرائح منظمة للحياة الإنسانية ، وأهمها ما يعرف بقوانين (حمورابي) ، وإن سبق البحث في هذه الناحية لكننا نستخلص هنا الجانب الفلسفي الحضاري في قانون أو تشريع حمورابي (٢٠٠٠) ق . م .

يحتوي القانون على (٢٨٢) مادة ، تسبقها عبارات أبتهاليه ، ويوضح الملك حمورابي عظمته وأهدافه السامية ، ويقول أنه "سن القوانين الموجودة ليجعل العدل سائداً في البلاد ، ولكي يَبيد أهل الشر والفساد ، وحتى لا يطغى القوي على الضعيف ، ولكي يشرق العدل كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود ، ولينشر النور في البلاد " ثم يقول حمورابي " حينما فوضني مردوخ (إله بابل) أن أقود الناس إلى سواء السبيل ، وأدير شئون البلاد ، أصدرت القانون والعدل في لغة البلاد ، متوخياً رعاية مصالح الناس .. " وفي مقدمة القانون يقول " أنا حمورابي الملك الكامل ، لم أكن متهاوناً في حق القوم ولا مهملاً لهم .. بل حامياً ومتمماً للتقاليد .. الخ "

وينقسم التشريع القانوني عند حمورابي إلى ستة أبواب : تتناول : ملكية الأراضي ، والأموال المنقولة ، والتجارة ، والأسرة ، والأسرار ، والعمل "[٣] وهذا يدلل على مدى ما وصلت إليه الحضارة فيما بين النهرين من فكر مزدهر ، وحفظ للنظم ، وحياة الشعوب وإقرار مبادئ العدالة ومما سبق يتضح أن فلسفة الحضارة المصرية ، وبلاد الرافدين في بابل .

*: وأشور والكلدان تقوم على مقومات ثقافية تضم العلوم والفنون والدين والتنظيمات الاجتماعية والسياسية والقوانين والتشريعات المنظمة لها ، وتكاد تكون متقاربة في الملامح

١- المصدر السابق - صـ١٥٧ وما بعدها .
٢- للمزيد - المصدر السابق - صـ١٦٢ وما بعدها ، حتى صـ٢١٤ .
٣- المصدر السابق - صـ١٩٤ وما بعدها .

والسمات والخصائص العملية والفلسفية والثقافية ، واحترام العمل ، والملكية والمرأة ، وتقديس الحياة الدينية ، وحفظ القيم الأخلاقية وفنون الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية .

* : وربما كان للقيم التراثية الأخلاقية والدينية أثرها في بلورة فلسفة الحضارة في الشرق الأقصى ببلاد الصين والهند ، وجنوب شرق أسيا فقد توافرت الخصائص والسمات الرئيسية لقيام حضارات عريقة هناك كالحدود الجغرافية والأرض ، والسكان أو مجموع البشر ، فضلاً عن النظم والتنظيمات السياسية والاجتماعية فضلاً عن التراث الأخلاقي والديني ، متمثلا ذلك في تعاليم وقوانين وثقافات الصين عند الفيلسوف والمعلم الصيني " كونفشيوس " ، وجمل العقائد الطاوية عند لاوتس ومدارسها الفكرية والدينية وتنظيماتها السياسية .

وكذلك في التراث الثقافي والأخلاقي والديني في الهند متمثلاً ذلك في التنظيمات الطبقية ، والديانات كالهندوسية ، والبراهمة ، والبوذية والجينية ، ومما تمخض عن هذه المذاهب من أنساق فلسفية أخلاقية ودينية ، والنزوع إلى التوحيد والوصول إلى فكرة الواحدية في الكون والوجود ، والاتجاه إلى الواحد ، والخلاص من الكرما والتناسخ والدوران المستمر أو تكرار المولد ، ولا يتحقق ذلك إلا بالوصول إلى " النرفانا " وإماتة الذات والنفس للتجرد الخالص من كل شيء والوصول إلى مرحلة التوحد الدائم .[1]

ويتضح لنا أن فلسفة الحضارة الصينية والهندية بالشرق الأقصى تقوم على مبادئ هامة وهي النزوع الدائم إلى أعلى ، والسمو الخلقي والديني ، وذم الحياة المادية والخلاص من الشهوات التي تجلب على الفرد الآلام ، والخلاص بالوصول إلى النرفانا ، والتطهر الروحي الكامل ، والتأمل العقلي والذاتي .

* : توافرت الخصائص والعناصر الحضارية في التاريخ الحضاري عند الإغريق ، أو اليونانيين الأمر الذي سمح بظهور تراث فلسفي وعلمي في رحاب ما عرف لدى مؤرخي وفلاسفة الحضارات بالخصائص الهللينية والهللينستية والتي شغلت ما يقرب من خمسة عشر قرناً منذ القرن التاسع أو الثامن ق . م وحتى القرنين السادس والسابع بعد الميلاد ، وهو بداية الفتح العربي والإسلامي الإمبراطورية الرومانية التي كانت مترامية الأطراف وشغلت حوض البحر المتوسط من مصر وشمال إفريقيا جنوباً وحتى الشمال الشرقي للبحر المتوسط

---

[1] - سبق دراسة هذه الجوانب في الفصل السابق - وللمزيد راجع " توملين فلاسفة الشرق " فصول متفرقة كذلك ، دكتور أحمد شلبي " أديان الهند الكبرى (البوذية ، الهندوسية) " ول ديورانت " قصة الحضارة " صـ ٢١٤ ، (حضارات الشرق الأقصى) .

، فتوافرت لهذه الحضارة مقوماتها وعناصرها وهي الأرض والحدود الجغرافية والخليط المتجانس وغير المتجانس من طوائف السكان والبشر ، بالإضافة إلى التنظيمات السياسية والإدارية ، والاجتماعية ، والقوانين والتشريعات بما لها من أثر في تحديد العلاقات وحقوق المواطنة [١] فضلاً عن ظهور وتأسيس المدارس والمذاهب الفكرية والفلسفية وما تشمله من علوم وثقافات ونظريات في الكون ، والوجود ، والميتافيزيقا ، ووضع قوالب التفكير الفلسفي المختلفة في الطبيعة ، والمعرفة والأخلاق ، والميتافيزيقا .

وقد كان للمدارس الفلسفية أثرها في بلورة روح الحضارة اليونانية وصياغة فلسفتها ، كالأكاديمية الأفلاطونية في أثينا ، ومدرسة الإسكندرية في مصر ، ثم مدارس الرواقية والأبيقورية ، والأفلاطونية المحدثة ومن العلامات المميزة للحضارة اليونانية الاهتمام بالدراسات الإنسانية أو الإنسان منذ عصر السوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وحتى المدارس الرواقية والأسكندرانية ، وتعتبر الفلسفة الإنسانية من أهم العناصر التي ساهمت في بلورة فلسفة الحضارة اليونانية الإغريقية (الهللينية) ، فبالإضافة لاهتمام الثقافة اليونانية بالعلوم ، والطبيعيات في عصور متقدمة من تاريخ الفكر والحضارة اليونانية عند الطبيعيين الأوائل . [٢] ، إلا أن الفلسفة الإنسانية صارت لها المكانة الأولى في التراث الهلليني والهللينستي الحضاري .

وهذا ما أشار إليه وأكد عليه فلاسفة الحضارة في العصر الحديث ، ويذهب أرنولد توينبي إلى " أننا نسأل أنفسنا عن الأسباب التي دعت أن تكون الحضارة الهللينية أول الحضارات التي أمنت بالفلسفة الإنسانية دون قيد أو شرط ، ولأن تكون الحضارة الوحيدة التي فعلت ذلك حتى هذا التاريخ ، فما من حضارة ظهرت وقد ربطت نفسها بعجلة الفلسفة الإنسانية على هذا النحو الوثيق " [٣]

فكتابات هوميروس عن الحياة الاجتماعية والأخلاقية والثقافية فيما ورد بالإلياذة والأوديسة ، إنما تعبر عن روح الحضارة الإغريقية اليونانية في عصورها الأولى في القرنين الثامن والسابع ق . م بالإضافة لما خلقه سقراط في محاوراته حول الإنسان والنفس

---

[١] ـ للمزيد من التفاصيل : دكتور لطفي عبد الوهاب " التاريخ اليوناني والروماني" ط وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٨٨ ، كذلك لطفي عبد الوهاب ـ اليونان " مقدمة التاريخ الحضاري " ط دار المعرفة الجامعية .

[٢] ـ سبق دراسة وبحث الفلسفة الطبيعية ، ومشاهير الفلاسفة الطبيعيين الأوائل والمتأخرين في تاريخ التفكير الفلسفي عند اليونان .

[٣] ـ أرنولد توينبي " تاريخ الحضارة الهللينية " صـ١٤ ، صـ١٥ ترجمة رمزي جرجس مراجعة دكتور صقر خفاجة ط الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٣ م .

الإنسانية والسلوك والأخلاق والمعرفة بالإضافة إلى إثارة السوفسطائيون لروح النقد الشديد والشك فيما كان سائداً في المجتمع اليوناني ، كان ذلك أدعى إلى جذب الانتباه إلى الدراسات الإنسانية ، وهبوط الفلسفة من السماء إلى الأرض ، ولم نترك الفلسفة الأفلاطونية أو الأرسطية جانباً من الجوانب المتصلة بالفرد والمجتمع إلا ونالت الاهتمام فضلاً عما خلقته المدارس الرواقية ، والأبيقورية في البحث عن طبيعة السعادة وكيف يمكن الحصول عليها بالنسبة للفرد .. وهكذا .

لقد امتزجت الروح الفلسفية بجوهر الحضارة اليونانية والرومانية ، الهللينية ، وأصبحت الفلسفة بالنسبة لها سلوى ، وضرورة ، ويتضح هذا من خلال نص للإمبراطور " ماركوس أوريليوس أنطونيوس " يقول " الحياة الإنسانية أجلها موقوف ، واحساساتها قائمة ، وبناؤها البدني قابل للهلاك ، مصيرها مظلم ، وشهرتها زائفة ، عناصرها الروحية أضغاث أحلام ، والحياة سجال ، الإقامة فيها مؤقتة والشهرة فيها نسيان ، فما الذي يمكن أن يهدينا خلال هذه الحياة ؟ إنه شيء واحد لا غير هو : الفلسفة ، ينبغي أن تظهر أرواحنا ، نسمح باللذة أو الألم ، لا نعمل دون أن نفكر ، ولا نعمل بغير إخلاص ،،، وأن نقبل ما يحدث لنا برضاء ، نواجه الموت بهدوء ونتقبله ببساطة ،،، إنه قانون الطبيعة ، وقانون الطبيعة لا يخطئ أبداً " . [1]

وهكذا نلاحظ أن التفكير الفلسفي والتراث الثقافي اليوناني ، شكل علامات مميزة وواضحة للحضارة اليونانية ، فاصطبغت بالصبغة الفلسفية ، الأخلاقية ، بالإضافة إلى النزعة التجريدية والتصورية في المعرفة والوجود ، والتطلع إلى عالم الماهيات والصور والمعاني والمثل عند سقراط وأفلاطون ثم الجمع بين النظر والعمل والفن ، أو بين الوجود الطبيعي والميتافيزيقي فيما بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل عند أرسطو ، بالإضافة إلى ذلك ، فقد اصطبغت الحضارة اليونانية بالصبغة الجمالية فالفلسفة الجمالية ، والأخلاقية ، والمعرفية من أهم الخصائص والسمات الجوهرية والروحية للحضارة اليونانية ، وتمشياً مع هذا نجد أن الهدف الحقيقي لفلسفة الفن والجمال اليونانية هو تمثيل الشخصية ، والمثل العليا للإنسان [2] لقد فاق تقديس اليونان وعبر عن ذلك فلاسفتهم للفن والجمال ومظاهرهما الخالدة في الوجود والطبيعة ، درجة كبيرة دفعتهم للتطلع إلى عالم الجمال الخالد بالذات ، عالم الخير

١- أرنولد توينبي " الفكر التاريخي عند الإغريق " ، صـ١٨٧ .
٢- دكتور فؤاد زكريا " دراسة لجمهورية أفلاطون " صـ١٤ ط دار القلم بيروت ١٩٦٧ م .

الأقصى ، مثال الجمال المطلق ،ومن خلال هذا تبلورت فلسفة الحضارة اليونانية والتي انصبت في معظمها على الإنسان وفكرة الإنسانية .

وإذا كانت هناك نظرة قومية أو إقليمية محضة ، ترى أن كل إنجازات الحضارة اليونانية وأوجه النشاط الاجتماعي ، أضيق من داخل بلاد اليونان فحسب ، بدون أن يحدث أي نوع من التأثير بمؤثرات حضارية جاءت من مناطق أخرى مجاورة [1] فإن مثل هذا الرأي لا يثبت إتمام التحقيق الدراسي والبحث العلمي الدقيق ، فليس هناك نقاءً خالصاً لأي فكر فلسفي أو حضاري ، لأن عوامل التأثير والتأثر بين الحضارات لابد أن يكون قائماً ، وكما أشرنا منذ بداية هذا البحث ، إذ ليست الحضارة ، والثقافة اليونانية (الهللينية والهللينستية) بعيدة عن المؤثرات المصرية ، والشرقية القديمة لعوامل الالتقاء والاحتكاك الحضاري ، المستمر ، إذ أننا يجب أن نعترف بأن الحركة التاريخية والتيارات الحضارية لا تعرف الحدود والجغرافية ، سواء كانت قومية أو جغرافية قارية ، فلم تكن حضارة اليونان والإغريق ببعيدة عن حدود القارتين الأسيوية ، والإغريقية .

* : توافرت الخصائص والعناصر والمقومات الثقافية لنشأة وظهور الحضارة العربية والإسلامية في العصور الوسطى ، من حيث الحدود والمعالم الجغرافية والأرض ، والشعوب ومجموعة السكان ، فقد شغلت الدولة العربية الإسلامية حدداً مترامية الأطراف ، محددة المعالم من حدود الصين وأرمينيا ووسط أسيا الصغرى شرقاً وشمالاً ، حتى شمال إفريقيا والأندلس غرباً ، بعد الفتوحات الإسلامية والعربية المظفرة ، وانتشار العقيدة الإسلامية واعتناق معظم الشعوب للدين الإسلامي عقيدة التوحيد الإلهي المطلق ، واستظلت هذه الشعوب بظل السماحة الإسلامية في حرية الفكر والعقيدة ، واحترام حرية وملكية الأفراد ، ووضع الأصول التشريعية والقوانين التي تكفل لكل مواطن حرية العدالة والمساواة ، والاعتدال والوسطية في كل شيء ، بالإضافة إلى المقومات الثقافية والعلمية ، وإنشاء المدارس العلمية ودور الكتب والعباذات ـ فضلاً عن وضع مناهج البحث العلمي وترجمة الكتب والمصادر العلمية والفلسفية في مختلف العلوم والثقافات دون تمييز فأخذت الثقافة العربية والإسلامية تراث السابقين وحضارات الأمم الأخرى مأخذ الجد في البحث والدراسة

---

[1] - دكتور لطفي عبد الوهاب " اليونان (مقدمة في التاريخ الحضاري) صـ ٢٤ ـ ٢٥ .

والهضم والاستيعاب ، وأثمر ذلك عن ظهور علوم ومذاهب فكرية وفلسفية وعلمية [1] متجانسة تعبر عن روح الثقافة الحضارية الإسلامية .

يضاف إلى ذلك من ضمن المقومات والعناصر الحضارية التي توافرت في الدولة الإسلامية العربية النظم والتنظيمات السياسية والاجتماعية والإدارية ، وطرق التنسيق والتوافق المترابط بين جزئيات الدولة وإحكام السيطرة على مبادئ البيعة والشورى أثره العميق في حسن النظام العام وتكوين المذاهب الفلسفية والأصولية الكلامية والفقهية الأثر العميق في دراسة الثقافات المختلفة والتمييز بينها والأخذ منها بقدر ما تسمح به أصول العقيدة الإسلامية وترك ما لا يفيد مع الحفاظ على حقوق الآخرين ، وهذا الدليل واضح على تقبل الآخر ، دون نقص منه أو انتقاص ، فالمذاهب الفلسفية نقلت وتأثرت بتراث اليونان الفلسفي متمثلا عند الفلاسفة الإسلاميين كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي ، وجماعات أخوان الصفاء وابن رشد وابن باجة وابن طفيل بالمغرب العرب ، بالإضافة إلى مدارس الصوفية وفلاسفتهم ، فضلاً عن مذاهب الشيعة ، رغم توافر هذه المذاهب على دراسة قضايا الفكر الإسلامي ، إلا أن هذه المذاهب لم تغفل الاستفادة والتأثر بالتراث الثقافي الآخر ، بما يحترم أصول العقيدة وتطوير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية الإسلامية .

ومعنى ذلك أن فلسفة الحضارة الإسلامية والعربية تقوم على تقبل ثقافة الآخر في إطار من الحوار الفكري والتوازن الحضاري . [2]

وهكذا كان ذلك قد تجلى ي مجال العلوم الإسلامية الطبيعية والثقافات الإسلامية في محيط المذاهب الفلسفية والكلامية والأصولية ، فإن جوهر الحضارة الإسلامية تتضح معالمه أكثر في مجال علوم أصول افلقه والتصوف ، غذ اصطبغت معالم حضارة العربي والإسلامي بالصبغة العلمية والعملية والدينية الروحية الصوفية إلى جانب القيم الخلقية .

فقد اكتشف المسلمون منطق الحد والتعريف وأقاموا مناهجهم الأصولية والفقهية على القضية الجزئية والفروض العلمية ، دون الخوض في فروض نظرية أو خيالية صورية لا تؤدي إلى جديد [3] مخالفين المنطق الصوري الأرسطي ، الأمر الذي مكنهم من إيجاد وسئل في البحث والقياس تفضي إلى حقائق ثابتة لا يترق إليها الشك فاكتشفوا القياس لفقهي الذي

---

[1] لمن يريد المزيد من الدراسات والبحوث في مجال التراث الثقافي والحضاري العربي والإسلامي فليرجع إلى دكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي - جـ ١ حتى جـ ٤ .

[2] للمزيد من البحث والدراسة : دكتور محمد محمود أبو قحف - مذاهب التفكير العلمي والفلسفي في الفكر العربي الحديث - صـ ٣٩ وما بعدها - ط دار الحضارة للطباعة بطنطا ٢٠٠١ م .

[3] للمزيد : دكتور سامي النشار - مناهج البحث عند مفكري الإسلام - ط دار لمعارف - ١٩٧٨ م .

يقوم على : قياس الغائب على الشاهد أو الأشباه بالنظائر ، أو الأمثال بالأمثال ، وعرفوا أهمية العلة والتعليل في تحديد حدود التحليل والتجريم في قضايا أو مشكلات أو مسائل لم يرد بشأنها نص صريح في الكتاب أو السنة ، وأكدا على أربعة مسائل أو خطوات هامة هي : الأصل ، والفرع ، والعلة ثم الحكم .

وإذا كان ذلك يشير إلى منطق وفلسفة الحضارة الإسلامية فإن الجانب القيمي والأخلاقي ، ليس ببعيد على تمثل روح الحضارة والثقافة الإسلامية كذلك .

فتراث الإسلام الثقافي والحضاري يضع لنا وقفة فيها التسامح وفيها العدل والاعتدال والمساواة ، وفيها تدرج القيم الأخلاقية من الأعلى للادنى ، في إطار الاعتدال والوسطية ، وتتمثل هذه الفكرة الكشف عن فلسفة الحضارة الإسلامية ، ونعطي مثلا على ذلك فنقول " إذا كان محور المواجهة بين الإنسان وما يحيط به من أمور طبيعية أو إنسانية عند فلاسفة أوربا هو (العالم) فإن محور المواجهة عند المفكرين الإسلاميين والعرب هو (الأخلاق) والأخلاق هنا تعني أخلاقية (الفعل) ، فبعد أن كانت الأخلاقية مقصورة على مجرد النية أو (الضمير) فقط ، فإن أخلاقية الفعل الإسلامية تهتم بنقل الفعل من مجرد النية أو الضمير إلى الفعل ، فتجعل من الفرد الإنساني فرداً ممتازاً ومواطناً صالحاً نافعاً في الواقع وللجماعة . [1]

إذن فمجموعة القيم الإسلامية سلوكية ، تشكل وحدة واحدة ، لا تباين بينها ، وليس بعضها أفضل من البعض ، نسق واحد مترابط ، وهذا يمثل روح وفلسفة الحضارة الإسلامية ، والتي تدعو الفرد إلى المشاركة مع الجماعة ، وتذم العزلة ، والحث على الإتقان والإخلاص في العمل .

وجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية لم تترك جوانب التأصيل الفني والجمالي ، فالثقافي العربية والإسلامية اصطبغت بالجماليات في فنون الأدب والشعر والنثر الفني ، والتصوف الأخلاقي ، إلى جانب فنون العمارة بأشكالها المختلفة ، وقد ظهرت روح الثقافة الحضارية والدينية والروحية الإسلامية على الطابع الفني والجمالي في العمارة والتشييد والمباني المختلفة ، والتي يغلب عليها الطابع الديني ، والقيمي الأخلاقي ، إذ أن ذلك نوع من التجسيد الحي ولمعبر عن روح الثقافة الحضارية الذي يدوم ويظل قائماً عصوراً وأجيالاً

[1] دكتور زكي نجيب محمود - نافذة على فلسفة العصر - صـ ٥٧ ط مجلة العربي العدد (٢٧) عام ١٩٩٠ م .

متعاقبة مهما تغيرت الظروف والأحوال . بل يستطيع المفكر والمؤرخ أن يستلهم من النقوش المعمارية والفنون معالم وقراءات الحضارة . [1]

* وجدير بالذكر أن أنواع الفنون - والتي تبدو واضحة وظاهرة تعتبر تجسيداً حياً للروح والمظاهر الحضارية للشعوب والأمم المختلفة ، وتعكس للأجيال اللاحقة جوهر الروح الحضارية ، ولم يكن للباحثين والمفكرين طريق للتعرف على حضارات السابقين لو لم تتوفر لديهم ما تركته هذه الحضارات من ثقافة حية متجسدة على جدران المعابد ، ودور العبادات والقصور والتماثيل والرسومات المعبرة ، فالفنون تحكي تاريخ الإنسان خلال مئات الآلاف من السنين . فيستطيع الباحث أن يستقرئ من خلال الفنون مجموعة المعتقدات ، والمعارف ، والعادات والطقوس الدينية والاجتماعية ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية ، والنظم والتنظيمات وأنواع المعيشة ، والعلاقات المختلفة بين الأفراد وبين الحكام والملوك . فالأشكال والصور والرموز تشكل لغة عالمية ، تكشف عن حضارات الإنسانية في مختلف البلدان ، وينسحب ذلك على العصور القديمة ، كما ينسحب كذلك على العصور الوسطى وعصر النهضة حتى العصر الحديث . [2]

ثالثاً : الفلسفة وجوهر الحضارة ومستقبلها : -

الفلسفة هنا لا نقصد بها التعريف اللفظي أو الغوي المعروف وهي " محبة الحكمة " فيلو : محبة ، وصوفيا : الحكمة ، ولكن المقصود هنا أن الفلسفة تعني معرفة حقائق الأشياء وطبائعها ، وينسحب هذا التعريف على الفكر ، وعمق التفكير ، وما يصاحبه من أنواع أو خطوات التحليل والنقد والتركيب ، ونزعة الجدل بين الشيء ونقيضه بغية الوصول إلى نتائج وأفكار تعبر عن بلورة الأفكار ووضوحها ، واستلهام الحقائق ، والتمييز بين ما هو حقيقي ، وما هو غير ذلك ، أو بين الصواب والخطأ ، والتطلع إلى ما هو مطلق ، ويقين . ثم اصطناع الشك لتصحيح الفكر ، والذي يؤدي إلى الوثوق فيما توصل العقل إليه من حقائق ، دون إسفاف أو إيهام .

---

[1] للمزيد من البحث والدراسة أنظر :
(أ) دكتورة راوية عبد المنعم - القيم الجمالية - ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية - ١٩٨٧ م .
(ب) دكتور محمد علي أبو ريان - دراسات في الفن والجمال - ط دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧ م .
(جـ) ديموند - الفنون الإسلامية - ترجمة أحمد عيسى ، الدكتور أحمد فكري - ط دار المعارف ١٩٥٣ م ، كذلك الغزالي - الحكم في مخلوقات الله تعالى - ط الجندي ١٩٧٢ .

[2] للمزيد من التفاصيل : دكتور عبد العزيز أحمد جودة - تاريخ الفنون - ط دار فنون الطباعة - القاهرة بدون تاريخ .

هكذا فكانت الفلسفة عند اليونان ، منذ أن وضع فلاسفة اليونان أصل الحكمة ، وتسميتها منذ فيثاغورث ، ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، بغض النظر عن بعض الاتجاهات المتناقضة عند الشكاك والماديين .

وسوف يتضح لنا ـ بناءً على هذا التقديم ـ أن الصلة الوثيقة بين الفلسفة ، والتفكير العقلي الفلسفي وبين الحضارة وجوهرها أمر لا يمكن الشك فيه على مر العصور وفي نطاق المذاهب الفلسفية ، في مختلف الحضارات الشرقية واليونانية الغربية والإسلامية والعربية والحديثة أو عصر النهضة والحدثية .

وربما وجه بعض الباحثين في فلسفة الحضارة الكثير من النقد واللوم إلى الفلسفة لتقاعسها في بعض الأحيان أو لدى بعض المذاهب والعصور عن النهوض بواجباتها تجاه الحضارة الإنسانية ، نظراً لحدوث بعض الظواهر الخارجية عن نطاق الفكر الفلسفي .

وقد رأى فلاسفة الحضارة ، ضرورة التلاحم والمساهمة بين الفلسفة والحضارة . وذلك لأهمية التفكير الفلسفي في توجيه عناصر الحضارة وتقويم مساراتها المختلفة نحو السلوكيات والأخلاقيات القيمية ، بما يفيد في دفع عجلة الحضارة ، وتنمية مستقبلها لما فيه خير الإنسانية ، والبحث في جوهر الحضارة ، وإظهار ذلك في حياة الشعوب .

وفي هذا الصدد يذهب ألبرت أشفيتسر Albert Shveitzer في كتابه عن فلسفة الحضارة The philosophy of civilization ، لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة ، فقد ظهر عدد من المؤلفات في الحضارة والحضارات ، ولم تفلح في إيضاح الأحوال الراهنة في حياتنا العقلية ، لكنها اقتصرت على التأريخ لأصول الحضارة ، وعناصرها فقط ، فرسمت خريطة لمساراتها عبر التاريخ ، فقدمت نتاجاً عضوياً من نشاط القوى الروحية والاجتماعية . لكن لم تقدم مضمون حياتنا الروحية ، واستقصائها ، ولم تمتحن الدراسات والمؤلفات التاريخية الحضارية التي قام بها بعض المؤلفين ـ القيم من ناحية نيل أفكارها وقدرتها على إيجاد تقدم حقيقي ، لقد تداعت وانهارت التفاهمات والتعاونيات المتبادلة بين المثل الأخلاقية وبين الحقيقة الواقعية ، خلال القرن التاسع عشر ، ثم اختفت نهائيات في غضون القرن العشرين [1] ويرجع أشفيتسر هذا

[1] يقصد اشفيتسر بذلك ما حدث من حروب في بداية القرن العشرين وأهمها الحرب العالمية الأولى ، وهزيمة ألمانيا .

التراجع والتداعي بين المثل الأخلاقية والواقع وحقائقه إلى " انصراف الفلسفة عن القيام بواجباتها " [1] .

إن عصر الكشف والمذهب العقلي قد وضع مثلاً أخلاقية تستند إلى العقل ، وتتعلق بنما الإنسان الفرد إلى الرجولة الحقة ، وبمكانته في المجتمع وبالمشاكل المادية والروحية الناشئة عن المجتمع ، وبالعلاقات القائمة بين الأمم المختلفة ، وما يتطلب ذلك من قيام إنسانية تتحد في سعيها إلى الأهداف الروحية والأخلاقية العليا . هذه المثل بدأت في الفلسفة والتفكير العام بالاتصال بالواقع وتغيير البيئة العامة . حدث هذا بالنسبة للأجيال الماضية ، مما جعل الناس يعتقدون أن عصر الحضارة الحقيقية قد أشرق فجره على العالم ، وأن التطور سيمضي قدماً إلى الأمام من غير توقف .

لقد كانت الفلسفة هي التي تقود الفكر أو تقود الأفكار ، وترشدنا خلال القرن الثامن عشر ، كانت تهتم بالمسائل التي تتبدى للإنسان في كل فترة ، وتحمل فكر الإنسان المتمدين على إدامة النظر فيها ، كانت الفلسفة ، تتضمن في داخلها تفلسفاً أولياً عن الإنسان والمجتمع والجنس والإنسانية والحضارة أنتج بطريقة طبيعية نوعاً من الحماسة للحضارة . [2]

إن قيمة الفلسفة هي أن تقاس بقدرتها أو عجزها عن أن تتحول بنفسها إلى فلسفة حية للشعب ، كل ما هو عميق هو أيضا بسيط ، ويمكن إنتاجه على هذا النحو إذا أحتفظ بعلاقته بكل الحقيقة ، لقد كان لدى الفلاسفة أو الفلسفة الفروض المتعلقة بنظرية الكون ، لكن لم يكن لدى هذه الفلسفة غذاء لتسكن غائلة الجوع الروحي في العصر الحديث ، ولم يكن ذنب الفلسفة أن الفكر المجرد لم يفلح في بناء نظرية في الكون ذات طابع متفائل أخلاقي ، على أساسها تقوم المثل التي تنشئ الحضارة ، إنما أذنبت الفلسفة في حق هذا العصر (الحاضر) بعدم اعترافها بهذه الواقعة (وهي عدم القدرة على بناء نظرية الكون ذات طابع أخلاقي ومثالي متفائل) ، بل وإصرارها على أوهامها ، وكأن في ذلك ما يعين على تقدم الحضارة [3] أي باعتمادها على الجانب المادي فقط دون سند من الروح الأخلاقي المتفائل ، والاعتقاد أن التقدم المادي يوفر للحضارة الازدهار وتحقيق مطالب الشعوب وحاجاتها وسعادتهم المادية ، بغض النظر عن السعادة الروحية والأخلاقية .

---

[1] اشفيتسر - فلسفة الحضارة - صـ ١٢ ، ١٣ .
[2] - المصدر السابق - صـ١٣ .
[3] - المصدر السابق ، صـ١٨ .

فالحضارة الحديثة والمعاصرة إذن ، أصبحت في أزمة ، ومن ثم فهي في حاجة إلى حل ، والبحث عن حلول غير تقليدية تستعين بها في التغلب على ما تعانيه هذه الحضارة من خلل وعدم اتزان واضطراب في التوازن بين المادة والروح أو بين المادة والمثل الأخلاقية العليا ، ويذهب أشفيتسر إلى أن أسباب ذلك أمور كثيرة أهمها تخلي الفلسفة أو ابتعاد التفكير الفلسفي عن الخوض في جوهر المثل العليا لمعنى ومدلول الحضارة المتمثل في القيم الأخلاقية . لذلك يقول " تفلسفت الفلسفة في كل شيء إلا الحضارة ، مضت قدماً إلى إقامة نظرية في الكون ، وكأنها بهذه النظرية تستطيع أن تعيد بناء كل شيء ، ولم تدرك أن هذه النظرية ، حتى ولو كانت كاملة ، سوف تبني خارج التاريخ والعلم تبعاً لهذا ستكون غير متفائلة وغير أخلاقية ، وستظل نظرية عاجزة في الكون ، ولن تقوى على بعث القوى الضرورية لوضع وتمكين مثل الحضارة .

أن الفلسفة لم تتفلسف في الحضارة إلا قليلاً ، ولم تلحظ الفلسفة أنها هي والعصر الذي نعيش فيه يفقدانها شيئاً فشيئاً ، إن الحارس (أي الفلسفة) الذي كان عليه أن يظل ساهراً ويقظاً في ساعة الخطر ، كان هو نفسه نائماً ، وكانت نتيجة هذا أننا لم نناضل من أجل حضارتنا . [1]

فالفلسفة إذن عليها مهمة كبرى لحل أو إيجاد حلول لهذه الأزمة التي تعاني منها الحضارة المعاصرة ، وقد ذهب إلى ذلك بالإضافة إلى ألبرت أشفيتسر فلاسفة آخرون منهم ، وليم أرنست هوكنج W , E , Hocking وهو فيلسوف أمريكي (١٨٧٣) ، صاحب فلسفة " مثالية موضوعية " تقوم في ظل الوعي المباشر بوجود عقل آخر ، وترتبط فيها المشاعر بالأفكار في وحدة الشعور (الفكر) تمثل نغمة صوفية قويه ، وفلسفته لا تهمل دور العقل في تصحيح الحدس ، فقد شارك هوكنج الفلاسفة الذين بحثوا عن علاج لأزمة الحضارة المعاصرة ، ورأي أن العلاج يتمثل في البحث عن (حضارة عالمية واحدة) تكون دعامتها وأساسها (الدين) . [2]

ولما كانت الحضارة عند هوكنج تعني " تأثير الأفكار في نماذج الحياة الاجتماعية ، وعلى ذلك فإن مهمة الفلسفة ووظيفتها ، الحكم على ، الحضارة بوصفها جزءً من معرفتنا للإنسان ، ماذا تعني ؟

---

[1]- المصدر السابق - صـ١٩ .
[2]- دكتور محمود سيد أحمد " الحضارة والدين عند هوكنج " ط دار الحضارة بطنطا - ١٩٩٤ م .
كذلك . Hocking , preface to philosophy , P , ١٨ , Macmillan oomp , ١٩٤٦

وما الذي أنجزنا ؟ ويجب على الفلسفة أن تساهم مساهمة فعلية في صناعة الحضارة . [١]

* : وإذا كان ذلك كذلك ، فإن أشفيتسر يشير إلى أن " المهمة الكبرى للفلسفة هي أن تكون دليلاً للعقل العام ، وحارساً ، ومن واجبها أن تعترف في ظروف هذا العصر بأن المثل الأخلاقية ، لم تعد تسندها نظرية عامة في الكون ، بل هي متروكة لأنفسها ، وعليها أن تشق طريقها في العالم بقوتها الذاتية ، ينبغي على الفلسفة أن تبين للعالم أننا نكافح من أجل المثل الأخلاقية التي تقوم ويجب أن تقوم عليها الحضارة ، وتحاول أن تجعل لهذه المثل وجوداً مستقلاً بفضل قيمتها الذاتية ، وبالتالي تحفظ قيمتها الذاتية وحقيقتها الباطنية ، وتحفظ للحضارة حياتها ونشاطها وتوجه نظر المفكرين والمثقفين كذلك إلى ضرورة الاهتمام بمشكلة الحضارة . [٢]

وإن كان فلاسفة الحضارة - كما أشرنا - قد اتجهوا إلى محاولة إيجاد حلول لأزمة الحضارة ، وكما أشار أشفيتسر إلى الفلسفة ، لما توفره من قيم ومثل أخلاقية عليا هي جوهر الحضارة المنشودة ، فإن فلاسفة آخرين ذهبوا إلى الإعلان على بعض هذه الحلول أيضا ، ومنها ضرورة الاتجاه نحو حضارة عالمية واحدة ، تكون قوامها الدولة والكنيسة(أو الدين) ، حيث أن كل واحدة منهما تتعهد بطريقتها لإشباع حاجات الطبيعة الإنسانية ، وإن كان فيلسوف الحضارة الأمريكي هوكنج لا يرى أن ذلك كافياً .

* : فالدولة : يحتاج إليها جميع الناس ، وتضفي على الفرد ذاته ووجوده الكامل كما أن الدولة تهذب الطبيعة الإنسانية ، ولديها القدرة على أن تجعل الإنسان متحضراً ، وموجوداً أخلاقياً بإعادة تشكيله وتدريبه ، فهيجل Hegel مثلاً يذهب إلى أن قيمة الإنسان الحقيقية والروحية تأتي إليه عن طريق الدولة ، لأنها تهيئ للإنسان الإرادة العامة ، والتي يجد بها إرادته الخاصة فهي فكرة مقدسة على الأرض ،كذلك فإن الدولة في تصور هيجل تضفي على الفرد والإنسان حق المواطن الحر ، بل هي فكرة الرّوح في التعبير الخارجي للإرادة الإنسانية وحريتها ، أما هوكنج فإنه رأي أن الدولة لها إسهامات لا بأس بها تحقق بعض النجاح في مجالات التعليم وحماية الصغار والأفراد من الفقر والعناية بكبار السن ، والتشريع والقوانين .. الخ ، لكن على الرغم من ذلك فإن الدولة لا تحقق الطلب المنشود في تحقيق الحضارة ، إلا إذا توافر فيها ما يطلق عليه اسم " الديالكتيك التجريبي " وهو عملية تمكننا من فهم العالم لا وصفه فقط ، ففهم العالم يتطلب الأجزاء في علاقة بمعنى الكل ، ثم يشير

---

[١] . المصدر السابق ، صـ٨ .

[٢] . ألبرت أشفيتسر " فلسفة الحضارة " صـ١٨ ، صـ١٩ .

هوكنج إلى مجلات تعجز الدولة في تحقيقها أو عدم كفايتها مثل : الحرية والتعليم ، فالدولة : تعالج الجريمة والعنف والفساد بالقوانين والمؤسسات المحكمة ، وبالسجون ، فهي تطبق العقوبات فقط ، ولا تستطيع أن تعاقب ، فالإنسان الخير والفاضل وحده هو الذي ليعاقب ، وهو الذي يشعر بعدالة العقاب ، أما الآخرين فإن العقاب لا يغير قلوبهم ، أما التعليم ، فإن الدولة الحديثة تقوم ببناء المدارس وتوفير المدرسين أو المعلمين ولكن مع هذا فإن الدولة لا تعلم ، لأن التعليم يعتمد على الصفات الشخصية وتهذيب السلوك والإرادة ، وهذا يقوم به المعلمون ، أنفسهم ، فهل تستطيع الدولة أن تقرر بأن للمدرسين أو المعلمين روحاً ؟ [1] ومن ثم لا تُعلِم .

ثم يشير هوكنج أيضاً إلى قصور الدولة في (القانون) صحيح تضع الدولة وتسن القوانين يهدف حماية حقوق الإنسان ، لكنها تستطيع تقدم قانون للحقوق المشروعة التي تفترض (إرادة خيره) فوجود هذه الإرادة الخيرة شرط أساسي لكل حق ، فلا وجود للملكية أو حق الملكية وحق الحرية ، وحق الحياة ذاتها ما لم توجد إرادة خيرة " [2] وينسحب هذا أيضا في بعض المجالات الأخرى يشير إليها هوكنج ، كالأسرة والاقتصاد . [3]

* : أما الدين ، أو الكنيسة : فإنها مصدر من مصادر تدريب الذات الإنسانية وهي تقدم للإنسان وجهة نظر أكثر كمالاً عن مصيره ، وعن نفسه وعن حياته ، وليس المقصود بالكنيسة هو الدين ، بل المقصود جماعة دينية أو مؤسسة دينية تتحدث للإنسان داخل العالم كله ، وليس أمة بعينها ، أنها تعمل لإيجاد وحدة أخلاقيّة بين الناس - لتحقيق التآخي السيكولوجي ، فالسلام والنظام يجب أن ترتكز أعلى تبادل الشعور ، قبل أن يرتكز على قوانين ، لذلك يجب على الدولة أن تسمح لهذه المؤسسة أن تقوم بممارسة حرية الدين ، لأن الدين يؤدي وظيفته الخاصة بتكامل الإرادة الإنسانية . [4]

وقد ذهب أشفيتسر مثل هوكنج إلى اعتبار الكنيسة والدولة لهما أهمية كبيرة في تشكيل الجانب الحضاري ، لاعتبارهما كيانان ضروريان ، لكن الدولة الحديثة ، قد تعاني من الفقر الروحي الأمر الذي يجعلها تقع تحت وطأة التمزقات السياسية والمنازعات الاقتصادية ، كما أن الكنيسة لكي تؤدي واجبها يجب أن تجمع الناس على تقوى فطرية

---

[1]- دكتور محمود سيد أحمد " الحضارة والدين عند هوكنج " - صـ١٩ ، ٢١ .
[2]- المصدر السابق - صـ٢٤ .
[3]- للمزيد - المصدر السابق - صـ٢٢ ، صـ٢٣ .
[4] - Hocking the World coming civilizetion ,P, ٤٥ , ٤٦ ,New yaurk , ١٩٥٦ . المصدر السابق - صـ٢٤ ، كذلك

أخلاقية ، حافلة بالأفكار ، وإن لم يتحقق حتى الآن إلا على نحو ناقص ، والدليل على ذلك إخفاق الكنيسة في أثناء الحرب العالمية الأولى ، ويرى أشفيتسر أنه كان واجباً عليها أن تخرج الناس من صراع الانفعالات القومية إلى التفكير وأن تسهر على بقائهم في مستوى المثل العليا ، وقد عجزت عن ذلك ولم تقم بمحاولة جدية في هذا السبيل ، إنها تاريخية حقاً ، ومنظمة حقاً ، ضئيلة الحظ من النظام الديني المباشر ، فانهارت أمام روح العصر ، وخلطت بالدين عقائد التعصب القومي البرجماتية .[1]

*: وإذا كانت الكنيسة قد أخفقت في أن تكون دعامة أساسية وقوية للحضارة العالمية الواحدة عند هوكنج ، فإن الدين هو الدعامة التي تحقق ذلك ، وكذلك يذهب أرنولد توينبي إذ يرى أن الدولة إن لم تشبع حاجات الناس الروحية فإنه يجب أن تنتقل الأهداف إلى مملكة الله لأن الدين هو أساس المجتمع العالمي الجديد .[2] ويقصد به الدين المسيحي ، إلا أن هوكنج من ناحية أخرى يشير إلى أن " الحداثة " قد وضعت عقبات أساسية وجديدة في وجه الدين ، الأمر الذي يؤدي أو أدى إلى ظهور مضايقات جديدة أمام الحضارة المعاصرة ومنها : الذاتية والموضوعية المفترضة في المنهج العلمي ... الخ[3] وقد انتهى فلاسفة الحضارة إلى أن مستقبلها مرهون بما تقوم عليه من دعائم وأسس أخلاقية ومثل قيميه ودينية وعدم الاعتزاز بما قدمته الحضارة من تفوق جادي تكنولوجي فقط .[4]

رابعاً : دراسات تحليلية في فلسفة الحضارة :-

اتجه عدد كبير من المفكرين والفلاسفة إلى تناول أصول الحضارات الإنسانية ، وتحليل عناصرها ومكوناتها المختلفة - المادية والثقافية ، وفي مجالات اللغة ، والآداب والشعر والفنون والآداب والعلوم الطبيعية والإنسانية ، في السياسة والتاريخ والاجتماع بالإضافة إلى تحليل التراث الثقافي بمختلف الاتجاهات ، قديماً عند الشرقيين والعصور الوسطى واليونان وعصر النهضة والعصر الحديث والمعاصر ، وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء بما سبق من دراسات وبحوث من أمثال أرنولد توينبي ، وهوكنج ، وهيجل ، وألبرت أشفيتسر ، أشبنجلر ، ونيتشه ، بالإضافة إلى بعض المفكرين العرب في نهاية العصور

---

[1] - البرت أشفيتسر " فلسفة الحضارة " - صـ٤١٥ .
[2] - نيفين علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " - صـ٥٤ ، صـ٥٥ .
[3] - دكتور محمود سيد أحمد " الحضارة والدين عند هوكنج " - صـ٢٦ وما بعدها .
[4] - للمزيد في ذلك : المصدر السابق - صـ٥ ، كذلك أشفيتسر " فلسفة الحضارة " أماكن متفرقة ، أشبنجلر " تدهور الغرب " ، دكتورة نيفين علم الدين فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي صـ٥٥ وأماكن متفرقة ، دكتور محمود سيد أحمد " الحضارة والدين عند هوكنج " صـ٥ وما بعدها .

الوسطى وهو عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب كتاب (المقدمة) ، وقد اتضح لنا من خلال هذه الدراسات أن الباحثين والمفكرين قد ينقسمون إلى فريقين ، مختلفين في تحليل وتعليل أسباب الحضارة وتداعيها ، وأدوارها بين الازدهار والكبوة أو الانهيار ، ويكفي أن تشير إلى أن كل من أشبنجلر ، ونيتشه بالإضافة إلى أشفيتسر قد نظروا نظرة متشائمة إلى حد كبير إلى خط سير الحضارة الحديثة ، والمعاصرة ، وأن هذه الحضارة إن ظلت بهذه الطريقة ، وفقدان المثل الأخلاقية ، والعمق الباطني الذاتي ، فإنها إلى تدهور وزوال في المستقبل ما لم تعدل مسارها ولا تغتر بما حققته من نتائج وتطورات مذهلة في الجوانب المادية والتقدم التكنولوجي والذي طغى على السطح فأدى إلى غياب وطمس المثل والأخلاقيات والقيم العامة والمطلقة ، اعتماداً بأن المادة وتحقيق رفاهية الإنسان وإشباع ملذاته المادية هي كل شيء ، غافلته عن الجانب الذاتي والغذاء الروحي الباطني والأخلاقي والإيماني المطلق بالغيب والله عز وجل .

*: ويكفي أن نشير إلى أن أشفيشر قد أشار إلى أننا نعيش في ظل انهيار الحضارة ، بينما ذهب أشبنجلر (في كتابه تدهور الغرب) أن الحضارة تدخل الآن مرحلة التداعي ، وقد حكم عليها بالموت والدمار ، بينما أعلن نيتشه ، أن الحضارة تسير إلى الهاوية . "[1]

*: ومع علمنا بأن هناك عدد من الباحثين ، قد توافر وأعلى دراسة الحضارة وفلسفتها من المحدثين والمعاصرين ، فإننا نقتصر هنا على تناول كتاب " فلسفة الحضارة " لألبرت أشفيتسر ، وسوف تشير خلال تتبعنا لدراسات التحليلية إلى كتابات وبحوث المفكرين أو الفلاسفة الآخرين بقدر ما تتاح لنا فرصة ذلك .

*: لقد أهتم ألبرت اشفيتسر ، منذ عام ١٩٠٠ ـ وحتى عام ١٩١٧ وما بعدها ، بدراسة وتحليل عناصر الحضارة الإنسانية ومكوناتها المختلفة ، وتلك الأسس والدعائم التي قامت أو تقوم عليها وتطورها ، عبر العصور المختلفة من العصور اليونانية الهللينية والهللينستية ، وعصور الحضارات الصينية والهندية والمصرية ، وحتى العصور الوسطى ، وعصر النهضة ثم العصر الحديث ، والمعاصر ، موضحاً ازدهار الحضارة أحياناً وكونها وانهيارها مرات كثيرة وبصفة خاصة في العصر الحديث والفترة المعاصرة لأسباب وعوامل جوهرية وهي انهيار العناصر المثالية ، والقيم العليا والأخلاقيات ، والاعتقاد بما

---

[1] ـ المصدر السابق ـ ص٥ ،كذلك دكتورة نيفين علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " أماكن متفرقة .

حققته الحضارة من طفرات علمية تكنولوجية حديثة دون التركيز على الأخلاقيات والمثل والدين .

وقد أشتغل أشفيتسر Alberts chivetzer في فترة حياته طبيباً وجراحاً ، عنده من الروح العصرية ، ما جعله قادراً على تقدير واستيعاب روح العصر الحديث وما أحرزه من تقدم في النواحي الصناعية والمادية ، وشاهد من قرب الحرب العالمية الأولى ، وهزيمة ألمانيا وما لحق بالبشرية من دمار شامل ، وتدهور أخلاقي ، وغياب الضمير العالمي ، وشاهد كذلك الحياة التراثية والبدائية في أدغال إفريقيا الاستوائية .[1]

ويوضح أشفيتسر في مقدمة دراسته عن فلسفة الحضارة ، أنه نتيجة لانجذابه وتشوقه إلى محاولة دراسة هذا الموضوع ، فقد قسم الدراسة إلى عدد من الأقسام الأولى : يتناول دراسة : انحلال الحضارة وإعادة بنائها ، والثاني : الحضارة والأخلاق ، والثالث : النظرة العلمية في تمجيد الحياة ، والرابع : دراسة الدولة المتحضرة ، أو المتمدينة ، ومعنى هذا أنه قد نتناول دراسة الحضارة منذ بدايتها ودعائمها وانحلالها والتطورات التي مرت بها ثم انهيارها ، ما يمكن أن يوفر لها صفة البقاء أو الازدهار في المستقبل ، وتصور الدعائم التي يمكن أن توفر لها ذلك وهي بلا شك دعائم أخلاقية ، ودينية ، وهويات ذاتية باطنه ، تمثل جماليات تاريخية ، مع مراعاة أسس الضمير الإنساني ، والقيم الروحية ، وهو ما يمثل جوهر الحضارة .

ونحن هنا نتناول بالتحليل والدراسة عناصر كتاب فلسفة الحضارة وأقسامه المختلفة ، لكي يوضح نظره أشفيتسر باعتباره من أكبر وأهم فلاسفة الحضارة في العصر الحديث .

* : سؤال لابد منه منذ البداية : ما الحضارة ؟

أن الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء ، فما مقوماتها ؟ أول مقومات الحضارة ، أنها تقلل الأعباء المفروضة على الأفراد ، والجماهير والناشئة عن الكفاح في الوجود ، وإيجاد الظروف المواتية للجميع في الحياة قدر الإمكان ، مطلب يطلب لنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يطلب من أجل كمال الأفراد روحياً وأخلاقياً ، وهو الغاية القصوى من الحضارة .[2]

أن الحضارة ، معناها بذل الجهود ، بوصفنا كائنات إنسانية ، من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي نوع كان ، في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي ، وهذا

---

[1]- أشفيتسر " مقدمة كتاب " فلسفة الحضارة " - صـ٣ وما بعدها .
[2]- المصدر السابق - صـ٣٤ ، صـ٣٥ .

الموقف العقلي يتضمن استقراراً مزدوجاً ، فيجب أن تكون متأهبين للعمل إيجابياً في العالم والحياة ، كذلك يجب أن تكون أخلاقيين ، ولقد نستطيع ذلك إلا إذا كنا قادرين على أن نهب هذا العالم والحياة معنى حقيقياً ، ونحن لا نعمل من أجل التقدم الروحي العام ، والمادي الذي تسميه حضارة إلا بالقدر الذي به تؤكد أن العالم والحياة كليهما ينطوي على معنى ، وتفكيرنا يكون متفائلاً . (١)

ومما لا شك أن الحضارة تتطلب نوعاً من الكفاح ، والإصرار والعزيمة على إحراز تقدم ، وتطور في الجانبين المادي والروحي والأخلاقي ، إذ أن التقدم في ناحية منها قد لا يفي بالغرض المنشود من الحضارة ، ولأشكال أو الجنوح تجاه الجانب المادي أو التكنولوجي ، والذي لا يستند إلى الروح والعقل والأخلاق نذير شؤم بزوال وتدهور الحضارة المادية ، فالفساد الروحي والأخلاقي مما لا شك يثير نوعاً من الاشمئزاز في النفوس البشرية ، التي تحتكم إلى العرب المعاصرين إلى أهمية هذا التوازن القيمي والأخلاقي ، وبين العلمي والعملي ، وقد تمثل هذا التوازن في الحضارة الإسلامية والعربية . (٢)

وسبق أن أشرنا إلى ما ذهب إليه أشبنجلر في كتابه عن تدهور العرب ، أن عدم التوازن بين الجانبين المادي والثقافي ويقصد بذلك الروحي والأخلاقي أو العقلي الذي يصعد إلى مستوى الضمير والفهم المتميز لمعنى التقدم والحضارة ، قد يسارع بتدهور الحضارات ، والغربية بصفة خاصة . (٣)

ويشير أشفيتسر إلى الكفاح الحضاري في الوجود مزدوج ، فيجب أن يؤكد الإنسان نفسه في الطبيعة وضد الطبيعة ، وكذلك بين إخوانه في الإنسانية وضدهم ، وتحقيق الكفاح يتحقق بتقوية سيادة العقل على الطبيعة الخارجية ، فالطبيعة الإنسانية ، لكي يخدم الأهداف المطلوبة (٤)

*: ولكن ما هو جوهر الحضارة ، وطابعها ومستقبلها ؟

هذا السؤال كذلك يستحق النظر والإجابة عليه .

١- المصدر السابق - صـ٥ .
٢- دكتور زكي نجيب محمود " نافذة على فلسفة العصر " ، صـ٢٠٥ ، صـ٥٧ .
٣- أشبنجلر " تدهور الغرب " أماكن متفرقة .
٤- أشفيتسر " فلسفة الحضارة " صـ٣٥ .

ذهب فلاسفة الحضارة المعاصرين ، إلى أن ماهية الحضارة وجوهرها ـ الحقيقي أنها أخلاقية ، وقد يثير هذا الرأي الدهشة لدى البعض من الذين اعتادوا التعلق بالاعتبارات المادية ، والتاريخية والجمالية ، ومما لا شك أن النزعات التاريخية والجمالية لها أثرها الذي لا يمكن رفضه في الجوانب الفنية للحضارة ، إن طابع الحضارة أخلاقي في أساسه ، وثمة ارتباط بين نظريتنا في الكون وبين الأخلاق مما يفسح المجال لوجود أساس ثابت في الفكر لنظرية في الكون تكون في نفس الوقت أخلاقية ، ومؤكدة للحياة والعالم . (1)

وإذا كانت الحضارة هي التجسيد المادي والمرئي لأمة من الأمم (2) فإن مستقبل الحضارة ليتوقف على تغلبنا على فقدان الأمل والمعنى ، واليأس وهو ما يميز أفكار الناس ومعتقداتهم في هذا العصر ، وكذلك التغلب على حالات اليأس ، ومحاولة تجديد الأمل ، والعزم الفتي ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا اكتشف غالبية الناس لأنفسهم موقفاً أخلاقيا عميقاً وراسخاً يؤكد الدنيا والحياة ، ونظرية في الكون تقوم على العقل والفكر معاً .

وبغير التجربة الروحية لا سبيل إلى المباعدة بين عالمنا ، وبين الانهيار ، فيجب إذن بعث الأمل النضير في الكون والحياة . (3)

ومما لا شك أن الفلسفة تحقق جانباً هاماً من هذه الجوانب الأخلاقية ، والروحية والجمالية ، وشهدت بذلك عصور الفلسفة المزدهرة عند اليونان ، منذ سقراط وأفلاطون وارسطو ، وفي رحاب المدارس الرواقية والفيثاغورية والأفلاطونية المحدثة ، وغابت شمس الحضارة الأخلاقية . وبهذا المعنى في عصور الظلام والاضطهاد الديني والفكري في العصور المتأخرة والعصور الوسطى ، وعندما سادت مراحل الشك المذهبي المقيت والمادية المفرطة واعتبار الغاية تبرر الوسيلة في أخلاقيات الميكافيلية السياسية .

وقد نحا أشفيتسر وغيره من أمثال هوكنج وهيجل باللائمة على الفلسفة (كما سبق الإشارة من قبل) لتخليها عن الحضارة ، والمساهمة في تطورها في عصور مختلفة ، الأمر الذي أفسح المجال للمادية المفرطة ، والبرجماتية النفعية الحديثة والمعاصرة إلى السيطرة ، وضياع القيم وفساد الأخلاقيات وفقدان الروحانية وغياب الضمير الإنساني المطلق ، فأحدث ذلك خللاً حضارياً ، فازدادت أسباب الاضطهاد ونشأت الحروب وكثرت النزعات بين الحضارات والأمم ، وظهر من يبشر بصدام الحضارات .

---

1 المصدر السابق ـ صـ ٣ ـ ٧ .
2 دكتور صلاح قنصوة ـ الغزو الثقافي وحوار الحضارات ـ مجلة المنار ـ عدد (٣١) ـ صـ ١٢١ ، عام ١٩٨٧ م
3 اشفيتسر ـ فلسفة الحضارة ـ صـ ٧ .

لذلك أشار أشفيتسر في هذا النص " إن عصر الكشف والمذهب العقلي وقد وضع مثلا أخلاقية ، تستند إلى العقل ، وتتعلق بنماء الإنسان الفرد إلى مرحل الرجولة ، وبمكانته في المجتمع ، وبالمشاكل المادية والروحية وبالعلاقات القائمة بين الأمم المختلفة ، وما يتطلب ذلك من قيام إنسانية تتحد في الأهداف الروحية والأخلاقية العليا ، وهذه المثل بدأت في الفلسفة والتفكير العام بالاتصال بالواقع وتغيير البيئة " [1] .

* وثمة تعريج بسيط على الحضارة الإسلامية العربية ، ومقارنتها بالحضارات والثقافات الأوربية والغربية الحديثة ، نجد تفوق حضارة الإسلام الروحية والأخلاقية فضلا عن التفكير العقلي الذي يوازن بين مطالب الحياة المادية واكتشافها العلمي وبين إشباع الروح والنفس بالأديان القائمة على العقيدة الإلهية والتوحيد المطلق .

فالحضارة والثقافة الغربية الأوربية ، نجدها تحولت تحولا كبيراً ، إذ تخلصت من المواقف التأملية نحو الطبيعة ، ونزيل عنها كل طابع مقدس لتسيطر عليها وتسخرها لخدمة الفرد ، فأصبحت الطبيعة آلة ضخمة مكتوبة بلغة رياضية تكشف القوانين لسيطرة الفرد عليها ، دون اعتبار للمثل والقيم الأخلاقية ، أما الحضارة والثقافة الإسلامية فقد وجهت نظر الفرد إلى التفكير في الخلق والإيمان بأن الطبيعة من خلق الله تعالى ، وإن الإنسان متميز في الكون بما منحه الله تعالى من عقل وروح وإيمان ، فخصائص الإنسان هي القدرة على النظر والتعقل واكتشاف المعنى الروحي والباطني في أسرار خلق الكون والوجود ، وقد حث القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " سورة الروم الآية (٤٢) . [2]

فكما أن هناك توازن بين المستوى القيمي والأخلاقي وبين المستوى المادي في الثقافة الإسلامية ، حدث هذا التوازن أيضاً بين المستويات النظرية والعلمية والعملية ، فحضرة الإسلام وسطية كما سبق الإشارة ، وهذا ما أشار إليه فلاسفة الحضارة الحديثة ، وضرورة مراعاة الجوانب القيمية والأخلاقية . على اعتبار أن جوهر الحضارة مثل أخلاقية .

وقد أشار بعض الفلاسفة في الحضارة الغربية الأوربية الحديثة إلى كثير من الأمثلة في هذا الصدد ، نذكر مثالاً واحداً على ذلك ، فيما ذهب إليه تشارلز آدمز Charles , C , Adams ، بأن لإمام محمد عبده (ت عام ١٩٠٥ م) وهو من كبار المفكرين المحدثين في

---

[1] المصدر السابق - صـ ١٢ ، ١٣ .

[2] للمزيد - دكتور / جورج زيناتي - الفلسفة الغربية كمؤشر حضاري (بحث منشور بمجلة الفكر العربي والفلسفة) - صـ ٢٤٨ - العدد (٤١) - ط معهد الإنماء العربي ببيروت عام ١٩٨٦ .

الثقافة الإسلامية والعربية " لم يدخر وسعاً ولم يغفل توثيق العلاقة بين العقل والدين ، في شرحه للتصورات الإسلامية للعقيدة الدينية ، التي محصت نواحي التطور المختلفة ، وأعطت غذاءً روحياً للمذاهب الأخرى ، واعتبر أن العقيدة إحدى علامات الرقي الإنساني ، تلك التي تعمل على عدم التطرف ، وتساعد العقل على تحقيق العدالة والتعادل الصحيح " (١)

ومما لا شك أن هذا التعادل وفقدان المثل الأخلاقية والروحية وهو ما يمثل جوهر الحضارة وما يجب أن تقوم عليه ، هو ما يطالب به فلاسفة الحضارة في العصر الحديث والمعاصر .

* ونعطي بعض الأفكار والنماذج حول الحضارة ، وعوائقها وطريقة لسعي لإنقاذها من حالات التدهور ، وغير [illegible] فيما يتصوره فلاسفة الحضارة الحديثة والمعاصرة .

يذهب أشفيتسر ، بعدما وضح جوهر الحضارة الأخلاقية ، وطابعها المثالي الروحي ، ومحاولة التوازن بين الجانبين الأخلاقي والمثالي الروحاني وبين التقدم المادي والتطور الذاتي الإنساني ، ومستقبل هذه الحضارة الحديثة والمعاصرة إلى بحث عوائق الحضارة في حياتنا الروحية والاقتصادية ورأى أن ذلك يرجع إلى أن الإنسان الحديث أصبح في وضع غير متحرر فيه اقتصادياً ، كما أنه مرهق بالعمل وغير قادر على الخلو بنفسه ، يضاف إلى ذلك ان هذا الإنسان الحديث في حاله تخلف وضعف وتنقصه الإنسانية والاستقلال الروحي .

ويؤمن بأن الحرية المادية يجب أن ترتبط بالحرية الروحية ارتباطاً وثيقاً وإلى جانب ذلك يفتقر الإنسان إلى حرية التفكير والتركيز العقلي ، مما يؤدي إلى خطر أن يفقد إنسانيته وعلى ذلك لا يجب أن ينمو التنظيم الخارجي على حساب الحياة الروحية .

لقد ضاع الإنسان الحديث في الجمهور على نحو لم يسبق له نظير في التاريخ ، فتضاءل اهتمامه بطبيعته الخاصة ، وأصبح خاضعاً للتأثيرات الخارجية .

إن تنازل الإنسان عن حقوقه الأساسية جعلت الجنس البشري غير قادر على إنتاج أفكار جديدة ولا على جعل الأفكار صالحة لتحقيق أهداف جديدة تخدم الإنسان ، كما أن الاتجاه العام الذي جعل الأغلبية تتنازل عن حق امتياز التفكير الحر ، تفكير الأحرار ، أدى بهم إلى أن تركوا كل شيء لأولئك الذين يرأسن مختلف العصبيات والجماعات ، ولا سبيل إلى إعادة الحرية الروحية إلا إذا عادت الأغلبية من الأفراد إلى أن يكونوا أحراراً روحياً

[١] Charles , C , Adams , Islam and Modernism in Egypt , P , ١٢٧ , OXford university press Humphery , Landon , ١٩٣٣ .

مستقلين معتمدين على أنفسهم ، واكتشفوا علاقاتهم الطبيعية الصحيحة بالمنظمات التي اشتبكت نفوسهم في أحابيلها .

وينتهي أشفيتسر إلى أن اضطراب العلاقة بين الفرد والمجتمع لم تقتصر على ميدان العقل والفكر فقط ، بل شملت ميدان الأخلاق فيستلهم الإرادة وما يره المجموع أو الجمهور ، فيستحسن ما يستحسنه الجمهور ويقبح ما يقبحه . [١]

وينتهي إلى أن الحضارة طابعها الجوهري أخلاقي ، وبهذا تستطيع الحضارة أن تسلك طريقة التطور ، وتبتعد عن أي معوقات حضارية أخرى . [٢]

* لكن ما الطريقة إلى إعادة بناء الحضارة ؟

يتجه أشفيتسر إلى مناقشة المثل العليا الأخلاقية والروحية ، والتي أضحت عاجزة عن النهوض بالمستوى الحضاري لأسباب كثير من المعوقات السالف ذكرها ، رغم أهميتها وضروراتها للحضارة الحديثة والمعاصرة ، ثم يشير إلى عملية الصعود والهبوط في تاريخ الحضارة ، بما يذكرنا بنظرية المفكر العربي المسلم عبد الرحمن بن خلدون ١٤٠٦ م ، في نشأة الممالك وتطور الدول وحضاراتها ثم تدهورها وزوالها [٣] إذ رأى أن أعراض الانحلال هي أعراض الشيخوخة ، لأن الحضارة شأنها شأن أية عملية نمو لابد أن تبلغ نهايتها بعد مرور فترة معينة من الزمن ، ولابد أن نعترف بأن ظاهرة الانحلال ترجع لأسباب طبيعية ، ولأسباب أخلاقية أيضاً ، ولإعادة البناء الحضاري من ضرورة النهوض بالإصلاح للنظم ، والتعديل المستمر للقوانين بما يتلاءم مع طبيعة التطورات الحضارية المستمرة ، وإصلاح المعتقدات والاهتمام بالفرد بوصفه العامل الوحيد والرئيسي في تجديد الحضارة ومقاومة الصعوبات التي تفترض تجديد الحضارة ، ويرى ضرورة إعادة النظر في عناصر الحضارة القديمة في الحضارة اليونانية والرومانية في الماضي والتي لا تزال تحدث آثارها الروحية حتى أيامنا بالإضافة إلى أن أفكارنا الدينية تخضع لسيطرة أجنبية ، هي سيطرة النزعة المتعالية اليهودية ، والميتافيزيقية اليونانية ، إن عصر النهضة وعصر التنوير في أوروبا كان خلقاً طبيعياً للحضارة اليونانية والرومانية وثبت أن الحضارة المتجددة سوف تنبثق وتستقر محل هذه الحضارة المستهلكة ، فلابد إذن من إعادة البناء للفرد ، وحريته الروحية والاقتصادية ، وعدم فقده للإنسانية وصناعة الدعاوى التي تخلع التعصب

---

[١] أشفيتسر - قصة الحضارة - صـ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ .
[٢] المصدر السابق - صـ ٣٤ .
[٣] ابن خلدون - المقدمة - صـ ١٧٢ ، ١٧٣ .

الوطني الذميم ، ويحل محل ذلك الوطنية النبيلة ، التي تهدف إلى غاية جديرة بالإنسانية الماضية والحاضرة ، ولابد أن نجعل الروح توطد إيماننا وثقتنا بالدولة المتحضرة ، بغض النظر قليلاً عن ما لحق بدولتنا الحديثة من تحطم بسبب الحروب والأزمات الاقتصادية .

ولأجل إعادة البناء الحضاري علينا أن نفهم موقف رجال الانحلال الحضاري الروماني المتأخر ، والذين وقفوا مكتوفي الأيدي لا يقدرون على المقاومة ، فانسحبوا داخل نفوسهم وتركوا الحياة لمصيرها ، واعتقادهم بأن الحياة لكي تكون محتملة يجب على الفرد أن يعيش يومه ، ولا راحة للفرد إلا أن ينشد السلام والأمن في الإنشلام [1] ، لذا يجب مقاومة هذه الدعاوى ، والاعتقاد الراسخ في أنه لا يمكن إعادة بناء الحضارة إلا بيقظة روحية ، وإرادة للخير الأخلاقي في جماهير الإنسانية . [2]

وكلمة أخيرة قبل نختم هذه الجزء وهي أن فلاسفة الحضارة في العصر الحديث أو المعاصر . درسوا وتعلموا أصول وعناصر الحضارات الإنسانية وقيمها الروحية والأخلاقية ، ونوازع الحروب والصراعات المختلفة . ورأوا أن الطريق إلى بناء حضارة لابد وأن يعتمد على عناصر أساسية أهمها [النظرة إلى الكون والطبيعة ومدى ارتباط ذلك بالمثل الأخلاقية والروح الدينية والصوفية وضرورة تحكيم النزعة العقلية التي يمكن أن تلعب دوراً هاماً في التوازن والتعادلية الحضارية كما أن النظرة إلى العالم وبعث الحضارة تقوم على التفكير والنزعة العقلية والروحية وإصلاح حال الفرد ، والنظم والقوانين بما يلائم حرية الفرد والإرادة الأخلاقية الخيرة ، والتفكير في معنى الحياة .]

---

[1] هذه النظرية (الاستسلام) بسبب اليأس من حصول الفرد في ظل الدولة الرومانية على حريته ، وانسحابه إلى داخله لكي ينشد الطمانينة الذاتية والحرية الداخلية بدلاً من تلك التي افتقدها في المجتمع الخارجي ، قالت بها الرواقية في المعهد الهللينستي - راجع دكتور عبد الرحمن بدوي - خريف الفكر اليوناني - صـ ١٢٥ .

[2] أشفيتسر - فلسفة الحضارة - صـ ٥٤ وحتى صـ ٦٦ .

خاتمة : نتائج البحث

تناولنا خلال هذه البحث بالتحليل والنقد والمقارنة : دراسة تاريخ الفلسفة وتطور التفكير الفلسفي والحضاري عبر العصور ومن خلال الشخصيات الفكرية والعلمية المختلفة بما يمثل طريقة علمية جديدة كمدخل لدراسة الصلة الوثيقة بين الفلسفة والحضارة ، ولإظهار المزج الفلسفي والحضاري عبر التطورات الثقافية والحضارية المختلفة ، وقد خرجنا بالكثير من الحقائق والنتائج الهامة .

كالآتي :

١ ـ هناك صلة وثيقة بين الفلسفة والحضارة على مر العصور والتطورات الحضارية والثقافية المختلفة ، كما كانت هناك صلة وثيقة بين التفكير الفلسفي والتفكير العلمي وتواصل هذه الصلة بين الفلسفة والقيم الخلقية الدينية والاجتماعية والسياسية ، وكلما ازدهر التفكير الفلسفي في عصر من العصور يواكبه ازدهار حضاري وثقافي ، وقد شهدنا تدهور الحضارات كلما توقفت الفلسفة واختفى التأمل الفلسفي وتدهورت جذوة الفلسفة وانسحبت إلى الداخل ، لذلك لعبت الفلسفة دوراً كبيراً في ازدهار حضارة الإغريق واليونان في العصر الهلليني الأول ، وصار للهلينية اليونانية السيطرة الثقافية والحضارية في حوض البحر المتوسط بعد فتح الإسكندر الأكبر لبلاد الشرق ومصر ، بينما حدث نوع من التدهور الحضاري على أثر انغماس التفكير في داخل الفرد واتجه إلى البحث فيما يحقق للإنسان السعادة المادية واللذة الحسية والحرية الداخلية في العصر الهللينستي ، وأصبحت الفلسفة تعني الحرية الداخلية ، والفضيلة هي أن يعيش الفرد وفق الطبيعة وقوانينها وقد حدث ذلك في العصور الوسطى عندما أصبحت الفلسفة خادمة للدين في ظل سيطرة الكهنوت الكنسي ، ثم مالبث أن ازدهر التفكير الفلسفي منذ بدايات عصر النهضة والفلسفة الحديثة وواكب ذلك تطور في التفكير العلمي والاكتشافات الحديثة . وينطبق ذلك على حضارات الشرق القديم ومصر ، والحضارة الإسلامية والعربية كذلك ، إذ شهدت هذه الحضارات ازدهاراً فائقاً عندما ازدهرت الفلسفة ، وصار للتفكير العقلي والعلمي والفلسفي السيادة والتداخل في شتى نواحي الإنسانية ، وتداخل مع عناصر الحضارة في اللغة والأدب والأخلاق والدين والسياسة والنظم الاجتماعية الأخرى .

٢ ـ تموت الحضارة وتتدهور ، كلما تدهورت الفلسفة وخمدت جذوة التفكير الفلسفي والعقلي ، إذ أن للفلسفة دوراً هاماً في الحفاظ على المكونات والعناصر الحضارية وتطويرها ،

والارتفاع بمعنى الإنسانية والحية والضمير ، فكما أن الفلسفة بمعناها الاصطلاحي هي البحث عن طبائع الأشياء وحقائقها ، فإنها متداخلة في أعماق الإنسان ومكونات الحضارة الإنسانية ، والحفاظ عليها والتأكيد على المثل الأخلاقية والدينية والروحية ، والتنبيه إلى حرية الفرد ، وعدم استهلاكه في الآلة في الحياة المادية ، فالحضارة ليست تقدماً وازدهاراً مادياً تكنولوجياً فقط بل جوهرها الحقيقي الأخلاق ، والمثل ، والروح والتأكيد على ماهية الإنسانية داخل الإنسان ، وفي ذلك ضمان وصمام الأمان ضد تدهور الإنسانية والدخول في حروب مدمرة كما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وما تشهده الإنسانية الآن من حروب إقليمية مدمرة أيضاً مع ضياع الأخلاق والقيم الدينية والروحية الخالصة والتي خلق الإنسان من أجلها وخدمتها وتنميتها .

٣ - الاتصال بين التفكير العلمي والتفكير الفلسفي ظل قائماً في عصور الحضارات المختلفة ، مهما حدث من بعض الاتجاهات الانفصالية المحدودة بعصور أو مذاهب معينة وشهدنا ذلك الاتصال العلمي والحضاري عند اليونان ، وعند الشرقيين القدماء وبلاد الرافدين ومصر وعند الإسلاميين والعرب وحتى عصر النهضة الحديث ، وقد شهدنا حضارات عريقة عبر العصور تواكب التفكير الفلسفي والعلمي في حضارات بلاد الرافدين بابل وأشور وفارس والصين والهند ومصر ، كذلك حوض البحر المتوسط عند اليونان ، والمسلمين العرب بغض النظر قليلاً عن الصور الوسطى ، إلا أن عصر النهضة يعتبر البدايات الأولى للتطور الفلسفي والعلمي والحضاري حتى العصر الحديث .

٤ - لقد تناولنا من خلال منهج دراسة الأفكار (أو علم الأفكار) تحليل أهم مباحث الفلسفة ، والتفكير الفلسفي في الوجود (الأنطولوجيا) والمعرفة (الأبستمولوجيا) والقيم (الأكسيولوجيا) وأظهرنا ما يتواصل مع هذه المباحث من منظورات حضارية وأثر التفكير الفلسفي في تطوير وتقييم المذاهب الفلسفية المختلفة ، يضاف إلى ذلك تداخل الفلسفة في دراسة العلوم الإنسانية الأخرى مثل التاريخ والسياسة والاجتماع ، وما يتعلق بهذه العلوم من نظريات وأفكار فلسفية وحضارية وأهم الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في بلورة التفكير الفلسفي والحضاري حتى العصر الحديث والمعاصر .

٥ - استطعنا من خلال هذا البحث أن نتناول بالتحليل والبحث والمقارنة جوانب التفكير الفلسفي في العصر الحديث والمعاصر من حيث المقدمات والتطورات والمذاهب والشخصيات وأعطينا لكل مذهب عدة أمثلة وعرضنا لأهم الشخصيات الفكرية والفلسفية

الحديثة والمعاصرة مثل : الفلسفة الحسية التجريبية ، والفلسفة العقلية والنقدية ، ثم التيارات والمذاهب المعاصرة مثل مذهب الظاهريات الوجودية والبرجماتية والوضعية المنطقية وغير ذلك واضعين في اعتبارنا المردود الحضاري والثقافي لهذه المذاهب الفلسفية .

٦ ـ تناولنا فلسفة الحضارة الإنسانية من خلال بعض البحوث والدراسات عند عدد من فلاسفة الحضارة والمؤرخين لها من الأوربيين والمفكرين العرب من أمثال أشفيتسر ، وهوكنج ، أشبنجلر ، وأرنولد توينبي ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وقد اتضح أن الحضارة مثل كائن حي عضوي لها أدوار في النمو والنشأة والاكتمال ثم دور التدهور وأهمها كما حددها أشفيتسر وابن خلدون ضياع القيم الأخلاقية ، والمثل الروحية العليا ، وضياع القيم الدينية وتدهور الإيمان ، والاستغراق في المادة والانخداع بالتقدم المادي فقط وفقدان التوازن القيمي والأخلاقي والمادي ، الأمر الذي ترتب عليه فقدان الفرد والأشخاص لحريتهم وإرادتهم الخيرة ، وانسجامهم إلى داخلهم واعتبار الفرد مستهلك في الآلة المادية فقط وسيطرة النظم والقوانين الوضعية على حياة الفرد والمجتمع .

بالإضافة إلى مسايرة الفرد أو الأفراد لمعايير السلطة الحاكمة فيرى الأفراد أو الفرد ما تراه السلطة الحاكمة ، ويرفض ما ترفضه دون تمحيص أو تمييز بين الصالح والأصلح وغير ذلك .

٧ ـ وضحنا المقومات الحضارية السليمة والتي يمكن أن تقوم عليها أسس الحضارة الإنسانية في المستقبل كما حددها فلاسفة الحضارة وبصفة خالصة ألبرت أشفيتسر وتوينبي وابن خلدون ، وأهمها : الدين والأخلاق ، والقيم الإنسانية العليا ، وضمان حرية الفرد وإرادته الخيرة ، وعدم استهلاكه في الحياة العملية والمادية وإحداث التوازن ، وقد ضربنا مثلاً رائعاً من الحضارة الإسلامية وهي : الوسطية والاعتدال امتثالاً لما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ـ " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا " سورة البقرة آية (١٤٣)

وآخر دعوانا " أن الحمد لله رب العالمين "

قائمة بالمصادر والمراجع العربية والإنجليزية

أولاً : قائمة بالمصادر والمراجع العربية :-

١ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ـ ط دار القلم ببيروت ١٩٨٤ .

٢ ـ ابن رشد (الوليد) : فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ تحقيق دكتور محمد عمارة ـ ط دار المعارف ١٩٨٣ م .

٣ ـ " " " : تهافت التهافت ـ تحقيق دكتور سليمان دنيا ـ ـ ط دار المعارف ١٩٨٠م .

٤ ـ ابن سينا (الشيخ الرئيس) : تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ـ ط بمباي ١٨٨١ م .

٥ ـ " " " : كتاب الشفاء ـ تحقيق إبراهيم مدكور ط دار المعارف القاهرة .

٦ ـ أبو ريان (دكتور محمد علي) : تاريخ الفلسفة اليونانية جـ ١ ط دار النهضة العربية ١٩٧٦ م .

٧ ـ " " " : تاريخ الفلسفة اليونانية ، جـ ٢ (أرسطو والمدارس المتأخرة) ط دار الجامعات المصرية ١٩٨١ م .

٨ ـ " " " : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ ط دار الجامعات المصرية ١٩٧٢ م .

٩ ـ " " " : دراسات في الفن والجمال ـ ط دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧ م .

١٠ ـ " " " : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ط ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٧٣ م .

١١ ـ أبو قحف (دكتور محمد محمود) : مدرسة الإسكندرية الفلسفية (بين الفلسفة والدين) ط دار الوفاء الإسكندرية عام ٢٠٠٤ م .

١٢ ـ " " " : التصوف الإسلامي خصائصه ومذاهبه ـ ط المكتبة القومية الحديثة بطنطا ١٩٩٢ م .

١٣ ـ " " " : التفكير الفلسفي في الإسلام (من المشرق إلى المغرب العربي) ـ ط المكتبة القومية الحديثة طنطا ٢٠٠٥ م .

١٤ ـ " " " : مذاهب التفكير العلمي والفلسفي في الفكر العربي الحديث والمعاصر ـ ط دار الحضارة بطنطا ٢٠٠١ م .

١٥ ـ أحمد أبو زيد (دكتور) : مقدمة كتاب ما وراء التاريخ (وليم هاولز) ط دار النهضة مصر ، ومؤسسة فرانكلين القاهرة ـ نيويورك ـ مارس ١٩٦٥ م .

١٦ـ " " " : الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا (بحث منشور ضمن كتابات في الحضارة ـ مجلة عالم الفكر ـ مجلد (١) عدد (٣) ديسمبر ١٩٨٤ م .

١٧ ـ أحمد فؤاد الأهواني (دكتور) : مقدمة وتعليق على كتاب ظهر الإسلام ط مكتبة دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٢ م .

١٨ ـ أحمد امين : سلسلة : فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام في أجزاء ـ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨١ م .

١٩ ـ أحمد شلبي (دكتور) : أديان الهند الكبرى ـ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤ م .

٢٠ ـ أحمد الشامي (دكتور) : الحضارة الإسلامية ـ ط دار الهداية القاهرة ١٩٩٩ م .

٢١ ـ أحمد محمود صبحي (دكتور) : في فلسفة التاريخ ط مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٩ م .

٢٢ ـ أخوان الصفاء : رسائل أخوان الصفاء ـ تحقيق خيري الزركلي ط بيروت عام ١٩٢٧ م .

٢٣ ـ أرسطو : كتاب السياسة ـ ترجمة لطفي السيد ط لجنة التأليف القاهرة بدون تاريخ .

٢٤ ـ إسحق عبيد (دكتور) : معرفة الماضي من (هيرادوت إلى توينبي) ط القاهرة .

٢٥ ـ أشفيتسر (ألبرت) : فلسفة الحضارة ـ ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي ، مراجعة دكتور زكي نجيب محمود ط المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣ م .

٢٦ ـ أفلاطون : محاورة الجمهورية ـ ترجمة حنا خباز ـ ط دار القلم بيروت ١٩٨١م .

٢٧ـ " " " : محاورة فيداروس ـ ترجمة دكتورة أميرة حلمي مطر ـ ط دار المعارف بمصر .

٢٨ـ " " " : مجموعة محاورات ـ أطفيرون ـ الدفاع أفريطون ـ ترجمة وتعليق وتقديم دكتور زكي نجيب محمود ط لجمة التأليف القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٩ـ " " " : محاورة القوانين ـ ترجمة وتقديم دكتور حسن ظاظا ـ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦ م .

٣٠ ـ محاورة فيدون (أو عن النفس) تحقيق وتقديم وتعليق دكتور نجيب بلدي ، دكتور على سامي النشار ـ ط منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٦١ م.

٣١ـ " " " : محاورة تيتانينوس (العلم) ترجمة دكتورة أميرة حلمي مطر ـ ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ م .

٣٢ ـ إمام عبد الفتاح إمام (دكتور) : مدخل إلى الفلسفة ـ ط دار الثقافة للطباعة القاهرة ١٩٨٥ م .
٣٣ ـ إميل بترروا : كانط (الترنسندنتالية عند كانط) ترجمة دكتور عثمان أمين ـ ط الأنجلو المصرية القاهرة حديثة بدون تاريخ .
٣٤ ـ أرنولد توينبي: تاريخ الحضارة الهللينية ـ ترجمة رمزي جرجس ـ مراجعة دكتور صقر خفاجة ، ط مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٣ م.
٣٥ ـ ارنولد توينبي : الفكر التاريخي (من هومير حتى عصر هيراكليس) ـ ترجمة لمعي المطبعي مراجعة الدكتور صقر خفاجة ، ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦ م .
٣٦ ـ آمنة نصير (دكتورة) : حوار الحضارات من أجل الإنسان ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ٢٠٠٥ م .
٣٧ ـ إميل بريهيه : الآراء الدينية لفيلون السكندري ـ ترجمة دكتور محمد يوسف موسى ، دكتور عبد الحليم لنجار ـ ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٥ م .
٣٨ ـ " " " : تاريخ الفلسفة الهللينستية الرومانية ، ترجمة جورج طرابيش ـ ط دار الطليع بيروت ١٩٨٨ م .
٣٩ ـ أمين سلامة : الإلياذة لهوميروس ـ ط دار الفكر العربي القاهرة ١٩٧٧ م .
٤٠ ـ أميرة حلمي مطر (دكتورة) : دراسات في الفلسفة اليونانية ، ط دار الثقافة للطباعة القاهرة١٩٨٠ م .
٤١ ـ " " " : الفلسفة عند اليونان ـ ط دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨٥ م .
٤٢ ـ أفلوطين : التاسوعات (٤ ، ٦ ، ٨) ترجمة يوسف كرم ملحق بكتاب (تاريخ الفلسفة اليونانية) جـ ٢ (ارسطو والمدارس المتأخرة) ط دار الجامعات المصرية ١٩٨١ م .
٤٣ ـ أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة (نشأتها وتطورها) ، ترجمة دكتور عبد المنعم أبو بكر ـ ط مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٩٥ م .
٤٤ ـ أوليفر ليمان : فلسفة الدين (بحث منشور ضمن كتاب مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين) ترجمة مصطفى محمد ورمضان البسطوسي ، مجلة عالم المعرفة مارس ٢٠٠٤ م .
٤٥ ـ البغدادي (عبد لقاهر) : الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط دار التراث ـ القاهرة .

٤٦ - التفتازاني (دكتور أبو الوفا) : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ط دار الثقافة للنشر القاهرة ١٩٧٤ م .

٤٧ - توفيق الطويل (دكتور) : أسس الفلسفة ، ط دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ م

٤٨ - " " " : مذهب المنفعة العامة ، ط دار النهضة المصرية ، ١٩٥٣ م .

٤٩ - توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، ط دار المعارف المصرية ١٩٨٠ م .

٥٠ - جلال موسى (دكتور) : مناهج البحث العلمي عند علماء العرب ، ط دار الكتاب - بيروت ١٩٧٢ م .

٥١ - جورج سارتون : تاريخ العلم جـ ١ ، جـ ٢ ترجمة مجموعة من العلماء ، دكتور إبراهيم مدكور - ط در المعارف ١٩٧٦ م .

٥٢ - جون باول : الفكر السياسي الغربي ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .

٥٣ - جيرارد ليفنجسون : فلسفة اللغة (مقال منشور بمجلة عالم المعرفة- مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين) ترجمة رمضان البسطويس وآخر ، مارس ٢٠٠٤ م .

٥٤ - جورج زيناتي: الفلسفة الغربية كمؤشر حضاري (بحث منشور ضمن مجلة عالم الفكر العربي والفلسفة - عدد (٤١) ط معهد الإنماء العربي - بيروت ١٩٨٦م .

٥٥ - حسن إبراهيم (دكتور) : تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني (في مصر والمغرب والأندلس) أربعة أجزاء ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ م .

٥٦ - حسن شحاتة سعفان (دكتور) : ابن خلدون (بحث منشور ضمن كتاب أعلام الفكر الإنساني جـ ١ ط الهيئة العامة للكتاب - ١٩٨٤ م .

٥٧ - حسن حنفي (دكتور) : متى تموت الفلسفة ومتى تحيا ؟ بحث منشور ضمن كتابات في الحضارة) مجلة عالم الفكر - الكويت ديسمبر ١٩٨٤ م .

٥٨ - ديكارت : مقال عن المنهج - ترجمة دكتور محمود الخضيري ط القاهرة .

٥٩ - " " " : مبادئ الفلسفة - ترجمة دكتور عثمان أمين ، ط دار الثقافة القاهرة ١٩٥٩ م .

٦٠ - رابوبرت (أ ، س) :مبادئ الفلسفة - ترجمة أحمد أمين ، ط مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٠ .

٦١ - رأفت غنيمي الشيخ (دكتور) : فلسفة التاريخ - ط دار الثقافة للنشر القاهرة ١٩٨٨ م .

٦٢ - ديموند : الفنون الإسلامية - ترجمة أحمد عيسى - مراجعة دكتور أحمد فخري ، ط دار المعارف ١٩٥٣ م .
٦٣ - رمضان ابو السعود (دكتور) : الوسيط في شرح مقدمة القانون المدني ، ط ١٩٨١ م
٦٤ - راوية عبد المنعم (دكتورة) : القيم الجمالية - ط دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٧ م .
٦٥ - ريكس وورنر : فلاسفة الإغريق - ترجمة عبد الحميد سليم ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .
٦٦ - " " " : محاورة مينون لأفلاطون (ملحق بكتاب فلاسفة الإغريق) ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ م .
٦٧ : ذكريا إبراهيم (دكتور) : دراسات على محاورة الجمهورية لأفلاطون) ط دار القيم بيروت ١٩٦٧ م .
٦٨ - زكي نجيب محمود (دكتور) : نافذة على فلسفة العصر ، ط مجلة العربي عدد (٢٧) ١٩٩٠ م .
٦٩ - " " " : المنطق الوضعي ط دار الثقافة القاهرة .
٧٠ - " " " : وأحمد أمين :قصة الفلسفة الحديثة ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٣٦ م .
٧١ - " " " : قصة الفلسفة اليونانية - ط لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٣٥ م .
٧٢ - " " " : مقدمة وتعليق على كتاب أعلام الفلاسفة لهنري توماس ، ط دار النهضة العربية ١٩٦٢ م .
٧٣ - زينب الخضيري (دكتورة) : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، ط دار الثقافة للنشر القاهرة ١٩٩١ م .
٧٤ - الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز الوكيل - ط الحلبي القاهرة ١٩٦٧ م .
٧٥ - صلاح قنصوه (دكتور) : الموضوعية في العلوم الإنسانية ، ط دار التنوير - بيروت ١٩٨٣ م .
٧٦ - " " " : نظرية القيمة في الفكر المعاصر - ط دار الثقافة ١٩٨١ م .
٧٧ - " " " : فلسفة العلوم ، ط دار الثقافة القاهرة .
٧٨ - " " " : الغزو الثقافي وحوار الحضارات - مجلة عالم المنار ، عدد (٣١) ١٩٨٧ م .

٧٩ - طه بدوي (دكتور) : علم السياسة ط المكتب العربي الحديث عام ١٩٦٥ م .

٨٠ - عبد الحميد زايد (دكتور) : متى وأين بدأت الحضارة (هل من الضروري إعادة النظر في تاريخ ما قبل التاريخ الأوربي) بحث منشور ضمن كتابات في الحضارة) مجلة عالم الفكر الكويت - ديسمبر ١٩٨٤ م .

٨١ - عبد الحليم منتصر (دكتور) : تاريخ العلم ، ودور العلماء العرب في تقدمه ، ط دار المعارف ١٩٦٩ م .

٨٢ - عبد الرحمن بدوي (دكتور) : أشبنجلر - ط الأنجلو المصرية ١٩٤١ م .

٨٣ - " " " : خريف الفكر اليوناني - ط دار القلم ببيروت ١٩٧٩ م .

٨٤ - " " " : صيف الفكر اليوناني (ملحق بكتاب أفلاطون) ط دار القلم ببيروت ١٩٧٦ م .

٨٥ - " " " : أفلاطون - ط دار القلم بيروت ١٩٧٦ م .

٨٦ - " " " : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (الهوامش) ط دار القلم بيروت ١٩٨٤ م .

٨٧ - عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ط بولاق ١٨٨١ م .

٨٨ - عبد العزيز أحمد جودة (دكتور) : تاريخ الفنون - ط دار الفنون القاهرة بدون تاريخ .

٨٩ - عبد الغفار مكاوي (دكتور) : مدرسة الحكمة - ط دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ م .

٩٠ - " " " : لما الفلسفة ؟ - ط منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨١ م .

٩١ - عبد الكريم أحمد (دكتور) : تاريخ النظرية السياسية (ط معهد البحوث والدراسات العربية) جامع الدول العربية عام ١٩٦١ م .

٩٢ - عثمان أمين (دكتور) - ديكارت - ط الأنجلو القاهرة .

٩٣ - عزمي إسلام (دكتور) : في فلسفة العلوم الإنسانية (بحث منشور ضمن كتابات في الحضارة ؛ مجلة عالم الفكر الكويت ديسمبر ١٩٨٤ م .

٩٤ - علي عبد المعطي (دكتور) " ليبنتز فيلسوف الذرة الروحية ، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٢ م .

٩٥ - " " " : بوزانكيت قمة المثالية في إنجلترا - ط دار المعارف ١٩٧٣ م .

٩٦ - الغزالي (الإمام أبو حامد حجة الإسلام) ، ميزان العمل ، ط الجندي ١٩٧٣ م .

٩٧ ـ " " " : المنقذ من الضلال ـ ط الجندي ١٩٧٢ .

٩٨ ـ " " " : إحياء علوم الدين ، ط الشعب بدون تاريخ .

٩٩ ـ " " " : روح القدس ، ط الجندي ١٩٧٣ م .

١٠٠ ـ " " " : الحكمة في مخلوقات الله عز وجل ، ط الجندي ١٩٧١ م .

١٠١ ـ ف بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ـ ط دار المعارف ١٩٧٧ م .

١٠٢ ـ الفارابي : (أبو النصر) : آراء أهل المدينة الفاضلة تحقيق وتعليق ودراسة دكتور علي عبد الواحد وافي ط ١٩٨٤ م .

١٠٣ ـ الفيومي (دكتور محمد) : التطور التاريخي لمعنى الفلسفة ، ط الأنجلو المصرية ١٩٧٩ م .

١٠٤ ـ فوستر : أساتذة الفكر السياسي ـ ط القاهرة بدون تاريخ .

١٠٥ ـ قباري إسماعيل (دكتور) : علم الاجتماع والفلسفة ، في (نظرية المعرفة) ط دار الطلبة العرب بيروت ١٩٦٨ م .

١٠٦ ـ " " " : قضايا علم لأخلاق ـ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ م .

١٠٧ ـ " " " : علم الاجتماع والفلسفة (الأخلاق والدين) ، ط دار الكاتب العربي للطباعة ١٩٦٧ م .

١٠٨ ـ كاثرين ويلسون : تاريخ الفلسفة الحديثة (بحث منشور ضمن كتاب مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين) ترجمة مصطفى محمد ودكتور رمضان البسطويس ط الكويت مارس ٢٠٠٤ م .

١٠٩ ـ كرين برينتون : تشكيل العقل الحديث ـ ترجمة شوقي جلال ط ـ الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠١ م .

١١٠ ـ كمال جعفر (دكتور) : في الدين المقارن ـ مطبعة كلية دار العلوم القاهرة ١٩٧٦ م .

١١١ ـ الكندي (ابو يعقوب) : مجموعة رسائل فلسفية (في الفلسفة الأولى ، والموسيقى .. إلخ) تحقيق دكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧ م .

١١٢ ـ لطفي عبد الوهاب (دكتور) : اليونان ـ مقدمة في التاريخ الحضاري ط دار المعرفة الجامعية بدون تاريخ .

١١٣ـ " " " وآخرون : التاريخ اليوناني والروماني ، ط وزارة التربية والتعليم ١٩٨٢ م .

١١٤ـ محمد ثابت الفندي (دكتور) : مع الفيلسوف ، ط النهضة العربية ١٩٨٠ م .

١١٥ـ " " " : فلسفة الرياضة ـ بدون تاريخ .

١١٦ـ محمد عبد الهادي أبو ريدة (دكتور) : إبراهيم بن سيار النظام ـ ط لجنة التأليف القاهرة ١٩٤٧ م .

١١٧ـ محمد مهران (دكتور) : في فلسفة العلوم ومناهج البحث ـ مطبعة سعيد رأفت ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٨ م .

١١٨ـ محمود فهمي زيدان (دكتور) : مناهج البحث الفلسفي ـ بيروت .

١١٩ـ محمود سيد أحمد (دكتور) الحضارة والدين عند هوكنج ـ ط دار الحضارة بطنطا ١٩٩٤ م .

١٢٠ـ مصطفى شاهين (دكتور) : علم الاجتماع الديني ـ ط دار التراث القاهرة ١٩٩١ م .

١٢١ـ مصطفى عبد الرازق (الإمام الأكبر) : التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ط القاهرة ١٩٤٤ م .

١٢٢ـ مصطفى النشار (دكتور) : فلاسفة أيقظوا العالم ، ط دار الثقافة للنشر القاهرة ١٩٨٨ م .

١٢٣ـ ماكس مايرهوف (دكتور ـ مستشرق) : من الإسكندرية إلى بغداد (بحث منشور ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي ط دار القلم بيروت ١٩٨٥ م .

١٢٤ـ موسكاتي (سيتينو) : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة دكتور عبد المنعم ابو بكر ، ط دار الرقي بيروت ١٩٨٦ م .

١٢٥ـ موسى (سانت هـ) : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ـ ط المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

١٢٦ـ النشار (دكتور علي سامي) : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١ م .

١٢٧ـ " " " : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ ١ ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ م .

١٢٨ ـ " " " : طبقات المعتزلة ـ منشأة المعارف ١٩٧٢م .

١٢٩ ـ نجيب بلدي (دكتور) : تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية ـ ط دار المعارف ١٩٦١ م

١٣٠ ـ نوال الصايغ (دكتورة) : المعجم في الفكر الفلسفي ، ط دار الفكر العربي ١٩٨٢ م .

١٣١ ـ نيفين علم الدين (دكتورة) : فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ م .

١٣٢ ـ هنري توماس : أعلام الفلاسفة وكيف نفهمهم ؟ ترجمة متري أمين ، مراجعة وتعليق دكتور زكي نجيب محمود ، ط دار النهضة المصرية ١٩٦٢ م .

١٣٣ ـ هيدجر (مارتن) : ما الفلسفة ؟ ما الميتافيزيقا ؟ ، ترجمة فؤاد كامل ، محمود رجب ، ط دار الثقافة القاهرة .

١٣٤ ـ ول ديورانت : قصة الفلسفة (من افلاطون إلى جون ديوي) ترجمة فتح الله محمد المشعشع ، ط مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٢ م .

١٣٥ ـ " " " : قصة الحضارة ، ترجمة محمد فتح الله بدران (جـ ١ الشرق الأدنى ، والشرق الأقصى) ط جامعة الدول العربية ١٩٧١ م .

١٣٦ ـ ولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ط دار الثقافة القاهرة ١٩٨٤ م .

١٣٧ ـ وليم هاولز : ما وراء التاريخ ـ ترجمة دكتور : أحمد أبو زيد ـ ط دار النهضة مصر ، فرانكلين القاهرة نيويورك ، ١٩٦٥ م

١٣٨ ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ ط دار المعارف ١٩٧٩ .

١٣٩ ـ يوسف كرم " تاريخ الفلسفة اليونانية " ط بيروت بدون تاريخ .

١٤٠ ـ يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، ط دار القلم بيروت ١٩٨٤ م .

ثانيا : المصادر الأجنبية :-

١- Brian Davies , Introduction to the philosophy of Religion , Ox ford university , press , ١٩٩٣ .

٢- Charles , C , Adams , Islam and Modernism in Egypt , Ox ford university , press , Humphery , Landon , ١٩٣٣ .

٣- Durkhiem , sociology and philosophy Trans , by Pacok , Landon , ١٩٥٣ .

٤- Encyclapeadia of Britannica , Art Value , ١٩٢٥ .

٥- Hegel , Lectures and the History of philosophy , Landon , ١٩٥٥ .

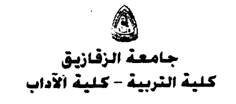
٦- Hocking , Preface philosophy Macmillan , Comp , ١٩٤٦ .

٧- Hocking , The word coming Civilization , New York , ١٩٥٦ .

٨- Thomas Marrie , God and philosophers Reconciliation of Faith and Reason , New York , Ox ford university , press , ١٩٩٤ .

٩- Tylar , Primitive Culture , Researches into development of Mythology philosophy , Religion , Language Art , and Custom , vol , ١ , ١٨٧١ .

فهرس الموضوعات



جامعة الزقازيق
كلية التربية - كلية الآداب

ملحق بكتاب " مدخل إلى الفلسفة "

الفلسفة والحضارة
مدخل إلي التفكير الفلسفي
من العصور القديمة حتى العصر الحديث

يتضمن :

١. أهداف الدراسة في إطار تطبيق معايير الضمان والجودة.
٢. أسئلة واختبارات تطبيقية .
٣. تقييم عام وشامل لكل فصل من الموضوعات الدراسية.
٤. تقييم ذاتي وشخصي إلي الطالب وتشجيع الباحثين لإبداء الرآى حول الدراسات الواردة .
٥. إبراز قدرة الباحث والطالب علي التحليل والنقد.

(الفصل الأول)

[وعي الفلسفة بطبيعة التفكير الفلسفي والتفكير العلمي]

[إختبارات وتمارين تربوية وتطبيقية]

أسم الطالب :   الفرقة:

اسم الكلية :   رقم الجلوس :

في إطار تطبيق معايير الجودة التعليمية والإفادة التربوية :-

(أجب :- وحلل الموضوعات الآتية بما لا يزيد عن صفحتين)

س١: الوعي الفلسفي بطبيعة الحياة العلمية والعملية [القيم والضمير الإنساني - الوجود المؤلم] .

س٢: الصلة بين التفكير الفلسفي والتفكير العلمي ؟

س٣: فلسفة العلوم - أهميتها وموضوعاتها ؟

س٤: الغايات الحضارية في التفكير الفلسفي ؟

[اختبارات وتمارين تطبيقية (عملية وتربوية)]
علي الفصل الثاني
التفكير الفلسفي وأثره بين الحضارات الشرقية واليونانية والغربية

اسم الطالب :　　　　　　　　الفرقة :

اسم الكليـــة :　　　　　　　　رقم الجلوس :

تمارين تطبيقية علي دراستك لهذا الفصل فيما لا يزيد عن صفحتين

س١ : تناول بالتحليل نشأة وتطور التفكير الفلسفي بين الشعوب والحضارات ؟

س٢ : تناول بالتقييم الجوانب الفكرية والفنية في هذه الدراسة ؟

اختبارات تطبيقية وتمارين عملية وتربوية
على الفصل الثالث

مباحث الفلسفة

اسم الطالب الفرقة

اسم الكلية رقم الجلوس

يجيب الطالب فيما لا يزيد عن صفحتين

س١ تناول بالتحليل والتقييم الاتجاهات المادية والعقلانية والروحية في بحث الوجود

س٢ عبر عن تصورك الذاتي فيما يتعلق بطبيعة القيم وأنواعها

الحق الخير الجمال

س٣ وضح رأيك فيما يتعلق بالصلة بين الفلسفة والعلوم الإنسانية؟

أسئلة واختبارات وتمارين
تطبيقية على الفصل الرابع عن
الفلسفة الحديثة والمعاصرة

اسم الطالب　　　　　　　　　　الفرقة

اسم الكلية　　　　　　　　　　رقم الجلوس

يجيب الطالب عن هذه التمارين فيما لا يزيد عن صفحتين فقط

س١ : تناول بالتقييم أهم عناصر التفكير الفلسفي والاتجاهات المنهجية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ؟

س٢ : وضح رأيك العلمي والعملي فيما يتعلق بالتيارات المذهبية التجريبية والبرجمانية في الفلسفة الحديثة أو المعاصرة ؟

س٣ : قيم هذا الفصل من وجهة نظرك الفكرية والذاتية ؟

أسئلة تطبيقية وتمارين عملية وتربوية وعملية

الفصل الخامس

فلسفة الحضارة

اسم الطالب　　　　　　　　　　الفرقة

اسم الكلية　　　　　　　　　　رقم الجلوس

الإجابات والتقييم الذاتي والعلمي فيما لا يزيد عن صفحتين فقط

س١ : تناول بالتحليل والتقييم فلسفة الحضارة الإنسانية وأراء الباحثين؟

س٢ : وضح أهمية الفلسفة والتفكير الفلسفي بالنسبة لتطور ونشأة الحضارة الإنسانية والحفاظ على القيم والمبادىء الإنسانية والدينية ؟

س٣ : قيم هذا الفصل ووضح رأيك الشخصي والعلمي؟

رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٠٦/٢٠٤٩٨